ديوان
محمد إقبال

إعداد
سيد عبد الماجد الغوري

الجزء الأول



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى رائدِ الأدبِ الإسلاميِّ

العلّامة أبي الحسن علي الحسني النّدوي

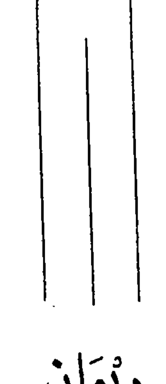
(رحمهُ اللهُ تعالى)

الّذي يرجعُ إليهِ فضلٌ كبيرٌ في تعريفِ

محمد إقبال

بينَ العربِ خلالَ كتاباتِهِ ومحاضراتِهِ
كشاعرٍ لهُ عقيدةٌ ودعوةٌ ورسالةٌ
وكمفكّرٍ عاشَ بالإسلامِ ولهُ
مُنوّهًا بما كانَ لهُ في الماضي، ومُتألّمًا بما آلَ إليهِ في الحاضرِ
وكداعيةٍ إلى المجدِ الإسلاميِّ، وسيادةِ المسلمِ
وكأعظمِ ثائرٍ على هذهِ الحضارةِ الغربيّةِ المادّيّةِ
وأكبرِ ناقدٍ لها وحاقدٍ عليها.

عبد الماجد الغوري




دیوان
محمد اقبال



الطبعة الثالثة

1428 هـ ـ 2007 م

دار ابن كثير

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : أدب - الشعر

العنوان : ديوان محمد إقبال 2/1

الإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

نوع الورق : شاموا

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 1112

القياس : 17×24

نوع التجليد : كرتونيه

الوزن : 2 كغ

التنفيذ الطباعي : مطبعة ipex - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت



دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

مقدمة الدّيوان

الحمد لله والصّلاة والسلام على رسول الله .

وبعد : فقد خدمت شبهُ القارة الهندية الإنسانَ والعلمَ والحكمةَ والمعرفةَ والفلسفةَ والأدبَ والفنَّ طول التاريخ ، وأنجبتْ من الأمم والحضَارات والنَّاس والرِّجال والأعلام ما يكادُ يعجز العدّ والإحصاء والحصر عن الإحاطة به .

وكانت البداية المعروفة للشعر الأردوئي في هذه البلاد منذ سنة ١٤٥٠م ، وقد برز واشتهر خلال تلك الفترات الطِّوال مئات الشعراء ، أعرضُ هنا أسماء بعضهم على سبيل المثال ، ومن أشهرهم : ميرزا أسد الله غالب أحد أكبر شعراء الأردوية ، وله دواوين مطبوعة بالفارسية والأردوية ، والنواب ميرزا خان داغ ، أحد فحول شعراء الأردوية ، كان أستاذاً للنظام السادس « محبوب علي خان آصفجاه » أمير حيدرآباد (دكن) ، نال عدة ألقاب من الدولة ، وله دواوين مطبوعة ، وغيرهما هناك شعراء مشهورون كأنيس ، ودبير ، وحالي ، وأكبر إله آبادي ، وأمجد الحَيْدَرآبادي ، وهؤلاء الشعراء الذين يُعدُّ شعرهم بالأدب الأردوئي حجة ، ويُستشهد بها فيه . فهناك من هؤلاء الشعراء المذكورين مثل : داغ ، وأنيس ، ودبير ، قالوا مرثيات تحتوي على خمسمئة مسدَّس ، أو ستمئة مسدّس ، وكلُّ مسدَّس يحتوي على ثلاثة أبيات ، واللغة الأردوية بعد هذا لغة استوعبتْ كلَّ المعاني والأوصاف الجميلة ، وعلم الفلسفة والتصوّف ، وقيل فيها شعر المراثي والتشبيب والغزل ، كما أُلّف بها القصص والروايات ، وقد ظهر من أدباء هذه اللغة رجال فحول ، أمثال : محمّد حُسين آزاد ، والعلاّمة شبلي النُّعماني ، وعبد الحليم شَرَرْ ، ومولانا أبي الكلام آزاد ، وأحمد علي أَمَرْتَسْرِي ، ونِيَاز فَتَحْفُورِي ، والأستاذ أَخْتَر عليّ ، وقَيْس غَازِي فُورِي ، والشيخ حَسَن النِّظَامي ، والشيخ عبد الماجِد الدَّرْيابَادِي ، وحَيْدَر طَبَاطَبَائي وغيرهم كثيرون .

ولكن لم تُنجب اللغة الأردوية شاعراً وأديباً كمحمَّد إقبال يتّسِم شعره بسهولة الأسلوب ، ووُضوح العبارة ، وقوّة المعاني ، وسرعة التأثير ، وكذلك لا يُعرف اليوم شاعرٌ من بين شعراء هذه اللغة طُبعتْ دواوينُه مئات المرات غير محمد إقبال ، وقد جاء في إحدى المقالات التي قُرِئَتْ في مهرجان إقبال المئوي المنعقد في مدينة « لاهور » تحت إشراف حُكومة باكستان عام ١٩٧٧م ، أنّ عَدد ما صَدَرَ عن محمد إقبال مِن الكتب

والرسائل في لغات العالم المختلفة ، قد بلغ ألفين (٢٠٠٠)[١]، ما بَين كتاب ورسالةٍ ، هذا عدا ما نُشِرَ عنه مِن البحوث والمقالات، ومَا أُلقِي من أحاديث ومحاضرات في مجالات مختلفة وحفلات أدبية في فترات متقطعة ومناسبات مختلفة ، وبذلك فاقَ محمد إقبال كبار شعراء العالم كـ« شكسبير » الإنجليزي ، و« دانتي » الإيطالي ، و « طاغور » الهندي ، فلم يكتب عن أحد مِعْشار مَا كُتِبَ عنه ، وفي كل سنة يصدرُ فيض من البحوث والمقالات في الجامعات ، والمجامع العلمية ، والنَّوادي الأدبية ، ولا يزال في مدّ وزِيادة دون توقُّفٍ، وتتصاعدُ درجةً درجةً في سبيل التوصُّل لاستيعاب أفكار محمّد إقبال وإدراكها .

وقد رُزِقَ محمَّد إقبال من الاحترام والتقدير أنَّ ملايين المسلمين في هذه البلاد ـ الهند وباكستان ـ يعتقدون فيه ما تعتقده الأمةُ في المُرشِد المُلهَم ، والباحِث المُتحرِّر ، والقَائد الرَّائد ، والمفكِّر المُصلِح ، والفيلسوف المنقذ ، والسياسِيّ الموجِّه ، ولم يُرزَق مثل هذا الاحترام والتقدير أحدٌ من أعلام مسلمي شبه القارة قبل في القرن العشرين لا في الهند فحسب بل في جميع العالم الإسلامي والعربي ، باستثناء الإمام المحدِّث الفقيه الشيخ عبد الحيّ اللكنوي في أوائل القرن ، والعلامة الإمام المفكِّر الداعية الأديب الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ في أواخر القرن ـ رحمهما الله تعالى ـ .

وقد خلَّف شاعرُنا العظيم خمسةَ دواوين باللغة الفارسية وأربعةَ بالأردوية ، وقد آثر الفارسية أولًا لأنها أوسع من الأردوية ، وهي اللغة الإسلامية التي تَلي اللغة العربية في الأهمية والانتشار في العالم الإسلامي ، ويشتمل هذا المجموع الكبير من شعره على أُلوف المعاني الأصلية ، والأفكار الجديدة ، والمضامين البديعة ، الذي هو في الحقيقة تُراث شعريّ عظيم في الأدب الفارسي والأردوني . أعرِّف هنا بجميع تلك الدواوين بالاختصار .

أما الدَّواوين الفارسية فمنها :

(١) ـ الأَسرار والرُّموز (أسرار خُودي ورُموز بيخودي)

يُعدُّ هذا الديوان مِن باكورة أعمال محمد إقبال الشعرية بالفارسية ، وهو يفرد فيه فكرة الذاتية ، فيدعو إلى وُجوب دعم الذَّات حتى تقوى وتعد نفسها لكفاحِ دائمٍ مُتواصلٍ لا يعرف أناةً ولا هدوءاً ، وفي نظره أن الجهاد الدَّائب هو حافظ الحياة ، وأن الجهاد في سبيل المقصد أعظم لذَّة مِن بُلوغه ، ويصرح فيه بأنَّ الأقوام المغلوبة هي التي خدعت الأقوام الغالبة عن نفسها ، وزيَّنت لها فكرة نفي الذَّات ، وسواء في منظومته « أسرار إثبات

(١) روائع إقبال للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، صفحة (٨) ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

الذَّات » أو في « أسرار نفي الذَّات » لهذا الديوان أو في سائر أشعار إقبال . . . إننا نجد فكرة الذَّاتية مبثوثة أحياناً ومجملة أحياناً أخرى ، ومفصلةً حيناً ، وأحياناً صريحةً وأخرى ضمنيةً .

(٢) رِسالة الشَّرق (پيام مشرق)

طُبع هذا الديوان أول مرَّة عام ١٩٢٣م ، وقدَّمه الشاعر على أنه شعر الفارسية الكامل ، لأنه قدَّم إلى اللغة الفارسية مجموعة مِن الأشعار تحتوي على مختلف أقسام الشعر الفارسي مِن الغَزل والرُّباعي والقطع والمثنويّ وغيرها ، ويُصادِفنا في هذا الديوان الشعر الأخلاقي والحركات السياسية والاجتماعية لذلك الوقت ، والديوان روضة من الشعر تختلف أزهارها ونوارها ، وضُروب النبات فيها ، وألوان وصُنوف الرَّيحان فيها ، ورَوائحه جمعت أشتات الزهر مِن المشرق والمغرب .

(٣) زبور العجم (زبور عجم)

هذا الديوان مجموعة نفيسة من المنظومات الفارسية ، يُعدُّ من أجود شعر محمد إقبال الفارسي ، وقَصَدَ الشاعرُ من تلك المنظومات غرسَ الروح الجديدة في العالم ، ولا سيَّما في أوساط الشباب وشعوب الشرق ، ويتجلَّى فيه إبداع الشاعر ، وكمال فنِّه ، وحُسن سبكِه ، ومحكم رصفِه ، وبديع وصفِه .

(٤) هدية الحِجاز (أرمغان حجاز)

هذا الديوان عبارة عن الشعر الفارسي والأردوئي معاً ، ويتألَّف مِن قصائد قصيرة ، أكثرها شخصية ، فيه قصيدة بديعة بعنوان « برلمان إبليس » وصَفَ فيها الشاعرُ وصوَّر جنسة برلمانيةً ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي ، وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها « إبليس » ، وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسية وزعمائها ، ما يُفيد الاطلاع عليه ، وقد طُبع هذا الديوان بعد وفاة الشاعِر .

(٥) رِسالة الخُلود (جاويدنامه)

يُعدُّ هذا الديوان التحفة الأدبية لمحمد إقبال ، وهو عبارة عن شعر مثنويٍّ للفلسفة الدينية ، ويحتوي على نحو ألفي مقطع شعري مزدوج ، وإنه يبرز قوى الشاعر الفكرية وذراها الرفيعة ، وفيه تورية إلى « جاويد » نجل الشاعر ، وفي هذا الديوان قصة سفرٍ في الأفلاك كقصة دانتي الشاعر الإيطالي .

(٦) مَاذا يَنبغي أن نصنع يا أُمم الشَّرق ؟ (بس چه بايد كرد » أي أقوام مشرق ؟)

هذا آخِر ما نظمه الشاعر بالفارسية ، ومنظومات هذا الديوان في جملتها رائعة بليغة ، نَفَثَها الشاعرُ حِين ملأتْ أحوالُ المسلمين فُؤَادَه أَسى عليهم ، وحَزَّ به ما رَأى مِن فُنون الحضارة الأوربية وضلالها وجور ساستها ، وقسوة قادتها ، وعدوانهم على الأمَّة الضعيفة ، ويُوصِي الشاعرُ في هذا الديوان وينصح الأممَ الشرقية بإقامة الروابط الاقتصادية والثقافية فيها بينهم ، وبيَّن لهم أن الوقوف في وجه السياسة الاستعمارية بأشكالها المختلفة المتعددة ، والعودة إلى أحكام الإسلام وإطاعة الأوامر القرآنية هو الطريق الوحيد للنجاة .

وأما دواوينه الأردوية فهي :

(٧) صَلْصَلة الجَرس (بانك درا)

هذا من باكورة أعماله الشعرية بالأردوية ، وهو مِن أكثر دواوينه رواجاً وقِراءةً اليوم ، فيه قصائد بديعة عن الأطفال والحبِّ والطبيعة ، كما أنَّه حثَّ المسلمين فيه على التضحية والعمل ، لكي يستعيدوا منزلتهم مِن المجد والرفعة ، ومن أروع وأجمل القصائد وأناشيدِ هذا الديوان قصيدته المشهورة « شكوى وجواب شكوى » ونشيد بعنوان « نشيد المسلم » .

(٨) جَناح جبريل (بال جبريل)

لا يُوجد في الأدب الأردوئي ما يُمكن مقارنته بهذا الديوان مِن حيث العُمق وسِعة المطلب والبيان ، يحكي فيه الشاعر خواطره الخاصة عن أسفاره إلى إسبانيا وفلسطين ، وبكاءه على أطلال قرطاجنة وغيرها من الآثار الإسلامية التاريخية ، وما يلفت النظر في هذا الديوان هو الجزء الخاص منه عن المحاورة بين الشاعر وجلال الدين الرومي ، ويوضح لنا هذا الحوار أهم عقائد وأفكار محمد إقبال .

(٩) ضربُ الكليم (ضرب كليم)

يتعلَّق هذا الديوان بالعصر الحديث ومُشكلاته ، ويبيِّن وِجهةَ النظر السياسية لمحمد إقبال ، والديوان كلُّه مفصَّل على أبواب فيها نظرات في الإسلام ، والتربية ، والمرأة ، والفنون الجميلة ، وغيرها ، وفيه فلسفة محمّد إقبال واضحة ظاهرة في أشعار معيَّنة في موضوعات محدَّدة .

(١٠) هدية الحِجاز (أرمغان حجاز)

قد سبق تعريف هذا الديوان آنفاً ، يحتوي القسم الثاني منه على قصائد بديعة ورباعيات قصيرة بالأردوية .

وقد تُرجمت جميع هذه الدواوين إلى اللغة العربية كترجمتها باللُّغات العالمية الراقية ، وقد نجح مترجِمُو هذه الدواوين بالعربية من الناحية الفنية إلى حدٍّ بعيدٍ ، ولكن القارىء النَّبيه الفَطن قد يُلاحِظ أن هذه الأشعار المترجمة تكاد لا تُؤثِّر في نفسه تأثير الشعر الرقيق ، ولا تُعطي صورةً كاملةً واضحةً ، ويغلب عليها رونق اللفظ على عمق المعنى ، بحيث تغيبُ المعاني التي أَرادها الشاعرُ في غَيَاهِبِ الألفاظ المنمقة والمصاريعِ الشعرية المركزة . وشعر محمد إقبال في اللغة الفارسية والأردوية على السواء شعر يركِّز المعنى الواسع في عبارات مُوجزة هي أشبه بالكلمات القِصار التي يسهل حفظها وتداوُلها على الألسن ، فإذا ما ترجمنا هذا الشعر إلى شعر عربي يفضل الإيجاز على الإطناب والإسهاب ، فإننا نزيد من تركيز الشعر بشيءٍ مِن الغُموض ، يذهب بتأثير الشعر وروعته .

ونحن لا نريد بهذا أن نغض مِن شأن المُترجمين لهذه الدواوين ، خاصةً منهم الذين عُرِفوا بعلو الهِمَّة وجودة القريحة والإخلاص والمثابرة ، كالدكتور عبد الوهاب عزام ، وإنما نريد أن نقول : إن ترجمات الدكتور عزام ـ وأمثاله المترجمين لهذه الدواوين ـ الشعرية لم تفصح عما يكنه شعر محمد إقبال مِن أسرار ولم تعبر عن قيمته الحقيقية التي تتفق مع الشهرة الذائعة التي أُتيحتْ له .

ولعلّ هذا هو ما دفع الأديب العربي الكبير العلاَّمة علي الطنطاوي أن يوجِّه نداء إلى العلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمهما الله رحمة واسعةً ـ في مجلة « المسلمون »[1] في كلمة رقيقة مخلصة يحثّه فيها على ترجمة بعض قصائد محمد إقبال ليعرِّف بهذا الرجل وقوة شاعريته وسموّ رسالته ، يقول في كتابٍ مفتوحٍ موجَّهٍ إلى العلامة الندوي : « **هل لك أن تختار مِن شعر إقبال ما يجعلنا نتذوَّق طعمَ أدبه ونلمّ بطريقته ، وتتجلّى أسباب عظمته ، فإن كلَّ ما قرأنا مِن كلامه مترجَماً إلى العربية لم يعرفنا به ، ولم يدلُّنا عليه . . . فهل تُضيف يا أخي أبا الحسن ! إلى مآثرك هذه المأثرة فتفتح للعرب كوة على هذه الروضة المحجبة ، أو تحمل إليهم زهرات منه فتحسن بذلك إلى العرب وباكستان ، وإلى الأدب والإسلام** »[2] .

وجاء العلامةُ الندوي واقتصر في الترجمة والنقل على الدواوين التي لم يتناولها الدكتور عزام بالتعريب ، وكان للديوان « جناح جبريل » أكبر نصيب ممَّا تَرْجَمَه العلاَّمة الندوي في كتابه الذي سمَّاه « روائع إقبال » فهكذا كان كِتابه هذا ـ رغم صغر حجمه ـ

---

(١) التي كانت تصدر يومئذ من دمشق .
(٢) انظر : « روائع إقبال » للعلامة الندوي ، صفحة (٢٢ ـ ٢٣) .

إضافةً جديدةً للمكتبة العربية بكل ما في هذه الكلمة مِن معنى ، فقد استطاع ـ رحمه الله ـ في براعة وبصيرة أن يختار من دواوين محمد إقبال مقتطفات في نثر سهلٍ ميسورٍ على تمكُّنه من اللُّغتينِ العربية والفارسية ، وكانت أكبر شهادة بأن كاتبه (العلامة الندوي) كان التوفيق حليفه في فهم شعر محمد إقبال والإنصاف له في شهادة الدكتور جاويد إقبال (نجل محمد إقبال الفاضل الذي أسمى باسمه أحد دواوينه ، هو « جاويدنامه » (رسالة الخلود) ، فقد قال بعد اطلاعه على « روائع إقبال » : « **ولقد عرض مؤلف هذا الكِتاب جوانب مختلفة من فكر محمد إقبال في أسلوبٍ أكبر ظني أنه يُوافِق محمد إقبال نفسه ، أو كان يؤثره لشرح أفكاره** »[1].

ولكن إن كان المُترجمونَ لهذه الدواوين قد جانَبَهُم التوفيق ـ إلى حدٍّ ما ـ في تراجمهم لها بالشعر ، فقد استطاعَ الشيخ صاوي شعلان ـ رحمه الله ـ بما حَبَاه اللهُ مِن شاعرية متدفقة ، وروحٍ إسلامية حقة ، أن يفصح عن المعاني التي أرادها محمد إقبال ، كأنَّه أُلهِمَها هو في شعرٍ يهتزُّ له الوجدان ، ولعلّ أوضح دليلٍ له في هذا الديوان الذي بين أيديكم في ترجمة القصيدتين : « نشيد المسلم » و« شكوى وجواب شكوى » اللَّتان هبَّتا هبوب الريح ، وطارتا في الآفاق ، ولا أرى مجازفةً في القول إذا قلتُ : إن محمد إقبال اشتهر في البلاد العربية بهاتين القصيدتين أكثر مما كتب غيرهما ، وقد لا يعرف الكثير من إخواننا العرب أن له غير هاتين القصيدتين قصائد ودَواوين ، ولعلَّه بسبب عدم توفُّر هذه الدَّواوين في المكتبات العربية كونها مترجمة ومطبوعة هُنا وهُناك ، وكثير من تلك الدواوين لَمْ تَصْدر له طبعة بعد الطبعة الأولى ، حتى كادتْ أن تصبح شيئاً منسياً ، فكانت هناك حاجة إلى جمع جميع تلك الدواوين في كتاب أو ديوان واحد مما يسهل الاطلاع عليه على من أراده .

والعمل في جمع تلك الدواوين مع الضبط والتنقيح والتحقيق بالرُّجوع إلى أُصولها الفارسية والأردوية ، وشرح بعض الكلمات الصعبة الواردة في الترجمة ، والتعليق على ما دعتْ الضرورةُ إلى التعليق فيها ، كان يتطلّبُ الجهد الكبير والتفرّغ التَّام ، فبدأت بالعمل فيه دون تقدير بالفراغ منه ، حتى يسَّرهُ اللهُ عليّ بمُساعدة بعض أصدقائي الذين وفَّروا لي بعض الدواوين المطبوعة في البلاد العربية المختلفة ؛ التي كانت في مكتبات بلادنا عديمة الوجود .

هذه سعادة ناطقي لغة الضَّاد بأنهم يتناولون هذه الدواوين كلها بالقراءة في كتاب

---

(١) « روائع إقبال » صفحة (١١) .

واحد ، التي تستحيل لناطقي الفارسية والأردوية ؛ كون تلك الدواوين منظوم بعضها بالفارسية وبعضها بالأردوية إلّا مَن تمكَّن من هاتين اللُّغتين كلَّ التمكُّن ، وألمَّ بهما كلَّ الإلمام .

أسأل اللهُ تبارك وتعالى أن يقبل هذا الجهد المتواضع ، ويبلِّغ نداء الشاعر العظيم ورسالته كل من يسمع ويعي ، إنه سميع مجيب .

يوم الجمعة ١٢/ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ
٣١/ آب (أغسطس) ٢٠٠١م

كتبه
المعتز بالله تعالى

عبدالماجدالغوري

حيدرآباد (دكن)



محمَّد إقبال

عند رجال الفكر والدّعوة ، وأساطين العلم والأدب

« . . إنَّ إقبالاً هو طراز العظمة الّذي يتطلبه الشرق في الوقت الحاضر ، وفي كلِّ حين ؛ لأنها عظمةٌ ليست بالدنيويَّة المادِّيَّة ، وعظمة ليست بالأخروية المعرضة عن هذه الدنيا ، وهو زعيم العمل بين العدوتينْ من الدنيا والآخرة قوَّام بين العالمين كأحسن ما يكون القوَّام ! . . . . » .

الأستاذ عباس محمود العقاد

« شاعران إسلاميان رفعا مجد الآداب الإسلاميَّة إلى الذروة ، وفرضا هذا المجد الأدبيَّ الإسلاميَّ على الزمان ، أحدهما إقبال شاعر الهند والباكستان وثانيهما أبو العلاء شاعر العرب » .

الدكتور طه حسين

« لا أعرف كشعر إقبال ، معرفاً بالحياة ، داعياً إليها ، معظماً الإنسان ، مشيداً بمكانته في هذا العالم ، نافثاً الأمل ، والهمة ، والإقدام في نفوس الناس . . . »

الدكتور عبد الوهاب عزَّام

« . . . . فقد طلع هذا الرجل على العالم الإسلاميِّ ، وعلى العالم كلِّه بفلسفةٍ جديدةٍ صاغها شعراً ، فإذا هي تهزُّ المشاعر والقلوب ، وإذا هي تُثير كثيرين من عظماء العالم ، فينظرون نظرات إعجابٍ إلى هذا المسلم الَّذي وُلد في الهند ، ونشأ بين أهلها ، ثمَّ أعلن على الناس فلسفةً شعريةً سائغةً لا تتفق مع الفلسفة الهندية في شيء . . . »

الدكتور محمد حسين هيكل

« . . . فإذا كان حسَّان شاعر الرَّسول ، فإنَّ إقبالاً شاعر الرسالة ، وإذا كان لحسان من نازعه شرف الدفاع عن المحمَّدية ، وشتان بين من يمجد الداعي الأكبر عن عصبية ، ومن يمجد الدَّعوة الكبرى عن عقيدة ، وإذا كان في الشعراء الصوفيِّين من عطَّر مجالس الذكر بفضائل الإسلام ، وشمائل النبوة ، فليس فيهم من بلغَ مبلغ إقبال في فقه الشريعة ، وعلم

الحقيقة ، والتأمُّل الفلسفي في كتاب الله ، والنظر العلمي في كلام الرسول ، والجمع بين قديم الشرق وجديد الغرب في قوة تمييز ، وسلامة فهم ، وصحة حكم . . . » .

الأستاذ أحمد حسن الزيَّات

« . . . إني أحببته ، وشغلت به كشاعر « الطموح ، والحبِّ ، والإيمان » ، وكشاعر له عقيدةٌ ، ودعوةٌ ، ورسالةٌ ، وكأعظم ثائرٍ على هذه الحضارة الغربية المادية ، وأعظم ناقدٍ لها ، وحاقدٍ عليها ، وكداعيةٍ إلى المجد الإسلامي ، وسيادة المسلم ، ومن أكبر المحاربين للوطنية ، والقومية الضيقتين ، وأعظم الدُّعاة إلى النزعة الإنسانية ، والجامعة الإسلاميَّة . . »

« . . . إن جلّ ما أعتقده أنَّ إقبالاً شاعرٌ أنطقه اللهُ ببعض الحكم والحقائق في هذا العصر ، أنطقه اللهُ الذي أنطق كلّ شيء ، أنطقه كما أنطق الشعراء ، والحكماء ، قبل عصره ، وفي غير عصره . . . » .

« . . . أشهد على نفسي أنّي كلما قرأتُ شعره جاش خاطري ، وثارت عواطفي ، وشعرتُ بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي للحماسة الإسلامية في عروقي ، وتلك قيمة شعره ، وأدبه في نظري . . . » .

العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي

« . . . كِدْتُ أتوافق أنا ومحمد إقبال في المعاني ، وربَّما توافقنا في الألفاظ . . . » .

الشهيد سيد قطب

« . . . ولم أر شاعراً يتصوَّر للمسلم صورةً مثاليةً عاليةً كتلك الصُّورة التي يرسمها إقبال في مواضع كثيرةٍ من شعره ، إنَّه يصوِّر المسلم حيناً كأنَّه ماء في رقَّته ، وحديد في شدَّته يهزأ بالصعاب ، ويعلو على التراب ، ويسري مع الأفلاك ، ويجري مع الأملاك . . » .

الدكتور أحمد الشرباصي

« . . . وإقبال لم يرد للشعر أن يكون فلسفةً محضةً ، فنقله بذلك من رياض الزهر ، وهمسات النسائم وغفوة النجوم والأفلاك إلى مجالس الجدل ، وصوامع السفسطة ، والخوض وراء الغيبيات التي لا طائل تحتها . . لكنه يُريد للشعر أن يمتزج بألوان الفكر ، وصادق النظرات ، وحقائق الوجود ، وكنه الكائنات ، وأن يُناجي النسائم ، ويصقل العقول ، ويسطر وثائق التحرير والكفاح ويحكم في قضايا الناس والمدنيات . إنَّ (إقبالاً) ينشد مزج الخيال برحيق الحقائق والتقاء العقليات مع العاطفيات . . . » .

الأستاذ نجيب الكيلاني

« لم يهتم شاعرٌ غير عربي قبل محمد إقبال بأمجاد العرب والإسلام اهتمامه بهما، فهو الَّذي فتح الباب على مصراعيه في هذا المجال أمام الَّذين عاصروه ومن جاء بعده من الشعراء .

تكلَّم عن مجد العروبة ، وأثر الإسلام في رقيِّ الأمم ، وتناول قضايا عربية بحتةً ، مثل قضية فلسطين ، وسجَّل أمجاد العرب في صقلية ، وقرطبة ، ونعى على العرب تفرقهم ، ووجَّه إليهم في دواوينه أكثر من خطاب . . . » .

الشيخ صاوي شعلان

« وكان أعظمُ ما أدهشني رفضَ إقبالٍ أن يدخلَ مسجدَ باريس ، ومقالته : إن هذا المسجد ثمنٌ رخيصٌ لتدمير دمشق .

فلولا أنَّ الرجلَ كان يعيشُ في حقيقة صريحة ، وفي ذكرٍ دائم لا ينقطع لِمَا نزل بنا وطمَّ ، لمَا خطر له هذا الخاطر .

وكم من غافلٍ ساهٍ منَّا ومن قومنا يعرض له أن يحيا تاريخ نفسه وتاريخ دينه بمثل هذه الكلمة ؛ ثم لا تراه إلا حيث يكره الله من الذلِّ والضَّعَةِ والعبوديةِ ، والفتنةِ بما زيَّن له أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ » .

العلاَّمة محمود محمد شاكر

« إقبال عاش مع الهموم التي كان يتقلَّب فيها الإنسان في شتَّى أطراف المعمورة ، لا سيما الإنسان المسلم ، كان يعلم مشكلات الرأسمالية ، ومشكلة الظلم ، ويعلم المشكلات الاقتصادية ، ويعلم المشكلات السياسية ، ويعلم مشكلات الاستعباد والاضطهاد ، كان يعلم ذلك كلَّه . ولكن محمد إقبال زاد على ذلك أنَّه عثر على المفتاح الَّذي إن استعمله المسلمون وأداروه على وجهه تخلَّصوا من سائر المشكلات الاقتصادية ، وتخلَّصوا من الذُّلِّ ، والاستعباد ، وتخلَّصوا من التفرُّق والتمزُّق ، فتضاعفت همومه بسبب ذلك ، فراح يصرخ ويُنادي دائماً :

أيها الناس ! إنَّ مشكلاتكم التي تضجُّون منها حلُّها بيدي ، وهذا هو المفتاح ! فما عليكم إلَّا أن تتعرَّفوا عليه ، ثم تستعملوه على وجهه .

وهذا المعنى الَّذي كان يتكرَّر في شعر إقبال، ويُنادي به من حوله، لا يزال يُنادي به من خلال سائر ما تركه من آثارٍ ، وأشعارٍ مضرجة لا بدموعه بل بدماء قلبه .

ولكن كان ينبه إلى أنَّ سائر ما نراه حولنا من المشكلات إنما هو فروعٌ لمشكلةٍ جذريةٍ

واحدةٍ، هي ضياعنا عن الذات، وذاتنا الحقيقية لا يمكن العثور عليها في شرق ولا غرب، وإنما يمكن أن نعثر عليها بين جوانحنا ، يمكن أن نعثر عليها من خلال إدراك هويتنا » .

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

« شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ـ رحمة الله عليه ـ شاعر ذو مكانة رفيعة بين أقرانه ، وهو نابغة في الفكر والخيال والفلسفة والفنِّ جميعاً ، له آراء حصينة ونظرات عميقة في حياة الإنسان ومكانة المسلم في العالم ، وكلامه في غاية القوة والتأثير يقع في نفس القارىء والسامع موقعاً عظيماً ، ولأفكاره قيمة ، وأهمية كبيرة للعالم الإسلامي والأمة الإسلامية . فكر عالمي ، وعقلية نابغة ، ودراسة عميقة تفاعلت في نفسه خلال حياته التي قضاها في الشرق والغرب في مجتمعات وأوساط مختلفة يبحث في الفلسفات والمدنيات والاتجاهات للأمم المختلفة ، القديمة منها والحديثة » .

الأستاذ محمد الرَّابع الحسني النَّدوي
(رئيس جامعة ندوة العلماء ـ الهند)

« عُرِفَ (محمد إقبال) بفيلسوف الشرق الإسلامي ؛ الذي درس الحياة ، والكون ، والإنسان دراسةً واعيةً عميقةً من خلال كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فقام كشاعرٍ ثائرٍ على الأوضاع الفاسدة ، يُدافع عن الإسلام وتعاليمه بكلِّ ما أوتي من موهبةٍ شعريةٍ ، وقوَّةٍ أدبية ، ويُنادي بالوحدة الإسلامية ، والتضامن الإسلامي بشعره القويِّ الزاخر بالمعاني الغزيرة والمفاهيم العالية كما يقول :

«فليتَّحد المسلمون لصيانة وحراسة الحرم الشريف من سواحل النيل إلى تراب كاشغر» .

وقد تفتَّحتْ قريحتُه الشعرية ، وتفجّرتْ ينابيع الشعر في كيانه ، فما لبث أن قال الشعر الإسلامي في جميع المعاني الإسلاميَّة والإنسانيَّة وتحدَّث فيه عن الإسلام وحضارته التي رآها صالحةً للمجتمعات الإنسانيَّة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وفي كلِّ عصرٍ وجيل ، وأتحف الأوساط الإسلاميَّة كلَّها بشعره الجميل الَّذي تغنَّى به كلُّ قريبٍ وبعيدٍ ، وأعجب به الناس في كلِّ طبقةٍ وبيئة » .

الدكتور سعيد الأَعظمي النَّدوي
(رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي »)




محمد إقبال

حياته - شخصيته - فكره - فلسفته



أسرته وولادته :

وُلد محمد إقبال في مدينة « سيالكوت » (الواقعة في ولاية « بنجاب ») سنة ١٨٧٧م ، وهو سليل بيتٍ معروفٍ من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير ، أسلم جدُّه الأعلى قبل مئتي سنة ، وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصَّلاح والتصوُّف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً ، يغلب عليه التصوف .

نشأته ودراسته :

تعلَّم محمد إقبال في مدرسةٍ إنكليزيةٍ في بلده ، وجاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكليةٍ في ذلك البلد ، حيث تعرف بالأستاذ السيد مير حسن ؛ أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلِّيَّة ، وكان من نوادر المعلمين الذي يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ، فأثَّر في الشابِّ الذَّكي كلَّ تأثير ، وغرس فيه حبَّ الثَّقافة والآداب الإسلامية ، ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

ولما قضى وطره في الكلِّية سافر إلى لاهور ، عاصمة بنجاب ، وانضمَّ إلى كلية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة ، وبرز في اللغة العربية ، والإنكليزية، ونال وسامين ، وأخذ شهادة (B.A.)[(١)] ، بامتياز ، وفي لاهور اتصلت أسبابه بالأستاذ الإنكليزي الشهير « سيرتامس أرنولد » صاحب كتاب « الدَّعوة إلى الإسلام » (The Preaching of Islam) وعميد الكلية الإسلامية في عليكره سابقاً ، وبالأستاذ عبد القادر المحامي والأديب الشهير وقاضي محكمة الاستئناف بعد ، وعضو مجلس الهند سابقاً ، ومنشئ أول مجلَّةٍ علميَّةٍ

---

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الإنكليزي الهندي تعادل ليسانس في البلاد العربية .

أدبيةٍ في لغة أردو ، اسمها « مخزن » وكان إقبال قد نظم قصيدته الأولى البديعة « جبل هماله » وهي فارسية التركيب ، إنجليزية الأفكار ، ونشرها الأستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوي في أندية الشعر والأدب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر المبدع ، وفي هذه المدَّة أخذ محمد إقبال درجة (.M.A)[1] في الفلسفة بامتياز ، ونال وساماً ، وعيِّن على إثره أستاذاً للتاريخ ، والفلسفة ، والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور ، ثم أستاذاً للإنجليزية ، والفلسفة في كلية الحكومة ، التي تخرج منها ، وشهد بكفاءته وغزير علمه الأساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥م حيث التحق بجامعة « كامبردج » وأخذ شهادةً عاليةً في الفلسفة ، وعلم الاقتصاد ، ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضراتٍ في موضوعاتٍ إسلامية أكسبته الشهرة والثقة ، وتولَّى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب أستاذه أرنولد ، ثم سافر إلى ألمانيا ، وأخذ من جامعة « ميونخ » الدكتوراه في الفلسفة ، ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصَّص في المادتين ، ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨م سالماً غانماً ، ولما مر بصقلية في طريقه إلى الهند ، سكب على ترابها دموعاً ، وقال قصيدةً افتتحها بقوله : « ابك أيها الرجل أدمعاً لا دمعاً ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية » .

نبوغه في الشعر :

ومن دواعي العجب أنَّ كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم يتجاوز

---

(١) وهي تعادل « الماجستير » في البلاد العربية .

اثنين وثلاثين عاماً من عمره ، وأقام له أصدقاءه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفلسفي والاقتصادي الخبير ، والسياسي الحاذق في عدَّة لغات بالمحاماة ، لكن ما كان هواه في المحاماة ، فكان يقضي أكثر أوقاته ، وجلُّ همِّه في تأليف الكتب وقرض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الإسلام » السنوية ، وينشد فيها قصائده ، ومنها « العتاب والشكوى » التي اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين ما حلَّ بهم ، وذكر أعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والإصلاح ، ثم نظم قصيدةً أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ، بيَّن فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم للدِّين ، وعدم إتقانهم أمر الدنيا ، تبريراً لما جزوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان ، وتغنَّى بهما الأطفال والشبان ، وحفظهما الرجال والنساء ، وهما عندهم أشهر من « قفا نبك » وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الأسلوب ، والمعاني والغرض ، وقال « النشيد الوطني » و « أنشودة المسلم » وكلاهما سار مسير المثل ، وصار الأول النشيد الوطني الوحيد الذي لا تزال ترتج به الحفلات المشتركة الشعبية في الهند ، والثانية أنشودة المسلم التي تُفتتح بها اجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠م وما يوم حليمة بسرٍّ ، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثر ، جرحت عواطفه وقلبه ، فتحرك ساكنه ، وهاج خاطره ، وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية ، والإمبراطورية الأوربية ، وأملاه حزنه ووجده قصائد كلُّها دموعٌ حارَّةٌ في سبيل المسلمين ، وسهامٌ مسمومةٌ في صدور الأوروبيين ، وتتجلَّى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة ، فمن قصائده « البلاد الإسلامية » رد على الوطنية ، و « دعوة إلى الجامعة الإسلامية » و « يا هلال العيد » و « المسلم » و « فاطمة بنت عبد الله » (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد طرابلس) و « محاصرة أدرنة » و « الصديق » و « بلال » و « الحضارة الحديثة » و « الدين » و « شكوى

إلى الرسول » وقد نعى في هذ القصيدة على الزعماء والقادة ؛ الذين يتزعَّمون المسلمين ، وليست عندهم صلة روحية بالنبي ﷺ ، يقول : « أنا بريء من أولئك الذين يحجُّون إلى أوربة ، ويشدُّون إليها الرحال مرَّةً بعد مرَّة ، ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ، ولا يعرفونك » و « هدية إلى الرسول » وقد قال فيها : « إنَّه حضر عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : ماذا حملت إلينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدُّنيا ، وقال : إنَّها لا تليق بمقامكم الكريم ، ولكنِّي جئت بهدية ، وهي زجاجةٌ يتجلَّى فيها شرف أمتك ، وهو دم شهداء طرابلس » .

ثم انفجر البركان الأوروبي سنة ١٩١٤م ، وحدث ما حدث ، فانقلب الشاعر داعياً مجاهداً ، وحكيماً فيلسوفاً ، يتكهَّن بالأخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، ويشبُّ من حماسته نيراناً ، ويفجِّر إيمانه ، وثقته أنهاراً ، وجاش صدره ، وفاض خاطره ، وسالت قريحته ، وفي تلك المدة نظم غرَّ قصائده منها : « خضر الطريق » وفيها قطع ، ومنها « الشاعر والتجول في الصحراء » و « الحياة » و « الحكومة » و« الرأسمالية » و « الأجير » و « عالم الإسلام » و « طلوع الإسلام » وكلُّها آيةٌ في الشعر ، والحكمة ، والحماسة ، وحقائق الحياة ، أما « طلوع الإسلام » فهي بيت القصيد في شعره ، لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلاميِّ في القوة والانسجام ، وقد طبع سنة ١٩٢٤م أول مجموع شعره باسم « بانك درا » يعني جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً ، وحظي من القبول ما لم يحظ به شاعر ، وأعيد طبعه مراراً بعددٍ كبير .

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته ، وقد ازداد فكره نضجاً ، وأفق معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته ، واتَّضحت رسالته ، فنشر له عدَّة كتب فارسية ، وقد آثر اللغة الفارسية لشعره ؛ لأنها أوسع من الأردية ، وهي اللغة الإسلاميَّة التي تلي اللغة العربية في الأهمية والانتشار في العالم الإسلاميِّ ، ويتكلم بها قطران مهمَّان : إيران ، وأفغانستان ، وتفهم في الهند ، ويحذقها كثير من أهلها ، وأهل تركستان ، وروسيا ، وتركية ، ونشر مجموعتين

بالأردية ، فأما الدواوين الفارسية فهي « أسرار خودي » يعني (أسرار معرفة الذات) و « رموز بيخودي » (أسرار فناء الذات) و « بيام مشرق » (رسالة الشرق) في جواب كتاب « جوته » « تحية الغرب » ، و « زبور عجم » و « جاويد نامه » و « بس جه بايد كرد أي أقوام شرق » (ماذا ينبغي أن تعمله الشعوب الشرقية) و « مسافر » و« أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) وبالأردية « بال جبريل » (جناح جبريل) و « ضرب كليم » (ضرب موسى) ، وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة « مدراس » طبعت باسم :

«Reconstruction of religious Thought in Islam» (تجديد الفكر الديني في الإسلام) .

ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون، وعلماء الفلسفة والدين اعتناءً عظيماً، وعلَّقوا عليها أهميةً كبيرة، وترجم أكثر كتبه إلى الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والطليانية، والروسية، وممن تولى هذا النقل الأستاذ الإنكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم بالإنكليزية « أسرار خودي » و « رموز بيخودي » وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت في سنة ١٩٣٠م في « إله آباد » وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرة ، وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً للمسلمين يمثِّل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ١٩٣٠م ـ ١٩٣١م .

رحلاته :

جاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا ، وإسبانيا ، وإيطاليا ، فزار القطرين الأخيرين ، وألقى في « مجريط » محاضرات في الفن الإسلامي ، وزار مسجد قرطبة ، وصلَّى فيه لأول مرَّة في التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف

على تربته دموعاً غزاراً ، وتذكَّر العرب الأوَّلين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون ، واستنشق في جوه وهوائه أريج حضارتهم ، وشعر كأنَّ هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان ، وظمأه إلى ذلك ، فقال الشعر الرقيق الذي يعدُّ من القطع الأدبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائده .

وكان في زيارته لهذه البلاد موضع حفاوةٍ نادرةٍ ، وإكرامٍ بالغ ، وقابله السنيور موسوليني ، وكان من قراء كتبه ، والمعجبين بفلسفته ، وتحدَّث معه طويلاً ، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال إفريقية ، ولكن الشاعر الإسلامي الغيور رفض دعوتها ، وأبى أيضاً أن يزور جامع باريز ، وقال : إنَّ هذا ثمن بخس لتدمير دمشق وإحراقها ، وأثناء إقامته بأوربة أقيمت له عدَّة حفلات تكريم ، أقامها له أصدقاؤه ، وأساتذته في جامعة كامبردج ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما ، وفي طريقه إلى الهند عرَّج على القدس ، واشترك في المؤتمر الإسلامي الشهير ، وقال في أثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق » .

وفي سنة ١٩٣٢م لبَّى دعوة السلطان الشهير نادر خان ملك أفغانستان في بعثة تتألف من فقيد العلم والشرف سر رأس مسعود حفيد سر أحمد خان ورئيس جامعة عليكره الإسلامية ، والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ، وتحدَّث إليه الملك الفقيد طويلاً ، وأفضى إليه بذات صدره ، وبكيا طويلاً ، ولما زار قبر السلطان محمد الغزنوي فاتح الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه ، وافتضح باكياً ، وقال قصيدةً حكيمةً بديعةً ، وعلى إثر رجوعه من كابل نظم منظومته « مسافر » .

وفاته :

وكان الشاعر يشتكي أدواء يغلبها وتغلبه ، وانحرفت صحته أخيراً ، وظل

أياماً طويلةً رهين الفراش ، ولم يزل لسانه يفيض بالشعر ، ويملي الكتب والمقالات ، ويقابل الأصدقاء ، والزوّار ، والعواد ، ويحادثهم في شؤونٍ إسلاميةٍ وعلميةٍ ، ومما نشر له في هذه الأيام مقالة مستفيضة في الردِّ على القومية ، تناقلتها الصحف ، وتحدَّث بها الناس ، ومما قال قبل وفاته بأيام : « **جنة لأرباب الهمم ، وجنة للعبَّاد والزهاد ، قل للمسلم الهندي : أبشر ، فإنَّ في سبيل الله جنة أيضاً** » وقال قبل وفاته بعشر دقائق : « **ليت شعري ! هل تعود النغمة التي أرسلتها في الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازية ، قد أظلَّني موتي ، وحضرتني الوفاة ، فليت شعري ! هل حكيم يخلفني** . . ؟ » ، وقال وهو يجود بنفسه : « **أنا لا أخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسماً** » ، وكان ذلك آخر برهانٍ أقامه على صدق الإسلام ، وإيمان المسلم ويقينه ، ولفظ نفسه الأخير في حجر خادمه القديم على حين غفلةٍ من العوَّاد ، والأصدقاء ، والتلاميذ ، والإخوان في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارةً ، ونوراً قبل أن تطلع شمس ٢١ أبريل ١٩٣٨م[١] .

آثاره في الشعر والنثر :

بالفارسية

١ ـ أسرار الذات ١٩١٥ (أسرار خودي) .

٢ ـ رموز نفي الذات ١٩١٨ (رموز بيخودي) .

٣ ـ رسالة المشرق ١٩٢٣ (بيام مشرق) .

---

(١) روائع إقبال : للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ٢٨ ـ ٣٧ . طبعة دار ابن كثير .

٤ ـ **أناشيد فارسية** ١٩٢٧ (زبور عجم) .

٥ ـ **رسالة الخلود** ١٩٣٢ (جاويد نامه) .

٦ ـ **المسافر** ١٩٣٦ (مسافر) .

٧ ـ **ماذا ينبغي أن نفعل يا أمم الشرق** ١٩٣٦ (بس جه بايد كرداي أقوام مشرق) .

٨ ـ **هدية الحجاز** ١٩٣٨ (أرمغان حجاز) .

بالأردية :

٩ ـ **صلصة الجرس** أو (جرس سفر القافلة) ١٩٢٤ (بانك درا) .

١٠ ـ **جناح جبريل** ١٩٣٦ (بال جبريل) .

١١ ـ **عصا موسى** ١٩٣٧ (ضرب كليم) .

(ويتعلق ذلك بالربع الأخير من هذا الكتاب) .

١٢ ـ **مراسلات إقبال ومقالاته** (قد طبعت بعد وفاته) .

بالإنكليزية :

تطور ما وراء الطبيعة في فارس (رسالة ميونيخ) ١٩٠٢ .

تجديد الفكر الديني في الإسلام .

(Reconstruction of Religious Thought in Islam)

* * *

العوامل التي كوّنت شخصيته[1]

المدارس الأولى التي تخرج فيها محمد إقبال :

لقد تخرَّج محمد إقبال في مدرستين : أما **المدرسة الأولى** : فهي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلَّب في فصولها ، ودروسها ما بين الهند ، وإنجلترا ، وألمانيا ، ويقرأ على أساتذتها البارعين ، ويرتوي من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الإسلامي في ثقافته الغربية ، أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته ، من فلسفةٍ واجتماع ، وأخلاقٍ واقتصاد ، وسياسةٍ ومدنية غاية ما يمكن لغربيٍّ متخصِّص فضلاً عن شرقيٍّ متطفِّل ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة ، هذا إلى توسعٍ في الآداب الإنكليزية والألمانية والشعر الغربي في مختلف أدواره وعصوره ، ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته .

المدرسة الثانية : ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحدِّ ، واكتفى بثمار هذه المدرسة ؛ لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الأدب الإسلامي والتاريخ الإسلامي بالتغني بآثاره ، ولما فسحا له محلَّ الصدارة العلمية ، والزعامة الفكرية العبقرية ، والإسلامية ، ولكن منها شروط دقيقة ومستوى عال لا يحتله الإنسان بمجرد الدراسة ، والتفنن في العلوم ، وكثرة التأليف والإنتاج ، أقول : لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة ، واقتصر على ثقافتها ، ودراستها ، لما زاد على أن يكون أستاذاً كبيراً في الفلسفة ، أو علم الاقتصاد ، أو في الآداب ، أو التاريخ ، أو مؤلفاً كبيراً ، أو محاضراً بارعاً في العلوم

---

(١) مقتطف من محاضرة العلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، التي ألقاها في مدرج كلية الآداب بجامعة القاهرة في ١٩ من جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ (الموافق ٢٨/ ٣/ ١٩٥١م) .

العصرية ، أو أديباً صاحب أسلوب ، أو شاعراً مجيداً ، أو محامياً ناجحاً في مهنته ، أو قاضياً في محكمة ، أو وزيراً في دولة ، وصدقوني أيها الإخوة ! أن لو كان ذلك لطواه الزّمان فيمن طوى من كبار العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، والمؤلفين ، والقضاة ، والـوزراء . إنَّ الفضل في عبقرية إقبال ، وخلـود آثاره ، ونفوذه في العقول والقلوب ، يرجع إلى المدرسة الثانية ؛ التي تخرج فيها .

إنني لأراكم أيها الإخوة ! تذهبون كلَّ مذهبٍ في تشخيص هذه المدرسة ، والاهتداء إلى موقعها ، وإني لأراكم تتطلعون إلى معرفة أخبارها ، فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم ؟ وما هي العلوم التي تدرس فيها ؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهد ؟ ومن المعلمون فيها ؟ فلا شكَّ أنهم من كبار المربين ، وأعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ، وما هي شروط هذه المدرسة ، وما تكاليفها ؟ وأظن أن لو علمتم بوجودها ومحلِّها ؛ لأسرع كثيرٌ منكم إليها ، والتحق بها .

إنها مدرسةٌ ما خاب مَنْ تعلَّم فيها ، وما ضاع مَنْ تخرَّج منها ، إنها مدرسةٌ لم تخرج إلا أئمة الفنِّ المجتهدين ، وواضعي العلوم المبتكرين ، وقادة الفكر والإصلاح المجددين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ما قالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ما خلفوا ، وتعليل ما ألفوا ، وتأييد ما أثبتوا ، وتفصيل ما أجملوا ، فيتكون من كلمتهم كتاب ، ومن كتابهم مكتبة .

إنها مدرسةٌ ما تعلم التاريخ بل تلد التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار ، بل تنتج الآثار ، إنَّها مدرسةٌ توجد في كلِّ زمانٍ ، وهي أقدم مدرسةٍ على وجه الأرض .

ولا أمتحن صبركم أيها الإخوة طويلاً ! إنها مدرسةٌ داخليةٌ تولد مع الإنسان ، ويحملها الإنسان معه في كلِّ مكان ، هي مدرسة القلب والوجدان ، هي مدرسةٌ تشرف عليها التربية الإلهية ، وتمدُّها القوة الروحية .

قد تخرَّج محمد إقبال في هذه المدرسة ، كما تخرَّج كثيرٌ من الرجال الموهوبين ، وحدَّث عنها كثيراً في شعره ، وردَّ إليها الفضل في تكوين سيرته ، وعقليته ، وأخلاقه ، وشخصيته ، وصرَّح مراراً بأنَّه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية ، وأنَّه لولا هذه المدرسة وتربيتها ؛ لما ظهرت شخصيته ، ولما اشتعلت مواهبه ، ولا اتضحت رسالته ، ولا تفتحت قريحته ، وقد حدَّث عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً ، وذكر فضلهم عليه .

العامل الأول :

فممَّن يُردُّ الفضل إليه في هذه المدرسة « الإيمان » الذي لم يزل مربياً له ومرشداً ، ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته ، وليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الخشيب ؛ الذي هو مجرَّد عقيدةٍ ، أو تصديقٍ بسيط ، بل هو مزيج اعتقادٍ وحبٍّ ، يملك عليه القلب والمشاعر ، والعقل والتفكير ، والإرادة والتصرُّف ، والحبَّ والبغض ، وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته ، قوي العاطفة ، شديد الإخلاص ، والإجلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً في حبِّه ، مقتنعاً بأن الإسلام هو الدين الخالد ؛ الذي لا تسعد الإنسانية إلا به ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكلِّ .

ويُرجع محمد إقبال الفضل في تكوين شخصيته ، وتماسكه أمام المادَّة ومغرياتها ، وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الروحي بالنبي ﷺ ، وحبِّه العميق له ، ولا شكَّ أنَّ الحبَّ هو خير حاجزٍ للقلب ، وخير حارسٍ له ، إذا احتلَّ قلباً وشغله ؛ منعه من أن يغزوه غيره ، أو يكون كريشةٍ في فلاة ، أو يعبث به العابثون ، يقول : « **لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبي ، ويعشي بصري ، وذلك لأني اكتحلت بإثمد المدينة** » ، ويقول : « **مكثت في أتون التعليم الغربي ؛ وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود** » ويقول : « **لم يزل ، ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني ، ويكمنون لي ، ولكني لا أخافهم ، فإنِّي أحمل اليد البيضاء ، إن الرجل إذا رزق الحبَّ الصادق ، عرف نفسه ، واحتفظ**

بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم ، وانقادت لي الصعاب ، فإني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرى في إثره الغبار ، فصار أعبق من العبير » .

وفي كتاب « أسرار خودي » ذكر الشاعر مقومات حياة الأمَّة الإسلامية ، والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها : اتصالها الدائم بنبيها ﷺ ، والتشبُّع بتعاليمه ، والتفاني في حبِّه ، ولمَّا ذكر النبي ﷺ اندفع الشاعر يمدحه ، وأرسل النفس على سجيتها ، فقال أبياتاً لا تزال تعد من غرر المدائح النبوية ، والشعر الوجداني ، يقول : « **إنَّ قلب المسلم عامر بحبِّ المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم ، إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إنَّ هذا السيد الذي نام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم ، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان أن وُجدت أمَّةٌ ، ووُجد دستورٌ ، ووُجدت دولةٌ ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً ، لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين ، بأبي هو وأمي ، لم تلد مثله أمٌّ ، ولم تنجب مثله الإنسانية ، افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً جديداً ، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع ، ويأكل مع مولاه على خوانٍ واحدٍ ، جاءته بنت حاتم أسيرةً مقيَّدةً سافرة الوجه ، خجلةً مطرقةً رأسها ، فاستحيا النبي ﷺ ، وألقى عليها رداءه .**

نحن أعرى من السيدة الطائية ، نحن عراة أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كلُّه رحمة ، هذا بأعدائه ، وذلك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال : لا تثريب عليكم اليوم ! نحن المسلمون من الحجاز ، والصين ، وإيران ، وأقطار مختلفة ، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ ، نحن أزهارٌ كثيرة العدد ، واحدة الطيب والرائحة ، لماذا لا أحبُّه ، ولا أحنُّ إليه ، وأنا إنسان ، وقد بكى لفراقه

الجذع ، وحنَّت إليه سارية المسجد ؟! إنَّ تربة المدينة أحبُّ إليَّ من العالم كله ، أنعم بمدينة فيها الحبيب ! » .

ولم يزل حبُّ النبيِّ ﷺ يزيد ويقوى مع الأيام ، حتى كان في آخر عمره إذا جرى ذكر النبي ﷺ في مجلسه ، أو ذكرت المدينة ـ على منوِّرها ألف سلام ـ فاضت عينه ، ولم يملك دمعه ، وقد ألهمه هذا الحبُّ العميق معاني شعريةً عجيبةً ، منها قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى : « **أنت غني عن العالمين ، وأنا عبدك الفقير ، فاقبل معذرتي يوم الحشر ، وإن كان لا بدَّ من حسابي فأرجوك يا رب ، أن تحاسبني بنجوةٍ من المصطفى ﷺ ، فإني أستحي أن أنتسب إليه وأكون في أمته ، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي** » .

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنَّه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدارٍ من العلم والعقل ، وأكثر كميَّةٍ من المعلومات والمحفوظات لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيت : « **إن الفقير المتمرِّد على المجتمع ـ يشير إلى نفسه ـ لا يملك إلا كلمتين صغيرتين قد تغلغلتا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته ، وهما : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله** » ، **وهنالك علماء ، وفقهاء ، والواحد منهم يملك ثروةً ضخمةً من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون ، لا ينتفع بكنوزه** » .

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة ! وحبُّه ، ومن تتبَّع التاريخ عرف أنَّ الحبَّ هو مصدر الشعر الرقيق ، والعلم العميق ، والحكمة الرائعة ، والمعاني البديعة ، والبطولة الفائقة ، والشخصيَّة الفذَّة ، والعبقرية النادرة ، إليه يرجع الفضل في غالب عجائب الإنسانية ، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ، وإذا تجرَّد منه شخصٌ ؛ كان صورةً من لحمٍ ودم ، وإذا تجرَّدت منه أمةٌ ؛ كانت قطيعاً من غنم ، وإذا تجرَّد منه شعرٌ ؛ كان كلاماً موزوناً مقفًّى فحسب ، وإذا تجرَّد منه كتابٌ ؛ كان مجموع أوراقٍ وحبراً على ورق ، وإذا تجرَّدت منه عبادة ؛ كانت طقساً من الطقوس ، وهيكلاً بلا روح ، وإذا تجرَّدت منه مدنيةٌ ؛

أصبح تمثيلاً لا حقيقة فيه ، وإذا تجرَّدت منه مدرسةٌ ، أو نظام تعليمٍ ؛ أصبح تقليداً ، أو تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافز به ، وإذا تجرَّدت منه حياةٌ ؛ كلَّت الطبائع ، وجمدت القرائح ، وأجدبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختفت المواهب ، هذا هو الحبُّ الصادق الذي يتجلَّى على الرجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، أو خوارق الشَّجاعة ، والقوَّة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحبُّ الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشَّهوات ، وبريق المادَّة ، فتمرد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحبُّ الذي يدخل بين الطين والماء ، والحجارة والآجر ، فيجعل منها آثاراً خالدةً ، وتحفةً فنِّيةً ، كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ، وما من أثر من الآثار الباقية في الأدب ، والفنِّ ، والتأليف ، والبطولة ، إلا ووراءه عاطفةٌ قويّةٌ من الحبِّ .

لقد ضلَّ منْ زعم أنَّ العلماء يتفاضلون بقوَّة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذَّكاء ، وأنَّ الشعراء يتفاضلون بقوَّة الشاعرية ، وحسن اختيار اللفظ ، ودقَّة المعاني ، وأنَّ المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة ، وكثرة التأليف والإنتاج ، وأنَّ المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادة الدراسية ، وكثرة المراجع ، وأنَّ المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة ، وأساليب السياسة ، والحكمة ، واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوَّة الحبِّ والإخلاص لغايتهم ، إذا فاق أحدهم الآخر ؛ فإنَّما يفوقه ؛ لأنَّ الغاية ، أو الموضوع حلَّ في قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الروح ، وملك عليه قلبه وفكره ، وقهر شهواته ، واضمحلت فيه شخصيته ، فإذا تكلَّم تكلَّم عن لسانه ، وإذا كتب كتب بقلبه ، وإذا فكَّر ؛ فكَّر بعقله ، وإذا أحبَّ ، أو أبغض ، فبقلبه .

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة ! على الإنسانية جنايةً عظيمةً ؛ إذ

قضت على هذه العاطفة التي كانت قوةً كبرى ، ومنبعاً فياضاً للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية والمادية ، أو الحبِّ الجنسيِّ ، والغرام الماديِّ ، ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها أن تفهم : أنَّ هناك حباً للمعاني السامية ، وجمالاً معنوياً هو أقوى من هذا الحب ، وأساءت المدرسة العصرية ـ وأعني بها نظام التعليم الحديث ـ إلى الجيل الجديد ؛ إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ، ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بحرارة الإيمان ، وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصري أشبه بجمادٍ متحرِّكٍ دائرٍ لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له ، ولا شعور ، ولا ألم عنده ولا أمل ، إنَّما هو دوامةٌ جامدةٌ ، تديرها يدٌ قاهرةٌ ، أو إرادةٌ قاسرة .

فإذا رأيتم أيها السادة ! أنَّ شعر إقبال من نوعٍ آخر غير النوع الذي عرفناه وجربناه في شعرائنا المتقدمين والمتأخرين ، وغير الشعر الذي ندرسه في مدارسنا ، هذا شعر تهتزُّ له المشاعر ، وتتوتَّر له الأعصاب ، ويجيش له القلب ، وتثور له النفس ، حتى تكاد تحطِّم السلاسل ، وتفكُّ الأغلال ، وتتمرَّد على المجتمع الفاسد ، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخفُّ بالقوَّة الهائلة ، شعرٌ إذا قرأه الإنسان في لغة الشاعر ، أحسَّ بأنه قد مرَّ به تيارٌ كهربائيٌّ ، فهزَّه هزاً عنيفاً ، إذا وجدتم ذلك أيها السادة ! فاعلموا أنه ليس إلا لأن الشاعر قويُّ الإيمان ، قويُّ العاطفة ، جيَّاش الصدر ، فيَّاض الخاطر ، ملتهبُ الروح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدَّثت عنها تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة ، وتنميتها ، وإشعالها فيه .

العامل الثاني :

أما الأستاذ الآخر الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته ؛ فهو أستاذٌ كريمٌ لا يخلو منه بيتٌ من بيوت المسلمين ، ولكن ليس الشأن في وجود الأستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ، إنما الشأن في معرفته ، وتقديره وإجلاله والإفادة منه ، وإلا لكان أبناء البيت ، ورجال الأسرة ، وأهل الحيِّ

أسعد بعالمهم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من ذلك ، رأينا أنَّ العالم الكبير ، والحكيم الشهير ، والمؤلف العظيم ، ضائعٌ في بيته ، مهجورٌ في داره ، يزهد فيه أولاده ، ويستهين بقيمته أفراد أسرته ، ويأتي رجل من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه ، ويتضلَّع من حكمه .

لا تذهب بكم الظنون ، ولا يبعد بكم القياس أيها الأخوة ! فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن العظيم ، الذي أثَّر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتابٌ ، ولا شخصيةٌ ، ولكنَّه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجلٍ حديث العهد بالإسلام ، فيه من الاستطلاع والتشوُّق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مالٍ ، ومتاعٍ ، ودارٍ ، وعقارٍ ، وقد وصل هذا المهتدي بشقِّ النفس ، وعلى جسرٍ من الجهاد والتعب ، كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور « كولمبس » لما اكتشف العالم الجديد ، ونزل على شاطئه ، أما الذين ولدوا ونشؤوا في هذا العالم الجديد ؛ فكانوا ينظرون إلى « كولمبس » وأصحابه باستغرابٍ ودهشةٍ ، ولا يفهمون معنى لما كان يخامره من سرورٍ وفرحٍ ، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً .

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءةً تختلف عن قراءة الناس ، ولهذه القراءة الخاصَّة فضلٌ كبيرٌ في تذوُّقه للقرآن ، واستطعامه إياه ، وقد حكى قصته لقراءة القرآن ، وقال : « **قد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كلَّ يوم ، وكان أبي يراني ، فيسألني : ماذا أصنع ؟ فأجيبه : أقرأ القرآن ، وظلَّ على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله ، فأجيبه جوابي ، وذات يوم قلت له : ما بالك يا أبي ! تسألني نفس السؤال ، وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد ؟ فقال : إنما أردت أن أقول لك يا ولدي ! اقرأ القرآن كأنما نزل عليك ، ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن ، وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ، ومن درره ما نظمت** » .

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدُّنيا يغوص في بحر القرآن ، ويطير في أجوائه ، ويجوب في آفاقه ، فيخرج بعلمٍ جديدٍ ، وإيمانٍ جديدٍ ، وإشراق جديدٍ ، وقوةٍ جديدةٍ ، وكلَّما تقدَّمت دراسته ، واتَّسعت آفاق فكره ؛ ازداد إيماناً بأنَّ القرآن هو الكتاب الخالد ، والعلم الأبدي ، وأساس السعادة ، ومفتاح الأقفال المعقَّدة ، وجواب الأسئلة المحيرة ، وأنَّه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات ، ولم يزل يدعو المسلمين ، وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب ، وفهمه ودراسته ، والاهتداء به في مشكلات العصر ، واستفتائه في أزمات المدنيَّة ، وتحكيمه في الحياة والحكم ، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ، ويضع به آخرين ، يقول في مقطوعة شعرية : « **إنك أيها المسلم ! لا تزال أسيراً للمتزعِّمين للدِّين ، والمحتكرين للعلم ، ولا تستمدُّ حياتك من حكمة القرآن رأساً ، إنَّ الكتاب الذي هو مصدر حياتك ، ومنبع قوتك ، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة ، فتقرأ عليك سورة « يس » لتموت بسهولةٍ ، فوا عجباً ! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة، يتلى الآن لتموت براحةٍ وسهولة**»[(١)] .

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبُّر لا يفضل على هذا الكتاب شيئاً ، ولا يعدل به تحفةً وهديَّةً لأغنى رجلٍ في العالم ، وأعظم الرجال علماً وعقلاً ، ولذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ، ونزل ضيفاً عليه ، أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخة من القرآن ، وقدَّمها إليه قائلاً : « **إن هذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كلِّ بداية ، وبقوته كان علي رضي الله عنه فاتح خيبر** » فبكى الملك وقال : « **لقد أتى على نادر خان زمان وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوَّته كلَّ باب** »[(٢)] .

---

(١) هدية الحجاز (أرمغان حجاز) .

(٢) مثنوي مسافر .

العامل الثالث :

والركن الثالث أيها السادة ! في نظام تربيته ، وتكوين شخصيته هو معرفة النفس ، والغوص في أعماقها ، والاعتداد بقيمتها ، والاحتفاظ بكرامتها ، وقد عامل نفسه بما نصح به غيره ، وفي قصيدة يقول فيها : « **انزل في أعماق قلبك ، وادخل في قرارة شخصيتك ، حتى تكتشف سرَّ الحياة ، ما عليك إذا لم تنصفني وتعرفني ، لكن أنصف نفسك يا هذا ! واعرفها ، وكن لها وفياً ، ما ظنُّك بعالم القلب ، وهو كلُّه حرارةٌ وسكر ، وحنانٌ وشوق ، أما عالم الجسم فتجارةٌ ، وزورٌ ، واحتيال ، إنَّ ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظلٌّ زائل ، ونعيمٌ راحل ، إنَّ عالم القلب لم أر فيه سلطة الإفرنج ، ولا اختلاف الطبقات ، ولقد كدت أذوب حياءً ، وتندَّى جبيني عرقاً ؛ إذ قال لي حكيم : إذا خضعت لغيرك ؛ أصبحت لا تملك قلبك ، ولا جسمك** »[1] .

وقد كان إقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أنَّ العبد يسمو بها إلى درجة الملوك ، بل يعلوهم إذا كان جريئاً مقداماً ، يقول في قصيدة : « **إنَّ الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحبِّ الصادق ، وتمسَّك بآداب هذه المعرفة ، انكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك . إنَّ ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله أفضل من أكبر ملوك العالم** » .

إنَّ الصراحة ، والجرأة من أخلاق الفتيان ، وإنَّ عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب » ، وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لا يقبل رزقاً إذا قيَّد حريته ، يقول في نفس القصيدة : « **يا صاح ! إن الموت أفضل من رزق يقصُّ من قوادمي ، ويمنعني من حرية الطيران** »[2] .

وكان إقبال يعرف قيمته ، ويعرف مكانته في غير صلفٍ ولا غرور ، فيضنُّ

---

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .
(٢) المصدر السابق .

بحرِّيته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره ، يقول في مقطوعة : **« لك الحمد يا رب ! إذ لستُ من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك والسلاطين ، لقد رزقتني حكمةً وفراسةً ، ولكنِّي أحمدك على أني لم أبعهما لملك من الملوك »**[١] ، ويقول مفتخراً : **« إنِّي من غير شكٍّ فقيرٌ قاعدٌ على قارعة الطريق ، ولكنِّي غنيُّ النفس أبيٌّ »** ، وكان عمله بما يخاطب به غيره في قصيدة يقول فيها : **« إذا لم تعرف رازقك كنت فقيراً إلى الملوك ، وإذا عرفته افتقر إليك كبار الملوك . إنَّ الاستغناء ملوكية ، وعبادة البطن قتلٌ للروح ، وأنت مخيَّرٌ بينهما ، إذا شئت اخترت القلب ، وإذا شئت اخترت البطن »**[٢] ، ولا شك أنَّ محمد إقبال اختار القلب .

لذلك كان يثور إذا جُرحت كرامته ، وامتُحنت عفَّته ، قدَّم إليه رئيس وزارة في دولةٍ ، في عيد ميلاد محمد إقبال ، هديةً محترمةً من النقود ، فرفضها ، وقال : **« إن كرامة الفقير تأبى عليّ أن أقبل صدقة الأغنياء »** ، وعرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في إفريقية الجنوبية ، وكان من تقاليد هذه الوظيفة أنَّ حرم نائب الملك تكون سافرةً ، تستقبل الضيوف في الولائم الرسمية ، وتكون مع زوجها في الحفلات ، فأشير عليه بذلك ، فرفضها وقال : **« ما دام هذا شرطاً لقبول الوظيفة ؛ فلا أقبله ؛ لأنه إهانة ديني ، ومساومة كرامتي »** .

وكان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوَّته ومواهبه ، يعتقد أنَّه صاحب رسالةٍ ومهمَّةٍ في هذه الحياة ، وليس له أن يضع نفسه محلَّ الشاعر الذي ليست له رسالةٌ ، والنَّظامين الذين ينظمون في كلِّ مناسبة ، فإذا أريد منه غير ذلك ضاقت نفسه ، يقول في أبيات وجَّهها إلى رسول الله ﷺ : **« إني لأشكو**

---

(١) جناح جبريل .
(٢) المصدر السابق .

إليك يا سيد الأمم ! أنَّ أصدقائي يعتقدون أنِّي شاعر نظَّام ، فيقترحون علي اقتراحات » . ويقول في بيت آخر : « أنا حائر في أمري يا سيدي رسول الله ! إنَّك تأمرني أن أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة ، وهؤلاء يقولون : أرِّخ لموت فلان ، وفلان ، فماذا أفعل » ؟ .

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته ، ومما انتفع بها الإسلام انتفاعاً عظيماً ، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكريِّ ، والهيام الأدبيِّ ، اللَّذَيْن يصاب بهما أدباؤنا ، وشعراؤنا ، وكتَّابنا ، وعلماؤنا ! فينتجعون كلَّ كلأ ، ويهيمون في كلِّ واد ، ويكتبون في كل موضوع ، وافق عقيدتهم أم لا ، ويمدحون كلَّ شخص ، ويظلُّون إلى آخر حياتهم لا يعرفون أنفسهم ، ولا يعلمون رسالتهم ، أما الدكتور محمد إقبال فكان من توفيق الله تعالى ، ومن حسن حظِّ الإسلام والمسلمين في الهند : أنَّه عرف نفسه في أول يوم ، وقدَّر مواهبه تقديراً صحيحاً ، ثم ركَّز فكره ، وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح في المسلمين ، وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والإيمان برسالتهم ، والطموح إلى القوة والحرِّية والسيادة ، كان شاعراً مطبوعاً ، حتى لو أراد أو أريد ألَّا يكون شاعراً لما استطاع ، ولقهره الشعر ، وغلبه . كان سائل القريحة ، فيَّاض الخاطر ، ملهم المعاني ، مطاع اللفظ ، وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ، وكان فناناً وصنَّاعاً ماهراً ، سلَّم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز ، وتأثر بشعره الجزِّ ، فما من شاعرٍ ولا أديب في عصره إلا تأثر به في اللغة ، أو التراكيب والمعاني ، والأفكار ، والأغراض ، وهو من أفذاذ شعراء العالم في التفنُّن والإبداع ، وابتكار المعاني ، وجدة التشبيه ، والاستعارات ، وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الإنجليزي والألماني ، فضلاً عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه ، ولكن ليس هذا كلَّ ما يمتاز به محمد إقبال ، فعصره لا يخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ، ولكنَّه امتاز بأنه أخضع شاعريَّته القويَّة ، وقوَّته الأدبية ، وعبقريَّته الفنِّية لرسالة الإسلام ، فلم يكن شاعر ملك ، ولا

شاعر الوطنية ، ولا شاعر الهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ، بل كان صاحب رسالةٍ إسلامية ، استخدم لها الشعر ، كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء ، فتكون أسرع وصولاً ، ولطيب الأزهار نفحات الهواء ، فيكون أكثر انتشاراً ، فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد حكمته ، يسبقها ، ويوطىء لها أكنافاً ، ويذلل لها صعاباً ، ويفتح أبواباً ، وكان شعره من جنود الإسلام ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفتح : ٤] ولا أعرف أحداً يستخدم شعره لغرضٍ أسمى ، وغايةٍ أجدى منه ، فأيقظ أمَّةً ، وأشعل قلوبها إيماناً ، وحماسةً ، وطموحاً إلى حياة الشرف ، والاستقلال ، والسيادة ، والحكم الإسلامي ، حتى أصبحت هذه الأمة لا ترضى إلا بدولةٍ تحكمها ، وتدير دفَّتها ، أوجد بشعره القويِّ الهزَّاز القلق الفكريَّ ، والاضطراب النفسيَّ ، الذي عمَّ هذا الشعب المسلم ، وساور الشباب الإسلاميَّ بصفةٍ خاصةٍ ، فأصبحوا لا يرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية ، والذلَّة ، وحكم الأجانب ، حتى أصبحت في يومٍ من الأيام الدولة المسلمة الحرَّة حقيقةً راهنةً ، وواقعاً ملموساً .

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولةٍ ، وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الإسلاميِّ ، وتعلمون جميعاً أنَّ الدول تسبقها الثورات الفكرية ، والتذمُّر من الحاضر ، والتطلُّع إلى المستقبل ، والقلق النفسيُّ ، فإذا تمَّ هذا كلُّه ، ونضج ، قامت دولةٌ ، فإن كان شعرٌ قد أقام دولة ، وأحدث ثورةً فكريَّةً ، كانت سبب الانتقال من حياةٍ إلى حياةٍ ، ومن وضعٍ إلى وضع ، فهو من غير شكٍّ شعر إقبال ، وما ذاك أيها الإخوة ! إلا بمعرفة الرجل نفسه ، وتقديره لمواهبه وقوَّته ، ووضعها في محلِّها ، والغيرة عليها من أن تضيع في موضوعاتٍ تافهة ، وألفاظٍ فارغة ، وألوانٍ زاهيةٍ ، ومظاهر الجمال الفانية ، وكم ضاع رجال من العبقريين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم ، وقيمة ما يحسنون ، وما يمتازون به عن أقرانهم ، فباعوا أنفسهم ،

وعلمهم بالمناداة ، أو باللغة المصرية « بالمزاد العلني » وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ٣٣] .

العامل الرابع :

والمربِّي الرابع أيها السادة ! الذي يرجع إليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته ، وفي قوة شعره وتأثيره ، وجِدَّة المعاني ، وتدفُّق الأفكار ، هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب ، والاشتغال بالمطالعة ، بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ، ويتعرَّض للنفحات السَّحرية ، ويقوم في آخر الليل ، فيناجي ربه ، ويشكو بثه وحزنه إليه ، ويتزوَّد بنشاطٍ روحيٍّ جديد ، وإشراقٍ قلبيٍّ جديد ، وغذاءٍ فكريٍّ جديد ، فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد ، يلمس الإنسان فيه قوةً جديدةً ، وحياةً جديدةً ، ونوراً جديداً ، لأنه يتجدَّد كلَّ يوم ، فيتجدَّد شعره ، وتتجدَّد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السَّحَر ، ويعتقد أنَّها رأس ماله ، ورأس مال كلِّ عالم ومفكِّر ، لا يستغني عنها أكبر عالمٍ أو زاهد ، يقول في بيت : « **كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شئت في العلم والحكمة ، ولكن لا ترجع بطائل ، حتى تكون لك أَنَّةٌ في السَّحر** » ، وكان شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة : « **رغم أنَّ شتاء إنجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ، ولكنِّي لم أترك في لندن التبكير في القيام** » ، وكان لا يبغي به بدلًا ، ولا يعدل به شيئاً ، يقول في بيت : « **خذ منِّي ما شئت يا رب ! ولكن لا تسلبني اللذة بأنَّة السَّحر ، ولا تحرمني نعيمها** » ، بل كان يتمنى على الله أن تتعدَّى هذه الأنَّة السَّحَرية ، والحرقة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين ، فتحرك سواكن قلوبهم ، وتنفخ الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة : « **اللهم ! اجرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدِّينية ، وأيقظ الآمال والأماني النائمة في صدورهم بنجوم**

سمواتك ، التي لا تزال ساهرةً ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون بنومٍ ، ارزق الشباب الإسلاميَّ لوعة القلب ، وارزقهم حبِّي وفراستي » ، ويقول في قصيدة : « اللهم ارزق الشباب أنَّتي في السَّحر ، وأنبت لصقور الإسلام القوادم والخوافي ؛ التي تطير بها وتصطاد ، وليست لي أمنية يا رب ! إلا أن تنتشر فراستي ، ويعمَّ نور بصيرتي في المسلمين » .

العامل الخامس :

والعامل الأخير ، والمؤثر الكبير في تكوين عقليته وتوجيه رسالته أيها السادة ! هو « المثنوي المعنوي » بالفارسية ، وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومي في ثورةٍ وجدانية ، ونفسيةٍ شديدة ضدَّ الموجة العقلية الإغريقية ؛ التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره ، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان انتصاراً قوياً ، وانتصف للقلب ، والروح ، والعاطفة ، والحبِّ الصادق ، والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة ، والقشور الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين ، والمدارس الدِّينية ، والأوساط العلمية في الشرق الإسلامي ، والكتاب متدفِّقٌ قوَّةً وحياةً ، زاخرٌ بالأدب العالي والمعاني الجديدة ، والأمثال الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة القوية ، والطبع الرَّيان الذي يملي هذه المنظومة التي لا تزال فريدةً في موضوعها في مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له التأثير القويُّ في تحرير الفكر من رقِّ العقل ، والتقديس الزائد للقيم العقلية ، والخضوع للمادِّية الرعناء ، ويبعث التمرُّد على عالم المادية الضيق ، والتطلُّع إلى أجواء الروح الفسيحة ، وكان العالم في عصر محمد إقبال يواجه التيار العقلي الأوروبي الذي جرف جميع القيم الروحيَّة والخلقيَّة ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الروحية ، والمبادىء الخلقية ، وما بعد الطبيعة ، فأصبحت حضارةً عقليةً ميكانيكيةً ، وقد قضى محمد إقبال فترةً من الزمن ينازعه عاملان : عامل العقل ، وعامل القلب ، وقام صراعٌ بين عقله المتمرِّد ، وعلمه المتجدِّد ،

وقلبه الحارّ الفائض بالإيمان ، وفي هذا الاصطراع الفكريّ والاضطراب النفسيّ ، ساعده المثنوي مساعدةً غالية ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً ، وحلَّ به كثيراً من ألغاز الحياة ، ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ له هذا الفضل ، ويذكره في كثيرٍ من أبياته ، ويعزو إليه كثيراً من الحقائق والحكم ، يقول في بيتٍ يخاطب فيه أحد المأخوذين بسحر الغرب : « **قد سحر عقلك سحر الإفرنج ، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومي ، وحرارة إيمانه ، لقد استنار بصري بنوره ، ووسع صدري بحراً من العلوم** » ، ويقول في بيت : « **لقد أفدت من صحبة شيخ الروم أنَّ كليماً واحداً ـ يشير إلى سيدنا موسى ـ هامته على راحته يغلب ألف حكيمٍ قد أحنوا رؤوسهم للتفكير** » ، وكان محمد إقبال يرجو أن يجدِّد علمه ورسالته في القرن العشرين ، ويخلفه في مهمته العلمية ، والروحية ، وكان يشعر أنَّ الشيخ لا يزال يفوقه في الجانب الروحي ، وقد أشار إلى ذلك إشارةً لطيفة ، يقول في قصيدة : « **لم ينهض روميٌّ آخر من ربوع العجم مع أن أرض إيران لا تزال على طبيعتها ، ولا تزال تبريز كما كانت ، إلا أنَّ إقبالًا ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدموع نبتت نباتاً حسناً ، وأنت بحاصلٍ كبير** » .

هذه هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد إقبال ، وهذه هي آثار تربية المدرسة الثانية التي تخرج فيها ، ولا شكَّ أنها أقوى من آثار المدرسة الأولى ، وكميات من المعلومات وافرة ، فقد علمته المدرسة الثانية المتعددة الجوانب كيف يستعمل هذه المعلومات ، وكيف يخدم بها نفسه وأمته ، وقد منحته المدرسة الثانية العقيدة الراسخة ، والإيمان القوي ، والخلق المستقيم ، والتفكير السليم ، والرسالة الفاضلة .

* * *

الحقائق التاريخية في شعر محمد إقبال[١]

لم يكن إقبال اختصاصياً في مادة التاريخ ، ولم يزعم لنفسه امتلاكاً للموضوع وتعمقاً فيه ، واطلاعاً على أسراره وخفاياه ، وإذا طلب منه في مناسبة من المناسبات أن يتناول كتاباً يدور حول هذا الموضوع ويتصل به من بعيد أو قريب بالنقد والتعريف ، أحجم عن الكتابة ، واعتذر عنها ببساطة وتواضع ، وقال : « **إنه لم يختص في هذه المادة ، إنه كان عالم الفلسفة أو عالم القرآن** » ، ولكن من البديهي المعروف أن دراسته كانت واسعة منوعة عميقة ، وأنه تأمل خلال بحثه العلمي المتواصل ودراسته الطويلة الواسعة في تاريخ الأمم والشعوب والدول والحكومات ، وفي الأديان والأخلاق ، وفي المجتمعات البشرية والحضارات الإسلامية المختلفة ، بنظر ثاقب ، ونزل في أغوارها واهتدى إلى أسرارها ، ورغم أن التاريخ ـ كما قلنا ـ لم يكن محور دراساته ، إلا أنه اعتنى بالموضوع عناية لائقة شأن كل باحث يهمه مصير الإنسان ونهضة الإنسانية وانحطاطها ، والقضايا البشرية المصيرية .

وكان الوجه الثاني أن الفلسفة تثير في الإنسان تطلعاً قوياً إلى الحقيقة المجهولة ، وتحدث فيه ملكة خاصة في ربط الوحدات الضائعة والأجزاء المتناثرة ، والتوصل من المقدمات إلى النتائج ومن الجزئيات إلى الكليات ، والانتقال من الحوادث الظاهرة والتغييرات العابرة والأحداث الطارئة إلى كنه الحوادث وأعماقها ؛ لذلك نجد إقبالًا يتوصل بدراسته العامة للتاريخ إلى نتائج

---

(١) مقتطف من محاضرة العلامة أبي الحسن الندوي التي ألقاها في ندوة علمية في مدينة « شيكاغو » (الولايات المتحدة الأمريكية) في أغسطس ١٩٧٥م وكتبها أصالة في الأردوية ، ونقلها إلى العربية المرحوم الأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي » .

وحقائق لا يصل إليها أولئك الباحثون والعلماء والمؤرخون ، الذين حرموا هذه الحاسة الفلسفية ، والذين هم طلاب مدرسة التاريخ الجامدون وأساتذتها التقليديون ، وقد دله على الوصول إلى تلك الحقائق والنتائج العميقة فهمه العميق للقرآن ، ودراسته المخلصة المتواصلة لهذا الكتاب المعجز ، الذي يحتوي على مواد أساسية ومبادىء واضحة تتوقف عليها سعادة الأجيال البشرية وشقاؤها ، ورقيها وزوالها ، والذي يكشف الستار عن الحوادث التي ستواجهها الإنسانية في المستقبل ، وأسباب شقاء الأمم وهلاكها وازدهارها ، كشفاً تتحير له الألباب ، ويقف عنده العقل عاجزاً مشلولًا لا يجد له التأويل . غير أن هذا الكتاب الذي نزل على « الأمي ابن البادية » ـ كما يقول إقبال ـ منزل من الله العليم الخبير الذي فطر السموات والأرض ، وذلك ما قاله إقبال عندما قَدَّم إلى الأمير الشهيد نادر خان ملك أفغانستان ، المصحف الشريف :

« إن هذا القرآن سند أهل الحق ، في ضميره حياة وروح ، تندرج في بدايته النهاية ، به فتح عليٌّ باب خيبر » .

ويقول في ديوان « أسرار خودي » :

« إن هذا الكتاب كتاب خالد ، حكمته غارقة في الأزل سارية إلى الأبد ، إنه يفشي أسرار تكوين الحياة ، ويثبت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه ، بالقول الثابت » .

إن دراسة شعر إقبال تزودنا بمعلومات وحقائق جديدة إذا تفحصنا في غضون دراساته التاريخية ، ورأينا إلى أي مدى تستطيع هذه الومضات التاريخية في شعره الحي ، أن تسعف رواد مناهل العلم والبحث الذين يريدون الاستفادة من التجارب الحضارية ، وإنه ليس أقل من « اكتشاف » إذا قلنا إن شعر إقبال يتضمن بعض إشارات تاريخية دقيقة تتكون منها مؤلفات تاريخية إذا شرحناها شرحاً وافياً ، فقد جمع في بعض أبياته ومقطوعاته أحياناً ، وفي بيت واحد بعض الحين ، عصارة دراسات عميقة ، ومحصول تأملات طويلة ، ولباب مكتبات

كاملة تكونت في التاريخ وفلسفة التاريخ ، وهنالك التقى إيجازه بالإعجاز ، ويمكن إذا شرحنا شعره في نثر وسقنا له شواهد تاريخية ودلائل (وهي كثيرة) أن يأتي رائعاً أخاذاً كما هو الحال في شعره الحلو ، وبيانه الجميل ، وكلامه الجزل ، ولا يمكن أن يقدر قيمة هذه الإشارات العلمية والتاريخية وصدق نتائجها وعواقبها التي جاءت في شعره تقديراً صحيحاً دقيقاً إلا من كان له اطلاع واسع عميق على التاريخ الإنساني والتاريخ الإسلامي وعلى علو القرآن ، وخبرة دقيقة باليهودية والمسيحية ، والأديان الهندية القديمة ، والفلسفات العجمية وآدابها ، وتاريخ القرون الوسطى التي يسميها المؤرخون الغربيون بحق بالقرون المظلمة « Dark Ages » .

ونقدم هنا نماذج من فراسته التاريخية وحكمته القرآنية التي تجلت في شعره ، من غير تدقيق وتمحيص كبير ، واستيعاب شامل ، لكل ما ورد في هذا الموضوع ، وإنما اخترنا من أبياته ما أعانت عليه الذاكرة ، وانطلق به اللسان ، واعتمدنا على شرحه وتصويره وإبرازه في صورته الواضحة المتكاملة على المعلومات العامة لدى القارى ودراسته للتاريخ الذي يحظى به عادة كل متعلم ، ولكننا لا نستطيع أن ندرك عظمة هذه الحقائق ، وأن نصدق تلك الأفكار والآراء التي قدمها إقبال إلا إذا اطلعنا على خلفياتها التاريخية والمجتمع الذي تدور حوله هذه الأبيات .

ولذلك نستعرض قبل أن نقدم هذه الأبيات الأجواء التي أنشدت فيها ، والظروف التي دفعت إليها .

لقد وزعت الديانات القديمة ـ وخاصة المسيحية ـ الحياة الإنسانية في قسمين : قسم للدين وقسم للدنيا ، ووزعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين ، معسكر رجال الدين ومعسكر رجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب ، بل حال بينهما خليج كبير أو وقف دونهما حاجز سميك ، وظلا متشاكسين متحاربين ، وكانا يعتقدان بأن هناك خصومة وعداء

بين الدين والدنيا ، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر ، بل يعلن الحرب عليه ، فلا يمكن له ـ على حد قولهم ـ أن يركب سفينتين في وقت واحد ، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة وإعراض عن فاطر السموات والأرض ، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية والتجرد عن خشية الله ، ولا إمكان للتدين من غير الرهبانية وقطع الصلة عن الدنيا وما فيها .

المعلوم المقرر أن الإنسان محب لليسر مجبول عليه ، وكل فكرة عن الدين لا تسمح بالاستمتاع المباح والنهضة والاستعلاء والحصول على القوة والحكم ، لا تصلح للنوع البشري في الغالب ، إنه صراع مع الفطرة السليمة ، وكبت للغرائز الطبيعية البريئة في الإنسان ، وكانت نتيجة هذا الصراع أن عدداً كبيراً من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية آثروا الدنيا على دينهم ورضوا بها ـ كحاجة اجتماعية وواقع حي ـ واطمأنوا إليها ، وعكفوا على تحسين هذه الحياة والحصول على ملذاتها ، ولم يبق لهم أمل في الدين .

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة هجروه على أساس هذا التناقض الذي حسبوه حقيقة بديهية مسلمة ، وثار البلاط الذي كان يتزعم الحكم الدنيوي على الكنيسة التي كانت تمثل الدين وتتجرد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات ـ بطبيعة المنطق ـ كَفِيلٍ هائج مائج تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجمل هائم حبله على غاربه ، هذا الانفصال بين الدين والدنيا ، وذلك العناد بين رجال الدين ورجال الدنيا ، لم يضع حداً على الدين والأخلاق ولم يحرمه من بركات السماء والأرض فحسب ، بل فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللادينية وكانت فريسته الغرب أولًا ، والأمم التي دانت لها في الفكر والعلم والثقافة أو عاشت تحت رايتها ثانياً ، وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء ، والذين لم يدخروا وسعاً في إذلالها وتعذيبها بأنواع من

الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة[١] ، وقدموا صورة وحشية كالحة جائرة مفزعة للدين تقشعر منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر في النهاية إلى تقلص ظل الدين ، وبلغت عبادة النفس والهوى ـ في أوسع معناها ـ إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيض ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الديني أو فقدان الحاسة الدينية في هوة عميقة من اللادينية والفوضى الخلقية العامة[٢] .

وأعظم هدية للبعثة المحمدية ، ومنّتها العظيمة ، ونداؤها الذي دوت به الآفاق أن أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذي ينشده المرء الذي عبر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط ولكنه واسع عميق « النية »[٣] .

إنه لا يؤمن بأن هذا مجرد دنيا ، وذاك مجرد دين ، إنه يعتقد أن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص وامتثال أمره وطاعته ، هو وسيلة إلى التقرب إلى الله والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ودرجات الإيمان ، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهاداً أو قتالاً أو حكماً أو إدارة أو تمتعاً بطلبات الأرض ، وتحقيقاً لمطالب النفس ، وسعياً لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية ، وكل عبادة وخدمة دينية ـ بالعكس من ذلك ـ تعتبر دنيا إذا تجردت من طلب رضا الله سبحانه ، والخضوع لأوامره ونواهيه ، وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ، ولو كانت صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرة وجهاداً وذكراً وتسبيحاً ،

---

(١) انظر « تاريخ أخلاق أوربة » ج/ ٢ لمؤلفه ليكي .

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم » لدرابر ، أو « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للعلاّمة أبي الحسن علي الندوي ، باب « الإنسانية في الاحتضار » .

(٣) هذا الحديث الصحيح الذي بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة ، والذي افتتح به الإمام البخاري الصحيح : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » .

وقتالًا في سبيل الله ، ولا يثاب عليه العامل والعالم والمجاهد والداعي ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالًا ، وتكون بينه وبين الله حجاباً[1] .

وإنها مأثرة عظيمة من مآثر سيدنا محمد ﷺ ومنته العامة الخالدة على الإنسانية ، أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا ، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين اللذين عاشا في خصام دائم ، وعداء سافر ، وحقد مستمر ، يتعانقان في إلف وود ويتعايشان في سلام ووئام ، إنه ﷺ رسول الوحدة ، وبشير ونذير في الوقت ذاته ، إنه أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب ، والعطف على البشرية وابتغاء رضوان الله ، وعلمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

إنه أعلن بالآية التالية : ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] أن حياة المؤمن ليست مجموعة وحدات متفرقة متضادَّة ، فالعبودية والعبادة وحدة شاملة وصورة جامعة ، قد ترى فيها رجال الله في زي الأمراء ومعيشة أصحاب الثراء والجاه ، وترى فيه أمراء وأغنياء في مستوى العباد والزهاد ، جمعوا بين السيف والمصحف ، عباد ليل ، وأحلاس خيل ، من غير أن يروا في ذلك تناقضاً ، ومن غير أن يجدوا فيه مشقة وحرجاً .

واقرأ بعد هذا التمهيد أبيات شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذي أنشدها تحت عنوان « الدين والسياسة » ، وتأمل كيف قيد هذا التاريخ الحافل للإسلام والمسيحية والقرون المتوسطة ، والعصر الحديث ، وتعاليم هاتين الديانتين ، ووضع كل هذه الحقائق والمعلومات والمعارف في إطار صغير أو زجاجة رائقة من أبيات ، تترامى لنا بحلاوتها وسهولتها ، وعذوبة جرسها إلى

---

(١) كتب الحديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك ، انظر أبواب الإخلاص والنية ، والإيمان والاحتساب .

جانب طابعها العلمي الرزين وجلالها الفني البديع ، كأنها كأس من الزلال أو جزء من السحر الحلال :

« **قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلم تسعها ـ بالطبع ـ القيادة والسيادة ، والحكم والإدارة ، فقد كان هنا عداء قديم بين الرهبانية والحكم ، هذا خضوع واستسلام ، وذاك استعلاء كامل واستيلاء .**

حتى خلصت السياسة نفسها أخيراً من الدين ومرقت منه كما يمرق السهم من الرمية ، وأصبح رجال الكهنوت مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع ، لا يقدرون على شيء ، فلما انفصل الدين عن الدولة ، جاءت الشهوة وشاع الهوى ، وساد قانون الغاب ، هذا الانفصال شؤم على الدولة والدين ، هو لا يدل إلا على ضعف بصر هذه الحضارة وفساد ذوقها .

ولكنه إعجاز رجل من رجال البادية ، الذي كان بشيراً ونذيراً بذات الوقت ، يتجلى في بشارته الإنذار ، وفي إنذاره البشارة .

ولا حفاظ للإنسانية من أخطارها ، ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهاد والعُبَّاد ، مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد »(١) .

إن التاريخ الإنساني الطويل ـ الذي أثخن بالجراح وطفح كأسه بالدماء والدموع ، وأحاط بجزئه الأكبر حروب طاحنة ، ومعارك ضارية ومغامرات أفراد وجماعات وشعوب ـ يشهد بأن تجمع القوة والحكم في أفراد أو جماعة لم يضر النوع البشري مثل ما ضره وجر الشقاء عليه شهوة الحكم ونشوة القوة ، والشعور بالتفوق والعظمة ، فكلما يستولي هذا الشعور على فرد أو جماعة ويحس بأنه ليس على وجه الأرض من هو أقوى منه ، وأنه سيل جارف لا يمنعه شيء ، وقضاء الله المبرم الذي لا راد له ، والشعوب المجاورة كلها والإنسانية برمتها عالة عليه وتحت رحمته ، ورهن إشارته ، والحقيقة الباقية والشريعة السائدة هي القوة ،

---

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .

أما الإنسانية والعدالة الاجتماعية والرحمة والأخلاق والضمير ، والحسن والقبيح والخبيث والطيب ، فهي كلمات فارغة لا تحمل معنى ، ومنطق انهزامي ، منطق العبيد والضعفاء والمساكين ، والأمم المستضعفة التي لا تملك حَوْلًا ولا طَوْلًا ، وكلما يصبح شعار (Might is Right) « القوة هو الحق » مقياس الحق والباطل ، وتمد هذه الفلسفة أجنحتها على شُعَب الحياة كلها ، وتصبح خشية الله ، والعطف على الإنسانية ، والورع واتقاء المحارم والصبر عنها ، والحياء وشُعَبه ، آية الجبن وسمة الضعف والتخاذل ، وتتحول الوسائط غايات وتصبح الغايات ممتدة إلى ما لا نهاية لها ، فهنالك ينقلب هذا الفرد أو تنقلب هذه الفئة والجماعة قوة مدمرة عمياء أو بركاناً نارياً هائلاً يتفجر على الإنسانية ، فلا تقف في زحفه الجهنمي وسيله الناري حكومات مستقرة ، وإمبراطوريات عظيمة ، ولا تمنعه حضارات الإنسانية ، أو تعاليم خلقية ، ولا نتائج جهود المعلمين والمصلحين من أهل الدين ولا مؤسساتهم التي كانت تغيث الإنسانية منذ قرون طويلة ، وتسعفها في محنها ورزاياها وتخفف آلامها ، وتمسح دموعها .

هذا السيل الناري الجارف يأتي بين عشية وضحاها على سائر الجهود المعمارية والإنشائية والإنمائية ، وكنوز الآباء والأجداد ، وذخائر العلم والأدب ، وعلى كل ما بناه الأوائل ، بل يقطع الأمل في بناء الإنسانية ونهضتها وصحوتها من جديد إلى قرون طويلة ، وتحول المدن العامرة إلى أنقاض مدمرة ، ومستعمرات زاهرة إلى أراضٍ قاحلة ، تحول العواصم الكبرى إلى مقابر عامة ، والمساجد والمعابد إلى حانات وخانات ، ونوادي الخمر والقمار ، ومؤسسات العلم ومراكز الثقافة ، إلى مراكز اللهو والترويح والفسق والدعارة ، وينقلب المجتمع كله رأساً على عقب ، ويصبح عاليه سافله ، وعزيزه رذيله ، وقد صور القرآن ببلاغته المعجزة هذا التغيير الهائل على لسان ملكة سبأ ، فصدق عليه في كتابه الخالد قائلاً : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً

أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٤] .

وكانت فريسة هذه الشهوة ـ شهوة الأنانية والحكم والشعور المفرط بالتفوق ـ أمم قديمة ذكرها القرآن ، أمم لم تعرف شيئاً ولم تحسن شيئاً غير الإبادة والتدمير ، وزحفت كالفيل الهائج المائج ، فأهلكت الحرث والنسل ، وداست شعوبها الشقيقة كما يدوس أحدنا أرض مزرعته ولا يبالي ، وكان من بينها قوم عاد ، وقد وصفها القرآن بهذا الداء ، داء الاستكبار : ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] .

وظهرت نتيجة هذا الذهول ـ الذهول عن الله ـ والابتعاد عنه ، وعبادة النفس وتقديسها ، واستعمال وسائل القوة استعمالاً حراً ، لا يبالي بأي قيد ولا يقف عند حد ، ولا يقيم للعاقبة والمصير أي وزن ، ولا يحسب للجناية وحجم عقابها أي حساب . وقد حكى القرآن على لسان سيدنا هود الذي بعث في قوم عاد ، هذه الحالة النفسية ، فقال : ﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣٠] .

فحين يتسلم فرد أو جماعة مقاليد الحكم المطلق ، ويتسنى له قوة تحقق له ما أراد ، هنالك يعبث الفرد أو هذه الطاغية بتلك الشعوب البريئة المغلوبة المنكوبة كما يعبث اللاعب بكرة القدم ، أو كما يعبث الطفل بجانب القرطاس أنه يتصرف فيها كذرات رمل وقصاصات ورق ، ويعتبر أنه على حق في العبث بمصائرها ، والحكم عليها بالموت أو الحياة ، أو التخفيف عنها والتضييق عليها ، أو بسطها بسطاً أو قطعها إرباً إرباً .

ويقص علينا القرآن قصة فرعون الذي ظن نفسه رباً وحاكماً ، وتقلد هذا الحكم الأناني المطلق ، فيقول : ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

ثم يصور القرآن في موضع آخر فرداً من أفراد هذه الطبقة يمثل الأنانية والأغراض ، ويملك لساناً سليطاً وبياناً ساحراً ، إنه ليس صورة فرد معين ، بل إنه تصوير سلوك خاص ونمط خاص من العقلية والتفكير والاتجاه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

[البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٦] .

إن التاريخ الإنساني زاخر بهذه النماذج البشرية التي تمثل هذا الطراز وهذه العقلية ، مثلها في مختلف أدوار التاريخ كالروم والفرس ، وقد أنشأ فيهم هذا السكر : سكر القوة والحكم والشعور بالتفوق على غيرهم ، رغبة عنيفة في القتل والتدمير والإبادة ، وإذلال الكرامة الإنسانية تجلت في حروبهم ومعاركهم ، وفي عبادة القوة وقهر النفوس ، واضحة جلية ، يقول الدكتور درابر (Drapper) في كتابه « الصراع بين الدين والعلم » (Conflict Between: Religion and Science) :

« لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة التمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، وكانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتفُّ بهم خدام في ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان ، وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالاً ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون

يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً يتشحط في دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة ، فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعين إيرادات الأقطاع ، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام روما المدني يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها »[١] .

ثم قرأ غزو التتار الوحوش في القرن السادس الهجري في كتاب التاريخ[٢] ، إن الذين أحسوا في أول صدام بأنه ليس هنا في البلاد المجاورة قوة تمنع هذا السيل العرم ، وكانت مأساة إنسانية عامة ، لا تستطيع أن تقرأ تفاصيلها إلا بقلوب واجفة ، وعيون باكية ، إنها كانت فتنة عمياء سوداء ، أحاطت بالعالم الإسلامي كله ، وقوضت بنيان العالم المتمدن المعاصر وأركانه ، كان الجيل الإنساني كله في هذه الفترة المهيبة المروعة من الزمن في وحشة وغربة ، وهلع وفزع ويأس قاتل ظهرت آثاره لا في كتب التاريخ فحسب بل في كتب الشعر والأدب والأخلاق والتصوف أيضاً[٣] ، هذا الجراد المنتشر من الهمج لم يدمر البلاد العامرة المعمورة والمدن الزاهرة ، والأقاليم الخصبة الغنية المنتجة للرجال والنوابغ فحسب ، وجعلها خراباً يباباً وقاعاً صفصفاً ، بل إنه اكتسح الحضارة الإنسانية برمتها ، وتأخر تقدم العالم العلمي والمدني ومسيرته

---

(١) History of The Conflict Between Religion and Science. London 1927. p.p 13-2.

(٢) مثل البداية والنهاية لابن كثير .

(٣) اقرأ بعض تفاصيلها وأخبارها في كتاب العلاَّمة أبي الحسن الندوي « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » ج١ ، تحت عنوان « التتار محنة العالم الإسلامي » طبع دار ابن كثير ، دمشق .

الحضارية لعدة قرون ، وغشيت سماء العالم الإسلامي الذي حمل لواء الدين والأخلاق والعلم والحكمة في هذه الحقبة من الزمن ، سحب داكنة قاتمة من الانحطاط العلمي والإعياء الفكري والعقلي ، ونضبت فيه منابع النبوغ والذكاء ، وهاجرت أسر علمية دينية عريقة من إيران وتركستان ـ وهما كانتا محاضن العلوم الإسلامية ومعاقلها إذ ذاك ـ تفر بدينها وحرمتها وتراثها إلى الهند التي كانت تقع في أقصى بلاد العالم الإسلامي ، وكانت تحكمها أسر ذات قوة وشكيمة تواجه العاصفة بالإعصار ، وتملك القدرة على مواجهة التتر الوحوش ودحرهم إلى الوراء ، وأصاب العالم الإسلامي نوع من العقم الفكري والجدب العلمي ؛ حتى سدت بعض الأوساط العلمية أبواب الاجتهاد ومنافذه ، وابتغت العافية في التقليد والنقل ، وتطبيق الفعل بالفعل[1] .

إن قيصر ، والإسكندر ، وجنكيز ، وهولاكو ، وتيمورلنك ، ونادر شاه أفشار ، لم يكونوا إلا مرضى هذا الداء العضال ، داء السكْر بالقوة المادية ونشوة الحكم والتفوق بالعظمة ، وكانوا يقنصون الإنسانية ، ويصطادون النوع البشري ، ويدوخون الأسرة الإنسانية مرة بعد مرة ، بأسنتهم ورماحهم ، وبأقدامهم ونعالهم ، اقرأ تفاصيل ملاحمهم ، وصيدهم وقنصهم ، وعبثهم بالرؤوس والجماجم والأشلاء والأنفس والأرواح ، ثم تأمل ـ كيف قدم شاعر الإسلام محمد إقبال عصارة دراسات طويلة وآلاف من الصفحات في ثلاثة أبيات :

« انظر كيف مزق جنكيز وإسكندر رداء الإنسانية ، وهتكا ستر الحشمة ولباس الكرامة ففضحا الإنسان مراراً وتكراراً .

إن تاريخ الأمم يشهد منذ الأزل أن سكر القوة ونشوة الحكم خطر في خطر ،

---

(١) وهذا هو سبب انصراف العلماء من الاجتهاد إلى التقليد بعد القرن الثامن عشر الهجري عند إقبال .

ومصيبة على مصيبة ، إنه سيل جارف يكتسح العقل والفكر والعلم والمعرفة والفن والصناعة كحشائش ونباتات حقيرة ، يجعلها هباء منثوراً » .

قد يرى كثير من رجال الفكر في الشرق أن أوربة (بمعسكريها الشرقي والغربي) وأمريكا أصابتهما هذه العقدة النفسية ، وصرعهما هذا الداء القديم ، إنهم اعتبروا نفوسهم أوصياء (Guardians) على الشعوب والأمم والحاكمين على مصائرهم ، وهم يَزِنُون كل شيء بميزان القوة أو الربح والخسارة ، ولا يرضون بقيادة صالحة أمينة في أي بقعة من بقاع العالم ، ويحاولون أن يجتثوها حالًا إذا نشأت ، بل يرى كثير من المفكرين والخبراء في الشرق أن القيادة الغربية هي المسؤولة عن ذلك التدهور الخلقي والفوضى الفكرية العامة في البلاد الآسيوية بوجه عام ، وفي البلاد الإسلامية بوجه خاص .

هذا المنطق النفعي المجرد عن الحق والنزاهة لا يسمح للقيادة الغربية أن تفكر في أي قضية بحياد تام ورغبة مخلصة في التوصل إلى كنه الأمر ، وإيجاد حلها العادل ، بل إنها تحالف ـ بالعكس ـ الظالم القوي في وجه المظلوم الضعيف الذي له الحق .

ولذلك خابت المؤسسات العالمية النافعة مثل جمعية الأمم المتحدة ومجلس الأمن في مقاصدها ، وصارت لا تمنع صداماً ولا تلم شعثاً ولا تحقق أملاً ، ولا تقدر على إسعاف الإنسانية والأخذ بيدها خالصة مجردة من الأغراض المادية .

وقد زال بفقدان هذا العنصر الهام والعامل الأكبر (الإخلاص والحياد) تأثير معونات الغرب السخية في المشاريع العمرانية والغذائية في الشرق ، ولم تحقق كثيراً من مطالب الغرب ، ولم تكسب احترامه مقابل هذ المساعدات السخية والدعم القوي .

أما إذا اقترنت هذه القوة وامتزجت بغاية نبيلة سامية ، وصارت تحت توجيه قائد مصلح راشد ، فلا تتخبط كالفيل الهائج الذي أطلق من قيوده ، وتكون

مركباً ذلولًا لقائد عارف خبير لا راكباً ، تابعاً لا متبوعاً ، وسيلة لا غاية ، وتتحول إلى نعمة ورحمة بدلًا من عذاب ونقمة ، وحياة لا موت ، وأداة بناء لا معول هدم ، يستنجد بها في إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ، وتحرير الإنسان من سلاسل العبودية ، ورد الحقوق إلى أصحابها ، والمياه إلى مجاريها ، ورد اعتبار الإنسانية وكرامتها ومكانتها اللائقة في هذه الأرض ، هنالك يفتتح عهد سعيد ، ويبنى هذا العالم المنهار المتداعي من جديد .

يقول إقبال : « **إذا تخلت السياسة عن الدين صارت سماً ناقعاً ، وإذا كانت في خدمته صارت ترياقاً واقياً** » .

ويعتقد إقبال أن أروع نموذج وأجمل مثال لهذه القوة الممتزجة بالغايات النبيلة والمقاصد الصالحة ، هي الفتوح المباركة والمغامرات التي قام بها العرب الأولون الذين اعتنقوا الإسلام ، وحملوا رسالته ودعوته في الآفاق ، واستعمالهم للقوة التي آتاهم الله استعمالًا صحيحاً لائقاً ، والذي عبروا عنه على لسان سفيرهم بإخراج العباد من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إنه خاطب في الأبيات الرائعة الآتية الأمة العربية ، وشرح دورهم القيادي الرائع البنَّاء في تاريخ الشعوب والأمم والحضارات والمدنيات ، وأشاد بهذه العقيدة والإيمان والدعوة والرسالة التي كانت مصدر هذا الانقلاب ، ومنبع هذا التحول العظيم في سير الإنسانية واتجاهها ، وحركتها ومصيرها ، وهي من غرر كلامه وعيون شعره باللغة الفارسية :

« اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبي الأمي حلة أنيقة ، وأنبتت زهرة يانعة ، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي بل ترعرعت ونمت في حجره ، وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مديناً لأمسه .

لقد وضع قلباً نابضاً خفاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة .

هزم كل طاغوت ، وحطم كل صنم ، وأورق به كل غصن يابس وأزهر وأثمر ، إنه روح معركة بدر وحنين ، وإنه مربي الصِّدِّيق والفاروق والحسين .

أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصافات غيض من فيضه ، جعل سيف صلاح الدين البتار ، ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة .

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب والتقى بها روح الرومي بفكر الرازي .

واجتمع بها العلم والحكمة والدين والشرع ، والإدارة والحكم مع قلوب أواهة مخبتة منيبة في الصدور .

إن جمال قصر الحمراء ، والتاج الذي نال خراج الملائكة وإعجاب القديسين هو نفحة من نفحاته ، ولمحة قصيرة من لمحاته ، وومضة من أنواره وبركاته .

ظاهره تلك التجليات والنفحات ، وباطنه در مكنون لم يطلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون .

فلا ريب أنه يستحق ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم ، لأنه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التراب » .

من المفارقات العجيبة في هذا الكون أن الأشخاص الذين أنشؤوا إمبراطوريات عظمى ، ودخلت بهم الأمم المستضعفة الذليلة المهانة في دور النهضة والرقي ، والعظمة والكمال ، والنجاح والازدهار ، كانوا متقشفين صابرين مغامرين ، زاهدين في الدنيا وزهرتها ، أغنياء عن التنعم والعيش الرغيد ، وكانت معيشتهم بسيطة ومرهقة ، ولكنهم نجحوا بفضل مغامراتهم وطموحهم ، وعلو همتهم ، وجهادهم واجتهادهم ، وصبرهم على المكاره في تأسيس تلك الحكومات التي ثبتت كالجبال الراسيات لقرون طويلة ، ولكن توفر وسائل الهناء والرخاء ، والبيئة الفاسدة ، ووجود طبقة من المتزلفين وهواة المناصب ، أثر في أخلافهم وأعقابهم بصورة تدريجية فشلت قواهم ، وأخلدوا

إلى الأرض ، وتمرغوا في النعيم والترف ، وصاروا أبناء مطاعم ومشارب ، وسهرات ومآرب ، وعز عليهم الحياة من غير كاس ومزمار ، وطنبور وعود ، وارتكز ذكاؤهم ونبوغهم وإبداعهم على نقطة واحدة ، ولم تكن بالطبع ، نقطة الفتوح وحراسة الحدود ، وتوطيد أركان الدولة ، إنما هي تصميمات أزياء ، وأقسام أطباق ، والتنافس في الطرب والمجون والاستمتاع بلذات الدنيا ومباهجها ، ووصلوا في ذلك إلى حدود لا يتطرق إليها خيال ابن من أبناء البلد ، وفرد من أفراد الشعب .

إنه مبدأ عام جرى به التاريخ الإنساني منذ القدم ، وأخذ به من غير استثناء ويبدو لنا أنها سنة من سنن الكون ، ونتيجة طبيعية منطقية للمال والثراء والمنصب والجاه ، وتوفر أسباب الراحة والرخاء ، وقد كشف القرآن عن وجه هذه الحقيقة بإيجازه المعلوم وبلاغته المعجزة فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ ـ ٧] .

اقرأ تاريخ شعب من الشعوب في أي دور من أدوار التاريخ وحكومة من الحكومات التي قامت على وجه الأرض قديماً وحديثاً ، تَرَ هذا التفاوت واضحاً بين الأول والآخر وبين الأوائل والأواخر في السير والأخلاق وأنماط الحياة ، وفي الأقدار والمقاييس .

ونكتفي هنا بمثالين ونموذجين من هذه الأمة التي سبقت قريناتها في حمل لواء التعاليم الخلقية في هذا العالم ، وهي أمة نبي جعل الفقر شعار فخره ، وربط الأحجار على بطنه ، والتي أقامت به من أول يومها على الزهد والقناعة ، ومراقبة النفس والعطف على الخلق ، فإن أمثلتها ونظائرها تكثر ـ طبعاً ـ في الفرس والروم ، ومصر واليونان ، وفي حكومات وحضارات أخرى .

والواضح المعلوم لدى الجميع أن العرب حين خرجوا من جزيرة العرب لنشر رسالة الإسلام في العالم ، وإجراء شريعة السماء في الأرض كانوا فقراء ، غرباء عن حواشي الحضارة ومستلزماتها ، وكانت حياتهم حياة شكيمة وفتوة ، وصبر

وجلاد ، وزهد وشظف[1] ، ولكنهم بفضل القوة الذاتية في الإسلام ، وبحياتهم البسيطة الزاهدة التي فقدتها سائر الشعوب في العالم ، نجحوا في إنشاء دول عظيمة مرهوبة الجانب ، من بينها الدولة العباسية التي حكمت باسم الخلافة خمسمئة سنة حكماً مستقلاً ذاتياً ، ودان لها نصف العالم المتمدن المعاصر على أقل تقدير ، ولقد كان مؤسسو هذه الدولة الأوائل مثل هارون الرشيد والمأمون (مع مطامعهما الملوكية ومعيشتهما الفارهة وترفهما المعلوم) من رجال الفتوة والمغامرة والإقدام ، متعودين على حياة الجندية والفروسية ، ولكن أصاب هذه الدولة أخيراً داء الترف والتنعم ، وأصبح ولاة أمورها الذين حملوا عبء الخلافة الإسلامية على أكتافهم مدة من الزمن ، عالة على نفوسهم وأهوائهم ، ينساقون معها ، ويدورون في فلكها ، وصاروا فريسة الحكم الطويل والمدنية الناعمة المترفة ، وتكدست عندهم أسباب الراحة والهناء ، وفاضت عاصمتهما بغداد بسيل جارف من الغفلة عن الله ، والتهالك على الدنيا ، عبثت بكثير من رجال العلم والفضل ، وضرب حب الدنيا وحب ما فيها أطنابه على العاصمة ، وما جاورها من البلاد والأقاليم .

وظهرت نتيجة هذا الإغراق في الترف والتمرغ في النعيم والتهالك على حطام الدنيا ، والانصراف عن معالي الأمور في غارة التتر الوحشية في زمن الخليفة العباسي المعتصم بالله ، وتحولت عاصمة العلم والمدنية إلى مجزرة وحشية هائلة ينتكس عند ذكرها قلم المؤرخين[2] .

وقد صور مؤرخ أوضاع بغداد قبل غارة التتر فأحسن وأجاد ، يقول المفتي قطب الدين النهروالي المكي (وهو أحد المؤرخين والعلماء في القرن العاشر الهجري) يصف ما كان عليه أهل العاصمة في هذه الفترة من الزمن :

---

(١) اقرأ للتفصيل رسالة « المد والجزر في تاريخ الإسلام » للعلاَّمة أبي الحسن الندوي .

(٢) اقرأ للتفصيل « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، الجزء الأول ، باب « التتار محنة العالم الإسلامي » .

« مرفهون بلين المهاد ، ساكنون على شط بغداد ، في ظل ثخين ، وماء معين ، وفاكهة وشراب ، واجتماع أحباب وأصحاب ، ما كابدوا حرباً ولا دافعوا طعناً ولا ضرباً »[1] .

ونقدم المثل الثاني من الدولة المغولية في الهند التي أسسها ظهير الدين بابر التيموري (١٤٨٢ ـ ١٥٣٠م) على التوبة والإنابة وإرادة الإصلاح والتغيير والتضحية والفداء والعزم الصادق ، فلما رأى بابر أنه لا يملك غير عشرين ألف جندي مقابل مئة ألف مقاتل تحت راية « رانا سانجا » وأن لا أمل هناك ولا مدد سلك طريقاً جديداً للفتح ، يحكي المؤرخ الهندي الشهير محمد قاسم البيجابوري في كتابه (تاريخ فرشته) :

« إن رانا سانجا » توجه إلى بابر يقود مئتي ألف مقاتل من أهل البلاد ، وساد الذعر في جيش بابر ، ومنعه قواد جيشه وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهن منجم البلاد محمد شريف بأن الهزيمة محتومة ، ولكن بابر صمم على القتال وقال : إذاً ينبغي لنا أن نتهيأ للشهادة في سبيل الله ، وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنهم سيقاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كل جانب من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يكن يفارقها في وقت من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية ، وقاوم « رانا سانجا » بعشرين ألف مقاتل وانتصر عليه ، وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣هـ » .

ولكن تدرجت هذه الدولة الفتية التي قامت على مثل هذا العزم والحزم ، والتضحية والفداء ، وميثاق مع الله ، والتي تجملت وافتخرت بوجود عصاميين ونوابغ وعباقرة من بين أبنائها مثل « همايون » و « أكبر » و « أورنك زيب » إلى حمأة الرذيلة والإسفاف ، والشهوة واتباع الهوى ، واتباع الرغبات وإتيان

---

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ـ ١٨٠ .

المنكرات ، تجلى أخيراً بصورة واضحة مؤسفة في حياة « محمد شاه » (١٧١٩م ـ ١٧٤٨م) وما جرى في قصره حتى سمي باسم معناه (الماجن) واشتهر به .

وإليك ما جاء عنه في التاريخ مستنداً إلى شهادة علمية : « **إن الملك محمد شاه لم يغير دينه ولكنه غير ديدنه ، فصار الغيم نقيبه ورائده ، إنه أمر بأن يؤذن بالرحيل كلما مرت سحابة على هملايا وأومض برق ، ويغادر الخليفة وركبه القصر إلى الصحراء.. ولذلك سمي المسكين في الأخير « رنكيلاً » يعني « الماجن » وهجره وزيره (آصف جاه) عندما رأى حالته ، فانصرف إلى جبال الدكن وغاباتها** » .

وجاء في بيان الشيخ الكبير عبد العزيز الدهلوي ما يلقي الضوء على تلك الأوضاع الفاسدة :

« **كانت النساء في بيت قمر الدين خان (وزير محمد شاه) يغتسلن الغسل الأخير بماء الورد ، وكان يرسل إلى بيت أحد أمرائه كمية من الورود والأزهار والبان (التنبول) يساوي ثمنها ثلاثمئة روبية كل يوم** »[1] .

تأمل في غابر هذه الحكومات ومصيرها ، وماضي الأمم وحاضرها ، وما بينهما من تفاوت عظيم وبون شاسع ، ثم انظر كيف صور محمد إقبال هذا التاريخ الطويل العريض ، وأزاح الستار عن نهضة الأمم وتأخرها ، ورقيها وانحطاطها في بيت واحد : « **تعال أنبئك عن مصير الأمم وعاقبتها ، سنان ورماح أولًا ، ولهو وغناء آخراً** » .

ولكن هذا المقال لا يتم إلا إذا قلنا : إن هذه الأمم حين تدخل مرحلة اللهو والغناء والترف والمجون ، وتصيبها نوبة عصبية من التمتع بكل لون من ألوان التنعم ، والإحاطة بكل نعمة من نعم الدنيا ، وتتخطى سائر الحدود الخلقية ،

---

(١) تذكرة ص/ ١٧٢ .

والاعتبارات الإنسانية ، وتتجاهل كل حقيقة ، هنالك تتدخل الرحمة الإلهية وتتناولها بعملية جراحية ، ويختار لهذه الجراحة جنكيز وتيموراً ، أو هولاكو ، أو نادراً ، فيقطع هذا الناسور أو هذا السرطان من غير رحمة ولا هوادة ، إنه يقول :

« الملوكية تتحول بين يوم وليلة إلى جنون أو مجون ، وليس التيمور أو جنكيز إلا آلات جراحية تستعملها ـ في حينها ـ القدرة الإلهية » .

ولكن انتهى الآن دور الملوكية القديمة وحكومات شخصية مستبدة إلى حد كبير ، وجاء دور الديمقراطية والجمهورية ، تكدست قوى العالم وثرواتها في أيدي القيادة الغربية (أمريكا وأوربة) وهي تجتاز في هذا الوقت مرحلة الجنون والانتحار ، بعد أن وصلت إلى آخر نقطة من النهضة والرقي والازدهار ، وهي مرحلة مرت بها حكومات شخصية قديمة ، وحضارات بائدة في أوانها ، فلا ترى عندها الآن إلا معاداة الحقائق ، وإذلال الشعوب وهضم الحقوق ، وظلم المستعمرات والجاليات ، وحالة هستيرية عصبية من عبادة النفس ، وتقديس الشهوة ، وعبادة الهوى ، والإغراق في حياة اللهو والعبث والمجون ، والسآمة من الحياة ، والشذوذ الخلقي والجنسي ، والتهالك على كل عاجل وطريف ، ورد فعل عنيف ضد الاجتماع ، والغرام بالذاتية والأنانية ، والذهول التام عن العاقبة والمصير ، وإنكار كل ما يتعدى إطار اللذة والمنفعة ، وكل ذلك يدل على أن هذه القيادة فقدت معنويتها ، وضرورتها وصلاحيتها للبقاء ، وأن هذه الحضارة دخلت دور الاحتضار .

إن تجربة التاريخ تدلنا على أن قيادة فتية شابة كانت تظهر على مسرح العالم في مثل هذه الظروف ، فتقوم بعملية جراحية على هذا السرطان وتنقذ الإنسان من الهلاك ، وتجري في عروقه الميتة دماً فائراً جديداً ، ولكن الحضارة الغربية ما تركت على ظهر الأرض قيادة أو قوة ، ثم ليس هنا أمل في ظهور قيادة جديدة ، أو بروز حضارة شابة قوية في الميدان ، لأن القوى العالمية اليوم

متطفلة على مائدة الغرب وتعيش على هامشها وتتبع طريقها ، والحضارات المعاصرة بأسرها مستسلمة خاضعة أمامها ، لا تبغي بها بديلاً ، ولا تجد عنها محيصاً ، لذلك يبدو لنا أن هذه العملية الجراحية لا تتم على يد قوة أجنبية من الخارج ، وهي ليست في حاجة إليها لأنها ـ على ما يقول إقبال ـ مثخنة بجروحها الداخلية الغائرة .

إن الطريق الذي اختارته الحضارة الغربية والقوة الهائلة من التدمير والإبادة والقتل والفتك ، التي زودت بها أناساً لا يخافون الله ولا يستحيون من الناس ، أوشكت أن تقضي على نفسها ويأتي حتفها بيدها .

يقول إقبال :

« إن هذا الفكر الجريء الذي فضح قوى الطبيعة وأفشى أسرار الكون انقلب اليوم برقاً خاطفاً ورعداً قاصفاً ، يهدد عش الغرب ووكره ، وحصنه ومعقله » .

* * *

فكر محمَّد إقبال :

نورد هنا بعض الإيضاحات حول فكر وفلسفة محمد إقبال تتيح للقارىء إدراك مغزى قصائده .

الذات الكونية :

الكون في نظر إقبال ، بكل أشكال وجوده ، ثم خلقه ، يتماسك بفعل روحٍ أساسية شاملةٍ لكلِّ شيء . أو على الصحيح ينشأ منها كلُّ شيء . وتسمَّى (خودي) أو (شودي مع نطق CH على الطريقة الألمانية) . وهي ما ترجمناه في هذا الديوان بـ(EGO) (الذات بالعربية) ، ومع ذلك فإن (خودي) تختلف عن المعنى اللاتيني لهذه الكلمة أو المعنى الذي أعطاه لها (شوبنهور) مثلاً ،

كما تختلف عن الكلمة الفرنسية (MOI) التي تعارض (TOI) أو (SOI) وتقترب من كلمة (SELF) الإنكليزية ، وهي الكلمة التي ترجم بها إقبال نفسه هذا المفهوم .

الحياة :

الذات بحركتها تبدع الحياة ، وتدافع عنها ضدَّ نقيضها الموت ، وهي في نزاعٍ دائم مع الموت ، وتنتصر عليه على الدوام .

وإذا جاز لنا هذا التشبيه ، فالحياة مثل الجزيء في الطاقة الكهرطيسية ، توجد ما دامت تؤثر ، وهي تؤثر وتفعل بقوة الذات نفسها ، وضعف الذات يقلِّص في الحياة شكلها ومداها وقابليتها على الفعل والتأثير ، وعندئذ تضمر الحياة وتنتهي بالموت .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

قوة الذات تحوِّل حبة الخردل إلى جبل .

خور الذات يحول الجبل إلى حبة خردل .

الذات الفردية ، الأنا :

بفضل الزوجين تنهض الحياة من كلِّ جانب ، كأنها جيوشٌ جرَّارة . وهكذا تتجزأ الذات ألف مرَّة وألف مرَّة ، وتدفع الأفراد إلى الظهور في مشاهد كلِّيةٍ واسعة .

وعندئذ تصبح غاية الفرد البحث عن مجد الذَّات المطلق (الأنا) ، وتأكيد هذه الأنا بالسمو درجةً بعد درجةٍ ، ومرحلةً بعد مرحلةٍ إلى مستوياتها الرفيعة .

الذات : هي للكائن الفرد الشخصية والقدرة والكمال . وهي - في تطوُّرها وارتقائها ـ تضع المثل العليا ، وتحققها بجهودها .

الجهد العنيف :

طبيعة الذات نفسها تدفعها إلى بلوغ الكمال إلى أقصى حدٍّ ممكن ، وإلى بذل الجهد العنيف .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

يتجاوز الهلال كلَّ وجوهه وجهاً بعد وجه .

من يستطيع بلوغ الغاية القصوى دون جهدٍ كبير ؟

ولبلوغ الكمال لا يجوز لك أن تتجنَّب الصِّعاب ، بل يجب عليك أن تتغلب عليها .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

غاية ثورة المؤمن .

أن تتجلَّى عليه ذاته .

والحقُّ أن موسيقا الكون الخالدة لا تقوم إلا على العقبات .

قال إقبال (في رسالة المشرق) :

لا تتجنب الأزمنة الصعبة .

من لم يتخطَّ العقبات لا قيمة له .

ألا تعرف أنَّ الموجة

لا تكون ممتعةً إلا عندما تلطم الصُّخور ؟

الحب والجمال :

هذا الجهد الشَّاقُّ الذي يدفعك إلى تسلق مرتقى الوجود ، والذي يمثل ظاهرة الذات ، هو الحب .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

الحبُّ أن تبصر الذَّات ، الحبُّ أن تصون الذَّات .

وقال :

جوهر الحياة هو الحبُّ ، وجوهر الحبِّ هو الذَّات .

وهكذا فإن ما نبحث عنه هو الجمال . والذَّات الفردية ، وهي تتكامل بدافعٍ من طبيعتها ، تنسجم مع الذوات الأخرى ، وتصل إلى مرتبةٍ عليا هي مرتبة الجمال .

الجمال موجود سلفاً ، ولكن نور الحبِّ يزيده غنىً بنوعٍ من حادثة الطنين ، يكاد يكون سحرياً .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

بالحبِّ تزداد الوردة ، وشقائق النُّعمان روعةً وجمالًا .

في نظرة الشاعر ، ذي الصوت الذهبي ، شيء من السحر

في منظور إقبال أنَّ تقدُّم الذات الفردية يدلُّ على الوجهة التي ينمو فيها الجمال ، كما أنَّ تراجع الذات يدلُّ على الوجهة التي يزداد فيها القبح[١] .

قال إقبال :

كلُّ ما يبعث على سموِّ الذات جميل .

كل ما تدعو إليه الدناءة قبيح كريه .

الفن :

يُعرِّف إقبال الفن بهذه العبارات انطلاقاً من مفاهيمه عن الحبِّ والجمال .

قال في (عصا موسى) :

البحث عن الجمال هو الفن .

---

(١) وهذا ما يحدث في الفيزياء فالقصور الحراري مثلاً يدلُّ على الاتجاه نحو الفوضى ، وهذه الظاهرة يمكن أن تساعد على إدراك فكرة محمد إقبال حول هذه النقطة .

وقال في (جناح جبريل) :

الألوان ، الآجر ، الحجارة ، الكمان ، الكلمات ، الرنات ،
كلها يفتقها سرٌّ الفنِّ على حساب جوهرنا .

والفن يقدِّم أدلَّته تمجيداً للذات ، والذَّات هي المعيار الوحيد للحكم على قيمته .

الفنُّ يبعث الحياة في كلٍّ من يقتربون منه ، ويفعمهم بالحماسة والنشاط ، وفرح الحياة الذي يتجلَّى على وجوههم .

قال في (عصا موسى) :

إذا سمعت أغنيةً فلم تنر وجهك ،

فمعنى ذلك أنَّ المغني بارد القلب .

وقال في (جناح جبريل) :

الشاعر جريءٌ ، إنه يجمِّل الطبيعة .

وقال فيه :

يا شقيقة النعمان ! أيتها العروس ! ما لك تحتجبين عني ؟!
فأنا لست إلا نسمة الصباح .
والإبداع لا يفتر ، والخلق يطَّرد دون هوادة .

في كلِّ لحظةٍ نسمع من يقول : لو كان هذا ، ولو كان ذاك ، ولكنَّ الإنسان ، حين يكون فنَّاناً حقيقياً ، يسهم في عمل الخالق .

قال إقبال في (رسالة المشرق) :

أنت خلقت النهار ، وأنا صنعت المصباح .

أنت خلقت الطين ، وأنا صنعت الأقداح .

أنت خلقت الغابة والجبل والصحراء ،

وأنا صنعت الرواق ، والبستان والكرم .

أنت خلقت الحجر ، وأنا صنعت منه المرآة .

أنت خلقت السُّمَّ ، وأنا استخرجت منه الترياق .

الفن الجميل الوحيد هو الفنُّ الذي يسمو بالروح ، ويلهم الشَّجاعة ، ويوحي بالأمل ، ويعلِّم العيش في شرف .

أما الفنُّ الذي يفسد الروح ، ويتلفها ، ويضعف الحماسة للعمل والحميَّة لاكتشاف أسرار الطبيعة ، الفنُّ الذي يضعف الذَّات ، ويجعلنا عبيداً للناس ، فليس إلا فناً شيطانياً (كما ورد في عصا موسى وأسرار الذات) ولنتذكر هذه الحكمة الهندية :

الحقُّ قوةٌ وجمال[1] .

نفي الذات :

تجنح مجموعةٌ من الذوات الفردية بطبيعتها ، وهي تسعى نحو الرُّقيِّ والكمال إلى الذوبان في « أنا » جماعية ، وبذلك تخلق ذاتاً لمجموعة تزداد تطوراً وسعةً شيئاً بعد شيء . هذه اللأذات في المستوى الشخصي تُكوِّن الذَّات في المستوى الجماعي ، وليس في ذلك تخريب للذَّوات الفردية ، بل فيه ما يدعو إلى دعمها وانسجامها .

قال إقبال في (أسرار نفي الذات) :

نفي الذات هو غاية الذات الشخصية ، بل إنَّه دليل ارتقائها .

وقال في (جناح جبريل) :

ما أسعدني عندما يوهب لي ذوق الذَّات .

إنه يدفعني إلى الخروج من ذاتي .

ويمكننا إيضاح هذه الفكرة بقولنا : إن المجتمع الإنساني على النطاق

---

(١) ساتيام ، شيدام ، سندرام ، بالتوالي ، Satyam, chidam, Sandram .

العالميّ سيتمُّ إنجازه بالتعاون على قدم المساواة بين كلِّ الأفراد في أوج ازدهارهم ، لا بسيطرة بعضهم على بعض .

الإنسان الكامل :

نفي الذات يبني مجتمعاً لأناس كملة ، تتمتَّع ذواتهم بأقصى ما لها من بريق . الإنسان الكامل يعشق الحقَّ في أقصى مداه ، والذات في أوج مجدها . عبر الحب تصبح الذات حياةً ، ولأن الذات خالدةٌ ، فالحياة وهي مظهر الذات خالدةٌ كذلك ، ولأن الحبَّ يدفع إلى رقيِّ الحياة رقياً دائماً ، فهو خالد ، وخالدٌ كذلك كل ما يُنجزه الحبُّ .

قال إقبال في (جناح جبريل) :

يا مسجد قرطبة ! وجودك هو الحب .

الحبُّ خالدٌ ، وما من شيءٌ آخر كاملٌ .

الحب يفتح القلوب ، ويهب للعاشق الرقَّة ، والوجد ، ولحن الصَّرخة في منتصف الليل ، ودموع الصباح ، واستقلال مثل هذا العاشق يجد نبعه في نظامٍ تتبعه الذات الشخصية في طاعتها للذَّات الكونية .

وهكذا يتكوَّن الإنسان الكامل الذي هو سيِّد الكائنات في الأرض وفي السماء ، والذي يقنع بالقليل ، أي بالفقر ، « الإنسان المتجرِّد » الذي تحرَّر من كلِّ ما في العالم من مغريات ، لأنه ، حين يسيطر على كلِّ شيء ، ليس محروماً أيَّ شيء ، وهكذا يتجرَّد . إنَّ هذا الوحي الربَّاني هو الفقر .

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الزهد ليس في هجر الطين والماء .

خير أنواع الزهد في غزو كلِّ زاوية في الأرض والسماء .

ويطلق إقبال على إنسانه الكامل على حسب ما طرأ عليه من تحوُّلات ، وما

قطع من مراحل الكمال لقب « الإنسان الحر » « الإنسان الجسور » « القلندر » « الإنسان المتجرد » « الدرويش » إلى غير ذلك من الألقاب .

هذا الإنسان الكامل هو روح الإنسانية المشخصة . وهو في نظر إقبال في سموِّه ، وفي رشاقته المثل الأعلى للإنسان المتوازن خير توازن يمكن أن نتصوره :

ونرجو أن تسمحوا لنا بالاستشهاد بقصيدتين من ديوانه (عصا موسى) :

المؤمن

(في هذا العالم)

ناعمٌ كالحرير في حلقة الأصدقاء .

صلبٌ كالحديد في معركة الحقِّ والباطل ، هذا هو المؤمن .

ينازع السماء ، كأنه ندٌّ لها .

يحتقر الأرض ، وهو من الأرض ، هذا هو المؤمن .

لا تجتذب السُّمانى والحمام بصره .

بل يقتنص جبرائيل وإسرافيل ، ذلك هو المؤمن .

(في الجنة)

تقول الملائكة : « ما أشد فتنة المؤمن ! »

وتشتكي الحور : « ما أشد بُعد المؤمن ! »

والقصيدة الثانية

الإنسان المسلم

يبدو المؤمن كلَّ لحظة في نهارٍ جديد .

يتجلى الله في أقواله وأفعاله .

السلطان ، والرِّفق ، والصفاء والقدرة الكلية :

هذه العناصر الأربعة ضرورية لبناء المسلم .

إنَّه جار جبريل كما هو إنسان الأرض .

لا يرتبط ببخارى ولا ببدخشان .

ما من أحدٍ يعرف هذا السر : المؤمن .

الذي يبدو أنه قارىء (القرآن) وهو القرآن حقاً !

نواياه على مقياس مصائر الطبيعة .

إنَّه الميزان في هذا العالم ، إنَّه القسطاس في يوم الحساب .

إنَّه الندى الذي ينعش قلب شقائق النعمان .

إنَّه الشي الذي يرعش قلب الأزهار .

أيامه ولياليه تعزف لحن الطبيعة الخالد ،

لحناً مثل سورة (الرحمن) في القرآن ليس لموسيقاها نظير .

في معمل فكريٍّ تُصنع النجوم .

وأنت يا هذا ! اعرف نجم قدرك .

وانظر كذلك قصيدة (مسجد قرطبة) في جناح جبريل .

الإسلام :

المثال أكثر بلاغة من المفهوم : ولد إقبال ونشأ وعاش في مجتمعٍ إسلامي ، وكان من الطبيعي أن يبحث عن عناصر تفكيره في تاريخ هذا المجتمع .

وبدا لإقبال أنَّ خير نموذج يقترحه ، وأنَّ خير نظامٍ اجتماعيٍّ هو أكثر

النظم قرباً من أحلامه ، إنما هو الإسلام في نقائه الأصيل .

ومنذئذ جعل يشرح طوال حياته هذا النظام حسب حاجاته ، واستخلص منه رموزاً شعرية ، ومجازاتٍ وإشاراتٍ ، نجدها مبثوثةً في كلٍّ ما كتب ، ونظم .

والحقُّ أنَّ إقبالًا وحَّد بين الذات الكونية وبين الله ، كما فهم الإسلام وكما فعل (تيكهارد دو شاردان) تقريباً وهو الناشىء في محيطٍ مسيحي ، حين وحد بين (المسيح الكوني) ـ كما ورد في الإيمان ـ وبين نقطة (أوميغا) أي بين البداية والنهاية في العلم .

وهذه النقطة جرى تعريفها على أنها النهاية القصوى (Noo- genése) التي تتعلَّق بالوجود كله ، والتي ليست خاليةً من بعض أوجه التشابه مع مفهوم الذات الكونية .

ويرى إقبال في شخصية الرسول ﷺ الإنسان الكامل ، كما يجد المجتمع المثالي في صحابته ، مثل أبي بكرٍ الصديق ، وعمر الفاروق ، وعليٍّ ، وأبي ذر ، وسلمان الفارسي ، وأويس القرني ، وخالد بن الوليد. . . إلخ ، رضي الله عنهم أجمعين .

ولقد عاشوا جميعاً حياةً نموذجيةً ، ووضعوا حبَّ رسولهم ، وطريقة سلوكهم الذي علَّمهم إياه فوق كلٍّ شيء : ألا وهو الذات الفردية التي بلغت حدَّ الكمال ، والتي ذابت في الذَّات الجماعية ، دون أن تتخلى عن قيمتها الشخصية .

ويقارن إقبال بين إنسانه الكامل وبين المفهوم القرآني للإنسان (خليفة الله في أرضه) ويرى أنَّ كون الإنسان خليفة الله في الأرض أرقى درجات الرقي الإنساني . (أسرار الذات) .

والنبيُّ ﷺ وإنَّه ﴿ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ كما ورد في القرآن الكريم ، هو أفضل مثل على هذا الخليفة .

ويستطيع كلُّ مؤمنٍ باتباع القرآن الكريم أن يصل إلى هذه المرتبة ، ويتبنَّى إقبال فضائل الرسول ﷺ ليزين بها نموذجه في (الإنسان الكامل) .

وهناك ما هو أكثر من ذلك ، فإقبال يشبِّه الرسول أحياناً بالله نفسه ، وينسب إليه الصفات الإلهية مثل (الرحمن) وفي هذا التشبيه ما يشير إلى فكرة إقبال من أن العبد يسلك سلوك السيد ، وما يشير إلى العناصر الأربعة التي تصنع المسلم في اشتراكها معاً .

ثم إنَّ إقبالًا تصوَّر هذا المفهوم الوارد سلفاً في جناح جبريل :

الذات . .

إنها البحر الذي تحتويه قطرة ماء .

ويقرن هذه القطرة من الماء بالبحر المبدع .

إقبال المتمرد :

الثورة والتمرد يحتلَّان مركز تفكير إقبال .

يهاجم المحترفين ، وإذا جاز لنا القول : يهاجم محترفي رسالة الدين .

قال في (جناح جبريل) :

ما أجدر أصحاب المناصب العالية في الكنيسة وفي الإسلام بالرثاء !

حصاد جهودهم ظلمة قلوبهم !

وقال في (جناح جبريل) أيضاً :

هل في مسجدك غير المواعظ ؟

كل أحكامك حق ، ولكنَّ المفسرين

يستطيعون ، وهم يفسرونها ، أن يجعلوا من القرآن (بازند) المجوس .

وقال :

البحث عن المعاني الكاملة في مذهب من المذاهب

يعني تدميره في بساطة .

ويشكو إقبال نظام التربية التي يتلقاها الشباب .

قال في (جناح جبريل) :

أشكو إليك يا رب ! هؤلاء الأرباب : أساتذة المدارس :

إنَّهم يعلمون الشَّواهين الصغيرة العبث بالغبار .

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

يبني معلم المدرسة صرحاً ،

صناعته روح الإنسان .

من أجله قال الفيلسوف (كاغاني) كلمةً سحرتني :

« لا تبن جداراً أمام الشمس

إذا أردت نوراً في باحة دارك » .

وقال في (جناح جبريل) :

تركت المدرسة والدير ، وأنا جدُّ حزين ،

فليس فيهما حياة ، ولا حبٌّ ، ولا معرفةٌ ، ولا بصيرةٌ !

ولذلك حمل إقبال على الزُّهد الساكن البليد في اللاهوتي والصُّوفي :

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الزُّهد ليس في البعد عن عالم الماء والطين !

خير أنواع الزُّهد في إخضاع هذا المخلوق من الطين ، هذا المخلوق من النور .

وورد في (أسرار الذات) :

الحقُّ يقوم على تأكيد الذات أكثر من نكران الذَّات .

وهناك نصان جديران بالذكر أثارا عاصفة من الاحتجاج عند المسلمين

(الأصوليين) وهما قصيدتان مثيرتان ، هما : (شكوى إلى الله) و(جواب الشكوى) كتبهما إقبال حوالي عام ١٩١٥م . وفي هاتين القصيدتين يهاجم إقبال الله عزَّ وجلَّ هجوماً عنيفاً ، على ما يتصور أنه موقف متباين تجاه الناس . كما يحارب إقبال فكرة القدر الذي لا مفرَّ منه .

يقول في (جناح جبريل) :

كيف يستطيع هذا النجم أن يدلّني على مصيري ،
والنجم نفسه مهينٌ منبوذٌ في رحاب الفضاء ؟

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

لماذا تخضع إلى قدر العناية الإلهية ؟
لماذا لا تصوغ أنت بنفسك قدرك ؟

وقال :

هذا الذي يقول الحمقى : إنه أسير القدر ،
ما يزال يملك القدرة على تحطيم القدر .

والصحيح ما قاله في (رسالة المشرق) :

أن تعيش لحظةً واحدة وأنت أسد
خير لك أن تعيش نعجةً إلى الأبد .

وفي إطار هذه النزعة رسم إقبال صورة إبليس ، ويذكرنا هذا الشيطان في بعض ملامحه بـ (بروموثيوس) سارق النار :

لقد تزوَّد إبليس بتلك الشجاعة النموذجية التي تثير العواصف في الجداول ، والأنهار ، والبحار ؛ بينما يظلُّ رسل الإله ، مثل الخضر ، وإلياس لا يعملون شيئاً كما ورد في (جناح جبريل) .

إنَّ شجاعة إبليس هي التي منحت قدرة الطين (أي : الإنسان) النزعة إلى النماء والارتقاء . كما ورد في هذا الديوان .

وإبليس يقيس نفسه بالإنسان : أيمكن أن يصبحا ندَّين يتنازعان ؟ أيمكن أن يكونا حليفين يتعاونان . وا أسفاه! ما أسهل هزيمة الإنسان ! وعندما يخيب أمل إبليس يحتجُّ هذا الاحتجاج أمام الله :

قال إقبال في رسالة الخلود (جاويد نامه) :

ما ابن آدم ؟ حفنة من الهشيم !
تكفي شرارةٌ واحدةٌ منِّي للقضاء على هذه الحفنة من الهشيم .
إن لم يكن في هذا العالم غير الهشيم ؛
فلماذا وهبت لي كلَّ هذا المقدار من النار ؟
كسر المرمر شرف لي ،
أما كسر الزجاج فعارٌ عليَّ .

فلسفة إقبال :

فلسفة إقبال في الذات ونفي الذات فلسفةٌ فرديةٌ ، وفلسفةٌ اجتماعية في آنٍ واحد، ولها تطبيقاتها في النواحي الثقافية (كالناحية اللغوية مثلاً) والاقتصادية، بل والسياسية .

انتشر في زماننا مفهوم التقارب والتضامن ، وتقدَّمت الفكرة القائلة بأن في إمكان مجموعات كبرى من الناس أن تتوحد ، وأن تصون أصالة بعض الوحدات الصغيرة المتجمعة ، وازدادت الدَّعوة إلى صيانة قيمها الذَّاتية .

ونحن نجد في الميدان الثقافي مثلاً أن رسل « الزنجية » يرون فيها إضافةً إلى إنسانية ذات أبعادٍ كونية . ونجد في الميدان السياسي أنَّ أوربة تسعى إلى الوحدة دون أن تتخلى عن هوية أقطارها . ثم أليست عصبة الأمم ، والأمم المتحدة بمؤسستيها GUS, ONU محاولة للتقارب والتعاون بين الشعوب لتحقيق وحدة الجنس البشري ، هذه الوحدة التي يتطلع إليها إقبال .

وعزيمة الشاعر وأهدافه ذات أبعادٍ عالمية .

قال في (رسالة الخلود) :

الإنسانية هي احترام الإنسان ،
إذاً فيجب الاعتراف بدرجته الرفيعة .

ثم إنَّ تفسير إقبال للإسلام نجد فيه غالباً رنةً عالميةً ، تؤثر في قرائه من غير المسلمين .

ونحن إذا تناولنا مذهب إقبال حسب مفاهيمه الفلسفية الشخصية ، بدا لنا أنه عمد إلى قلب كثير من معاني الألفاظ المدرسية القديمة ، واتَّخذ منها رموزاً جديدة .

ولنضرب مثالًا على ذلك كلمة (خودي) التي كانت مرادفة للانطواء على الذات ، والتي أعطاها معنى (احترام الذات) وكلمة (الفقر) التي تعني عادة التقتير والحرمان ، فاستعملها للدلالة على (السيطرة الأخلاقية) .

إذاً فعلينا أن نفهم هذه الرموز في معناه العريض :

المؤمن ، والمسلم يعنيان : الإنسان المثالي .
الكعبة ، والحرم ، والمعبد تعني : الهدف .
السجود يعني : الجهد العنيف .
الصلاة تعني : الرغبة المحرقة .
الأذان يعني : الدعوة إلى العمل والجهد
وهكذا دواليك .

وإذا كان من الممكن أن يبدو إقبال (هرطقياً) في عيون بعض المسلمين ، فإنَّ مداه تجاوز حدود العالم الإسلامي ، فقد قام بدراسته في (لاهور) و (كمبردج) و (هايدلبرغ) و (ميونيخ) . ولم ينقطع قط عن إذكاء طيب شعره بمواد كثيرةٍ متنوعة . جاء بعض هذه المواد من تبحره في التاريخ ، والفلسفة ، والحقوق ، واللاهوت ، وجاء بعضها من ملاحظاته : من حرية

الشعوب واضطهادها ، وألمه وهو يقظان ، وحلمه بالمجد وهو نائم ، من فورة الأفكار الجديدة ومن ألعاب السياسة ، ومن الحروب المدمِّرة ، ومن المساومات و(المناورات) في زمن السلم ، ومن المجابهة بين الشرق والغرب .

لقد أصبح إقبال شاعر الشرق في نهضته ويقظته بهذه الأشعار الحارَّة المغامرة الجريئة ؛ علمنا الإيمان بمستقبلٍ مشرقٍ علينا أن نبدعه بأنفسنا ، واستهوت الشباب أجوبته الواقعية الحية على ألغاز الوجود ، وألهمت عدداً لا يحصى من القراء ، بل إنها ما تزال تفتن الناس حتى الآن ، وسوف تستمر في فتنتها وسحرها إلى أمدٍ بعيد .

ذلك أن إقبالًا ظلَّ طوال حياته روحاً متفتحة ، جعلت آلام الناس جميعاً آلامها الذاتية ، وأحيت في الكائن الإنسانيِّ عنصر الإنسان المبدع الذي يتعاون مع الله ومع الطبيعة .

قال في (جناح جبريل) :

رغم أنَّ الطبيعة لا ينقصها الذوق ،
فاصنع أنت ما لم تستطع الطبيعة صنعه .

وقال في (أجراس سفر القافلة) :

ماذا يلزم الإنسان : طبعٌ رفيعٌ ، وظمأ إلى الصفاء ،
قلبٌ حارٌّ ، عينٌ نقيَّةٌ ، روحٌ قلقة[1] .

* * *

---

(١) ديوان « جناح جبريل » ترجمة الأستاذ عبد المعين ملّوحي ، ص١٧ ـ ٣٥ .

فلسفة محمّد إقبال

لا بد من كلمة موجزة في فلسفة محمد إقبال تعين القارىء على إدراك مرامي الشاعر .

أساس فلسفة إقبال ما سماه « خودي » (الذات أو الذاتية) .

وقد بين مذهبه هذا في كثير من شعره وخص به منظومة سماها أسرار خودي .

وخلاصة هذه الفلسفة ، وما بنى عليها ، وما يتصل بها من آراء :

(أ) أن الذاتية جوهر الكون وأساس نظامه ، وسر الحياة فيه .

(ب) وأن الذاتية هذه تحيا من تخليق المقاصد ، وتوليد الآمال .

كما يقول إقبال : « **نحن أحياء بتخليق المقاصد ونحن منيرون من شعاع الأمل** » .

(جـ) وأن الذات تقوى بعشق ما تؤمل ، وسعيها إليه غير متوانية وإقدامها عليه غير هيابة واقتحامها كل عقبة في سبيله كما قال :

« **وهي بالمحبة أقوى ، وأحيا وأضوأ** » .

(د) والجهاد الدائم ، والكفاح المتصل تقوى به الحياة وتزداد وتنير . والأحجام ، والتردد والسكون إلى الدعة والخضوع تضعف الحياة وتطفئها .

(هـ) وعلى الإنسان أن يستخرج كل ما في فطرته من مواهب ، وأن يعتمد على نفسه ، ويظهر ذاته في قوله وفعله ، ويحذر التقليد والاعتماد على غيره ، وطلب ما عند الناس والغفلة عما في نفسه من كنوز .

(و) بهذا كله تقوى الذات ، وقوة الذات هي مقصد هذه الحياة . والشاعر

معجب بالقوة في كل شيء ، القوة الحسية ، والقوة المعنوية . وهو بهذا يعجب بالفيلسوف الألماني نيتشه ويذكره كثيراً ولكنه يأخذ عليه أنه عرف العقل لا القلب ، والجسم لا الروح ، والعلم لا العشق ويقول عنه لم يكن أهلاً لنكتة التوحيد ، وأنه آمن عقله وكفر قلبه ، وأنه بنى على أسس مسجد .

بل القوة عند إقبال من عناصر الجمال ، فإن الجمال لا يكون بغير جلال .

يقول في القطعة التي عنوانها : الجلال والجمال :

عندي جمال في بهاء أن تُرَى — في سجدة للقوة الأفلاكُ
ولنغمةٌ من دون نار نفخة — ما الحسن إلا بالجلال يُحاكُ

بل يقول في هذه القطعة إنه لا يحب أن يعذب بنار غير قوية :

لا أرتضي نار الجزاء ولم تكن — وهاجة ولهيبها درّاكُ

(ز) والحسن والقبح أو الخير والشر من علو الذات وانحطاطها وقوتها وضعفها :

عالم الذات به علو وسفل — وبه معرك قُبح وجمالِ
في اعتلاء الذات ما يبدو جميل — وقبيحٌ ما بدا في الاستفال

(ح) والذات المفردة القوية الناضجة تنسلك في الجماعة ، ولا تفنى فيها . وقد بين إقبال في ديوانه أسرار خودي كيف يلتئم الواحد القوي في جماعته وكيف يسعد بهذا الالتئام ويبقى ولا يفنى . ومن إشاراته في هذا :

يا من في القافلة سِرْ — رفيقاً وكن وحيدا

ويقول في ضرب كليم في القطعة التي عنوانها الرجل العظيم :

هو في المجمع خال — ومن الحشد طليق
مثل شمع الحفل ، في الحفل وحيد ورفيق

الحضارة الحديثة

ويروي إقبال أن الحضارة الأوربية مادية ، لا روح لها ولا قلب ، ويشتدّ في نقدها ، ويذكر فلاسفتها فيقبل من آرائهم قليلاً ويردّ كثيراً ، ويرى أن في الإسلام وحضارته سعادة البشر والتأليف بينهم ، وجمعهم على شرعة الحق أخوةً متحابّين متعاونين .

فلسفته في هذا الديوان

تتجلى فلسفة إقبال في الذات وما يتصل بها ونظره إلى الحضارتين الإسلامية والأوربية ، وسائر آرائه ، في كل فصول هذا الديوان ، حتى الأدب والفنون الجميلة .

الشعر فيه من الحياة رسالة ... أبديَّة لا تقبل التبديلا
إن كان من جبريل فيه نغمة ... أو كان فيه صُور إسرافيلا
صمت طير الصبح أولى من غناء ... إن سرى في الرَّوض باللحن ذبولا

والغناء إن أدى إلى ضعف أو خَوَر فهو حرام :

إن سرت في اللحون دعوة موت ... حرُم الناي عندنا والربابُ

(ط) والإنسان أعظم الكائنات ، وكل شيء في العالم مسخّر له كما في القرآن الكريم :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ

﴿ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٢ـ٣٤] .

(ي) والإنسان حرّ غير مجبر ، ومخيّر غير مسيّر . عزمه دليل على القضاء أو مشير عليه . والمؤمن الحر هو مقياس الصلاح والفساد ، والبقاء والفناء في هذه الدنيا بل في الدنيا والآخرة .

فيه عزم على القضاء مُشير ... وهو في العالمين كالميزان

النبات والجماد في قهر الطبيعة ، ولكن المؤمن الحر لا يقيده إلا إطاعته أحكام ربه :

إن النبات وإن الجامدات لها ... من القضاء قيود ذات إحكام

والمؤمن الحر لا شيءَ يقيّده ... لكنْ لخالقه في قيد أحكام

والمصور ينبغي أن يصور الحياة وأن يطبع ذاته على الطبيعة لا أن يحاكيها :

مقصد الفنّ في الحياة لهيب ... أبدى فما وَميضُ الشرار ؟

يا خبيراً بفنه فيه تمت ... صنعةُ العصر والعصور الخوالي

كم ترى من طبيعة وتريها ؛ ... أرِنا الذات فوق هذي المجالي

* * *

تفسير اصطلاحات في الديوان

« الفقر »

يشيد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ، ويعدّه مفتاح كل خير والوسيلة إلى كل سؤدد ، والمقتحم كل عقبة .

ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان :

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيها المسلم تَدري اليوم ما ... قيمة الفولاذ والعَضْبِ الذكَر

هو مِصراعٌ من البيت الذي ... مضمرٌ فيه من التوحيد سر

وأرى مصراعَه الثانيَ في ... سيف فقر تحتويه كفُّ حر

وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

الفقر يمضي بلا سلاح ... في حومة الحرب كالرجوم

وقوله في قطعة « السلطان » :

تعلّم فألف مقام وشأن ... لفقر بدا فيه روح القُرآن

وقوله في قطعة « الإمامة » :

يُمرّ عليك من فقر مِسَناً ... فيطبع منك سيفاً للمنايا

وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :

أيُّ ملك مقام فقر ، ولكن ... تؤثر الذل مذعناً ما احتيالي

وقوله في القطعة التي أولها : متاعك في الحياة فنون علم .

وما إن ذل قوم قد أعدّوا ... حماس العشق والفقرِ الغيور

ويتبين من التأمل في هذه الأبيات أن الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو

قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتز به من متاع الدنيا . فماذا يعني إقبال حين يذكر الفقر ويشيد به ويبالغ في إكباره ؟ الذي أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذي يعنيه هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ، ومضيها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربما يكون ملكاً مسلَّطاً لا يُعجز سلطانه مال أو متاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عما فسَّر به بعض الصوفية الفقر .

ففي رسالة القشيري :

سئل يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغني إلا بالله » .

وقال الشبلي :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صَدَق في فقره » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وقيل صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره » .

وفي كتاب عوارف المعارف للسهروردي :

« وقال الكتاني : إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى ؛ لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أن الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فات ، أعني ألا تكون الدنيا في قلبه وإن كانت في يده .

قلندر

يعني به إقبال الإنسان الذي لا يصل نفسه بمال ولا أهل ولا دار .

وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب وأحدث طريقة كان سالكوها يديمون السفر لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ولا أهل ولا وطن ويحلقون رؤوسهم ولحاهم .

وسمى سالك هذه الطريقة قلندراً باسم صاحب الطريقة .

وقد رأيت أن أبقي اللفظ في الترجمة لأنه علم في الأصل ، وجعلته أحياناً وصفاً وأحياناً نسبت إليه فقلت : القلندر والقلندريّ .

الجنون

يكرر الشاعر ذكر الجنون في الديوان ، ففي القطعة التي أولها :

إلى عصبات العرب ما أنا مُنْتَمٍ ولا أنا هندي ولا أنا أعجمي

يقول :

فلست أرى في بيدك اليوم جنّة تشبّ بهذا العقل نار التقدم

وفي القطعة التي أولها :

متاعك في الحياة فنون علم :

يقول :

ومزّقتُ الجيوبَ وأنت خال جنوني - لا ألومك - في قُصور

وفي القطعة ، « يا شيخ الحرم » :

في جنوني لك أسرار بدت فاجْزني يا شيخُ عن هذا اللمم

وفي القطعة التي عنوانها « المدرسة » :

أبعَد الدرس عن حماك جنونا　　قال للعقل : لا تَلُذْ بنقاش

وفي القطعة « فلسفة » :

إن في حلقة المجانين عقلاً　　في شرار يرى لهيباً مُضيّا

وظاهر أن إقبالًا يعني بهذا الجنون الحماسَ والإقدامَ وأداء الواجب دون تردد ، وفي غير حساب للمشقة والربح والخسارة ، فهو قريب من العشق الذي يذكر في مقابلة العقل .

وكأنه يقول : إن هذا الإقدام يَعُدُّه الناس جنوناً ، ونحن نحب هذا الجنون[1] .

* * *

---

(١) من أراد أن يستزيد من الاطلاع على سيرة وحياة الشاعر العظيم محمد إقبال ، فليقرأ « محمد إقبال سيرته وفلسفته » للدكتور عبد الوهاب عزام ، و « روائع إقبال » للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، و « إقبال الشاعر الثائر » للأستاذ نجيب الكيلاني ، و « محمد إقبال الشاعر المفكر الفيلسوف » للمؤلف .




الدِّيوانُ الأَوَّلُ

صَلْصَلَةُ الجَرْسِ

بانكادرا

نَقَلَهُ إلى العَرَبِيَّةِ نَثْرًا

ثُمَّ صَاغَهُ بِالعَرَبِيَّةِ شِعْرًا

الشيخ صاوي شعلان المصري



يُعتبر هذا الديوان من أول دواوين محمد إقبال الشعرية باللغة الأردوية ، وهو من أكثر دواوينه رواجاً ، حثَّ فيه الشاعرُ المسلمينَ على التضحية والعمل ، كي يستعيدوا منزلتهم من المجد والرفعة ، يحتوي هذا الديوان على أَروع الأناشيد الإسلاميَّة ، وأعظم قصَائد الرثاء .

ومن أشهر الأناشيد الإسلامية فيه « النشيد الإسلامي » والقصائد « الشكوى وجواب الشكوى » وقد وَصَفَ الشاعرُ في « الشكوى » مصائبَ المسلمين ، وفي « جواب الشكوى » آمالهم ، لا يوجد لهذه القصيدة نظير في القصائد الإسلاميَّة في القوَّة والانسجام ، نُقدِّم هنا نشيداً وقصيدةً مترجمةً بالعربية شعراً ، هما من أشهر أناشيد وقصائد هذا الديوان .



النَّشيدُ الإسلامِيُّ

الصِّينُ لنَا والعُربُ لَنَا ... والهِنْدُ لنَا والكُلُّ لَنَا
أَضْحَى الإسلامُ لنَا دِيْناً ... وجَمِيْعُ الكَوْنِ لَنَا وَطَنَا
تَوحيدُ الله لنا نورٌ ... أعْددنا الرُّوحَ له سكَنا
الكوْنُ يَزولُ ولا تُمْحى ... في الدَّهْرِ صَحائفُ سُؤْددِنَا
بُنيتْ في الأرضِ مَعابِدُها ... والبَيتُ الأوَّلُ كَعبَتُنَا
هُو أوَّل بيتٍ نحفَظُهُ ... بحياةِ الرُّوحِ ويحفَظُنَا
في ظِلِّ السَّيف تربَّيْنا ... وبَنَيْنا العِزَّ لِدَولَتِنَا
عَلمُ الإسلامِ على الأيَّا ... م شعارُ المجدِ لِملَّتِنَا
بهلالِ النَّصرِ يُضيءُ لنا ... ويُمَثِّل خِنجَر سَطْوَتِنَا
وأذانُ المُسلِم كانَ له ... في الغَرْب صدىً من هِمَّتِنَا
قولوا لِسَماء الكوْنِ لقدْ ... طاوَلْنا النَّجْمَ بِرِفعَتِنَا
يا دَهْرُ لقد جَرَّبتَ على ... نيرانِ الشِّدَّة عَزْمتَنَا
طُوفانُ الباطِل لم يُغْرِقْ ... في الخَوفِ سفينةَ قوَّتِنَا
يا ظلَّ حدائِقِ أنْدلسٍ ... أنسيتَ مغانيَ عِشرَتِنَا
وعلى أغصانِكَ أوكارٌ ... عمَرَتْ بِطلائِعِ نَشأتِنَا
يا دجلةُ هَلْ سجَّلت عَلى ... شطَّيكَ مآثِرَ عِزَّتِنَا
أمواجُكِ تَروي للدُّنيا ... وتُعيدُ جواهِرَ سيرَتِنَا
يا أرْضَ النورِ من الحَرَمَيْـ ... ـن ويا ميلادَ شريعَتِنَا
رَوْضُ الإسلام ودَوحتُهُ ... في أرْضِكِ رَوّاها دمُنَا
ومُحمَّد كان أميرَ الرَّكْـ ... ـب يقودُ الفوْزَ لنُصرَتِنَا

إنَّ اســـمَ محمَّـــدٍ الهـــادي رُوحُ الآمـــالِ لِنَهْضَتِنَـــا
دَوَّتْ أنشـــودةُ « إقبـــالٍ » جَـــرَسـاً يَحـدو فيـه الـزَّمنَـا
لِيُعيـــدَ قـــوافِلَنـــا الأولَـــى فـــي المَجـــدِ ويبعَـــثَ أُمَّتَنـــا

* * *

الشكوى وجواب الشكوى

(حديث الروح)[1]

شكْوايَ أمْ نجْوايَ في هذا الدُّجىٰ ... ونجـومُ ليلـي حُسَّـدي أو عُـوَّدي
أمسيتُ في الماضي أَعِيْشُ كأنما ... قطعَ الزَّمانُ طريق أَمْسِي عن غَدِي
والطيـرُ صـادحـةٌ علـى أَفْنَـانِهَـا ... تبكـي الـرُّبـى بـأنينهـا المتجـدِّدِ
قـد طـالَ تَسْهِيْـدِي وطـالَ نشيـدُهـا ... ومَدَامِعِي كالطلِّ في الغُصْنِ النَّدِي
فـإلـى متـىٰ صَمْتِـي كـأنِّـي زهـرةٌ ... خَـرْسَـاءُ لـمْ تُـرْزَقْ بَـراعَـةَ مُنْشِـدِ

***

قَيْثَـارَتـي مُلِئَـتْ بـأنَّـات الجَـوى ... لا بُـدَّ للمَكْبُـوْتِ مِـنْ فَيَضَـانِ
صَعـدَتْ إلـى شَفَتـي بـلابـلُ مُهْجَتِي ... لِيَبِيْـنَ عنهـا مَنطقـي ولِسَـانـي
أنـا مـا تَعَـدَّيْـتُ القنـاعـةَ والـرِّضـا ... لكنَّمـا هـي قصـةُ الأَشْجَـانِ
أَشْكُـوْ وفـي فَمـي التُّـرَابُ وإنَّمـا ... أَشْكُـوْ مُصـابَ الـدِّيـن للـدَّيَّـانِ
يَشْكُـوْ لـكَ اللهـمَّ قلـبٌ لـمْ يَعِشْ ... إلَّا لحمـدِ عُـلاكَ فـي الأَكْـوَانِ

***

قـد كـانَ هـذا الكـونُ قبـل وُجـودِنـا ... رَوْضـاً وأزهـاراً بغيـر شَمِيْـمِ
والـوردُ فـي الأَكْمَـامِ مجهـولُ الشَّـذَا ... لا يُـرْتَجـىٰ وردٌ بغيـر نَسِيـمِ
بَـلْ كَـانَـتِ الأَيَّـامُ قبـل وجـودِنـا ... ليْـلاً لظـالِمِهـا وللمَظْلُـومِ
لمَّـا أطـلَّ مُحَمَّـدٌ زَكَـتِ الـرُّبـىٰ ... واخضَـرَّ فـي البُسْتَـانِ كـلُّ هَشِيْـمِ
وأَذَاعَـتِ الفِـرْدَوسُ مَكْنُـونَ الشَّـذا ... فـإذا الـوَرىٰ فـي نُضْـرةٍ ونَعِيـمِ

***

---

(١) اشتهرت هذه القصيدة في البلاد العربية بهذا العنوان ، والصحيحُ ما عَنْوَنها الشاعر بـ « الشكوى وجواب الشكوى » .

مَـنْ كـان يَهتِـفُ بـاسـم ذاتِـكَ قَبْلَنـا مَـنْ كـان يَـدْعـو الـواحـدَ القهَّـارا
عَبَـدُوا تَمَـاثِيـلَ الصُّخـورِ وقـدَّسُـوا مِـنْ دُونِـكَ الأَحْجـارَ والأشجـارا
عَبَـدُوا الكَـوَاكِـبَ والنُّجـومَ جَهَـالَـةً لَـنْ يَبْلُغُـوا مِـنْ هَـدْيِهَـا أَنْـوَارا
هَـلْ أَعْلَـنَ التَّـوْحِيْـدَ داعٍ قَبْلَنَـا وهَـدَىٰ الشُّعُـوبَ إليـكَ والأنظـارا
كُنَّـا نُقَـدِّمُ لِلسُّيُـوفِ صُـدُورَنـا لَـم نَخْـشَ يَـوْمـاً غَـاشِمـاً جبَّـارا

* * *

قَدْ كَانَ في اليُوْنَانِ فَلْسفَةٌ وفي الـ ـرُّومَانِ مَدْرَسَةٌ وكانَ المُلْكُ في سَاسَانِ[1]
لَـمْ تُغْـنِ عَنْهُـم قـوَّةٌ أو ثَـرْوَةٌ فـي المـالِ أو فـي العِلْـمِ والعِـرْفـانِ
وبِكُـلِّ أرضٍ سـامِـرِيٌّ مَـاكِـرٌ يَكْفِـي اليهـودَ مَـؤُونَـةَ الشَّيطـانِ
والحِكْمَـةُ الأُولـىٰ جَـرَتْ وثنيَّـةً في الصِّين أو في الهِنْدِ أو طُوْرانِ
نَحْنُ الَّـذِيْـنَ بِنُـورِ وَحْيِـكَ أَوْضَحُـوا نَهْـجَ الهُـدىٰ ومَعَـالِـمَ الإيمَـانِ

* * *

منْ ذا الذي رفعَ السُّيوفَ ليرفعَ اسْـ ـمَـكَ فَـوقَ هـامـاتِ النُّجـومِ مَنـارَا
كنَّـا جبـالًا فـي الجِبَـالِ ورُبَّمـا سِـرْنـا علـى مَـوْجِ البِحـارِ بِحـارَا
بِمَعـابِـدِ الإفْـرَنْـجِ كـانَ أَذَانُنَـا قبـلَ الكَتـائِـبِ يفتـحُ الأمْصَـارَا
لَـمْ تَنْـسَ إفـرِيْقِيَّـة ولا صَحْـراؤُهـا سَجَـدَاتِنَـا والأرضُ تَقْـذِفُ نـارَا
وكـأنَّ ظِـلَّ السَّيْـفِ ظِـلُّ حـديقـةٍ خَضْـراءَ تُنْبِـتُ حـوْلنـا الأزْهَـارا

* * *

لَـمْ نخشَ طـاغـوتـاً يحـارِبُنـا ولـو نَصَـبَ المنـايـا حَـوْلنـا أسْـوارَا

---

(١) في الأصل هكذا، وفيه اضطراب، ويمكن أن يستقيم الوزن على حساب المعنى فيكون:
قَدْ كَانَ في (اليونانِ) و(الرُّومان) مَدْ رَسَـةٌ، وكـانَ المُلْـكُ فـي سـاسَـانِ

نَـدْعُـو جِهـاراً لا إلـه سِـوىٰ الَّـذي صنـعَ الـوجـودَ وقـدَّر الأقـدارَا
ورؤوسُنـا يـا ربُّ فـوقَ أكفِّنـا نَـرْجُـو ثـوابَـك مَغْنَمـاً وجِـوارَا
كُنَّـا نـرىٰ الأصنـامَ مـنْ ذهـبٍ فَنَهْـدِمُهَـا ونَهْـدِمُ فَـوْقَهـا الكفَّـارَا
لـو كـانَ غيـر المُسْلميـنَ لحَـازَهَـا كنْـزاً وصـاغَ الحِلْـيَ والـدِّيْنَـارَا

* * *

كم زُلْزِلَ الصَّخْرُ الأشمُّ فما وهَىٰ مـنْ بـأسِنـا عَـزمٌ ولا إيْمَـانُ
لـو أنَّ آسـادَ العَـريْـنِ تفـزَّعـتْ لـمْ يَلْـقَ غيـر ثَبـاتِنـا الميـدانُ
وكـأنَّ نيـران المـدافـع فـي صُـدُوْ رِ المـؤمنيـنَ الـرَّوحُ والـرَّيحـانُ
تـوحيـدُك الأعلـى جَعَلْنَـا نَقْشَـه نُـوراً يُضـيءُ بصُبْحِـهِ الأزمـانُ
فغـدت صـدورُ المـؤمنيـنَ مَصَـاحِفـاً فـي الكـونِ مسطـوراً بِهـا القـرآنُ

* * *

مـنْ غيـرنـا هَـدمَ التمـاثيـلَ الَّتـي كـانـتْ تُقـدِّسُها جَهَـالاتُ الـوَرىٰ ؟
حتَّـى هَـوَتْ صُـوَرُ المعـابـدِ سُجَّـداً لجـلالِ مَـنْ خَلـقَ الـوجـودَ وصـوَّرَا
ومَـنِ الأُلـىٰ حَملُـوا بعـزم أكُفِّهـمْ بـابَ المـدينـةِ يـومَ غـزوَةِ خَيْبَـرَا[١]
أمَّـنْ رَمـىٰ نـارَ المَجُـوسِ فـأطفِئـتْ وأَبـانَ وجْـهَ الحـقِّ أبْلَـجَ نيِّـرا[٢]؟
ومـنِ الـذي بـذلَ الحيـاةَ رخيصـةً ورأى رِضَـاكَ أعـزَّ شـيءٍ فـاشْتَـرَى

* * *

نحـنُ الَّـذيـن استيقظـتْ بـأذانهـم دُنيـا الخليقـةِ مِـنْ تهـاويـل الكَـرىٰ
نحـنُ الَّـذيـن إذا دُعـوا لصـلاتهـم والحربُ تسقي الأرض جاماً أَحْمَرا

---

(١) هو سيِّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي حمل باب حصن خيبر وجعله تُرساً له في المعركة ، وذلك في غزوة خيبر التي كانت في أول السنة السابعة من الهجرة .
(٢) هو السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي .

جعلوا الوجوهَ إلى الحجاز وكبَّروا ... في مسمع الرُّوح الأمينِ فكبَّرا
محمودُ مثلُ إياز[1] قام كلاهما ... لكَ بالخُشُوعِ مصلّياً مُسْتَغْفِرا
والعبدُ والمَوْلىٰ على قَدَم التُّقى ... سجدا لوجهِكَ خاشعينَ على الثَّرىٰ

* * *

بَلَغتْ نهايةَ كلِّ أرضٍ خَيْلُنا ... وكأنَّ أبْحُرَها رمالُ البَيْدِ
في محفلِ الأكوانِ كان هلالُنا ... بالنَّصر أوضحَ منْ هلال العِيْدِ
في كلِّ موقعةٍ رفعنا رايةً ... للمجدِ تُعلنُ آيةَ التَّوحيدِ
أُمَمُ البرايا لم تكن من قبلنا ... إلا عبيداً في إسارِ عبيدِ
بلغت بنا الأجيالُ حرِّيّاتها ... من بعد أصفادٍ وذلِّ قيودِ

* * *

رُحْماكَ ربِّ هل بغير جِبَاهِنا ... عُرِف السُّجودُ ببيتكَ المَعْمُورِ
كانت شِغافُ قُلوبِنا لكَ مُصْحفاً ... يحوي جلالَ كتابِكَ المَسْطورِ
إنْ لمْ يكنْ هذا وفاءً صادقاً ... فالخلقُ في الدُّنيا بغير شُعورِ
ملأ الشعوبَ جُنَاتُها وعُصاتُها ... مِنْ مُلْحِدٍ عاتٍ ومِنْ مَغْرورِ
فإذا السَّحَابُ جرى سَقاهُم غَيْثَه ... واختصَّنا بصواعِقَ التَّدْمِيْرِ

* * *

قد هبَّتِ الأصنامُ منْ بعد البلىٰ ... واستيقظت من قبل نفخِ الصُّورِ
والكعبةُ العليا توارى أهلُها ... فكأنَّهم مَوْتىٰ لغير نُشُورِ
وقوافلُ الصَّحراءِ ضلَّ حُدَاتُها ... وغدتْ منازِلُها ظِلالَ قُبُورِ
أنا ما حسَدْتُ الكافِرِيْنَ وقدْ غدَوْا ... في أنعُمٍ ومواكِبٍ وقُصورِ

---

(١) إياز : هو مولىٰ السلطان محمود السبكتكين .

بـــلْ مِحنتــي أَلَّا أرى فــي أُمَّتــي عمــلاً تقــدِّمــه صَــداقَ الحُــوْرِ[1]

* * *

لــكَ البــريَّــةُ حكمــةً ومشيئــةً أَعْيَــتْ مَــذَاهِبُهــا أُولــى الأَلْبــابِ
إنْ شئْـتَ أجـريتَ الصَّحـارى أنهُـراً أو شئْـتَ فـالأنهـارُ مـوْجُ سـرابِ
فـإذا دُهـي الإسـلامُ فـي أبنـائـه حتَّـى انطـوَوْا فـي محنـةٍ وعـذابِ
فثـراؤُهُـم فقـرٌ ودولـةُ مجـدهـم فـي الأرض نهْـبُ ثعـالـبٍ وذئـابِ
عــاقَبْتَنـا عــدلاً فهــبْ لعــدوِّنــا عـن ذنبه فـي الـدَّهـر يـوم عقـابِ

* * *

عــاشُــوا بثَــرْوتِنــا وعِشْنــا دُونَهــم للمــوت بيــن الــذُّلِّ والإمــلاقِ
الــدِّيــن يَحْيــا فــي سعــادةِ أهلــه والكــأسُ لا تبقــى بغيــر السَّــاقــي
أيـن الـذيـن بنـار حبِّـك أرْسَلُـوا الـ ـأنــوارَ بيــن محــافــل العشَّــاقِ
سكَبُـوا اللَّيـالـيَ فـي أنيـنِ دُمـوعهـم وتــوضَّــؤُوا بمــدامــعِ الأشــواق
والشمسُ كانت من ضياءِ وُجُوههمْ تُهْـدِي الصَّبـاحَ طـلائـعَ الإشـراقِ

* * *

كيـفَ انطـوتْ أيـامُهـم وهـمُ الأُلـىٰ نشرُوا الهُدىٰ وعَلَوْا مكانَ الفَرْقَدِ[2]
هجروا الدِّيارَ فأين أزمعَ[3] ركبُهُمْ مـنْ يهتـدي للقـوم أو مـنْ يَقْتـدي
يا قلبُ حسبُك لمْ تُلمَّ[4] بطيفِهِمْ إلَّا علــى مصبــاحِ وَجْــهِ مُحَمَّــدِ
فــازُوا مــن الــدُّنيــا بمجــدٍ خــالــدٍ ولهــم خلــودُ الفــوزِ يــوم المــوعِــدِ

---

(١) الصداق : المهر .
(٢) الفَرْقَد : وهو نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً ، ولذا يُهتدى به ، وهو المسمَّى « النجم القطبي » .
(٣) أَزْمَعَ : قَصَدَ وتوجَّه .
(٤) لمْ تُلِمَّ : لم تنزل بهم .

يـا ربِّ أَلْهِمْنـا الـرَّشـادَ فمـا لنـا　　　في الكَوْن غيركَ منْ وليٍّ مُرْشِدِ

***

مـا زالَ قَيْـسٌ والغـرامُ كعهـدِهِ　　　وربـوعُ ليلـىٰ فـي ربيـعِ جمـالِهـا
وهِضـابُ نجـدٍ مـن مَـراعيهـا المَهـا　　　وظبـاؤُهـا الخفـراتِ مـلءُ جبـالِهـا
والعشـقُ فيّـاضٌ وأُمَّـةُ أحمـدٍ　　　يتَحَفَّـزُ التـاريـخُ لاستقبـالِهـا
لـو حـاولـتْ فـوق السَّمـاء مكـانـةً　　　رفَّتْ على شمسِ الضُّحىٰ بهلالِها
مـا بـالُهـا تَلْقَـى الجـدودَ عـواثـراً[1]　　　وتصُـدُّهَـا الأيَّـامُ عـن آمـالِهـا

***

هَجْرُ الحبيبِ رمَىٰ الأحبةَ بالنَّوى　　　وأصـابهُـمْ بِتَصَـرُّم الآمَـالِ
لـو قـد مللنـا العِشْـق كـانَ سبيلنـا　　　أو نستكيـن إلـى هـوى وضـلال
أو نصنـعَ الأصنـام ثـمَّ نبيعهـا　　　حـاشـا المـوحِّـد أن يـذلَّ لمـال
أيـامُ سلمـانَ بنـا مـوصـولـةٌ　　　وتُقـى أُويـس فـي أذانِ بـلال

***

يـا طِيـبَ عَهْـدٍ كنـتَ فيـه مَنـارَنـا　　　فبعثْـتَ نـور الحـقِّ مِـنْ فـارانِ
وأسـرْتَ فيـه العـاشقيـن بلَمْحَـةٍ　　　وسقيتهـم راحـاً بغيـر دِنَـانِ
أحـرقْـتَ فيـه قلـوبَهـم بتـوقُّـدِ الإيمـان لا بتَلَهُّـب النِّيـرانِ
لـم نبـقَ نحـنُ ولا القُلُـوبُ كـأنَّهـا　　　لـم تَخـظَ مِـنْ نـارِ الهوىٰ بدُخَـانِ
إنْ لـمْ يُنَـرْ وجـهُ الحبيـب بـوصلِـهِ　　　فمكـانُ حُـزْنِ القلـبِ كـلُّ مكـانِ

***

يـا فـرحـة الأيـام حيـن نـرى بهـا　　　روض التَّجلِّـي وارفَ الأغصـان

---

(١) الجُدود العَواثِر : الحظوظ الخائبة .

ويعـود محفلُنـا بحسنـك مسفـراً كـالصُّبـح فـي إشـراقـه الفينـان
قـد هـاجَ حـزنـي أنْ أرى أعـداءنـا بيـن الطِّـلا[1] والظِّـلِّ والألحـان
ونعـالـجُ الأنفـاس نحـن ونصطلـي فـي الفقـرِ حيـنَ القـومُ فـي بستـان
أشْـرِقْ بنـورِك وابعـثِ البـرق القـديـمَ بـومضـةٍ لِفَـرَاشـكَ الظَّمْـآنِ

***

أشـواقُنـا نحـوَ الحجـازِ تطلَّعـت كحنيـنِ مُغْتـربٍ إلـى الأوطـان
إنَّ الطيـورَ وإنْ قَصَصْـتَ جنـاحهـا تسمـو بفطـرتهـا إلـى الطَّيـران
قيثـارتـي مكبـوتـةٌ ونشيـدُهـا قـد مـلَّ مـن صمـتٍ ومـنْ كتمـان
واللَّحـنُ فـي الأوتـار يـرجُـو عـازفـاً ليبـوحَ مـن أسـراره بمعـانِ
والطُّور[2] يرتقبُ التجلِّي صارخاً بهـوى المَشُـوْقِ ولَهْفَـةِ الحَيْـرانِ

***

أكبـادُنـا احتـرقـتْ بـأنَّـات الجَـوى ودمـاؤُنـا نهـرُ الـدُّمـوع القـانـي
والعطرُ فاض من الخمائل والرُّبا وكـأنَّـه شكـوى بغيـر لسـان
أو ليس مـنْ هَـوْلِ القيـامـة أن يكـو ن الـزَّهـرُ نَمَّـامـاً[3] علـى البُستـانِ
النَّمـلُ لا يخشـى سليمـانـاً إذا حَـرَسَـتْ قُـراه عنـايـةُ الـرَّحمـن
أرشـدْ بـراهِمَـةَ الهُنـودِ ليـرفعـوا الـ إسـلامَ فـوقَ هيـاكـلِ الأوْثـانِ

***

مـا بـالُ أغصـان الصَّنـوبـر قـد نـأت عنهـا قَمَـارِيْهَـا[4] بكـلِّ مكـانِ
وتعـرَّتِ الأشجـارُ مـنْ حُلـل الـرُّبـا وطيـورهـا فـرَّت إلـى الـوديـانِ

---

(١) الطِّلا : الخمر .
(٢) الطُّوْر : هو الجبل الذي تجلَّى اللهُ عليه لموسى عليه الصلاة والسلام وكلَّمه .
(٣) نمَّاماً : هو مَن يُزيِّن للناس الكلام بالكذب .
(٤) القماريُّ : هو ضرب من الحمام مطوَّق حسن الصوت .

يــا ربِّ إلَّا بُلْبُــلاً لــمْ ينتظــرْ وحـيَ الـرَّبيـع ولا صَبَـا[1] نَيسـانِ
ألحــانــهُ بحــرٌ جـرى مُتـلاطمـاً فكـأنَّـه الحـاكـي عـن الطُّـوفـانِ
يـا ليـتَ قـومـي يسمعـونَ شِكـايـةً هي في ضميري صرخةُ الوِجْدانِ

* * *

إنَّ الجـواهـر حيَّـرتْ مـرآةَ هـ ـذا القلبِ فهو على شفا البُركانِ
أَسْمِعْهُمُـو يـا ربِّ مـا ألهَمْتَنـي وأعِـذْ إليهـمْ يقظـةَ الإيمـانِ
وأذقهـمُ الخمـرَ القـديمـةَ إنَّهـا عيـنُ اليقيـنِ وكـوثـرُ الـرِّضـوانِ
أنـا أعجمـيُّ الـدَّنِّ لَكِـنْ خَمْـرَتـي صُنْـعُ الحِجَـازِ وكـرْمِهـا الفَيْنَـانِ[2]
إنْ كـان لـي نغـمُ الهنـود ولحنُهـم لكـنَّ هـذا الصـوتَ مِـن عـدنـانِ

* * *

(١) صَبَا : ريح طيِّبة تهب من جهة الشرق .

(٢) الفَيْنَان : أي ذو الأفنان طويل الأغصان .

جواب الشكوى

ثُمَّ نَظم محمد إقبال بعد هذه القصيدة قصيدةً أخرى وضَّح فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم لدينهم ، وعدم إتقانهم أمرَ الدُّنيا ، تبريراً لما جُوزُوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما تغنَّى بهاتين القصيدتين الأطفالُ ، والشبابُ ، وحفظهما الرجال ، والنساء ، وسارتا مسير الرياح وطارتا بغير جناح .

كـلامُ الـرُّوح لـلأرواح يَسْـري[1] وتُـدْرِكُـه القلـوبُ بـلا عنـاءِ[2]
هتفـتْ بـه فطـارَ بـلا جنـاحٍ وشـقَّ أنينُـه صـدر الفضـاءِ
ومعـدنُـه تُـرابـيٌّ ولكـنْ جـرتْ فـي لفظِـه لغـةُ السَّمـاءِ
لقـد فـاضـت دمـوعُ العِشْـقِ منِّـي حـديثـاً كـان عُلْـوِيَّ النِّـداءِ
فحلَّـق فـي ربـا الأفـلاك حتَّـى أهـاج العـالـم الأعلـى بكـائـي

***

تحـاوَرَتِ النُّجـومُ وقُلْـن صـوتٌ بقـرب العـرش مـوصـول الـدُّعـاءِ
وجـاوبـت المجـرَّة عـلَّ طيفـاً سـرى بيـن الكـواكـب فـي خَفـاءِ
وقـال البـدرُ هـذا قلـبُ شـاكٍ يـواصـل شـذْوهُ عنـد المسـاءِ
ولـم يعـرفْ سـوى رِضوان صـوتـي ومـا أحـراهُ عنـدي بـالـوفـاءِ
ألـمْ أكُ قبـلُ فـي جنَّـات عـدنٍ فـأخـرجنـي إلـى حيـنِ قضـائـي

***

---

(١) يَسْرِي : يجري .
(٢) عَنَاء : تعب ومشقة .

وقيل هو ابن آدم في غرورٍ ... تجاوزَ قَدْرَه دونَ ازعِواءِ[1]
لقد سَجَدَتْ ملائكةٌ كرامٌ ... لهذا الخلق من طينٍ وماءِ
يُظَنُّ العِلْمُ في كيفَ وكَمْ ... وسِرُّ العَجْز عنه في انطواءِ
وملءُ كُؤوسِهِ دمعٌ وشكوى ... وفي أنغامهِ صوتُ الرَّجاءِ
فيا هذا لقدْ أبلغتَ شيئاً ... وإن أكثرتَ فيه مِنَ المِراءِ

* * *

عَطايانا سحائبُ مُرْسَلاتٍ ... ولكنْ ما وجدنا السَّائلينا
وكلُّ طريقنا نَوْرٌ[2] ونورٌ ... ولكن ما رأينا السَّالكينا
ولم نجدِ الجواهرَ قابلاتٍ ... ضياءَ الوحي والنُّور المبينا
وكان تراب آدم غيرَ هذا ... وإنْ يكُ أصله ماءً وطينا
ولو صدقوا وما في الأرض نهرٌ ... لأجرينا السَّماء لهم عُيونا

* * *

وأخضعنا لِمُلْكِهِم الثُّريَّا ... وشيَّدنا النُّجوم لهم حُصونا
ولكنْ ألْحَدُوا في خيرِ دينٍ ... بنى في الشَّمس مُلْكَ الأوَّلينا
تُراثُ محمَّدٍ قد أهملوه ... فعاشوا في الخلائق مُهْمَلِينا
تولَّى هادمُو الأصنام قُدْماً ... فعاد لها أولئك يصنعونا
أباهم كان إبراهيمَ لكن ... أرى أمثالَ آزَرَ[3] في البنينا

* * *

---

(١) ارعواء : كف وارتداع .
(٢) النَّور : الزهر .
(٣) آزر : اسم والد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان ينحت الأصنام حِرْفةً .

وفي أَسْلافِكم كانتْ مزايا بكلِّ فمٍ لذِكراها نَشِيْدُ
تضُوعُ[1] شقائقُ الصَّحراءِ عِطْراً بريَّاها وتبتسمُ الورودُ
فهلْ بقيتْ محاسنُهم لديكم فيجمل في دلالكم الصُّدودُ
لقد هاموا بخالقهم فناءً فلم يكتب لغيرِهِمُ الخلودُ
وكوثرُ أحمد منكم قريبٌ ولكنْ شوقكم عنه بعيدُ

***

وكمْ لاح الصَّباحُ سَنا[2] وبُشْرى وأذَّنتِ القَماري والطُّيورُ
وكبَّرت الخمائل في رباها مصلِّيةً فجاوبها الغديرُ
ونوم صباحكم أبداً ثقيلٌ كأنَّ الصبح لم يدركه نورُ
وأضحى الصَّوم في رمضان قيداً فليس لكم به عزمٌ صبورُ
تمدَّن عصرُكم جمع المزايا وليس بغائبٍ إلا الضمير

***

لقد ذهب الوفاءُ فلا وفاءً وكيف ينالُ عهدي الظَّالمينا
إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانٌ ولا دُنْيا لمن لم يُحْيِ دِينا
ومَنْ رَضيَ الحياةَ بغير دينٍ فقدْ جعلَ الفناء لها قَرينا
وفي التوحيد للْهِمَمِ اتِّحادٌ ولنْ تبنوا العُلا مُتفرِّقينا
تساندتِ الكواكبُ فاستقرَّتْ ولولا الجاذبيَّةُ ما بقِينا

***

غَدَوْتُمْ في الدِّيار بلا ديارٍ وأنتم كالطُّيورِ بلا وكُورِ
وكلُّ صواعق الدُّنيا سهامٌ لبيدَرِكم وأنتم في غرورِ

---

(١) تَضُوعُ : تفوح وتنتشر .
(٢) السَّنا : الضياء .

أهــذا الفقــر فــي علــمٍ ومــالٍ وأنتــم فــي القطيعــةِ والنُّفــورِ
وبيــعُ مقــابــرِ الأجــدادِ أضحــى لــدى الأحفــادِ مــدعــاةُ الظُّهــور
سَيُعْجَـبُ تــاجـرو الأصنــامِ قُـدْمـاً إذا سمعــــوا بتجَّــــار القبــــورِ

* * *

مِــن المتقــدِّميــن إلــى المعــالــي علــى نهـجِ الهــدايــة والصَّــواب
ومِــن جبهــاتهــم أنــوارُ بيتــي وفــي أخــلاقهــم يُتلــى كتــابــي
أمــا كــانــوا جُـدُودكــم الأوالــي بنــاةَ المَجْــد والفــنِّ العجــابِ
وليــس لكــم مــن المــاضــي تــراثٌ سوى شَكْوَى اللُّغوبِ[1] والاكتئابِ
ومـن يَـكُ يـومـهُ فـي العيش يـأسـاً فمــا غَــدُهُ ســوى يــومِ العــذابِ

* * *

أتشكُــو أنْ تــرى الأقــوامَ فَــازُوا بمجــدٍ لا يــراه النَّــائمــونــا
مَشَــوْا بهــدي أوائِلكــم وجــدُّوا وضيَّعتــم تــراث الأوَّلينــا
أيُحْــرمُ عــامــلٌ وردَ المعــالــي ويسعــدُ بــالــرُّقــيِّ الخــامِلُــونــا
أليــسَ مــن العــدالــة أنَّ أرْضِــي يكــون حصــادُهــا للــزَّارعينــا
تَجلِّــي النُّــور فــوق الطُّــور بــاقٍ فهل بقيَ الكليمُ[2] بطُورِ سِينا ؟

* * *

ألــمْ يُبْعَــثْ لأُمَّتكــم نبــيٌّ يــوحِّــدكــم علــى نهــج الــوئــامِ
ومصحفُكــم وقبلتُكــم جميعــاً منــارٌ لــلأخــوة والسَّــلام
وفــوق الكــل رحمــنٌ رحيــمٌ إلــهٌ واحــدٌ ربُّ الأنــام
فمــا نــارُ ألفتكــم تــولَّــى وأمسيتُــم حيــارى فــي الظَّــلامِ

---

(١) اللُّغوب : التعب والإعياء .
(٢) الكليم : لقب سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام .

وحسن اللُّؤلُؤ المكنونِ رهنٌ بصوغ العِقْد في حُسْن النِّظامِ

* * *

وكيف تغيَّرتْ بكمُ اللَّيالي وكيف تفرَّقت بكمُ الأماني
تركتم دينَ أحمدَ ثم عُدْتُم ضحايا لِلْهوى أو للهوان
رقيُّ الشَّعبِ قد أضحى لديكم تقرِّرُه صلاحيةُ الزمانِ
وكيف تُقاسُ أوهامٌ ولغوٌ بحكمة منزلِ السَّبع المثاني
أرى ناراً قد انقلبت رماداً سوى ظل مريضٍ من دخانِ

* * *

أَرى الفقراءَ عبَّاداً تقاةً قياماً في المساجد راكعينا
هم الأبرارُ في صومٍ وفطرٍ وبالأسحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونا
وليس لكم سوى الفقراء سترٌ يواري عن عيوبكم العُيُونا
أضلَّت أغنياءكم الملاهي فهم في ريبهم يتردَّدونا
وأهلُ الفقر ما زالوا كنوزاً لدينِ الله ربِّ العالمينا

* * *

أرى التفكيرَ أدركهُ خمولٌ ولم تبقَ العزائمُ في اشتعال
وأصبحَ وَعْظُكم من غير سِحْرٍ ولا نورٌ يُطِلُّ من المقال
وعند النَّاس فلسفةٌ وفِكْرٌ ولكن أين تلقين (الغزالي[1])
وجلجلَةُ الأذان بكلِّ أرضٍ ولكن أين صوتٌ من بلالِ
منائرُكم علتْ في كلِّ حيٍّ ومسجدُكم من العبَّاد خالي

* * *

---

(١) الغزالي : هو أبو حامد محمد الغزالي ، أحد أعلام المسلمين وكبار الفلاسفة ، لقب « بحجة الإسلام » صاحب مصنفات سائرة ، توفي عام ٥٠٥هـ بمدينة « طوس » .

فــأَيــنَ أئمــةٌ وجنــودُ صــدقٍ ... تهـابُ شَبَـاةَ[1] عـزمهـمُ الحـرابُ
إذا صنعـوا فصنعهـمُ المعـالـي ... وإنْ قـالـوا فقـولُهـم الصَّـوابُ
مــرادُهــم الإلــهُ فــلا ريــاءٌ ... ونهجهــمُ اليقيــن فــلا ارتيــابُ
لأمَّتهــمْ ولــلأوطــانِ عــاشــوا ... فليـس لهـم إلـى الـدُّنيـا طِـلابُ
كمثـل الكـأس تُبْصِـرُهـا دِهـاقـاً[2] ... وليــس لأجلهــا صُنِــع الشَّــرابُ

***

جهــادُ المــؤمنيــن لهــمْ حيــاةٌ ... ألا إنَّ الحيــاةَ هـــيَ الجهـــادُ
عقــائــدُهــم ســواعــدُ نــاطقــاتٌ ... وبــالأعمــال يثبــتُ الاعتقــادُ
وخــوفُ المــوتِ لــلأحيــاء قبــرٌ ... وخــوفُ اللهِ لــلأحــرار زادُ
أرى ميــراثهــم أضحــى لــديكــم ... مضــاعــاً حيــثُ قــد ضــاعَ الــرَّشــادُ
وليــس لــوارثٍ فــي الخيــر حــظٌّ ... إذا لــم يحفــظِ الإرث اتِّحــادُ

***

لأيِّ مــآثــر القــوم انْتَسَبْتُــم ؟ ... لتكتسبــوا فخــارَ المُسلمينــا
فــأيـن مقـامُ ذي النُّـوريـن[3] منكـم ... ودولــةُ عــزِّه دُنيــا ودِيْنَــا
وفقــرُ علــيٍّ الأواب هــلا ... ربحتــم فيــه كنــزَ الفــاتحينــا
أقمتـمْ فـي الـذُّنـوب وفـي الخطـايـا ... وتغتــابــون حتَّــى الصَّــالحينــا
وهــم ستــروا عيــوب الخلـق فضـلاً ... وإن كــانــوا أبــرَّ المُتَّقينــا

***

---

(١) شَبَاةَ ، جمعها الشَّبَا والشبوات : شباة كل شيء ، أي حدُّ طرفه .
(٢) دِهاق : مُمْتلىء ، يقال : كأس دهاق ، أي ممتلىء .
(٣) هو لقب الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

أريكةُ قيصَرٍ[1] وسريرُ كِسرى[2] قد اختَمَيا بملكهم العَمِيمِ
وأنتم تطمحون إلى الثُّريا بلا عزمٍ ولا قلبٍ سليمِ
تضيعون الإخاء وهم أقاموا صروحَ إخائهم فوق النُّجومِ
طلبتُمْ زهرةَ الدنيا وعذْتُم بلا زهرٍ يضوعُ[3] ولا شميمِ
وكان لديهم البستان محضاً وهم أصحاب جنات النَّعيمِ

* * *

يُعيدُ الكونُ قصَّتهم حديثاً ويُنشيء منْ حديثهمُ الفنونا
فكمْ نَزَحُوا عنِ الأوكارِ شَوْقاً إلى التَّخلِيقِ فَوْقَ العالمينا
ويأسُ شبابكم أدمى خطاهم فظنُّوا فيه بالدِّين الظُّنونا
هي المدنيَّةُ الحمقاءُ ألقتْ بهم حول المذاهب حائرينا
لقد صنعتْ لهم صنمَ الملاهي لتحجبَ عنهم الحَرَمَ الأمينا

* * *

لقد سئم الهوى في البِيْدِ قَيسٌ[4] وملَّ من الشّكاية والعذابِ
ويحاولُ أن يُباح العِشْقُ حتى يرى ليلاه[5] وهي بلا حجابِ
يريدُ سفور وجهِ الحُسن لمَّا رأى وجهَ الغرام بلا نقابِ
فهذا العهد أحرقَ كلَّ غرسٍ من الماضي وأغلقَ كلَّ بابِ
لقد أفنت صواعقُه المغاني وعاثتْ[6] في الجبال وفي الهضابِ[7]

---

(١) قيصر : لقب ملوك الروم .
(٢) كسرى : لقب ملوك الفرس .
(٣) يَضُوع : يفوح وينتشر .
(٤) قيس : من أشهر عشاق العرب .
(٥) ليلى : من أشهر عاشقات العرب .
(٦) عَاثَتْ : أفسدتْ .
(٧) هِضاب : جمع هَضْبة ، وهو جبل منبسط ممتد على وجه الأرض .

هـي النَّـارُ الجـديـدة ليـس يُلقـى لهـا حطـبٌ سـوى المَجْـدِ القـديـمِ
خُـذوا إيمـانَ إبـراهيـمَ تَنْبُـتْ لكـمْ فـي النَّـار روضـاتُ النَّعيـمِ
ويـذكـو مـن دم الشهـداء وردٌ سَنِـيُّ العطـر قـدسـيُّ النَّسيـمِ
ويلمـعُ فـي سمـاء الكـون لـونٌ مـن العُنَّـاب مخضـوبُ الأديـمِ
فـلا تفـزعْ إذا المَـرْجَـانُ[1] أضحـى عقـوداً للبـراعـمِ والكُـرومِ

* * *

فكَـمْ زالـتْ ريـاضٌ مـن ربـاهـا وكـم بـادتْ نخيـلٌ فـي البـوادي
ولكـنْ نخلـةُ الإسـلام تنمـو علـى مـرِّ العـواصـف والعـوادي
ومجـدُك فـي حِمَـىٰ الإسـلام بـاقٍ بقـاءَ الشَّمـس والسَّبـع الشِّـدادِ
وإنَّـك يـوسـفُ فـي أيِّ مصـرٍ يـرى كنعـانَـه[2] كـلَّ البـلادِ
تسيـر بـك القـوافـلُ مُسـرعـاتٍ بـلا جـرسٍ ولا تـرجيـعِ حَـادِي

* * *

ضيـاؤك مشـرقٌ فـي كـلِّ أرض لأنـكَّ غيـر محـدودِ المكـانِ
بَغَـتْ أمـمُ التَّتَـار[3] فـأدركتْهـا مـن الإيمـان عـاقبـةُ الأمـانِ
وأصبـح عـابـدو الأصنـام قُـدْمـاً حماةَ الحِجْر[4] والرُّكن اليماني[5]
فـلا تجـزع فهـذا العصـر ليـل وأنـت النَّجـم يشـرق كـلَّ آنِ

---

(١) المَرْجَان : صغار اللؤلؤ .
(٢) كنعان : أرض فلسطين .
(٣) التَّتار : قبائل كانت تسكن في أواسط آسيا ، أصلهم من المغول ، اشتهروا بغزواتهم ، وأسلم كثير منهم بعد هجومهم على بغداد .
(٤) الحجْر : يريد به الشاعر حجْر الكعبة .
(٥) الركن اليَمَاني : هو ركن الكعبة الذي فيه الحجر الأسود .

ولا تخشَ العواصفَ فيه وانهضْ　　بِشُعلتك المضيئةِ في الزَّمانِ

***

أعِدْ من مشرقِ التَّوحيد نوراً　　يتمُّ به اتِّحاد العالمينا
وأنت العطرُ في روضِ المعالي　　فكيفَ تعيش محتبساً دفينا
وأنت نسيمهُ فاحملْ شذاه　　ولا تحملْ غبارَ الخاملينا
وأرسل شعلةَ الإيمان شمساً　　وصُغْ مِنْ ذرةٍ جبلاً حصينا
وكن في قمَّةِ الطُّوفان موجاً　　ومُزناً يمطر الغيث الهَتُونا

***

فباسم محمدٍ شمسِ البرايا　　أقيمت خيمةُ الفلك المُنيرِ
تَلألأَ في الرياض وفي الصحارى　　وفوقَ الموجِ والسيلِ المغيرِ
ونَبْض الكونِ منه مُسْتَمِدٌّ　　حرارتَه على مرِّ العصورِ
ومن مراكش[1] يغزو صداه　　رُبُوعَ الصِّين بالصَّوت الجهيرِ
وما مشكاةُ هذا النُّور إلا　　ضميرُ المسلم الحرِّ الغَيُورِ

***

ورفعُ الذِّكر للمختار رفعٌ　　لقدرك نحو غاياتِ الكمالِ
فكن إنسانَ عينِ الكون واشْهد　　مقامك عالياً فوقَ المعالي
بخنجرِ عزمك الوثَّاب لاحت　　على الأعلام أنوارُ الهلالِ
نداؤك في العناصر مستجابٌ　　إذا دوَّى بصوتٍ من بلالِ
وعقلُك في الخطوب أجلُّ درعٍ　　وعشقُك خير سيفٍ للنِّضالِ

***

خلافةُ هذه الأرضِ استقرَّت　　بمجدكَ وهو للدُّنيا سماءُ

---

(١) مراكش : مدينة تقع في المغرب الأقصى .

وفـي تكبيـركَ القـدسـيِّ يبـدو صغيـراً كـلُّ مـا ضـمَّ الفضـاءُ
فيـا مـنْ هـبَّ لـلإسـلام يـدعـو وأيقـظ صـدقَ غيـرتـه الـوفـاءُ
ستـرفـعُ قَـدْرَك الأقـدارُ حتـى تشـاهـد أنَّ سـاعـدك القضـاءُ
وقيـل لـكَ احْتَكِـمْ دنيـا وأخـرى وشـأنُـك والخلـودَ كمـا تشـاءُ

***




الدِّيْوانُ الثَّاني

الأَسْرار والرُّموز

أسْرارُ إثْبَاتِ الذَّاتِ ورُمُوزُ نَفْيِ الذَّاتِ

أسرار خودي ورموز بيخودي

نَقَلَهُ إلى العَرَبِيَّةِ شِعْرًا

الدكتور عبد الوهَّاب عزَّام



يُعتبر هذا الديوان من باكورة دواوين محمد إقبال ، فيه القصائد حول الفلسفة الإسلاميَّة . في زمان الحرب العالمية الأولى كان إقبال ينظر إلى الجيش التركي نظرة الأمل إلّا أنَّه حين أخذ الإنجليز يعملون على الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر من الترك تحطَّمت آماله ، وحينئذٍ ظهرت في أفكاره ثورةٌ عارمةٌ تعارض أشدَّ المعارضة فكرة الاعتماد على أهل الغرب ، والوثوق بهم ، فبدأ يعمل على بناء فلسفةٍ حديثةٍ تؤدِّي إلى التوفيق في الحياة على أساس تربية الجيل الجديد ، وتقوية الذات . ولم ير محمد إقبال أيَّة فائدةٍ للتُّرك من مساعدة قوة الحكومة الألمانية ، فبنى نظرته إلى التصوّف ، ليس على أساس روح الضعف والسلبية ، وهو ما انتشر في العهد الصفوي ، بل دعا إلى القوَّة ، والاعتماد على النفس[1] ولم يقنط محمد إقبال بل كرَّس حياته للعمل على الوصول إلى حيث يمكن السبب في حدوث أخطائنا السابقة ، وقد وجد أنَّ مردَّ هذا إلى الآراء الإغريقية الَّتي تغلغلت في عالم الفكر والثقافة بين المسلمين ، وأضحت سبب كلّ ما عقب ذلك من انحرافه . وقد كان من نتيجة تأثير الإغريق على الإسلام أن تحوَّل هذا الدين من الإيجابيَّة الدافقة إلى عقيدة مستسلمةٍ تأمليَّةٍ ، الأمر الّذي أدَّى بدوره إلى حالة من التشاؤم والقدرية ، وقد ندَّد بأفلاطون ، وشنَّ حملةً على الصوفيَّة الّتي عدَّها مسؤولة عن فكرة « وحدة الوجود » ، وقد أدَّى البحث بإقبال إلى نظريته عن « خودي » أي « الذات » وهو يبدؤها بالأبيات التالية الّتي اقتبسها من مولانا جلال الدين الرُّومي[2] : « رأيتُ البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلاً ، كأنه يبحث عن شيء ، قلت له : يا سيدي! تبحث

---

(١) « إقبال إيرانيون كي نظر مين » لسر عبد القادر ص(١٨١) .

(٢) من محاضرة الأستاذ سجاد حيدر سفير باكستان في مصر ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٧ مأخوذ عن « إقبال وديوان أرمغان حجاز » للأستاذ سير عبد الحميد إبراهيم .

عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدَّواب ، وضقت بها ذرعاً ، وخرجتُ أبحث عن إنسانٍ في هذا العالم ، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالىٰ والأقزام الّذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاقٍ من الرجال ، وبطلٍ من الأبطال ، يملأ عيني برجولته وشخصيته ، ويروِّح نفسي ، قلتُ له : لقد غرتك نفسك يا هذا ! فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله ! لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدت نفسي ، وأنفيت ركابي ، ونقبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً ، قال الشيخ : إليك عنِّي ، أيها الرجل! فأحبُّ شيءٍ إلى نفسي ، أعزُّه وجوداً ، وأبعده منالاً »[1] . وقد ركَّز محمَّد إقبال كلامه في هذا الديوان على الذات الّتي يرتكز فيها كلُّ النشاط ، وكلُّ الحركة ، والّتي هي لبُّ الشخصية ؛ أي « قلب » الذات .

أراد محمد إقبال باصطلاح « خودي » رموز الذَّات ، ووجود الفرد ، ليشير إلى المركز المدرك والنشيط للوعي والحياة ، وهو الّذي في نظره يؤلّف الوجود الأساسي لذات الإنسان بصورةٍ جازمة . وبالأحرى يرفض الأثرة ، ويوجب على المرء أن يرتقي إلى الدرجات العليا ، والكمال .

يعتقد محمد إقبال بأنَّ أخلاق الفرد والأمة تحدِّد الإجابة عن السؤال : ما هي طبيعة الذات ؟ وهذا التأكيد مطلوبٌ إلى ما يوازن بين الفكر الشرقي والرُّوحانيَّة ، ويؤكّد التقاء وجهات النظر التي ترتقي بها الكينونة الذاتيَّة فوق جميع المستويات الخادعة والواهمة .

يعتبر محمد إقبال أنَّ الاستسلام للجبرية هو الَّذي سبب انحطاط المسلمين ، على الرَّغم من قيمهم الدِّينية والرفيعة ، وأمجادهم السياسية خلال القرون المنصرمة .

---

(١) « روائع إقبال » للعلاَّمة أبي الحسن النَّدوي ص٨٥ ـ ٨٦ .

محتوى الديوان

يشتمل هذا الديوان أولًا على المقدمة المنظومة ، يبيّن فيها محمَّد إقبال مذهبه الجديد ، يقول في مطلعها :

قطع الصبحُ على اللَّيل السفر   فهمىٰ دمعي على خدِّ الزهر

غسل الدمع سبات النَّرجس   وصحا العشب بمسرى نفسي

جرَّب الفارس قولي موقدا   مصرعاً ألقى وسيفاً حصدا

ويشير إلى أنَّ الرومي هو الّذي أيقظه ، ودعاه إلى أن يسلك سبيله :

صيَّر الروميُّ طيني جوهرا   منْ غباري شاد كوناً آخرا

فصول الدّيوان :

١ ـ أصل نظام العالم من الذَّاتية واستمرار أعيان الوجود متوقف على استحكام الذَّاتية .

٢ ـ حياة الذَّاتية بتخليق المقاصد وتوليدها .

٣ ـ تستحكم الذَّاتية بالمحبة والعشق .

٤ ـ ضعف الذاتية بالسؤال .

٥ ـ إذا استحكمت الذاتية بالمحبَّة والعشق سخَّرت قوى العالم الظاهرة والباطنة .

٦ ـ حكاية في معنى أنَّ مسألة نفس الذاتية من مخترعات الأقوام المغلوبة ؛ لتضعف أخلاق الأمم الغالبة عن طريق خفية .

٧ ـ في معنى أنَّ أفلاطون اليونانيَّ ـ الّذي أثر كثيراً في أفكار الأمم الإسلامية وآدابها ـ ذهب مذهب الغنم ، والاحتراز من خيالاته واجب .

٨ ـ حقيقة إصلاح الشعر والآداب الإسلاميَّة .

٩ ـ تربية الذات لها ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : الطَّاعة .

الثانية : ضبط النفس .

الثالثة : النيابة الإلهية .

وفي هذا الفصل يقصُّ قصصاً حقيقية ، أو خيالية لتصوير مذهبه .

١٠ ـ في بيان أنَّ مقصد حياة المسلم إعلاء كلمة الله ، وأنَّ الجهاد إن كان الباعث عليه « جوع الأرض » فهو حرام في شريعة الإسلام .

١١ ـ نصيحة ميرنجاة النقشبندي المسمى الأدب الصحراوي التي كتبها لمسلمي الهند .

١٢ ـ الوقت سيف .

١٣ ـ دعاء « ويختم به المنظومة »[١] .

نشر هذا الديوان سنة ١٩١٥م ، فثار الناس لها بين راضٍ وساخطٍ ومستحسنٍ ومستنكرٍ ، بل بين مصفِّقٍ طرباً يثني معجباً ، وصائحٍ يتعجَّب ويستنكر .

نقله إلى العربية شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام . وهاهو الآن بين أيديكم مع مقدمة الشاعر القيمة التي كتبها لهذا الديوان .

* * *

(١) إقبال . . للدكتور عبد الوهاب عزام ص١٠٣ .

خلاصة المقدمة التي كتبها
محمد إقبال لهذا الديوان (أسرار خودي)

ما هذا الشيء الذي نسميه (أنا) أو (خودي) أو (مين)[1] الذي يبدو في أعماله ويخفى في حقيقته ، والذي يخلُق كلَّ المشاهدات ، ولكن لطافته لا تحتمل المشاهدة ؟ أهو حقيقةٌ دائمةٌ ، أم أنَّ الحياة تجلَّت في هذا الخيال الخادع ، وهذا الكذب النافع ، تجلّياً عرضيّاً لتحقيق مقاصدها العملية الراهنة ؟

إنَّ سيرة الأفراد والجماعات موقوفةٌ على جواب هذا السؤال . ولكن جواب هذا السؤال لا يتوقف على المقدرة الفكرية في الآحاد والجماعات ، كما يتوقف على طباعها وفطرتها . فأمم الشرق المتفلسفة أميل إلى أن تعتبر (أنا) في الإنسان من خِداع الخيال . وهي تعدُّ الخلاص من هذا الغُلِّ نجاةً ، وميلُ أهل الغرب إلى العمل ، ساقهم إلى ما يلائم طباعهم في هذا البحث .

ويمضي إقبال في مقدمته قائلاً :

اختلطت في عقول الهنادك وقلوبهم ، النظريات والعمليات اختلاطاً عجيباً . ودقَّق حكماؤهم في حقيقة العمل ، وانتهوا إلى هذه النتيجة : إنَّ حياة (أنا) المسلسلة ، وهي أصل المصائب والآلام ، تنشأ من العمل ، وإنَّ حالة النفس الإنسانية نتيجةٌ محتومةٌ لأعمالها .

وكانت رسالة الإسلام في غربي آسيا دعوةً إلى العمل بليغةً ، فالإسلام يرى أن (أنا) مخلوقٌ ينال الخلودَ بالعمل ، ولكنَّ تشابهاً عجيباً في تاريخ الفكر الهندي والإسلامي يظهر في بحث هذه المسألة . فالفكر التي فسّر بها شنكر

---

(١) مين بالأردية معناها : أنا .

أجاريه ، كتاب الجيتا (گيتا) هي الفكرة التي فسر بها القرآن محيي الدين بن عربي الأندلسي . وكان له أثرٌ بليغٌ في عقول المسلمين وقلوبهم . جعل ابن عربي بعلمه ومكانته مسألة وحدة الوجود عنصراً في الفكر الإسلاميِّ . واقتفى أثره أوحد الدين الكرماني ، وفخر الدين العراقي ، حتى اصطبغ بهذه الصبغة كلُّ شعراء العجم في القرن السادس الهجري .

خاطبَ فلاسفةُ الهند العقل في إثبات وحدة الوجود . وخاطب شعراء إيران القلب ، فكانوا أشدَّ خطراً وأكثر تأثيراً ، حتى أشاعوا بدقائقهم الشعرية هذه المسألة بين العامَّة ، فسلبوا الأمَّة الإسلامية الرغبة في العمل .

وتمتاز أمم الغرب بين أمم العالم بميلها إلى العمل ، فآراؤهم خيرُ دليل لأمم المشرق إلى فهم أسرار الحياة .

وبدأت الفلسفة الجديدة في الغرب من وحدة الوجود التي دعا إليها الفيلسوف الهولندي الإسرائيلي(١) ولكن مسحة العمل غلبت على طبائع الغرب . فلم يلبث طويلاً طلسم وحدة الوجود التي أُثبتتْ بأدلة رياضية . سبق الألمان إلى إثبات حقيقة (أنا) الإنسانية المستقلة ، ثم تحرَّر من هذا الطلسم الخيالي فلاسفة الغرب على مرِّ الزمان ، ولا سيما فلاسفة الإنكليز .

ويختم إقبال بقوله :

هذه خلاصة تاريخ المسألة التي هي موضوع هذه المنظومة . وقد اجتهدت أن أحرِّر هذه المسألة الدقيقة من تعقيد الأدلَّة الفلسفيَّة ، وألوانها بألوان الخيال ؛ ليتيسر إدراك حقيقتها .

ولم أقصد بهذه الديباجة إلى تفسير هذه المنظومة . ولكن أردت أن أدلَّ على الطريق من لم يُسلِّم من قبل بدقائق هذه المسألة العسيرة .

---

(١) يعني : اسبنوزا .

ولا ينبغي هنا أن أتناول هذه المنظومة من حيث الشعر ، فإنما خيال الشعر فيها وسيلةٌ إلى توجيه الناس إلى هذه الحقيقة :

إنَّ لذة الحياة مرتبطة باستقلال (أنا) وبإثباتها ، وإحكامها ، وتوسيعها . وهذه الدقيقة تمهد إلى فهم حقيقة « الحياة بعد الموت » .

وينبغي أن يعلم القرَّاء أنَّ لفظ « خودي » لا يستعمل في هذه المنظومة بمعنى الأَثَرة ، كما تستعمل في اللغة الأرديّة غالباً ، إنما معناها الإحساس بالنفس ، أو تعيين الذَّات .

وهي بهذا المعنى في كلمة « بيخودي » كذلك .

خلاصة مقال الشاعر
إلى الأستاذ نكلسون

مذهب الأستاذ بريدلي أنَّ كلَّ مركزٍ للشعور محدودٌ ، أي : كلُّ ذاتٍ مفردةٍ خداعُ نظرٍ باطل . وأنا أقول ، على خلاف هذا : إنَّ مركز الشعور المحدود الذي لا يُدْرَك (الذات) هو حقيقة الكائنات . فالذات حقٌّ لا باطل .

الحياة كلُّها فردية ، وليس للحياة الكلية وجود خارجي . وحيثما تجلَّت الحياة تجلَّت في شخصٍ ، أو فردٍ ، أو شيء . والخالقُ كذلك فرد ؛ ولكنَّه أوحدٌ لا مثل له .

وظاهرٌ أنَّ هذا التصوُّر للكائنات يخالف كلَّ المخالفة ما ذهب إليه شراح فلسفة هيكل من محدثي الإنكليز ، ويخالف أصحاب وحدة الوجود الذين يرون أن مقصد حياة الإنسان ، أن يُفْني نفسه في الحياة المطلقة أو (أنا) المطلق ، كما تفنىٰ القطرة في البحر .

أرى أنَّ هدف الإنسان الدِّيني والأخلاقي إثباتُ ذاته لا نفيها ، وعلى قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقرب من هذا الهدف .

قال الرسول ﷺ : « **تخلقوا بأخلاق الله** » فكلّما شابه الإنسان هذه الذات الوحيدة كان هو كذلك فرداً بغير مثيل .

وتنقص فرديته على قدر بعده من الخالق ، والإنسانُ الكامل هو الأقرب إلى الله ، ولكن ليس القصد من هذا القرب ، أن يُفني وجوده في وجود الله . كما تقول فلسفة الإشراق ، بل هو ، على عكس هذا ، يُمثِّل الخالق في نفسه .

الحياة رقيٌّ مستمر ، تسخِّر كلَّ الصِّعاب التي تعترض طريقها ، وحقيقتُها أن تخلُق دائماً مطالبَ ومُثُلاً جديدةً ، وقد خَلقتْ من أجل اتساعها وترقيها آلاتٍ كالحواسّ الخمس ، والقوة المدركة ؛ لتقهر بها العقبات والمشقّات .

وأشدُّ العقبات في سبيل الحياة المادَّةُ أو الطبيعة ، ولكنَّ المادة ليست شرّاً كما يقول حكماء الإشراق ، بل هي تُعينُ الذات على الرقي ، فإنَّ قُوى الذَّات الخفية تتجلَّى في مصادمة هذه العقبات .

وإذا قَهرت الذاتُ كلَّ الصعاب التي في طريقها بلغت منزلة الاختيار . الذاتُ نفسها فيها اختيار وجبر ، ولكنَّها إذا قاربت الذاتَ المطلقة نالت الحرية الكاملة . والحياةُ جهادٌ لتحصيل الاختيار . ومقصدُ الذات أن تبلغ الاختيارَ بجهادها .

دوام الذات أو الشخصية :

مركز حياة الإنسان ذات (خودي) أو شخص ، أعني : أنَّ الحياة حينما تتجلَّى في الإنسان تسمَّى ذاتاً .

وشخصية الإنسان من الوجهة النفسانية حالٌ من التوتر ، ودوام الشخصية موقوفٌ على هذه الحال . فإن زالت هذه الحال عقبتها حالٌ من الاسترخاء مضرَّةٌ بالذات . فإن يكن في حالة التوتر هذه كمال الإنسان فأول فرضٍ عليه أن يعمل لدوام هذه الحال ، والحيلولة دون حال الاسترخاء .

وكلُّ ما يُمكِّننا من إدامة حال التوتر يمكِّننا من الخلود .

وهذا التصور للشخصية يقوم معياراً لِقيَم الأشياء أعني : أنَّ في ذاتنا معيار الحسن والقبح . وبهذه تُحلُّ مسألة الخير والشر ، فما يقوِّي الذات خير وما يُضعفها شر . ويجب أن يقوَّم الدين والأخلاق والفنون بهذا المعيار أيضاً .

واعتراضي على أفلاطون ، هو في أصله اعتراضٌ على كل النظم الفلسفية التي تقصد إلى الفناء ، لا البقاء ، والتي تُغفل المادة ، وهي أكبر العقبات في سبيل الحياة ، وتدعو إلى الفرار منها ، لا إلى تسخيرها ، والتسلط عليها .

وكما تَعرِض مسألة المادة في مبحث حرية الذات ، تعرض مسألة الزمان في مبحث خلودها .

يقول برجسون : إنَّ الزمان ليس خطّاً ممتداً إلى غير نهايةٍ يتحتَّم علينا المرور به . هذا التصوُّر للزَّمان غيرُ صحيح ، فالزمان الخالص لا يدخل فيه تصوُّر الطول ؛ أي : لا نستطيع قياسه بمقياس الليل والنهار .

إنَّ خلود الذات أملٌ ، من أراد أن يظفر به فليجدَّ ، ويدأب لبلوغه ، والظفرُ به موقوفٌ على أن نسلك طريقاً للفكر والعمل في هذه الحياة يعيننا على حفظ حالة التوتر ، ولا يستطيع إبلاغَنا هذا الأمل دين بوذا ، والتصوُّف العجمي ، وما إلى هذين من نظم الأخلاق الأخرى . لقد أضرت بنا هذه الطرق ، فأضرعتنا وأنامتنا . إنَّ هذه المذاهب هي الليالي في أيام حياتنا .

تربية الذات :

لا ريب أنَّ الذات تستحكم بالعشق . ومفهوم العشق هنا واسع جدّاً . ومعناه إرادة الجذب والتَّسخير . وأعلى أشكاله أن يخلُق مقاصده ويجدَّ في نيلها . وخاصةُ العشق إفراد العاشق والمعشوق ، أعني : إظهار الانفراد ، والاستقلال فيهما . وإذا جدَّ الطالب في طلب الأوحد الأسمَى ظهر فيه التوحُّد ، ويتحقَّق ضمناً توحُّد المطلوب ؛ لأنه إن لم يكن واحداً مستقلاً بنفسه لم يسكُن الطالب إليه . إنما يمكن عشقُ شخصٍ ، أو وجود معين . ولا

يمكن لشخص عشقُ كائن غيرِ مشخص .

وكما تستحكم الذات بالعشق تضعف بالسؤال . وكل ما ينال بغير جهد يعدُّ سؤالًا ، فالذي يرث مال غيره سائل ، والذي يتَّبع أفكار غيره ، أو يدَّعيها لنفسه سائل .

والخلاصة : أنَّه ينبغي لأجل إحكام الذات أن نخلق في أنفسنا العشق ، ونتجنب كلَّ ضروب الاستجداء (أي البطالة) .

إنَّ في حياة الرسول ﷺ أسوةً حسنةً للمسلم ، فقد كانت حياته خيرَ مثلٍ للسعي الدائم . لقد كانت حياته كلُّها صورةً للعمل .

أشرتُ في فصول من هذا المثنوي إلى أصول فلسفة الأخلاق الإسلامية ، وبيَّنت أنَّ لكمال الذات ثلاث مراحل :

١ ـ إطاعة القانون الإلهي .

٢ ـ وضبط النفس .

٣ ـ والنيابة الإلهية .

والنيابة الإلهية في هذ الدنيا هي أعلى درجات الرقيِّ الإنسانيِّ . ونائب الحق (الله) خليفة الله في الأرض ، وهو أكمل ذات تطمح إليها الإنسانية ، وهو معراج الحياة الروحي .

وأول شرطٍ لظهور نائب الحق أن ترقى الإنسانية في جانبيها الروحيِّ والجسميِّ ، فإنَّ ارتقاء الإنسانية يقتضي ظهور أمَّةٍ مثاليةٍ يتجلَّى في أفرادها في الجملة هذا التوحُّد الذَّاتي ، وتصلح لأن يظهر فيها نائب الحق .

فمعنى سلطان الله في الأرض : أن تقوم فيها جماعةٌ شوريَّةٌ يتوحَّد أفرادها ، ويقومِ على هذه الجماعة واحدٌ يمكن أن يسمى نائب الحق ، أو الإنسان الكامل ، وهذا الإنسان الكامل يبلغ ذروة الكمال ؛ التي لا تتصوَّر فوقها ذروة .

وقد رأى نتشة (الفيلسوف الألماني المعروف) ضرورة ظهور هذه الأمة

المثالية ، ولكن دهريته ، وإعجابه بالسلطان مسخا فلسفته كلها » إهـ .

هذه خلاصة رسالة إقبال إلى الأستاذ نكلسون . وحسبنا في إيضاح مذهبه ما قدَّمنا من تلخيص رسائله ، ومقدمته لأسرار الذات ، ورسالته إلى نكلسون .

* * *






القسم الأول

أسرار إثبات الذَّات

(أسرار خودي)

رأيتُ الشَّيخ بالمصباحِ يسعى   لـه فـي كـلِّ نـاحيـةٍ مجـال
يقول : مَللتُ أنعاماً وبَهْماً   وإنساناً أريد ، فهل يُنال ؟
برمتُ برُفقةٍ خارت قواها   برسْتُمْ أو بحيدرٍ اندمال[1]
فقلنا : ذا مُحالٌ . قد بحثنا   فقال : ومُنيتي هذا المحال

(مولانا جلال الدين الرومي)

(١) حيدر : عليٌّ بن أبي طالب ، ورستم : من أبطال الفرس .






تمهيد

« ليس في أعواد غابي سقَطٌ | هي للمنبر أو أعواد صَلْب »[1]

نظيري النيسابوري

قطع الصبحُ على الليل السفَر | فهمَى دمعي على خدِّ الزهَرْ
غسلَ الدمعُ سُباتَ النَّرجسِ | وصحا العُشبُ بمَسرَى نفسي
جرَّب الزَّارعُ قولي مُحصَدا | مِصرعاً ألقَى ، وسيفاً حصدا
إنَّه حَبَّ دموعي زَرعا | نسجَ الروضَ وأنَّاتي معا
ذرَّةٌ قد نالت الشمسَ أنا | كم صباحٍ في فؤادي كَمنا
طينتي من جَامٍ جَمٍّ أنورُ | منْ غيوبِ الكون عِندي عبرُ[2]
صَيْدُ أفكاري ظِباء لم تُرَمْ | لم تُسَيَّب بَعدُ منْ قيدِ العَدمْ
زَانَ بُسْتاني عشبٌ ما ظَهرَ | وجنيتُ الوردَ في جوف الشَّجر[3]
محفِلُ الشادين مني يرجُفُ | في وِتار الكون كفِّي تعزِف
صامِتٌ فيَّ ربابُ الفِطرةِ | ما وعَى عنِّي جليسي نغمتِي
إنني شمسٌ قريبٌ مولدي | حُبُكاً في فَلَكٍ لم أعْهَد

---

(١) نيت درخشك وتربيشه من كوتاهي جوب هرتخل كه منبر شوه داركم

(٢) جامِ جم أي : كأس جمشيد . وفي أساطير الفرس أنَّ الملك جمشيد كان عنده كأس يرى فيها الأقاليم السبعة . وفي هذا البيت وما بعده يقول الشاعر : إنه يرى الغائب ، ويدرك ما لم يخلق .

(٣) جنى الورد الذي لم يظهر من شجره : علم أنه سيظهر دون ريب ، وأنه سيجنيه ، فكأنه قد جناه .

لـم يَـرُعْ ضـوئـيَ سِـربَ الـزُّهُـرِ ... أو يُـرَجْـرَجْ زئبَقـي فـي البَصـرِ[1]

مـا رأت رقـصَ ضيـائـي الأبحُـرُ ... أو كسـا الأطـوادَ ثـوبـي الأحمـر

عيـنُ هـذا الكـون لـي لا تعهـد ... أنـا مـن خـوفِ طلـوعٍ أرْعَـدُ

مـزَّقَ الظلمـةَ فجـرى فسفَـرْ ... وبـدا طَـلٌّ جـديـدٌ فـي الـزَّهَـرْ

إننـي أرقـب صبحـاً مُعلمـا ... حبَّـذا مـن حـول نـاري زمـزمـا[2]

* * *

أنـا لَحْـنٌ دون ضَـربٍ صَعَـدا ... أنـا صـوتٌ شـاعـري يـأتـي غـدا[3]

دونَ عصـري كـلُّ سـرٍّ قـد خَفـي ... ما بهذي السوق يُشرى يوسُفي[4]

أنـا فـي يـأسٍ مـن الصّخب القـديم ... مُشعـلٌ طُـوري ليغشـاه كليـمْ[5]

بحـرُ صحبـي قطـرةٌ لا تَـزْخَـرُ ... قطـرتـي كـاليـمِّ فيـه صَـرْصـرُ

مِـن وجـودٍ غيـرِ هـذا لـي غَنـاء ... ولـركـبٍ غيـرِ هـذا لـي حُـداءْ

كـم تجلَّـى شـاعـرٌ بعـد الحِمـام ... يـوقـظُ الأعيـنَ حينـاً وينـام

وجهـهُ مـنْ ظُلمـة المـوت سَفَـر ... ونمـا مـنْ قبـره مثـلَ الـزَّهَـر[6]

* * *

كـم بهـذا السَّهـب مـرّتْ قـافلـهْ ... مثـلَ سَيـر النُّـوق رهـواً سـابلـهْ

---

(١) لم يغش ضوئي النجوم ، ولم يضطرب شعاعي في الأعين اضطراب الزئبق .

(٢) حبذا من صَلي بناري وزمزم حولهما كالمجوس .

(٣) هو صوت شاعر الغد ، ليس صوتاً للزمن الحاضر .

(٤) أفكاري لا يفهمها هذا العصر ، إنها جميلة جمال يوسف ، ولكن ليس في هذه السوق من يشتريها .

(٥) يائس ممن عرف من الناس ، وهو يرجو أن يأتي إليه كليم يفقه عنه ، كما ذهب موسى الكليم إلى الطور .

(٦) قال : إنه شاعر المستقبل لا الحاضر فقال : كثير من الشعراء لم يُعرف قدرُهم إلا بعد الموت .

غيرَ أنِّي عاشقٌ ، ديني النُّواحْ ... ثورةُ المحشر في هذا الصياحْ

أنا لحنٌ كلَّ عنه الوترُ ... لا أُبالي أنَّ عُودي يُكسرُ[1]

أبعدِ القطرة عن سيلٍ طما ... وانظرنَّ اليمَّ منه التطما

لا تعي موجيَ هذي الأنهرُ ... لا تعي لُجِّيَ إلا أبحرُ

ليس أهلاً لسحابي زهرةُ ... ليس فيها لنموٍّ روضةُ[2]

كم بُروقٍ نائماتٍ في الجَنانْ ... ضاقت البيدُ لديها والقِنانْ[3]

إنْ تكن صحراء فاطلب لجَّتي ... أو تكن سيناءَ فاقبس شُعلتي

قد حُييتُ الوردَ من عَين الحياةْ ... ووُهِبْتُ السِّرَّ من عين الحياةْ[4]

أشعلَ الذرَّةَ لحني الثائرُ ... رفرفتْ فهي يَراعٌ طائر

مانثا ذا السرَّ غيري في البشرْ ... لم يُثقِّب ناظمٌ مثلي الدُّرَر

أقبلنْ إن تبغ عيشَ الخالدينْ ... أقبلَنْ إن تبغ مُلك العالَمينْ

أفشتِ الأفلاك لي السرَّ القديمْ ... كيف يُخفَى السرُّ من دون النَّديم ؟

أيها الساقي ! من الراح اسقني ... وآسِ في قلبي جِراحَ الزَّمن

شعلةُ الماء التي من زمزم ... قيصرٌ يعنو لها كالخدم

مُقلةُ المُبصر منها أبصرُ ... وشِعابُ الفِكر منها أنور

تجعلُ الريشةَ طوداً قاهرا ... وتُري الثعلب ليثاً زائرا

هيَ تسمو للثُّريَّا بالثَّرى ... وتعي القطرةُ منها أبحرا

تجعلُ الصَّمت ضجيجَ المحشرِ ... تجعل الدُّرَّاج حتفَ الأصْقُر

املأ الكأس بصفوٍ نيِّرِ ... نوِّرِ الفكرَ بنورِ القمرِ

---

(١) هو لحن لا يطيقه وتر . وهو لا يبالي أن يقطع أوتاره في إظهار هذا اللحن . لا يبالي أن يموت في الإعراب عن هذا الوجد .

(٢) الزهرة التي لا تنمو حتى تصير روضةً ليست أهلاً لمطره .

(٣) جمع قنة ، وهي قمة الجبل .

(٤) العين الأولى عين الماء ، والثانية عين الشيء أي نفسه ، وكلمة الحياة رديف .

لأقــود الــرَّكــبَ شطــر المنــزل   بــاعثــاً شَــوقَ السُّــرى فــي المُقَــل
رائيــاً وجــهَ جــديــدِ الأمــل   ســاعيــاً إثــرَ جــديــدِ العَمَــل
فــأُرى إنســانَ عيــنِ العــارفيــن   وأُرى لحنــاً بــأُذنِ العــالميــن
مُعليــاً قَــدْرَ الكــلام المُبــدَع   مــازجــاً فيــه غــزيــرَ الأدمُــع
قــارئــاً مــن فيضِ ذا الشيــخ العظيــم   كُتُبــاً تُضمِــر أســرار العلــومْ[1]
قلبــهُ مــن شعلــة الــوَجــد استعــرْ   وأنــا فــي نَفَــسٍ منــه شَــرَرْ
قــد رمــى الشَّمــعُ فَــراشــي بــاللهبْ   وغــزتْ جــامــي الحُميَّا فــالتهبْ[2]
صيَّــر الــرومــيُّ طينــي جــوهــرا   مــنْ غُبــاري شــاد كَــونــاً آخــرا
ذرةً تصعــدُ مــن صحــرائهــا   لتنــال الشَّمــس فــي عليــائهــا
إنَّنــي فــي لُجِّــه مــوجٌ جــرى   لأصيــب الــدُّر فيــه نيِّــرا
قــد عــرتْنــي نشــوةٌ مــن كــأســه   وحيــاةً نلــتُ مــن أنفــاســه

* * *

ليلــةً رانــتْ علــى قلبــي الشُّجــون   وسرت « يا ربِّ » في الليل السُّكون[3]

---

(١) الشيخ العظيم : هو جلال الدين الرومي أكبر وأشهرُ شعراء التصوف عند الفرس . ولد بمدينة بلخ عام ٦٠٤هـ لأبٍ من العلماء والفضلاء ، رحل به وهو صبي إلى بلاد الأناضول التي كانت تابعة من قبل للروم ، واستقرَّ في مدينة قونية . ولذلك عرف جلال الدين بالرُّومي ، كما عرفت بلاد الترك ببلاد الروم لعين السبب . ولقد تلقى العلم أول ما تلقى على أبيه ، ثم عَقَدَ الأسباب بينه وبين العلماء والمتصوفة ، وتصدَّر للوعظ والإرشاد ، ثم مال إلى التصوف ، وأصبح من شيوخه والتف حوله من المريدين خلقٌ كثير . وله كتابٌ منظومٌ يسمى المثنوي يتضمَّن حكايات لها مغزىً صوفي ، وآيات قرآنية ، وأحاديث نبوية يفسرها ، ويؤولها ، ولكن لا على ظاهرها . ولا يداني المثنوي كتابٌ آخر في شهرته ، ونفاسته عند الصوفية . وكانت وفاة جلال الدين الرومي عام ٦٧٢هـ .

(٢) الفراش والشمع مثل للمحب والحبيب . فالفراش يقدم على النار ، فيحرق نفسه غير مبالٍ ، ولكن الشمع هو الذي غزا فراشه .

(٣) سرت مني دعوة يا رب في الليل .

مـنْ فـراغِ الكـأس قلبـي نـائـحُ   مـن صـروفِ الـدَّهـر شـاكٍ صـائحُ
أرهـقَ التسيـارُ فكـري فثـوى   هيـضَ سِقْطـاه وللنَّـوم هـوى[1]

* * *

لاحَ شيـخُ الحـقِّ ذاك الألمعـيّ   مـن حكـى قـرآننـا بـالفهلـويِّ[2]
قـال : يـا ولهـان بيـن العـاشقيـن !   من شراب العِشْق فاجرع كلَّ حين
شُـقَّ فـي العيـن حِجـابَ البصـر   وأثِـرْ فـي القلـب هَـوْلَ المحشـرِ
واجعلـنَّ الضِّحْـك ينبـوع البكـاء   وامـلأ العيـنَ دمـوعـاً مـن دمـاءْ
أنـت كـالكِـمِّ صمـوتٌ أبكـمُ   انشُـرنْ كـالـورد ريحـاً تَفْعـم[3]
صعِّدنْ من كلِّ عضوٍ ، كالجرس   نـوحـك الصـامـتَ فـي كـلِّ نفَس
أنـت نـارٌ فـأضـىء للعـالَميـن   بلهيـب منـك أذكِ الآخـريـن[4]
سِـرَّ شيـخ الحـان أعلِـنْ فـي هَيـاجْ   كن مُداماً واتخذ ثوبَ الزُّجاج[5]
وكـنِ الفِهـرَ لمـرآةِ الفِكَـر   واصدَعنْ جهراً وأعلنْ ما استتر[6]
حـدِّثـن كـالنَّـاي عـن غـابٍ نـأى   حـدثـنْ قيسـاً عـن الحـيِّ انتـأى[7]
جـدِّد النَّـوح بلحـنٍ محـدَثِ   ومـن الآهـات فـي الحفـل انفـثِ

---

(١) السقطان : الجناحان .

(٢) يقال عن كتاب المثنوي لجلال الدين الرومي : إنه القرآن في اللسان الفهلوي ، أي : الفارسي .

(٣) كم الزهر منقبض يخفى لونه وريحه ، فإذا انفتح نشر ريحه واستبان شكله . فعمت الرائحة : ملأت الأنف .

(٤) أذكى النار : أشعلها .

(٥) اتخذ ثوب الزجاج : أظهر ما في باطنك ، كما تظهر الزجاجة ما فيها .

(٦) الفهر : الحجر الصغير ، يعني : اكسر مرآة الفكر ، ولا تعول على ما تبديه ، وأبد ما للعشق في قلبك .

(٧) الناي مأخوذ من الغاب وصوته عند شعراء الصُّوفية حنين إلى غابه . وقد بدأ جلال الدين كتاب المثنوي بقصة الناي والغاب .

كــلَّ حــيٍّ فيــه رُوحــاً أحْكــمِ وزِد الحــيَّ حيــاةً مــن « قُــم »[1]
وهلــمَّ اسلُــك طــريقــاً أُنُفــا وانـفِ عــنْ قلبـك مــا قــد سَلَفــا
جــرسَ الــرَّكْــب ! تنبَّــه لا تنــم واعــرف اللَّــذة فــي هــذا النَّغَــمْ

* * *

صِــرْتُ نــاراً فــي ثيــابــي تُسعَــر صِـرْتُ كـالنَّـاي ، هَيــاجــاً أُضمِـر
ثُــرتُ مــن أوتــار نفســي نغمــا شِـدتُ مـن حســن بيــانـي إرمــا[2]
فــرفعــتُ السِّتْــر عــن سرِّ خــودي فبـدا الإعجـاز مـن أمـر خــودي[3]
كــان كــونــي صــورة لــم تكمــل كــان سِقطــاً مُهمــلاً فــي الهَمــل
مِبْــردُ العشــق بــرانــي رجــلاً كيـفَ هــذا الكــون والكــمَّ جَــلا[4]
فــرأت عينــاي نَبــض الأنجُــم وبعــرق البــذرِ دَوراتِ الــدَّم[5]
وبكيــتُ النَّــاسَ جنــحَ الظُّلَــم فبــدا ســرُّ حيــاة الأمــم
مَصنــعُ الكــون أرانــي مــا حــواه فتجلَّــى ســرُّ تقــويــم الحيــاه
أنــا ـ مــن فــي ظلمــة اللَّيــل أنــار ـ فــي طــريــق الملَّــة البيضــا غُبــار[6]
صــوتُهــا فــي الشــرق والغــرب عــلا لحنُهــا فــي القلــب نــاراً أشعَــلا
ذرَّةٌ ألقــت وشمســاً حصــدتْ ألــفَ رومــيٍّ وعطَّــارٍ جنــت[7]
آهتــي الحَــرَّى سمَــتْ فــوق العَنــانْ عِترتي النارُ ، وإن كنتُ الدُّخان[8]

---

(١) قم : فعل أمر . يعني أحي الناس بقولك قم . والكلمة بلفظها العربي في الأصل .
(٢) إشارة إلى ما يقال في وصف إرم ذات العماد .
(٣) أبقيت كلمة خودي في الشطرين كما جاءت في الأصل . ومعناها : الذاتي . وهي أساس فلسفة إقبال .
(٤) جلاني العشق كيف هذا والكون وكمّه حين سلط على مبرده فسوَّاني رجلاً .
(٥) رأى نبض النجوم وسير الدَّم في عروق القمر ؛ أي : أدرك أسرار الكائنات .
(٦) الملَّة البيضاء : الأمَّة الإسلامية ، أي : هو غبار من سيرها في الطريق .
(٧) فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي من كبار شعراء الصوفية .
(٨) يعني : أن أصله من هذه الأمة ؛ فإن يكن دخاناً ، فهو من هذه النار .

قلمـي فـي مسـرح الفكـر عـلا   فجـلا الأسـرارَ فـي السَّبْع العُلَـى

* * *

مـا قصـدت الشعـر فـي هـذا النَّغَـم   نحـتَ أصنـامٍ وتعظيـمَ صنـم[1]
أنـا هنـديٌّ شـآنـي الفـارسـيّ   وهـلالٌ أنـا ذو جـام خلـيّ[2]
لا تـؤمِّـل عنـدنـا حسـن البيـان   لحـنَ خَنْسـارٍ بـه أو أصفهـان[3]
ذاكـمُ الهنـديُّ يحكـي السَّكـرا   لكـن الـدَّرِّيُّ أحلـى مخبَـرا[4]
سحـرَ الفِكـرَ تجلِّيـه وراغ   فـإذا لـي شجـرُ الطـورِ يـراع[5]
قـد عـلا فكـري وهـذا الفـارسـيُّ   لاءم الفطـرةَ فـي فكـري العلـيّ
أيُّهـا العـائـبُ كـأسَ الخنـدَريـس   انظرنْ يا صاح ما تحوي الكؤوس[6]

* * *

في بيان أنَّ نظام العالم من الذَّاتية ، وأنَّ تسلسل حياة أعيان الكون لا يكون إلَّا باستحكامها

هيكـلُ الأكـوانِ مـن آثـارهـا   كـلُّ مـا تُبصـر ، مـن أسـرارهـا
نفسَهـا قَـدْ أيقظـتْ حتـى انجلـى   عـالـمُ الأفكـارِ مـا بيـن المـلا
ألـفُ كـونٍ مختـفٍ فـي ذاتهـا   غيـرُهـا يَثْبُـتُ مـنْ إثبـاتهـا

---

(١) ما قصدت ما يفعله الشعراء من نحت الأصنام وعبادتها ، أي : المدح والخنوع للكبراء ، أو للآراء السائدة .

(٢) هو هندي يغلبه اللسان الفارسي . وهو كالهلال كأسه لم تملأ أي لم يتمَّ نوره .

(٣) خوانسار وأصفهان أخرجتا شعراء وألحاناً كثيرة .

(٤) الهندي اللغة الأردية التي نظم بها إقبال بعض دواوينه ، والدري اللغة الفارسية .

(٥) يعني صار قلمه من شجرة الطور المقدسة التي رأى موسى عندها النار .

(٦) ناسبت الفارسية أفكاره فكتب بها ، وينبغي أن ينظر إلى معانيه لا إلى ألفاظه الفارسية المعيبة .

جعلــت بَــزر خصــامٍ بــزرَهــا نفسَهـــا تنظـــرُ فيهـــا غيـــرَهـــا

خلقــت أضـــدادهـــا مـــنْ نفسهـــا لتـــرى لـــذَّتَهـــا فـــي بـــأسهـــا

تبتلـــي فـــي نفسهـــا قـــوَّتَهـــا لتـــرى مـــنْ نفسهـــا قُـــدْرتهـــا

خُـــدعٌ مـــنْ وَهمهـــا عيـــنُ الحيـــاهْ غُسْلُهـــا فـــي دمهـــا عيـــن الحيـــاهْ[1]

تُخـــربُ البستـــان أجـــلَ الـــوردة تُكثـــر النَّـــوح لأجـــلِ النغمـــة

لفُليـــكٍ واحـــدٍ ألـــفُ هـــلال ولحـــرفٍ واحـــدٍ ألـــفُ مقـــالْ

عـــذرهـــا فـــي سَـــرَفٍ أو قســـوةِ أنَّهـــا تبغـــي جمـــال الخلقـــة[2]

حُســـنُ شيـــريـــنَ لفَـــرهـــادَ مِحَـــنْ ومـــن المســـك رَدَى ظَبـــيُ الختَـــن[3]

فـــي فَـــراش حـــرقـــة كـــالمشعَـــل عـــذرُه فـــي شمعـــه المشتعـــلِ

ألـــفَ يـــوم سطَّـــرتـــه يـــدُهـــا ليُجلَّـــى فـــي سنـــاه غـــدُهـــا

ألـــفُ إبـــراهيـــم فـــي النـــار اغتـــدى لســـراجٍ يُـــرتجـــى مـــن أحمـــدا[4]

* * *

همُّهـــا الأعمـــال فهـــيَ الفـــاعـــلُ وهـــيَ العلَّـــة وهْـــيَ القـــابـــل

ثـــورةٌ فيهـــا وإجفـــالٌ ، ونـــور واحتـــراقٌ واختفـــاء وظهـــور[5]

---

(١) خلاصة الأبيات المتقدمة : أنَّ الذاتية ، وهي واحدة ، اتخذت في الكون مظاهر مختلفةً يحارب بعضها بعضاً ، والحياة في هذا الخصام ، وهذا التنازع بين مظاهر الكون .

(٢) في الأبيات الثلاثة المتقدمة يشير الشاعر إلى أنَّ الخلقة لها مقصدٌ ، تهدَّم من أجنه آلاف الأشكال ، ولا تبلغ الكمال إلا بهذا الهدم .

(٣) عشق فرهاد شيرين قصةٌ رائعةٌ في الأدب الفارسيِّ . . والختن : بلادٌ معروفة بطيب المسك .

(٤) يعني إبراهيم الخليل وأحمد النبي عليهما الصلوات والسلام .

(٥) عمل الذاتية في الطين منه ازدهار العالم ، والليل نومها والنهار يقظتها ، والأجزاء في الكون شرر شعلتها الواحدة ، تنشق فتكون الأجزاء ، وتنبسط فتكون الصحراء ثم ينضمُّ بعضها إلى بعض فتكون جبالاً .

سعـــةُ الأيّـــام ميـــدانٌ لهـــا   والسمـــاء النَّقـــعُ يعلـــو سُبلَهـــا
يـدُهـا فـي الطِّيـن ، للكـونِ ازدهـارْ   نومُها الليلُ ، وفي الصَّحو النهار
قسَّمـــتْ شعلتهـــا فـــي شَـــرَر   فـــرأى الأجـــزاء عقـــلُ المُفكِـــر
تخلـــق الأجـــزاء إمَّـــا تنفطـــر   تُنشـــيءُ الصَّحـــراء إمَّـــا تنتشـــر
ثـم صـارت بـانتشـارٍ فـي مـلال   فـاحـزألَّـت فبـدت شـمُّ الجبـال
شيمـةُ الـذَّاتِ التجلِّـي لا الخفـاء   وهـي فـي الـذرّاتِ بـاسٌ وضيـاءْ
قـــوّةٌ صـــامتـــةٌ حِلـــفُ عَمَـــلْ   عمـــلُ اليـــوم لآتيهـــا عِلـــل
قـــوّة الـــذَّات مـــن الكـــون النـــواهْ   فعلـــى قـــدرِ القُـــوَى قـــدرُ الحيـــاه
كِلمـــة الـــذَّات تعيهـــا قطـــرةُ   فـــإذا القطـــرة يـــومـــاً درَّةُ
خـــارتِ الخمـــرُ فـــلا شكـــلَ لهـــا   ومـــن الكـــأسِ استعـــارت شكلهـــا[1]
وسهـــا طـــودٌ عـــن النَّفـــس فحـــار   فغـــدا صحـــراءَ تغشـــاهـــا البحـــار[2]

* * *

يُعقَـــد النُّـــور لخلـــقِ المقْلـــةِ   تخفـــقُ العَيْـــنُ بشـــوقِ الجَلـــوة
وإذا العشـــب نمـــاءَ أضمـــرا   شـــقَّ صَـــدْرَ المـــرج حتـــى يَظْهـــرا
يجمـــع الشَّمـــعُ بعـــزمٍ نفسَـــه   ومـــن الـــذَّرات يُعلـــي رأســـه
ويُـــذيـــب النَّفـــس إمّـــا غَفَـــلا   فتـــراه دمـــع عيـــنٍ همـــلا[3]

* * *

شـــدَّتِ الأرضُ قُـــواهـــا فـــالقمـــر   فـــي طـــوافٍ حـــولهـــا لا مستقـــر
وكيـــانُ الشَّمـــس منهـــا أكبـــرُ   فلهـــا عيـــن ذُكـــاءٍ تسحَـــر

---

(١) قطرة الماء استكملت ذاتها فصارت درّة ، والخمر ضعفت ذاتها فهي مائعة تستعير قوامها من الكأس .
(٢) حذف بيتٌ قبل هذا البيت وآخر بعده اختصاراً .
(٣) حذف بيتان بعد هذا البيت اختصاراً .

وعـلا الحـورُ فهـالَ النّـاظـرا وعـلا الطـودَ أبيّـاً قـاهـرا
وارتـدى كسـوةَ نـارٍ حـاميـه أصلـهُ حبّـةُ نبـت آبيـه[1]
إنَّ ذاتـاً جمعـتْ أسْـرَ الحيـاه من غـديرٍ أزخـرت بحـرَ الحيـاه[2]

***

في بيان أنَّ حياة الذَّات بتخليق المقاصد وتوليدها

إنَّمـا يُبقـي الحيـاة المقصـدُ جَـرَسٌ فـي ركبهـا مـا تَقصـد[3]
سِـرُّ عيـشٍ فـي طِـلابِ مُضمَـر أصلُـه فـي أمـلٍ مستتـرُ
أُحـيِ فـي قلبـكَ هـذا الأمـلا لا يَحُـلْ طينُـك قبـراً مُهمَـلا
يخفِـقُ القلـب بـه بيـن الصـدورْ هـو فـي صـدرك مـرآة تُنيـر
يهـبُ التـربَ جَنـاحـاً يَصعَـد ولمـوسى العقـلِ خَضْـراً يُرْشِـد[4]
إنمـا يحيـا الفـؤادُ الآمـلُ وإذا حـيَّ يمـوت البـاطـلُ
فـإذا عـيّ بتخليـق المُنَـى هِيـضَ سِقطـاه وأودَى وَهَنـا
أمـلُ الـذاتِ لهيـبٌ يَستعِـرْ أو هـو المـوج الـذي لا يستقِـرْ
وهَـقُ المقصـودِ حَبْـل الأمـل إنَّـه خَيْـط كتـابِ العمـل[5]
وممـاتُ الحـيِّ فقـدان الـرجـاءْ يُطْفـىءُ الشعلـةَ فِقـدانُ الهـواء

***

---

(١) هذا مثل شعري آخر من قوة الذَّاتية شجر الجنَّار ، تقوى ذاته ، فيعلو ، وتكسوه حمرةٌ كأنها النَّار . وكل هذا لأن حبته قويةٌ محتفظةٌ بذاتها .

(٢) الخلاصة أن الذات التي تجمع قوة الحياة تخرج بحراً زاخراً من غدير صغير .

(٣) المقصد مثل جرس القافلة ينبهها للسير .

(٤) هو من العقل كالخَضِر من موسى يهديه ويبين له الحقائق . في بيان : أنَّ حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها .

(٥) الوهق : حبل فيه أنشوطة تمسك به الخيل المسيبة ، ويصاد به . وخيط الكتاب : الخيط الذي تجمع به أوراقه بعضها إلى بعض .

كيـف فينـا أعيـنٌ قـد ظهـرت ؟ لـذةُ الـرؤيـة فينـا صـوَّرت[1]
مـن مُنَـى التَّخطـارِ رجـلُ الحجَـل مـن مُنَـى التغـريـد حَلـقُ البلبـل
حَـيَّ نـايٌ قـد نـأى عـن غـابـه أطلـق النَّغمـة مـن أوصـابـه
ذلـكَ العقـل الَّـذي الكـون طَـوى وتَـرى الإعجـاز فيـه والقُـوَى
إنَّمـا أصـل الحيـاة الأمـلُ فكـذاك العقـلُ منـه يُنسَـل[2]

* * *

مـا نظـامٌ فـي شعـوبٍ ، وسُنـن ؟ ما تَرى التجديدَ في علمٍ وفنّ ؟[3]
أمـلٌ مـن قـوة فيـه ظَهَـرْ بَـرِحَ القلـبَ فغشَّتـه صُـوَر
كـلُّ مـا نملـكُ مـن هـذي الحـواس كـلُّ عضـوٍ فيـه للعيشِ التمـاس
كـلُّ فكـرٍ وخيـالٍ واعتبـار كـلُّ حـسٍّ وشعـورٍ وادِّكـارْ
هـي آلات الحيـاة الجـاهـدة حيـن تَمضـي فـي وغـاهـا صـامـده
ليـس قَصْـد العِلـم والفـنّ الفِكَـر ليـس قَصْـد المـرج ألـوانَ الـزهَـر
إنَّمـا العلـم وِقـاءٌ للحيـاةْ إنَّـه للـذَّات تقـويـمُ النجـاةْ
للحيـاة العلـمُ والفـنُّ خَـدَم للحيـاة العلـمُ والفـنُّ حَشَـم

* * *

جـاهـلاً سـرَّ الحيـاة ! اجتهـدِ وامـضِ نشـوانَ بخمـر المقصـدِ
مقصـدٍ كـالصُّبـح فـي أنـواره محـرِقٍ كـلَّ « سِـوى » فـي نـاره
مقصـدٍ يجتـاز آفـاق السَّمـاءْ يـأخـذُ القلـب بحُسـنٍ وبهـاء

---

(١) في هذا البيت وما بعده يضرب أمثلة لعمل الأمل في العالم . فيقول : إنَّ العين خلقت حينما قصد الإنسان الرؤية ، ورجل الحجلة خلقت من أجل السير والتبختر ، وحلق البلبل من أجل التغريد .

(٢) العقل كذلك من مواليد الأمل .

(٣) كلُّ نظامٍ في الناس وسنن وعلم وفن آمالٌ انبعثت من القلب بقوتها فتصوَّرت صوراً شتى .

ثــــورةٌ فيــــه وفيـــه محشــــرُ   وعلــى البــاطــل حــربــاً يُسعِــر
نحــــنُ أحيـــاءٌ بخلــــق الأمـــلِ   نحــنُ فــي نــورٍ بهــذي الشُّعــل

* * *

في بيان أنَّ الذَّات تستحكم بالمحبَّة والعِشْق

نُقَـط النُّـور التـي تُـدعـىٰ الـذواتْ   شــرر فــي طيننــا للْحَيَــواتْ
مُشعَـلٌ بـالحـبِّ منهـا الجـوهـرُ   يتجلَّــى مــن قــواهــا المُضمَــرُ
قطـرةٌ بـالعشـق تُـوعِـي ضـرَمـا   وهـي بـالعشـق تُنيـر العـالَمـا[1]
لا يهاب العشقُ في السيف المَضاء   ليـس مـنْ مـاء وتـربٍ وهـواءْ
هـو فـي العـالـم صلـحٌ وخِصـامْ   للحيـاة المـاء مـن هـذا الحُسـام
نظـرةُ العِشْـق بهـا شَـقُّ الصُّخـور   هـو عشـقُ الحـقِّ ، والحـقَّ يَصير
فـابـغ فـي طينـك هـذي الكيميـاءْ   اقبِسـنْ مـن كـامـلٍ هـذا الضيـاء[2]
امـض كـالـرومـيِّ شمعـاً يَشتعـل   وارم من تبريز في الروم الشُّعَل[3]
إنَّ فـي قلبـك معشـوقـاً ثـوى   أقبِلَـن أنبئْـك عـن هـذا الجَـوى
عـاشقـوه قـد شَـأوْا كـلَّ جميـل   حبُّهـم فـي كـلِّ قلـبٍ لا يَحـولْ
عشقُـه فـي القلـب نـورٌ أسفـرا   للثُّـريـا يـرتقـي منـه الثَّـرى[4]
تُـربُ نجـدٍ منـه قـد خـفَّ وضـاء   طـار وجـداً مُصعـداً نحـو السَّمـاء
مُهْجـةُ المسلـم مَثْـوى المصطفـى   عِـزَّةُ المسلـم ذكـرى المصطفـى
مـوجـةٌ مـن نَقْعـه الطـورُ الأشـمّ   داره ، للكعبـة العظمـى حَـرَمْ

---

(١) ترعي : تجمع وتدخر .
(٢) حذف بيت قبل هذا اختصاراً والكامل هنا الإنسان المرشد الذي يهدي المبتدىء .
(٣) إشارة إلى جلال الدين الرومي وشيخه شمس التبريزي الذي نقله من العلم إلى العشق ، والروم هنا أرض الروم ، وهي آسيا الصغرى .
(٤) المعشوق المذكور في هذه الأبيات هو الرسول .

ضـاق عـن آنٍ حـواه الأبـدُ مستمـدٌّ مـن مـداه الأمـد
آثـرت سُحـق حصيـرٍ عِفَّتـهُ وعلـتْ تيجـانَ كسـرى أمَّتُـه
خلـواتٌ فـي حِـرَاءِ خَلَقـا أمّـةً مِنْهـا وحُكمـاً مُشـرِقـا
كـم ليـالٍ قـد قضـاهـا ساهـدا فحبـا الأمـة مُلكـاً خـالـدا
سيفـه فـي الحـرب قَطَّاع الحـديـدْ عينُـه فـي الـذكـر بالدَّمع تجـود
سيفـه « آميـن » تمحـو الظـالميـن حيـن يـدعـو الحقُّ بالنَّصر المُبيـن
سُنَنـاً فـي كـوننـا قـد جـدّدا ومـن المـاضيـن مُلكـاً بـدَّدا
فتـح الـدُّنيـا لـه مفتـاحُ ديـنْ عقِمـتْ عـن مثِلـه أمُّ السِّنيـن
استـوى مـولّـى لـديـه وغـلام هـو والعبـد سـواءٌ فـي الطعـام[1]

* * *

أسـرتْ فـي غـزوةٍ بنـتُ الجـواد مـنْ عَـلا طيّـاً بجـدواه وسـادْ[2]
رجلهـا فـي القيـد والـرأس حسيـرْ مُطـرقٌ فـي ذلِّـه الطـرفُ الكسيـر
بُـردةً ألقـى عليهـا سـاتـرا إذْ رأى وجهـاً ورأسـاً حـاسـرا
نحن أعرى في الورى من أختِ طيّ ليـس يكسـونـا لـدى الأقـوام شـي
هـو فـي الـدنيـا علينـا سـاتـرُ وهـو فـي الحشـر إلينـا نـاظـر
لطفُـه والقهـر كـلٌّ رحمـةُ لصـديـقٍ وعـدوٍّ رأفـةُ
وبيـومِ الفَتْـح هـذا الغـافـر قال : « لا تثريب » وهو القادر[3]
إننـا مـن قَيـد أوطـان بَـراءْ نحـن مـن عينيـن نـور لا مِـراءْ[4]

---

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر مثل : أنا عبد آكل أكلة العبد ، وأجلس جلسة العبد .
(٢) إشارة إلى قصة بنت حاتم الطائي حين جيء بها إلى المدينة في الأسرى فألقى عليها الرسول بردة وأطلقها .
(٣) إشارة إلى عفو الرسول يوم فتح مكة عن قريش وقوله : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم .
(٤) يعني : إننا كالبصر يصدر من عينين . هو واحد وإن اختلف مصدره .

نحـــن فـــي مغـــربنـــا والمشـــرقِ كـالنَّدى فـي وجـه صبـحٍ مُشـرقِ
أسكـرتْنـا عيـنُ سـاقٍ فـي البطـاح كزجاجٍ نحن في الدنيا ، وراح[1]
قـد محـا الأنسـابَ طُـرّاً ذا العظيـم نـارُه قـد أحـرقـت هـذا الهشيـمْ
نحـــن زَهـــرٌ وشَـــذانـــا ائتلفـــا ضمَّنـــا منـــه نظـــامٌ ألَّفـــا
نحـــن كنَّـــا سِـــرّه فـــي قلبـــه فـــأذاعـــت صيحـــةُ الحـــقِّ بـــه

* * *

عشقـــه ثـــارَ بعـــودي الصَّـــامـــتِ ألـفُ لحـنٍ فـي فـؤادي السَّـاكـت
مـا حـديثـي عـن ولاءٍ واشتيـاقْ ؟ قـد بكـى جـذعٌ مـواتٌ للفـراق[2]
صـــورتـــي قـــد أوضحـــتْ مـــرآتُـــه أنـــا صبـــحٌ أطلعـــتْ آيـــاتُـــه
ثـــورةُ الحشـــر بليلـــي النـــائـــمِ وهـــدوئـــي فـــي اضطـــرابٍ دائـــم
إنَّنـــي البستـــانُ فـــي آذاره فـي عـروقـي المـاء مـنْ أمطـاره[3]
قد غَرَسْتُ العين في حقلِ الوِداد من سراحِ العَيْن لي هذا الحصاد[4]
قد شأى الدارَين من يثربَ طِيب حبَّـذا دارٌ بهـا مثـوى الحبيـب !
أنـا للجـامـيِّ فـي الشعـر فـداءْ نظمـه والنثـر مـن جهلـي دواء[5]
قـــال بيتـــاً بـــالمعـــانـــي يفهـــق فيـــه دُرٌّ مـــنْ مـــديـــحٍ يبـــرُقُ :
« هـــو عنـــوان كتـــاب العـــالَميـــن سيِّـد الكـونيـن ، مـولـى الثقليـن »

---

(١) نحن ممتزجون كما يمتزج الراح والزجاج .

فكـــأنمـــا خمـــرٌ ولا قـــدح وكـــأنمـــا قـــدحٌ ولا خمـــر

(٢) إشارة إلى قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عنده الرسول حين انتقل عنه إلى مكانٍ آخر .

(٣) هو بستان ناضر من مطر آذاره . والضمير للرسول ﷺ .

(٤) جمع ما جمع من المعاني من تسريح عينه في مآثر الرسول .

(٥) الشيخ عبد الرحمن الجامي من كبار العلماء والشعراء والصوفية في القرن التاسع الهجري .

كـم يُـريـكَ العِشـقُ مـن صهبـائـه | فتـرى التقليـدَ مـن أسمـائـه[1]
أحكِـم العِشْـقَ بتقليـد الحبيـبْ | لتنـال القـربَ مـنْ ربٍّ مُجيـب
فـي حِـراء القلـب فـاقعـدْ خـاليـا | وإلـى الحـقِّ فهـاجـرْ راضيـا
اقـويَـنْ بـالحـقِّ ثـمَّ ارجـع إلَيـك | واحطمنَّ اللّاتَ والعزَّى لديك[2]
قـوِّيَـنْ بـالعشـق فـي سلطـانـه | وابتـغ الجلـوة فـي فـارانـه[3]
تظفـرنْ بـالقـربِ يـا ذا السـائـلُ ! | وتكـن تفسيـر « إنـي جـاعـل[4] »

***

في بيان أنَّ الذّات تضعفُ بالسُّؤال

أيها الجابي من الأسْد الخراجْ ! | صِـرْتَ كـالثَّعلـب خِبّـاً بـاحتيـاج
ذلـك الإعـوازُ أصـلُ العِلـل | كـلُّ آلامـك مـنْ ذا المُعضِـل
سـالـبُ الـرِّفعـة مـن فكـرٍ رفيـعْ | مطفىء الشَّمع مِنَ الذِّهن البديع
مـن كنـوز الـدَّهـر أخـرجْ مـا تـريـد | وخـذِ الصَّهبـاء مـن دَنِّ الـوجـود
وعـن الـرَّحـل تـرجَّـل كعمـر | احذَرن من منَّة الناس ، الحذَر[5]
صـاح ! حتَّـامَ اجتـداءُ المنصِـب ! | فيـم كـالطفـلِ ركـوبُ القَصَـب[6]
تجـدِ الإفـلاسَ بـالسـؤل أذلّ | وتـرى السـائـلَ أخـزى وأقـلّ

---

(١) للعشق أشكال مختلفة منها التقليد أحياناً . وهو يدعو هنا إلى تقليد الرسول .

(٢) هاجر إلى الحق لتقوى ؛ ثم ارجع إلى نفسك فاحطم ما بها من أهواء .

(٣) فاران : اسم مكة أو جبالها .

(٤) إشارةً إلى الآية : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] أي : لتكون خليفة الله في الأرض .

(٥) إشارة إلى قصة عمر حين سقطت درته من يده وهو راكب فنزل ليأخذها ولم يرض أن يناوله إيّاها أحد .

(٦) ركوب عود من القصب أو الجريد كما يفعل الأطفال .

فـــرَّق الـــذاتَ ســـؤالٌ واجتـــداءْ ... فبـــدت سينـــاؤهـــا دون ضيـــاء[١]

إنْ يكــنْ فــي الـرزق والجَـدِّ عَنـاءْ ... وطغــىٰ حــولــك سيـلٌ مـنْ بـلاء

لا تـرُم فـي الأرض رزقـاً بـالبُكـاء ... لا تـرجَّ المـاء مـن عيـنِ ذُكـاء[٢]

احـــذر الخـــزي أمـــام المصطفـــى ... يـــوم يَخـزى كـلُّ سـاعٍ مـا وفَـى

مــن سمــاط الشَّمــسِ يقتـات القمـرْ ... فعليــه وَســـمُ نُعمــاهـــا ظهـــر[٣]

جـــاهـــدِ الأيـــام والله استعـــنْ ... مـــاء وجـــه الملَّـــة البيضـــاء صُـــنْ

علّـم النـاسَ الصـدوقُ الصـائـبُ ... أنْ « حبيـبُ الله سـاعٍ كـاسـبُ »[٤]

ويـــح مـــنْ يحمـــل ذلَّ النِّعمـــةِ ... خـــافـــضَ الـــرأس لثِقْـــل المنَّـــةِ

أرهـــقَ النَّفْـــسَ بـــوقـــر الـــذلَّـــة ... بنقيـــرٍ بـــاعَ تـــاجَ العـــزَّة

مـــرحبـــاً بـــالظـــامـــىء الضحيـــانِ لا ... يســأل الخَضْـر شـرابـاً فـي الفـلا[٥]

بســؤالِ النَّـاس لـم يُنـد الجبيـنْ ... ذاكـم الإنسـانُ ، لا مـاءٌ وطيـن

تحت هذي الشمس يَمضي ذا الفتى ... عـــالـــيَ الـــرأس كسَـــرْوٍ قـــد عتـــا

زاد فـــي العُســـر مضـــاءَ حـــدُّهُ ... هـــو يقظـــانُ وغـــافٍ جَـــدُّه[٦]

كُـــن حَبـــابـــاً مـــن عطـــاء ينفـــرُ ... فـــارغَ الكـــأس ببحـــرٍ يَـــزخَـــر[٧]

* * *

---

(١) لا نور في سينائها يهدي إلى الحق . إشارة إلى قصة موسى .

(٢) لا تَسأل الماء ولو من عين الشمس .

(٣) السِّمة التي على وجه القمر سمة اجتدائه نور الشمس .

(٤) إشارة إلى الأثر : الكاسبُ حبيب الله .

(٥) لا يطلب من الخضر شربة ماء . وعند الخضر ماء الحياة كما في القصص .

(٦) همته يقظانة وإن كان جده نائماً .

(٧) يتخيل الشعراء حباب الماء كأساً فارغةً وهي في البحر . فضرب الشاعر الحباب مثلاً في العفة والإباء .

في بيان أنَّ الذَّات تستحكم بالمحبَّة والعشق فتسخِّر قوى العالم الظاهرة والباطنة

حينمـا الـذَّات بعشـقٍ تُحكـم[١] ... أمـرُهـا فـي الكـون طـرّاً يَحْكُـمُ

فـإذا مـا أومـأت شُـقَّ القمـر ... يـدُهـا مـنْ قـوَّة الحـق أثـرْ

صـاغـرٌ فـي حكمهـا داراً وجـم[٢] ... فـي خصـومـات الـورى أقـوى حَكَـمْ

اسمـه فـي الهنـد مشهـورٌ علـيّ[٣] ... اسْمعَـنْ منِّـي حـديثـاً عـن ولـيّ

قصَّ أخباراً عن الورد الشميم :[٤] ... ذلـك الصِّـداح فـي المـرج القـديـم

قصـد الأسـواق فـي بغيتـه ... سـالـكٌ سكـران مـن خمـرتـه

معـه الحـرَّاسُ قـد حفَّـتْ بـه ... وأتـى العـامـلُ فـي مـوكبـه

أيهـا الأحمـقُ أفسـح لـلأميـر ... صـاحَ للتطـريـقِ جنـديٌّ نكيـر

غـارقـاً فـي اللـجِّ مـن أفكـاره ... ومضـى الـدَّرويـش فـي تسيـاره

ضـاربـاً رأس الفتـى فـي غفلتـه ... فـأتـى ربُّ العصـا فـي شـرَّتـه

وهـو فـي ذعـرٍ وحـزنٍ قـاتـل ... فتنحَّـى عـن طـريـق العـامـل

دمعُـه مـن محبـس العيـن طليـق ... ومضـى يشكـو إلـى شيـخ الطـريـق

---

(١) تحكم أي : تصير قويةً محكمة .

(٢) دارا وجمشيد من ملوك الفرس القدماء .

(٣) الشيخ أبو علي قلندر من كبار صوفية الهند في القرنين السابع والثامن . والقصة التي يشير إليها الشاعر وقعت بين الشيخ والسلطان علاء الدين الخلجي . وخلاصتها أنَّ أحد مريدي الشيخ ذهب إلى السوق ، وكان موكب العاهل قادماً ، فنادى أحد الحرس الدرويش ليفسح الطريق فلم ينتبه فضربه على رأسه فذهب إلى شيخه شاكياً ، فكتب الشيخ إلى السلطان : إما أن تعزل عاملك أو أنصِّبْ مكانك ملكاً آخر . فخاف السلطان وأرسل الشاعر الكبير أمير خسرو وكان ماهراً في الموسيقا فغنى بعض شعره على الرباب ، فلما آنس من الشيخ قبولًا أبلغه رسالة السلطان يطلب عفو الشيخ فعفا عنه . ويريد إقبال بهذه القصة بيان قوة النفس التقية المستغنية .

(٤) هذا البيت يشير إلى مطلع قصيدة فارسية للشيخ أبي علي قلندر فيها ذكر البلبل والورد .

زمجـرَ الشَّيـخ بقـولٍ مـن ضَـرَم مثـلَ بـرقٍ فـي ذُرى الطَّـود اضطـرم
ثـم أملـى الشَّيـخ سطـراً مـن لَهـبْ قـال للكـاتـب فـي نـار الغضـبْ :
أمسـكِ المِـزْبَـر واكتـبْ ذا النـذيـر أبلـغ السُّلطـان عـن هـذا الفقيـر :
« عـامـلٌ عنـدك غـرٌّ قـد عصـى وعـلا رأس غـلامـي بـالعصـا
اعـزلِ العـامـلَ ، هـذا الفـاجـرا أو أهَـبْ مُلكـك مَلْكـاً آخـرا »
عبـدٌ حـقَّ فيـه لله احتسـاب أرعـدَ السلطـانَ منـه ذا الكتـاب
آدهُ غـمٌّ وخـوفٌ لا يحـول فحكـى فـي لـونـه شمسَ الأصيـل
قيَّـد العـامـلَ بـالقيـدِ الثَّقيـل واستغـاث الشيـخَ للصَّفـح الجميـل
ورأى خُسـرو لـه خَيْـرَ سفيـر ذلـكَ الكـوكـبَ وضَّـاء الضَّميـر(١)
سـاحـرَ الألبـاب فـي ألحـانـه مستمـدَّ الغيـب فـي تِبيـانـه
ولهـا خسـرو بـأوتـار الـرَّبـابْ فـأهـاج الشيـخَ وجْـداً وأذاب
فطـرةٌ كـالطَّـوْد فـي عـزّتـهِ خَشَعـتْ لِلَّحْـنِ فـي رقَّتـه
احـذرنْ لا تجـرحَـنْ قلـبَ فقيـرْ لا تـزُجَّ النَّفـس فـي نـار السَّعيـر

***

قصة في معنى أن مسألة نفي الذّات من مخترعات الأمم المغلوبة لتضعف الأمم الغالبة بهذه الطريقة الخفية

قـد سمعنـا أنَّ فـي عصـرٍ قـديـم جَمْعَ ضأنٍ كان في مَرعىً يُقيمْ
وفَرَتْ نسْلاً بذا المرعى الخصيب فـارغـاتِ البـال مـن ليـثٍ وذيـبْ
ثـمَّ ألْـوَى بمُنـاهـنَّ القـدَر ورمَـى بـالسَّهـم فيهـنَّ الـدَّهـر
دهمتهـا الأسـدُ مـن آجـامهـا نـاشـراتِ الـذُّعـرِ فـي أيَّـامهـا
آيـةُ القـوَّةِ حكـمٌ قـاهـرُ سـرُّهـا الظـاهـر فتـحٌ ظـافـرُ

---

(١) أمير خسرو الدّهلوي من كبار الشعراء في القرن الثامن الهجري .

ضربَ الليثُ طبول النوبة ... آخذاً آفاق هذي الثَّلة[1]
وكسا المَرعى بصبغٍ أحمرا ... ما سِوَى الفَرسِ لدى أسد الشَّرى
وانبرى كبش ذكيٌّ ذو عُمُر ... جرَّب الأحداث من حُلوٍ ومُرّ
غمَّه ما قد يعاني سِربُه ... من فِعال الأسْد يَدمَىٰ قلبُه
أمرَه أحكمَ في تدبيره ... وهو يشكو الدَّهر في تقديره
باحتيال العقل يحمي نفسه ... كلُّ رِخوٍ ليسَ يرجو بأسه
قوة التدبير في دفع الضرر ... في زمانِ الضَّعف أقوى وأمرّ
فإذا ما ثارَ للثأر الجنونْ ... صار عقلُ العبد خلّاق الفتون
قال : أمرٌ حار فيه العاقلُ ... بحرُ عمٌّ ليس فيه ساحِلُ[2]
كيف للضأن فالُ الأسَدِ ... ساعدٌ رِخوٌ وفولاذُ يدِ[3]
ليس وعظٌ منْ بليغٍ قادرا ... أن يردَّ الكبش ذئباً كاسرا
لكنِ الليثُ رآه حَمَلا ... إنْ سها عن نفسِه أو غفَلا
فادَّعى في القوم دَعوى مُلهم ... مرسَلٍ للأسد شُرَّابِ الدم[4]
قال : كلُّ القوم « كذَّابٌ أشِرْ » ... غافلٌ عن يوم نحسٍ مستمرْ[5]
جئتُ للنَّاس بشرعٍ مُحكَم ... إنَّني النُّورُ لطَرْف مُظلِم
عجِّلوا التوبة عن كل قبيح ... واتركوا الحر إلى الفعل الربيح
ويح جَلْدٍ أُحكمت فيه قُواهْ ... « نفي ذاتٍ » هُو إحكام الحياه[6]

---

(١) طبل النوبة كان يضرب في أوقات معينة على أبواب الملوك .
(٢) قال الكبش . . إلخ .
(٣) ساعد الضأن ويد الأسد .
(٤) فادَّعى في القوم . أي ادعى الكبش .
(٥) « كذاب أشر » و« نحس مستمر » اقتباس من القرآن . جاء في الأصل .
(٦) مذهب إقبال قائم على أن الخير في إثبات الذات والشر في نفيها .

عَلَفُ العُشبِ به الروح تطيبْ | عائفُ اللَّحم إلى الله قريبْ
حِدَّةُ الأسنان عارٌ مُبرَم | بَصَرُ الإدراك منها يُظلم
إنما القوةُ خسرانٌ مبينْ | خُصَّت الجنَّةُ بالمستضعفينْ
طلبُ السُّلطان شرٌّ مستطيرْ | خيرٌ الفاقة من عزّ الأميرْ
تأمنِ الحبَّةُ برقاً مُحرِقا | وترى البيدرَ منه محرَقا[1]
ذرةً كُنْ لا كئيباً أفيحا | لتنال النُّور من شمسِ الضُّحى
قُلْ لمن يُزهَى بذبحِ الغنم | اذبح النَّفس بحقٍّ تغنَمِ
يقطع السُّنْبل على هذي الحياه | قوةٌ فيها وسلطانٌ وَجاه
يوطأ العشبُ فينمو صُعُدا | يفتح الأعينَ من بعد الرَّدى[2]
أغفِلَنْ نفسكَ إمَّا تعقلِ | إنَّما المجنونُ من لم يُغفِل
اسدُدنْ عيناً وأُذناً وفما | ليجوز الفكر أقطارَ السَّما[3]
هذه الدنيا فناءٌ في فناء | إنَّها وهمٌ فما فيها رجاء
كانتِ الأسْدُ جهاداً مَلَّتِ | نازعاتٍ نحو عيشِ الدَّعة
عن هوىً أصغتْ إلى النُّصح المُنيمْ | فدهاها الكبش بالسِّحر العظيم
كان فَرس الضأن من سُنَّتها | فاقتدت بالضأن في شِرْعتها
جوهرُ الآسادِ أضحى خزَفا | حين صار القوتُ هذا العلَفا
ذهب العُشبُ بنابٍ ذي أشَر | أطفأ الأعينَ ترمي بالشَّرَر
ذلكَ القلبُ عن الصَّدر نأى | جوهر المرآة فيها صَدِئا
فذوى في القلب شوق العَملِ | وهُيامُ السَّعي خَلْف الأمل
ذهب الإقدامُ والعزمُ الأليلْ | والسَّنا والعزُّ والمجدُ الأثيلْ

---

(١) الحبة الواحدة لا تبالي بالبرق ولكن البرق يحرق البيدر الكبير .

(٢) يداس العشب فينمو . فالذلة فيها نفع .

(٣) لعل فيها إشارة إلى ما يفعله نساك الهند ، وإلى الصورة التي تمثل ثلاثة قرود واحدٌ يسد فمه ، والثاني أذنيه ، والثالث عينيه .

بُــرثــن الفــولاذِ فيهــا قــد وَهَــنْ　　واستكــان القلــب فــي قبــرِ البــدن
ونمــا الخــوفُ بنقــص المنَّــة　　قَطَــع الخــوفُ جــذور الهمَّــة
كــلٌّ داءٍ فــي سقــوط الهمــم　　يجعــل الأحيــاء مثــل الــرِّمَــم
نــامــت الأســد بسحــر الغنــم　　سمَّــتِ العجــزَ ارتقــاءَ الأُمــم

***

في بيان أنَّ أفلاطون اليوناني الذي أثَّرتْ آراؤه في تصوُّف المسلمين وآدابهم كان على هذه الطريقة الغنميَّة ، وأن الاحتراز من آرائه واجبٌ

راهــبُ المــاضيــن أفــلاطُ الحكيــم　　منْ فريق الضأن في الدَّهر القديم
طَــرفُــه فــي ظُلمــة المعقــول ضــلّ　　فــي حــزون الكَــوْن قــد أعيــا وكــلّ
فكــرُه فــي غيــر محســوسٍ فُتِــن　　صــدَّ عــن كــفٌ وعَيــن وأُذن[1]
قــال : فــي المــوت بــدا سرُّ الحيــاه　　فــي خمــود الشَّمــع يــزدادُ سنــاهْ
حُكْمُــه فــي فكــرنــا جــدٌّ عظيــمْ　　يمحــق الــدُّنيــا لــه جــامٌ مُنيــم
هــو شــاةٌ فــي لبــاس الآدمــيّ　　وهــو فــي الصوفــيّ ذو بــأس قــويّ
عــالــمَ الأشيــاء سمَّــاه الهــراء　　وعَلَــتْ أفكــارُهُ فــوق السَّمــاء
فعلُــه « تحليــلُ أجــزاءِ الحيــاه »　　وجفــاف النَّبــع مــنْ مــاءِ الحيــاه
زعــم الخســرانَ ربحــاً فكــرُهُ　　ودعــا الكــونَ فنــاءً سحــرُه
فكــرهُ يُغفــي ورؤيــا يخلُــقُ　　عينــه تُبصــر آلَّا يَبــرُق[2]
حُــرمَ المسكيــنُ حــبَّ العمــلِ　　فقفــا معــدومَــه لا يــأتَلــي

---

(١) أعرض عن الحوَّاس .
(٢) يؤمن بعالم الأحلام لا عالم اليقظة ، ولا تبصر عينه الماء ، ولكن تبصر السراب . الآل : السَّراب .

منكـراً فـي الكـون مـا لا يُفقـد خـالقـاً فـي الكـون مـا لا يُشهَـد

عـالـمَ الإمكـان للحـيِّ وطـن عـالـم الأعيـان للميْـتِ حَسَـن[1]

ظَبيــهُ مــن خفــة لا يَجفــلُ غيـرُ خطَّـارٍ لـديـه الحجَـلُ[2]

لـم يُـلألـىء عنده قطـرُ النَّـدى طيـرُه مـا فيـه صـوتٌ قـد شـدا

حبـةٌ فـي أرضـه تـأبـى النمـاءْ وفـراشٌ عنـده يلقـى الضيـاء[3]

فـي وغـى العـالـم نكسٌ مُحجـمُ مُشفـقٌ راهبُنـا لا يُقـدم

قلبُـه يَعشـو لنـارٍ خـامـدهْ صـوّرتْ عينـاه دنيـا هـاجـدهْ

طـار مـن عـشٍّ إلـى الأوج العَلـيّ ثم لم يرجع إلى العش الخليّ[4]

هُلـك أقـوام بهـذا الثَّمَـل حُـرِمُـوا بـالنَّـوم ذوق العمـلِ

* * *

في حقيقة الشعر ، وانسلاخ الآداب الإسلامية

حـرقـةُ الإنسـانِ مـن كـور الأمـلْ نارُ هذا الطِّين من نورِ الأمل[5]

إنَّـه الخمـرة فـي كـأسِ الحيـاةْ وبـه وقـدةُ أنفـاسِ الحيـاه

الحيـاة الحـقُّ تسخيـرُ الـدُّنـى وإلـى التسخيـر تَـدعـوهـا المُنَـى

هـي للمقصـودِ فـي الـدُّنيـا سبيـل وهـي للعِشْـقِ مـن الحسـن رسـول

---

(١) الحي يعيش في عالم الإمكان ، عالم الحس ، والميت يعيش في عالم الخيال ، عالم الأعيان عند أفلاطون وهذا ردٌّ على أفلاطون .

(٢) خلق أفلاطون عالماً لا يثب ظبيه ولا يتبختر حجله . والحجل طير جميلة في مشيها تبختر .

(٣) الحبة في طبيعتها النمو والفراش في طبعه حب الضوء ولكن حبة أفلاطون تكره النمو ، وفراشه يكره الضوء .

(٤) رأى إقبال أن يخلق الفكر ليعود إلى عالم الحسّ ، لا ليبقى في عالم التفكير والتخيُّل .

(٥) الكور : مجمرة الحداد .

أمـــلُ الإنســـان أنَّـــى يظهـــر كيف يشجو الحـيَّ هـذا المـزهـرُ؟

كـــلُّ خيـــرٍ وبهيـــجٍ وجميـــل هـو فـي بيـدائنـا نعـم الـدَّليـلْ[1]

حُسنُـه فـي القلـب نـورٌ يَسْطـعُ تجـــد الآمـــال منـــه تطلُـــع

خُلِـقَ الحســـنُ نضيـــرَ الأمـــل وأدام الحســـنُ نـــورَ الأمـــل

***

مطلـعُ الحسـنِ ضميـرُ الشَّـاعـر طُـورُه صبـحُ الجمـالِ البـاهـر

زادتِ الحســنَ جمــالًا نظـرتُـهْ زادتِ الفطـــرةَ حبّـــاً صنعتُـــه

غـــرَّد البلبـــلُ مـــنْ تلحينـــه ضـــاءَ خـــدُّ الـــوَرْدِ مـــن تلـوينـه

نـــاره كـــلَّ فَـــراش كـــاويـــةْ قِصـــصُ العشَّـــاق منـــه زاهيـــةْ

مُضمَّـــرٌ فـــي خَلفـــه بحـــرٌ وبـــرّ ألـــف كـــونٍ محـــدَثٍ فيـــه استتـــر

كـم شقيـقٍ فـي الحشـا لـم يطلُـعِ وغنـــاهُ وبُكّـــى لـــم يُسمَـــع[2]

فكـــره للبـــدر والنجـــم نجـــيّ يُبـدع الحسـنَ ، وفـي القبـح عيـيّ

خَضِـــرٌ فـــي ليلـــه مـــاءُ الحيـــاةْ تُـزهـرُ الأكـوانُ مـنْ مـاءِ بُكـاه[3]

نحـــن أغـــرارٌ بطـــاءُ الأرجُـــل ضـــلَّ سـارينـا طـريـقَ المنـزل

لطُفـــتْ فـــي سَيـــرنـــا حيلتُـــه وَعَلـــتْ فـــي ركبنـــا نغمتُـــه

يحفـز الـرَّكـب لفـردوسِ الحيـاه ويُتـمُّ الـدَّور فـي قـوس الحيـاه[4]

فمضـى الـركبـانُ إثـر الجـرَس وشـدا الحـادي بصـوتٍ مـؤنِـس

وســـرَت فـــي زَهـــرنـــا نفحتُـــه مـــذ ســـرت فـــي روضنـــا نسمتُـــهُ

نفـــسٌ منـــه حيـــاةٌ تُـــزهـــرُ حُـــرَّةٌ لـــوَّامـــةٌ لا تصبـــرُ

---

(١) يقول : إنَّ الأمل وسيلةُ العمل ، والأمل يخلقه الميل إلى الخير والجمال .

(٢) ضمير الشاعر فيه شقائق لا يراها الناس ، وفيه بكاء وغناء لا يسمعونه .

(٣) إشارة إلى قصة الخضر واهتدائه إلى ماء الحياة في أرض الظلمات .

(٤) يكمل دائرة الحياة .

يــأدِبُ النــاس جميعــاً للقِــرى ... نــارُه كــالـرِّيـح تسـري فـي الـورى

***

ويـــلُ قـــومٍ لهـــلاكٍ طـــائـرُه ... صـــدَّ عـــن ورد حيـــاةٍ شـــاعـرُهْ

كـــلُّ حُسْـــنٍ شـــاهَ فـــي مـــرآتـه ... فـي الجسـوم السُّـمُّ من جَرعـاتـه

تُـــذبـــلُ الأزهـــارَ منـــه القُبَـــل ... ويُعـــاف الشَّـــدوَ منهـــا البلبـــلُ

تهِـــن الأعصـــابُ مـــنْ أفيـــونـه ... ويمـــوتُ الحـــيُّ مـــن تلحينـــه

يسلـــب السَّـــروَ جميـــلَ المَيَـــل ... ويـــردُّ الصقـــر مثـــلَ الحَجـــل[1]

هـــو حُـــوتٌ نصفـــه كـــالآدمـــيِّ ... كبنـــات البحـــر تقتـــاد الغـــويّ[2]

يُسحـــر الـــربَّـان منهـــا بـــاللحـون ... ولقـــاع البحـــر تهـــوي بـــالسَّفيـن

يسلـــب القلـــب ثبـــاتـــاً لحنُـــه ... ويُـــري المـــوت حيـــاةً فنُّـــه

يُلبِـــس النَّفـــع لبـــاسَ الضَّـــرر ... ويُـــري الحســـنَ قبيـــحَ الصُّـــور

فـــي بحـــار الفكـــر يُلقيـــك فـــلا ... تشتهيـــه أو تطيـــقُ العمـــلا[3]

شِعـــره فينـــا يـــزيـــد الكلـــلا ... كـــأسُـــه فينـــا تـــزيـــد المَلـــلا

سَيـــلَ بـــرقٍ مـــا حَـــوىٰ نيســـانُـه ... آل لَـــونٍ وشـــذًا بستـــانـــه[4]

فنُّـــه بـــالحـــقِّ لا يعتـــرف ... بحـــرُه مـــا فيـــه إلا الصَّـــدَفُ

نـــوَّمـــتْ ألحـــانُـــه يقظَتنـــا ... أطفـــأت أنفـــاسُـــه شعلتنـــا

بلبـــلٌ سُـــمُّ قلـــوبٍ نغَمُـــه ... ضِغْـــثُ وردٍ فيـــه ينـــوي أرقمـــه

خمـــره الـــلألاءةَ اتـــرك واحـــذرِ ... كـــأسَـــه والطـــاسَ والـــدَّنَّ اهجـــرِ

---

(١) السَّرو : شجر طويل يصفه الشعراء بالرشاقة والتمايل .

(٢) بنات البحر : حيتان خرافية نصفها الأعلى كالإنسان ، تغوي الملاحين بأنغامها حتى تغرق السفن .

(٣) أي لا تشتهي العمل ، ولا تطيقه .

(٤) نيسان من شهور الربيع يكثر فيه المطر . وهذا الشاعر الذي يصفه إقبال ليس في نيسانه سيل من البرق ، أي ليس في سحابه برق ولا مطر . وقد شبه إقبال وميض البرق بالسيل . والآل : السراب ؛ أي : بستانه سرابٌ من اللون والرائحة .

يـــا صـــريعـــاً خمـــرَهُ يَغْتَبِـــقُ   لـكَ صبحٌ مـنْ سناهـا مشْـرِقُ
يـا بَـرودَ القلـب مـن ألحـانـه   قـد شـربـت السُّمَّ مـن تبيـانـه
يـــا دليـــلاً للـــرَّدى أفكـــارُهُ   عُطِّلَـــتْ مـــنْ نغـــمٍ أوتـــارُه
أنـــت للـــذُّلِّ أرحـــتَ البـدنـا   أنـت لـلإسـلام عـارٌ فـي الـدُّنـى
مـــنْ نسيـمٍ مَـرَّ يَـدمَـى خَـدُّكـا   بعـــروق الـورد يُلـوى قـدُّكـا
أخـزتِ العِشـقَ دُجَـى صيحـاتُكـا   غـضَّ مـن صـورتـه بهـزادُكـا[1]
شـاحـبَ الـوجـه بـدا مِـنْ ضُـرِّكـا   بـــردتْ نيـــرانُـه مِـــنْ قُـــرِّكـا
عـــاجـــزُ الهمَّـــة مِـــنْ ذِلَّتكـــا   وعليـــلُ الـــرُّوح مـــن عِلَّتكـــا
أدمـــعُ الأطفـــال فـــي كـــاســاتـه   كنـــزه مـــا اعتَـــدَّ مـــن آهـــاتـه
آه مِـــنْ وغـــدٍ ذليـــلٍ يـــائـــس   هـالـكٍ مـن رَكَـلات الحـارس[2]
صـــار كـــالنـــاي هـزيـلاً نـائحـا   شـاكـيَ الأقـدار جهـلاً صـائحـا
ليـس إلا الحقـدُ فـي جـوهـرِهِ   ليـــس إلا العجـــزُ فـــي مخبـــره
يـــائـــسٌ فَسْـــل حليـف الخيْبـة   شِقْـوَةٌ فـي خِسَّـةٍ فـي ذلَّـة[3]
نَـوحُـه روحُـك منـه فـي سَقـامْ   قـد حمَـى جيـرانَـه طيـبَ المنـامْ
ويـحَ عشـقٍ قـد ذكـا فـي الحـرَمِ   نـارُه بـاخـت ببيـت الصَّنـمِ !

* * *

صيـرفـيَّ القـول ! إن تبـغ النَّجـاةْ   فـاجعلـنْ معيـارَه نـارَ الحيـاه
نيِّـــرُ الفِكْـــرِ يقـــود العمـــلا   مثـلَ بـرقٍ قـادَ رعـداً جلجـلا

---

(١) بهزاد : مصور إيراني ماهر . يقول إقبال : إنَّ هذا الشاعر شوَّه صورة العشق . وفي الأبيات التالية يبين ما أصاب العشق من الذلة والخور على لسان شاعر السوء .
(٢) يستجدي أو يحاول السَّرقة فيركله الحارس .
(٣) هذه الأوصاف تعرب عن غيظ إقبال من الشعراء الذين أذلوا الآداب الإسلامية .

مـنْ بفكـرٍ صـالـحٍ فـي الأدب ؟ ارجعَـنْ يـا صـاحِ شطـر العـرب[1]

وسُلَيْمـى العُـرب يـا صـاحِ اعشقـا لتـرى صبـحَ الحجـازِ ائتلقـا

فـي ريـاض العجـم قطَّفـتَ الـزهَـرْ فـي ربيـع الهنـد سـرَّحـت البصـر

مـن حَـرور البيـدِ فـاشـربْ يـا رفيـقْ واشـربـنْ مـن تمـرهـا الـراحَ العتيـقْ

أسْلِمَـنْ رأسـكَ يـومـاً صـدرَهـا وأَلْقِيَـنْ فـي حـرِّهـا صـرصَـرهـا

قـد لبسـت الخـزَّ طـول الـزمـنِ فـألـفِ الكِـرْبـاس يـومـاً واخشُـنِ

كم وطئتَ الورد في طول المدى غـاسـلاً ، كـالـورد ، خـدّاً بـالنَّـدى

فعلـى رمـلِ الصَّحـارى المُضـرَمِ أقـدِمَـنْ يـومـاً وغُـصْ فـي زَمـزمِ

فيـم هـذا النـوحُ مثـلَ البلبـلِ ؟ وإلام العُـشُّ بيـن الظُّلـلِ ؟

قـد عـلا جـدُّ الهُمـا مـن صيـدكـا اجعلـن فـي الطـود مثـوى عُشِّكـا[2]

ابـن عُشّـاً حيـث لا تَـرْقـى الأنـوقْ تختفـي فيـه رعـودٌ وبـروقْ[3]

لتُـرى أهـلاً لأعصـار الحيـاهْ وتُـذيـبَ النَّفـسَ فـي نـار الحيـاهْ

* * *

(١) إقبال معجب بالعرب الذين حملوا رسالة الإسلام إلى أقطار الأرض لا يصدُّهم شيء ، ويكبر الهمة والقوة والصبر فيهم ، ويمدح الأدب العربي القوي .

(٢) الهما : طائر خرافي إن سقط ظله على إنسان صار ملكاً ، والشاعر هنا يخاطب المسلم قائلاً إن الهما الذي يمنح الناس الحظ قد علا حظه بأنك صدته فأنت أعلى منه . فارفع عشك فوق الجبل .

(٣) الأنوق : العقاب .

في بيان أنَّ للتربية الذَّاتية ثلاث مراحل :
الأولى : الطَّاعة ، والثانية : ضبط النفس ، والثالثة : النيابة الإلهية

المرحلة الأولى
الطَّاعة

أَلِفَـةَ الكدِّ شعارُ الجملِ ... شيمةُ الصَّبر وَقارُ الجملِ
صامتَ الأخفافِ يمشي ماضيا ... زَورقاً في البيدِ يَسري هاديا
نقشت وجهَ الصحارى أرجُلُهْ ... شاردَ النَّوم قليلاً أكُلُهْ
ثمِلاً يختالُ تحتَ المحمَلِ ... راقصاً يُقدمُ شطرَ المنزلِ
في المَدى من راكبيه أصبرُ ... هائمٌ بالسير عُجباً يَخطِرُ

* * *

فاحملِ الفَرضَ قوياً لا تهابْ ... وارجونْ منْ عنده حُسْنُ المآب[1]
اجهدَنْ في طاعةٍ يا ذا الخسارْ ... فَمِنَ الجبر سيبدو الاختيار[2]
بامتثال الأمر يعلو منْ رسبْ ... وهَوى الطَّاغي ولو كانَ اللَّهب
سخَّر الأفلاكَ في همَّتهِ ... من ثوى في القَيد من شرْعتِه
قد سرى النَّجمُ يؤمُّ المنزلا ... طوعَ قانون له قد ذُلِّلا
ونما العشب بقانون النَّماءْ ... فإذا ما حاد يُجفَى بالعراءْ
ولهيبٌ دائمٌ دينُ الشَّقيقْ ... دمُه منْ ذاك يسري في العروق[3]
يربط الذَّراتِ قانونُ الوصالْ ... فهي بحرٌ وهي برٌّ باتصال

---

(١) اقتباس من القرآن . وهو في الأصل .
(٢) إذا وفق الإنسان بين نفسه وبين القانون أطاع القانون مختاراً لا مجبراً .
(٣) الشقيق : شقائق النعمان . وهي في الشعر مثال الوجد والاحتراق .

كــلُّ شــيءٍ فيــه قــانــونٌ ســرى | كيف في هذي المعاني يُمترى ؟[1]
ارجعــنْ يــا حُــرَّ دُستــورٍ قــديــمْ | زَيّنــنْ رِجْلَــكَ بــالقيــد الــوسيــمْ
شــدّةً فــي شــرعنــا لا تشكــوَنْ | وحــدودَ المصطفــى لا تعــدُونْ[2]

***

المرحلة الثانية
ضبطُ النَّفس

جَمــلٌ نفسُــك تــربــو بــالعلَــف | فــي إبــاءٍ وعنــادٍ وصلَــفْ
فكُــنِ الحــرَّ وقُــدْهــا بــزمــامْ | تبلُغــنْ مــن ضبطهــا أعلــى مَقــامْ
كــلُّ مــن فــي نفســه لا يحكــمُ | هــو فــي حُكــم ســواه مُــرغَــمُ
إنَّمــا صــوِّرت مــن طيــن لَــزبْ | سيط في أمْشاجه خوفٌ وحبّ :
خيفــةُ الــدُّنيــا وخــوفُ الآخــره | خــوفُ مَــوتٍ ورزايــا فــاقــره
حــبُّ جــاهٍ وثــراءٍ وبلــدْ | حُــبُّ زوجٍ وقــريــبٍ وولــدْ
مــن مــزاج الطِّيــنِ والمــاء البــدن | مَــركــبُ الأهــواء ، مَغلــوبُ الفِتــن
مــنْ يَمسَّــك بعصــاً مــن « لا إلــه » | فلتحطِّــم طِلْســم الخــوف يــداه[3]
كــلُّ مــن بــالحــقِّ أحيــا نَفْسَــهُ | لا تــرى البــاطــلَ يُحنــي رأسَــهُ
ليــسَ يــدنــو الخــوفُ منــه أبــدا | ليــس ، غيــرَ الله ، يخشــى أحــدا

---

(١) في الأبيات السابقة ضرب الشاعر أمثالاً مختلفة لسير الأحياء والأشياء على قوانين .

(٢) ينصح المسلم بالتزام الشرع واحتمال شدته . فهذا قانون لا يسعد الإنسان بدونه . ويقول للمسلم كنت حراً باتباع دستورك القديم فارجع وقيد رجلك بهذا القيد الجميل ، ففي هذا القيد حريتك لا عبوديتك .

(٣) لا إله : اختصار لا إله إلا الله . وهكذا يستعملها الشاعر في كثيرٍ من شعره . قوله : إنما السبيل إلى إبطال طلسم الخوف أن تمسك عصا من التوحيد كعصا موسى تبطل السحر .

كـلٌّ مـنْ مـوطنُـه إقليـم « لا » ... مـنْ قيـودِ الـزَّوج والـولـد خـلا[1]

مُعـرضٌ عمـا سـوى الله الأحـدْ ... يضعُ السكِّين في حلق الـولَـدْ[2]

واحـدٌ مـن نفسـه فـي عسكـرِ ... يبـذلُ الـرُّوحَ بيـومِ الخطَـرِ

* * *

درَّةُ التـوحيـد ، فـاحفظهـا الصلاة ... حَجُّك الأصغر ، فاعرفها الصلاة

فـي يـد المسلـم هـذا الخنجـرُ ... يُقْتَـل الفحـشُ بـه والمنكـرُ

يفتـك الصـومُ بجـوعٍ وصـدَى ... ضـابطـاً بـالقسـط هـذا الجسـدا

وينيـرُ الحـجُّ قلـبَ المـؤمـنِ ... هجـرةُ الأهـل بـه والـوطـنِ

إنَّمـا الطـاعـة أسُّ الأمـة ... إنهـا خيـطُ كتـاب الملَّـة[3]

بـالـزكـاة العـابـدُ المـالِ ادَّكـرْ ... علَّمـت حـبَّ المسـاواة البشـرْ

تُكثِـرُ المـالَ ، وشُحّـاً تمحـقُ ... « لـن تنـالـوا البـرَّ حتـى تنفقـوا »

تلـك أسبـابٌ بهـا تَستحكِـمُ ... إنْ يكـنْ فـي القلـب ديـنٌ مُحكـم

اقـوَ يـا مـؤمـنُ بـالله القـويّ ... تحكُمَـن فـي ذلـك البَكـر الأبـيّ[4]

* * *

المرحلة الثالثة

النيابة الإلهية

إنْ خَطمتَ الصَّعبَ قُدْتَ العالما ... نـافـذَ الأمـرِ عليـه حَكَمـا[5]

---

(١) لا إشارة إلى نفي ما سوى الله .

(٢) يضع السكين في حلق ولده كإبراهيم الخليل .

(٣) خيط الكتاب ما تضم به صفحاته بعضها إلى بعض .

(٤) البكر : الجمل الفتي ، ويراد به الجسد مسايرة للتشبيه الذي بدأ به الفصل .

(٥) لا يزال الشاعر في تشبيه الجسد بالجمل . فالصعب هنا الجمل غير الذلول .

مشرقاً في الأرضِ ما دارَ الفلك ... فترى المُلك الذي يخلُد لك

نائبُ الحقِّ على الأرض سعيدْ ... حكمُه في الكون خُلْدٌ لا يبيدْ

هو بالجزءِ وبالكلِّ خبير ... وبأمر الله في الأرض أمير

في فسيح الأرض يمضي طاويا ... وعزمُه ، هذا البساط الباليا[1]

ينجلي منْ فكره مثلَ الزَّهر ... غيرَ هذا الكون أكوانٌ أخر[2]

يُنضج الفكرة فينا بالضَّرَمْ ... يُخرج الأصنام من بيت الحرمْ

رنَّ عودُ القَلْبِ من مضرابه ... يَقظٌ في الحق نومانُ به[3]

باعثٌ في الشَّيب ألحان الشبابْ ... ناشرٌ في الكون ألوان الشَّباب

هو في الناس بشيرٌ ونذيرْ ... وهو جُنديٌّ وراعٍ وأميرْ

مقصدٌ من « علَّم الأسما » هُوَه ... سرُّ « سبحان الذي أسرى » هُوَه[4]

مُحضرٌ منْ تحته طِرفُ الزَّمانْ ... حينما يُمسِكُ منه بالعنان[5]

يبعث الأرواحَ منه قولُ « قُمْ » ... وهي إلى أبدانِها مثلُ الرَّمم[6]

ذاتَه تتبَعُ ذاتُ العالَم ... سطوةٌ فيه نجاة العالَم

يبعث الميتَ بإعجازِ العملْ ... قِيَمُ الأعمالِ منه في بدَل[7]

سيرُه يخضرُّ في بيدائه ... كم كليمٍ هام في سينائه !

جدَّدَ الدُّنيا بتفسيرٍ جديدْ ... عبَّر الرؤيا بتعبيرٍ جديد

كونُه المكنونُ أسرارُ الحياهْ ... نغمةٌ يُضمرُ مزمارُ الحياهْ

---

(١) البساط البالي : الأباطيل الموروثة .

(٢) يخلق من فكره أكواناً أخرى ، لا يقيده ما هو واقع .

(٣) المضراب : أداة تضرب بها أوتار العود .

(٤) الهاء في هوه للوقف . والبيت مردوف والقافية في « الأسما » و« أسرى » .

(٥) يعدو تحته حصان الزمان ، أي يسير الزمان سريعاً إلى مقصده .

(٦) إن قال قم انبعثت الأرواح من قبور الأبدان .

(٧) يبدل قيم الأعمال بما يضع من معايير جديدة .

شاعرُ الفِطرةِ غنَّى طبعَه ... ليقيم الوزنَ إذْ أبدَعه

نقعنا ثار إلى أوجِ السَّماء ... فبدا الفارسُ من هذا الهباء[1]

* * *

في رماد اليوم منَّا ترقُدُ ... شُعلةٌ يرمي بها الكونَ الغدُ

روضةٌ تُضمرها أكمامُنا ... ضاءَ من صبح غدٍ أبصارُنا[2]

أنت يا فارسَ طِرف الزَّمنِ ! ... أنت يا نوراً لعين الممكنِ

موكبَ الإنشاء هيَّا زيِّنِ ... وتمكنْ في سواد الأعيُنِ

قُمْ فسكِّن من ضَجيج الأممِ ... واملأ الآذان زهرَ النَّغَم

جدِّدَنْ في الناس قانون الإخاء ... وأدِرها كأسَ حبٍّ وصفاءْ

أبلغ الناس رسالاتِ السَّلامْ ... وأعدْ في الأرض أيام الوئام

منْ بني الإنسان أنت الأملُ ... أنت منْ ركب الحياة المنزلُ

أذبلَتْ كفُّ الخريف الشجرا ... فاغدُ في الروض ربيعاً نضِرا

نحن من فيضك نسمو للقُلَلْ ... في جهاد الكون نمضي كالشُّعل[3]

* * *[4]

---

(١) يكثر في الفارسية ذكر الفارس والغبار . يقال مثلاً : رب فارس في هذا الغبار . والشاعر يقول هنا : قد أصابنا ما أصابنا ومرت بالناس محن فارتفع غبارهم فظهر هذا الفارس من هذا الغبار يعني أن هذا الإنسان الكامل لا يناله الناس إلا بعد حوادث شديدة .

(٢) الأكمام جمع كم الزهرة قبل أن تنفتح ، يقول : إنَّ الكم عندنا سينفتح عن روضة ، وعيوننا تضيء بنور المستقبل .

(٣) الأبيات السبعة الأخيرة خطاب للإنسان الكامل أو النائب الإلهي .

(٤) هنا عنوان فصل حذفته وحذفت معه اثنين وعشرين بيتاً لم أجد في ترجمتها فائدة . والكلام بعدها متصل بما قبلها .

يـا أخـا الـوردة كـن صنـوَ الحجـرْ
وكـن السـورَ لبستـان الـزَّهـر[1]

آدميَّـاً صـوِّرن مـن تُـربكـا
ثـم شيِّـد عـالَمـاً بـدعـاً لكـا

أنـت إن كنـت تـرابـاً هيِّنـا
فليضـع غيـرُك منـك اللبنـا

أيهـا الصَّـارخ مـن جَـور الـدَّهـر
يـا زُجـاجـاً يشتكـي جـورَ الحجـرْ

فيـمَ هـذا النوح ؟ مـاذا المـأتـمُ ؟
وإلام الصَّـدرَ حُـزنـاً تَلـدِم ؟

مضمـرٌ فـي السعـي مضمـونُ الحيـاهْ
لـذَّة التخليـق قـانـون الحيـاهْ

قُـمْ فشيِّـد عـالمـاً دون مثيـل
وخُـضِ النـار وأقـدِمْ كـالخليـل

إنمـا السَّيـرُ علـى حُكـم الـزَّمـانْ
هو رَمْيُ التُّرس في وقت الطِّعانْ

إنَّمـا الحـرُّ الشجـاع الفطِـنُ
مـن قفـا الآثـارَ منـه الـزَّمـنُ

وإذا الـدُّنيـا عَتـتْ عـن أمـره
حـاربَ الـدَّهـر ، ولـم يعبـأ بـه

يهـدم المـوجـودَ فيمـا آثـرَا
يمنـح الـذرَّاتِ شكـلاً آخـرَا[2]

يصـرفُ الأيـامَ عـن كـرَّاتهـا
يمنـع الأفـلاك مـن دوراتهـا[3]

خـالقـاً مـن قـوةٍ فـي قلبـه
ذلـك العصـرَ الـذي يـرضـى بـه

فـإذا أعـوز عيـشُ الـرَّجُـلِ
فـالحيـاةُ المـوتُ مـوتَ البطـل

حبـذا عشـقٌ بغَـى الأمـر الجليـلْ
وجنـى فـي النَّـار ورداً كـالخليـل

تتجلَّـى فـي مِـراس المُعْضـلِ
قـوة كـامنـةٌ فـي البطـل

عُـدّة الأنـذال حقـدٌ لا سـواه
استمع : صاح ، ذا شرع الحياه :

الحيـاةُ الحـقُّ بـأسٌ يظهـرُ
حُـب الاستيـلاء فيـه مضمـرُ

ربَّ عفـوٍ كـان مـن آفـاتهـا
يكسـرُ المـوزونَ مـن أبيـاتِهـا

يحسَـب العجـزَ قُنـوعـاً خـانـعُ
لصـروف الـدهـر ذلٌّ طـائـعُ

---

(١) لا تكن وردة وكن كالحجر صلابةً ، وكن سوراً يحمي الأزهار .
(٢) يغير نظام الموجودات إن لم تلائمه . يعني يسخّر عالم الطبيعة في مراده .
(٣) يغير ما يزعمه الناس من تأثير الفلك وحكم الأيام .

قــاطــعٌ سُبــلَ الحيــاة الخَــوَرُ قَلْبُــه خَــوفــاً وكِــذْبــاً يُضْمــرُ

قَلْبُــهُ مــنْ كــلِّ خيــرٍ فــارغٌ ليثــه فــي كــلِّ خبــثٍ والــغُ

فــي كميــنٍ راصــدٌ هــذا اللئيــمْ فاحذرنْ يا صاحبَ العقل السليمْ

احــذرنْ يــا صــاحِ مــنْ تــزيينــه إنَّــه الحِــربــاء فــي تلــوينــه[1]

إنَّــه يخفــى علــى أهــل النظــر لَبَــسَ الحــقّ عليهــم واستتــر

فــي ثيــاب الليــن حينــاً يظهــرُ وهــو حينــاً فــي اتضــاعٍ يُستَــر

وهــو طَــوراً فــي ثيــابِ المُجبَــرِ وهــو طــوراً فــي حجــابِ القَــدَر

وهــو حينــاً فــي لبــاس التَّــرف يُلبِــسُ الصِّحــةَ ثــوبَ الــدَّنَــف

مــا ســوى القــوةِ للصِّــدق دَعَــمْ اعــرفــنْ نفسك ، هــذا جامُ جم[2]

هــي مــن حقــل الحيــاة الحــاصــل فُسِّــر الحــقُّ بهــا والبــاطــلُ

مــدَّعــاه فــي غنــىً عــن حجــة إنْ تحــدَّى المــدَّعــي بــالقــوة

تجعــل البــاطــل حقَّــاً مــاثــلاً وَهَــنُ الحــقّ يُحــقُّ البــاطــلا

سطــوة القــوَّة تُحلــي مــا أمــرّ إنْ تقــل للخيــر شــرٌّ فهــو شــرّ[3]

أيُّهــا الغــافــلُ عمَّــا حُمِّــلا أنــت فــي الكــونيــن أعلــى منــزلا

افتحــنْ عينــاً وأُذنــاً وفمــا تُبْصــرِ الحــقَّ طــريقــاً مُعلَمــا

* * *

---

(١) الضمير في هذا البيت والأبيات التالية يعود إلى الخور . وفيها يبين إقبال تعذير الضعفاء والتماس أسماء مختلفة لضعفهم .

(٢) جام جمشيد وهي كأس خرافية كانت ترى فيها الأقاليم السبعة .

(٣) ينبغي أن يذكر القارىء أنَّ إقبالًا يعني قوة الروح والخلق أيضاً .

قصة فتًى من مرو جاء إلى السيد المعظم علي الهجويري[1] شاكياً بغي أعدائه

مُجتبى هُجويرَ مقصودُ الأمَمْ ... من رأى الجِشتيّ مثواه الحرم[2]
قطع الأطوادَ واجتازَ السُّدود ... باذراً في أرضنا بذر السُّجود
زمن الفاروق منهُ يُشرقُ ... وبه للحقّ يعلو منطقُ
حارسُ العزَّة من أمِّ الكتاب ... معقلُ الباطل منه في تَباب
حيَّت البنجابُ من أنفاسه ... صُبْحُنا نوَّر من نبراسه
ذا رسولُ العشقِ ، وهو العاشق ... فيهِ سرُّ العِشق بادٍ بارقُ

* * *

قصةٌ أسرِدُها في أسْطرِ ... طاوياً في الكِمِّ روضَ الزَّهَر :
قد أتى لاهورَ منْ مروَ فتى ... قدُّه كالسَّرْوِ عالٍ قد عتا
جاء عند السَّيد العالي الجنابْ ... كاشفاً منْ نوره عنه الضَّبابْ
قال : إني في عُداةٍ لؤمُوا ... كزجاجٍ بصخورٍ يُصدَم
علِّمني أيُّها الشيخ الكبيرْ ... كيف عيشي بين أعداءٍ كثير
فأجاب الشيخ ، من فيه الجمال ... قد تجلَّى في إطارٍ من جلال :

---

(١) الشيخ علي الهجويري مؤلف كتاب « كشف المحجوب لأرباب القلوب » في التصوف . كان من كبار الصوفية الذين وفدوا على البنجاب ، ووعظوا فيها ، ونشروا الدعوة الإسلامية . توفي سنة ٤٦٥هـ ومزاره في لاهور ، يقصده الناس من كل صوب ، ونسبته إلى هجوير إحدى قرى غزنة .

(٢) الشيخ معين الدِّين الجشتيّ أحد عظماء الصوفية ودعاة الإسلام في الهند . أسلم بدعوته كثيرٌ من الهنادك ، أقام في أجمير وتوفي بها سنة ٦٣٢هـ ، ومزاره أعظم المزارات الإسلامية في الهند ، ويشير إقبال في هذا البيت إلى زيارة الجشتيّ قبر الهجويري في لاهور واعتكافه عنده زمناً .

أيها الغافلُ عن سرِّ الحياةْ لا يَميزُ الخيرَ من شرِّ الحياةْ
حرِّرَنْ نفسَك من يأسٍ وغمّ أنت بأسٌ نائمٌ ، قُمْ لا تنمْ
إن رأى النَّفس زجاجاً حجرُ فهو في الحقِّ ، زجاجٌ يُكسر
وإذا خارت قواه السائرُ قطع السُّبْلَ عليه الفاجرُ
كم ترى نفسك طيناً قد حُقِر شعلةَ الطُّور من الطِّين أثِرْ
فيمَ شكواك الرفيقَ النافعا فيمَ شكواكَ العدوَّ الخادعا
كم عدوٌّ لك ، في الحق صديقْ أنت بالأعداء ذو غُصنٍ وريق
قوة الأعداءِ فضلاً يَعلمُ من مَقامَ « الذَّات » حقّاً يَفهم
يوقظُ الخَصْمُ قِواك الهاجدةْ مثلَ ما تحيي المواتَ الراعدةْ[1]
قوةُ العزم تذيب الحجرا لا يبالي السيلُ صخراً إنْ جرى
تشحذُ العزمَ عِقابُ السُّبُل امتحانُ العزم بُعدُ المنزلِ[2]
ما حياةٌ دونَ عزمٍ مُحْكَمِ ؟ ما غَناءُ العيش مثلَ النَّعَم ؟
زلزلِ العالَمَ وافعل ما ترى إن حَبَتْك الذَّاتُ عزماً مُسْعَرا
اهجرنَّ الذَّات إن تبغ الفناءْ واعمُرنَّ الذات إن شئت البقاءْ
ما الرَّدى ؟ أن يدركَ الذاتَ الوَسَنْ أتراه بُعدَ روحٍ وبدن ؟[3]
يا أخا يوسف في الذَّات أقمْ ومنَ السِّجن إلى المُلك استقِم[4]
أحْكمنَّ الذات وانهض عاملا ناصراً للحقِّ ، سرّاً حاملا
هاكَ سرّاً في حديثٍ مؤنسٍ افتح الكِمَّ بحَرِّ النفَس[5]
« حبذا سرّ حبيب يُضْمَرُ في حديثٍ عن سواه يؤثر[6] »

---

(١) السحابة الراعدة : الممطرة .
(٢) العقاب : جمع عقبة .
(٣) الردى : أن تغفل الذات لا أن يفارق الروحُ البدن .
(٤) كن مثل يوسف أقام في نفسه فأحكمها ، فمضى من السجن إلى الوزارة .
(٥) أبدي السر في قصة قصيرةٍ ككم الزهرة .
(٦) هذا البيت من شعر جلال الدين الرُّومي .

قصة الطائر الذي أجهده العطش

طـائـرٌ مِـنْ ظمـأٍ قـد جهـدا ... كـدخـانٍ نفَسـاً قـد صعَـدا
قَـدْ رَأى ألمـاسـةً مثـلَ النَّـدى ... صـاغهـا مـاءً لعينيـه الصَّـدى
خَـدَعتـه شـذرةٌ مثـلُ الشَّـرر ... فـرأى الجـاهـل مـاءً فـي الصَّخَـر
لـم يجـدْ ريّـاً بضَـرْبِ المِنقَـر ... لـم يُصـب مـاءً بنقـر الجـوهـر
قـالـتِ الشَّـذرة : جُنِّبـتَ الهُـدى ... تضرب المنقار في جسمي سُدى
لسـتُ مـاءً . لا تـرانـي سـاقيـه ... مـا أنـا مـن أجـل غيـري بـاقيـه
جـاهـلٌ يقصـد هضمـي مـا اهتـدى ... لحيـاةٍ نـورُهـا منهـا بـدا
كـلُّ منقـارٍ بمـائـي ينكسـرْ ... وتـرى الإنسـان منـه ينبهـر
مـا رأى الطـائـرُ فيهـا أربـا ... فتـولّـى عـن سنـاهـا لغَبـا
حسـرةٌ فـي صـدره تتَّقـدُ ... زفـراتٍ لحنُـه يصَّعَّـد

***

وأضـاءت مثـلَ دَمْـعِ البلبـلِ ... قطـرةٌ فـي غُصْـنِ وردٍ خَضِـل
لضيـاء الشمـس فيهـا مِنَّـةٌ ... ولخـوف الشمـس فيهـا رعـدة[1]
كـوكـبٌ يـرعَـد مِـنْ نَسْـلِ السَّمـاءْ ... شـاقـه الجلـوة فـي هـذا الفضـاء[2]
غـرَّه الأكمـام والـزَّهـر الخصيـبْ ... لـم يـزوّد مـن حيـاةٍ بنصيـب[3]
قطـرةٌ مـنْ دَمْـعِ صـبٍّ تبهَـر ... زانـتِ الهُـدْبَ وكـادت تقطِـر

---

(١) هي مضيئة بنور الشمس ، وهي في خوفٍ أن تجفَّ في أشعة الشمس .

(٢) قطرة الندى كأنها كوكب من السماء تجلى على الأرض ، والندى في شعر إقبال يرمز أحياناً للأمور العلوية .

(٣) الأكمام : أكمام الزهر ، وهذه القطرة سريعة الزوال ، لم تأخذ نصيباً من الحياة الذاتية .

فمضـى الطـائـر فيهـا راغبـا بـلْ بـالقطـرة حَلقـاً لاهبـا
أيُّهـا البـاغـي عـدوّاً تقهـرُ ! قطـرةٌ أنـت ، تُـرى ، أم جـوهـر ؟
حينمـا الطـائـر أضنـاه صـداه حـيَّ نفسـاً بحيـاةٍ مـنْ سِـواه
كـانـت الشَّـذرةُ عضبـاً يُـرهَـب لـم تكـنْ قطـرةَ طـلٍّ يُشـربُ
قـوةَ الـذَّات احفظنهـا أبـدا وكـنِ الألمـاس لا قطـر النـدى
أنضـج القطـرة كـالطَّـود تُـرى حـامـلاً غيمـاً مُفيضـاً أنهـرا
أثبـتِ الـذَّات وفيهـا حَقِّـق فِضـةً كـن بـالتئام الـزِّئبـق[1]
ومـنَ الـذَّات أبِـنْ أسـرارهـا حـرِّكَـنْ عـن لحنهـا أوتـارهـا

* * *

قصة الألماس والفحم

قصـةٌ أخـرى بهـا أُدلـي إليـك يفتـح الحـقُّ بهـا بـابـاً عليـك :
قـال لـلألمـاس فحـمُ المعـدِن : يـا حليـفَ النُّـور طـول الـزَّمـن !
نحـن صنـوان نَمـانـا والـدُ أصلُنـا فـي الكـون أصـلٌ واحـدُ
وعلـى التيجـان أنـت الـزينـةُ وأنـا فـي التُّـرب حظِّـي الـذلَّـة
لـك حسـنٌ فـي المـرايـا يسطـعُ وأنـا مِـنْ كـفٍّ تـرب أضيَـع
مـن ظـلامـي قـد أضـاء المجمـرُ ورمـاداً آض فـيَّ الجـوهـر
مَـوطـىءَ الأقـدام بيـن البشَـرِ قـد رمـوا فـي مهجتـي بـالشَّـرَر
إنَّ حـالـي ببكـاء لَحَـرى هل ترى أصلي وفصلي هل ترى ؟
إنَّنـي مـوج دُخـانٍ يُعقَـد كـلُّ مـا فـيَّ شـرارٌ يَصعـدُ
ومـن الأنجـم فيـكَ الـرَّونـقُ كـلُّ جنـبٍ فيـك نـورٌ يُشـرق

---

(١) كن في صلابة الفضّة باجتماع الذرات المضطربة كالزئبق .

تــارةً نــورٌ بعينَــيْ قيصــرا تــارةً فــصٌّ يــزيــن الخِنجــرا

***

قــال : فــاسمــع يــا رفيقــي وافهمــا ينضــج التــربُ فيغــدو خــاتَمــا
شــنَّ فيمــا حــولــه حــربــاً ومــرّ وغــدا بــالحــرب صلبــاً كــالحجــر
هيكلــي مِــنْ نضجــه قــد نــوَّرا وبصــدري كــم شعــاعٍ أسفــرا
أنــت مِــنْ ضَعــفٍ وكيــان تنفَــق وبليــنٍ فــي قــوام تُخْــرَق
اهجُــرنْ خــوفــاً وغمّــاً لا تهُــن وانضَجَنْ كالصَّخر والألماس كُن
مــن أجــاد السعــي والأخــذ معــا فهــو فــي الــدَّاريــن بــدرٌ طلعــا
وبحِجْــر الكعبــةِ انظــر حجــرا كــانَ مــنْ قبــلُ تــرابــاً حُقِــرا
جــاوَزَ الطــورَ عــلاءً لا جــرم ورَجَــتْ تقبيلَــهُ كــلُّ الأمــم
قــوةُ الأحيــاء عــزٌّ ونجــاهْ والــونَى والــذلُّ مِنْ ضعفِ الحياه

***

قصَّة الشيخ والبرهمي ، ومحاورة نهر الجنج وجبل همالا في معنى دوام حياة الأمة بالتمسُّك بسنتها

بــرهمــيٌّ فــي بنــاريــسَ علــمْ غــائــصٌ فــي فكــر كــونٍ وعــدَم[1]
بــرجــالِ الله يحفَــى فِعلُــه ومــن الحكمــة وافِرٍ كِفلُــه
عقلُــه فــوق الثــريَّــا قــد عــلا ذهنــه مــاضٍ يحُــلُّ المشكــلا
فكــره العنقــاءُ إمــا حلَّقــا شعلــةٌ منهــا السِّمــاك احتــرقــا
كــأسُــه دهــراً خَلَــتْ مــنْ خمــرةِ قــد حمــاهُ الــراحَ ســاقــي الحكمــة
فــي ريــاض العلــم ألْمَــى شبَكــا طــائــرَ المعنــى بــه مــا أدركــا

---

(١) بناريس : المدينة المقدسة في الهند عند الهندوس .

فكـرَه أذمَـى ولكـنْ لـم تـزلْ عُقـد الأكـوانِ فيـه دون حـلّ
أعـربَـتْ عـن يـأسـه آهـاتـُه وحكـت حَيـرتَـه نظْـراتُـه
سـار يـومـاً نحـو شيـخٍ كـامـلِ رُبَّ صَـدْرٍ بفـؤادٍ آهِـلِ
لقـيَ الشَّيـخ بنفـس راجيـه تحسـنُ الصَّمـت ، وأذنٍ واعيـه :
فـأهـاب الشيـخ : يـا خِـدنَ السمـا اهبطـنَّ الأرضَ وارعَ الـذِّمَمـا
ضقـتَ فـي الأرض مجـالًا فعـلا فكـرُك المقـدام فـي أوج العُلَـى
طـاويَ الأفـلاك ! فـي الأرض قُـمِ لا تطِـرْ تطلـب سـرَّ الأنجُـم
لا أقـولُ اهجـرْ غـداً أصنـامكـا كـافـرٌ أنـت فخـذْ زُنّـاركـا
يـا أمينـاً لتـراث الأوّليـنْ ! لا تـدعْ نهـجَ الجـدود الأقـدَميـن
بـاجتمـاعِ الشَّمـل تحيـا الأمَّـة وكـذاك الكُفـر فيـه وَحـدة
لـم يكمَّـلِ فيـك حتـى كفـرُكـا ليـس أهـلاً لفـؤاد صـدرُكـا
إنَّ إبـراهيـم فينـا هُجِـرا وبَعُـدتُـمْ أنتـمُ عـن آزرا[1]
قيسُنـا مـا هـام خلـف المحمَـل فـي جنـونِ العِشْـق لمَّـا يكمُـلِ
إنَّ شمـع الـذات فينـا لانطفـاءْ كيـف يُجـدينـا طـوافٌ فـي السمـاءْ

* * *

جـاش نهـر الجنـج يـومـاً جـائـلا فـي سفـوح مـن هِمـالا قـائـلا :
حـامـلاً مـن بَـرَدٍ أوقـارَه ! عـاقـداً مـن أبهـرٍ زُنّـاره ![2]

---

(١) يدعو هذا الشيخ إلى استمساك البرهمي بدينه وكماله فيه ما دام برهمياً . ويرى الكمال ولو في الكفر خيراً من النقص . ثم يقول : إنَّ الموحدين لا يسيرون على نهج إبراهيم الذي كسر الأصنام ، والوثنيين لا يتبعون آزر الذي نحتها .

(٢) الخطاب من نهر الجنج لجبل همالا ، وخلاصة المحاورة : أن النهر يعيِّر الجبل بالعجز عن المسير فيجيب الجبل بأن البقاء في ثبات الكائن في مقامه ، وأنَّ الفناء في زواله عن مقوماته . وهذه المحاورة تصوِّر رأي إقبال في إثبات الإنسان ذاته وتقويتها، وأنَّ نفيها ، أو الغفلة عنها يودي بها .

صاغك الحقُّ نجيّاً للسَّماء — وحمى رجلَك سيراً في العراء
قُيِّدت رجلُك عن سيرٍ فما — هيبةٌ فيك ورأسٌ قد سما ؟
إنما العيش مسيرٌ وُصلا — وحياةُ الموج في أن يجفِلا
غضِبَ الطَّودُ لقول النَّهَرِ — فرمت أنفاسُه بالشررِ
قال : يا مرآة وجهي ! ويلكا — كم حوى صدري بخاراً مثلَكا
إنَّ هذا السَّيْرَ فيهِ الحَيْنُ لكْ — منْ يزُل عنْ نفسه يوماً هلكْ
بمقَامٍ لكَ هلاَّ تأبَه ! — أفخارٌ بالرَّدى يا أبلهُ !
يا وليد الفَلك المرتفعِ ! — صِرْتَ دونَ السَّاحل المتَّضِعِ
قد وهبتَ النَّفس بحراً غاصبا — وأبحت الرُّوح لصاً سالبا
كُنْ كوردٍ في رُباه عاكفِ — لا تَرُم للريح كفَّ القاطف[1]
إنَّما العيشُ نماءٌ في المكانْ — وبروضِ الذَّات قطفُ الأقحوانْ
في دهورٍ لم تُزحَزِحْ أرجُلي — أتُراني زائلاً عن منزلي ؟
وإلى الأفلاك قدِّي يصعد — فعلى سفحي الثُّريا ترقد
أنت تَفنى في خِضَمٍّ خِضرِمٍ — وقلالي مسجدٌ للأنجمِ
وبعيني لاح سرُّ الفلكِ — وبسمعي طيرانُ المَلَكِ
وبنارِ الجدِّ طولَ الدَّهَر — قد حوى صدري صنوفَ الجوْهرِ
« صخرٌ قلبي وناري في الصَّخر — ليس للماء إلى ناري ممرّ[2] »
قطرةً إن كنت فاحفظ نفسكا — جاهد الأمواج واجنُب يأسكا
وابتغِ النُّور وكنْ درّاً يُضيءْ — ثم كن قُرْطاً على وجهٍ وضيء
أو فزد واعلُ سحاباً ممطرا — يُشعل البرق ويهمي أبحرا[3]

---

(١) الريح : الرائحة . لا ترم أن يقطفك الناس لتفوح رائحتك .

(٢) اقتباس من جلال الدين الرومي مع تغيير في اللفظ .

(٣) إنْ كنت ماءً فاحفظ نفسك في البحر حتى تصير لؤلؤة . أو كن سحاباً ذا برقٍ ورعدٍ يجتدي منك البحر ماءه .

يبســـط البحـــرُ لجـــدواك يـــدا | شــاكيــاً مــنْ فــاقــةٍ يــرجــو النَّــدى
فهــو فــي فيضــك دون المــوجــة | وهــو فــي جــدواكَ بــادي الــذِّلَّــة

* * *

في بيان أنَّ حياة المسلم لإعلاء كلمة الله
وإن كان الباعث على الجهاد « جوع الأرض »
فهو حرامٌ في شريعة الإسلام

صبغـــةَ الله أنِـــزْ فـــي قلبكـــا | والهـــوى والصِّيـــتَ دَعْ فـــي حبِّكـــا
إنَّمـــا المسلـــم بـــالحـــبِّ قهـــر | مسلـــمٌ لا حـــبَّ فيـــه قـــد كفـــر
غـــضَّ بـــالحـــقِّ ، وبـــالحـــق نظَـــر | ولـــه فـــي الحـــقِّ نـــومٌ وسَهَـــر
فـــي رضـــاه لـــرضـــا الحـــقِّ فنـــاء | كيف يرضى النَّاس هذا الادِّعاء ؟[١]
فـــي رُبـــى التَّـــوحيـــد أرســـى العَمـــدا | وعلـــى النـــاس جميعـــاً شهـــدا
وعليـــه يشهـــدُ الـــدَّاعـــي الأميـــن | شـــاهـــدٌ أصـــدقُ كـــلّ الشَّـــاهـــديـــن
فـــدعِ القـــال إلـــى الحـــال الجلـــي | وأضـــيءْ بـــالحـــقِّ ليـــلَ العمـــلِ
وكـــن الـــدرويـــش فـــي زيِّ الأميـــرْ | ذاكـــراً لله يقظـــانَ الضَّميـــر
واقصِـــدَنَّ الحـــقَّ فـــي كـــل الفِعـــالْ | يسطَعَـــنْ فيـــك مـــن الحـــقِّ جـــلالْ
خيـــرُ الحـــرب إذا رمـــتَ الإلـــه | شـــرٌّ السِّلـــمُ إذا رُمـــتَ ســـواه
نحـــن إن لـــم يُعـــلِ حقّـــاً سيفُنـــا | اكتســـى فـــي الحـــرب عـــاراً صفُّنـــا

* * *

---

(١) الحق : الله تعالى . يبلغ المؤمن درجة يفنى فيها رضا الحق في رضاه . أي يكون رضاه رضا الحق . والشطر الثاني مأخوذ من جلال الدين الرومي .

شيخنـا الشيـخ (ميـانميرُ) الـولـيّ ... مـنْ سَنـاهُ كـلُّ سِـرٍّ ينجلـي[1]

كـان ثَبْتـاً فـي طـريـق المصطفـى ... مِـزْهَـر العِشْـقِ بحـقٍّ عَـزَفـا

قبـرُه الإيمـان فـي أوطـاننـا ... مشعـلُ النُّـور علـى بلـداننـا

سجـدَ النَّجـمُ علـى أعتـابـه ... كـان مَلْـكُ الهنـد مـن طُـلّابـه

غـرس المَلْـكُ هـواه فـي الفـؤادْ ... طـالبـاً فـي حـرصـه فتـح البـلادْ

بـالهـوَى أضـرَم نـاراً قلبَـهُ ... مُقرئاً « هل من مزيد » عَضبَه[2]

دوّخـت أجنـادُه كـلَّ وطـنْ ... وتـوالـى الفتـحُ فـي أرض الـدَّكَـن

دَيـدن المسلـم للحـقِّ التجـاء ... يُحكـم التـدبيـرَ منـه بـالـدُّعـاء

قصـدَ الشيـخَ العلـيَّ القَـدْرِ ... راجيـاً منـه دعـاءَ الظَّفـر

صمـتَ الشيـخُ لقـول المـالـك ... وصغَـى كـلُّ مـريـدٍ سـالـك

قطـع الصَّمـتَ مـريـدٌ أقـدمـا ... أمسكـت إحـدى يـديـه درهمـا

قال : مولايَ ! اقبل النذرَ الحقيرْ ... أنـتَ للمسكيـن بـالحـقِّ نصيـرْ

عَـرَقـي مـن كـلِّ عضـو قـد همـى ... قبـل أن تمسـك كفـي الـدِّرهمـا

قـال : سلطـانـي بـه أولـى يـدا ... سـائـلٌ فـي حلـة المُلـك بـدا[3]

---

(١) القصة التي نظمها الشاعر في هذا الفصل كانت بين السلطان شاهجهان والشيخ ميانمير وشاهجهان أحد سلاطين الدولة الإسلامية المغولية في الهند . ولا تزال آثاره في العمارة زينة الهند كلها ومفخرتها . وهو باني المزار ذائع الصيت « تاج محل » في مدينة أجرا. شاده لزوجه ممتاز محل . حكم (١٠٣٧ ـ ١٠٦٨هـ) ومير محمد المعروف بميانمير هو أحد مشايخ الطريقة القادرية في الهند ولد في السند سنة ٩٣٨هـ . وأخذ عن شيخه الشيخ محمد خضر ، ثم انتقل إلى لاهور ، فأخذ عن مشايخها . وقد عظمت مكانته ، فكان يزوره السلطان جهانجير ثم ابنه شاهجهان صاحب القصة . وتلمذ له عبد الحكيم السيالكوتي المعروف في علم الكلام . توفي سنة ١٠٤٥هـ ومزاره مقصد الزائرين في لاهور اليوم .

(٢) هل من مزيدٍ جاءت في الأصل بلفظها العربي . يعني جعل سيفه يقول : هل من مزيد .

(٣) قال الشيخ : سلطاني . . إلخ .

مَلْكنـا أفقـر مـن كـلِّ البشـرْ   وعلـى الشمـس تـولَّـى والقمـر
جـوعُـه بـالنَّـار يُصلـي العـالمين   عينـه فـوق سمـاط الآخَـريـن
سيفُـه بـالقَحْـط والمـوت رمـى   نفسَـه يَبنـي ويُـردي عـالَمـا
ضجـت الأقـوامُ مـن فقـر لـديـهْ   شقـي المسكيـنُ مـن جـوع يـديـه
حُكْمُـه فـي النَّـاس شـرٌّ وأشَـر   قطَـعَ الطُّـرْقَ علـى رَكْـب البشَـرْ
بخـداعِ النَّفـس والجهـل دعـا   نهبَـه فتحـاً . وبئـس المـدَّعَـى
عسكـرُ الملـك ومـا قـد أسـروا   بسيـوف الجـوع منـه شَـذَرُ
غصَّـةُ السـائـل جـوع السـائـل   وخَـرابُ المُلـك جـوعُ الـدائـل
مـنْ لغيـر الله سـلَّ المُغْمَـدا   سيفَـه فـي صَـدْرِه قـد أغمَـدا

* * *

نصيحة مير نجاة النقشبندي المعروف ببباي صحرائي (الأب الصَّحراوي) التي كتبها لمسلمي الهند

أنـتَ كـالـوردِ مِـنَ الأرض بـدا   مـنْ ضمير الـذَّات نِلـتَ المولـدا
لا تَعَـدَّ الـذَّاتَ واخلُـد أبـدا   قطرةً كُنْ واشرب البحر صدى[1]
إنَّمـا الـرِّبـحُ بهـذي الثـروةِ   والغِنـى فـي حفـظِ هـذي السلْعـةِ
أنـتَ مـوجـودٌ وفـي خـوف العَـدَمْ   يـا أسيـرَ الـوهـم أخطـأتَ الفَهَـم
عنـديَ الخُبْـر بـأوتـارِ الحيـاهْ   سـأُنبِّيـكَ بـأسـرارِ الحيـاهْ :
غـوصـةٌ فـي النفس غـوصَ الـدرَّةِ   وظهـورٌ بعـد هـذي الخلـوة
هـي جمـعٌ مـنْ رمـادٍ شـرَرا   واشتعـالٌ بَعـدُ يُعشـي البصـرا
هـي حـولَ الـذَّات طـوفٌ فـاعلَـمِ   واجعلَـنْ نَفْسَـكَ بيـتَ الحـرَم
حَلِّقَنْ في اللَّوح عن جذب التراب   منْ هُوِيٍّ لا تخف ، مثل العقاب

---

(١) كن قطرة لا ترضى بغاية فهي تشرب البحر في ظمئها . الصدى : الظمأ .

أنـتَ إنْ لـم تـكُ طيـراً ويحكـا فعـن الغـار فـابعـد عُشَّكـا[1]
أيهـا الجاهـد فـي كسـب العلـومْ عن إمام الرُّوم خذ نصحَ الحكيم
« إنَّمـا العلـمُ لـدى الجسـم شقـاء وهـو فـي القلـب دواءٌ وشفـاء »[2]
قصَّةُ الـرومـي تقضـي بـالعجـب : كـان فَيضـاً مـن علـوم فـي حلَـبْ
وعلـى رجليـهِ للعقـلِ قيـود فـي ظـلام العقـل بـالفُلـك يَـرُود
هـو مـوسـى دون طـورٍ يُشـرق مـا درى مـا العشـقُ أو مـنْ يعشـقُ
وعـن الإشـراق والشـكُّ حكـى ومـن الحكمـة درّاً سلكـا[3]
وعـن المَشَّـاء[4] حـلَّ العقـدا كـلُّ خـافٍ مـن سنـاه قـد بـدا
وحـواليَـه صِـوانُ الكتُـبِ وعلـى فيـه بيـانُ الكتُـب

* * *

أمَّ يـومـاً مكتـبَ المُـلا جـلالْ شيـخُ تبـريـز بـأمـرٍ مـن كمـال[5]
قـال : مـاذا القـالُ والقيـلُ ومـا مـنْ قيـاسٍ ودليـلٍ أوْهَمـا
صـرخَ الـرومـيُّ : مهـلاً يـا جهـول! لا تهـوِّن مـنْ مقـالاتِ العقـول
اخـرُجـنْ مـنْ مكتبـي يـا أبلـهُ ! قـالَنـا والقيـلَ أنَّـى تفقـه ؟
قـالُنـا أرفـعُ ممَّـا تعقـل سُـرُج الإدراكِ منـه تُشعَـل
نـارُ شمـسِ الـديـن زادت حُـرَقـا فـرمـى مـنْ روحـهِ مـا أحـرقـا
فـاستطـارَ البـرقُ مـنْ نظْـرتِـهِ وتلظَّـى التُّـربُ مـن شُعلتِـهِ

---

(١) إشارة إلى قصة الغار والحمامة التي عششت عليه . يعني إن لم تكن ذا همة تطير عن الأرض فلا تطلب المنزلة الرفيعة .
(٢) بيت من جلال الدين الرومي .
(٣) سلك الدر : نظمه في السلك .
(٤) أي : الحكماء المشائين .
(٥) شيخ تبريز شمس الدين التبريزي الصوفي الذي أرشد جلال الدين الرومي إلى التصوف ، وكمال هو : كمال الدين الجنيدي شيخ شمس الدين .

فـإذا الأدراكُ مـنْ نـارِ القلـوب | محـرقٌ والكتْـبُ منهـا فـي لهيبْ
جهـل الـرومـيُّ عشقـاً أُضـرِمـا | مـا درت أوتـارُه ذا النَّغمـا
قـالَ : هـذي النـارُ مـا قصَّتُهـا ؟ | أحـرقـت أسفـارَنـا وقـدتُهـا
قـال شمسُ الـديـن يـا ذا المسلـمُ ! | ذوقَنـا والحـالَ أنَّـى تعلَـم ؟
حـالُنـا أرفـعُ ممـا تُفكِـرُ | ولظـانـا الكيميـاءُ الأحمـر(١)

* * *

تجمـع الحكمـةَ زاداً بَـردا | فسحـاب الفكـر يهمـي بَـردا(٢)
مِـنْ هشيـمٍ فيـك أذكِ اللهبـا | مِـنْ تـرابٍ فيـك أطلِـع شُهُبـا
مـنْ لهيـبِ القلـبِ عِلـمُ الكـامـل | مقصـدُ الإسـلامِ تـرك الآفـل(٣)
صـدَّ إبـراهيـمُ عمَّـا يـأفُـلُ | فحـوتـه كـالجِنـان الشُّعَـل(٤)
قـد نَبَـذتَ الـدِّيـن ظِهـريّـاً ومـا | تبتغـي بـالـدِّيـن إلا الـدِّرهمـا
أيُّهـا السـاعـي لكُحْـل المُقَـل | غـافـلاً عمَّـا بـه مـن كَحَـل(٥)
مـن فـم التِّنيـنِ فـابـغِ الكـوثـرا | واسْـألـنْ مـاءَ الحيـاةِ الخنجـرا(٦)
حجـرَ الكعبـة مـن بيـت الـوثَـنْ | التمس والمسكَ في الكلب اطلبن
طفِّـيء العشـقَ بعلـم الحـاضـرِ | لا تـؤمِّـلْ كـأسَ هـذا الكـافـر

---

(١) انتهت قصة الرومي والتبريزي .
(٢) بردا الأولى فعل ماض ، والثانية : البرد الذي ينزل من السحاب .
(٣) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل في القرآن الكريم وقوله حينما أفل الكوكب ثم القمر : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ . وكأن الشاعر تصور الآفل خامداً . فقال : إن علم المسلم من نار القلب . والإسلام ترك ما يأفل ، أي : يخمد .
(٤) إشارةٌ إلى قصة إلقاء إبراهيم في النار ، وكونها برداً عليه وسلاماً .
(٥) الكحل سواد طبيعي في منابت أشفار العين . يقول الشاعر : أيها الساعي للجمال المصنوع غافلاً عن جماله الطبيعي ، يعني : المسلم المقلد غيره ، الغافل عما عنده .
(٦) يعني : اركب الأهوال وراء ما تبتغي ، واطلب المنفعة عن كلِّ ضار ، واجعل ماء الخنجر أي بريقه ماء الحياة .

قـد بـرانـي السَّعـيُ فـي كـل بعيدْ وعـرفـتُ السِّرَّ في العلم الجـديـدْ
وحبـانـي سـرَّ هـذي الجنَّـة قيِّـمُ البستـان بعـد الخِبْـرة
علـمُ ذا العصـرِ حجـابٌ أكبـرُ يعبـد الـوُثْـنَ وفيهـا يَتْجـر
مـن حـدود الحـسِّ لا ينطلـقُ ولـه الظـاهـرُ سجـنٌ مُغلَـقُ
زلقـت رجـلاه فـي سُبْـلِ الحيـاة وضعـتْ فـي حلقـهِ السَّيـفَ يـداهْ
كشقيـقٍ فيـه نـارٌ هـامـدهْ شعلـةٌ كـالطَّـلِّ فيـه بـارده[1]
مـنْ لهيـبِ العِشـق تخلـو فِطـرتُـهْ فـي طـلابِ الحـقِّ تبـدو خيبتُـه
عِلَـلُ العقـل لهـا العشـقُ دواءْ مبضـعُ العِشْـق لـدى العقـل شفـاءْ
سَجـدَ العـالـمُ للعشـقِ الجليـل هـو محمـودٌ لأصنـامِ العقـول[2]
جـامُـه مـنْ نَشْـوةِ الـرَّاحِ خـلا ليلـه عـن وَجْـد « يـا ربٍّ » سـلا[3]

***

سَـرْوكَ البـاسـقُ قـد أغفلْتـه كـلُّ سَـرْوٍ غيـرَهُ أكبـرتَـه[4]
أنـت كـالنَّـاي خلِّـي مـن جـواكْ بلُحـون النـاس أعليـت صـداكْ
تبتغـي نفسَـك فـي سـوقِ سِـواكْ وسمـاطَ النَّـاس تجـدوهُ يـداكْ
مِـنْ سـراجِ النَّـاس نـادينـا استعـر أحـرقَ المسجـدَ مِـنْ ديـرِ شـرز
ظَبْيُنـا خـاف سـوادَ الكعبـةِ فـرمـاهُ صـائـدٌ فـي الثُّغـرة[5]

---

(١) علم هذا العصر فيه نار كنار الشقائق لا حرارة فيها ، وله بريق كبريق الندى لا نار فيه .
(٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب مكسر الأصنام . يعني : أن العشق كمحمود ، والعقول كالأصنام .
(٣) الضمير في هذا البيت يرجع إلى العقل أو علم العصر الحاضر ، ليس في كأسه نشوة . ولا في ليله دعاء « يا رب » وما فيه من وجد .
(٤) يرجع يخاطب المسلم .
(٥) نفر من سواد الكعبة فخرج من الحرم فتمكن منه الصياد .

ورقُ الوردةِ كالعَرفِ انتشَرْ جافِلاً من نفسه! عُدْ للمقَرّ[1]

يا أمينَ السرِّ مِنْ أمِّ الكتابْ هل إلى وحدة ماضينا إياب ؟

نحن حُرَّاسُ حصونِ الأمَّةِ كُفرنا تركُ شعارِ الملَّةِ

أكؤسُ السَّاقي أراها كِسَرا حَفْلُ نُدْمان الحجازِ انتشرا

تعمرُ الكعبةُ مِن أصنامِنا يضحكُ الكُفْرُ على إسلامنا[2]

شيخُنا باع الدُّمَى مِلَّتَهُ جاعلاً زُنَّاره سُبْحتَهُ[3]

شيَّخَ الشَّيْخَ بياضُ الشَّعَر وهو للأطفال مثلُ السُّخَر[4]

قلبُهُ بيتٌ لأصنامِ هواهْ فهو صِفْرٌ مقفرٌ من « لا إله »[5]

يَلبس الخِرْقَةَ مَنْ يُرخي الشعَر آهِ ! للتَّاجر بالدِّين اتَّجَر

بمريديه أدام السَّفَرا في هُدَى أمَّته ما فكَّرا

أعْيُنٌ عُمْيٌ حكاها النَّرجِسُ وصُدورٌ من قلوب تُفلِسُ

عبَّد الأشياخَ فينا المنصِبُ حُرمةُ الأمَّة منهم تَذْهَبُ

واعظٌ عيناه شطرَ الوَثَنِ وفتاوَى تُشتَرى بالثَّمن

وجهَه للحان ولَّى شيخُنا « يا رفاقي بعدُ ما تدبيرنا »[6]

* * *

---

(١) يرى إقبال أنَّ الإنسان ينبغي أن يثبت في نفسه وأخلاقه وسننه . ويبعد في مساعيه دون أن ينسى مركزه فهو كالوردة ينتشر عرفها ويلتئم ورقها . فإذا تفرق الورق فنيت .

(٢) نحن مسلمون ولكن في أنفسنا وثنية من عبادة الهوى والخضوع لغيرنا .

(٣) الدُّمى : جمع دمية ، يراد بها الإنكليز وما عندهم من مال ومناصب . . إلخ .

(٤) يعني : أن الشيخ صار شيخاً بابيضاض شعره لا بعلمه وتقواه . والأطفال يسيرون وراءه ساخرين منه . وأحسب الشاعر يعني ضرباً من رجال الطرق في الهند .

(٥) « لا إله » اختصار لا إله إلا الله حيثما جاءت في شعر إقبال .

(٦) مأخوذ من بيت لحافظ الشيرازي :

شب أز مسجد سوى ميخانه آمد بيرما چيست ياران طريقت بعد أزين تدبيرما

الوقت سيف[1]

نضَّــــر اللهُ تـــرابَ الشَّـــافعـــيّ — سَحَـــرَ الألبـــاب هـــذا الألمعـــيّ
فِكْـــرُهُ قـــد صـــاد نجمـــاً لامعـــا — حيـن سمَّـى الـوقـت سيفـاً قـاطعـا
فـــاتَ خـــوفـــاً ورجـــاءً صـــاحبُـــه — كفُّـــه كـــفُّ كليـــمٍ ، ضـــاربُـــه
تُغـــدق الصَّخـــرةُ مـــنْ ضـــربتـــه — ويَغيـــض البحـــرُ مـــن صـــوْلتـــه
كـانَ هـذا السَّيفُ فـي كـفِّ الكَليـمْ — فشـأ التَّـدْبيـرَ بـالعـزمِ الصَّميـم
شـــقَّ صـــدرَ البحـــر لمـــعُ القبَـــس — صيَّـــر القلـــزُم مثـــل اليَبَـــس
وبهـــذا السَّيـــفِ يـــومَ الخطَـــر — زَلْـــزَلَـــتْ خيبـــرَ كـــفُّ الحيـــدر[2]

* * *

ممكـــنٌ إبصـــارُ دورِ الفلَـــك — وتـــوالـــي نُـــوره والحلَـــكِ
يـــا أُسيـــرَ اليـــوم والأمـــس انظـــرا[3] — انظـرنْ فـي القلـب كَـونـاً سُتِـرا
أنـــتَ فـــي النفـــس بـــذرتَ البـــاطـــلا — وحسبـتَ الـوقْـتَ خطّـاً طـائـلا
وذرعـــتَ الـــوقـــت طـــولاً ، للشَّقـــاءْ — بـــذراعٍ مـــنْ صَبـــاح ومســـاءْ
وجعلـــتَ الخيـــطَ زُنَّـــاراً لكـــا — صِـرتَ لـلأصنـام نـدّاً ويلكـا !
صِـــرْتَ يـــا إكسيـــرُ تُـــربـــاً ســـافـــلا — يـا وليـدَ الحـقِّ صِـرْتَ البـاطـلا
اقطـــع الـــزنَّـــار حـــرّاً لا تَهُـــنْ — شمعـةً فـي محفِـل الأحـرار كُـنْ
إيـــه يـــا غـــافـــلُ عـــن أصـــل الـــزَّمـــانْ — كيـف تـدري مـا خلـودُ الحيـوان[4]
يـــا أسيـــر الصُّبـــح والمُســـى اعقِلَـــنْ — « لي مع الله » بها الوقت اعرفَنْ[5]

---

(١) الوقت سيف من كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه .
(٢) حيدر : علي بن أبي طالب .
(٣) انظرا : فعل الأمر مع نون التوكيد الخفيفة .
(٤) الحيوان : الحياة .
(٥) إشارة إلى الأثر : لي مع الله وقت لا يسعني فيه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، ويريد=

كـلُّ مـا يظهـرُ ، مـنْ تِسيـاره — والحيـاةُ السـرُّ مـنْ أسـراره[1]

مـا مِـنَ الشَّمـس أراه يـوجَـد — إنَّهـا تفنـىٰ وهـذا يخلُـد

وبـه الشَّمـسُ أضـاءت والقمـر — وبـه فـي العيـشِ مـا سـاء وسـرّ

قد بسطْتَ الوقت بسطاً كالمكان — وفَـرَقْـتَ اليـومَ من أمسِ الزَّمـانْ

يـا شـذاً قـد فـرَّ مـنْ بستـانـه — وحبيـسَ السِّجـنْ مـنْ بنيـانـه[2]

وقتُنـا بيـن الحنـايـا سـافـرُ — ليـسَ فيـه أوَّلٌ أو آخِـر

الحيـاةُ الـدَّهـر يـا مَـنْ عـرفـا — « لا تسبوا الدَّهر » قول المصطفى

* * *

نكتـةٌ كـالـدُّرِّ خـذهـا رائقـة — بيـن حـرٍّ ورقيـقٍ فـارقـة :

حيـرةُ العبـد مسيـرُ الـزَّمـنِ — حيـرةُ الأزمـانِ قلـبُ المـؤمـن

ينسـج العبـدُ عليـه كفَنـا — مـن صبـاحٍ ومسـاءٍ مُـذْعِنـا

وتـرى الحـرَّ مـن الطيـن نجـا — نفسـه حـول الليـالـي نسجـا

قفـصُ العبـدِ صبـاحٌ ومسـاءْ — يُحـرَم التحليـقَ فـي جـوِّ السمـاءْ

وبصَـدْرِ الحـرِّ ثـار النفَـسُ — طـائـر الأيـام فيـهِ يُحبَـس

فطـرة العبـد حُصـولُ الحـاصـلِ — ليـس فـي تفكيـره مِـن طـائـلِ

فـي مقـامٍ مـنْ همـودٍ راكـدُ — نَـوْحُـه ليـلاً وصبحـاً واحـدُ

ومـن الحـرِّ جـديـدُ الخلقـة — كـلَّ حيـنٍ ، وحـديـثُ النَّغمـة

قيَّـد العبـدَ صبـاح ومسـاء — وثـوى فـي فمـه لفـظُ القضـاء[3]

= الشاعر أن يقول إن الوقت حال الإنسان ، لا ساعات الفلك .

(١) الضمير يرجع إلى الوقت .

(٢) يقول الشاعر : إنك أحياناً كالرائحة لا تثبت في بستانها ، وأحياناً سجين في سجن بنته يد تسير مع ساعات الزمان ، وتحبس نفسك فيها والوقت هو أنت .

(٣) لفظ القضاء والقدر ، يعتلُّ به ، ويحيل الأمور عليه .

وأرى الحــــرَّ مُشيـــراً للقَـــدَرْ   صـوَّرت كفَّـاه أحـداثَ الـدَّهَـر[1]
عنـده المـاضـي التقَـى والقـابـل   عـاجـلٌ بيـن يـديـهِ الآجـل[2]

* * *

ضـاقَ عـن معنـايَ حـرفٌ وصـدَى   عجـزَ الإدراكُ فـي هـذا المـدى
قلـتُ ، واللفـظُ مـن المعنـى خَجِـلْ   وشكـا المعنـى مـنَ اللَّفـظ المَجِـلْ
مـات معنـىً فـي حـروف يُحبَـس   نـــارَه يُخمـــدُ منـــك النفَـــسُ
ســرُّ غيـبٍ وحضـورٍ فـي القلـوبْ   رمـزُ وقـتٍ ومـرورٍ فـي القلـوبْ[3]
إنَّ للـــوقـــتِ لَلَحنـــاً صـــامتـــا   ولـه فـي القلـب سـرّاً خـافتـا[4]
أيـــنَ أيـامٌ بهـا سيـفُ الـدهَـر   صـرَّفتْـه فـي أيـادينـا القُـدَر ![5]
قد غرسنا الدِّين في أرض القلوب   وجلـونـا الحـقَّ مـن ستـر الغيـوبْ
ومِـــنَ الـــدُّنيـــا حلَلنـــا العُقَـــدا   واستنـــار التُّـــربُ منّـــا سُجَّـــدا
مِـنْ دنـانِ الحـقِّ صـرَّفنـا الـرَّحيـق   وهَـــدَمْنـــا حـــانـــةَ العصـــرِ العتيـــقْ
يـــا مـــديـــرَ الـــرَّاح فـــي أضـــوائهـــا   ومُـــذيـــبَ الكـــأسِ مـــن لألائهـــا[6]
مـــن غـــرورٍ واختيـــالٍ تَسْكَـــرُ   ومـــن الفقـــر لـــدينـــا تَسْخَـــرُ !
كـــأسُنـــا كـــانـــتْ سِـــراجَ المحفِـــل   صَـــدْرُنـــا كـــانَ لقلـــبٍ مُشعَـــلِ
إنَّ هـــذا العصـــرَ مِـــنْ آثـــارنـــا   مـــن عَجـــاجٍ ثـــارَ فـــي تسيـــارنـــا

---

(١) عزم الحر من القضاء ، ويقول الشاعر في هذا : إن القضاء يستشير الحرَّ فيما يفعل .
(٢) لا يعتل بأن شيئاً قد فات وقته وأن شيئاً لم يحن وقته . بل عزمه يطوع كل وقت لما يريد .
(٣) القافية مردوفة والروي في حضور ومرور .
(٤) أبيات إقبال هذه في الوقت وفي التفريق بين العبيد والأحرار من أروع ما عرفته الفلسفة والشعر .
(٥) في هذا البيت والأبيات بعده يذكر إقبال ماضي المسلمين .
(٦) في هذا البيت وأبيات تليه يخاطب الشاعر أهل الغرب المسيطرين على العالم .

روضـةُ الحـقِّ ارتـوت مِـنْ دمنـا	عـزَّ أهـلُ الحـقِّ فـي الـدنيـا بنـا
كبَّــر العــالَـمُ مــن تكبيــرنــا	كعَبــاتٍ شــادَ مِــنْ تعميــرنــا
« اقــرأ » الحـقُّ لنـا قَـدْ علَّمـا	بيــدينــا رزقَــهُ قــد قسَّمــا[1]
لا تهـوِّنْ قَـدْرَ حـرٍّ أعـدَمـا	أن تَـرى التَّـاج مضـى والخـاتمـا
إن نكـنْ عنـدك أصحـابَ الخسـاز	قُـدمـاء الفكـر أحـلافَ الصَّغـاز
فلـدينـا عـزَّةٌ مـنْ « لا إلـه »	نحـن لِلْكَـونيـنِ حُـرَّاسٌ أبَـاهْ
قَـدْ تـركنـا غـمَّ أمـسٍ وغـد	ووفينـا لحبيـبٍ أوْحَـدِ
نحـنُ ورَّاثُ هـداةٍ للبشـرْ	نحـنُ عنـد الحـقِّ سـرٌّ مـدَّخـر
لا تـزال الشمـس تُبـدي نـورنـا	غيمُنـا فيـهِ بـروقٌ وسَنـا
ذاتُنـا المـرآة للحـقِّ ، اعلَـمِ	آيـةُ الحـقِّ وجـودُ المسلـمِ

* * *

دعاء[2]

أنـت فـي الكَـوْنِ كـروحٍ مُستتِـر	روحُنـا أنـت ، ومنَّـا تَستتـر
منـكَ فيـه نغمـةٌ عُـودُ الحيـاهْ	في هواكَ ، الموتُ محسودُ الحياهْ
عُـدْ فسكِّـنْ ذي القلـوبَ البـائسـهْ	عُـدْ فعمِّـر ذي الصـدورَ اليـائسـهْ
عُـدْ فكلِّفنَـا الفِعـال المـاجـدا	ألْهبَـنَّ العِشـق فينـا الخـامـدا
إنَّنـا نشكـو تصـاريـفَ القضـاءْ	أنت تُغلي السِّعْرَ والأيدي خَلاء[3]
عـن فقيـرٍ لا تحجَّـب ذا الجمـال	عشـقَ سَلْمـانَ امنحنَّـا وبـلالْ
عَيْـنَ سُهْـدٍ لفـؤادٍ قَلِـق	امنحنَّـا واضْطـرابَ الـزِّئبَـق

---

(١) يشير إلى أول سورة في القرآن : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ .
(٢) الخطاب لله تعالى .
(٣) يعني تكلفنا واجبات عظيمة وليس في يدنا اليوم أسبابها .

آيــةً أظهِــر مــن الآي المبيــن ... لنَـرى أعنـاق قـومٍ خـاضعيـن[1]
أظهِـر البـركـانَ مِـنْ أعـوادنـا ... وامـحُ غيـرَ الله فـي نيـراننـا
كفُّنـا ألقـت بخيـط الـوَحْـدَة ... كم ترى في أمرنا مِنْ عُقدة ؟[2]
قَـدْ مضينـا كنجـومٍ حـائـرة ... إخـوةٌ لكـنْ وجـوهٌ نـافـرة
انظمَـنْ فـي السِّلك هـذا الـورقـا ... جَـدِّدَنْ سنَّـة حُـبٍّ أخلقـا[3]
ابعثنَّـا مثـل مـا كنَّـا لكـا ... ائتمـن فيمـا تـرى أحبـابَكـا
منـزلَ التَّسليـم أبلـغ رَكْبَنـا ... عـزمَ إبـراهيـم يسِّـره لنـا
علِّمـنَّ العشـق مـنْ أفعـال « لا » ... رمـزَ إلا الله علِّـم غـافـلا[4]

* * *

أنـا كـالشمـع لغيـري أُحْـرَق ... وبـدمعـي كـلُّ حفـلٍ يَشـرَقُ
رَبِّ ! هذا الدمع نورٌ في القلوبْ ... ذو هَيـاجٍ واضطـرابٍ ونحيـبْ
أبـذرُ الـدَّمـعَ فتنمـو شُعَـلُ ... نـارُ شِقْـر الـرَّوض منهـا تَنصِـل[5]
أمـسِ فـي قلبـي ، وعينـاي الغـدُ ... أنـا فـي الجمـع فـريـدٌ مُـوحـد[6]
« ظـنَّ كـلٌّ أننـي نعـم السميـرْ ... ليس يدري أيُّ سرٍّ في الضمير »[7]
أيـن يـا ربَّـاه فـي الـدُّنيا النـديـم ... نخـلُ سينـاءَ أنـا ، أيـن الكليـم ؟

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : ٤] .
(٢) يعني : أضاع المسلمين خيط الاتحاد ، فتعقدت أمورهم .
(٣) الورق : ورق الكتاب ، والسلك : الخيط الذي يجمع به الورق .
(٤) « لا » : يريد النفي في كلمة التوحيد ، نفي ما سوى الله ، و« إلا الله » هي الإثبات في هذه الكلمة .
(٥) الشقر : شقائق النعمان . وهي زهر أحمر يضرب به المثل في الاحتراق ، ولكنَّ الشاعر يقول إنَّ هذه النار الباردة تمحوها نار دموعي .
(٦) قلبه متصل بذكرى الماضي ، ولكن عينيه تريان المستقبل ، وتطمحان إليه . وهذا معنى يكرره إقبال .
(٧) البيت من فاتحة المثنوي لجلال الدين الرومي في وصف الناي .

ظـالـمٌ نفسـي فَكَـمْ عنَّيتُهـا شُعـلاً في صَـدْرِهـا أذكيتُهـا
شُعـلاً للحسِّ تـذرو مـا بـه وتَشُـبُّ النَّـارُ فـي أثـوابـه[١]
وبهـا العقـلُ جنـونـاً عُلِّمـا وبهـا أُحـرِق مـا قـد عُلِمـا[٢]
قد علَتْ من حرِّها شمسُ السماءْ حـولها لِلْبَـرقِ طـوْفٌ فـي الفضـاءْ
كـلُّ عِـرْق فـيَّ نـاراً يقطـرُ شُعَـلاً يَنبُـتُ فـيَّ الشَّعَـرُ
بلبلـي يلفـظ هـذا الشـررا فتـراه نَغَمـاً مستعـرا
صَـدْرُ عصـري مـا بقلـبٍ يـوهـن نَـوْحُ قيسٍ حينَ يخلو المَخمِل[٣]
يخفـق الشَّمـعُ وحيـداً وَيْلَـهُ ! فـي فَـراشٍ لا يـرى أهـلاً لـه[٤]
كـم أرجِّـي مُسعـداً لـي فـي البشـر ونجيّـاً كـم أرجِّـي فـي الـدَّهَـرْ

***

يـا مـن الأنجـمُ منـه تستنيـر ! أرجِعـنْ نـارَكَ مـنْ روحـي الكسيـر
اسلُبَـنْ نفسـيَ مـا أودعتَهـا عَطِّلَـنْ مِـنْ نـورهـا مـرآتَهـا
أو فهـبْ لـي وجـهَ خـلٍّ لَبِـقِ هـوَ مـرآةٌ لِعِشْـقٍ مُحـرقِ

***

يَخفُـقُ المـوجُ بمـوجٍ فـي العُبَـاب لا يسيـرُ المـوج إلّا فـي صِحـاب
ومَـعَ الكـوكـبِ يَسـري الكـوكـبُ وعلـى الأقمـارِ يحنـو الغَيْهَـبُ
ومـعَ اللَّيْـلِ نهـارٌ أبـدا ومسيـرُ اليـومِ يقتـادُ غـدا
نهـراً ، أُبصـرُ ، يَفنَـى فـي نَهَـر ونسيـمَ الـرَّوض فـي عَـرْفِ الـزَّهَـرْ

---

(١) نار تحرق المحسوسات ، وتنفذ إلى البواطن .
(٢) هذه النار نار العشق تخرج بالعقل عن حدوده الضيقة . وتحرق ما لقنه الناس من علم . انظرالكلام عن العشق والعقل في مقدمة ضرب الكليم .
(٣) يبكي إقبال لخلوِّ عصره من القلب كما يبكي المجنون لخلو المحمل من ليلى .
(٤) يعني : أنه كالشمع ، لا يجد فراشاً أهلاً لناره . ليس له أصحاب ، أو تلاميذ يفقهون عنه ما يقول .

رُبَّ حـانٍ آهـلٍ مـنْ شَـربـه   راقـصَ المجنـونُ مجنـونـاً بـه
أنـت يـا واحـدُ لا شبـهَ لكـا   عـالَمـاً أنشـأتـهُ مـنْ أجلكـا
وأنـا مثـلُ شقيقـاتِ الفَـلا   مُفْـردٌ ، فـي بُهـرَةِ الجمـع خَـلا[1]
هَـبْ نجيَّـاً يـا ولـيَّ النِّعمـة   مَحـرمـاً يُـدرك مـا فـي فطـرتـي
هَـب نجيّـاً لَقِنـاً ذا جنَّـة   ليـسَ بـالـدُّنيـا لـه مِـنْ صلـة[2]
رُوحَـه أودِع مِـنْ أنَّـاتيـهْ   وأرى فـي قلبـه مـرآتيَـه
وأسـوِّيـه بطينـي مُحكمـا   وأُرَى آزرَه والصَّنمـا[3]

***

(١) الشقيقات : جمع شقيقة واحدة الشقائق التي تسمى شقائق النعمان . هو وحيد وإن كان جماعة .

(٢) يريد إقبال نجياً مجنوناً . والجنون في لغة إقبال الهيام والإقدام إلى غير حدٍّ .

(٣) يكون له ناحتاً كآزر ويكون صنماً له يتوجه إليه توجه العابد إلى الصنم .




القسم الثاني

رُموز نفي الذّات

(أسرار بيخودي)






٢ ـ رموز بيخودي (أسرار نفي الذَّات)
باللغة الفارسيَّة

هذه المقالة الفلسفية المنظومة باللُّغة الفارسيَّة نشرها محمد إقبال عام ١٩١٨م وهي من حيث الاسم تبدو أنها ضد الكتاب الأول ، لكنَّها في الحقيقة تفسر ، وتبيِّن نفس النظرية ، وتعتبر التتمة اللاَّزمة له ، وقد طبعت أحياناً القصيدتان في مجلدٍ واحدٍ بعنوان « أسرار ورموز » هنا يكمل محمد إقبال فلسفته بالتأليف بين الفرد والقوى أو الذات الكاملة وبين الجماعات الَّتي تعيش فيها .

وأما الموضوعات الرئيسية فهي علاقة الفرد بالمجتمع ، والإنسانية ، والطبيعة الاجتماعية المثالية ، والمبادىء الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة .

محتوى الديوان

يبدأ الشاعر المنظومة بتمهيد في ارتباط الفرد والأمَّة ، ثم يعقد الفصول التالية :

١ ـ الأمَّة تنشأ من اختلاط الأفراد ، وكمال تربيتها بالنبوَّة .

٢ ـ أركان الأمة الإسلاميَّة .

أ ـ التوحيد : ويستطرد في بيان التوحيد إلى فصول أخرى ، كما يعقد فصولًا أخرى للتمثيل .

ب ـ الرسالة : وفي هذا العنوان فصول أخرى منها أن مقصد الرسالة المحمدية الحرية ، والمساواة ، والأخوة بين بني آدم ، ويقصُّ قصصاً شتَّى في

هذا الصَّدد . وأن الأمة المحمَّدية قائمة على التوحيد ، والرسالة ، فلا يحدُّها مكان ، وأنَّ الوطن ليس أساس الأمَّة ، وأنَّ الأمة المحمدية لا يحدها زمان ، ودوامها موعود ، وأنَّ نظام الأمة لا يكون بغير القانون ، وقانون أمَّة محمد القرآن ، وأنَّ نجاح الأمة باتباع الشريعة الإلهية ، وأن حسن سيرة الأمة بالتأدُّب بالآداب المحمَّدية .

٣ ـ حياة الأمة تقتضي مركزاً محسوساً ، ومركز الأمة الإسلاميَّة الحرم .

٤ ـ الاجتماع الحقيقي لا يكون إلا بقصدٍ يقصد إليه ، ومقصد الأمَّة المحمدية حفظ التوحيد ، ونشره .

٥ ـ توسيع حياة الأمَّة بتسخير قوى العالم . وكمال حياة الأمَّة أن تحسَّ ذاتها كما يحسُّ الفرد ، وينشأ هذا ، ويكمل بحفظ سنن الأمَّة .

٦ ـ بقاء النوع بالأمومة . وحفظ الأمومة واحترامها من قواعد الإسلام .

٧ ـ السيدة فاطمة الزهراء أسوةٌ كاملةٌ لنساء الإسلام .

٨ ـ خطاب إلى المسلمات .

٩ ـ خلاصة مطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص .

١٠ ـ مناجاة المصنف الرَّسول الَّذي بُعث رحمةً للعالمين .

ويبيِّن محمد إقبال في هذه المنظومة فكرة أنَّ « الوطن ليس أساس الأمَّة » فيقول : إنَّ العصبيات الوطنية قطعت أرحام الأمم ، ويبيِّن كيف هجر النَّصارى دين عيسى وتقطع أمرهم بينهم . . . كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون .

ويذكر ميكافيلي الإيطالي ، وأثره في سياسة أوربة إلى أن يقول :

جعـــل الملـــك إلهـــاً دينـــه ... كـــلُّ قبـــحٍ نـــالـــه تحسينـــه
وزن الحـــقَّ بـــربـــع وجـــدى ... ولدى الملك خنوعاً مسجدا

صيَّــر الحيلــة فنّــاً محكمــا فـزهـا البـاطـل ممـا أعلمـا[1]

ويخاطب المرأة المسلمة :

احــذري فتنــة عصــرٍ مهلــك وإلــى صــدركِ ضمِّــي وُلْــدكِ
بَعُــدَتْ عــن عشّهــا فــي خطــرٍ هـــذه الأفـــراخ ، لا تَطِــرِ
فيــك تسمــو للمعــالــي فطــرةٌ فــاتبعــي الــزهــراءَ ، نعــمَ الأســوةُ
عــلَّ غصنــاً منــكِ يــأتــي بِحُسيــن فتــرى النضــرَةَ رَوْضَــات ذَوَيْــن

* * *

(١) إقبال ـ للدكتور عبد الوهاب عزام ص١٣٧ .




جـدْ بنَفْـيِ الـذَّاتِ . لا تهـابْ
اجْتَهدْ ، واللهُ يَهْديكَ الصَّوابْ

(جلال الدِّين الرُّومي)




تمهيد

مهداةٌ إلى الأمَّة الإسلاميَّة

إيــه يــا مُنكــراً أحــاديــثَ عشقــي ليس بي حُرقةٌ تكون بغير عُرفي[1]

ختــــمَ اللهُ إليــــكِ الأممــــا بــكِ حقّــاً كــلَّ بَــدءٍ خُتمــا

كــم تقــيٍّ فيــكِ كــالــرسْل مُنيــبْ وجــريــحِ القلــب رفّــاء القلــوب

لــكِ طــرفٌ بــالنَّصــارى سُحِــرا وعــن الكَعبــة أبعْــدتِ السُّــرى[2]

يــا مــنِ الأفــلاكُ مِــنْ هَبــوتِهــا « مــنْ رنــا الكــونُ إلــى طلعتهــا »[3]

ســرتِ كــالمــوج دؤوب السَّفــرِ « أيــن تبغيــن مُــرادَ النَّظــر ؟ »[4]

كفَــراشٍ فــي لظــى الحــبِّ اصبــري وخــذي عُشَّــكِ بيــن الشــررِ

أحْكمــي العشــق بــروح قــدْ صفــا جــدِّدي العهــد بحــبِّ المصطفــى

صحبــةَ النَّصــرانِ قلبــي هجــرا حينمــا وجهــكِ عنــدي أسفــرا

ورفيقــي رهــنُ حســنِ الآخــريــن واصــف الطــرَّة منهــم والجبيــنْ

---

(١) ترجمة بيتٍ لعرفي الشيرازي صدَّر به الشاعر هذه التقدمة . ومعناه : لا يستطيع أحدٌ إنكار ما أصف من آلام عشقي . فإنه إن شعر بالآلام التي أصفها فهذه الآلام لا تكون بي ولكن به هو . إنني أصف شيئاً لا يمكن أن يكون في قلب غيري ، فكيف يستطيع إنكاره ؟!

(٢) يعني أهل أوربة الذين سيطروا على الهند وغيرها حقبةً .

(٣) الأفلاك من الهبوة التي أثرتها في جهادك على الأرض .

(٤) الشطران بين الأقواس بيت للشيخ سعدي الشيرازي .

سـدَّةَ السـاقـي بخـدَّيـه يَـدوسْ منشـداً قصَّـة غلمـانِ المجـوسْ[1]

وأنـا فيـكِ قتيـلُ الحـاجـبِ وتُـرابٌ فـي جِمـاكِ الحـادب

أنـا مـنْ نظـم مـديـحٍ أرفـعُ لسـتُ ممَّـن لأميـرٍ يَـركـعُ

كـمْ مـرايـا صُغتُهـا مـنْ كلِمـي فَعَـنِ إسكنـدرَ تعلـو هِممـي[2]

لا تَـرى المنّـةَ جيـدي تـأطِـر من زهور الروض حِجْري صَفِرُ[3]

مُقْـدِمٌ فـي الـدَّهـر مثـل الخِنجـرِ منْ قلوب الصَّخر مائي أمتري[4]

أنـا فـي نـار الحيـاة الشَّـررُ فـي ثيـابٍ مـنْ رمـادي أسْتَـرُ

***

قَصَـدَتْ بـابـكِ روحـي فـي خشـوعْ فـي هـدايـا مـن لهيـبٍ ودمـوعْ

إنَّ فـي الـزرقـاء يمَّـاً يقطـرُ فـوق قلـبٍ لا هـبٍ لا يفتـرُ

أجمـعُ القطـر ربيعـاً جـاريـا[5] وإلـى روضِـكِ أزجـي صـافيـا

قـد حُييـت الحـبَّ مـنْ محبـوبنـا أنتِ قلبٌ قد ثوى في صدرنا[6]

قـذف العشـقُ بقلبـي حُـرَقـا صـاغَ مـرآةً فـؤادي المُحـرَقـا

وشققـتُ الصَّـدر ، كـالـورد لـكِ[7] مُـدنيـاً مـرآتـه مـن وجهـك

---

(١) يعني : أنَّ الشعراء الآخرين فتنوا بذكر ألحان وغلمان المجوس ، وهؤلاء في الشعر الفارسي كغلمان النَّصارى في الشعر العربي يقرن ذكرهم باللهو والسكر ؛ إذ كانوا خدم الحانات .

(٢) مرآة إسكندر مشهورة في الشعر الفارسي ، يقال : إنه كان يرى فيها الأقاليم ولعلَّ أصل الخرافة منارة الإسكندرية ومراياها . ويقول الشاعر هنا : إنَّ في شعري مرايا كمرآة إسكندر ، فلست في حاجةٍ إليها .

(٣) يعني : أنه لا يجني الزهر في حجره بل يستكبر أن يجنيه استغناءً عنه .

(٤) حذف بعد هذا بيتان .

(٥) الربيع : النهر الصغير .

(٦) محبوبنا الرسول ﷺ .

(٧) يتخيل الشعراء أن الورد يمزق صدره حين يتفتح ، ويقول الشاعر : إن العشق صاغ قلبه=

لتنــــالــــي نظــــرةً مـــنْ سِحــــرِكِ وتُـــرَيْ مغلــولــةً فــي شَعــرِكِ[١]
ثـــم أشـــدو قِصَصــاً مــنْ أمســك فـــأذَكّـــي حُـــرَقـــاً فـــي نفسِــكِ

* * *

أســـأل الحـــقَّ حيـــاةً تحصُــف لفــــريـــقٍ نفسَـــه لا يعـــرف
نــائــحٌ والليــل ســاجٍ ســادلُ يهجَــعُ النــاسُ ودمعــي هــاطــلُ
تصطلـــي روحـــي بحـــزنٍ وألـــمْ وردُ « يـا قيُّـوم » أُنْسي فـي الظُّلمْ
أمــلاً فــي الصــدر صيَّــرتُ دمــا ليُــرَى فـــي أدمُعـــي مُنسجمـــا
مـــا احتـــراقـــي كشقيـــقٍ أبـــدا فيم أستجدي من الفجر النَّدى[٢]
أنــا كــالشَّمــع دمــوعــي غُسُلــي فــي ظـلام الليــل أذكــى شُعَلــي
محفــلُ النـــاس بنـــوري يُشـــرقُ أنشـــرُ النُّـــور ونفســـي أحـــرقُ
مــا لنــاري فــي الحشــا مــن فَتــرةِ مــا بــأسبــوعــي فَــراغُ الجمعــة[٣]
إنَّ روحـــي فـــي سحيـــق الجَســـد آهـــةٌ ثـــوبَ غبـــارٍ تـــرتـــدي[٤]
مُــذْ بــرانــي الحــقُّ فجــرَ الخلقــة زلــزلــتْ أوتــارَ عــودي أنَّتــي
أنَّـــةٌ للْعِشْـــق تُفشـــي ســـرَّهُ آهــةٌ فــي العِشْــق تُــذكــي جمــرهُ
تجعـــل العصـــفَ لهيبـــاً يُحـــرقُ وفَــراشــاً مــنْ تــرابٍ تخلُــق[٥]

* * *

= مرآة وهو يشق صدره فيضع هذه المرآة أمام الأمة الإسلامية لترى فيها حقيقتها .

(١) أي لتقدري جمالك ، وتدركي مزاياك ، وتحبي نفسك .

(٢) الشقيق : زهر أحمر يجعله الشعراء مثلاً للاحتراق . ويقول إقبال : ما هذا الاحتراق الذي هو لون لا حقيقة له ، ولماذا أستجدي الندى من الفجر كالشقيق وغيره من الزهر . أنا أحترق بناري كالشمع وأتخذ من دمعي ندى .

(٣) أيامه كلُّها عملٌ وجهدٌ ، ليس فيها يوم راحة .

(٤) روحه آهة والجسد تراب يسترها كما يتردى الإعصار بالغبار .

(٥) تجعل العصف ـ وهو الهشيم ضعيف اللهب ـ ناراً قوية تحرق غيرها ، وتخلق من التراب فراشاً هائماً يهفو على النار .

فـي ضميـر العِشْـقِ وَسْـمٌ كـالشَّقِـرْ ولـــــه وردةُ وجـــــدٍ تستعـــــرْ
هـــذه الـــوردة أحبُـــو صَـــدرِكِ فـي سُبـاتِ منـك أذكـي حشـرَكِ
لأرى فـي تُـربـكِ الـروضَ اليـنيـعْ وبـــأنفـــاسـكِ أرواحَ الـــرَّبيـــعْ

***

في معنى ارتباط الفرد والأُمَّة

رحمـــةٌ للفـــرد حِجْـــرُ الأمَّـــة كـــامـــلٌ جـــوهـــرُه فـــي الملَّـــة
فـالْـزَمَـنَّ الجمـعَ جهْـدَ المستطـاعْ فـي ذُرا الأحـرار كـنْ مثـلَ الشعـاعْ
واحْفَظَـنْ مـا قـالـه خيـرُ البشـر : كـلُّ شيطـانٍ مـنَ الجمـع نفـرْ
فَـــزْدنـــا مـــرآتـــه أمَّتُـــهُ وكـــذا مـــرآتهـــا صـــورتُـــه
وهمـــا سِلْـــكُ نظـــامٍ ودُرَرْ أو نجـــومٌ تتجلَّـــى فـــي النَّهَـــر[1]
قيمـــةُ الأفـــرادِ جـــدوى الملَّـــةِ ومـــن الأفـــراد نظـــم الأمَّـــة[2]
وإذا الـــواحـــدُ فـــي الجمـــع نمـــا كـــان كـــالقطـــرة صـــارت خِضْـــرِمـــا
جُمـــعَ المـــاضـــي لـــه فـــي لُبِّـــه والتقـــىٰ الغـــابـــرُ والآتـــي بـــه
صلـــة الأمـــس تـــراه والغَـــدِ وقتُـــه لا ينتهـــي كـــالأبـــدِ
هـــو بـــالأمَّـــة قلـــبٌ طـــامـــحُ وهـــو بـــالأمَّـــة سعـــيٌ رابـــحُ
روحـــه مـــن قـــومـــه ، والبـــدنُ ســـرُّه مِـــنْ قـــومـــه والعَلَـــنُ
بلســـانِ القـــوم يشـــدو منطقـــا وَمِـــنَ الأســـلاف يَقفـــو طُـــرُقـــا
تُنضـــجُ الفطـــرةَ فيـــه الصُّحبـــةُ فتـــراه الفـــردَ وهـــو الأمَّـــةُ
تُحكِـــمُ الـــوحـــدةَ فيـــه الكثـــرةُ وهـي ، بـالـوحـدةِ فيـه ، وحـدة[3]

---

(١) نهر المجرة .

(٢) قيمة الأفراد من فضل الأمّة عليها .

(٣) كثرة الأمة لا تضر بوحدة الفرد بل تحكمها ، والكثرة فيها موحدة بوحدة الفرد . ورأي=

أفـــرِدِ اللَّفـــظ مـــن البيـــت تـــرى | جـوهـر المعنـى لـديـه انكسـرا[1]
تَسْقُـــطُ الأوراقُ مـــن غصـــنٍ ينيـــع | فتُــرى محــرومــةً وصــلَ الـرَّبيـعْ
طفئـــت أنغـــامُ أعـــوادٍ غِنـــاء | فـــاتهـــا مـــنْ زمـــزم الأمَّـــة مـــاء
يُحـــرَم الفـــردُ الـــوحيـــدُ المقصِـــدا | فتـــرى نظـــمَ قُـــواه بَـــدَدا
تجمـــعُ الأمَّـــةُ شمـــلَ المُنّـــة | فيـــه تحبـــوه عظيـــمَ الهمَّـــة
نشَـــأتْ بـــالقيـــد حـــرّاً مطلقـــا | أنبتـــتْ فـــي الأرض سَرْواً بَسَقـــا[2]
ظَبيُـــه الـــوثَّـــابُ مِسكـــاً يَعبـــق | إنْ حـــواهُ مـــن نظـــامٍ وَهَـــق[3]
أنتَ لم تعرفْ «خودي» من «بيخودي» | أنـــت لا ريـــبَ مـــن الشـــكِّ رَدِي[4]
إنَّ فـــي طينـــك نـــوراً قـــد بـــدا | بشعـــاعٍ منـــه أبصـــرتَ الهـــدى[5]
كـــلُّ غـــمٍّ ورضـــاً مـــن دورتـــهْ | أنـــت حـــيٌّ بتـــوالـــي ثَـــورتِـــه
أنـــت منـــه أنـــت حقّـــاً ، وأنـــا | أنـــا وهـــو الفـــرد لا يـــرضـــى ثُنـــا[6]
يخلـــقُ النَّفـــسَ ويَـــذْرو ويُقِـــرّ | ذو دلالٍ فـــي خضـــوعٍ مستتـــر[7]

= إقبال أن غاية الجماعة تقوية الفرد وإسعاده ، وهو لا يفنى فيها .

(١) الفرد في الجماعة كلفظ في بيت من الشعر إن فصلت اللفظ من البيت اختل البيت ، وتعطل معنى اللفظ .

(٢) تقيد الفرد بقيود الجماعة لا يعبده بل يحرره ، وثباته في الجماعة ينميه مثل الشجرة تثبتها في الطين فتنمو وإن لم تثبت في الأرض لم تنم .

(٣) الوهق : حبل فيه آخية يصطاد به يعني : أن قيد النظام للإنسان يمنع وثوبه ولكن يكمله ويطيبه .

(٤) أثبت خودي ، ومعناها : الذَّاتية ، وبيخودي : أي نفي الذاتية على لفظهما في الأصل يعني الشاعر أنَّ الإنسان إن لم يميز مواضع الذاتية من مواضع نفيها اشتبه عليه أمره ، وهذا أساس فلسفة إقبال . انظر المقدمة .

(٥) يعني : الذاتية .

(٦) وجودك منه ووجودي منه ، وهو مع هذا فرد لا يثنى .

(٧) هذا النور الذي يسميه الذاتية يصنع نفسه ويثبتها ويفرقها . وله دلال يظهر في صورة خضوع ، يعني أنه غالب ، وكأنه مغلوب .

يــأســرُ الشعلــةَ هــذا الشَّــررُ　لهــبٌ مــنْ حــرِّه مُستعــرُ[1]
حــرةٌ رهــنُ قيــودٍ فطــرتُــه　جــزؤه بــالكُــلِّ حــاطـت قــوّتــه
لكفــاحٍ دائــمٍ تنــزُو قُــواه　هو يُسمَى الذاتَ أو يُسمَى الحياه
يستثيــرُ الحــربَ فــي جلــوتِـه　حيـن يُبدي النَّفس مـنْ خلـوتـه[2]
يقطــع الجبــرُ عليــه الطــرُقــا　ولــهُ بــالحــبِّ فــرعٌ سَمَقــا[3]
تتشظّــى الــذّاتُ فــي أمّتهــا　لتُـرى الـروضـةُ مـنْ زهـرتهـا[4]
نكتــةٌ خــذهــا بكــفٍّ مِخْــدَم　« وانصرف عنِّيَ إن لـم تفهـم »[5]

* * *

في معنى أنَّ الملَّة تنشأ من إخلاص الأفراد وأنَّ تكميل تربيتها بالنبوَّة

ما ارتباطُ الجمعِ ، أنَّى يوصَفُ ؟　قصــــةٌ أوَّلُهــــا لا يُعــــرفُ
إنَّنــا نبصــرُ فَــرداً فــي الجميــعْ　زهـرةً نقطـف فـي هـذا الـربيـع[6]
فِطــرةٌ تنهــجُ نَهــجَ الــوَحــدةِ　إنّمــا تــزهــرُ وَسْـط الــرَّوضــة
كــلُّ فــردٍ بــأخيــه ائتلفــا　مثــلَ درٍّ فــي سُمــوطٍ أُلِّفــا
لَفَّهــم فــي عيشهــم معتَــرَكُ　كــلُّ فــردٍ بــأخيــه مُمسِــكُ

---

(١) شررٌ صغير ، ولكنه كبيرٌ في معناه يقوى على الشعلة الكبيرة .
(٢) يظهر من خلوته أي يبدو في الكون فيثير حرباً هي جهاد الحياة الدائم .
(٣) الجبر والإكراه يقطع عليه الطريق ، وهو بالحق والاختيار ينمو ويعظم .
(٤) تفرق الذات نفسها فتنمو من زهرتها روضة ، أي : تعظم وتكثر بهذا التفريق .
(٥) هذا الشطر من المثنوي لجلال الدين الرومي .
(٦) مذهب إقبال أنَّ غاية الجماعة سعادة الفرد ، وأن الفرد لا يفنى من أجل الجماعة .

مـن جِـذابِ تتـوالـى الأنجـمُ　　كـوكـبٌ مـنْ كـوكـبٍ مستحكِـمُ

* * *

كـان رَكـبُ النَّـاسِ مـأواهُ الجبـالْ　　ومـروجٌ وسُهـوب ورمـالْ
نسجُـه مـا أُحْكِمـتْ لُحْمَتُـهُ　　فِكْـرُهُ مـا فُتِّحَـت زهـرتُـهُ
عـودُهُ مـا بلحـونٍ رَنَّمـا　　لحنُـه لمَّـا يُـؤلِّـفْ نَغَمـا
لـم يُثِـره مِـنْ رجـاءٍ مِضْـرب　　لـم يَخـزه بـزبـانـى مطلـب[1]
محفـلٌ غُفْـل حـديـثِ المـولـد　　جـامُـه مـن خمـره غيـر نـدي[2]
لـم يُـرعـرعْ فـي ثَـراه نجمُـه　　كـرْمُـه مـا فـارَ فيـه دمُـه[3]
فكـره دارٌ لغيـلانِ الخيـالْ　　خـائـفٌ مـنْ وهمـه فـي كـلِّ حـالْ
ذو وجـودٍ ضيِّـقٍ ميـدانُـه　　قـد أحـاطـت فكـرَه جُـدرانُـه
طينُـه مـن خيفـةٍ قـد خُلقـا　　قلبُـه مِـنْ قَصْـفِ ريـحٍ خَفَقـا
روحُـه مـنْ كـلِّ صَعْـبٍ تهـرُبُ　　يَـدُهُ فـي أرضـه لا تضـربُ
كـل مـا ينمـو بـأرضٍ يقطِـفُ　　كـلُّ مـا تـرمـي سمـاءٌ يلقَـفُ

* * *

ثـم يهـدي الله ذا قلـبٍ بصيـر　　يكتـب الأسفـار مِـنْ حـرفٍ يسيـر
عـازفٌ فـي كـلِّ نفْـسٍ ينفُـث　　وحيـاةً فـي مـواتٍ يَبعـث
تقبـسُ الـذرَّة مِـنْ أنـواره　　كـلُّ قَـدرٍ حـالَ فـي معيـاره[4]
يَنشـر الأنفـسَ منـه نَفَـسُ　　بشعـاعٍ منـه يُـزهَـى مجلِـسُ

---

(١) المضرب ما يضرب به أوتار العود .
(٢) يعني : ليس عنده نشوة العمل والإقدام .
(٣) النجم : النبت الذي لا ساق له .
(٤) أي : تغيرت قيم الأشياء بما أتى به من مقاييس جديدة .

شفـــةٌ تُحيـــي وعيـــنٌ تَجـــذبُ وحَـــدا الأشتـــات هـــذا عجَـــبُ[1]

يَهَـــبُ النَّـــاسَ جـــديـــدَ النَّظـــر يَجْعَـــلُ البيـــدَ كـــروضٍ نَضِـــرِ[2]

فتـــرى الأمَّـــةَ مِنْـــهُ ســـائـــره بلهيـــبٍ مِنْـــهُ حَـــرَّى ثـــائـــره

شـــرراً فـــي قلبهـــا قَـــدْ أشعـــلا فـــأحـــالَ الطِّيـــنَ فيهـــا شُعَـــلا

سيـــرهُ يعطـــي التـــرابَ البصَـــرا فـــإذا الـــذرَّةُ سينـــاءَ تَـــرَى[3]

عـــارِيَ العقـــل بجـــدواه كســـا وَهَـــبَ الثـــروةَ هـــذا المفلِســـا[4]

ينفُـــخُ الجمـــرة فـــي مـــوقِـــده ويـــذيـــب الغِـــشَّ مـــن عسجـــده[5]

ويفـــكُّ العبـــدَ مِـــنْ أغـــلالـــه ويُجيـــر القِـــنَّ مـــن أقيـــالـــه

قـــائـــلاً أن لســـتَ عبـــداً فـــاعلَـــمِ أتَـــرى قـــدرَك دون الصَّنَـــم[6]

يجـــذب الإنســـانَ شطـــر المقصـــد جـــاعـــلَ الشَّـــرع زمـــامـــاً فـــي اليـــدِ

نكتـــةَ التـــوحيـــد يـــوحيهـــا إليـــه أدبَ الطـــاعـــة يمليـــه عليـــهْ[7]

* * *

---

(١) كلامه ونظره يجذب البعيد إليه حتى يصيرا كنفسٍ واحدة .

(٢) يهب الناس نظراً جديداً فيرون الأشياء على غير ما رأوها قبلاً ، فرب حسن يصير قبيحاً ، وقبيح يصير حسناً .

(٣) ترى الذرة على ضآلتها طور سيناء . الذرة لا ترى إلا في نور الشمس ، ولكن هذا الرسول الذي يتحدث عنه الشاعر يحيي الموات ، وينير الظلم ، فترى الذرة طور سيناء .

(٤) العقل عريان مفلس حتى يمده الرسول فيكسوه ويغنيه أي : هو يهدي العقل ويقويه .

(٥) يشعل العقل ، ويميز له الخبيث من الطيب .

(٦) الناس يعبدون الصنم ويستعبدون الإنسان فيقول الرسول للإنسان لست عبداً ، ولست قدراً من الأصنام .

(٧) يقيده بالشريعة ليجذبه إلى المقصود ويعلمه توحيد الله وأدب الطاعة فترى الإنسان حراً من عبادة الكبراء مقيداً بالشرع .

أركان الأمّة الإسلاميّة

الركن الأول : التوحيد

طوّفَ العقلَ بدنيا العِللِ   قاده التَّوحيد شطر المنزلِ

أعوزَ المنزلُ هذا السابلا   زورقُ الفكر أضلَّ الساحلا

في « آتي الرحمن عبداً » مُضمرُ   رمزُ توحيدٍ لقلبٍ يُبصِرُ(١)

يبتلي التوحيدُ فيك العملا   فيجلّي لك سرّاً أُغفِلا

يُشرق الدِّينُ به والحكمةُ   ويُرى الأيدُ به والمُكنةُ

قد تجلّى حيرةً للعالِمين   وتجلّى عملاً في العاشقين

يرتقي في ظلّه المتَّضِعُ   ويصير التُّربُ تِبْراً يَسطع

يجتبي التوحيدُ عبداً ثابَرا   فيردُّ العبد خلقاً آخرا

فهو في الحق حثيثٌ دائبُ   دمُه كالبرقِ فيه لاهِبُ

ريبهُ يَفنَى ويحيا العَمل   عينُه في الكونِ يَقظى تعمَلُ

في « مقام العبد » إن تثبتْ قدم   جَرَّة السائلِ تُصبحُ جامَ جم(٢)

« لا إلـه » الروحُ في أمتنا   « لا إلـه » اللَّحن في نغمتنا(٣)

« لا إلـه » السرُّ في أسرارنا   « لا إلـه » السمط من أفكارنا

صار قلباً إنْ حواها حجرُ   كلُّ قلبٍ لم تُتِره ، مَدَرُ

يتلظّى الكونُ منْ زَفرتِها   ويضيءُ القلبُ منْ وقدتها

وتُسيل القلب ماءً في الصدور   تصهر المرآة منه في الحَرور

---

(١) إشارة إلى الآية في سورة مريم ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] .

(٢) كأس جشميد التي ترى فيها الأقاليم السبعة . أي إن صدقت النية في مقام العبودية لله وحده ينقلب السائل ملكاً ووعاؤه الذي يجتدي فيه يصير كأس جمشيد .

(٣) تقدَّم أنَّ « لا إلـه » اختصار كلمة التوحيد .

شعلةٌ في روحنا مثلُ الشَّقيق … كلُّ ما نمتاره منها الحريق
بيَّض التَّوحيدُ مُسودَّ البَشَرْ … فأبو بكرٍ أخوه وعمر
ليس إلا القلب قربٌ وابتعادْ … وهذه الكأسُ بها هاجَ الفؤاد
وحدة القلب قوامُ الأمَّة … أشرقتْ سيناءُ من ذي الجلوة
قد هدى الأمَّة سُبْلَ العمل … هذه الفكر بها والأملِ
نزعةٌ واحدةٌ في قلبها … فعيارُ الحُسْنِ والقُبْحِ بها
لا يُجيد الفكرُ في قيثاره … دونَ نارِ الحقِّ في أوتاره[١]
نحن في الإسلام أبناءُ الخليلْ … من « أبيكم » خذ إذا شئت الدَّليلْ[٢]
أُممٌ قد عبدتْ أوطانَها … وبنتْ من نسبٍ بنيانَها
أتَرى الأوطانَ أصلَ الأمم … تُعبَد الأرضُ بها كالصَّنم؟
إنَّما الأنسابُ فخرُ السُّفهاءْ … حُكمها في الجسم ، والجسمُ هَباءْ
ضمَّنا في الحقِّ أسٌّ آخرُ … هو في الألباب منَّا مُضمَرُ
قد خلصنا من حدودٍ وقيود … قلبنا في الغيب إذ نحن شهودْ[٣]
ضمَّنا ، كالزهر ، نظمٌ مضمرُ … بصرٌ ليس يراه مُبصرُ[٤]
وُحِّد الرئيُ لنا والفكرةُ … كسهامٍ جمعتْها جَعبةُ[٥]
نحن فكرٌ وخيالٌ واحد … ورجاءٌ ومآلٌ واحدُ
نحن من نعمائه حِلفُ إخاءْ … قلبنا والرُّوحُ واللفظ سواءْ

* * *

---

(١) الفكر وحده لا يجدي ، ولا بد له من حرقة الإيمان .

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج : ٧٨] .

(٣) أمتنا مؤسسة على العقيدة لا على الأرض . فقلوبنا ليست رهن الحس بل هي متصلة بالغيب ، أي بالمعاني التي لا تحدها الأوطان .

(٤) نظامنا قائم غير مرئي ، كالبصر لا تدركه الأبصار .

(٥) الرئي : المظهر .

في معنى أنَّ الخوف ، والحزن ، واليأس أمهاتُ الخبائث[1] وقاطعاتٌ طريق الحياة ، وأنَّ في التوحيد دواءَ هذه العلل الخبيثة

عُدَّة الموت قُنوطٌ مُحبِطُ ... والحياة الحقُّ أن « لا تقنطوا »[2]

إنما العيشُ رجاءٌ يُوصل ... فقنوطُ الحيِّ سمٌّ يَقتل[3]

يأسك القبر إليه ترجع ... إن تكنْ ألْوَنْدَ فهو المصرع[4]

رُبّت الخيبة في أكنافه ... ونما العجز على ألطافه[5]

آهِ منْ نوم الحياةِ المُخدِرِ ... إنَّه آيةُ ضعفِ العنصر

كحلُه في العين يُعمي البصرا ... ويردُّ الصُّبحَ ليلاً أكدرا[6]

نفسٌ منه سَمومٌ للحياه ... كلُّ ينبوعٍ به جفَّ ثراه

وهو للغمِّ حليفٌ واصلُ ... إنَّما الغمُّ لحيٍّ قاتلُ

يا سجينَ الغمِّ أبصِر واسمعِ ... من رسول الله « لا تحزن » وعي[7]

ذلك النُّصح سرى في قلبه ... فغدا الصِّديقُ صدِّيقاً بهِ

نما المسلم مثلَ الكوكبِ ... باسمٌ في سعيه والدَّأبِ

---

(١) مأخوذ مما جاء في الأثر من تسمية الخمر أم الخبائث .

(٢) مقتبس من القرآن ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ .

(٣) رجاء يوصل : دائم لا ينقطع .

(٤) ألْوَنْد : جبل عال مشرف على مدينة همذان يعني : إن تكن كجبل الوَند في اليأس مصرعك .

(٥) الضمير اليأس في أكنافه تشب الخيبة ، وبفضله ينمو العجز .

(٦) الكحل يجلو البصر ولكن كحل اليأس يعمي ويجعل النور ظلاماً .

(٧) إشارة إلى ما حكى القرآن الكريم من قول الرسول لأبي بكر في الغار : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

حرِّرِ النَّفس منَ الغمِّ ودَعْ إنْ عرفت الله ، أغلالَ الطَّمعْ

قوةُ الإيمانِ تُحيي فاعلَمنْ وِرْدَ « لا خوفٌ عليهم » فاقرأنْ[1]

قلبه من « لا تخف » قلبٌ سليمْ حين يمضي نحو فرعونٍ كليمْ[2]

خوفُ غيرِ الله قتْلُ العملِ وهو للأحياء قطعُ السُّبُلِ

وبه العزمُ يخاف الغِيرا وترى المِقْدَام منه حَذِرا

من نما ذا البذر يوماً في ثَراهْ حَرمتْه من تجلِّيها الحياهْ

فهو فسلٌ وهو شادٍ يَغزِف يد شُلَّت وقلبٌ يرجُفُ

يسرِقُ الرجلَ قُوَى تسيارها يسلبُ الرأسَ قوى أفكارها

إنْ تجلَّى لعدوٌ خوفُكا هانَ كالوردِ ، عليه قطفُكا

سيفُه يزدادُ فتكاً في اليد عينُه فيك حسام لا يَدي[3]

غلَّنا الخوفُ ، وكم في بحرنا منْ عُبابٍ مائجٍ في دهرنا

إنْ أبَى النَّغمة يوماً مِزهرُكْ فمنَ الخوف تندَّى وترُكْ

فاعزِكِ الأذنَ يَثُر فيه الغناء ويهزَّ اللحنُ آفاقَ السَّماءْ

كلُّ شرٍّ في فؤادٍ يُضمرُ أصله الخوفُ ، إذا ما تُبصِرُ

منْ ديار الموت عينٌ قَدِما مثل ميم الموت قلبٌ أظلما[4]

عينُه تلبيسُ آثارِ الحياه أذْنه تدليسُ أخبار الحياه[5]

يُزهر الخِبُّ به والمَلِق ونفاقُ القلبِ منه يورقُ

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

(٢) إشارة إلى قصة موسى وفرعون وقول الخالق عن موسى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وفرعون هنا نكرة ولهذا لحقه التنوين .

(٣) لا يؤدي دية من قتله .

(٤) عين : جاسوس . والميم في خط الرقعة والخط الفارسي مصمتة . فجعل الشاعر الخوف مظلم القلب مثل ميم الموت . وفي الأصل ميم مرك . ومرك : موت . فالميم في الأصل والترجمة .

(٥) تشوه مظاهر الحياة عينه . وتحرف أخبار الحياة أذنه .

ثــوبــه للــزُّور ستــرٌ والــريَــبْ   حِجْــرُه الفتنــةُ فيــه والحــرَبْ
حُــرِمَ الخــوفُ طُمــوحَ الهمَّــةِ   فهــو خــدنٌ لحليــف الــذِّلَّــةِ
كــلُّ مــن يفقــد ســرَّ المصطفــى   يجدُ الإشراكَ في الخوْفِ اختفى

* * *

محاورة السَّهم والسَّيف

قــال سهــمٌ مـرهـفٌ يـوم الـزِّحـامْ   قــال للسيــف وللحــرب ضــرامْ
يــا مــن الجَنَّــة فــي أعطــافــه   ذو الفقار العضبُ من أسلافه ![1]
خــالــداً صــاحبْــتَ يَفْــري الفيلَقــا   وعلــى الشَّــام نثــرتَ الشفقــا[2]
نــارُ قهــر الله فــي جــوهــرِكــا   جَنَّــةُ الفــردوس مــأوى ظلِّكــا !
إننــي فــي الجــوّ أو فــي جَعبتــي   حيثمــا كنــت ، بجسمــي شُعلتــي
وإذا القــــوس رمتنــــي للثُّبــــور   بَصُــرَتْ عيني بــأحنــاء الصُّـدور :
إنْ خـلا الصَّـدرُ مِـنَ القلـبِ السَّليم   مــا بــه يــأسٌ ولا خــوفٌ مقيــمْ
نَفَــذ النَّصــل خِــلالَ الأعظُــمِ   فكســوتُ الجســمَ درعــاً مــن دمِ
وإذا حَــــلَّاه قلــــبٌ مــــؤمــــنُ   نــورُه الظَّــاهــرُ ممَّــا يُبطــنُ
ذاب روحــي مــن فــؤاد وَقــدا   وهمــىٰ نصلــي كقطْــرات النَّــدى

* * *

(١) ذو الفقار : سيف علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
(٢) في الأصل وعلى الشام نثرت الشفقا . وشام في الفارسية بمعنى الليل .

قصَّةُ

السُّلطان عالمكير والأسد[1]

إنَّ عــالمكيــر عــالــي المنزلِ — مــن بنــي تيمــور فخــرِ الــدُّول
كــانَ لــلإســلامِ منــه عِــزَّةٌ — ولحكــم الشــرع فيــه حُــرمــةُ
آخــرُ الأسهــم فــي جُعبتنــا — فــي ذيــاد الكفــر عــن ملَّتنــا
غَــرَسَ الإلحــاد فينــا أكبــرُ — فنمــا فــي طبــع دارا يُــزهِــر[2]
وخبــا فــي الصــدر مصبــاحُ الفــؤادْ — وبــدت أمتنــا رهــنَ فســادْ
فتــولَّــى الهنــد فــي ذي المحنــةِ — زاهــدٌ ربُّ حســامٍ مُصلــتِ
اجتبــاه الحــقُّ للــديــن المبيــن — اجتبــاه أجــلَ تجــديــد اليَقيــنْ
أحــرَق الإلحــاد مــنْ بــرق الحُســامْ — وأنــار الــديــنَ فــي هــذا الظــلامْ
حــرَّف الجُهَّــالُ عنــه مــا جــرى — فكــرُهــم عــن قصــده قــد قصَّــرا
كــان إبــراهيــمُ بيــت الصنــمِ — فــي لظــى الحــقِّ فَــراشــاً يــرتمــي
كــان فــي الأمــلاك فــرداً خيِّــرا — زهــدُه مــنْ قبــره قــد ظهــرا[3]

---

(١) هو محيي الدين عالمكير الملقب أورنغ زيب ، أحد عظماء الملوك في دولة المغول في الهند ، وكان حريصاً على نشر الإسلام في الهند ملتزماً حدود الشرع ، حكم الهند من سنة ١٠٩٩هـ إلى سنة ١١٤٨هـ ، انظر ترجمته في « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » للعلامة عبد الحيّ الحسني ، الجزء الثاني ، طبع دار ابن حزم بيروت .

(٢) أكبر هو جلال الدين أكبر من أعظم سلاطين المغول في الهند ، حكم خمسين سنة ، وحاول أن يجمع بين الإسلام والأديان الأخرى في دينٍ سمَّاه الدين الإلهي ، وكان يتقرّب إلى الهنادك ، ويرعى شعائرهم . ودارا أخو عالمكير المذكور هنا .

(٣) شاهجهان بن تاج محل لزوجه . فلما ولي عالمكير لم يبنِ لأبيه مزاراً بل دفنه بجانب زوجه في تاج محل . ثم بنى لنفسه قبراً صغيراً ساذجاً .

ذاكـــم المَلــك الفقيــر الجــاهــد زينـة العـرش المليـك المـاجـد[1]

ســار صبحـاً مُـوغـلاً فـي غَيضـة معـــه مـــنْ جُنْـــدِه ذو ثقـــة

فــي نسيــم الصبــح نشــوانَ خَطَـر ســامعـاً تسبيـح طيـرٍ فـي الشجـرْ

وامَّحى السلطانُ في شوق الصلاه مــن مجــاز حــثَّ للحــقِّ خُطـاه

وأتـــى ليـــثٌ مَهيـــبٌ فَتِــك صــوتُــه يَـرعَـد منـه الفلـكُ

شــمَّ ريــحَ الإنـس بُعـداً فـدنـا وعلــى السلطـان أهـوى البُـرثُنـا

فــإذا الخنجــر منــه فــي اليــد بــاقــراً كــالبـرق بطـنَ الأسـد

لـــم يفـــزَّع قلْبـــه بـــالبغتـــة خـال ليث الغـاب ليث الصُّورة[2]

ثـــمَّ للحـــقِّ دعـــاه الـــولَـــهُ فـي صـلاة الـوجـد معـراجٌ لـه[3]

مثــل ذا القلــب الــذي لــم يَهــنِ دارُه بــالحــقِّ صــدرُ المـؤمـن

إنمــا العبــد أمــامَ الحــقِّ « لا » وهـو للـزور « نعـم » لـن يَبطُـلا[4]

أيهــا الغــافــل! قلبــاً حصِّــلا هيِّئــنْ للحِــبِّ هــذا المحمــلا[5]

ابـــذلِ النَّفــسَ تَنَلْهـــا لا مفــرّ ذلَّ للحــقِّ تَنــلْ عــزَّ الــدَّهَــر

أحــرقــنْ بــالعشــق خــوفــاً وانهـدَا حمــلاً فــي الحــق ليثـاً للعِـدى

إنَّ خـــوفَ الله إيمـــانٌ جلـــيّ ثــمّ تقــوى غيــرِه شــركٌ خفــي

***

---

(١) زينة العرش لقب هذا السلطان (أورنك زيب) .

(٢) توهم الليث صورة ليث .

(٣) ثم دعاه الوجد إلى الصلاة مرةً أخرى .

(٤) العبد لدى مولاه يفنى ولكن يثبت في جهاد الباطل واللفظان العربيّان « لا » ، و« نعم » في الأصل .

(٥) الألف في حصلا نون التوكيد الخفيفة .

الركن الثَّاني

الرسالة

تـاركُ الآفِـل ، مِـنْ قبـلُ الخليـل — هُـو للـرُّسْـل علـى النَّهـج دليـل
إنَّـــــه لله فينـــــا آيـــــةٌ — رُبِّيــتْ فــي قلبــه ذي الملَّــةُ
﴿ طهِّـــرا بيتـــي ﴾ إليـــه أنـــزلا — بعـد سَيْـلٍ مـن دمـوعٍ سُيِّـلا[1]
قفـــرةً مـــن أجلنـــا قـــد عَمَّـــرا — وبنَـى البيـتَ الـذي قـد طَهَّـرا
﴿ تـب علينـا ﴾ نضَّـرت زهـرتها — فنَمـتْ فـي أرضنـا روضتُهـا[2]
صـوَّر الـرحمـنُ منَّـا هيكـلا — وحبـاه الـروحَ ممَّـا أنـزلا
أحـرُفـاً كنَّـا ولَسنـا كَلِمـا — فتـألَّفنـا كبيـتٍ نُظِمـا
بـالـرسـالاتِ بـدا تكـوينُنـا — شـرعُنـا منهـا ومنهـا دينُنـا
ذاكَ مَـن « يهـدي إليـه مـن يـريـدْ » — حلقـةٌ منهـا حـوالينـا يشيـد[3]
حلقـــةٌ ذاتُ محيـــطٍ يُعجـــزُ — سـاحـةُ البطحـاء فيهـا مـركـز[4]
نحـــنُ ممَّـــا جمَّعتنـــا أمَّـــةُ — أُرسلـت للنَّـاس فيهـا الـرَّحمـة
مَـــوْجُنـــا فـــي بحـــرهـــا متَّصـــلُ — مـوجـةٌ مـنْ مـوجـةٍ لا تُفصـل
أمـــةٌ فـــي حـــرزِ سُـــور الحـــرَم — فـي حفـاظٍ مثـلَ أسْـد الأجـم[5]

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

(٢) إشارة إلى دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ [الحج : ١٦] .

(٤) بطحاء مكة .

(٥) إشارة إلى بيت البردة :

أحـلَّ أمتـه فـي حـرز ملَّتـه — كالليث حلَّ مع الأشبال في أجم =

إنْ تحقَّق ممعناً في كَلِمي نظرةَ الصِّدِّيق ربّ الفَهَم
فالنبيُّ الروح فينا والعَصَبْ وإلى القلبِ منَ الربِّ أحَبّ
سِفْرُه في القلب نبعُ القوَّة شَرعهُ حَبْلُ وريدِ الأمَّة
قطعُ حبلٍ منه للموت رَديف كذبول الورد في ريح الخريف
حيَّتِ الأمة منْ ترياقه صُبحها نوَّر من إشراقه
وحَّد المرسلُ فينا النغَما والطَّوايا والمُنى والألَما
كثرةُ الأُلَّافِ عينِ الوَحْدة ومنَ الوحْدَةِ نَشء الأمَّة[1]
وحدة القصد حياة الكثرة مقصدُ المسلم دينُ الفطرة
علَّم الفطرة خيرُ الرُّسُلِ فمضينا للهُدى كالشُّعَل
بحرُه أخرجَ هذا الجوهرَا نحنُ روحٌ واحدٌ منه سَرى
هذه الوَحْدةُ ما لم تفقَدِ تحفظُ المسْلِمَ حتَّى الأبدِ
ختم الله علينا شِرْعَتهْ وعلى المرسَل فينا بعثَته[2]
محفلُ الأيَّام منا يَبسمُ خُتِمَ الرُّسْل بنا والأممُ
خدمةَ السَّاقي إلينا صرفا جامَه الآخِرَ فينا خلَّفا
« لا نبيٌّ بعدُ » فضلٌ عُرفا إنَّه حرمةُ دينِ المصطفى[3]
إنَّه قوةُ هذي الملَّة إنَّه سرُّ اتحاد الأمَّة
كلُّ دعوى بعدها للأفَنِ أحكِمَ الإسلامُ طولَ الزَّمن
ما سوى الحقِّ قلاه المسلمُ قائلاً : « لا قوم بعدي » فاعلموا

* * *

---

(١) الكثرة المؤتلفة هي في الحقيقة وحدة لا كثرة . وإذا ائتلفت الكثرة فاتحدت نشأت الأمّة .

(٢) في حاشية الأصل بيت من البردة :

لما دعا الله داعينا لطاعته بأكرم الرسل كنّا أكرم الأمم

(٣) لا نبي بعدي فضل من الله على هذه الأمة . ومكانة الإسلام من هذا .

في بيان أنَّ مقصود الرسالة المحمَّدية تمكين الحرِّية والمساواة والأخوَّة بين البشر

عبد الإنسانُ أصنام البَشَرْ ... فهو في عُذمٍ وذلٍّ محتقر

قيصرُ العَسفِ وكِسرى قيَّدا ... منه جيداً ثمَّ رجلاً ويدا

ومن القسِّيس والمَلْك طِلابْ ... بخراج الحقل ، والحقلُ خرابْ

نصب الأشراك للصَّيد الضرَعْ ... بائعُ الجَنَّة أُسْقُفَّ الخُدَعْ

حقله قد عاث فيه البَرْهمنْ ... ومجوسٌ أحرقت ما قد خَزنْ

أضعفَ الرقُّ لديه الهِمما ... لَحنُه في عوده سالَ دما

* * *

وأميناً بعث المولى به ... سلَّم الحقَّ إلى أصحابه

رفعَ العُبدانَ بالحقِّ إلى ... سُرُر الخاقان والزُّورَ قَلى

بثَّ في بَردِ الرَّماد الشُّعَلا ... فعلى برويزَ فَرهادُ علا[1]

سلب السُّلطانَ حِزْبَ الآمرينْ ... فسما بالحقِّ قدرُ العاملينْ

عزمُه هدَّ قديماتِ الصُّوَر ... وبنى حصناً جديداً للبشر

بثَّ روحاً حيَّت الموتى بها ... وافتدى الأعبدُ منْ أربابها

مولدٌ مات به العصر القديم ... وبيوتُ النَّار والوثْنِ حطيم

أزهرَ التحريرُ في روضته ... هذه الصَّهباء من كرمَتِه

عصرنا اللألاء في أنواره ... فتحَ الأعينَ في أحجاره[2]

خطَّ في العالم سطراً مُبدَعا ... أمةً فاتحةً قد أبدعا

---

(١) برويز ملك عظيم من ملوك الفرس . وفرهاد مهندس فارسيٌّ له مع برويز وجاريته شيرين رائعة في الأدب الفارسي .

(٢) المدنية الحاضرة من آثار البعثة الإسلامية فهذا العصر جاء إلى الوجود في حجرها .

صدرُها من وَقدة الحقِّ أضاء — ذرَّةٌ منها أنارت في ذُكاء
أشرق الكون بها إذ يبتني — كعباتٍ منْ بيوت الوثنِ
ولدتها الأنبياء القُدُم — فإذا الأتقى لديها الأكرمُ
إخوةٌ فيها جميعُ المؤمنين[1] — طينها حريةٌ في العالمين
المساواة لديها فطرةُ — ومن التمييز فيها نفرةُ
نسلُها كالسَّرو حرٌّ قد علا — عهدها أحكِم من ﴿ قالوا بلى ﴾[2]
سجدة الحقِّ بسيماها غُرَر — قبَّل النجمُ ثراها والقمر

* * *

قصة

أبي عبيد وجابان

في معنى الأخوَّة الإسلاميَّة[3]

مُسلمٌ في حَومةِ الحربِ أسَرْ — قائداً منْ جيش كِسْرى ذا خَطرْ
قائدٌ ربُّ خداعٍ ماكرُ — عجمَ الأيامَ ذئبٌ غادرُ
لم يعرِّفْ آسريه باسمه — أو يحدِّث أحداً عن وسمهِ
قال للآسر : يا ذا الكرم — آمنَنِّي . ذاك شأنُ المسلمِ
وضع الجنديُّ في الغمد الحسام — مُعلناً أنْ دَمُك اليوم حَرام
وخبَتْ في الحرب نيران العَجَم — وهوى منْ آلِ ساسانَ العلَمْ
فإذا المأسورُ جابانُ الكبيرْ — قائدٌ في جند إيران أميرْ

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

(٣) أبو عبيدة الثقفي : أحد قواد المسلمين في فتح العراق ، وجابان : قائد فارسيّ .

أقبــل الجنــد بصــوتٍ قــارعِ / يســأل القــائــد قتــل الخــادع

بُــو عبيــدٍ قــائــد العُــزب الأبــيّ / عزمُه في الحرب عن جيش غنيّ[1]

قــال يــا قــوم : ألسنــا المسلميــن / نغمــةً واحــدةً فــي العــالَميــنْ

مــن أبــي ذرٍّ علــتْ أو حَيْــدر / مــن بــلالٍ سُمعــتْ أو قَنبــرِ[2]

كــلُّ جنــديٍّ أميــنُ الملَّــةِ / صلحُــه والحــربُ عهــدُ الأمَّــة

إنَّ جــابــان عــدوٌّ غَشِــمُ / لكــنِ الأمــنَ حَبــاه مسلــمُ

دَمُــه اليــوم عليكــم حُــرِّمــا / أمــةَ المختــار ! أوفــوا الــذِّمَمــا

* * *

قصة

السلطان مراد والعمَّار[3]

في معنى المساواة الإسلاميَّة

أخــرجــتْ أرضُ خُجنــدٍ صــانعــا / نــال فــي التشييــد صيتــاً ذائعــا

صــانعــاً فــرهــادُ حقّــاً وَلــدا / لمــراد مسجــداً قــد شيَّــدا[4]

غضــب السُّلطــان مــنْ تقصيــره / لــم يــرَ الإتقــانَ فــي تعميــرِه

قــدَحــت عيــنُ المليــك الشَّــررا / ويــدَ المسكيــن فــوراً بتــرا

ســار للقــاضــي حــزينــاً يجــأر / دمُــه مــن يــده يَنْهَمِــرُ

قال : يا مَن قولُه الحقُّ المبين ! / يـا حفيظاً شـرعَ خيـرِ المرسليـن !

---

(١) بو عبيد هكذا جاءت في الأصل واقتضى الوزن وذكر الاسم إبقاءها كما جاءت .

(٢) الحيدر : علي بن أبي طالب وقنبر خادمه . يعني : أن نغمة ينطق بها بلال ، أو قنبر هي نغمة علي وأبي ذر . سواء فيها الكبير والصغير ، والسيد والمولى .

(٣) مراد : أحد أمراء خوقند في تركستان في القرن الثالث عشر الهجري .

(٤) فرهاد مهندس له قصة رائعة معروفة في الأدب الفارسي .

لستُ للسُّلطان عبداً فاسْمَعِ ... حكِّم القرآن فينا واقطعِ[1]

قرعَ الحاكم سنَّ المُبلسِ ... ودعا السُّلطانَ نحو المجلس

فأتى السلطانُ يخشى ذنبَه ... هيبةُ القرآن تُدمي قلبَه

عينُه من خجَلٍ للقَدَمِ ... وعلى خدَّيه لونُ النَّدَمِ

وقف الخصمان : خصمٌ يشتكي ... وخصيمٌ في ثياب الملكِ

جَهر السلطان : إنِّي نادمُ ... لا أردُّ الحقَّ إنِّي جارم

وتلا القاضي : « حياةٌ في القصاصْ » ... ذاك قانونُ حياةٍ . لا مناص

ليس دون الحرِّ عبدٌ مسلمُ ... وحَّدَ المعمارَ والمَلْكَ دمُ

سمع القرآن يُملي حكمهُ ... فنضا السلطانُ فوراً كمَّه[2]

إذ رأى الخصمُ الذي قد فعلا ... آيةَ « الإحسان والعدل » تلا[3]

قائلاً : « لله أعفو وكفى ... إنَّني أعفو لأجل المصطفى »

نَملةٌ عزَّت سُليمان القويّ ... انظرن سطوة قانون النَّبيّ

جمع القرآنُ مولىً وفتاه ... وذوي التيجان سوَّى بالرعاء

***

في بيان أنَّ الأمة الإسلاميَّة مؤسسة على التَّوحيد فلا تحدُّها الأمكنة

قلبنا الخفَّاق يأبى مَوطِنا ... رِيحُهُ العاصفُ تأبى مسكنا[4]

---

(١) اقطع يد السلطان قصاصاً .

(٢) شمَّر كمَّه استعداداً لقطع يده .

(٣) آية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] القطع عدلٌ ؛ والعفو إحسانٌ .

(٤) حذف قبل هذا أبيات فيها حديث وقعة كربلاء .

ليسَ مِنْ هندٍ ورومٍ قلبُنا ... ما سوى الإسلام فيه أرضُنا
كعبٌ الشَّاعرُ في خير العباد ... أنشد المِدحةَ من « بانتْ سعادْ »[1]
نَظَمَ الدُّرَّ منيراً في ثناه ... من سيوف الهند سيفاً قد دعاهُ[2]
مَنْ على الأفلاك فيه رفعةُ ... لم ترقهُ لبلادٍ نسبةُ
قال : سيفٌ من سيوف الله قلْ ... يا نصير الحقِّ زوراً لا تقلْ
وكذا كَمْ قالَ ذو القَدْرِ العلي ... من سَناه كحلُ عين الرُّسل :
ليَ مِنْ دنياكمُ قد حُبِّبا ... بعضُ ما فيها حلالًا طيبا[3]
إنْ تكنْ سرَّ المعاني تعلمُ ... فافهم النُّكتة في « دنياكمُ »
كان في الدُّنيا وفيها ما سَكَنْ ... ذلك المشرقُ في ليل الزمَنْ
مِنْ سَناه قد تجلَّى العالمُ ... مُشرقاً إذ كان طيناً آدمُ
لستُ أدري ما حِماه والوطنْ ... أنا دارٍ أنَّه فينا سكن[4]
قد رأى في أرضنا دنيا لنا ... وهو في الدُّنيا كضيفٍ بيننا
إذ أضعنا القلب في هذا اليَباب ... وفقدنا النَّفس في هذا الترابْ
لا تحدُّ الأرضُ قلبَ المسلمِ ... لا يُرَى في تيهِ « أنَّى وكمِ »[5]
ليس للمسلم في الأرض عَطَنْ ... حائرٌ في قلبه كلُّ وطنْ[6]

---

(١) كعب بن زهير الذي مدح الرسول بالقصيدة المعروفة : بانت سعاد فقلبي اليوم متبول .

(٢) إشارة إلى البيت :

إنَّ الرسول لسيفٌ يستضاء به ... مهندٌ من سيوف الهند مسلولُ

(٣) إشارة إلى الحديث : « حبب إلي من دنياكم ثلاث .. » إلخ . لم يقل الرسول من دنياي ، أو دنيانا بل قال : دنياكم .

(٤) سكن الإنسان : من يسكن إليه من أهلٍ ، أو صديق .

(٥) لا يتيه في عالم العلل والمقادير .

(٦) يقول إقبال في ديوان ضرب الكليم :

إنما الكافر حيرا ... ن له الآفاق تيه
وأرى المؤمن كوناً ... تاهت الآفاق فيه =

حصِّلِ القلبَ ففي وُسْعَتِهِ ... ضلَّ هذا الكونُ في فُسْحته

عقدةَ الأقوات حلَّ المسلمُ ... هجر الدارَ الإمامُ الأعظمُ[1]

أمةً ملء الدُّنَى قد أسَّسا ... جعل التَّوحيد فيها أُسُسا

صارتِ الأرضُ لدينا مَسْجِدا ... إذ أشاعَ الفَضْلَ فينا وهدى

ذلكَ المحمودُ في الذِّكرِ الحكيمْ ... ذلكَ المحفوظُ بالله الرَّحيم

تفزعُ الأعداءُ منْ هيبتهِ ... في ارتعادٍ منْ سَنا طلعتهِ

فلماذا أرضَ أهليهِ هجرْ ؟ ... أتراه خشيةَ الأعداء فرّ ؟

حجبَ القصَّاصُ معنى القصَّةِ ... غلطوا في فهم معنى الهجرة

هجرةٌ شَرْعُ حياةِ المسلمِ ... هجرةٌ سرُّ ثباتِ المُسْلم

إنها التَّسيار نَحْوَ الوُسعةِ ... ولأجل اليمِّ تركُ القطرة[2]

اهجرِ الزَّهرة أجْلَ الروضة ... إنَّ هذا الخسْرَ ربحُ الكثرةِ

شرفُ الشَّمْسِ مسيرٌ مطلقُ ... فيه من فوق البرايا تخفُق

لا تكنْ نهراً من السُّحْب يُمَدّ ... وكن البحرَ ، عُباباً لا يُحَدّ

اقصدن تسخير كلِّ العالَم ... لتُرى سلطانَ أهلِ العالَم

لا يقيّدك مُقامٌ في الورى ... وكنِ الحوتَ يَسيحُ الأبحُرا

كلُّ من حُرِّر مِنْ ذُلِّ الجهات ... فلكٌ يُزهِرُ منْ كلِّ الجهاتْ

تركَ الوردَ شذاهُ فسرى ... في فسيح المزجِ عِطْراً نَشَرا

يا أسيراً قد ثوى في روضةِ ... عندليباً هائماً في وردةِ !

سيِّرَنْ نفسك حرّاً كالصَّبا ... ثم عانق كلَّ أزهار الرُّبَى

= يعني : أن المؤمن المجاهد لا تعوقه ولا تحيره عقبات هذا العالم ، بل يسخرها كما يشاء .

(١) الإمام الأعظم رسولُ الله ﷺ .

(٢) في القرآن الكريم : ﴿ قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ ﴾ [النساء : ٩٧] فالهجرة ترك المكان الذي يعسر فيه العمل إلى المكان الذي يتيسر فيه أداء الواجب .

احذرنْ منْ خدعة العَصْرِ الجديدْ التبـاسَ النَّهـج حـاذرْ يـا رشيـدْ

***

في بيان أنَّ الوطن ليس أساس الأمَّة

قطَّعـوا الأرحـام بيـن الإخـوةِ صيَّـروا الأوطـان أسَّ الأمَّـةِ

قـدَّسـوا الأوطـان إعجـابـاً بهـا قسَّمـوا الإنسـان أسـرابـاً بهـا

طلبـوا الجنَّـة فـي « بئـس القـرار » « فـأحلُّـوا قـومهـم دار البـوارْ »(١)

محـق الجنَّـة هـذا الشجـرُ ليـس إلا الحـربَ فيـه ثمـرُ

أنْكَـرَ الإنسـانُ وجـهَ الإخـوة وانتهـت قصَّـةُ الإنْسـانيـةِ

ذهـبَ الإنسـانُ روحـاً وانقضـى بقيـتْ أقـوامُـه وهْـوَ مَضـى

مَنْصِـبُ الـدِّيـن حـواهُ السَّـاسـة فنمـتْ فـي الغـربِ هـذي الآفـةُ

ديـنُ عيسـى بطلـت قصَّتُـه وَخَبـتْ فـي دُوره شُعلتُـهُ

عجـز الأسقـفُ عـنْ تقـديـره حـادتِ الأزلامُ عـن تـدبيـره

قـوم عيسـى حقـروا بِيعَتـهُ أبطلـوا فـي سـوقهـم سكَّتـهُ

مـزَّق الـدَّهـريُّ ثـوب المـذهـب ومـن الشيطـان قـد وافـى نَبـي

ذا الفُلَـورنَسـيُّ عبـدُ الـوثـن كحلُـه أودَى بنـور الأعيـنِ(٢)

خـطَّ لـلأمـلاك سِفـراً منكـرا وبـذورَ الحـربِ فينـا بـذرا

مـزَّقَ الحـقَّ بحـدِّ القَلـم فطـرةٌ تـؤثـرُ عَيـش الظُّلَـمِ

آزرُ العصـر ، بـدا تـزويـرُه خطَّـةً بِـدعـاً جـلا تفكيـرهُ

جعـل المُلـكَ إلهـاً دينُـه كـلُّ قبـح نـالـه تحسينُـه

---

(١) اقتباس من القرآن جاء في الأصل .

(٢) الفلورنسيُّ : ميكافلي ، مؤلف كتاب الأمير الذي أحلَّ للملوك كلَّ وسيلةٍ تبلغ بهم الغاية .

جعـل النفـع عيـارَ الـذِّمَـمِ　حينمـا خـرَّ لهـذا الصَّنـمِ[1]
صـارت الحيلـةُ فنَّـاً مُحكمـا　ونمـا البـاطـلُ ممَّـا علَّمـا
خطـةً لِلْـوَهْـنِ فينـا حبَكـا　فـي طـريـقِ الـدَّهـر ألقـى حَسَكـا
أرمـدَ النَّـاسَ بهـذي الحكمـة　إذْ دعـا التـزويـرَ بـالمصلحـة

* * *

في بيان أنَّ الأمة المحمدية ليس لها حدودٌ زمانيَّة أيضاً

أرأيـتَ الطَّيـر فـي عُـرسِ الـربيع　وهيـاجَ الكِـمِّ والـوَرْدَ الينيـعْ
وعَـروسُ الـزَّهـر نَشـوَى النَّغَـم　وعلـى الأرض قُـرىً مـنْ أنجـمِ
غسَـل العُشْـبَ دمـوعُ السَّحَـرِ　وشـدا المـاءُ لنـومِ النَّهَـرِ
وإذا الكـمُّ علـى الغصـن رَبـا　منحتْـه حِجـرَهـا ريـحُ الصَّبـا
دَمِـيَ البـرعـومُ مِـنْ قطفتـهِ　ومضـى كـالـرِّيـح عـن روضتـه[2]
عَشَّـشَ الـوُرْقَ وطـار البلبـلُ　وشـذًا فـرَّ وطـلٌّ ينـزل[3]
ليـس يُكـرى مـن ربيـع رونـقُ　حيـن تـذوي زهـرات تَعبِـقُ
محفـل الأزهـار بـاقٍ يضحـك　لا يُبـالـي كنـزُه مـا يُهلـك
مـوسـم الأزهـار أبقـى فـي الـدَّهَـر　هـو أبقـى مـن ورودٍ وزهَـر[4]
لا يبـالـي جـوهـراً قـد كُسـرا　مَعـدن يُنمـي ويُبـدي الجـوهـرا
كـم شـروقٍ وغـروبٍ ، لا مقـرّ !　أكـؤسٌ تـؤخـذُ مـن دَنِّ الـدّهَـر

---

(١) الصنم : الملك .

(٢) الريح : الرائحة .

(٣) تذهب طير وتجيء أخرى ، وتسير الرائحة وينزل النَّدى . فالروضة باقيةٌ على تبدل ما فيها .

(٤) موسم الزهر أبقى من آحاد الزهر . فالزهرة تذبل ، والموسم يدوم .

خمـــرةٌ مـــنْ شَـــربِهـــا لا تنفَـــدُ ... تـذهـب الآمـاس والبـاقـي الغـدُ[1]

ثـابـتٌ فـي الـدَّهـر تقـديـرُ الأمـمْ ... مـن مَسيـر الغـدِ سيَّـارِ القَـدَمْ

يَسفُـــر الخِـــلُّ وتبقـــى الصُّحبـــة ... يـرحـل الفـرد وتبقـى الأمَّـة[2]

ولهـــا عيـــشٌ ومـــوتٌ آخـــرُ ... ثـــم ذاتٌ وصفـــاتٌ أُخَـــرُ

ينشـأ الفـردُ مـن الطِّيـن القليـل ... تـولـد الأمـة مـن قلـبٍ جليـلْ

نفَـسُ الأمَّـة يُحصَـى بـالمئيـنْ ... ويعيـش الفـرد عَشْـراتِ سنيـن

وحيـاةُ الفَـرْدِ روحٌ فـي بـدنْ ... وحيـاة الشعـب فـي حفـظِ السُّنَـنْ

مـوت فـردٍ نَضْـبُ وردٍ للحيـاه ... مـوتُ قَـوْمٍ تـركُ قصـدٍ للحيـاه

* * *

كممـاتِ الفـردِ تفنـى الأمـمُ ... ولهـا يـومـاً قضـاءٌ يُحتَـمُ

أمـةُ الإسـلام تـأبـى أجـلا ... أصلها الميثاق في ﴿قالوا: بلى﴾[3]

لا تخـاف المـوتَ هـذي الأمَّـةُ ... ﴿ نحـن نـزّلنـا ﴾ لـديهـا حجـةٌ[4]

دامَ ذكـرٌ مـا أقـام الـذَّاكـرُ ... بـدوام الـذِّكـر دامَ الـذَّاكـر[5]

ذلـك المصبـاح أنَّـى يُطفَـأ ؟ ... قال ربي عالماً : ﴿ أن يطفئوا ﴾[6]

أمَّـةُ الحـقِّ إلـى الحـقِّ تُنيـبْ ... أمَّـةٌ يَعْشَقُهـا أهـلُ القلـوب[7]

---

(١) الآماس : جمع أمس .

(٢) يسفر ، أي : يُسافر .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] يعني : أنها قائمة على عقيدةٍ أزليةٍ عامةٍ خالدة فهي دائمة بدوام هذه العقيدة .

(٤) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

(٥) المعنى : إن كان الذكر محفوظاً فلا بدَّ أن يدوم الذَّاكر ، فلا ذكر بدون ذاكر .

(٦) الآية : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢] .

(٧) إلى الحق تنيب : الحق هنا الله تعالى .

مُصْلتٌ بالحقِّ ذا السَّيفُ الصَّقيلْ　　مُصْلتٌ من غمد آمال الخليل[1]
ما سوى الحقِّ محاهُ برقُه　　ليعيد الحقَّ حيّاً نطقُه
نحنُ للتَّوحيد أقوى حجةٍ　　للكتابِ اختارنا والحكمةِ[2]

* * *

أضمرَ الدَّهرُ علينا ثارَهُ　　مخفياً في صدره تاتاره
أطلق الفتنةَ منْ أحبالها　　ورمى بالطَّوْدِ من أثقالها
فتنةٌ موطئُها هامُ الأممْ　　نظرةٌ منْ طرفها قتلٌ عمَمْ
أنفُ هَوْلٍ في حشاها يرقُدُ　　ليسَ للأمسِ بمثواها غدُ
سطوةُ الإسلام للتّربِ هَوَتْ　　ما رأت بغدادُ روما ما رأَتْ
لكن اسألْ ذلكَ الدَّهر المُليمْ　　محدَثَ الأفعالِ ذا المكرِ القديمْ
روضنا كان لهيبُ التتَر　　حَلْيَنا كان نِثارُ الشَّرر[3]
فلإبراهيم فينا فطرةٌ　　وإلى المولى لدينا نسبةُ
من لهيب قد جنينا زهَرا　　نار نمرودٍ رَدَدْنا كوثرا
كلُّ نارٍ يوقدُ الدَّهرُ لنا　　زهراتٌ حين تأتي روضَنا

* * *

ذهب الروم وفُضَّ الموكبُ　　شرقُها أقوى وأقوى المغربُ
كأسُ ساسان من الغمِّ دَمُ　　حانُ يونان خرابٌ مُظلم[4]

---

(١) إبراهيم الخليل : كان يأمل أن تخرج من ذريته أمةٌ موحدة فانجلت آماله عن هذه الأمة .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

(٣) يعني : كانت نار التتر علينا برداً وسلاماً ، بل كانت روضة لنا كما كانت النار لإبراهيم .

(٤) ساسان الذي تنسب إليه دولة الفرس الساسانية التي سيطرت من القرن الثالث الميلادي=

وعنــتْ مِضــرُ لــدهــرٍ عَــرمِ وَثَــوتْ أعظُمُهــا فــي الهَــرَمِ
وأذانُ الحـــقِّ فينـــا خلَـــدا أمـــةُ الإســـلام تبقـــى أبـــدا
إنَّ للكـــونِ مـــنَ العِشْـــق حيـــاه وبـــه أجـــزاؤه شـــدَّت قُـــواه
أحيـــت العِشْـــقَ قلـــوبٌ تُسعَـــر شَبّهـــا مـــنْ « لا إلـــه » الشَّـــرر[1]
إنْ نكـــنْ كـــالكـــمِّ نُطـــوَى كَمَـــدَا فـــرَدانـــا فيـــه للـــرَّوضِ رَدَى[2]

***

في بيان أنَّ الأمة لا تنتظم بغير شريعة وشريعة الأمة المحمَّدية القرآن

أمَّـــةٌ خلَّـــت يـــداهـــا السُّننـــا ككثيـــبٍ مـــنْ رمـــال وَهَنـــا
سيـــرةُ المُسْلِـــم شـــرعٌ وكفـــى ذلكُـــم بـــاطـــنُ ديـــنِ المصْطَفـــى
بـــانتظـــامِ الصَّـــوْتِ تعلـــو النَّغمـــةُ وهـــي مـــن دونِ نظـــامٍ ضجَّـــةُ
إنَّمـــا فـــي الحلـــق مَـــوجٌ مـــن هَـــواء يَعلَـــق النَّظـــمُ بـــه فهْـــوَ غِنـــاء
صـــاحِ هـــلْ تعلـــم مـــا سُنتكـــا ؟ أيَّ ســـرٍّ ضَمنـــتْ قـــدرتُكـــا ؟
الكتـــابُ الحـــيُّ والـــذِّكـــرُ الحكيـــم حكمـــةٌ فـــي الـــدَّهـــر تبقـــى لا تـــريـــمْ
إنَّ فيـــه ســـرُّ تكـــويـــن الحيـــاه يستمـــدُّ النكـــس أيـــداً مِـــنْ قُـــواه
لفظـــهُ لا ريـــبَ أو تبـــديـــلَ فيـــه آيـــة لا لَبـــس أو تـــأويـــلَ فيـــه
قـــوةٌ فيـــه تشـــدُّ الخـــورَا وبهـــا يـــرمـــي الـــزجـــاجُ الحجـــرا

= حتى ظهور الإسلام .

(١) يعني : أنَّ الأمة الإسلامية تبقى بما في قلوبها من الوجد والهيام والإقدام على العمل وهذا العشق حياة العالم .

(٢) إن كنا في ضيق وغم منطوين ككم الزهرة فحياة هذه الروضة ، هذا العالم ، رهن بحياتنا إن متنا ماتت .

قطَّعَ الأشراكَ عن صيدٍ كسير | فدعا الصَّيَّادُ منه بالثُّبورْ
ذا بلاغٌ آخِرٌ للمرسلين | قد تلاه « رحمةٌ للعالمين »
ترفعُ الخاملَ فيه رفعةُ | وتقيمُ الرأسَ منه سجدةُ
قاطعو الطرْقِ هداةً صُيِّروا | من كتابٍ ، كم كتابٍ سَطَّروا
والبوادي منْ سراجٍ زَهَرا | قد أضاؤوا بالعلومِ الفِكَرا[1]
الَّذي يُصدَعُ مِنْهُ الجبلُ | وعلى الأفلاك منه وَجَلُ[2]
ذلك الينبوعُ منْ آمالنا | قدْ حواه الصَّدْرُ منْ أطفالنا
انظُرِ الظمآنَ في حَرّ القفارْ | عينُه حمراء منْ وَقْد النَّهار
عَنْسُه كالظَّبي في تَعْدائِها | دمُها كالنَّارِ في رمضائها
طائفُ الصَّحراء يأبى الجُدُرا | ضاربٌ في البيدِ يقلي الحضرا
خَفقَتْ في قلبه هذي السُّوَرْ | فاستقرَّ الموج فيه كالدُّرر[3]
قرأ الدرس مِنَ الآي المبينْ | فغدا بالحقِّ حرّاً لا يَمين
حكمَ الدُّنيا جميعاً عدلُه | عَرْشَ جمٍّ وطئته رجلُه[4]
مُدُناً قد شيَّدتْ هَبوتُه | ورياضاً أنْبتتْ زهرتُه[5]

* * *

إنَّ إيمانك في قيدِ الرُّسوم | سننُ الكفرِ لكَ السِّجنُ المقيمْ
أمرُكم قطعتمُ فهو « زبُر » | مُسرعي السَّيرَ إلى شيءٍ نُكُرْ[6]

---

(١) زهر السراج : أضاء .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

(٣) سكن اضطرابه واطمأن ، موجه الثائر سكن واستقر كالدرة في الماء .

(٤) جم : جمشيد أحد ملوك الفرس القدماء .

(٥) الهبوة : الغبار الذي يثور في الحرب ، أو سير الأرجل الكثيرة ، ونحوها .

(٦) إشارة إلى الآيتين : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ [المؤمنون : ٥٣] و ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ

سَكِرَ الصُّوفيُّ من أحواله وانتشى باللَّحن مِنْ قوَّاله[1]

قلبهُ شعرَ العراقيِّ تلا ومن القرآن أقوى وخلا[2]

تاجه والعرش صوفٌ وحصيرْ فقره يَجبي رباطاً للفقيرْ[3]

وأخو الوعظِ جُزافاً قائلُ كلِمٌ عالٍ، ومعنى سافِلُ

قولُه مِنْ ديلميٍّ وخطيبْ فعلُه حِلف ضعيفٍ وغريبْ[4]

لكتاب الله حقٌّ . فاقرأنْ كلَّ ما تبغيه منه فاطلبَنْ

* * *

في بيان أنَّ التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد

عصرنا هذا مليءٌ بالفِتَن طبعُه خلقُ شرورٍ ومِحَنْ

محفلُ الماضين فيه مقفر صوَّحتْ فيه حياةٌ تنضُر

أنكرتْ أنفسَنا أنظارُنا وجَفَتْ نغمتَها أوتارُنا

شعلةُ التَّوحيد فينا سَلَبا نارَه والنُّور منَّا سَلبا

وإذا ما اعتلَّ تقويم الحياه فَمِنَ التقليدِ للقومِ نجاه

سُننُ الآباء حَبلُ الملَّة ومِنَ التقليد جمعُ الأمَّة

يا خليّاً في خريفٍ من ثَمرْ ارقب الغيث ولا تجفُ الشَّجر[5]

= إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ [القمر : ٦] .

(١) القوَّال : منشد القصائد الدينية ، وهو معروف بهذا الاسم في إيران والهند .

(٢) العراقي : شاعرٌ صوفيٌّ فارسيٌّ .

(٣) يعني : أنه يأخذ مالاً من الفقراء المقيمين في الأربطة .

(٤) الديلمي والخطيب من رواة حديث الضعفاء . والضعيف والغريب من أنواع الحديث . بين الشاعر أنهم تتبعوا المحدثين غير الثقات والأحاديث غير الصحيحة يستدلون على أقوالهم وأفعالهم .

(٥) يعني : يجب الاستمساك بسنن الآباء حتى تعود للأمة سيرتها . كما ينتظر صاحب =

قد حُرِمْتَ البحرَ فاذكر خُسرَكا   يا قليلَ الماءِ واحفظْ نهركا[1]

فعسى سيلُ الجبالِ الهادرُ   منه في مجراك لجٌّ زاخرُ

حالُ إسرائيلَ فيها تَبْصِرَه   إنْ تكنْ روحُك روحاً مُبصره

انظرنْ كيف ابتلاها الزَّمنُ   وَعَرتْها في الخطوب المِحَنُ

وجهُها في كلِّ حينٍ يُلطمُ   كادَ في أعراقها يَفنى الدَّمُ

عصرتْ عنقودَها كفُّ الخُطوبْ   ذكرُ هارون وموسى في القلوب

إنْ خبا في اللَّحن منها قبَسُ   لم يزل في الصَّدر منها نفَسُ

سار في إثر الجدود المحملُ   حينما انفضَّ لديها المَحفلُ

يا من انفض له جمعٌ وجاه   وخبا في صدره شمعُ الحياه

آيةَ التوحيد في القلب اسطُرا   ومنَ التقليد أمسك بالعُرا

اجتهادٌ في زمان القهقرى   يذهبُ الأقوامَ منه شذرا

اقتداءٌ برسومِ الأوَّلين   هو أولى ، لا اجتهاد الغافلين

لم يُصبْ آباؤنا بالهَوَسِ   طهُرتْ أعمالُهم كالأنفُسِ

فكْرُهُم كان رقيقاً مرهَفا   فعلهمُ أوفى بشرعِ المصطفى

فِكَرُ الرازي ونجوى جعفر   أينَ ؟ والعُربُ هداةُ البشرِ

ضيَّق الدينُ علينا يسرَه   وادَّعى كلُّ لئيم سِرَّه

قد جهلت الدِّين عنه حائدا   الْزَمَنْ يا حُرُّ نهجاً واحدا

باحَ لي بالسرِّ نبَّاضُ الحياه   إنَّما في الخلف مقراضُ الحياه[2]

وحدةُ الشرع حياةُ الأمة   فمن القرآن روحُ الملَّة

نحنُ طينٌ وهو قلبٌ لا جَرَمْ   هو « حبلُ الله » من شاء اعتصَم

= الشجر أيام الخريف إيراقه وإثماره في الربيع ، ولا يقطعه أو يهمله .

(١) إن قلَّ الماء في نهرك فاحتفظ بالنهر عسى أن تأتيه السيول بالماء فيزخر مرةً أخرى .

(٢) كلمتا نبَّاض ومقراض في الأصل .

فـانتظـمْ فـي سلكـه كـالـدُّررِ   أو غبـاراً فـي الـرِّيـاح انتشـرِ

* * *

في بيان أنَّ كمال سيرة الأمَّة من اتِّباع الشَّرع الإلهي

لا تقلْ في الشرع معنًى مُضمرُ   ليسَ إلَّا النورَ تحوي الدُّرَرُ
جوهرٌ أبدعَ فيهِ القادرُ   جوهرٌ باطنه والظاهرُ
ليس علمُ الحقِّ غيرَ الشِّرْعة   ليس غيرَ الحبِّ أصلُ السنَّة
شرعُنا للفرد مِرقاةُ اليقينْ   ترتقي منه مقاماتُ اليقين[1]
شِرعةُ الحقِّ نظامُ الأمم   ومن النَّظم دوام الأمم
إنَّ فيه الأيد يا من أخلَصا   اليدُ البيضاءُ فيهِ والعصا
قامَ للإسلام بالشَّرعِ قوام   بدؤه الشَّرعُ وبالشَّرع الختام
لكَ أيدِي نكتةَ الشَّرع المبين   أنتَ مَن في حِكْمةِ الدِّين أمينْ :
إنْ يعارِض ذو عنادٍ مسلما   في أداءِ النَّفل ما إنْ لزما
صارَ هذا النفلُ فرضُ الأمة   فالحياةُ الحقُّ عينُ القدرة
وإذا جيشُ عدوٌّ في الوغى   ترك الإعدادَ والسِّلمَ بَغى
وقضى أوقاتَه في الدَّعة   تاركاً لِلْحَرْبِ أخذَ العُدَّة
فحرامٌ أخذه بالبغتة   قَبْلَ أن يأخذ كلَّ الأهْبَةِ
سرُّ هذا الأمر يا ذا البصر :   « الحياةُ العيشُ بين الخَطرِ »
يتحدَّاك برضوى العاليه   في امتحانِ لِقِواكَ العاتيه[2]
ويناديك أن اقصمْ ظهرها   وبحدِّ السيف فاصهرْ صخرها
ليس كفءَ الليث في صولته   حَمَلٌ يرجفُ في ذلَّته

---

(١) مرقاة اليقين ومقلمات اليقين في الأصل بلفظهما العربي .

(٢) في الأصل : جبل ألوند . واستبدلت به رضوى في الترجمة .

إنْ حكى الصَّعوةَ صقرٌ كاسِرُ فهْوَ كالصَّعوة واهٍ خائِرُ
كتبَ الشارعُ ربُّ الحكمة لكَ هذا اللوحَ ، لوحَ القُدْرَة
يَشْحذُ العزم بنارِ العمل ويرقِّيكَ لأعلى مَنْزِل
وإذا تَلْغَبُ يعطيك القُوى ويربِّي منك طوداً ما خَوى
إنَّ دين المصطفى دينُ الحياه شَرْعُه للنَّاس قانون الحياه
إنْ تكنْ أرضاً يصيِّركَ السَّماءْ ويربِّيك كما الحقُّ يشاءْ
يصقل المرآةَ مِنْ صخرٍ شديد وينقِّي الرَّينَ منْ قلبِ الحديدْ
ضيَّع القومُ شعارَ المصطفى ضيَّعوا رَمز بقاءٍ عُرِفا
ذلك الغصن العسِيُّ المعتلي مُسلمُ الصَّحراء ربُّ الجَمَلِ
الذي البطحاء أزكتْ غَرْسَهُ ورياحُ البيد ربَّت نفسَه
أذْبَلَتْهُ اليومَ ريحُ العَجم صيَّرته النايَ روحُ العَجَمِ
قاتلُ الآساد ذبحَ الغنم وطءُ نملٍ مسَّه بالألم
من أذابَ الصَّخرَ من تكبيره راعه البلبل في تصفيره
من علا الطودَ سريعاً مُصعِدا غلَّ بالتُّكلان رجلاً ويدا
من برى الأعناق ضرباً عَضبُه يَلْدِمُ الصَّدر ويَدمَىٰ قلبُه
مُوقظ الآفاق مِنْ خطْواتِه قُيِّدت رجلاه في خَلْواته
منْ أطاع الناسُ طرّاً أمرَه واجتدى دارا وكسرى برَّه
رضي القُنع وأكدَى جِدُّه وارتضى الكِدْيةَ عِزّاً جَدُّه
شيخنا أحمدُ[1] منْ في قُرْبه تكسبُ الشَّمسُ سناً في قلبه
قال يوماً لمريدٍ فهمِ احذرنْ يا صاح فكرَ العجمِ
فكرُهم إنْ كان للنَّجم ارتقى فهْو منْ سُنتنا قد مرَقَا

---

(١) هو الشيخ أبو العباس أحمد الرفاعي ، صوفيٌّ عراقيٌّ من كبار الصوفية ، مؤسس الطريقة الرِّفاعية ، انضمَّ إليها خلقٌ كثيرٌ من الفقراء ، كان له به اعتقادٌ كبير ، توفي سنة (٥٧٧هـ) (١١٨٢م) .

يــا أخـي فــاسمـعْ لهـذا الـرَّشَـدِ   استمـع نُصْـحَ الإمـام المُـرشِـد
وبهـــذا الحـــقِّ فـــاشـــدُد قلبكـــا   واتبـع العُـزبَ تُصِـبْ شِـرعَتكـا

***

في بيان أنَّ حُسْنَ سيرة الأمَّة منَ التأدُّب بالآداب المحمَّدية

ســـائـــلٌ مثـــل قضـــاءٍ مُبْـــرَم   صـاحَ بـالبـابِ بصـوتٍ مُبـرِم[1]
بـــالعصـــا صُلـــت عليـــه غضبـــا   فهــوَى مــنْ يَــده مــا قشبــا[2]
إنَّ هـذا العقـلَ فـي شـرْخِ الشَّبـابْ   لا يبـــالـــي بضـــلالٍ وصـــوابْ
ورأى الـــوالـــدُ فعلـــي فنفـــر   وذوى فــي وجهــه روضُ الـزَّهـر
آهـــــةٌ فـــــي فمـــــه تلتهـــــب   قلبُـــه فـــي صَـــدْرِه يَضْطـــرب
كـــوكـــبٌ فـــي عينـــه قـــد ومضـــا   نـــوَّر الهُـــدبَ قليـــلاً ومضـــى[3]
روحـيَ الغـافـلُ فـي الجسـم ارتعـدْ   ومضـى الصَّبـرُ وخـلاَّنـي الجلَـدْ
مثـلَ فـرْخٍ فـي الخـريـف انتفضـا   مـنْ ريـاح اللَّيـل فـي العُـشِّ قضَـى
قـال لـي الـوالـد : يـومَ المحشـر   تلتقـــي أمَّـــةُ خيـــر البشـــرِ
الغُـــزاة الغـــرُّ مـــنْ أمَّتـــه   وأولـــو الميـــراث مـــن حِكمتـــه
والنجـومُ الـزُّهْـرُ أربـابُ الصَّفـاء   حجـةُ الـدِّيـن فـريـقُ الشُّهـداءُ
وأولـو العلـم وأربـابُ القلـوب   وأولـو الزُّهـد وأصحـاب الذُّنـوب
وعـــلا فـــي لـــجِّ هـــذا المحشـــر   صـوتُ هـذا السـائـل المنكسـرِ

---

(١) وقعت هذه القصة في سيالكوت بلد إقبال وقصَّها على الناس كثيراً . ومبرم في آخر البيت بمعنى ممل .
(٢) قشب : جمع وكسب .
(٣) يعني دمعت عينه ، علق الدَّمع بأهدابه ثم سقط .

أيها الحائر في ذا الموكب ! ما جوابي حين يلحاني النَّبي :
« قد حباك الحقُّ طفلاً مسلما لم تُنلْه من كتابي مغنما
هيَّن الأشياء قد شقَّ عليك لم يَصِرْ ذا الطِّينُ إنساناً لديك[1] »
وأنا في العَتْب من خير الرُّسُلْ بين خوف ورجاء وخجَلْ
أفكِرنْ في الأمر واذكر يا بُنيّ أمةَ المختار إذ ترنو إليّ
لحيتي البيضاء في الحشر انظرِ رِعدتي في الخوف والحزن اذكرِ
لا تزد عبء أبيك الوَهنِ عند مولاي غداً لا تُخزِني
أنت كِمٌّ في فروع المصطَفى فتفتَّح في ربيع المصطفى
نظرةً من روضهِ فالتمسِ وسناً من خُلْقه فاقتبسِ
مرشدُ الرُّوم الذي قطرتُه قد حوت بحراً ، سَمَتْ قولته :[2]
« لا تجذَّ الحبل من خير البشرْ لا تقل عندي فنون وبَصر »
فطرةُ المسلم طرّاً رأفةُ قوله والفعل كلٌّ رحمةُ
العظيمُ الخُلْق منْ شقَّ القمر رحمةٌ عمَّت ونُورٌ للبشر
لستَ منْ معشَرنا فاعتزلِ إنْ تكنْ منه بعيدَ المنزلِ
طائرٌ أنت على دَوْحتنا شذْوُه واللَّحنُ منْ نغمتنا
إنْ تكنْ ذا نغمةٍ لا تُفرد بسوى بستاننا لا تُغْردِ[3]
كلُّ من أوتي حظّاً منْ حياه في سوى بيئته يلقى رداه
بلبلٌ أنتَ ؟ ففي الرَّوض امرَح ومع السِّرْب بلحن فاصدَحِ
إنْ تكنْ صقراً فلا تغش البحَارْ ليس إلا خلوةَ الصَّحراء دار[4]

---

(١) هذا قول النبي لوالد إقبال في المحشر .
(٢) جلال الدين الرومي . وما بين القوسين من ديوانه المثنوي .
(٣) أغرد : أطرب بالتغريد .
(٤) الصقر يعيش في الصحراء ، والبلبل بين الأشجار فليلزم كل بيئته .

أو تكن نجماً فنوِّر في سَماك لا يكن مَسراك إلا في الحِباك

***

قطرَ نيسانَ اجمعنْ إنْ تردِ واجعلنْ في الروض مأواه النَّدِي(١)
لتراهُ مثلَ قطراتِ النَّدى تحضنُ الأكمامُ منها ولدا
وانشِف الأنداء منْ جوهرها واسلبِ اللألاء منْ عنصرها
بشُعاعِ الصُّبحِ وضَّاء البُكر الذي من سحره ينمو الزَّهَر(٢)
لن ترى دُرَّك إلا كالحبَاب لنْ ترى سَعْيَكَ إلا في سرابْ
ألقِها في اليمّ تُعْقَدْ جوهرا ماؤها يسطعُ نجماً نيِّرا
قطرُ نيسان عن اليمِّ نأى لجفافٍ . لن تراه لؤلؤا

***

طينةُ المسلم درٌّ يا بُنيّ ماؤها والنُّورُ منْ بحر النَّبيّ
قطرَ نيسان ! فغُصْ في موجه وابرزنْ ، درّاً صَفَا ، من لجه
صاح ! من شمس الضُّحى كن أنورا كن ضياءً ليس يخبو الدَّهَرا

***

في بيان أنَّ حياة الأمَّة تحتاج إلى مركزٍ محسوس وأنَّ مركز الأمَّة الإسلاميَّة البيت الحرام

عقدةٌ تنحلُّ منْ أمر الحياه حين أفشي لكَ منْ سرِّ الحياه :
كخيالٍ جَفَلتْ من نفسها حُرَّةٌ قد نفرت من حبسها(٣)

---

(١) مطر شهر نيسان الذي ينشأ منه اللؤلؤ في ظن القدماء .
(٢) متصل بالبيت الذي قبله ؛ أي : انشف الماء بشعاع الصبح .
(٣) الأوصاف في هذا البيت وما بعده أوصاف الحياة .

وقتُهـا مـا فيـه أمـسٌ وغـدُ ... فـي دُنَـى الأوقـات ليسـت تُصْفَـدُ
أنظـرنْ نفسَـك حينـاً واعتبـرْ ... لسـتَ إلَّا جَـوَلانـاً يستمـرّ
شعلـةٌ فيهـا أعـدَّت سِتْـرهـا ... مـنْ دخـانٍ فـأشـاعـت سـرَّهـا
مـاؤُهـا قـد عقـدتـه فـي دُررْ ... ليُـرى السَّيـرُ سكـونـاً فـي النَّظـر
نـارُهـا فـي نفسهـا تُخفـي الحـريـق ... وتُرَى في الغُصْن أزهارَ الشقيق[١]
فكـرُكَ العـاجـزُ عنهـا أوهِمـا ... طيـرانَ اللَّـون وَرداً جُسِّمـا[٢]
مـا أوى للعُـشِّ هـذا الطـائـرُ ... هـو طيْـرٌ وهْـو لـون طـائـر[٣]
هـو حـرٌّ وحـواه مَحبِـسُ ... وهـو فـي النَّـوح لحونـاً يَنبُس[٤]
ريشُـه ينسـلُ طيـراً كـلَّ حيـنْ ... يخلـقُ الأسبـابَ منـه كـلَّ حيـن
عُقـداً تعقـد فـي أعمـالهـا ... وتحـلُّ العقـد فـي تجـوالهـا
تسكـنُ الطِّيـن علـى إسـراعهـا ... لتـزيـد السَّيـر فـي إهطـاعهـا[٥]
كـم لحـونٍ فـي جـواهـا رُقَّـدِ ... يـومُهـا ميـلادُ أمـسٍ وغـدِ
فـي سهـولٍ كـلَّ حيـنٍ وحـزونْ ... كـلَّ حيـن فـي اختـراعٍ وفنـون
إنْ تكـنْ كـالـرِّيـح تـأبـى محبسـا ... تنـزلُ الصَّـدر فتُـدعـى نَفَسـا
حـولَهـا مـنْ خيطهـا نـاسجـة ... حـولَهـا مِـنْ خيطهـا عـاقـدة
هـي فـي العُقْـدة مثـلُ الحبَّـة ... مضمـرٌ فيهـا فـروعُ الـدَّوحـةِ
تفتـحُ العَيْـنَ علـى مـا تُضمـر ... فـإذا الـدَّوحـة منهـا تَظهـر

---

(١) نار الحياة تخفي حرها ، وتظهر أعراضها في مظاهرها . ومثل الشاعر بأزهار الشقيق التي جعلها الشعراء مثلاً للالتهاب .

(٢) الحياة حركةٌ دائمة يتوهمها الإنسان ثابتة . يقول إقبال : الفكر العاجز عن إدراك الحياة يرى جسماً يسميه ورداً وليس هو في الحق إلا لوناً في طيران مستمر .

(٣) الطير : الطيران . والحياة طيران ولون طائر . لا ثبات لها ، ولا تستقر في عش .

(٤) الحياة مقيدة بأشكال وهي في الحقيقة لا تحويها هذه الأشكال . ونوحها وغناؤها متصلان .

(٥) تضع نفسها في الطين (تزرع وتغرس) لا لتسكن فيه بل تزيد إسراعاً في سيرها .

خلعـةُ الطِّيـن عليهـا تُـرفَـد ... فـإذا عيـنٌ وقلـبٌ ويـدُ[1]

تـؤثـر الخلـوةَ فـي الجسـم الحيـاه ... وتجلَّـى نشـأةَ العـمِّ الحيـاه[2]

هكـذا سنَّـة ميـلاد الأمـم ... مـركـزٌ فيـه حيـاةٌ تنتظـم[3]

إنَّمـا المـركـز روحُ الـدائـرة ... نقطـةٌ ، فيهـا محيـطٌ ، ضـامـره

ومِـنَ المـركـزِ للقـوم نِظـام ... وَمِـنَ المـركـز لِلْقَـوْم دوام

نقطـة المـركـز منَّـا الحَـرمُ ... لحنُنـا والـوجـدُ فينـا الحـرمُ

نفَـسٌ فـي صَـدْرِنـا يتَّقـد ... روحنـا الغـالـي ، ونحـن الجسـد

مِـنْ نـداه نَضَـرت أغصـاننـا ... حَـيَّ مـن زمـزمـه بستـانُنـا

نحـنُ مِـنْ دعـواه فـي الـدنيـا دليـل ... نحـنُ فيـه مـن بـراهيـن الخليـلْ[4]

صـوتنـا ينـدَى بـه فـي الأمـم ... واصـلاً مُحـدَثَنـا بـالقـدمِ

وحَّـد الملَّـة طـوفٌ حـولـه ... فهـي صُبـح قـد حـوى صـدرٌ لـه

وُحِّـدت فـي حَسْبـه كثـرتُنـا ... أُحكِمـت مـنْ وحـدةٍ قـوتُنـا[5]

إنَّ فـي الجمـع حيـاةَ الأمـمِ ... إنَّ هـذا الجمـع سـرُّ الحـرَم

* * *

أيُّهـا المسلـمُ يـا ذا البَصـر ! ... قـومُ مـوسـى عبـرةٌ فـاعتبـرِ

زهـدوا فـي مـركـزٍ قـد جمَّعـا ... فتـراهـم فـي البـرايـا قطعـا[6]

يـا عليـلاً شـاكيـاً جـورَ الـزَّمـن ... يـا أسيـراً غَلُّـه وهـم وظـنّ

---

(١) الحياة تلبس الطين فتراها حيواناً له عين . . إلخ .

(٢) العمّ : الجماعة الكثيرة .

(٣) تولد الأمة حين تجمع الحياة في مركز معين ، في شريعة ، أو قانون ، أو مقصد .

(٤) الخليل : إبراهيم . نحن الدليل على صدق ما يدعي للحرم من أنه يجمع الناس ، ويكون مركز الأمة . ونحن برهان على تحقيق ما أمله الخليل في الحرم .

(٥) في حساب الحرم كثرتنا وحدة . وبهذه الوحدة تستحكم قوتنا .

(٦) حذفت هنا أبيات في وصف اليهود .

اجعلــن ثــوبــك ثــوب المحــرِم　　أطلِــع الصُّبــحَ بليــلٍ مُظلــم
افْــنَ كــالآبــاء مــا بيــن السجــود　　اسجدنْ حتى تُرى عينَ السجود[1]
مــن خشــوع المسلميــن الأوليــن　　سيطــروا بــالحــقِّ بيــن العــالميــن
فــي سبيــل الحــقِّ شــوكــاً وطئــوا　　فــإذا الــروضــةُ هــذا المــوطَــأُ

* * *

في بيان أنَّ الاجتماع الحقيقي من الاستمساك بمقصد ، ومقصد الأمَّة الإسلاميَّة حفظُ التَّوحيدِ ونشرُه

اعــرفــنْ عنِّــي لســانَ الكــائنــاتْ　　ففعــالُ الكــون فيهــا كلمــات
ينظــمُ المقصــدُ أشتــاتَ الحيــاه　　فتــراهــا « مطلعــاً » راع الــرواه[2]
طِــرفُنــا مــن تحــت مهمــازِ الطَّلــبْ　　صــرصــرٌ مــا نــدَّ عنــه مــن أربْ
إنمــا يُبقــي الحيــاةَ المقصــدُ　　هــو أشتــات قُــواهــا يَنضِــدُ
حينمــا تــدري الحيــاةُ المطلبــا　　تجعــل الكــونَ إليــه سببــا
وبــه الأشيــاءُ طــرّاً تنقــد　　فتــردَّ الشــيء أو تعتقــد[3]
يُبحــر الــرُّبــان أجــلَ الســاحــلِ　　وإلــى المنــزل سَيــرُ السَّــابــل
وعلــى قلــبِ الفــراش الحُــرَقُ　　لســراجٍ حــولــه يحتــرقُ[4]
طــاف قيــسٌ فــي الصحــارى ولَهــا　　قــاصــداً ليــلاه يــرجــو وَصْلهــا
مــا اقتفينــا فــي الصَّحــارى أثــرا　　مُنــذ ليــلانــا أقــامــت فــي القُــرى

---

(١) السجود الأول جمع ساجد .
(٢) المطلع هنا مطلع القصيدة .
(٣) اعتقد المال : اقتناه . إذا عرف الإنسان مقصده نقد به الأشياء ، فرد بعضها ، وأخذ بعضها .
(٤) يذكر أمثلة من المقاصد : الساحل للسائر في البحر ، والمنزل للسائر في البر ، والاحتراق للفراش ، وليل لقيس .

إنمـــا المقصـــودُ روحُ العمـــلِ ... كيفَــه والكـــمَّ منـــه تجتلـــي[1]
دوَران الـــدَّم فـــي أعـــراقنـــا ... مســرعٌ بــالجــدِّ فــي أغـراضنــا
الحيـــاةُ الحـــقُّ منـــه تستعِـــرْ ... تجمـع النَّـار بـه مثـلَ الشَّقِـرْ[2]
هـــو مضـــرابٌ لعُـــودِ الهمَّـــة ... مـــركـــزٌ يَجـــذبُ كـــلَّ القـــوَّةِ
حـرَّكَ الأعضـاء فـي ركـب البشـر ... جـامعـاً شتَّـى عيـونٍ فـي نظـر[3]
فكـنِ المجنـونَ فـي هـذا الحبيـبْ ... طُـفْ بـه طـوف فـراشٍ بـاللهيـبْ
أبـــدعَ القمـــيُّ فيمـــا أسمعـــا ... علَّـم الأوتـار معنـىً مُبـدَعـا[4]
رامَ نَقْـــشَ الشَّـــوك حينـــاً رَجِـــلُ ... فـاختفـى عـن نـاظـريـه المحمَـل
لحظـــةً يـــا صـــاحبـــي إن تغفُـــلِ ... ألـــفَ ميـــلٍ زاد بُعـــدُ المنـــزلِ
ذاكـــمُ العـــالَـــمُ دَيـــرٌ قـــدُمـــا ... بـــامتـــزاج الأمَّهـــاتِ انتظمـــا[5]
كـــم وكَـــم يُنبـــت مـــن مقصبـــةِ ... ليـــراعٍ فيـــه نـــار النَّـــوحـــةِ
كـــم تـــدمَّـــت مـــن يـــديـــه روضـــةُ ... لتـــربَّـــى مِـــنْ شقيـــقٍ زهـــرةُ[6]
كـــم تُـــرى نقشـــاً وكـــم تمحـــو يـــداه ... ليُـــرَى نقشُـــك فـــي لـــوحِ الحيـــاه
كـــم مـــن الأرواح بُـــثَّـــت أنَّـــةُ ... لتَعَـــالَـــى مـــن أذانٍ نغمـــةُ[7]

---

(١) يتبين للعمل كيفه وكمه من مقصوده .
(٢) الشقر : الشقائق . والضمير يعود إلى المقصود الحياة تستعر به . وتجمع في نفسها ناراً كما تجمع الشقائق النار ، في خيال الشعراء .
(٣) يجمع الأعين المختلفة على نظر واحد .
(٤) القمي : ملك القمي الشاعر . والإشارة إلى بيت له معناه .
« ذهبت لأنقش الشوك من قدمي فاختفى المحمل عن عيني . غفلت لحظة فبعدت طريقي مئة سنة » .
(٥) امتزاج الأمهات اختلاط العناصر . والتركيب بلفظه العربي في الأصل .
(٦) هذا البيت والذي قبله بيت واحد في الأصل . والمعنى أنَّ التكمل في العالم شاقٌّ أليمٌ ينبت غابات من أجل نغمة ناي ويخرب روضات من أجل زهرة ، وقد تقدَّم هذا أول الكتاب .
(٧) تعالى : تتعالى .

ورجــالَ الــزور دهــراً ربَّبــا — وعلــى الأحــرار والَــى الحَــرَبــا
ثــمَّ فــي طينــك إيمــانــاً بــذر — كِلْمــةَ التــوحيــد مــن فيــك نَشَــرْ
نقطــةٌ دارَ عليهــا العــالَــمُ — كلمــةٌ صــار إليهــا العــالَــم
قــوةٌ فيهــا تُــديــر الفَلَكــا — وبهــا الشمــسُ تُنيــرُ الحَلكــا
لــؤلــؤ البحــر نمــى مــنْ نــورهــا — بــه المــوجُ طمــا مــنْ نــورهــا
نَفحُهــا صيَّــر طينــاً سنبُــلا — وَجــدُهــا صيَّــر ريشــاً بلبــلا[1]
فــي عــروقِ الكَــرْمِ منهــا شُعلــة — وبطيــن الكــأس منهــا لمعــةُ
لحنهــا فــي مِــزْهَــر الكَــون استتــر — أيهــا العــازفُ! يــدعــوك الــوتَــر
نغمــاتٌ فيــك تَســري كــالــدَّمِ — أعمــلِ المضــرابَ فــي ذا النغَــم
كِلْمــةُ التَّــوحيــد منــك المقصــدُ — أنــت للتكبيــر فيهــا تــوجَــدُ[2]
الجهــاد المــرُّ حِلــفُ المسلــم — أو يُــدوِّي الحــقُّ بيــنَ الأمــمِ
أنــتَ لا تــدري بــآيــات الكتــابْ — أمــةَ العَــدْل يسمِّينــا الخطــاب
أنــتَ فــي الأيــام نــورٌ وبصــرْ — شــاهــدٌ أنــتَ علــى كــلِّ البشــر[3]
ادعــوَنْ كــلَّ لبيــبٍ ، أبلــغِ — وعــن الأمّــيِّ قــولًا بلِّــغ
قــولــه مــا فيــه نُطــقٌ عــنْ هــوَى — صــادقٌ مــا ضــلَّ يــومــاً أو غــوى[4]
نبْضَ هــذا الكــون قــد جسَّــت يــداه — فتجلَّــى ســرُّ تقــويــم الحيــاه
نضَّــرَ الأزهــار فــي رَوض الــدَّهَــر — ومحــا الأدنــاسَ عنهــا والكــدَرْ
دينُــه فيــه الحيــاةُ الخــالــده — لا تــراهــا عــنْ هُــداهُ حــائــده
أيهــا التــالــي الكتــابِ المنــزَل — شمِّــرنْ ، لا تقعُــدنْ عــنْ عمــلِ

---

(١) السنبل : نبات طيب الرائحة .

(٢) فيها : في الدنيا .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

(٤) إشارة إلى الآيات : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم : ١ ـ ٣] .

يعشـق الأصنـامَ عقـلُ الأمـم ... نـاحـتٌ أو عـابـدٌ للصَّنـم
هـو أحيـا سُنّـةً مـن آزرا ... محـدِثـاً فيهـا إلهـاً للـورىٰ
اسمـه لـونٌ ودارٌ ونسـب ... هـو مـن سفـك دمـاء فـي طـربْ[1]
وعَلَـى أقـدام هـذا الصَّنـمِ ... ذُبِـحَ الإنسـانُ ذَبْـحَ الغنـمِ
أيهـا الشـاربُ مـن كـاس الخليـلْ ! ... يا حميَّ النفْس من طاس الخليل !
سيـفَ « لا مـوجـود إلا هـوْ » خُـذِ ... وبـه الأصنـام هـذي فـاجـذُذِ
فـي ظـلام الـدَّهـر أشـرِق للمـلا ... وانشـرنْ حقّـاً عليـكَ اكتمـلا[2]
خجلتَـا لـك فـي اليـوم العسيـرْ ... حينمـا يسـألـك الهـادي البشيـرْ :
قـد أخـذت الحـقَّ عنِّـي مـا دهـاك ... لـم تبلِّغـه بحـقٍّ لسـواك !

***

في بيان أنَّ توسيع حياة الأمَّة بتسخير قوى العالَم

مـؤمنـاً بـالغيـبِ غيـر الغـافـل ... كـارهـاً كـالسَّيـل قيـدَ السَّاحـل!
اعـلُ عـن ذا الطِّيـن غصنـاً نـاضـرا ... وصِـلِ الغـائـبَ واغـزُ الحـاضـرا
ذلـك الحـاضـرُ تفسيـر الغيـوبْ ... وهــو مفتـاحٌ لتسخيـر الغُيـوبْ
مـا سـوى اللهِ لتسخيـرِ العمـلْ ... صَـدرُه للـرَّمـي ، فـاقـذِف لا تُبَـلْ
مـا سـوى اللهِ تـراه يُخلـق ... لتـرى سهمَـك فيـه يمـرُق[3]
عقـدةٌ تلقـاك بَعْـدَ العُقـدةِ ... ليُـرَى فـي الحـلّ لُطـفُ الحيلـة
فسِّـرَنْ يـا كِـمٌّ ! روضـاً نفسكـا ... سخِّـرَنْ يـا طـلُّ ! ذي الشمـس لكـا
مـن يسخِّـر عـالَـم الحـسّ سمـا ... ومـن الـذَّرَّة يُخـرجْ عـالَمـا

---

(١) يعبد الناس في هذا العصر عصبية الأنساب والأوطان ، فيسفكون الدماء .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] .

(٣) في الأبيات المتقدمة دعوة إلى تسخير عالم الحس ، وبيان أنَّ هذا التسخير يؤدي إلى معرفة عالم الغيب .

كلُّ ما في الكون من بحرٍ وبرّ ... لوحُ تعليمٍ لأربابِ النَّظر

أيُّها النائمُ طالت غفلتهْ ... عالَم الحسِّ جفته همَّتُهْ

قُمْ وفتِّح بصراً قد سُكِّرَا ... لا تحقِّر عالَماً قد حُقِّرا

إنَّه توسيعُ ذاتِ المسلم ... وامتحانٌ لصفاتِ المسلِم

هو يبلوك بسَيف الزَّمنِ ... لترى أنَّ دماً في البدَن

اضربِ الصَّدر بقهر القوَّةِ ... اختبرْ عظمَك في ذي الصَّدمة

جعل الحقُّ الدُّنَى للخيِّرين ... وجلاها لعيون المؤمنين

هذه الدُّنيا طريقُ الظَّعَنِ ... هذه الدُّنيا محكُّ المؤمنِ

فأسِرَنْها قبلَ أن تأسركا ... لا تُضِعْ في جوفها جوهرَكا

أدهِمُ الفكر الذي يطوي الفضاء ... والذي يجتازُ آفاقَ السَّماء

ساقَه في الكونِ حاجاتُ الحياه ... فهو في الأرض وفي النَّجم خُطاه

يبتغي في الكون تسخير القوى ... لتُرى فيه بأعلَى مُسْتوى

نائبُ الحقِّ، بحقٍّ آدمُ ... حكمه في الأرض ماضٍ حاكِم[1]

لكَ منْ ضيقكَ، منها سعةٌ ... ولأعمالك فيها فسحةُ

صهوةَ الرِّيحِ اعلُوَنْها آمرا ... ألْجمَنْ هذا الجوادَ النَّافرا

شقَّ قلب الطَّوْدِ عن جوهره ... شقَّ موجَ البحر عن درٍّ به

ألفُ كون في فضاء تُكفَتُ ... رُبَّ شمسٍ قد حوتها ذرَّةُ

بشعاعٍ أظهرنْ ما احتجبا ... واكشفَنْ عنْ كلِّ سرٍّ حُجبا

من شُعاع الشَّمس ناراً فاقبِسِ ... ومنَ السَّيلِ بروقاً فاخلِسِ[2]

ثابتُ الأنجم أو سيَّارُها ... التي قد عُبدتْ أنوارُها

كلُّها يا صاحِ عُبدانٌ لكا ... وإماءٌ سُخِّرتْ من أجلِكا

سيِّرنْ فكرك فيها عسَسا ... سخِّرن آفاقها والأنفُسا

---

(١) يعني أنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض بالحقِّ، وحكمه فيها نافذ .

(٢) استخرج الكهرباء من سيل الماء .

افتـــح العيـــنَ وأنعِـــمْ نظَـــرا أبصـرن فـي الـراح معنىً مُضمَـرا

كـم ضعيـفٍ فـي قـويٍّ أمَـرَا حيـن فـي الكـون أجـال البصـرا

أيُّها المقصود من أمرٍ ﴿ انظروا ﴾ كيـف فـي آفـاقهـا لا تنظـر ؟[1]

قطـرةٌ مـن نفسِهـا ذاتُ خَبَـرْ خمرةٌ في الكرم ، طلٌّ في الزَّهَر

وهـي فـي البحـر تـراهـا جـوهـرا جـوهـراً كـالنَّجـم في الليـل سرى

كـالصَّبـا لا تهـفُ حـولَ الصُّـوَرِ اطلبـنْ فـي الـروض معنـى الـزَّهَـرِ

دون مضـرابٍ لِحـونـاً سيِّـرا ومـن الأحـرف طيْـراً طيِّـرا[2]

أيُّهـا الظَّـالـع فـي حَـزْنِ الحياه أيُّهـا الغـافـل عـنْ طعـنِ الحيـاة

بلَّـغ السَّعـيُ الـرفـاقَ المنـزلا أنـزَلـوا ليلـى وحَطّـوا المحمـلا

وبقيـتَ اليـوم قيسـاً مبلسـا فـي الصحـارى عـاجـزاً مستيئسـا

« علَّـمَ الأسمـاءَ » فخـرُ الآدمـيّ[3] حكمـةُ الأشيـاء نصـرُ الآدمـيّ

***

في بيان أنَّ كمال حياة الأمَّة أن تشعر بنفسها كالأفراد وأنَّ توليد هذا الشعور وتكميله ، من الاحتفاظ بسنن الأمَّة ورواياتها

أرأيـتَ الطفـلَ يـا ذا البَصَـرِ ! مـا لـه عـنْ نفسـهِ مـن خبـرِ

ليـس يـدري مـا قـريـبٌ وبَعيـدْ كـرةَ النَّجـم بكفَّيـه يـريـد

مـا سـوى الأمِّ يـرى منـه الجفـاءْ همُّـه أكـلٌ ونـومٌ وبكـاء

ليـس تـدري أذنُـه مـا النغمـةُ لحنُـه ثـورتُـه والضجَّـةُ

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] .

(٢) إشارة إلى آلات البرق ، والهاتف ونحوها .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

فكـــره غُفَـــلٌ ضعيـــفُ الأثـــرِ … قـــولُـــه فيـــه صفـــاءُ الجـــوهـــرِ

ليـــس فـــي تفكيـــره إلا الســـؤالْ … أين ؟ أنَّى ؟ ومتى ؟ في كلِّ حال

كـــلُّ نقـــشٍ عنـــده ينطبـــعُ … وهـــو كـــلٌّ غيـــرَه يتَّبـــع

عينـــه إمَّـــا بكـــفٍّ تُطبـــق … تتنـــزَّى روحُـــه فـــي قلَـــقِ

فِكْـــرُه فـــي الجـــوِّ واهٍ حـــذرُ … كصُقَيـــرٍ لاصطيـــادٍ يُجبـــرُ

خلـــف صيـــدٍ فـــي حِـــذَار يُـــرسلُـــه … ثُـــمَّ يـــدعـــوه إليـــه يُعجلـــه[1]

ثـــم غشَّـــاه لهيـــبُ الفِكَـــرِ … فـــرَمَـــى خُـــذروفُـــه بـــالشَّـــرر[2]

فتـــــراه عينُـــــه مُشْتعلنـــــا … فيـــدقُّ الصَّـــدر يعني : هـــا أنـــا[3]

ومـــنَ الـــذِّكـــرى ينمِّـــي نفسَـــه … غـــدَه يـــربـــطُ فيـــه أمسَـــه

ينظـــمُ الأيـــامَ خيـــطُ الـــذّهـــبِ … نسَـــقَ الـــدرِّ بسمـــطٍ مُعجِـــب

جسمـــه يُـــرمِـــي ويُكـــري قـــائـــلا : … مثـــل مـــا كنـــتُ أرانـــي مـــاثـــلا[4]

« أنـــا » هـــذي بـــدءُ مقصـــود الحيـــاه … اليقظـــة فـــي عـــود الحيـــاه

مثَـــلُ الأمَّـــة حيـــن النَّشـــأةِ … مثـــلُ الطِّفـــل ضعيـــفَ المُنَّـــة

هـــي طفـــلٌ نفسَـــه لا يعـــرفُ … جـــوهـــرٌ غشَّـــى عليـــه الصَّـــدَفُ

يـــومُـــه بـــالغـــدِ لـــم يـــوصـــلْ ولا … بصبـــاحٍ ومســـاءٍ سُلســـلا

وبعيْـــنِ الكـــون إنســـانـــاً يُـــرَى … كـــلَّ شـــيءٍ مـــا عـــداه أبصـــرا[5]

---

(١) كالصقر الصغير الذي يُعلَّم الصيد ، يتلطف صاحبه في إطلاقه وراء الصيد ودعوته إلى الرجوع .

(٢) ثم يعلق التفكير به فيرمي فكره بشرر كما تدار جمرة النار في خذروف فيتطاير منها الشرر . وفي الأصل « زرجك » وهي لعبة يديرها الصبيان يتطاير منها الشرر . والخذروف قرص يدار بخيط فيسمع له دويّ .

(٣) يدرك الطفل نفسه فيعني بها ويقول ها أنا . وكان يرى غيره لا نفسه .

(٤) يرمي ويكري : يزيد وينقص . يشعر الإنسان بأنه مع تغير جسمه لا تتغير ذاته .

(٥) هي في الكون كإنسان العين يرى كلَّ شيء إلا نفسه ، فهي تقلد وتتبع ولا تعتمد على نفسها .

بَعْـدَ لأيٍ طـرَفُ الخيـط بـدا ... بعـد مـا حلَّـت يـداهـا العُقـدا[1]
فـإذا رازَ قُـواهـا الـدَّهَـرُ ... يتجلَّـى ذا الشعـورُ المضمـرُ[2]
أسطـراً تمحـو ، وأخـرى تسطُـر ... صفحـاتٍ بيـديهـا تَـزبـرُ
يُبلِـس الفـردُ إذا مـا انتشـرا ... عِقْـدُ أيـامٍ عليـه قُـدِّرا
نـورُ قـومٍ مـن مـداد السِّيَـر ... نفسَـه يعـرفُهـا بـالـذِّكَـر
أمـةٌ قـد نسيَـت سيـرتَهـا ... ينسـخُ الـدَّهـرُ غـداً آيتهـا
أنـت سفْـرٌ كتبتـه السِّيـرةُ ... خَيْطُـه أيـامُـك المـوصـولـةُ
ثـوبنـا أيـامُنـا فـي الـزَّمـن ... وخيـاطُ الثَّـوب حفـظُ السُّنن[3]
مـا تـرى يـا غِرُّ تـاريـخ البَشَـرْ ؟ ... قصـةٌ ! أسطـورة ؟ لَهـو سَمَـر ؟
فـي سَنـاه أنـت بـالنفـس بصيرْ ... فـي هـداه أنـت بـالسَّيْـر خبيرْ
إنَّـه أعصـابُ جسـمِ الأمَّـة ... إنَّـه فـي الـروح مثـلُ الشُّعلـةِ
هـو يجلـوك كسيـفٍ مخـذَمِ ... ثـمَّ يـرمـي بـك بيـن الأمـم
أيُّ عـودٍ ذي فنـون تسحَـر ! ... نغمـاتُ الأمـس فيـه تُـؤثَـر
خـامـدُ الشُّعلـة ، فيـه يُشْعـلُ ... يـومُـه لـلأمـس فيـه مـاثِـلُ
شمعـه كـوكـبُ بخـتِ الأمـم ... وسنـا اليـوم وأمـسِ المظلـم
عينـه تُبصـرُ مـا قـد عَبَـرا ... وتُـرى المـاضـيَ حيَّـاً مُحضَـرا
وعتيـقُ الـرَّاح فـي كـاسـاتـه ... وخُمـارُ الأمـس فـي نَشْـواتـهِ
صـائـدٌ يَـرجـعُ فـي أشـراكنـا ... طـائـراً قـد طـار مـن بستـاننـا
فـاذكـر التـاريـخَ واستحكِـمْ بـه ... عِـشْ بـأنفـاسٍ مضـت ، فـي طبِّـه
أحكِمـنْ وُصْلـةَ يـومٍ وغـدِ ... والحيـاةُ امـضِ بهـا طـوعَ اليـدِ

---

(١) تكون كالذي معه خيط معقد يحل عقده حتى يجد طرف الخيط فيمكنه الانتفاع به .

(٢) راز الإنسان الشيء : حاول رفعه ليعرف ثقله .

(٣) الخياط : الإبرة .

وقـــدِ الأيـــام قَســـراً بمِهـــاز   أو فعِـش أعمـى بليـلٍ ونهـاز[1]
صاحِ ! مـنْ مـاضيك تبدو حالُكـا   ومـنَ الحـال بـدا استقبـالُكـا
إن تُـــرِدْ خُلْـــدَ حيـــاةٍ فصِـــلِ   مـا مضـى بـالحـالِ والمستقبَـلِ

* * *

في بيان أنَّ بقاء نوع الإنسان بالأمومة ، وأنَّ حفظ الأمومة واحترامها منْ أصول الإسلام

نغَمـاتُ المـرءِ عَـزْفُ المـرأةِ   هـو مـن محنتهـا فـي عـزَّة
كسـت الـذُّكـرانَ ربَّـاتُ الحجـالْ   إنَّ ثوب العِشْق من نَسجِ الجَمال[2]
عَشَـقُ الحـقِّ رَبـاهُ حِجـرُهـا   ذلـك اللحـنُ حـواه صـدرُهـا
الـذي قـدْ بهَـر الكـونَ سَنـاه   قـرَن الطيـبَ إليهـا والصَّـلاه[3]
جهـلَ القـرآنَ جَهـلاً مُسلـمُ   قـد رآهـا أمـةً لا تُعْظـمُ
إنَّمـا الأمُّ علينـا رحمـةُ   وإلـى الـرُّسْـل لـديهـا نسبـةُ
رأفـةُ المـرسَـل فـي رأفتهـا   سيـرُ الأقـوامِ مـن صنعتِهـا
ومـن الأمِّ علـتْ أقـدارُنـا   وبِسيمـاهـا بـدا مِقـدارنـا[4]
لفظـةُ الأمَّـة فيهـا نُكـتُ   أتُـرى فكـرُكَ فيهـا يَثبـتُ ؟
إنمـا الأمـة مـنْ وصـل الـرحِـمْ   دونـه أمـرُ حيـاة لا يتـمّ
قـال خيـر الخلـق ، وهـو الحجةُ :   تحـت رِجـل الأمّهـاتِ الجنَّـةُ

---

(١) المهار : الزمام .

(٢) إكبارالرجل المرأة وحبها يدعوانه إلى الإقدام والعمل ، وكذلك تهديه المرأة وتلهمه .

(٣) إشارة إلى الأثر : حبب إلي من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عيني في الصلاة .

(٤) المقدار هنا القدر ، أي مستقبل الناس مكتوبٌ في سيما الأم .

كُشفــت بــالأمِّ أســرارُ الحيــاه بخــلال الأمِّ تَسيــارُ الحيــاه
وبهــا فــي نهــرنــا يعلــو العُبــابْ ويــدوم المــوج فيــه والحَبــابْ

* * *

هــذه الغِــرّة بنــتُ القــريــة عَبلــةُ الجِسْــم وغُفْــل السِّحنــة
حيَّــة العَيْــن ، كَهــامُ المِقــوَل دون تعليــمٍ وصقــلِ الصيقــل[1]
أَلَــــم الأمّ عليهــــا يثقُــــل وجهُهــا يُعــربُ عمــا تَحمِــلُ
أمــرنــا يُحكَــمُ مــن آلامهــا صبحُنــا يشــرق مــن إظــلامهــا[2]
إنْ تَهــبْ مــن حِجــرهــا لــلأمَّــةِ مسلمــاً حقّــاً عظيــم النَّجــدةِ
والتــي رقَّــت وخفَّــت مَحمِــلا بــاطــنُ المــرأة فيــه عُطِّــلا[3]
شــعَّ نــور الغَــرب فــي فكــرتهــا وتُــرى الثــورةُ فــي مقلتهــا
قطَّعــتْ أوصــال هــذي الأمَّــةِ حيــن طــاشــت عينُهــا بــالنَّظــرةِ
إنَّ حــرِّيتهــا أصــلُ البــلاء إنَّ حــرِّيتَهــا فقــدُ الحيــاءْ
ليلهــا مــا ضــاء فيــه نجمُهــا لــم يطــق أعبــاء أمِّ علمُهــا[4]
ليتهــا لــم تَنْــمُ فــي روضتنــا ليتهــا تُغْسَــلُ مــنْ حُلَّتنــا

* * *

أنجــمُ التَّــوحيــد فــي غيــبِ الأبــدْ مضمــراتٌ ليــس يحصيهــا عَــددْ
لــم تُسَيّــبْ بَعْــدُ مــن قَيــد العــدَم لــم تُقيَّــد بعــدُ فــي كيــفٍ وكــمّ
جَلَــواتٌ فــي دجــانــا تُضمَــر فــي ظــلام الكــون عنَّــا تستــرُ
قطــراتٌ لــم تَــزِنْ زهــرَ الــرُّبــى وزهــورٌ لــم تفتِّحهــا الصَّبــا

---

(١) كهام المقول : عيية اللسان . عينها خفرة ، ولسانها قليل الكلام .
(٢) تعاني الظلام في أيامها ليشرق صبحنا : أي نسعد بشقائها .
(٣) صدفت عن الحمل والوضع .
(٤) لم يضيء في ليلها نجم : لم يولد لها ولد .

إنمـا تنبـتُ هـذي الـزهَـراتْ ناضـراتٌ فـي ريـاض الأمهـات
أيهـا العـاقـلُ ! مـالُ الأمَّـة ليـس مـن عِقيـانهـا والفضَّـةِ
إنَّـه أولادهـا مِـلءُ الأمـل فـي ذَكـاءٍ ونشـاطٍ وعَمـلْ
تحفـظ الأمُّ إخـاءَ الأمَّـة وقُـوى قـرآنِنـا والمِلَّـة

* * *

في بيان أنَّ سيِّدة النِّساء فاطمة الزهراء أسوةٌ كاملةٌ للنِّساء المسلمات

أمُّ عيسـى نسبـةٌ واحـدةُ بثـلاثٍ تـزدهـي فـاطمـةُ :
قـرَّة العيـن لخيـر الأوَّليـن ، خـاتمِ الرُّسْلِ ، وخيرِ الآخِرين
نـافـخُ الـرَّوح بـدنيـا الـوَهَـنِ خـالـقُ العَصْـرِ جـديـدِ السُّنَـن
وهـي زوجُ المـرتضـى ذا البطـلِ أسـدِ اللهِ الحكيـمِ الفيْصـلِ
ملـكٌ فـي الكـوخ زهـداً قـد أقـام كـلُّ مـا يملـك درعٌ وحُسـامْ
وهـي أمُّ السَّيـديـنِ الأكـرمَيـن حسـنٍ خيـرِ حليـمٍ وحُسَيـن
ذا سـراجٌ فـي ظَـلامِ الحـرَمِ حـافـظٌ وَحْـدَة خيـرِ الأمـم
ازدرى الملـكَ ابتغـاء الألفـةِ أطفـأ النِّيـرانَ بيـن الإخـوةِ
ذاك فـي الأبـرار ربُّ العَلَـمِ أسوةُ الأحـرار في الخَطْب العَمي
سيـرةُ الأولاد صنـعُ الأمَّهـات وخِـلالُ الخيـرِ طبـعُ الأمَّهـاتْ
زهـرةٌ فـي روضـة الصـدق البتـولْ أسـوةُ النِّسـوة فـي الحـقّ البتـولْ
فـاقـةُ السَّـائـلِ أذرت دمعهـا ليهـوديٍّ أبـاعـتْ درعَهـا[1]
كـلُّ مـن فـي الأرض قـد طـاع لهـا ورضـاهـا حيـن تُـرضـي بعلَهـا
نُشِّئـتْ مـا بيـن صبـرٍ ورضـا في الفَمِ القرآنُ ، والكفِّ الرَّحَى

---

(١) أباع : عرض للبيع ، أي عرضت درعها للبيع لتعطي سائلاً .

دمعُهـا مـن خشيـة الله جـرى في مصلاَّهـا يفـوقُ الجـوهـرا
لقـطَ الـروحُ الأميـنُ الـدُّرَرا وعلـى العـرش المعلَّـى نثـرا
أنـا لـولا الشَّـرع عـن هـذا نَهَـى وإلـى شـرعِ الـرسـول المنتهـى
طفـتُ حـولَ القبـرِ إجـلالاً لهـا ناثـراً مـنْ سَجَـداتـي حـولهـا

* * *

خطابٌ إلى المرأةِ المسلمة

مُشعـلٌ مصبـاحُنـا مـن نـاركِ عِـرضُنا في الصَّون من أستاركِ
خَلْقُـك الطَّـاهـرُ فينـا رحمـةٌ قـويَ الـدِّيـنُ بـه والأمَّـة
طفلُنـا علَّمتِـه حيـن الفِطـام كِلْمـةَ التـوحيـد مـنْ قَبـل الكـلامْ
صِيـغَ مِـنْ حُبِّـك أطـوارٌ لنـا فِعْلُنـا ، أقـوالنـا ، أفكـارُنـا
بـرقُنا فـي سُحُـبٍ منـك ثـوَى شَـعَّ فـي الأطـواد ، والبيـدَ طـوَى
ضـاء ديـنُ الحـقِّ مـن أنفـاسِـكِ ونمـا التـوحيـدُ فـي أحجـاركِ
ذلـكِ العَصـرُ غـرورٌ مـاكـرُ وعلـى الأديـانِ بـاغٍ فـاجـرُ
عقلُـه أعمـى وبـالله كفَـرْ كـم جهـولٍ فـي شِـراكِ قـد أسَـرْ
عينُـه عيـنٌ وقـاحٍ فـاتـكِ بِشباكِ الهُـذْبِ كـم مـنْ هـالـكِ !
صيـدُه يحسَـب حـرّاً نفسَـهُ مَيْتُـه يـزعـمُ قصـراً رَمْسَـهُ[1]
بـكِ يخضـرُّ غِـراس الـوَحـدةِ بـكِ ينمـو رأسُ مـال المِلَّـة
لا تسيـري غيـرَ نهـج السَّلَـفِ لا تبـالـي بجـدىً أو تَلَـفِ
احـذري فتنـةَ عصـرٍ مُهلـكِ وإلـى صَـدْرِكِ ضمِّـي وُلْـدَكِ
بَعُـدتْ عـن عشِّهـا فـي خطـرِ هـذه الأفـراخ ، لمَّـا تطِـرِ

---

(١) الأسير في أغلال هذا العصر يظنُّ نفسه حراً ، والميت يحسب رمسه قصراً لا يدري هذا أو ذاك ما هو فيه من عبودية أو هلاك .

فيـــكِ تسمـــو للمعـــالـــي فطـــرةُ فـاتبعـي الـزهـراءَ ، نعـمَ الأسـوَةُ
عــلَّ غصنـاً منـك يـأتـي بحُسَيْـن فتـرى النضـرَةَ رَوْضـاتٌ ذَوَيْـن

***

خلاصة مطالب المنظومة
في تفسير سورة الإخلاص
﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾

ظهـر الصِّـدِّيـقُ لـي فـي الحُلُـمِ مُـزهِـراً منـه تـرابُ القـدَم
ذا « أمـنُّ النـاسِ » فينـا مَـن جَـلا طُـورُنـا منـه الكليـمَ الأولا[1]
هـو ثـانـي اثنيـن فـي الـدِّيـن وفـي صحبة الغار وفي القبر ، الوفي[2]
قلـتُ : يـا صفـوةَ أصحـابِ الصَّفـاء مطلَعَ الـدِّيوان من أهـل الـوفـاء !
بـكَ قـرَّ الأسُّ فـي بُنيـانـنـا فـانظـرنْ مـا الطـبُّ مـن أدوائنـا
قـال : حتّـامَ أسيـرُ الـوَهَـمِ ســورةُ الإخــلاص بُـرء السَّقَـم
نَفَـسٌ فـي كـلِّ صـدر جـائـلُ وهــي للتــوحيـد سـرٌّ هـائـلُ
فـاجـلُ هـذا السـرَّ فـي كـل الفِعـالْ ولتكــن منــه مثـالاً للجمـال
الـــذي سمَّـــاك عبـــداً مُسلمـــا بـكَ للـوحـدةِ فـي الـدُّنيـا سَمـا
قلــتَ : أفغـانٌ ، وتــركٌ وعَجــمْ لــم تَــزُلْ عمـا تعـودتَ القَـدَمْ
طهِّـرنَّ الحـقَّ مـن هـذي السِّمـاتْ اقصــدِ البحــر وخــلِّ القَنـوات
يـا أسيــراً لِسمــاتٍ ويحكــا ! قـد بَعُـدتَ اليـوم مـن دَوحتِكـا
أبــدل الــوحــدةَ بــالتثنيــةِ لا تقطّـع صـاحِ ! حبـلَ الـوَحْـدَةِ

(١) إشارة إلى الحديث : « أمنُّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر » .
(٢) كان ثاني الرسول في الدخول في الإسلام وفي الغار ، وفي القبر إذ كان أول من دفن بجانبه .

عـابـدَ الـواحـدِ ! وحِّـد واهجـرن كـلَّ تفـريـقٍ وللحـقِّ ارجعَـنْ

أيُّهـا المُغفـلُ معنـى الكلـمِ أثْبِتَـنْ فـي القلـب ألفـاظَ الفَـمِ

أمـةً قطَّعتَهـا فـي أمـمِ وهَـدَمْـتَ الحصـنَ فيـه تحتمـي

قُـوَّةَ الإيمـان زِدْ بـالعمـلِ مـات إيمـانٌ إذا لـم يَعمـلِ

***

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾

أشعِـرَنَّ القلـبَ « الله الصمـد » تَخَلَّصَـنْ مِـنْ قيـد أسبـابٍ وحـدّ

ليـسَ عبـدُ اللهِ عبـدَ السبَـب مـا الحيـاةُ الحـقُّ دورَ اللَّـولـب[1]

ليـسَ غيـرَ الله يـرجـو المسلـمُ وهْـو للنَّـاس جميعـاً سَلَـمُ

لا تبُثَّـنَّ شَكـاةً أحـدا لا تمـدَّنَّ إلـى الخَلـق يـدا

بـالشعيـر اقنـع ، تقيَّـل حيـدرا مـرحبـاً فـاقتلـه ، وافتـح خيبـرا[2]

فيـمَ لـلأجـواد حمـلُ المِنَـنِ أنـت ، مـنْ لا ونعَـم فـي حَـزنِ

لا تـرُم رزق لئيـمٍ يُنغـصُ يـوسـفٌ أنـت ، فـأنَّـى تـرخُـصُ ؟

إنْ تكـن نمـلاً وكنـتَ المقْعَـدا لا تـؤمِّـل مـنْ سليمـان جَـدَى

خفِّـفِ الـزاد ، طـريـقٌ وعِـرُ عـشْ ومـتْ حـرّاً . عـداك الغَـرَرُ

اجعلن « أقلِلْ من الدُّنيا » الشِّعارْ و« تعـش حـرّاً » بهـا كـلَّ الفخـار[3]

وكـن الإكسيـرَ لا التُّـربَ بهـا معطيـاً لا سـائـلاً . فـي حبِّهـا[4]

---

(١) إن أخلَصَ الإنسان لله ، وتوكَّل عليه لا يقيده ما يقيد الناس من أسباب ، بل يخلق هو وسائله إلى غاياته ، وليست الحياة دورات آلية بل فيها إرادةُ الإنسان وعزيمته .

(٢) مرحب : أحد رؤساء اليهود في خيبر ، قتله عليٌّ رضي الله عنه .

(٣) إشارة إلى ما يروى عن عمر رضي الله عنه : « أقلل من الدنيا تعش حراً » .

(٤) الضمير يرجع إلى الدنيا .

« بو عليٍّ » ليس مجهولًا لديك　　جَرعةً من كأسه أهدى إليك :[١]
« تخت قابوس اركلنْ بالأرجل　　ابذل الرأس وبالعرض ابخلِ »
يُفتح الحانُ عَجولًا نفسَه　　لفقيرٍ لم يدنِّس كأسه

* * *

قائدُ الإسلام هارون الرشيدْ　　مَنْ سقَى نقفورَ من ماءِ الحديد[٢]
قال : يا مالكُ مولى الأمَّةِ　　أنت يا رونقَ وجه الملَّةِ
أنت يا بلبلَ فردوسِ الحديث　　إنَّني أرغب في درسِ الحديث
لِمَ يُخفى ذا العقيقَ اليمنُ ؟　　اقصدَن بغداد ، نعم الوطن[٣]
حبَّذا زهرةُ أيامِ العراق　　حبَّذا حسنٌ به الأعينَ راقْ
تربُه فيه منَ السُّقْمِ نجاه　　قاطرٌ منْ كرْمِه ماءُ الحياه
قال : « إني خادمٌ للمصطفى　　وبحسبي حبُّه لي شرَفا
أنا ، من قُيِّدتُ في حُبِّي لهُ　　كيف أنأى عن مكانٍ حلَّهُ
لي في يثرب حبٌّ واشتياق[٤]　　أين من ليلي بها صبحُ العراق ؟
ويقول العشق : أمري امتثلا　　لستُ أرضى بملوكٍ خَوَلا
أنت تبغي أن تُرَى لي سيِّدا　　أن تُرى مولىً لحرٍّ عُبَّدا
ألتعليمك أغشى بابَكا　　خادمُ الأمَّة لا يعنو لكا
إنْ تَرُمْ في الدين علماً يُقتنى　　فاغشيَنْ حَلْقة درسي هاهنا »

* * *

---

(١) هو أبو علي قلندر أحد كبار الصُّوفية في الهند ، وقد سبقت ترجمته في القسم الأول لديوان « الأسرار والرموز » ، وما بين القوسين من شعره .

(٢) نقفور : أحد ملوك البيزنطيين حاربه الرشيد فهزمه .

(٣) اليمن : من مواطن العقيق . يعني : لماذا يبقى مالك في الحجاز كما يبقى العقيق في معدنه .

(٤) في الأصل : أنا حيٌّ بتقبيل تراب المدينة . وقد خففت العبارة في الترجمة .

الـذي استغنَـى جـديـرٌ بـالـدَّلال — فـي دلالٍ عنـده كـلُّ جمـال

صبغـةَ الحـقِّ مَـن استغنـى اكتسَـى — ورأى صبـغَ سـواه دَنَسـا

أنـت مِـنْ غيـرك تجـدو علمكـا — بطـلاءٍ منـه تَطلـي وجهكـا

أنـت منـه بِشعـارٍ تفخـرُ — أنـت ذا أمْ غيَّـرتـك الغِيَـر ؟[1]

خَشَعـتْ أرضُـك مـن أمطـاره — وخـلا البستـانُ مـنْ أزهـاره

مطـراً مِـنْ مـزنـه لا تجتـدي — لا تُبِـدْ زرعَـك عمـداً بـاليـدِ

سَلْسَلَـتْ عقلَـكَ أفكـارٌ لـه — مـلأتْ حَلْقَـكَ أوتـارٌ لـه

مستعـارٌ كَلِـمٌ فـي فمكـا — مستعـارٌ أمـلٌ فـي قلبكـا

أعـوزتْ طيـرَك ألحـانُ الغنـاء — ليس في سروك في الجوِّ رُواء[2]

أنـت فـي كـأسـك خمـراً تجتـدي — وكـذاك الكـأس جـدوى فـي اليـد

لـو يعـودُ اليـومَ فينـا ذو النظـرْ — من به تصديق ﴿ ما زاغ البصر ﴾[3]

مـازَ صـدقـاً وكـذبـاً سمعُـه — وابتلـى كـلَّ فـراشٍ شمعـه[4]

ثـم نـادى « لسـتَ منـي » يـا فتـى — ويلتـا يـا ويلتـا يـا ويلتـا

فَـإلامَ العيـشُ مثـلَ الأنجـمِ — يَطْلُـعُ الصُّبـحُ لهـا بـالعـدَم

أنـت قـد غـرَّك صبـحٌ كـاذبُ — أنـت عـن نَفْسِـك حقّـاً ذاهـب

أنت شمسٌ نَفسَك اعرِف كلَّ حين — لا تُضِئْهـا مـنْ نجـوم الآخـريـن

إنَّ فـي قلبـك نفسـاً مـن سـواك — بـاعَـتِ الإكسيـرَ بـالتُّـربِ يـداك

بسـراجِ النـاس مغنـاك أضـاء — وبخمـر النَّـاس في الـرأس انتشـاء

---

(١) هل أنت أيها المسلم كما عهدتك ، أم أنت إنسان آخر .

(٢) السَّرو : شجر طويل شكله كالسنبلة دائم الخضرة ، جميل التمايل . يقول الشاعر إنَّ طيرنا لا يستطيع الغناء كالطير ، وسروننا ليس له رواء كالسرو .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] .

(٤) لو عاد الرسول صلوات الله عليه لميز الصادق والكاذب ، وعرف شمعه الفراش الذي يهفو إليه حباً .

لـك حـولَ الشَّمـع فـي الحفـلِ دوار اغشَيْنَ نارك . هل في القلب نار[1]

ابـقَ فـي مثـواك مثـلَ البصـر لا تـدَعْ عُشَّـك مهمـا تَطِـر[2]

حَـيَّ فـردٌ نفسَـه قـد عَـرفـا وقبيـلٌ عـن سـواه صَـدفـا[3]

عـن طـريـق المصطفى لا تـذهبَـنْ واتـرك الأربـابَ ، واللهَ اعبُـدَنْ

***

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾

قـد عـلا قـومُـكَ عـن لـونٍ ودَمْ وعـلا أسـودُه حُمـرَ الأمـم

فـي وضـوءٍ قطـرةٌ مـن قنبـر هـي أغلـى مـن دمٍ مـن قيصـرِ

اتـركـن عمَّـاً وأمَّـاً وأبـا وكَسلمـان إلـى الـديـن انسبـا[4]

يـا خليلـي اسمـع حـديثـي واعقِـلا مـن خـلايـا النَّحـل هـذا المثـلا :

قطـرةٌ مـن شَقـرٍ كـالقَبَـسِ ثـمَّ أخـرى مِـنْ بيـاضِ النَّـرجـسِ

لـم تقُـلْ هـذي : أنـا نَيلَـوْفَـر أو تقـلْ هـاتيـك إنِّـي عَبهَـرُ

شـأنُ إبـراهيـمَ فـي ملتنـا ديـن إبـراهيـم فيـه شهـدُنـا

إنْ جعلـت الـدمَ ركـنَ الملَّـة صـدَعـتْ دعـواك جمـعَ الإخـوة

فـي ثَـرانـا ليـس ينمـو بَـزْرُكـا أنـتَ مـا أسلـم حقّـاً فكـرُكـا

---

(١) هنا يقول الشاعر : لا تكن فراشاً يهفو على نار غيره بل اصطل نارك إن تكن في قلبك نار .

(٢) مذهب إقبال أن يثبت الإنسان في نفسه ، يبعد السير ولكن لا يخرج من منهاجه . فليكن كالبصر ، يتقلب في العالم ، وهو مكانه ، وكالطائر يحلق في الجو ولا ينسى عشه . يعني أن يكون في فكره وعمله صادراً عن عقيدته وإحساسه هو .

(٣) حياة الفرد أن يعرف نفسه ويعتدَّ بها ، وحياة الجماعة أن تعتمد على نفسها ، وتصدف عن غيرها .

(٤) يروى أنَّ سلمان الفارسي رضي الله عنه سئل عن نسبه ، فقال : سلمان بنُ الإسلام .

ابـــنُ مسعـــودٍ سِـــراجُ المتَّقيـــن جسمـــهُ والـــرُّوح وَجْـد المُخبتيـن

أجَّ مـــن مـــوت أخيـــه صَـــدْرُه وأذابَ القلـــبَ منـــه جمـــرُه

لـم يجـفَّ الـدَّمـع مـن حـرقتـه نـاحَ نَـوحَ الأمِّ فـي لَـوعتـهِ :

« آهِ للقـــارىء درسَ العظـــةِ ورفيقـي فـي طـلابِ الحكمـةِ »

« آهِ للسَّـــروِ الـذي قـد وَرَفـا وشـريكـي فـي ولاءِ المصطفـى »

« عينُـه تُحـرَم إبصـار النَّبـيّ وأنـا أشهـد أنـوار النبـي[1] »

* * *

مـا مـن الأنسـاب يَقـوَى وصلُنـا ليـس مـنْ رومٍ وعُـرب أصلُنـا

إنمـا حـبُّ الحجـازيِّ الحبيـب قـد حبانـا ذاكمُ الوصلَ القريب

حَسْبُنـا آصـرةٌ مـنْ حُبِّـهِ حسـبُ عيـن نشـوةٌ فـي قـربـه

جـدَّد الـدَّهـرُ بنـا سيـرتَـهُ مُـذْ حـوت أعـراقُنـا نشـوتَـه

عشقُـه سِـرُّ اجتمـاع الأمَّـةِ نبضَـت منـه عـروقُ الملَّـة

صلـةُ العِشْـقِ لنـا أقـوى سَبـب هو في الروح ، وفي الجسم النسب

أيهـا العـاشـق خـلِّ النَّسبـا خـلِّ إيـران ، وخـلِّ العَـربـا

نـورُ حـقٍّ مثلَـه أمَّتُـه قـد نمـت أغصـانَنـا دوحتُـهُ

« نـور حـقٌّ مـا حـواه نسـبُ ثوبُ حقٍّ ، لا سِدًى أو لُحمةُ »[2]

مـن ثـوى فـي نسـبٍ أو بلـدِ قد غَفا عن ﴿ لم يلدْ ولم يُولَد ﴾

* * *

---

(١) يقصد الشاعر من هذه القصة أن ابن مسعود بكى أخاه لما جمعهما من صلة بالنبي لا من صلة النسب .

(٢) البيت لجلال الدين الرومي .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾

صاحِ ! ما المسلمُ للدُّنيا احتقرْ ... عامِراً بالحقِّ قلباً قد عمر ؟

زهْرةٌ من شَقِرٍ في القُنَنِ ... لم تَرُعها طلعةٌ من مُجتنِ

نَفساً ينفخ فيها السَّحَرُ ... فتراها لهباً يستعرُ

تُشفق الزُّهرُ عليها تحسَبُ ... أنَّها خُلِّف عنها كوكبُ

النَّدى منها نُعاساً يَغسِل ... وشُعاعُ الشَّمس فيها قُبَلُ

﴿ لم يكن ﴾ أمسِكْ بها واشدُد يدا ... لتُرى في الناس حُرّاً أوحَدا

ذلك الواحدُ لا شرِكَ له ... عبدُه يأبى شريكاً مِثلَه

قد سما المسلم أعلَى مَنْ سَما ... ليس يرضى بمُسامٍ في السَّما

وِردُه ﴿ لا تحزنوا ﴾ في المأزِق ... ﴿ أنتم الأعلَون ﴾ تاجُ المَفرِق

حملَ الكونين طرّاً ظَهرُه ... وحوى برّاً وبحراً صدرُه

أذْنُه للرَّعد إمَّا جَلجلا ... صدرُه لِلْبَرق إمَّا نزلا

قاتِلُ الزُّور ، وللحقِّ وزَرْ ... أمرُه المعيار في خيرٍ وشرّ

جمرُه كلُّ لهيبٍ في حشاه ... جوهرٌ فيه كمالٌ للحياه

ليس في ضوضاء هذي الأمم ... نغمةٌ إلا أذانَ المُسلمِ

هو في العفو وفي البذل عظيمْ ... وهو حين القَهر ذو طبعٍ كريم

لُطفُه في الحَفلِ جبرُ المنكسِرْ ... قهرُه في الحرب صهرٌ للحجَر

هو في الرَّوض صفيرُ البُلبلِ ... وهو في البِيد انقضاض الأجدل

قلبه تحت سَماءٍ لا يقرّ ... هو فوق الزُّهْرِ ما إن يستقرّ

طائرٌ ينقُر نجمَ الحُبكِ ... طائراً فيما وراء الفَلَكِ

أنتَ ، يا منْ لم يَطِرْ منك جَناحُ ! ... دودةٌ في ظلمةِ التُّرب تُراح

مستكينٌ تشتكي جور الزَّمانْ ... قد أصبتَ الذُّلَّ من هَجر القُران[1]

---

(١) القران : القرآن .

قـد هَبَطْـتَ الأرضَ طُهـراً كـالنَّدى ... بـالكتـاب الحـيِّ أمسكـت يـدا
فـإلام العيـشُ فـي التُّـرب ؟ ارحـلا ... اصعـدَنْ فـوق السمـواتِ العُلَـى

* * *

شكوى المصنف إلى من أرسل رحمةً للعالمين

نَضَّـرَتْ منـك مُحيَّـاهـا الحيـاه ... ورأت تعبيـرَ رؤيـاهـا الحيـاه
الجهـاتُ السـتُّ نـورٌ يَسطـعُ ... منـك ، والأقـوامُ جمعـاً تَبـعُ
إنَّ فقـراً فيـكَ ذخـرُ الكـائنـات ... قـد تعـالى بـك قـدرُ الكـائنـات[1]
أنـتَ أشعلـتَ مصـابيـح الحيـاه ... وحبـوتَ النَّـاس مـن رقٍّ نجـاه
صُـورُ الكـون بـدت مـن دونكـا ... فـاقـةٌ تشكـو وتشكـو الحَلَكـا
نَفَـسٌ منـك أطـار الشَّـرَرا ... فـاستحـالَ الطِّيـنُ مِنْـهُ بشـرا[2]
وَسَمَـتْ للنَّيـريـنِ الـذَّرَّة ... وتجلَّـتْ مـن حَشـاهـا القـوّة
مـن أبـي أنـت وأمـي أقـرب ... مـذ رأى وجهَـك طَـرفي المعجَبُ
عشقُـك النـارَ بجسمـي يُضـرِم ... فليُـذِبْ روحـيَ منـه ضَـرَمُ
ومتـاعـي أنَّـةٌ مثـلَ الـرَّبـابْ ... إنهـا المصبـاح فـي بيتـي الخـراب
كيـف لا يُبـدي شَـجٍ أتـراحَـه ؟ ... كيـف لا يُبـدي زجـاجٌ راحـه ؟
ضـلَّ عـنْ سـرِّ النبـيِّ المسلـمُ ... مـؤنثـاً قـد صـار هـذا الحـرَم[3]
كلُّهـم فـي قلبـه يثـوي هُبَـلْ ... ومنـاةٌ فيـه والعُـزَّى تحُـل

---

(١) الفقر عند إقبال ، كما هو عند الصوفية ، ألا يستغنى الإنسان إلا بالله . انظر مقدمة « ضرب الكليم » .

(٢) يعني : أنَّ الكائنات قبلك كانت في ظلامٍ وفاقةٍ وحاجةٍ إلى من يبعث فيها الحياة والقوة .

(٣) المسلم صار بيت أوثان بما في نفسه من أهواء ، وعبادة للكبراء .

شيخُنا يفضله البرهَمَنُ ... سُمنات رأسَه يستوطنُ[1]
هجر العُربَ ، وفي العُرْبِ عِصَمْ ... وأطال النَّوم في حانِ العجم
فتَّ بَردُ العُجمِ في أعضائه ... دمعُه أبردُ من صهبائه
هو ، كالكافر ، يَخشى الأجلا ... صَدْرُه من قلب حيٍّ قد خلا
داؤه كلُّ طبيبٍ ما شفا ... فحملتُ النَّعشَ عند المصطفى
هالكاً عرَّفته ماء الحياه ... ومن القرآن أسرار النَّجاه
قلتُ عن أحباب نجدٍ قِصَّتي ... حَدثتْ عن روضِ نجدٍ نفحتي
فأضاء الحفلَ من لحني أياة ... ودَرى قومي أسرار الحياة[2]

***

قيلَ : أُهدي سحر أوْرُبَّة لنا ... وبقانونِ الفرنج افتتنا[3]
واهبي عودَ سُلَيمى كرَما ... والأبوصيريَّ بُرداً كرُما[4]
اهدِ للحقِّ ، الذي قد أفَكا ... الذي يجعل ما قد ملكا[5]
إنْ يكن قلبي غَوَى لا يُبصرُ ... أو سوى القرآنِ لفظي يُضْمِرُ
أنت يا من نورُه صبحُ العُصور ! ... أنت يا عالمَ أسرارِ الصدور !
اهتكنْ أستار فكري وافضحنْ ... طهِّرن من شوكتي روضَ الزَّمن
وحياتي اقطع لأجل الأمَّةِ ... واكفيَنْ شرِّي أهلَ الملةِ
أبعدنْ عن روضتي الغيث المَريع ... واحرمنِّي من شآبيبِ الرَّبيع
جفِّفِ الراح بكَرمي عاجلا ... واملأنْ واحيَ سُمَّاً قاتلا

---

(١) سمنات : بيت أصنام معروف في الهند أخربه السلطان محمود الغزنوي ، ويعيد الهنادك بناءه اليوم .
(٢) الأياة : شعاع الشمس .
(٣) القانون : آلة موسيقية . وفي الكلام تورية بالقانون الذي معناه الشرع .
(٤) الأبوصيري الشاعر ناظم البردة . وعود سليمى يراد به قوة العرب في الأدب والغناء .
(٥) اهد من ادعى أن فلسفتي مأخوذة من الفرنج ؛ لأنه يجهل ما في دينه من قوانين .

واخـزِيَنّـي يـوم حشـر الأمـم　　واحـرمَنِّـي منـك لثـمَ القـدَم
أو أكن أخلصت نصحي في البيانِ　　ونظمـت الـدُّرَّ مـنْ سـرِّ القُـرانِ
فـدعـاءٌ منـك أجـري وكفـى　　بـكَ كـمْ نـال وضيـعٌ شـرَفـا
اسـألـنَّ اللهَ ربَّ العـرش لـي　　يجعلَـنْ عشقـي قـريـنَ العمـل
ربِّ قـد أنعمـتَ بـالرُّوح الحزيـن　　ونصيباً شئـتَ لـي مـن علـمِ ديـن
فـاجعلَـنْ فـي الفعـل حظّـي أوفـرا　　واجْعَلَـنْ قَطـرَ ربيعـي دُررا

* * *

أمـلٌ آخـر فـي القلـب أقـام　　مُـذْ حـوىٰ قلبـيَ فـي الـدنيـا مُقـام
هـو فـي صـدري كقلبـي نـزلا　　شـاهـداً صبـحَ حيـاتـي الأوَّلا
أمـلٌ أذكيـتُ منـه لهبـي　　مُـذْ شـدا بـاسمـك أمـي وأبـي
كلَّمـا غيَّـض منِّـي الـزمـنُ　　ودهـانـي ريبُـه والمِحـنُ
شـبَّ فـي قلبـيَ هـذا الأمـلُ　　ونمـا بـالعتـق فيـه الثَّمـل
إنَّـه تحـت تـرابـي جَـوهـرُ　　كـوكـبٌ فـي جنـح ليلـي يُسفِـر

* * *

همـتُ حينـاً بـذواتِ الحـوَرِ　　وتعشَّقْـتُ ذواتِ الطُـرَرِ
وعلـى الـرَّاح صحبـت الغـانيـه　　حيـن أطفـأتُ سـراجَ العـافيـه
وأحـاطـت بَيْـدري نـارُ البُـروقْ　　وغـزا قلبـيَ قُطَّـاع الطـريـقْ
وبـروحـي لـم يـزل هـذا العُقـار　　وبكيسـي لـم يـزل هـذا النُّضـارْ

* * *

لبـس الـزُنَّـارَ عقلـي الآزريّ　　وغـزا روحـي بـالنقـش الفـريّ(١)

---

(١) الأزري المنسوب إلى آزر ناحت الأصنام ، وهذا العقل الوثني نقش في روحه نقشاً عجيباً .

فـي إسـار الشـكِّ أمضيـت سنيـنْ — وهــو فــي رأســي مقيــمٌ لا يَبيــن

أحـرُفـاً مـا نلـتُ مـنْ عِلـم اليقيـن — ومن الحكمة في الريب رهين[1]

لـم يَلُـح فـي ليـل عُمـري نـورُ حقّ — لـم يُنِـرْ ليلـي شعـاعٌ مـن شفَـقْ

وفــؤادي مُضمــرٌ هــذا الــرجــاء — صـــدَفٌ فـــي قلبـــه دُرٌّ أضـــاء

ثـــمَّ مِـــنْ عينـــيَّ دمعـــاً سَجَمـــا — وتجلَّـــى فـــي فـــؤادي نغمـــا[2]

* * *

يـــا مَـــن القلـــبُ سِـــواه أغفـــلا ! — ائـــذنَـــنْ أذكـــر هـــذا الأمـــلا

سيـــرتـــي مـــا ضـــاء فيهـــا العمـــلُ — كيـف مثلـي مثـلَ هـذا يـأمُـلُ ؟

أنـــا مِـــنْ إظهـــاره فـــي خجَـــلِ — منـك لُطـفٌ يسَّـرَ الجُـرأة لـي

يـــا رحيمـــاً بـــك للنـــاس مفـــاز — كلُّ ما أبغيه موتي في الحجاز[3]

هَجْـــرُ غيـــر الله شـــأنُ المسلـــمِ — كيـف لـي عيـشٌ ببيـت الصنـم ؟

حســرةُ المسلــم إنْ حُــمَّ الممــات — أن يكـون الـدَّيرُ مثـوى للرُّفـات[4]

ويـــلَ يـــومـــي ، وهنيئـــاً لغـــدِي — إن أقُـمْ فـي ذا الحِمَـى مـن لَحَـدي

حبَّـــذا أرضٌ تـــراهـــا مـــوطنـــا ! — حبَّـــذا تـــربٌ تـــراه مسكنـــا !

---

(١) الحكمة : الفلسفة .

(٢) هذا الأمل الّذي كرر الشاعر ذكره وأطال في وصفه تحوَّل دمعاً سجم في عينيه ، ونغماً رنَّ في قلبه .

(٣) كرَّر الشاعر هذا الرجاء في شبابه قبل وفاته بثلاثين سنة إلى أن توفي ، وروى الأستاذ يوسف جشتي شارح دواوينه الشعرية أنَّ أحد أصحاب محمد إقبال دخل عليه في يناير سنة ١٩٣٨م (أي : قبل وفاته بثلاثة أشهر) وأخبره أنه عزم على الحجّ ، وسأله أن يدعو اللهَ ليقبل حجَّه ، فبكى إقبال بكاءً شديداً وقال : بل أسأل الله أن ييسِّر لي زيارة روضة الحبيب ﷺ .

(٤) يعني : أن بلاد الهند يسيطر عليها الإنكليز ، وليست بلاداً إسلامية خالصةً ، فهي ليست جديرة أن يعيش فيها المسلم ، أو يعبر فيها .

« دارُ حبِّــي ومليكــي والسَّكــن أيَّها العُشَّاقُ ! ذا نِعْمَ الوطن »[1]

كــوكبــي أطلِعْــهُ بــالسَّعــد غــدا في ظـلال الـدَّار هـبْ لـي مـرقـدا

ليــرى الــراحــةَ قلبــي القلِــقُ ويــرى الهــدأةَ هــذا الــزئبــقُ

أيُّهـا الـدَّهـر انظـرَنْ هـذا السَّـلام قـد رأيـتَ البـدءَ فـانظـرْ مـا الختـامْ

* * *

(١) هذا البيت أحسبه مقتبساً من جلال الدين الرومي . والسكن هنا : من يسكن إليه الإنسان ، ويطمئن .




الدِّيْوانُ الثَّالِثُ

رِسَالَةُ الشَّرْقِ
پيام مشرق

نَقَلَهُ إِلَى العَرَبِيَّةِ
الدكتور عبد الوهّاب عزّام



طبع هذا الدِّيوان أوّل مرّة باللغة الفارسية عام ١٩٢٣م ، وكتب الشَّاعر فوق عنوان الديوان : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ [البقرة : ١١٥] وكتب تحته : « جواب ديوان الشاعر جوته » .

وقدَّم محمد إقبال هذا الدِّيوان على أنَّه شعر الفارسيَّة الكامل ، لأنَّه قدَّم إلى القارىء اللغة الفارسية في مجموعة من الأشعار تحتوي على مختلف أقسام الشِّعر الفارسي من الغزل والرُّباعي والبيتي والقطع والمثنوي وغيرها ، ويُصادفنا في الديوانِ الشعرُ الأخلاقي والحركات السياسية والاجتماعية لذلك الوقت .

والدِّيوان روضةٌ من الشِّعر تختلف أزهارها ، ونوارها ، وضروب النبات فيها وألوان وصنوف الرَّيحان فيها ، وروائحه جمعت أشتات الزهر من المشرق والمغرب .

***

محتوى الديوان

يشتمل هذا الديوان على هذه الأقسام :

القسم الأول : شقائق الطور ، وهي رباعيات .

القسم الثاني : الأفكار ، وهي إحدى وخمسون قطعة وقصيدة .

القسم الثالث : الخمر الباقية ، وهي قصائد صوفية ، رمزية من الضَّرب الّذي يسمَّى في اصطلاح الأدب الفارسي والأردوي غزلًا ، وهو غير الاصطلاح العربي ، وعدد الغزليات في هذا القسم خمسٌ وأربعون .

القسم الرابع : نقش الفرنج ، وهي أربع وعشرون قطعة وقصيدة ، يذكر فيها الشَّاعر بعض شعراء أوربة وفلاسفتهم ، وينقد مذاهبهم وآراءهم ، فيقبل منها ويردّ .

القسم الخامس : الدَّقائق ، وهي قطع صغيرة ، وأبيات مفردة ألحقها الشاعر بهذا الدِّيوان . وقد ترجم هذا الديوان بكامله إلى العربيَّة شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ، وهو يُقدَّم إليكَ الآن مع مقدمة الشاعر .

***

مقدمة محمد إقبال[1]

لديوان « رسالة الشرق »

نظمتُ بيام مشرق لأجيب به الديوان الغربي لفيلسوف الحياة الألماني جوته الذي يقول فيه الشاعر الألماني الإسرائيلي هاينا :

« هذه باقةٌ من العقائد يرسلها المغرب إلى المشرق ويتبين من هذا الديوان أنَّ المغرب ضاق بروحانيته الضعيفة الباردة فتطلع إلى الاقتباس من صدر المشرق » .

ما المؤثرات وما الأحوال التي كتب فيها جوته هذه المجموعة من الأشعار التي هي أحسن آثاره ، والتي سمَّاها هو باسم « الديوان » .

لا بدَّ للإجابة عن هذا السؤال أن نبين إجمالاً هذا التأثير الذي سمي في تاريخ الأدب الألماني التأثير الشرقي . وددت أن أفصِّل في هذه المقدمة الكلام في هذا التأثير ، ولكن المراجع الكثيرة التي يحتاج إليها في هذا البحث لم تتيسر في الهند . وقد بين بال هورن مؤلف تاريخ آداب إيران في مقالٍ له مقدار ما كان جوته مديناً لشعراء الفرس . ولكن العدد المشتمل على هذا المقال من مجلة نارو أندسود لم يمكن الحصول عليه في خزانة كتب في الهند ، ولا من ألمانيا . فلا مناص من أن أعتمد في كتابة هذه المقدمة على ما أذكر من دراستي السابقة وعلى الرسالة المختصرة المفيدة البارعة التي كتبها في هذا الموضوع مستر « شارلس ريمي » .

كانت طبيعة جوته المتطلعة تميل منذ الحداثة نحو الأفكار الشرقية ، وفي

---

(١) كتبها محمد إقبال بالأردوية ، ونقلها إلى العربية خلال ترجمة هذا الديوان الأستاذُ الدكتور عبدُ الوهاب عزَّام .

استراسبورج حيث كان يتعلَّم القانون لقي هردر ذا المكانة والصيت في الأدب الألماني . ويعترف جوته في سوانحه بما تركت صحبة هردر في نفسه .

لم يكن هردر يعرف الفارسيَّة ، ولكن لغلبة النزعة الأخلاقية عليه كان لكتب سعدي أثر بليغ في نفسه حتَّى ترجم بعض فصول كلستان إلى اللغة الألمانية . ولم يكن لحافظ الشيرازي هذه المكانة عنده ، وهو يقول داعياً معاصريه : قد غنينا كثيراً على أسلوب حافظ وقد وجب الآن أن نقتدي بسعدي . ولكن مع حب هردر الآداب الشرقية هذا الحبَّ لا يُعرف في شعره أو مؤلفاته الأخرى أثرٌ من هذه الآداب . وكذلك كان شلر معاصر جوته الثاني بعيداً عن تأثير الشرقيين . وقد مات قبل ظهور التأثير الشَّرقي ، وينبغي ألا نغفل عن هذه المسألة : إنَّ قصتَه « توران دخت » أخذت خطتها من قصة بنت سلطان الإقليم الرابع التي كتبها نظامي الكنجوي في « هفت پيكر » واستهلَّها بقوله :

كفت كز جملهٔ ولايت روس

بود شهري بنيكوئي چو عروس

* * *

وسنة ١٨١٢ نشر فون همر ترجمةً كاملةً لديوان حافظ : وبهذه الترجمة ابتدأ التأثير الشرقي في آداب الألمان . وكان عُمُر جوته إذ ذاك خمساً وستين سنة . وكان هذا على حين بلغ انحطاط الألمان غايته في كلِّ ناحية . لم تكن طبيعة جوته مهيأة للمشاركة عملاً في الحركات السياسية في وطنه ، فلما ضاق بالاضطراب الشائع في أوروبة أخذت روحه القلقة المحلقة تلتمس عشاءً في فضاء الشرق الساكن الآمن .

وقد أثارت أناشيد حافظ هياجاً كبيراً في أفكاره ، فاختار آخر الأمر « للديوان الغربي » صورةً متميزة ثابتة ، ولكن ترجمة فون همر لم تكن مؤثرةً في جوته فحسب ، بل كانت مأخذاً لخيالاته العجيبة الغربية ، فيبدو نظمه أحياناً كأنَّه ترجمةٌ حرَّةٌ من شعر حافظ ، وأحياناً تجد قوةَ تخيُّله في مصرعٍ

واحدٍ مهيعاً جديداً تنير فيه مسائل في الحياة بالغةً في الدِّقة والصُّعوبة .

يقول بيل شوسكي كاتب سوانح جوته المعروف :

كان جوته يرى صورته في نغمات بلبل شيراز ، وكان يخطر له بين الحين والحين أنَّ روحه لبست صورة حافظ ، فعاشت في بلاد الشرق . فنحن نجده شبيه حافظ في ذلك السُّرور الأرضي ، وتلك المحبة السَّماوية ، وذلك اليسر ، وذلك العمق ، وذلك الغليان والتوقد ، وتلك السَّعة في المذهب ، وهذا النُّور القلبي ، وذلك التحرُّر من الرسوم والقيود . بل في كلِّ أمر حافظ ، لسان الغيب ، وترجمان الأسرار ، وكذلك جوته . ولحافظ عالم من المعاني في ألفاظٍ بسيطةٍ في ظاهرها ، وكذلك في طريقة جوتِه المطبوعة تتجلَّى الحقائق والأسرار ، وكلاهما نال إعجاب الأمير والصعلوك ، وكلاهما أثَّر في فاتحي عصره العظام « يعني حافظ في تيمور ، وجوته في نبوليون »[1] وكلاهما في عصر اضطرابٍ عامٍّ وخراب ، حافظ على السكون والطمأنينة في قلبه مبتهجاً بالمضيِّ في ترنمه القديم .

ثم جوته مدينٌ في أفكاره لغير حافظ : للشيخ عطار ، وسعدي ، والفردوسي ، وللأدب الإسلامي عامَّةً . فقد كتب في بعض المواضع غزلًا في قيود القافية والرديف ، وهو يستعمل في لغته استعاراتٍ فارسيَّةً بغير تكلُّف مثل : جوهر الأشعار ، وسهام الأهداب ، والطرَّة المعقودة ، بل هو في فورة الفارسية لا يحترز من الإشارة إلى الولوع بالمرد . ثم أسماء أقسام الديوان فارسية كذلك مثل « مغنى نامه ـ ساقي نامه ـ عشق نامه ـ تيمور نامه ـ حكمت نامه ، وغيرها » ومع هذا كلِّه فليس هو مقلداً أيَّ شاعرٍ فارسيٍّ . فطرته الشعرية حرَّةٌ ولا ريب . وإنما غناؤه في مروج الشقائق المشرقية عرضيٌّ محض . وهو لا يفرط في غربيته ، وإنما يقع بصره وحده على الحقائق الشرقية التي تلائم

---

(١) لا تصحُّ رواية التقاء حافظ وتيمور فقد توفي الشاعر قبل أن يفتح تيمور شيراز .

فطرته الغربية . ولم يمل إلى التَّصوُّف العجمي قط . وكان يعلم أنَّ أشعار حافظ تفسر في المشرق تفسيراً صوفياً ، ولكنه لم يكلف إلا بالغزل محضاً ، ولم يهتم بالتفسير الصُّوفي في كلام حافظ أيَّ اهتمام .

وكانت معارف مولانا الرُّومي وحقائقه الفلسفية مبهمةً عنده . لا يمكن أن ينكر الرومي رجلٌ مدح سبنوزا (فيلسوف هولندي كان يقول بوحدة الوجود) وأعمل قلمه في الدفاع عن برونو (فيلسوف إيطالي وجودي) »[1] .

والخلاصة أنَّ جوته في الديوان المغربي اجتهد في إظهار الروح العجمية في الأدب الألماني .

* * *

وقد أكمل الأثر الشرقي الذي بدأ في ديوان جوته الشعراء الذين جاؤوا بعده : بلاتن ، وروكرت ، وبودن ستات .

فأمَّا بلاتن ؛ فقد تعلَّم الفارسيَّة لمقاصد أدبيَّةٍ ، ونظم غزلًا في القافية المردوفة ، بل في العروض الفارسي ، ونظم رباعيات ، ونظم قصيدةً في نبوليون . واستعمل الاستعارات الفارسية بغير تكلُّفٍ ، مثل جوته : عروس الورد ، والطرة المسكية ، وشقائق العذار . وهو مولع بالتغزُّل المحض كذلك .

وأمَّا روكرت ؛ فكان ماهراً في الألسنة الثلاثة : العربية ، والفارسية ، والسنسكريتية . وكان لفلسفة الرومي مكانةٌ عظيمةٌ في رأيه . وتأثير مولى الروم فيما كتب من غزلٍ كان أوضح ، وكانت مصادره من الأشعار الشرقية أوسع بما عرف من لغات الشرق .

وقد التقط لآلىء الحكمة من مخزن الأسرار لنظامي ، وبهارستان جامي ،

---

(١) يعني أنَّ الرومي كان من القائلين بوحدة الوجود ، فلو عرفه جوته لعني به ، كما عني بهذين الفيلسوفين .

وكليات أمير خسرو ، وكلستان سعدي ، ومناقب العارفين ، وعيار دانش ، ومنطق الطير ، وهفت قلزم ، بل زين كلامه بقصص وروايات إيرانية ترجع إلى ما قبل الإسلام . وقد أحسن نظم بعض واقعات التاريخ الإسلامي وأشخاصه مثل موت محمود الغزنوي ، وغزو محمود سومنات ، والسلطانة رضية[1] وموضوعات أخرى .

وأكثر شعراء الأسلوب الشرقي قبولاً بعد جوته : بودن ستات ؛ الذي نشر منظوماتٍ بالاسم المستعار « مرزا شفيع » وقد لقيت هذه المجموعة الصغيرة من القبول ما اقتضى طبعها مئة وأربعين مرة في مدَّةٍ قصيرة . أحسن هذا الشاعر تصوير الرُّوح العجمية حتى بقي الناس في ألمانيا زمناً طويلاً يحسبون أشعار مرزا شفيع ترجمة شعر فارسي .

وقد استفاد بودن ستات من أمير معزي ، وأنوري كذلك .

ولم أرد أن أذكر في هذا الصدد هاينا معاصر جوته المشهور ، إذ لم يكن في الجملة ذا صلةٍ بالتأثير الشَّرقي ، ولم يهتمَّ بما اقتبس شعراء ألمانيا من الشعر الشَّرقي إلا ديوان جوته ، على أنَّ الأثر العجمي بين في مجموعته المسماة « الأشعار الجديدة » وقد أجاد جداً في نظم قصة محمود ، والفردوسي ، ولكنَّ قلبَ هذا الشاعر الألماني الحرَّ لم يستطع الإفلات من شرك سحر العجم ، حتى لقد تصوَّر نفسه مرَّةً شاعراً إيرانياً أُجلي إلى ألمانيا يقول :

« يا فردوسي ! يا جامي ! يا سعدي ! إنَّ أخاكم في سجن الغم يخفق حنيناً إلى أزهار شيراز » .

ثم نذكر من مقلدي حافظ الأدنين منزلةً ، دومر ، هرمن ستال لوشكي ، ستابك ، لتز ، لنت هولد ، وفون شاك . وهذا الأخير كان ذا منزلةٍ عاليةٍ في العلـم ، ونظمه قصة إنصاف محمود الغزنوي ، وقصة هاروت وماروت

---

(١) من دولة المماليك التي قامت في دهلي .

مشهور . وأوضح الآثار في كلامه : أثر عمر الخيام .

وبعد فلا بدَّ من بحثٍ طويلٍ لكتابة تاريخ كامل لتأثير الشرق في الأدب الألماني ، والمقابلة بين شعراء إيران وألمانيا ، لتقدير أثر العجم تقديراً حقًّا ، ولكن لم يتيسَّر الوقت ، ولا العدَّة لهذا البحث . ولعلَّ هذا البحث المختصر يثير قلب أحد الشبان للتَّحقيق والتدقيق في هذا الشأن .

* * *

وأما « پيام مشرق » الذي كتب بعد « الديوان الغربي » بمئة سنة فلست في حاجة إلى الإبانة عنه . فسيرى الناظرون فيه بأنفسهم أنَّ أكثر ما يرمي إليه هو النظر في الحقائق الأخلاقية ، والدينية ، والمذهبية ؛ التي تتَّصل بالتربية الباطنية في الأفراد والأمم . ولا ريب أنَّ بين ألمانيا قبل مئة سنة وأحوال الشرق الحاضرة تشابهاً ما ، ولكن الحقيقة أنَّ الاضطراب الباطن في أمم العالم . . الذي لا نستطيع تقدير خطره لأننا متأثرون به ـ هو مقدمة انقلاب حضاري وروحاني عظيم جداً .

كانت الحرب العظمى التي قامت في أوربة قيامة كادت تمحو نظام العالم القديم من كل جوانبه . وأن الفطرة لتخلق اليوم في أعماق الحياة من رماد الحضارة والثقافة إنساناً جديداً وتخلق عالماً جديداً لإقامة هذا الإنسان . عالماً يرى هيكله غير البين في مؤلفات آين شتاين ، وبركسون .

لقد رأت أوربة بعينيها النتائج المخوفة لمثلها الاقتصادية ، والأخلاقية ، والعلمية . وسمعت من سنيور نيتي « الذي كان رئيس وزراء إيطالية » قصة « انحطاط الفرنج » المحزنة ، ولكن واأسفاه لم يستطع عبَّاد القديم الذين سمعوا حقائقه أن يقدروا الانقلاب المدهش الذي كان يثور في الضمير الإنساني .

وإذا نظرنا نظرةً أدبيةً خالصةً نرى أنَّ اضمحلال قوى الإنسان بعد الحرب لا ييسر نشوء مُثُلٍ روحيةٍ صحيحةٍ ناضجة . بل يخشى أن تغلب على طبائع

الناس هذه الإباحية المنهوكة الضعيفة الأعصاب التي تفرُّ من مصاعب الحياة ، والتي لا تميز بين نزعات القلب وأفكار العقل . لا شكَّ أنَّ أمريكا عنصر صحيح في الحضارة الغربية ، فلعلَّ هذا الإقليم خالص من قيود الروايات القديمة ، ولعلَّ وجدانه الاجتماعي يقبل راضياً الأفكار والنزعات الجديدة .

* * *

إنَّ الشَّرق ، ولا سيما الشَّرق الإسلامي ، يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطاولة . ولكن يجب على أمم الشرق أن تتبيَّن أنَّ الحياة لا تستطيع أن تُبدِّل ما حولها حتى يكون تَبَدُّلٌ في أعماقها ، وأنَّ عالماً جديداً لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجي حتى يوجد في ضمائر الناس قبلاً . هذا قانون الفطرة الثابت الذي بينه القرآن في كلماتٍ يسيرةٍ وبليغةٍ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] إنه قانونٌ يجمع جانبي الحياة كليهما الفردي والاجتماعي . وقد اجتهدت في كتبي الفارسية أن أبيِّن للناس صدقه ، وأنَّه لجدير بالإكبار كلُّ مسعىً في العالم ـ ولا سيما في بلاد الشرق ـ يقصد إلى أن يرفع أنظار الأفراد والجماعات فوق الحدود الجغرافية ، فيولد أو يجدد فيها سيرةً إنسانيةً صحيحةً قوية .

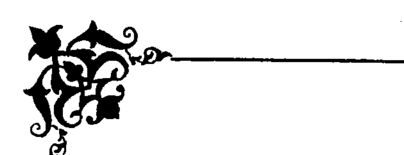
* * *

وأختم بالثناء على صديقي جودهري محمد حسين . ام . اي ، قد رتَّب مُسوَّدات « پيام مشرق » للطبع . ولولا احتماله هذه المشقة لكان عسى أن يتأخَّر نشرُ هذه المجموعة مدَّةً طويلة .

إقبال

* * *






القسم الأول

شَقَائِق الطُّور






- ١ -

شَهيدُ دَلالـه حَفْلُ الوجود وكلُّ الكائناتِ من السُّجُود[1]

ألم ترَ أنَّ شمسَ الأُفقِ لاحتْ بوجهِ الصُّبح من أثر السُّجُودِ ؟

- ٢ -

بقلبي من تحرُّقه ضياءُ ويجلو النُّور في عيني البكاءُ

فزاد من الحياة نوىً غبيٌّ يقول : العشقُ مسٌّ أو هُراءُ

- ٣ -

نسيمُ العِشْقِ في الجنَّات جارِ ويُنمي العِشْقُ أزهار البراري

ويخترقُ البحارَ له شعاعٌ فيهدي العشقُ حيتان البحار

- ٤ -

رموزُ العِشْقِ في ورَق الشقائقْ وغمُّ العِشْقِ في رُوحِ الخلائقْ

وإن تَصْدَع طباقَ الأرض تُبصر نصيبَ العِشْقِ من دمِ كلِّ عاشِقْ

- ٥ -

وما كلٌّ له في الحُبِّ كفلُ وما كلُّ الورَى للحُبِّ أهلُ

على وَرَقِ الشَّقائق وَسْمُ غمّ ويخلو منْ شرار القَلب لَعْلُ[2]

- ٦ -

بهذا المزج مثلَ الرِّيح[3] أسْري علامَ أهيمُ فيه ؟ لستُ أدري

فإنْ أظفرْ وإن أُخفقْ فإنّي شهيدُ تضرُّمِ الآمال عُمْري

---

(١) جمع ساجد .

(٢) اللعل : أي العقيق .

(٣) الريح : الرائحة .

ـ ٧ ـ

يقول العندليبُ : أيا صحابي ! أغيرُ الغمِّ في هذا التراب ؟
يَشيخُ الشوكُ في عَرضِ الفيافي ويذوي الوردُ في عُمُر الشبابِ

ـ ٨ ـ

لبَدْءٍ أو ختامٍ لَستُ أسْرِي أنا سرٌّ أحاولُ كَشْفَ سرٍّ
فإنْ بَدتِ الحقيقةُ دون ستر رجعتُ إلى « لعلَّ » و« ليت شعري »

ـ ٩ ـ

أقلبي ! كالفراش هوى ، إلامه ؟ ولا تمضي مضاء فتى ، إلامه ؟
بنارِكَ فاحترقْ يوماً وأقدمْ بنارِ الأجنبيِّ صلَى ، إلامه ؟[1]

ـ ١٠ ـ

أقمْ بدناً على كفِّ الغُبار[2] شديدَ الأسْر صُلْباً كالحجار
وقلباً فيه جيَّاشاً بهمّ كنهرٍ في حمى الأطواد جار

ـ ١١ ـ

أنجمَ الصُّبح تُسرع في فراقٍ لعلّك من رُقادي ضقتَ ذَرعا
ضللتُ بغفلتي سُبُلي ولكن أتيتَ وجُزْتنا يقظانَ تسعى

ـ ١٢ ـ

وكم ذا في الوجود من الحُبور ! أرى اللَّذاتِ في شَوق الظهورِ
ويَصدَع غُصنَه بُرعومُ زَهرٍ فيبسم للحياةِ منَ الشُّرور

ـ ١٣ ـ

تقول فراشةٌ منْ قبل خلقٍ أنلني لمحةَ قلقِ الحياة
رمادي فاذرُه سَحَراً ولكن أذقْني ليلةَ حُرَقَ الحياة

---

(١) هذه الرباعية مردوفة . فيها الروي قبل الكلمة المكررة .
(٢) يكثر التعبير في الفارسية عن الإنسان بكف غبار « مشت خاك » .

ـ ١٤ ـ

بني الإسلامِ ! سرٌّ في ضميري يُضيء كرُوحِ جبريلَ الرسولِ
أخادع آزريَّ الطبع عنه[١] فهذا السرُّ من سرِّ الخليل

ـ ١٥ ـ

أراكَ بسرِّ أفلاكٍ تجولُ وتجهلُ سرَّ نفسك يا جهولُ
فوَجِّه ـ كالنواة ـ إليك عينا ليُنبت منْ قرارتك النخيلُ

ـ ١٦ ـ

تَغنَّى طائرٌ سحراً طويلا فأبدَعَ شدوَه نغماً وقيلا :
أبِنْ عمَّا بصدرك لا تدعْه غناءً أو أنيناً أو عَويلا

ـ ١٧ ـ

أتبغي عند مِثلي مِنْ شرابٍ يرُدُّك منْ وجودك كالبعيد
فلا تطلُبْ بسوقي مِنْ متاعٍ سوى صدرٍ تمزَّق كالورودِ[٢]

ـ ١٨ ـ

تَسوءُكَ رَوضتي مَرأىً إذا لم يَسرُّكَ في طلابٍ بذلُ روحِ
أُبيِّن في عُروق الوَرد سِرّاً ربيعي ليس من لونٍ وريحِ

ـ ١٩ ـ

أنا في الروض مُنفردٌ غريبٌ على غصْني أنوحُ مع الرِّياح
فإنْ تكُ من رقاق القلب فابعُد فإنَّ دمي ليرشَحُ في نُواحي

ـ ٢٠ ـ

أهاب إسكندرُ بالخضر : أقبلْ وعان الكدَّ في بحر وبرِّ
وموتنْ في الوغى تزدَدْ حياةً إلامَ تحيد عن كرٍّ وفرِّ ؟

---

(١) آزري الطبع : الذي يشبه آزر والد إبراهيم ، وكان ينحت الأصنام ، وكان ولده الخليل يدعو إلى التوحيد .

(٢) جمعُ ورد . والورد في خياله يمزِّق صدره ليتجلَّى جماله .

ـ ٢١ ـ

لــه نقــشٌ يُجــدَّد كــلَّ حيــنٍ   فــلا تَبقــى الحيــاةُ علــى غِــرار
فــإنْ صــوَّرت يــومــك مثل أمــسٍ   فمــا يَحــوي تــرابــك مِــنْ شــرار

ـ ٢٢ ـ

بهــذا المَــرجِ مــا علَّقــتُ قلبــي   مضيــتُ ولــم تعــوِّقنــي القيــودُ
كــريــح الصُّبــح طفــتُ بــه قليــلاً   مضيــتُ ونضَّــرت منِّــي الــورودُ

ـ ٢٣ ـ

أجــاش بقطــرتــي بحــراً وردَّتْ   حُميَّــاه تــرابــي جــام جــمٍّ[1]
أقــام العقــلُ أصنــامــاً بــرأســي   خليــلُ العِشْــق بــادَرهــا بهــدمِ

ـ ٢٤ ـ

أتيــتَ الطُّــور تلْتمــسُ التجلِّــي   فروحُك منك ليست في وصال
فــأَقْــدِمْ فــي طــلابــك آدميّــاً   كــذاك اللهُ فــي طلَــب الــرِّجــال

ـ ٢٥ ـ

لخــوفِ المــوت قلبُــك فــي ارتعــادِ   ولــونُــك حــالَ مــنْ خــوفِ الشَّتــاتِ
فنفسَــك أُحْكِمَــنْ وازدد نضــوجــاً   فــإنْ تفعــل تعــشْ بعــد الممــاتِ

ـ ٢٦ ـ

دَع الــــرازيَّ فـــي تفسيـــر آي   فــإنَّ ضميــرنــا نعــم الــدليــلُ
يضــرِّم عقلُنــا والقلــبُ يصلــى   بــذا نمــرودُ فسَّــر والخليــلُ

ـ ٢٧ ـ

فــأبلــغْ شــاعــر الألــوانِ عنِّــي :   لهيبُــك كــالشَّقــائــق لا يَضيــرُ
فنفسَــك لا تُــذيــب بنــارِ قلــبِ   ولا ليــــلاً لمحـــزونٍ تنيـــرُ
جميلُـــك أو قبيحُـــك لا أراه   جَعلــتَ عيــاره ربحــاً وخُسَــرا
بهــذا الحفْــلِ مــن مثلــي وحيــداً ؟   أرى الــدُّنيــا بعيــنٍ فــيَّ أخــرى

---

(١) كأس جمشيد أحد ملوك الأساطير الفارسية كان يرى فيها العالم .

- ٢٨ -

دع الشُّطآن لا تركنْ إليها ضعيفٌ عندها جَرسُ الحياةِ
عليك البحرَ صارع فيه موجاً حياةُ الخلدِ في نَصَبٍ تُواتي

- ٢٩ -

أتكثرُ لي حديثاً عن حياةٍ ولسْتُ أراكَ فيها بالحقيقِ ؟
سَكِرْتُ بلذَّة التَّسيار حتَّى جعلتُ منازلي مِيْلَ الطَّريقِ[1]

- ٣٠ -

مَرَرْتُ بزهرةٍ ذبلتْ فقالتْ وجُودي مثلُ ما طارَ الشرارُ
يذوبُ لِمخْنَةِ النقاشِ قلبِي فليسَ لنقشِ ليقته قرار

- ٣١ -

أرى الدُّنيا على سعةٍ كحوتٍ من الأيام في بحرٍ عميقِ
فقلبَك أبصرنْ واعجب لبحرٍ منَ الأيام في كاسٍ غريق

- ٣٢ -

أنا في المرح حِدّيثُ الطيورِ ومقوَلُ كلِّ بُرعومٍ صَغير
فأسْلَمَ للصَّبا تُربي بموتي فما لي غيرُ طوفٍ بالزُّهور

- ٣٣ -

أوادي الورد يُبدي كلَّ شيء فما سرُّ الشَّقائق في لهيبٍ ؟
بأعيننا الرُّبى أمواجُ لونٍ فكيف تُرى بعينِ العندليبِ

- ٣٤ -

دماغي يَعشق الأصنام كفراً يربُّها ويعبد كلَّ حين
فأبصر في فؤادي نارَ عشقٍ بعيدٌ أنت مِن سَنَني وديني

---

(١) يعني : أن كلَّ منزل يبلغه يعدُّه علامة على الطريق لا غاية . والميل الحجر يبين المسافة .

- ٣٥ -

عوالمُ مِنْ نجومٍ لا تُحَدُّ | يطير الفكر فيها لا يُردُّ
ولكن في خفايا القلب يُلفى | لما يحتويه الحدُّ ، حدُّ

- ٣٦ -

بسلسلةِ القضاء ربطتَ رجلاً | وفي سعةِ العوالم ضقْتَ حالا
فقُم إن كنتَ في ريبٍ وحاول | تجدْ للرِّجل في الدنيا مجالا

- ٣٧ -

بضربك قد علتْ أنغامُ رُوحي | أفي روحي وخارجَها تكون ؟
برقك خامدٌ وبك اشتعالي | بلا كيفٍ فكيف تُرى بدوني

- ٣٨ -

أيا قلبي ! أيا قلبي ! أيا قلبي ! | أيا فُلْكي ! ويا برِّي وبحري !
قَطَرْتَ على تُرابي كالنَّدى أمْ | نبتَّ بتُربتي بُرعوم زهرِ ؟

- ٣٩ -

أتسأل من أنا من أين جيت | حييتُ بما على نفسي طُويتُ
بهذا البحر مثلَ الموج أسري | إذا لم أطو في نفسي فنيتُ

- ٤٠ -

عليك السَّيْرَ لا ترغب مَقيلا | وسرْ كالشَّمس لا تَرقُبْ دليلا
وهَبْ للآخرينَ متاعَ عقلٍ | ونارَ العِشْق فاحْفَظْها بَديلا

- ٤١ -

ألا يا عشقُ ! يا رمزَ الفؤاد ! | ويا زرعي النضير ! ويا حصادي !
تقادمَ أهلُ هذا التُّرب فاخرجْ | بآدم مُحدَثٍ من ذا الرَّماد

- ٤٢ -

يرى قلبُ الشُّجاع الليث وهماً | وفي قلب الجبان الظَّبي بَبْرُ
فإن تجبُنْ رأيت الموجَ وحشاً | وإنْ تشجُعْ فإنَّ البَحْرَ برُّ

- ٤٣ -

أخمـــراً خلْتنـــي أمْ كـــأسَ خمـــرِ ودُرّاً خلتنـــــي أم كيـــــس درّ
أرانـــي غيـــر روحـــي وهـــي غيـــري متـــى أنظـــر إلـــى مكنـــون ســـرِّي

- ٤٤ -

تقـــول : بطيـــرنـــا عَلِقـــتْ قيـــودُ وفـــي شَـــركِ الجســـوم لهـــا همـــودُ
ومعنـــى الـــرُّوح بـــالأجســـام يعلـــو مِســـنٌّ سيـــوفنـــا هـــذي الغُمـــودُ

- ٤٥ -

فكيـــف بقلبنـــا وُلِـــدَ الـــرَّجـــاءُ وكيـــف ســـراجُ منـــزلنـــا يُضـــاء
ومـــن فـــي العيـــن يبصـــر ؟ مـــا يـــراه ؟ وكيـــفَ حـــوَىٰ النُّهـــى طيـــنٌ ومـــاءُ

- ٤٦ -

لنـــا كـــون لأزميـــلٍ ونحـــتٍ يقلِّبـــه صبـــاحُـــك والمســـاءُ
مثـــالٌ مـــن تُـــراب لـــم يكمَّـــل يســـوِّيـــه بمبـــرده القضـــاءُ

- ٤٧ -

طـــريقُـــك فـــانحتنـــه فـــي كفـــاحٍ طـــريـــقُ ســـواك مسلكُـــه عـــذابُ
فـــإنْ أبـــدعـــت فـــي عمـــلٍ فـــريّ وإنْ يـــك مـــأثمـــاً فلـــك الثـــوابُ

- ٤٨ -

دليـــلُ القلـــب لا يـــرضـــى نـــزولًا ولا يُـــرضيـــه مـــاؤك والتُّـــرابُ
فـــلا تحسبـــه فـــي جســـدٍ مقيمـــاً فـــلا يـــرضـــى بشـــطٍّ ذا العُبـــاب

- ٤٩ -

تَخـــذْتُ لخلـــوتـــي طينـــي ومـــائـــي وبُـــوعـــدَ بيـــن أفـــلاطٍ وبينـــي
فلـــم أستجـــد يـــومـــاً عيـــن غيـــري ولـــم أر عـــالمـــي إلّا بعينـــي

- ٥٠ -

تـــرى رمـــز الحيـــاة بكـــل كـــمٍّ مجـــازٌ فيـــه يـــا قلبـــي الحقيقـــه
بتُـــربٍ مظلـــمٍ ينمـــو ولكـــن لـــه عيـــنٌ إلـــى شمـــس الخليقـــه

- ٥١ -

يُضيء على المروج وكلِّ سَهْبٍ وكاسُ الورد فيه نورُ حُبّ
وما تَغْشَى الورى ظلماتُ ليلٍ فحرقته السِّراج لكلِّ قلب

- ٥٢ -

وبالعدَمِ استزابت ثمَّ راغت فحلَّت قلبَ آدم للثَّواء

- ٥٣ -

بقلبي سرُّ جُثمانٍ وروحٍ فلا فزع إذا أجلي أتاني
فإمَّا غاب عن عينيَّ كونٌ فباقٍ ألفُ كونٍ في جناني

- ٥٤ -

مزاجَ الزَّهر أعرف في يقينٍ وريحُ الورد في خَلَد الغصونِ
وحبَّبني إلى الأطيار أنِّي عَرَفتُ لها مقاماتِ اللُّحونِ

- ٥٥ -

نظامُ الكون منْ شعر الرَّجاء له الأوتار مِنْ وتَر الرَّجاء
بعيني كلُّ ما يمضي ويأتي هو اللَّمحاتُ مِنْ دهر الرَّجاء

- ٥٦ -

يهيمُ القلبُ في أثر الرَّجاءِ وصدري من ضجيجٍ في عناءِ
فلا تطمعْ جليسي ! في حديثي فإني مِنْ فُؤادي في نداءِ

- ٥٧ -

أرى الحكماءَ تحطمُ كلَّ شكلٍ ومِنْ هذا الوجودِ بسومنات[(١)]
يريدون الملائك في طلابٍ وما ظفروا بآدم في الحياة

- ٥٨ -

جلستُ مع الطبيعة ألف عامٍ وُصِلْتُ بها وعن نفسي فُصِمْتُ
قُصارى سيرتي في ذاك أن قد نحتُّ ، وقد عبدتُ ، وقد حطَمْتُ

---

(١) معبد أصنام معروف في الهند .

- ٥٩ -

بنفسي جلوةُ الأفكارِ ، ما هذا ؟ وحولي محشر الأسرارِ ، ما هذا ؟
أبِن لي يا حكيمُ : يقيم جسمي وروحي دائم التَّسيار . ما هذا ؟

- ٦٠ -

بكيفك إنْ تُحِطْ خُبراً وكمِّك يفضْ مِنْ قطرةٍ لك فيض يَمِّك
فيا قلبي لم استجداءُ شمسٍ ؟ من الأنفاس نوِّرْ ليلَ غمِّك

- ٦١ -

أفق ما القلبُ بالأنفاس يَحيا ولا هُو رهنُ ما يبقى ويفنى
أخا الأوهامِ لا ترهَبْ حِماماً فإنْ نَفسٌ مضى فالقلبُ يبقَى

- ٦٢ -

إلى أهل التَّصوُّف والصفاء رجالُ اللهِ أربابِ الضياء :
أنا عبدُ الهمَّة عبد نفس بنورِ النَّفس للخلَّاق راء

- ٦٣ -

بعُدَّة حاننا الغبرا غُبار ودورةُ كأسِنا الفُلكُ المُدار
حديثُ جهادنا مُضنٍ طويل ودُنيانا لقصَّتنا اختصار

- ٦٤ -

وما علَّقتُ بالأنغام قلبي وفي نغَم الحياة أنا الخبيرُ
وقد غنَّيتُ في الأغصان حتَّى تَصيحَ الطَّيرُ : من ذا ؟ يا زهورُ !

- ٦٥ -

أثرتُ بنغمتي كلَّ النوادي ومن شرَرِ الحياةِ جَعلتُ زادِي
أضاء القلبُ من عقلي ولكنْ جعلتُ عيار عقلي في فؤادي

- ٦٦ -

رددتُ العُجم فتياناً بزمْري وراجَ متاعُهُم منْ بعد خُسرِ
وكانوا هائمين بكلِّ وادٍ وقافلةٌ نَظَمْتُهُم بشعري

- ٦٧ -

بـروحِ العُجْـمِ مِـنْ نَغَمـي شـرار | قـرعـتُ لهـم بـأجـراسي فسـارُوا
وعـاليـتُ الحـداء لهـم كعُـزْفـي[1] | تبـاطـأ محمـلٌ ونـأتْ ديـارُ

- ٦٨ -

نفثـتُ النَّـار مِـنْ روحـي نفثـتُ | وصـدرَ الشَّـرق قلبـاً قـد وَهَبْـتُ
وصيَّـر طينَـه لهبـاً نُـواحـي | كبـرقٍ فـي سجـايـاه نَفَـذْتُ

- ٦٩ -

بـأغصـانِ الـرَّجـاء جنيـتُ أكـلاً | وأفضـى الـدَّهـر بـالسـرِّ المنيـع
أرامـيّ اخـشَ للبستـان ربَّـاً | فـإنَّ معـي رِسـالاتِ الـرَّبيـع

- ٧٠ -

بحـار العُجـم ليـس لهـا قـرارُ | وفـي أحشـائهـا دُررٌ كبـارُ
ولكـنْ لا أحـبُّ ركـوبَ بحـرٍ | إذا لـم يُخـشَ فـي مـوجٍ خطـارُ

- ٧١ -

علـى دُنيـاك تقضـي بـالهـوانِ | وسـتـرٌ للمغيَّـب كـلُّ آن
فـأحْكـم يـومَـك المشهـودَ واعلـمْ | بـأنَّ غـداً ضميـرٌ فـي الـزمـانِ

- ٧٢ -

كَـرِهْـتَ سيـادةَ الإفـرنـجِ لكـنْ | سجُـودُكَ للقبـابِ وللقبـورِ
ألفـت عبـادةَ السَّـادات حتَّـى | لتنحـتُ سـادةً لـك مـن صخـورِ

- ٧٣ -

إلام تعيـش فـي رثِّ الإهـاب ؟ | إلام تعيـش نمـلاً فـي تـرابِ ؟
فَطِـرْ كـالصَّقـر معتـزمـاً وحلِّـقْ | إلامَ أسيـرُ حـبٍّ فـي اليَبَـابِ ؟

---

(١) إشارة إلى بيت عرفي الشيرازي :

نـوارا تلـخ تـرمي زن جـوذوق نغمـه كمـا يـابـى
حدى راتيز ترمى خوان چون محمل راكران بينى

- ٧٤ -

اتخذ في الوردِ والأزهار عشاً ... ومِنْ طيرٍ دروساً في انتحاب

وإنْ ينقصْ قُواك الشيبُ فاؤخُذْ ... من الدُّنيا نصيباً من شباب

- ٧٥ -

أهابَ بمسمعيَّ تُراب قبرٍ : ... وتحت الأرض يُمكن أن يُعاشا

له نَفَسٌ وليس لديه روحٌ ... ذليلٌ في مُرادِ سواه عاشا

- ٧٦ -

سماطي ليسَ فيه ما يروقُ ... ولا في الكأس لألأتُ الرَّحيق

غزالي يغتذي عُشب المَوامي ... ولكن صدرُه مسكٌ فتِيق

- ٧٧ -

قُلوبُ المسلمين قبسن ناري ... ودمعي من عيونهمُ هَتونُ

برُوحي مَحْشر قد غابَ عنهم ... فلم تر ما رأيتُ لهم عيونُ

- ٧٨ -

أرى للعشقِ تصريفاً عجيباً ... يقلِّب كيف ما يهوى القلوبا

رماك بأدْمعٍ وسباكَ نفساً ... وصيَّرني إلى نفسي قريبا

- ٧٩ -

رأيتك لا تزالُ أسير طينٍ ... إلى تُركٍ وأفغانٍ تُردُّ

أنا بشرٌ بلا لونٍ وريحٍ ... وللتوران أو للهند بعدُ

- ٨٠ -

أثار الشِّعْرُ في جنبيَّ نارا ... ورَدَّ التُّربَ في طُرقي شَرارا

حديثَ الحبِّ حاوَلَهُ لساني ... فزاد السرَّ تبياني سِرارا

- ٨١ -

تولَّى بعدُ عن عقلِ الفنون ... وأدمىٰ قلبه عِشْقُ الشُّجونِ

فلا تستفتِ إقبالاً لشيء ... فإنَّ حكيمنا رَهْنُ الجنونِ

* * *






القسم الثاني

أفكـــار






الوردةُ الأولى

لا أرى في المُروجِ لي من قريع ... أنـا أُولـى زهـورِ هـذا الـرَّبيـع
أبتغـي فـي الغـديـر صـورة نفسـي ... لأرى وجـهَ مـؤنـسٍ لـي سميـع
فـي سُطـوري رسـالـةٌ بيـراع ... خـطَّ سطـر الحيـاة فـي تـرصيـع
أمس قلبـي ، وعبـرةُ اليـوم عينـي ، ... وغـدي مُنْيتـي وكـلٌّ بـديـع
وأنـا النَّجـمُ خلَّفتـه الثُّـريّـا ... نَسَـج التُّـربُ ثـوبَ وردٍ عليَّـا

* * *

دعاء

أيـا مـالئـاً كـاسـي بحـانـةِ فِطـرتـي ... أذبْ طينَ كأسي من حرارة خمرتي
وصيِّـرْ أنيـنـي ثـروة العشـق واجْعَلَـنْ ... تـرابـاً بسينـائـي تسعُّـر شُعلـة
إذا مـتُّ فـاجعلنـي سِـرَاجَ شقيقـةٍ[1] ... وبـالبيـدِ أحـرقنـي وزدْ نـار وشْمتـي

* * *

رائحةُ الورد

وحوراءَ في الخُلد ضاقتْ فقالتْ : ... « جَهلنـا بمـا تحتنـا مِـنْ جهـاتِ
يحيِّـرُ عقلـي نهـارٌ وليـلٌ ... ومـا قيـل عـن مَـوْلـدٍ أو ممـات
غَـدَتْ ريـحَ وردٍ وذرَّتْ بغُصْـنٍ ... فحلَّـت بعـالـمِ مـاضٍ وآت

---

(١) يعني : زهرةً من الشقائق .

وتَفتَّح عيناً وتَبَسَّم كمّاً ... وبعد نماءٍ هَوَتْ في شتات

لهذي الطليقة لم تبق ذكرى ... سوى آهةٍ سمَّت بالشَّذاةِ[1]

* * *

نشيد الوقت

قد أحاطَ الشَّمسَ حِجري ... وحوى الأنجم صَدْري

أنا لا شيء ولكنْ ... فيكُمُ روحيَ تسري

أنا في دُورٍ وقفرٍ ... أنا في كوخٍ وقصرِ

أنا داءٌ ودواءٌ ... وأنا عيْشةُ يُسْر

أنا سيفُ الدَّوران[2] ... أنا عَين الحيوَان[3]

إنَّ جنكيزَ وتيمو ... رَ قليلٌ من غُباري

ثورةُ الإفرنج فيها ... نَفَثَاتٌ منْ شراري

إنَّما الإنسان والدُّنيا ... نُقوشي وابتكاري

ودماءٌ مِنْ قلوبٍ ... في ربيعي كالبُهار

أنا لَفْحُ النِّيرانِ ... أنا رَوْض الرِّضوان

أنا سيَّارٌ مقيمٌ ... إنَّ هذا الأمرَ إمرُ

إنَّ في خمرةِ يومي ... منْ غدٍ يظهر سِرُّ

ألفُ كونٍ ، فانظُرَنْها ... في ضميري تستسرُّ

ونجومٌ في حباك ... وقبابٌ فيّ خُضرُ

أنا ثوبُ الإنسان ... أنا سرُّ الرحمن

---

(١) الشذاة : الرائحة .

(٢) دوران الفلك .

(٣) ينبوع الحياة ، وعين الحياة في الأساطير شرب منها الخضر ، فلم يمت .

سِــرِّي التَّقــديــرُ والتــد　　بيــر مــنْ سحــرِ فنــونِــكَ
أنـــت مجنـــونٌ بليلـــى　　أنـــا صحـــراءُ جنـــونـــك
أنـــا كـــالــرُّوح بَـــرِّي　　مــن خيـــالات ظنـــونـــك
أنـــت فـــي جـــوفـــي سـرٌّ　　وأنـــا ســـرُّ شُـــؤونـــك
أنـــا حـــاد أنـــت نُـــزُلٌ　　أنـــا حَقْـــلٌ أنـــت حـــاصـــل
أنـــت فيَّـــاضٌ بلحـــنٍ　　أنـــت نـــار فـــي المحـــافـــل
يـــا أسيـــر الطِّيـــن فكِّـــر　　أنـــت عـــنْ قلبـــكَ غـــافـــل
انظـــرنْـــه مـــلءَ كـــأسٍ　　وهـــو بحـــرٌ دون ســـاحـــل
إنَّ مـــوجـــاً فيـــك يعلـــو　　منـــه يبـــدو طـــوفـــانـــي

* * *

الرَّبيع

ـ ١ ـ

هلـــمَّ فـــإنَّ سحـــاب الـــربيـــع　　يخيِّـــم فـــوق الـــرُّبـــى والـــوهـــاد
وشَـــذو العَنـــادلِ فـــي كـــلِّ وادِ
ودُرَّاجُـــه والقطـــاء فـــي تهـــادي
على حـافة النَّهـر جذْلـى شوادي
شقيـــقٌ وورد ضحـــوكٌ يُنـــادي
فطـــرفـــك ســـرِّح بهـــذا المُـــراد
هلـــمَّ فـــإنَّ سحـــاب الـــربيـــع　　يخيِّـــمُ فـــوق الـــرُّبـــى والـــوِهـــاد

ـ ٢ ـ

هلـــمَّ فمـــلءُ الـــرُّبـــى والسُّهـــولِ　　قـــوافـــلُ أزهـــاره والـــوُرودِ
نسيـــمُ الـــرَّبيـــع علـــى كـــلِّ عـــودِ
وللطَّيـــر إبـــداعُهـــا فـــي النشيـــدِ

ومزّقتِ الجَيْبَ حُمْرُ الخدود[1]
جنى الحُسنُ ناشىء زهرٍ نَضيدِ
وللعِشْق إبداعُ غمٍّ جديدِ
هلمَّ فملء الرُّبى والسهولِ قَوافلُ أزهارِه والورودِ

ـ ٣ ـ

صفيرُ البلابلِ ملءُ الجِواء وصوتُ الصَّلاصلِ ملءُ النَّسيم[2]
دمُ المرج في جوفه كالحَميمْ
فيا قاعداً صامتاً لا يريمْ !
دعِ الصمت واتركْ وَقار الحليمْ
وخَمْرَ المعاني اشربَنْ يا سقيمْ !
تدثَّر بوردٍ وغنِّ النديمْ
صفيرُ البلابلِ ملءُ الجِواء وصوتُ الصَّلاصل ملءُ النَّسيم

ـ ٤ ـ

دعِ الدُّورَ واطلبْ فسيح البراري وانظر إلى صفحاتِ الجمال
على حافة الماء دونَ ملالِ
تأمَّلْ تَرَقْرُقَ ماءٍ زُلالِ
وحدِّقْ إلى نَرجسٍ ذي دَلالِ
بُنَيّاتُ نيسان ذاتُ اختيالِ
وقَبِّل عيوناً لها كاللآلي
دعِ الدورَ واطلبْ فسيح البراري وانظر إلى صفحات الجمال

ـ ٥ ـ

وعَيْنَ البصيرة فانظر بها أيا غافلاً عن عيان الخَلْقِ !

---

(١) شقائق النعمان .
(٢) الصلصل : الفاختة ، أو طائر يشبهها ، والكلمة نفسها في شعر إقبال .

شقيــقٌ بــدا حَلَقــاً فــي حلَــقْ
بــأعطــافــه لهــبٌ قــد عَلِــق
علــى كبــدٍ فيــه ذات حــرق
يلــوح نــدىً مــن دمــوعِ الفَلَــق
فحــدِّق إلــى أنجــم فــي شفــق[1]

وعيــنَ البصيــرة فــانظــرْ بهــا   أيــا غــافــلاً عــن عيــان الخَلْــقِ

- ٦ -

ثــرى المــرجِ صــرَّح فــي هَيْجــه   بمــا أضمــرتْ مُهَــجُ الكــائنــاتِ

فَنــاءُ الصفــات وكــونُ الصفــاتِ
ومــا أبــدتِ الــذَّات مــنْ جَلــواتِ
ومــا خِلْتَــهُ مــن معــانــي الحيــاةِ
ومــا خِلْتَــه مــن معــانــي الممــاتِ
فليــس لــه هــاهنــا مــنْ ثبــاتِ

ثــرى المــرجِ صــرَّح فــي هَيْجِــه   بمــا أضمــرتْ مهــجُ الكــائنــاتِ

* * *

الحياةُ الخالدة

لا تظــنَّ الخمَّــارَ وافــى ختــامــاً   كَمْ مِنَ الرَّاح في عُروقِ الكروم !
يجمُــل المــرحُ لا بثــوبِ حيــاةٍ   مــزَّقْتــه النَّسيــمُ كــالبُــرعــوم
مــنْ يُحــطْ بــالحيــاة لــم يــرض قلبــاً   لــم تَخِــزْه المنــى بشــوكٍ أليــمِ
مُحكمــاً كــالجبــال عــشْ ، لا ضعيفــاً   واهــنَ النَّــار طــائشــاً كــالهشيــم

* * *

---

(١) يشبه النَّدى على الشقيق بالأنجم في الشفق .

أفكار النجوم

سَمِعْتُ بكوكبٍ لأخيه يشكو : لنا بحرٌ وليس يَلوحُ ساحلُ
خُلقنا للمسير بلا وقوفٍ فليس لركبنا أبداً مَنازلُ

* * *

فإنْ تمض النجوم كما نراها فما جدوى العناء ؟ وما نُفيدُ ؟
بأشراك الزَّمان لنا إسارٌ سعيدٌ منْ يُجانبه الوُجود

* * *

لَهذا العبءُ محمله شديدُ فليتَ وجودَنا عدمٌ أبيدُ
كرهتُ القبَّة الزرقاء أوجاً حضيضُ التُّربِ خيرٌ لو نريدُ[1]

* * *

فطوبى لأبي آدم في طعانٍ قد استولى على طرْف الزَّمان
خليقٌ بالحياة له قوامٌ يُجدِّد أو يُخلِّق كلَّ آن

* * *

الحياة

بكى في الظَّلام سحابُ الرَّبيع فقال : الحياة بكاءٌ مديدْ
فقال له البرقُ في ومضه : هل الضِّحْكُ في لمحة ؟ لا تزيدْ
فمن أبلغَ الروضَ هذا الحديث فصَار حوارَ النَّدى والورودْ ؟

* * *

---

(١) لو كان لنا إرادة واختيار .

محاورة العلم والعِشْق

العلم :

أنــا ســرُّ الكــواكــب والجهــات وفــي قيــدي ثــوى مــاضٍ وآت

وعينــي حــدَّقــت فيمــا أمــامــي ومــا نظــري وراء السَّــابحــات ؟

وكــم نغَّمــتُ فــي عُــودي وبــوقــي وأســراري عــرَّضْــتُ بكــلِّ ســوْق

العشق :

بسحــركَ سُجِّــرت هــذي البحــارُ ومــلءُ الجــوِّ سَمُّــك والشــرار

وكنــتَ لــي الصــديــق فكنــت نــوراً ونــوركَ مــذ هَجَـرتَ حمــاي نــارُ

وُلــدتُ الأمــس فــي حــرم الــرحيــم وصــرْتُ اليــوم فــي قيــد الــرجيــم

هلــمَّ فَــرُدَّ روضــاً ذا اليبــابــا ورُدَّ مَشيْــبَ دُنيــانَــا شَبــابــا

هلُــمَّ بــذرّةٍ مِــنْ نــار قلبــي أقــم فــي الأرض فــردوسا عُجابا

كــلانــا الــدَّهــرَ خــلٌّ لا يجــورُ للحـــنِ واحــدٍ بــمّ و زيــرْ

***

غناءُ النجوم

وجــودُنــا نظــامُنــا وسُكْــرنــا انسجــامُنــا

فــي دَوْرنــا دوامُنــا لا يُــرتجــى مقــامُنــا

فــي فلــكٍ مــرامنــا ننظــر ســائــراتِ

وجلــوةَ الشهــودِ ومظهــرَ البــدود[1]

---

(١) جمع بد ، وهو الصنم ، معرب بت .

ومعـــرَك الـــوجـــودِ والعـــدْم والمـــوجـــودِ
والغَيـــب والمشهـــودِ ننظـــر ســـائـــراتِ
وحَلبـــةَ الطِّعـــانِ ونشـــأةَ الشُّجعـــانِ
وغِيـــرَ التيجـــانِ وذِلَّـــةَ السُّلطـــانِ
ولعـــبَ الـــزَّمـــانِ ننظـــر ســـائـــراتِ
مضـــى زمـــان المـــولـــى والعبـــدُ قـــد تـــولَّـــى
سِكنـــدرُ قـــد ولَّـــى وقيصـــرُ قـــد ذلَّا
والـــوثـــنُ اضْمَحـــلاَّ ننظـــر ســـائـــراتِ
والصمـــتَ والصيـــاحـــا والـــذُّلَّ والكفـــاحـــا
والخنْـــعَ والطمـــاحـــا وتـــارةً أفـــراحـــا
وتـــارة أتـــراحـــا ننظـــر ســـائـــرات
عقلُـــك فـــي عَقـــدٍ وَحـــلّ مِنْ كمْ وكيف في شُغُل
مثـــل غـــزال قـــد عُقِـــل مضطـــربٌ ومضمحـــلّ
ونحـــنُ فـــي العليـــا نحـــلّ ننظـــر ســـائـــراتِ

* * *

مـــا السرُّ مـــا الظهـــور ؟ ومـــا الـــدُّجـــى مـــا النُّورُ ؟
مـــا القلـــبُ مـــا الشعـــورُ ؟ مـــا فطـــرةٌ ضجـــورُ ؟
مـــا الغيـــبُ والحضـــورُ ؟ ننظـــر ســـائـــراتِ
كُفـــركَ عنـــدنـــا أمـــمُ حـــولـــك عنـــدنـــا لمـــمُ
يـــا مـــن بصـــدرِه خضـــمُ قنعـــتَ بـــالظِّـــل انسجـــمْ
نحـــنُ بعـــالـــمِ نهـــمٌّ ننظـــرُ ســـائـــراتِ

* * *

نسيمُ الصُّبح

أجـــيء مـــن لـــجٍّ بَحـــرِ ومـــن قـــلال الجبـــالِ
مُسيَّـــراً لســـت أدري مـــن أيـــن شُـــدَّت رحـــالـــي
أُزجـــي لِطـــائـــر غـــمٍّ بشـــرى ربيـــعِ الجمـــالِ
ونـــاثـــراً تحـــت عُـــشٍّ نِثَـــارَ زَهـــرٍ غَـــوالِ
بخُضـــرة أتـــرَدَّى وبـــالشقيـــق اتصـــالـــي
حتَّـــى يهـــجَّ فيـــه لـــونـــاً وريحـــاً وصـــالـــي
يمـــسُّ أوراق وردٍ تلطُّفـــي واحتيـــالـــي
فـــلا تميـــلُ غصـــونٌ مـــن طـــوفـــيَ المتـــوالـــي
وشـــاعـــرٍ هيَّجَتْـــهُ همـــومُ عِشْـــقٍ لقـــالِ
مـــزجـــتْ أنفـــاس صـــدري بلحنـــه والمقـــالِ

* * *

نصيحة صقر لفرخه

تعلَّـــم بنـــيَّ بـــأنَّ الصُّقـــوز لهـــا قلـــبُ ليـــثٍ وجســـمٌ صغيـــر
فكـــنْ مُحْكَـــم الـــرأي شهمـــاً جسـورا علـــيَّ السجـــايـــا أبيـــاً غيـــورا
بُغـــاث الطيـــور اهجـــرنهـــا بعيـــدا ودعهـــا إذا لـــم تُـــرِدْ أن تصيـــدا
فتلـــكَ الـــرعـــاديـــدُ نســـلُ اللئـــام تـــدسُّ منـــاقيـــرهـــا فـــي الـــرَّغـــامْ
أرى البـــازَ صيـــداً لمـــا اصطـــاده إذا قلَّـــد الصيـــد مـــا اعتـــاده[1]
فكـــم بـــاشـــقٍ قـــد أتـــاه النَّـــوى بصحبـــةِ لقَّـــاطِ حـــبٍّ هـــوى

---

(١) يعني : إنْ قلَّد الصقرُ الطيور الضعيفة التي يصطادها في عاداتها كان هو صيداً لها مغلوباً على أمره .

فنفسكَ فاحفظْ وعِشْ في جذل جريئاً متيناً قويَّ العضل
ودَعْ للدَّراريج لينَ الجسد[1] وكن مخلباً كالمُدى أو أحدّ
متاعُ الحياة ، تعلَّم ، جهادُ وصبرٌ على محنةٍ واجتهادُ
نقول لفرخِ عقابٍ عتيق : « بريق الدِّماء يفوق العقيق »
ولا تبغ سِرباً كَسِرْب الغنم توحَّدْ كقومك منذ القدم
سمعتُ وصاة الصّقور العتاق بألا نقيم بظلٍّ وساق
فليس لنا في رياضٍ مجال فسيحُ الفيافي لنا والجبال
ولقطك حبّاً بأرض خطاء حبانا الإله عنانَ السَّماء
فأمَّا خطىً في التُّراب النجيب[2] فأشرف منه حمام ريب
فإنَّ بساطَ البزاة الحجر يحدُّ مخالبهنَّ الصَّخر
نماك الأوابدُ زرق العيون كأنك عنقاء جوٌّ متين
أصيلٌ أبيٌّ بيوم الخطر كفيلٌ بإنسان عين النَّمر
جناحُك منْ سَطَوات البروق من الشُّهب فيك كريمُ العروق[3]
فَطِرْ في السموات لا تخشَ خطبا وكلْ ما أصبتَ يبساً ورطبا
ولا تقبلنَّ طُعمةً من أحد وكنْ راشداً واستمعْ للرَّشد

* * *

سوس الكتب
(الأرضة)

سمعتُ : بمكتبي ليلةً يُنادي الفراشة سُوسُ الكتاب

---

(١) دراريج : جمع دراج وهو طائر معروف .
(٢) يعني : الصقر ونحوه ، وكلمة النجيب في الأصل .
(٣) الشهب : أي البيض ، وفيها تورية بشهب السماء .

يقول مررتُ بكتْب ابن سينا ... ونقَّبْتُ في كتُبِ الفَارِيابي
ولم أدر حكمة هذي الحياة ... وما زلت من ظُلمتي في حجابِ
تُجيبُ الفراشةُ في حُرقةٍ : ... أرى نكتةً لا تُرى في كتابِ
رأيتُ الكفاحَ يُعدُّ الحياه ... رأيت الكفاحَ يُمدُّ الحياه

* * *

الشَّقيقة[1]

نارٌ بِصَدْرِ عِشْقٍ ... في أزلٍ أنيرُ
شمساً أرى وفي كلّ ... ذرَّة أثور
شرارَها من ناري ... السماءُ تستعير
حللتُ صَدْرَ مَرجٍ ... كنفسٍ أدورُ
وكالنَّدى من تُربيَ ... غُصنٌ بدا نضيرُ
قال : قفي قليلاً ... ولهبي يغورُ
وما ثواء قلبٍ ... من ألَمٍ يسيرُ ؟
ثوى بضيق غُصنٍ ... في قلقٍ يفور
حتَّى كُسيتُ لوناً ... وعبقَ العبير
فراشةٌ في قلقٍ ... تطيرُ كلَّ ناحيه
على اللَّهيب رفرفَتْ ... حتَّى كأنَّه هيَه

أنا وأنت قاليه[2]

أو كوكبٌ في صدره ... مُستترُ الضِّياءِ

---

(١) واحدة الشقائق ، التي تسمى شقائق النعمان ، وهي في الشعر مثال لحرقة القلب . انظر المقدمة .

(٢) يعني : تحبُّ الوحدة وتكره التَّعدد ؛ الذي يقال فيه : أنا وأنت .

وقد تدلَّى هابطاً في الأرضِ لاجتلاءِ
من فلك السَّماءِ
أو قمر مصغَّرٌ بجلوةٍ تمامُ
فمنَّةُ الشمس على شُعاعه حرامُ
لم يحوه مُقام
يا لك من يراعة تصوَّرت من نورِ
مَسيرها سِلْسِلَةُ الغيابِ والحضورِ
وسنَّة الظهور
يا مشعلاً للطَّير في معتكرِ الظَّلام
ما حُرقة أحسستها فأنت في هُيام ؟
حرارةُ الإقدام
نحن ـ وقد نبتنا مثلك من تراب ـ
نجهل في اضطرابِ نبصر في اضطراب
نُخفق في الطِّلاب
أقولُ قول واعٍ مجرِّبٍ شفيق :
لا تسعيَنْ لنُزْلٍ وامضِ على الطَّريق
وارضَ بذا التوفيقِ

***

الحقيقة

تقول لبطةٍ صَحبت عُقاب : أرى ما أدركت عيني سرابا
أجابتها محاورةً بحق ولكني أرى ماءً عُبابا
فقال الحوتُ في لُجٍّ عميق : هنا شيءٌ ويضطرب اضطرابا

***

حداء

نغمةُ حادي الحجاز

يـــا نـــاقتـــي الخطَّـــارة
وظبيتـــــي المعطــــــارة
وعُـــدَّتـــــي والشَّـــــاره
والمـــــالُ والتجـــــارة
يـــا دولتـــي السيـــارة !

حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً   منـــزلنـــا قـــريـــبُ

مطـــربـــةُ الـــرُّغـــاء
جميلـــــةُ الـــــرُّواء
محســـــودةُ الحسنـــــاء
وغَيـــــرةُ الحـــــوراء
بُنيَّـــــةَ الصَّحـــــراء !

حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً   منـــزلنـــا قـــريـــبُ

كـم غُصتِ في السَّراب
فـــي وقـــدة اليبـــاب
وســـرتِ لـــم تهـــابـــي
فـــي اللَّيـــل كـــالشُّهـــاب
والنَّـــومُ عنـــك نـــائـــي

حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً   منـــزلُنـــا قـــريـــب

قطعـــةُ غيـــمٍ غـــادي
سفينـــــةُ الـــــروَّاد
كـــالخضـــر فـــي البـــوادي

تمضيـــن فـــي ســـداد

فلـــذةَ قلـــب الحـــادي !

حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً منـــزلُنـــا قـــريـــب

هُيـــامـــكِ الـــزِّمـــام

وسَيـــــركِ الأنغـــــام

يتعبُـــــك المُقـــــام

لا الجـــــوع والأوام

والسَّفـــــر المُـــــدام

حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً منـــزلُنـــا قـــريـــب

ممسيـــةٌ فـــي اليمـــنِ

مصبحـــةٌ فـــي قَـــرَنِ

تـــريـــنَ حُـــزنَ الـــوطـــنِ

كـــالخـــزِّ تحـــت الثَّفـــنِ

إيـــه غـــزالَ الخُتَـــنِ !

حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً منـــزلُنـــا قـــريـــب

بـــدر السمـــاء نَعســـا

خلـــف التِّـــلال خَنســـا

والصُّبـــحُ قـــد تنفَّســـا

مـــزَّق هـــذا الغلَســـا

والـــريـــح تـــزجـــي نفســـا

حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً منـــزلُنـــا قـــريـــب

لحنـــي دواءُ السَّقـــم

والـــروحُ مـــلءُ نَغمـــي

يحـــدو الـــركـــاب كَلِمـــي

مـــنْ جَـــارحٍ وبلســـم

هلــمَّ بنــتَ الحــرمِ !
حُثِّـي الخطـى قليـلاً منــزلُنــا قــريــب

* * *

بين الله والإنسان

خَلَقْــتُ الأنــام لطيــنٍ ومــاء خلقــتُ تتــاراً وزنجــاً وفُــرسـا
خلقـتُ مـن التُّـرب هـذا الحـديـد وسهمــاً خلقــتُ وسَيفــاً وتُــرسـا
وفــأســاً خلقــتَ لجــذعٍ وغُصــنٍ وسجنــاً صنعــتَ لطيــر مغنِّــي
الإنسان :
خلقــتَ الظَّــلام فصُغــتُ السِّــراج وطينـاً خلقـتَ فصُغـتُ الكـؤوسـا
خلقــتَ جبــالًا وبيــداً ومــرجــاً خلقــتُ حــدائقهــا والغــروســا
أنــا مــنْ حجــارٍ صنعــتُ مــرايــا أنــا مِــنْ سمــومٍ صنعــت دوايــا

* * *

اليراعة

تَقــولُ يــراعــةٌ : لا تحسبنِّــي كنَمــلِ السُّــوء يــألمنــي رفيقــي
ولا أعشــو إلــى نيــران غيــري كمـا يهفـو الفـراش علـى الحَـريـقِ
إذا حلَــك الظــلامُ كعيــن ظبــيٍ أنــرتُ بنــورِ أضــلاعــي طـريقـي

* * *

وَحْدة

قَــدْ قلــتُ للبحــر يــومــاً فــي مــوجــه المتعــالــي

أراك حلفَ طِلابِ ... فما تُكِنُّ ببالِ ؟
وكَمْ حويتَ بصدرٍ ... من لامعات اللآلي
أفيكَ مثليَ صدرٌ ... بجوهر القلبِ حالي ؟
فصدَّ عنِّي بجَزرٍ ... ولم يردَّ سؤالي
وقلتُ للطود يوماً : ... يا خالياً منْ عَناء
أنال سَمْعَكَ صوتٌ ... من زفرة وبُكاء
إنْ كنتَ تحوي عقيقاً ... به عروقُ دِماء
فواسني بحديثٍ ... إنِّي حليفُ شقاء
فَصَدَّ عنِّي صَموتاً ... ولم يردَّ سؤالي
جَدَدْتُ في السير حتَّى ... أتيتُ بدرَ السَّماء
فقُلْتُ : يا نضو سيرٍ ... إلى متى في مَضاء
الأرضُ مرجُ زهورٍ ... من نوركَ اللألاء
أخْلفَ نوركَ قلبٌ ... في حرقةٍ وعناءِ
رأى الكواكبَ ترنو ... فلم يردَّ سؤالي
وقُلتُ لله ربِّي ... من بعد طوف البريَّة :
أما بدنياكَ هَذي ... منْ ذرَّة لي نجيَّة ؟
أكلُّ طينيَ قلبٌ ... وذي البرايا خليَّة
طابت مُروجٌ ولكنْ ... ليست بشدوى حربه
أجابني بابتسَامٍ ... ولم يردَّ سؤالي

* * *

قطرةُ النَّدى

قد قيل لي تدلَّي ... منْ فَلَكِ الدَّراري
وَاسْتحكمي وسيرِي ... للبحرِ ذي التَّيَّارِ

فـي المـوجِ لا تحـاري

تحـوَّلـي واخْتَـاري

فـي الـدُّرر الكبـارِ

فمـا رضيـتُ بحـراً لصُحبتـي بحـالِ

عفـتُ احتسـاءَ رَاحٍ تَسلُبنـي خـلالـي

مـا ضقْتُ مـن خصـالي

وعشـت فـي اعتـزالِ

قطـرتُ كـالـلآلـي

الـورد لـي سـؤول : مـا خطْـبُ طيـر السَّحـرِ

ومـا جهـاتُ النَّظـرِ ؟

ومـا وَرَاء البَصَـرِ ؟

مـا الشَّوْك حـول الـزَّهـر

مـا نحـن فـي اصطحـاب ؟ مـن نحـنُ يـا ودُودُ ؟

مـا طـائـري المغنِّـي رجَّحـه الأملـود ؟

مـا يقصـدُ الغـرِّيـد ؟

ومـا الصَّبـا تُـريـد ؟

مـا العـالَـمُ العَتيـدُ ؟

فقُلـتُ : المُـروجُ حـربُ الحيـاة فـي الآفـاق

حَفـلٌ لـهُ نظَـام مـنْ لـذَّة الفـراقِ

الـرُّوحُ مـنْ إشْـراقِ

ونَفسـي أشـواقـي

سـرٌّ مـن الخَـلاَّقِ

مِـنْ فلـكٍ هُبُـوطـي مـن طينـةٍ فتقـتِ

مِـنْ لـذَّةِ التَّجلِّـي نمـوتِ إذ أشـرقـتِ

فـي الغُصْـنِ قَـدْ خَفَقْـتِ
كـم حُجُـبٍ مـزَّقـتِ
نفســك قــدْ حقَّقــتِ

الــــدَّهـــرُ فـــي اخضِـــرار مـــنْ دَمْعِنـــا فـــي السَّحَـــرِ
وذي الجهــــــات طـــــرَّاً خِـــداعُنـــا فـــي النَّظـــر
بالصَّدر سربُ الزُّهُر[1]
مــن قَلْبنــا كــالشَّــررِ
ونُــورنــا فــي البَصَـر

فــــي ثـــوبِ وردٍ إبـــرُ مـــنْ شـــوكـــة تصـــول
شـــوكٌ ، أجـــلْ ، ولكـــن نـــادمـــه الجميـــل
مـــنْ عشقـــهِ نحيـــلُ وعنـــــده الخليـــــلُ
فــي روضــهِ أصيــل

القَلْـــــبَ أخلينـــــهْ مـــن صُحْبَـــةِ الــدُّهـــورِ
عينـــك فـــافتحَنْهَـــا لِلْكَـــوكَـــبِ المنيـــر
وصحبـــــةِ البصيـــــر مثلـــي هلُـــمَّ طيـــري
وفــي الفلــكِ الكبيــرِ

***

العشق

فكـــريَ قـــد أجـــدَّ كـــلَّ سيـــرِ وطَـــافَ بَيـــنَ حـــرمٍ ودَيْـــرِ
عـــدتُ للطـــلاب فـــي البَـرَاري مـــرتـــديـــاً بـــالنَّقـــعِ كـــالإعصـــارِ

---

(١) الزُّهُر : النُّجوم .

بغيـرِ خضـرٍ أطلُـبُ المنـازل[1] ... يحمـلُ رحلـي للخيـالِ كـاهـلُ
تطلُـبُ راحـاً كـأسـيَ الحطيـمُ ... كـالصُّبـح مـن شبـاكـهِ النَّسيـمُ
منطـويـاً كـالمَـوجِ فـي البحـارِ ... حيـران كـالإعصـار فـي الصّحـاري
عشقُـكَ فَـاضَ بغتـةً بقلبـي ... وحـلَّ كـلَّ عُقـدةٍ فـي لبِّـي
عـرَّفنـي الـوُجـودَ والفَنـاء ... وصـار ديـري حَـرمـاً وضَّـاء
علـى حَصيـدي مـرَّ كـالبُـروق[2] ... عـرَّفنـي لَـذَاذةَ الحـريـقِ
صُعِقـتُ تـوّاً وسُلبـتُ حِسّـي ... فُصِلْتُ من نفسيَ مثلَ العَكْسِ[3]
رَفَعـتُ للعَـرْشِ العلـيِّ تُـربـي ... بـالسـرِّ قَـدْ أفْشَيْتـه لِقَلْبـي
وبلَغـتْ سَفينتـي مُـرسَـاهَـا ... وفـاضَ قُبحـي رونقـاً وتَـاهَـا
عنـدي حـديـثُ العِشـق لا سِـواه ... لا أحمـلُ المـلامَ فـي بَلـواهُ
غنيـتُ عَـنْ وَمـضِ العُلـومِ حَسبـي ... خفقـي ونَـاري ودُمـوعُ الحـبِّ

***

حياتَك فابغِ في الخطر الجليل

غـزالٌ بـثَّ شكـواه غَـزَالاَ ... فَقَـال سـأقصُـدُ البلَـدَ الحـرامَـا
أرى الصَّيَّـاد حـولـي كـلَّ حيـنٍ ... فـلا أستطيـعُ فـي أرضٍ مُقـامـا
أبـدِّل خيفـةَ الصَّيَّـاد أمْنـا ... وأنفـي الغـمَّ عـن قلبـي المعنَّـى
أجـابَ رفيقُـه أن يـا خَليلـي ... حَيـاتَـكَ فـابغِ فـي الخَطَـرِ الجَليـل
ونفْسَـكَ فَـاشحـذنْ فـي كـلِّ آنِ ... وعش أمضَى من السيف اليمَاني

---

(١) بغير دليل ، كما دل الخضر الإسكندر .

(٢) يكثر في الشعر الفارسي ذكر إحراق البرق البيدر ، ويكني به الصوفية عن قطع العشق علائق الإنسان بالدُّنيا .

(٣) العكس : الصورة . والكلمة نفسها في الأصل .

ففي الأخطار لِلْهِمَمِ اختبارُ   لأرواحٍ وأجسادٍ عيارُ

***

الحياة

قد سألنا عن الحياةِ حَكيماً   قال : خَمرٌ يطيبُ فيهَا الأمرُّ
قُلتُ : بل دُودةٌ نمت في تُرابٍ   قال : لا ! بل سَمَندر لا يقرُّ[1]
قلتُ : والشر طبعها . قال : لا بل   خيرَها قد جَهلتَ والجَهلُ شرُّ
قُلتُ : ما شوقها يسير لنُزْلٍ   قال : في الشوقِ منزل مستسرُّ
قُلتُ : في الطِّين خَلقُها قال فانظُر :   شقّت الطين حبَّةٌ فهي زهرُ

***

الحور والشاعر

(معارضة لقصيدة الحور والشاعر لجوته)

الحور :

لا الخمرُ يوماً تطبِّيكَ   ولا إلينا أنتَ ناظرُ
إنِّي عَجِبْتُ لشاعرٍ   بهوى الأحبةِ غيرِ شاعرِ
مِنْ حُرِّ أنغامِ الرَّجاء   وحرقةِ الطَّلب المثابر
نَفَسٌ تذيبُ بلوعةٍ   وتغزُّلٌ يشجو المزاهرِ
وخلقتَ بالألحان دنيا   كَ العجيبةَ خَلْقَ شاعرِ
تبدو لها إرَمُ كما   يبدو لعينٍ فِعْلُ ساحرِ

---

(١) السَّمندر : حيوان خرافي يعيش في النَّار .

الشاعر :

تَخْـــدَعَـــنْ قلـــبَ مســـافـــرٍ	بـالسِّحْـرِ مـنْ وخَـزات قـائـلِ
مـــا إنْ تحـــاكـــي لـــذَّةً	وخـزاتِ شَـوكٍ فـي المجـاهـلِ
مـــاذا أقـــولُ وفطـــرتـــي	لا تَـــرتضـــي دَعـــة المنـــازلِ
قلبـــي علـــى قلـــقٍ كمـــا	تهفـو الصَّبـا حـولَ الخمـائـلِ
فـــإذا نظـــرتُ إلـــى جميـــلٍ	رائـــعِ حلـــوِ الشَّمـــائـــلِ
خَفَـــقَ الفـــؤادُ إلـــى الَّـــذي	يعلـــوه حسنـــاً فـــي المحـــافـلِ
فمـــنَ الشـــرار إلـــى النُّجـــوم	إلـــى الشُّمـــوس رقـــيّ آمـــلِ
إنِّـــي ليهلكنـــي القـــرارُ فمـــا	أعـــوجُ علـــى المـــراحـــلِ
وإذا شـــربـــتُ مـــنَ الـــرَّبيـــع	الكـاس تسـري فـي المفـاصـلِ
أشـــدو بشعـــرٍ آخـــرٍ	وربيعـــي الآتـــي أغـــازلُ
طلبـــي النهـــايـــةُ فـــي الَّـــذي	لا ينتهـــي فيـــه المُســـائـــلُ
لا صـــابـــرٌ نَظَـــري ولا	قلبـــي عـــن الآمـــالِ غـــافـــلُ
تـــودي قلـــوبُ العـــاشقيـــن	بـــدارة الخلـــدِ المُـــوَاصـــلُ
لا صـــوتُ محـــزونٍ ولا	ألَـــم ولا واسٍ يســـائـــلُ

* * *

الحياةُ والعمل

(جواب لنظم هاتنا[١] المسمَّى سؤالات)

يقـول السـاحـل المسكيـنُ : دهـراً	حييتُ ولم يَبِنْ لي ما أكون.. ؟

(١) هاتنا : شاعر ألماني .

فقال الموج في صخبٍ وسيرٍ : وجودي السَّيرُ والعَدَمُ السُّكون

* * *

الملكُ لله

طارقٌ أحرق السَّفين فقالوا : ليسَ هذا مِنْ فعله برشيد
غرباءٌ ومن لنا برجوعٍ ذا خطارٌ في الشرع غيرُ سديد
أمسك السَّيفَ طارقُ في ابتسامٍ قائلاً واثقاً بعزمٍ شديد :
مُلكنا اليوم خالصاً كلُّ مُلكٍ إنَّه مُلك ربِّنا المعبود

* * *

النهر[1]

انظر النهر جارياً في هُيامٍ بين خُضر المروج مثل المجرَّه
كان في المهد في السَّحاب نؤوماً شاقه السَّير في مروجٍ وخضره
يبعث اللحنَ جارياً فوق صخرٍ صافي اللَّون في بهاءٍ ونضره
يقصد البحر ذا العبابُ طروبا وعَزوفاً عن كلِّ شيءٍ غريبا
مَنَحتْهُ يدُ الرَّبيع طريقاً من أقاحٍ ونرجسٍ وشقيقٍ
يضحك الوردُ إنْ تلبَّث لدينا ويقول البرعوم : قف يا صديقي
وهو قالٍ عرائسَ المرج ماضٍ في الرُّبى والوهادِ غير رفيقٍ

---

(١) ترجمة نظم جوته المسمَّى نغمة محمد مع تصرفٍ كبير . وفي هذا النظم الذي كتب قبل « ديوان الغرب » بكثير أحسن الشاعر في بيان تصوير الإسلام للحياة ، وقد أريد بهذا النظم أن يكون جزءاً من قصةٍ إسلامية لم تكمل . وإنما أردنا بهذه الترجمة أن نبين عن رأي لجوته فحسب .

وعـزوفـاً عـن كـلِّ شـيءٍ غـريبـا يقصـد البحـرَ ذا العُبـاب طـروبـا
ومئات الأنهار في الحَزْنِ والسَّهل تُنـاديـه : يـا فسيـحَ المجـالِ
قَـدْ حمـانـا المسيـرَ قِلّـةُ مـاءٍ فـازحمنّـا مـن بغـي هـذي الـرمـالِ
أفسـحِ الصَّـدر للـرِّيـاح سـريعـاً حـامـلاً رفقـةً ضعـاف الحـالِ
يقصـد البحـرَ ذا العبـابُ طـروبـا حـامـلاً جـوهـراً كثيـراً عجيبـا
هَـدَرَ النَّهـر جـائـزاً كـلَّ سـدٍّ جـاز ضيـق السُّفـوح والـوديـانِ
فـاض سيـلاً علـى رُبـى ووهـادٍ جـاز كـلَّ المـروجِ والبلـدان
هـائجـاً زاخـراً سـريعـاً مشـوقـاً بجـديـدٍ يمـرُّ كـلَّ زمـان
يقصـد البحـر ذا العُبـاب طـروبـا وعـزوفـاً عـن كـلِّ شـيء غـريبـا

***

الجنَّة

وأيـن بجنَّـةٍ لعـب اللَّيـالـي وليـس هنـاك مـن فلـكٍ يـدورُ
ولا فيهـا ليـوسـف غـمٌّ سجـنٍ ولا فيهـا زُليخـا تَسْتجيـرُ
وليْـسَ خَليلُهـا يصلَـى بنـارٍ ولا بكليمهـا شـررٌ يَثـور
وليـس لِصَـرصـر فيهـا هُبـوبٌ فَـزَوْرَقُهـا علـى أمـنٍ يَسيـرُ
ولا ليَقينهـا « هـل » أو « عسـى أن » ولا لِـوِصَـالهـا هجـر مـريـرُ
وكيـفَ يلـذُّ عَقـلٌ ذُو ضـلالٍ إذا وَضحـت طـريـقٌ لا تَجـورُ
فـلا تَحفـل بكـونٍ فيـه نقـصٌ بـه المـولـى وليـس بـه الغَـرورُ

***

العِشْق

العقـلُ يُحـرقُ عـالمـاً فـي جَلـوة منـه تُغيـرْ

لكنَّـــه بـــالعِشْـــقِ يعـــرفُ كَيـــفَ فـــي الـــدنيـــا يُنيـــزْ
العِشْـــقُ فـــي الأرواح يخلـــق كـــــلَّ لـــــونٍ أو يثيـــــرْ
إنِّـــــي لأذكـــــر راقصـــــاً ذا الحـــرف أو هـــو بـــي يـــدور
بـــالعِشْـــقِ تـــرتـــاح القلـــوبُ وإنَّـــــه فيهـــــا سعيـــــرْ
مـــا كـــل معنـــىً ينطـــوي فـــي اللَّفـــظ ، كـــم معنـــى يثـــور
أنصـــت لقلبـــك ســـاعـــةً فلعلَّمـــا يـــدنـــو العسيـــر

* * *

لغزُ السَّيف

مـــا جـــاهـــدٌ يُنبـــطُ مـــاء الحجـــر لا يَهتدي بالخضْر كالإسكندر ؟
كنظـــرِ العيـــنِ صفـــيٌّ مشـــرقُ لا بلـــل وهـــو غـــريـــقٌ نهـــر
مصـــراعـــه مكمَّـــل منفـــردُ ليـــس عليـــه منَّـــةٌ لـــلأشطـــر

* * *

الجمهورية

تريد معنى العُلى منْ ساقطي همم وأيـن للنَّمـل إقـدام السُّليمـانـي[1]
فاتبع حكيماً ودعْ جمهورَهم ، أترى بـألـفِ رأسِ حمـارٍ عقـلَ إنسـان ؟

* * *

---

(١) نسبة إلى سليمان الحكيم ، وقصته مع النمل معروفة .

إلى داعية الإسلام

في بلاد الفرنج

الـــدَّهْـــرُ عـــادَ بنـــار نمـــرود ... جَـوْهـرُ الإســلام رَهـنُ تجـديـد

هَلـمَّ نُلـق الحجـابَ عـن حُـرَقٍ ... كالشَّمس تغشى الورى بتجريد[1]

أمللـتَ حُـور الفـرنـج مـنْ حكـمٍ ... ورُعـــت أصنـــامَهُـــم بتـــوحيـــد

فقـل لأهـل الحجـاز عـن سلمـى ... وبـثَّ فـي التـرك شـوق معمـود

علـى خـراسـان والعـراقَ فعـج ... وردَّ للعُجْـمِ شـوق تغـريـد[2]

كـم انتظـرنـا لعـارفٍ ولكـم ... شجـا « جمـال »[3] بلحـنِ مفـؤود

جعلـتَ عشقـاً حـديـث ذي هَـوس ... نَثَـرْتَ درَّ الكـلام بـالبيـد

* * *

غنَّى الكشميريُّ[4]

غنّـى أخـو الشِّعـر ربُّ البيـان ... وبلبـلُ كشميـرَ ذاتِ الجنـان

يفتِّـح أبـوابـه إنْ نـدر ... ويغلقهـا جـاهـداً إنْ حضـر[5]

فقيـل لـه : يـا أنيـس القلـوب ... عجبنـا وفعلُـكَ أمـرٌ عجيـب

فمـاذا أجـاب الهمـامُ الفقيـر ؟ ... فقيـر بملـك المعـانـي أميـر :

أإخـوانـنـا مـا رأيتـم سـداد ... أفـي الـدار غيـري متـاعٌ يـراد ؟

---

(١) أي بظهورها دون حجاب وفي الأصل بالعري .

(٢) خراسان والعراق من ألحان الموسيقا أيضاً .

(٣) جمال الدين الأفغاني .

(٤) محمد طاهر الكشميري الشاعر المتوفى سنة ١٢٨٧هـ .

(٥) ندر : خرج وهي لغة الحجاز اليوم .

إذا كــان فــي الــدار ربُّ العــريــن غنَّــــى ففيهـــا متـــاعٌ ثميــن
وإنْ غــاب عنهـــا أنيــسُ الــورى فـــلا دارَ أفـــرغَ منهـــا تُـــرى

* * *

إلى مصطفى كمال باشا[1]

حزيران (١٩٢٢م)

أمَّـــة كـــانـــت ومـــن حكمتهـــا نحــنُ آثــارٌ علــى مــرِّ العُصــور
قــد عــرفنــا ســرَّ تقــديــرٍ مضــى فمضينـــا نقتفــي ســرَّ الــدهــور
شـــرراً كنـــا ، أجـــدنـــا نظـــراً فــإذا شمــسٌ علــى الكــونِ تسيــر
شيخـــاً أطفـــأ فـــي أحشـــائـــه نـــارَ عِشْـــقٍ فخنعنـــا فـــي فتـــور
صـــرصـــر البيـــداء فـــي فطـــرتنـــا أذبلتْ ريحُ الصَّبا فينا الزُّهور[2]
وعلـــى الأفـــلاك دوَّى صـــوتنـــا فــاسمعنْه اليــوم فــي نَــوحِ الأسيــر
رُبَّ صيـــدٍ قـــد أخـــذنـــا وثبـــةً دون أشــراكٍ كمــا انقضَّــت صقــور
وغـــدونـــا يـــوقِـــعُ الصيـــدُ بنـــا ولنـــا قـــوسٌ وسهـــمٌ فـــي الجفيـــر
« كلَّمـــا أمكـــن طـــرفٌ فـــاركضَـــنْ كم أمات العزمَ تدبيرُ الأمور[3] »

* * *

الطَّائرة

علــى غصــنِ وردٍ بــوقــت السَّحــر نغـــا طـــائـــرٌ لطيـــورٍ أخـــر :

---

(١) كان الشاعر معجباً بمصطفى كمال إعجابه بالعزم والإقدام ، فلما رآه يقلِّد الفرنج عابه وقال : إنَّ جديده قديمُ أوربة .

(٢) يعني خلقنا للجهاد فأضعفنا الترف .

(٣) البيت الأخير للشاعر نظيري .

« لقــد سُلــب الأجنُــح الآدمــيّ ومكّــن فــي الأرض هــذا الغبــيّ »
فقلــت لــه : « يــا أميــرَ الــرِّيــاح أفي الحقِّ إن قلبته من جناح . . ؟
بطــائــرةٍ قــد ركبنــا الهــواء شققنــا بهــا فــي عَنــان السَّمــاء
وأيــة طــائــرة فــي الفلــك يفــوت مــداهــا جَنــاحَ الملَــك
لهــا عــزم صقــرٍ وأيــدُ عقــاب بــلاهــور[1] تــرنــو إلــى فــارياب[2]
تُــدوِّي وتــزفــر حيــن السِّفــار وفي العشِّ صمتٌ كحوت البحار
مــن الطِّيــن صــار لنــا جبــرئيــل مــن الأرض نحــو السمــاء دليــل »
وعــى الطــائــر الألمعــيُّ الكــلام وأبصــر مــا قلتُــه فــي الخصــام
فــأهــوى إلــى ريشــه ينقــر وقــال مقــالَــك لا أنكــر
فيــا مَــنْ يــروقُــك عقــدٌ وحــلٌّ وفــي قيــد سحــرك عُلْــوٌ وسُفْــلُ
أأصلحــت فــي الأرض بعــد عنــاء فجئــت لتصلــحَ جــوَّ السَّمــاء[3]

***

العِشْقُ

هو الحرفُ ضاعتْ عليه القلوب وليــس بســرٍّ وســرّاً يــرى
هلــم أُنبِّئــكَ قــولَ الخبيــر بمــن قــد رواه وعمَّــن روى
وعــاه النَّــدى خلسـةً فــي السَّمــاء وأسمعــه الــوردَ قطــرُ النَّــدى
وبــاح بــه الــوردُ للعنــدليــب عــن العنــدليــب روتــه الصَّبــا[4]

***

---

(١) لاهور تقع في باكستان وهي إحدى كبريات مدنها ، وعاصمة ولاية بنجاب اليوم .
(٢) فارياب ، تقع في تركستان .
(٣) البيت الأخير للشيخ سعدي الشيرازي .
(٤) أبيات تمثِّل تطور العشق من قطرة إلى غِناء بلبل إلى خفق الرِّيح .






القسم الثالث

الخَمر البَاقِية

(غزليّات)






حبا الربيعُ رُبانا ... محافلَ التَّغريد
فاستيقظت أكمام ... للبلبل الغرِّيد
لا تحسبنَّ أنْ خُلقنا ... في صبح دهرٍ مديد
فما تزال خيالًا ... حوى ضمير الوُجود
لا تغترر بعلومٍ ... الكأس خير شهيد
إنَّ الفقيه مُريبٌ ... فلا تكنْ بمُريد
ضمَّ الربيعُ شتيـ ... ـتَ الأورادِ بالتنضيد
وبثَّ ريحاً ولوناً ... أنظارنا في الورود
من يُحكمن نظراتٍ ... لنفسه في شهود
لم يشدُ يوماً بغيب ... كلاَّ ولا موجود
قد قال في ألحان فاسـ ... ـمعْ مقال شيخٍ رشيد :
في كلِّ دهرٍ خليلٌ ... والنَّار من نمرود[1]
لا تلحينَ أهل ديرٍ ... فالعِشْقُ جدُّ عنيد
أقام أوثان حبٌّ ... في القلبِ من محمود[2]
يضيع شدو حياةٍ ... ينساب بين الهنود
فالميت ليس بحيٍّ ... بالنفخ من داود

***

عقلُنا ينحتُ رباً كلَّ حين ... فهو من قيدٍ إلى قيدٍ رهين
ارفعِ البرقع جهراً لا تُبلْ ... ليس في حيِّك غيري ذو حنين

(١) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل ونمرود الذي ألقاه في النار .
(٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب بمحطم الأصنام .

أنـا مـن عينـيَّ غيـورٌ نـاسـج ... نظـراتـي لـك ستـراً فـي العيـون
بسمـةُ خَلـس ودمـعٌ ورنـاً ... ليس في الحُبِّ سواها من يمين
حبَّـذا العِشْـق ففـي يـوم النَّـوى ... زاد بـاللَّـوعـة عهـدٌ لا يميـن
أيهـا الطـائـر مـن صـدري اقبسْ ... لتـزيـدَ النّـار فـي هـذا الأنيـن
عُـود تيمـور مضـى لا لحنُـه ... هـو فـي لحـن سمـرقنـد يبيـن
سـادنُ الكعبـةِ لا تـأْذَنْ لـه ... فـلإقبـال إلـهٌ كـلَّ حيـن

* * *

شكـوايَ أمـرٌ عجيـب ... مـن نـور عينـي شكـاتـي
فنظـرتـي لـي حجـاب ... وأنـت فـي الجلـوات
أبلـغ خـلائـق نـورٍ ... الحـق مـن كلمـاتـي[1]
حـذارِ كـفَّ تـراب ... للنَّفـس فـي نظـرات[2]
فـي محفـلٍ مـن ربيـع ... نـذوب مـن حـرقـات
بـالـرِّيـش منـا شـرار ... فـي الفجـر مـن آهـات
يـا واهـنَ النَّفـس تـدري ... مـن أيـن لـي نغمـاتـي ؟
حـواكَ كـونٌ بعيـدٌ ... مـن عـالمـي وجهـاتـي
مثـلَ الشَّقيـق تـرانـي ... بـالـرَّوض فـي حسـرات
والقلـب غُـرضـة رمـي ... مـن أسهـم اللَّحظـات
فـي عـرف أهـلِ قلـوبٍ ... الكَـدْحُ سـرُّ الحيـاة
لكعبتـي لـم أسـافِـر ... لـلأمـن فـي طـرقـاتـي
وكـم قبيـل أقـامـوا ... وأدبـروا فـي شتـات

---

(١) يعني بخلائق النور الملائكة .
(٢) كف التراب : الإنسان ، والنظر إلى النَّفس من فلسفة إقبال التي سماها « أسرار خودي » .

فـــي دارة ضــــاء فيهـــا الهــــلال فـــي مشكـــاة[1]
فـــاخلـــق بطينـــك خلقـــاً ذا يقظـــــةٍ وحصـــــاة
مثــــلُ اتســـامِ شـــرارِ تلبَّـــث الفـــرصـــات[2]
إنْ لـــم تكـــنْ ذا فضـــولِ فتلـــك إحـــدى نكـــاتـــي
العِشْـــقُ أبعـــدُ شـــأنـــاً مـــن ضـــائـــع الأنَّـــات
فـــي العجـــم أزكـــى نشيـــدي مـــا بـــاخ مـــن جمـــرات
والعُـــرب مـــن نـــارِ شـــوقـــي لـــم تـــأتهـــم نفثـــاتـــي

***

فـــي ذلـــك الحفـــل ســؤلـــي عـــن مَحـــرمٍ بـــي حقيـــق
لـــذاك أزجـــى غنـــائـــي وفيـــه لحـــنُ الصَّـــديـــق[3]
فـــي خلـــوة كـــلٌ لفـــظٍ فيهـــا كستـــرٍ صفيـــق
يبـــثُّ قلبـــي حـــديثـــاً بمقلتـــي وبمـــوقـــي
مـــن أجـــل نظـــرة وجـــدٍ لـــوجهـــك المـــرمـــوق
مطهِّـــر نظـــراتـــي بـــدمـــع عيـــنٍ طليـــق
كـــالكِـــمِّ كـــلُّ أمـــوري لعقـــــدة ولضيـــــق[4]
لكـــن الجلـــوة شمـــسٌ أنمـــو بقلـــبٍ مَشـــوق
كـــالمـــوجِ ، ليـــس كيـــانـــي يهـــاب سيـــل العقيـــق[5]
ولســـت فـــي البحـــر أبغـــي إلـــى الشطـــوط طـــريقـــي

---

(١) يعني الدنيا جعلها داراً صغيرة فيها القمر كسراج في مشكاة .
(٢) فرصات : جمع فرصة .
(٣) اللحن : الرمز في الكلام .
(٤) يتخيَّل الشاعر أن كم الزَّهر لانطباقه معقود .
(٥) العقيق : هو كل سيل كبير يشقُّ الأرض وواد بالمدينة .

مـــــا بيـــــن عيـــــنٍ ورأيٍ   بينـــي وبيـــن صـــديقـــي[1]
مهمـــــا تبـــاعــــد عنِّـــي   فكـــــلٌّ حيـــــنٍ رفيقـــــي
قـــد خـــطَّ فـــي ستـــر عينـــي   نقـــوشُ كـــونٍ أنيـــق[2]
بشعـــــــوذات أرانـــــــي   فـــي قيـــد سحـــرٍ وثيـــق
فـــي قبَّـــة قـــد أحـــاطـــت   لا أرتضـــي بـــالضِّيـــق
شـــوكٌ بجنـــب سمـــاء   لا بـــدَّ لـــي مـــن مُـــروق
لا أستـــريـــح بعُـــشٍّ   مـــن لـــذة التحليـــق
طـــوراً بشـــاطـــىء نهـــرٍ   طـــوراً بـــروضٍ شقيـــق

***

المغنّـــي الصبيـــح فـــي ألحـــانِ   ورياضُ الـرَّبيـع ألـواحُ مـانـي[3]
وتحيـــي دم الـــربيـــع شقيـــق   أيُّ ظمـــأ بـــه إلـــى الألـــوان ؟
نغمـــةٌ تفتـــح العيـــون لمعنـــى   ضـــاق عنـــه طـــرائـــق التبيـــان
فتـــأمَّـــل بعيـــن عشـــقٍ وأبصِـــرْ   منـــه آيـــاً تُضـــيءُ دون بيـــان
فعيـــونُ العقـــولِ تُظْهِـــرُ فيهـــا   هـــذه الكـــائنـــاتُ سحـــرَ العيـــان
وعـــن عشـــقٍ خُـــذْ دروسَ جهـــادٍ   وافعلـــن مـــا تشـــاء فـــي كـــلِّ آن
إنمـــا العشـــق جـــوهـــرٌ لشعـــورٍ   وهـــو روحُ الإدراك والعـــرفـــان
ولنـــا غـــايـــة مـــن الشَّمـــس أعلـــى   إنهـــا الشَّمـــس صُـــوَّة الـــرُّكبـــان[4]
إيـــه يـــا قطـــرةً عـــنِ النفـــسِ تـــاهـــتْ   تطلبيـــنَ المحـــالَ فـــي الأكـــوان

---

(١) الرأي : رأي العين .
(٢) في هذا إشارة إلى الصور التي تسمّى خيال الظل ، فالستر يظهر عليه الخيال لا الحقيقة ، فهو يقول : إنَّ هذا العالم نقوش في ستر العين تخدع عن الحقائق .
(٣) ماني : صاحب مذهب المانوية كان ماهراً في التصوير ، وترك ألواحاً مصورةً في كتاب عرف باسم « أرزنك » ضرب به المثل .
(٤) الصوّة : أحجار تجعل علامة على الطريق .

إنَّ عاراً معيشة البحر إن لم — تطلعي منه درَّةً ذات شان
يا جهولًا بقدر نفسك لولا — أنت كان العتيق كالصَّوان[1]

* * *

قد هدمتُ الأصنام لم أرضَ شكلاً — أنا سيلٌ هدمتُ كلَّ سدودي
ومن العِشقِ قد رأيتُ كياني — كان عقلي يُريني وجودي
وبديرٍ ضراعتي وهو أني — وصلاتي بكعبةِ التَّوحيد
ومن الذكر سُبحتي بيميني — فاعجبَنْ من زنَّاري المعقود
منبع الحزن فيك غير نضوبٍ — دمعُ قلبي حبستُه عن خدودي
راق قولي ، وسيرتي لجنونٍ : — خمرُ شوقٍ لسكرتي وشهودي

* * *

طوبى لمحرق عقلٍ — بنارِ راحٍ عتيق
مَنْ يعتني بمتاعٍ — مِنْ ناره كالشَّقيق
أوحى الرَّبيعُ إلى الزا — هدين بيع الدلوق[2]
فاغرس بالكأس الحميَّا — بستان وجهٍ أنيق
قلبي رثى لفقيهٍ — مجاورٍ بالعتيق
ما اتباعه شيخ خان — فتوى بكأسٍ رحيقٍ
اللحنُ لا تقدرُونه — على غنائي الرقيق
فبرقةُ اللَّحن تغشى — إسكندراً بحريق
لروضِ « ويمر » تهدي — الصَّبا سلام مشوق[3]
فذي الدِّيار أَضاءت — لعينِ ذي تحقيق

* * *

---

(١) يعني أنَّ الإنسان جهل قدر نفسه وقدَّر أشياء ليس لها قيمة إلَّا بتقديره .
(٢) الدلوق : جمع دلق ، وهو لباس بالٍ مرقع يلبسه الزُّهَّاد والشحاذون .
(٣) ويمر : مدينة في ألمانيا ، أقام فيها الشاعر غوته كثيراً ومات ودفن فيها .

نَـــوح ليلِـــيَ القلـــق ‏ والهمـــوم فـــي الفلـــق
والأنيـــنُ مِـــنْ شَـــرَر ‏ والقـــريـــض مـــنْ حَـــرَق
أيـــن حـــرص مجتهـــد ‏ مِـــن تضـــرُّم العشـــق
ذاك فـــأس فـــرهـــاد ‏ ذاك خُســـر فـــي مـــذق[1]
قُـــل لســـاكنـــي حجـــب ‏ عـــنْ تـــرابـــي القلـــق :
ذا الغُبـــارُ ذو نظـــر ‏ ذا التـــرابُ ذو فلـــق
مطـــربتـــي تسكـــرنـــي ‏ وتـــزيـــد فـــي حُـــرقـــي
نغمـــاتُ مستحـــر ‏ بـــالقلـــوب ذي علـــق
مِـــنْ حـــذاره أرضُ سمـــر ‏ فنـــدبـــت فـــي فـــرق
مـــن هجـــوم جنكيـــز ‏ أو هـــلاكـــو فـــي الحلُـــق[2]
هـــات مطـــربـــي غـــزلًا ‏ نظـــم مـــرشـــدي اللبـــق
لأفـــوزَ مـــن لهـــب ‏ التبـــريـــزي بـــالحـــرق

* * *

مُنيتـــي أن يتجلَّـــى ‏ ذلـــك البـــدرُ التَّمـــامُ
فيـــدي تُمْســـكُ صـــدري ‏ وبعينـــيَّ اقتحـــامُ
ويقـــول الحســـن : صبحـــي ‏ ليـــس يغشـــاه ظـــلام
فيقـــولُ العشـــق : وجـــدي ‏ ليـــس يخبـــو والهيـــام
ليـــس مـــن يـــومـــي وأمســـي ‏ وغـــدي فـــيَّ زمـــام
ليـــس لـــي نَجْـــدٌ وغـــورٌ ‏ ليـــس يحـــوينـــي مقـــام

---

(١) فرهاد : المهندس ، وخسرو برويز : ملك الفرس ، وكان وعد فرهاد أن يهب له معشوقته « شيرين » إذا شق طريقاً في الجبل ، ففعل ولم يظفر بأمنيته ، فضرب فرهاد مثلاً في العشق الخائب .

(٢) أشار الشاعر أكثر من مرة إلى سمرقند وجنكيز كأنه يُشير إلى ما أصاب المسلمين من هذه النواحي .

خمرة الأسرار أبغي　　　وكؤوساً لا ترام

وبحانات مجوس　　　دائر عندي جام(١)

لا تقُلْ : مالي ولحناً　　　لا يرى فيه انسجام

فأنا طائر غيبٍ　　　عن حبيبي لي كلام

أرفع الستر وأشدو　　　لي في اللَّحن مقام(٢)

أنا صمصام دماءٍ　　　لي بالغمد كَعام(٣)

***

غُصْنُ الحياة نديٌّ　　　من ظمئنا في الطِّلاب

عين الحياة أراها　　　تعلُّه الهيَّاب(٤)

فَمَنْ أبثُّ حديثي　　　وأين أزجي ركابي ؟

ولا تؤثر آهي　　　ونظرتي في حجاب

فزَمزِمَنْ في غناء　　　واخفض نواح الرَّباب(٥)

فلا تزالُ طيورٌ　　　تنوح تحت نقاب

أهل الحجاز تولوا　　　قوافلي بسلاب

حبيبنا عربيٌّ　　　فلا تفه بعتاب

وزن عُجم وهند　　　لا تبغ وزن خطابي

---

(١) المجوس في الشعر الفارسي كالنصارى في الشعر العربي ، يذكر الشعراء خمرهم وحاناتهم .

(٢) من مقامات الموسيقا .

(٣) الكعام : هو الكمام للجمل ، الّذي يخشى صياله ـ وبالفتح جمع كعم ، وهو وعاء السِّلاح ـ .

(٤) عين الحياة في الأساطير : عين من شرب منها لا يموت ، وقد شرب منها الخضر ، والشاعر يقول : « إن الحياة هي عطشنا في الكفاح لا ورود عين الحياة » .

(٥) الزمزمة : كلام خفي .

فأصل هذي اللآلي ... باللّيل دمع انتحابي
هلُمَّ فالرَّاحُ عندي ... من دنٍّ عالي الجناب[1]
وخمرة القول أصبى ... من خمرة الأعناب

* * *

من كرى الموت لا تفيقُ عيونٌ ... دون نور تفيضُه مِنْ سناكا
إنَّ من دونك الوجودُ محال ... ومحالٌ فناؤنا في جسماكا
قد حوى الكون قلبنا وهو فيه ... عقدةٌ لا تحلُّ فاكظم فاكا
نغماتي الضعاف أحرقن صحبي ... حرقتي نغمةٌ أبت أن تحاكا[2]
إنْ تضنّ الصبا بطلٍّ فدعها ... نار قلب الشقيق تأبى فكاكا[3]
فإلى الحق وجّه القلب واصبر ... لا تؤمل بغيره إدراكا
سُدَّة الوُثْنِ هذه وعليها[4] ... جبهات الأباة تأبى حِكاكا

* * *

كتب إلى أحد الصُّوفيَّة[5]

لهيب الوجد من أسماء لا عندي ولا عندك
وحرُّ القلب في البيداء ، لا عندي ولا عندك

---

(١) جلال الدين الرومي .

(٢) أبت أن تنسج ، يعني : لا يستطاع إظهارها .

(٣) يتخيَّل الشاعر أنَّ الطلَّ يخفف من حرقة الشقائق الملتهبة ، يقول لا نبالي إن لم يسقط الطل فهذه النار لا تفارقنا بأيّة حال .

(٤) الوثن : جمع وثن .

(٥) في هذه الأبيات مثالان من الشعر الفارسي ، الأول أن وزن الهزج فيه مفاعيلن ثماني مرات وهو في العربية لا يزيد على أربع ، والثاني القافية المردوفة والردف هنا « لا عندي ولا عندك » والروي الهمزة الممدودة قبلها .

وشيـخ أنـت فـي حـان وإنـي نـاشـيء سـاق
عطـاش نطلـب الصهبـاء لا عنـدي ولا عنـدك
رهنـاً قلبنـا والـدِّيـن حـبُّ الغيـد مـن عُجـم
ونـارُ الشـوق مـن ظميـاء ، لا عنـدي ولا عنـدك
حطـام كـان أصـدافـاً علـى شـطٍّ لقطنـاهـا
فقـدنـا الـدُّرَّة البيضـاء ، لا عنـدي ولا عنـدك
وبلـوى يـوسـف المفقـود مـن يطيـع ذكـراهـا
وخفق القلب في زلخاء[1] ، لا عندي ولا عندك
كفـانـا النُّـورُ فـي المصبـاح قـد أخفتْـه أستـارُ
فطـوق النُّـور فـي سينـاء ، لا عنـدي ولا عنـدك[2]

* * *

قلبُنـا كـونٌ ولكـن	مـا بـه دور القمـر
دورانٌ ليـس فيـه	مـن عشـيٍّ أو بُكـر
ويـل ركـبٍ قـد أسـفّ	العـزمُ فيـه وضمـر
فهـو يـرتـاد طـريقـاً	ليـس فيهـا مـنْ خطـر
فـدع العقـل ومـوج	العشـق صـارع لا تقـر
فبـذاك النهـر ضيـق	ليـس فيـه مـن دُرر
كـلُّ مـا يجـري خيـالُـك	أو خيـالـي فـي الأثـر
هـو فـي العيـن ولكـن	مُستتـرٌ كـالنَّظـر

* * *

غيـر مجـدٍ بكـاؤنـا	ويلتـا ! ضـاعَ ذا النغـم

---

(١) زلخاء : زليخاء عاشقة يوسف الصِّديق عليه الصلاة والسلام .

(٢) الطوق : الطاقة .

نَــــوح قلـــــبٍ ممــــزقٍ حـــاصـــلُ الغـــمِّ والألـــم
خفـــق القلـــب ســـاعيـــاً يخلـــق الـــدَّيـــر والحـــرم
هـــــو فينـــــا محـــــدِّقٌ نحـــن فيـــه علـــى قـــدم
نبـــــذ الستـــــر أهلـــــه لُـــذت بـــالنفـــس فـــي حـــرم[1]
غيـــرة العشـــق فـــانظـــرن ! أيُّنـــا شـــوقـــه احتـــدم ؟
مطـــربُ ألحـــان فـــي الـــدُّجـــى قـــد شـــدا معجـــب الحكـــم
ذوق راحٍ محـــــــــــــرَّم شـــربُ راحٍ لنـــــا أمـــــم
هـــي مسيـــر حيـــاتنـــا مـــا ســـوى السيـــر يُغتنـــم
ليـــس للمـــوج منـــزل أو طـــريـــقٌ إذا التطـــم
أشعـــلِ النَّـــار فـــي هشيمـــي مـــن قـــال فـــي القـــدم :
« منـــزل الكبـــريـــاء لـــي » مـــرشـــد الـــرُّوم[2] ذا العلـــم

* * *

أبـــدِ مـــن طينـــك نـــاراً تُضمـــر لا تحـــلَّ بعـــد هـــذا يُقـــدَر
مُلـك جـمٍّ « لنظيـري »[3] مصـرع : « ليـس مـن قـومـي مـن لا يُنحـر »
ســـاحـــر العقـــل يعبِّـــي جنـــده لا تُـــرع للعشـــق جنـــد ينصـــر
بمقـــامٍ ولحـــونٍ لـــم تُحِـــط عُـــود سَلمـــى كـــلَّ حيـــنٍ يَقطـــر
نظـــري فـــي النَّفـــس أحكمـــتُ فلـم يتـــوجَّـــه لســـواهـــا النظـــرُ
فتَجلَّـــى الحـــبُّ فـــي كـــل الـــدُّنـــى وأنـــا فـــي شُغُـــلٍ لا أنظـــر

---

(١) أهل السر الّذين في عالم الغيب والشاعر على مذهبه في الذاتية ، يقول : إنَّه لم يُبال بالنظر إلى عالم الغيب بل نظر إلى نفسه ، وإنَّ عشقه الغيور لم يتجه إلى غيره بل غيره نظر إليه .

(٢) مرشد الرُّوم ، يراد به جلال الدين الرُّومي .

(٣) نظيري النيسابوري ، أحد الشعراء الفارسيين الكبار ، هو وجمشيد أحد ملوك الأساطير الفارسية .

ما جنونُ العِشْق في البيداء سدًى ... في قرى الحسن تعالوا نجأر[1]
وبصيد الوحش في البحر اهتفنْ ... لا تقلْ : زورقنا لا يُبحر
ملء عيني دليل ما مضى ... في طريقٍ ليس فيها خطر
اصبحنْ شُرباً خليعاً واحْذَرَنْ ... عهد شيخٍ ليس فيه ذأر[2]
غايةُ الإفصاحِ لمحٌ وكُنى ... فلُغى الخلوة رمز يُعبر[3]

* * *

تضيقُ بدار أصنام ... ولا ترضى بمحراب
ولكن نحو مشتاقٍ ... تسيرُ بشوقِ أصحاب
فاقدِم واتخذ مغنا ... كَ في أرواحِ أحباب
وكيف وأنت ربُّ الدَّا ... ر تدخل خطو مرتاب ؟
تُغير على ذوي التسبيح ... تحمل كلَّ أسلاب
وتطرق أهل زنَّار ... بليلٍ فعل نهاب
وذو جحفل لجب ... لسفك دماء أصحاب
وطوراً في جماعات ... بكاساتٍ وأكواب
وتأتي باللهيب إلى ... كليم غير هيَّاب[4]
وتأتي كالفراش إلى ... يتيمٍ شمعُه كابي[5]
فيا إقبال خذ كأساً ... بخمر « الذَّات » لهَّاب

---

(١) لعل الشاعر يُشير إلى مجنون ليلى وهيامه في البيد ، ويعني أن هذا الهيام في فضاء الطبيعة لا بد أن ينتهي إلى صلاح الجماعات في القرى .

(٢) الذأر : الشرة وحدة الخلق .

(٣) يعبر : كتعبير الرؤيا .

(٤) إشارة إلى النَّار التي لاحت لموسى عليه الصلاة والسلام .

(٥) إشارة إلى اصطفاء الرسول ﷺ .

سفــاك الغــربُ مــن كــامــنٍ لنفســك منــك ســلاَّب

* * *

لــذعــاتُ حــان العُجــم ليســت كُــفءَ نــاري الحــاميــه
ذا أحمــد العــربــيُّ نَظْـ ـــرَتُــهُ تحيــط جهــاتيــه
مــا حيلتــي والعقــلُ فــي عُقــدٍ لــه متــواليــه
نظــراتُ عينــكَ ، فــانظــرنْ حلَّــت طلســم مجــازيــه
حِيَــلُ العقــول تفــوقهــا خفقــات قلبــي الــداميــه
فــاهجــر كنيــس تفلســفٍ لحــريــمِ نــاري الحــاميــه

* * *

أنت كالمرآة تفنى في جمال الآخرين فاغسلَنْ قلباً وعيناً من خيال الآخرين
من نواح الطَّير في الأحرام فاقبسْ واحرقنَّ(١) ذلك العشَّ الذي شُدْتَ بمال الآخرين
وتعلَّم جاهداً خفقَ جناحيك وطِرْ أنت لا تسطيع طيراً بجبال الآخرين
أنا حرٌّ وغيورٌ مسرفٌ في غيرتي ممكن قتلي بكأس من زلالِ الآخرين
إيهِ يا أقربَ من روحي ولا أبصره عندنا هجرُكَ أحلى منْ وصالِ الآخرين(٢)

* * *

عنــدليــبُ الــرَّبيــع جُــنَّ غنــاءَ وعــروسُ الشَّقيــق تُــزهــى بهــاءَ
لا مغــنٍّ ولا مــزاهــرُ فيــه ذاك لحــنٌ مــن المغيَّــب جــاء
محــرم الســرِّ مــن يســدد ضــربــاً فــي وتــار الحيــاة أيــان شــاء(٣)

---

(١) الأحرام : جمع حرم .
(٢) وهذه قطعة أُخرى بنيت على الرمل المثمن ـ والرمل في الشعر العربي لا يزيد على ست تفعيلات والقافية فيها مردوفة بكلمة الآخرين ، والروي اللام التي قبل الرديف ـ .
(٣) الوتار : جمع وتر .

مــن وراء الستــور أنبئــت ســراً ... لست أفشي ، فالدهر لعباً أساء[1]

لا تعنّـــفْ وخـــذْ سبيـــل ودادٍ ... قـــدَّر اللهُ فـــي الحيـــاة التقـــاء

أيـــن فـــي دارة التـــراب مقـــامٌ ؟ ... كـل شـيء كـالـرَّمـل يمضـي هبـاء

زهـرةٌ مـن ريـاض كشميـر جسمـي ... وبـــأرض الحجـــاز قلبـــي أضـــاء

وأغـــانـــيَّ واللحـــونُ نمتْهـــا ... أرضُ شيـــراز ، حـــبَّ ذاك انتمـــاء

* * *

نحـن تـربٌ ، وكـالنجـوم سفـارا ... مـن خضـمٍ الـزرقـاء نبغـي قـرارا

نحـــن مـــن شعلـــة الحيـــاة جميعـــاً ... لـذَّة « الـذَّات » فـرَّقتنـا شـرارا[2]

قـلْ لأهـلِ السَّمـاء : إن تـرابـاً ... نـال بـالعقـل فـي السمـاء مطـارا

نحـنُ فـي العشـق زهـرةٌ فـي نسيـمٍ ... وبكـــدٌ الحيـــاة نقـــدح نـــارا

نحـن فـي المـرج نـرجسٌ نـاظـرات ... كلُّنـــا أعيـــنٌ فـــألـــق الستـــارا

* * *

ليـــردَّ العُـــرب دمعـــي داميـــاً ... روضـــة تنبـــت ورداً وشقيقـــا

وليـــردَّ العُجـــم أنفـــاســـي وقـــد ... صـوَّحـت جنـاتهـم ، روضـاً أنيقـا

مـــن حيـــاةٍ وخلـــودٍ كـــدحُنـــا ... يـا تـرابـي ! فلتكـن قلبـاً خفـوقـا

صحـــب الله فـــؤادي هـــائمـــاً ... سـار لا يـرضـى مقـامـاً أو طـريقـا

صـــوَّر اليـــأس علـــى آفـــاقنـــا ... عقلُنـا اليـائـسُ فـاحـذره رفيقـا

وبعـــــودٍ قطِّعـــــت أوتـــــارُه ... قـد حبـا قلبـاً إلـى اللَّحـن مشـوقـا

أنـــت نـــشء وكـــلامـــي شُعَـــل ... عـلَّ شـدوي مضـرمٌ فيـك حـريقـا

ليـــس فـــي قلبـــي إلا أن أرى ... قطـرةً فيـك غـدت بحـراً عميقـا

---

(١) إشارة إلى الألعاب من وراء الستار كالَّذي يسمَّى خيال الظلِّ .

(٢) يعني : لذة الاستقلال والوحدة كما يرى الشاعر في فلسفة « الذات » .

لا عـرا الـرُّوح هـدوء ولتكـن   بحيـاة الكـدِّ والكَـدْح خليقـا

* * *

لا التَّـاج يـزهـو عليـه   ولا سنـا الـزِّينـات

فقيـرٌ حيُّـك ، لكـن   مـن الملـوك الأبـاة

فـي الشيـب مـاتـت قلـوبٌ   وفتيـةٌ فـي سُبـات

فمـا لصـدرٍ نصيـبٌ   فـي الفجـر مـن آهـات

لا تقعـدنْ عـن طِـلابِ   فـي واسِـع الفلـوات

فمـا بعصـرك هـذا   هـادٍ إلـى الطُّـرقـات

غَفِلْـتَ عـن سـرِّ وقـتِ   أضعتـه فـي شتـات

وقـتٌ عـداه حسـابٌ   بـالشَّهـرِ والسَّنـوات

هـذا الـرِّبـاط قـديـم   مـا فيـه عيـش مـواتـي

غَفِلْـتَ عـن سـرِّ عيـشِ   وعـن جهـادِ الحيـاة

مـاذا يخـطُّ مـن الـذنـب   كـاتبـا الهفـوات

دنيـاكَ مـا قـد أصبنـا   فيهـا سـوى نظـراتِ

إقبـالَاّ الحـرَّ أمسـك   بـذيلـه فـي ثبـات

فمـا يـرى فـي ربـاط   مـن بـائعـي الخـرقـات

* * *

عشقـي الجـريء صـدرُه سعيـرُ   وحكمتـي عـن شـرر تخـور

إنْ يكمـل الهيـامُ صـار ذلًّا   قيـسٌ بـ « ليلـى » عنـدنـا شهيـر

إليـك جئـت فـي سجـود وجـدِ   سيمـاه فـوق جبهتـي تفـور

هـب سيـف « لا » لكـافـري وأبصـر   « إلا » ي كيف في الدنى تثور[1]

---

(١) يشير إلى النفي والإثبات في « لا إله إلا الله » يعني : هب لي أنا الكافر توحيداً وانظر فعلي .

لا بـــدَّ مـــن دورٍ يعيـــد أمســـي　　فـــي جلـــوات مـــن غـــدي يسيـــر
نـــورك فيـــه للـــدُّنـــى نصيـــبُ　　« سينـــا » ي كيـــف فـــاتهـــا تنـــويـــر
أحـــدِّث الـــرحمـــن فـــي حجـــابِ　　وفـــي حمـــاك منطقـــي جهيـــر
أيـــا رســـول الله ! إنَّ ربـــي　　محجَّـــب وأنـــت لـــي ظهـــور

***

أسفـي عليـك نحـتَّ أصنـامـاً أخـر　　عوداً ولم تبحثْ بقلبك عن أثر[1]
أسفي عليك صُهرت في نار الفرنـ　　ـجِ ومن لحاظ العين روحك قد قطر[2]
أسفـي عليـك فمـا وُزنـت بنظـرة　　فـي حلَّـة فيهـا التـرابُ لـه قـدَر
أسفـي عليـك قـرأتَ أسفـار العقـو　　ل وما فهمتَ حديثَ وجدٍ يُستطر
أسفـي عليـك تطـوفُ مـن ديـرٍ إلـى　　حـرمٍ وفـي معنـاك لـم تُجِـد النَّظـر

***

(١) هذه الأبيات مردوفة في الأصل تكرر في أواخرها الكلمة التي ترجمتها « أسفي عليك » ، وقد كررتها في أول كل بيت .

(٢) ذاب في نار الفرنج وأفنى نفسه بالنظر إليهم وتقليدهم .






القسم الرابع

نقشُ الإفرنج






نقش الإفرنج

أَبلغـــي يـــا ريـــحُ عنِّـــي　　عـــالـــمَ الإفـــرنـــج جهـــرا :

إنَّمـــا العقـــل أسيـــرٌ　　زادَه التحليـــقُ أَســـرا

يتحـــدَّى العِشـــقُ بـــرقـــاً　　منـــه هـــذا العقـــل فـــرَّا

سُحِـــرَ العقـــلُ ، وكـــان العِشْـــقُ　　بـــالأكبـــاد أدرى

تبصـــرُ الأعيـــنُ لـــونـــاً　　حينمـــا تبصـــرُ زهـــرا

ووراء اللَّـــونِ معنـــىً　　هـــو أجلـــى منـــه يُـــدرى

مـــا عجبنـــا أنَّ إعجـــا　　ز مسيـــحٍ نلـــت خُبـــرا[1]

قـــد عجبنـــا لمـــريـــضٍ　　داؤه عنـــدك أشـــرى[2]

تجمعُ العلم وتلقي القَلـ　　ـبَ لا تـرغـبُ فيـه

آهِ ذا نقـــدٌ ثميـــنٌ　　ضـاعَ فـي كـفٍّ سفيـه

إنَّمـــا الحكمـــةُ أمـــرٌ　　ليـــس فيـــه مِـــنْ نهـــايـــه

ليـــس فـــي كتَّـــابهـــا للحـــبِّ　　والعِشـــقِ بـــدايـــه[3]

قطعـــت سُبـــل قلـــوبٍ　　يقظـــاتٍ بـــالعمـــايـــه

ذاتُ طـــرفٍ ذي كـــلامٍ　　هـــو فـــي الفتنـــة آيـــه

ودلالٍ لا تـــرى فيـــه　　إلـــى القلـــب سـرايـــه

---

(١) الخطاب لعالم الإفرنج .

(٢) شرى الداء : إذا اشتد ، وأشرى للتفضيل ، يعني : أنه كالمسيح في المعجزات ، ولكنَّه لا يشفي .

(٣) أي : ليس في كتابها ألم العشق وحزُّه كما يبرى القلم .

ليـــس فيهـــا لـــذةُ الـــوخـ ــزةِ مـــنْ غَمْـــزِ الـــرُعـــايـــه
طـــوت البيـــد ولـــم تظـ ـفـــر بظبـــيٍ فـــي النهـــايـــه
طـــافـــت البستـــان لـــم تبـ ـلـــغ مـــن الأزهـــار غـــايـــه
فَهَلُمُّـــوا نســـأل العِشْـــق ســـداداً ورَشـــادا
واقصدوا العِشْقَ سُجودا وابلغـــوا مِنْـــهُ مُـــرادا

***

سلـــكَ العقـــلُ طـــريقـــاً ذا شعـــابٍ حيـــن ســـارا
مـــلأ العـــالـــمَ هـــرجـــاً وأصـــارَ المـــاءَ نـــارا
فـــي يـــديـــه كميـــاء ردَّت الـــرمـــل نضـــارا
لـــم يصَـــغ إكسيـــر حـــبٌ فـــي قلـــوبٍ أو أنـــارا
سحـــرهُ قـــد خـــال فينـــا فقبلنـــاه جهـــارا
ذاك قطَّـــاع طـــريـــقٍ قطـــعَ السُّبـــل نهـــارا
فنَّـــه قـــد هـــدّم الأفـــرنـ ـــج والنقـــعَ أثـــارا
ثـــمَّ فـــي مُقلـــة عينـــي ذرَّ مـــن ذاك غُبـــارا
كـــمْ زرعنـــا مِـــنْ شـــرارٍ وحَصَـــدْنـــا مِـــنْ لهيـــبِ
كـــمْ عقـــدْنـــا وحلَلْنـــا عُقـــداً فـــوق القلـــوبِ

***

أيـــنَ مِـــنْ خفـــق الشَّـــواهيـ ـــن جنـــاحُ العنـــدليـــب
أيـــنَ مـــنْ يلقـــطُ مِـــنْ حـــب علـــى الأرضِ تـــريـــب
مـــن فتـــى يلقـــط عنقـــو د الثُّـــريـــا لا يَخيْـــب
أيـــنَ مـــنْ يســـري بـــروضٍ كنسيـــمٍ فـــي هبـــوب
مَـــنْ بصيـــر فـــي ضميـــر الـــزهـ ـــر للســـرِّ يصيـــب
أيـــن فـــوق الأرض ظـــنٌ ســـارَ أو شـــكٌّ مـــريـــب
مـــن طمـــوحٍ جـــاوز الأفـــلا ك لِلْمَسْـــرى الـــرَّحيـــب

حبَّذا عقلٌ فسيحٌ — قد أحاطَ العالَمين
نورُ أملاكٍ ونا — ر الأنسِ فيه دونَ مين

نحنُ مِنْ خلوةِ عِشقٍ — قد برزنا بالسَّجايا
فجعلنا موطىء الأقدا — م في الأرض مَرايا
فانظرنْ همَّتنا كيـ — ـف لعبنا بالعطايا
قد أضعنا الكونَ جهراً — حينَ حزناهُ خفايا[1]
قدْ نزلنا شطَّ نهرٍ — نبصرُ الموج سَرايا
تبصرُ الأعينُ سطراً — مِنْ غُدُوٍّ وعَشايا
قَلْبُنا بيتُ هذا الدَّير — لا يبغي سبايا[2]
فرمى النَّارَ برطبٍ — ويبيسٍ في البرايا

شعلةٌ كنَّا جميعاً — وانتثرنا كالشَّررْ
أهلَ شوقٍ وحنينٍ — ورجاءٍ ونَظَرْ

أصبح العِشقُ غويّاً — قاطعاً كلَّ وكاء[3]
فتنةٌ للناس فيها — خَفَقُ حوتٍ في العراء
آثَر الحَزْبَ على الخفضِ — وعبَّى للقاء
لم يروِّ السَّيفَ إلا — مِنْ صدورِ الأوفياء
قطع الطُّرق وسمَّى الـ — ـقَطْعَ حِفْظَ الأمناء
أخذ الدُّفَّ وغنَّى — راقصاً دونَ حياء
رافعاً في الكفِّ كأساً — مِنْ دماء الأصفياء

حانَ أنْ نُحدِثَ نهجاً — ونجدَّ النظرا

---

(١) يعني : استولينا عليه بقوة أرواحنا ، وبذلته أيدينا احتقاراً .
(٢) في الأصل : الدير القديم ، وهو كناية عن الدُّنيا .
(٣) أحسب الشاعر يقصد في هذه الأبيات إلى أنَّ العشقَ ، وهو الوجدان السليم قد صار هوىً وطمعاً ، ففعل ما فعل (المترجم) .

فـاغسلـنْ لـوحَ فـؤادٍ وأجِـدَّ الأسطـرا
لحـنُ إسكنـدر ولّـى وتقضَّـى لحـنُ دارا
وأتـى فـرهـادُ يبغـي ملـك بـرويـزَ جهـارا
يـوسـفُ فـارق سجنـاً وعـزيـزَ الملـك صـارا
وخـرافـاتُ زليخـا ورُقـاهـا تتـوارى
كـلُّ سـرٍّ كـان يخفـى غشـيَ الشُّـوق نهـارا
ومضـى حفـلُ النُّـدامـى وبـريـقُ القـول بـارا
فـافتـحِ العَيْـن وأمعِـنْ لتـرى مـا لا تـرى
إنما تبنـي الحياةُ اليوم كـونـاً آخـرا
أنـا فـي الأرض بصيـرٌ عـارفٌ سـرَّ الحيـاةِ
أبصـر الـذَّرَّات طـراً كنجـومٍ نـاظـراتِ
وأرى الحبَّـة تحـت التُّـرب مـن قبـل نبـاتِ
ذاتُ أصـلٍ وفـروعٍ وثمـارٍ يـانعـاتِ
وأرى الأطـواد ريشـاً فـي ريـاحٍ قَلِقـاتِ
وأرى الـرِّيـش ثبـاتـاً كجبـالٍ راسخـاتِ
وانقـلابٌ ليـس يحـو يـه ضميـرُ الكـائنـاتِ
قـد أراه لسـتُ أدري كيـف فـي العَيـنِ يـواتـي
حبَّـذا المبصـرُ جهـراً فـارسـاً فـي ذا القَتَـر
ويـرى جـوهـرَ لحـنٍ فـي اهتـزازٍ بـالـوتـر
بـالحيـاة النَّهْـرُ جـار وسيجـري فـي مضـاء
عـاتـق الـرَّاح فتـىً وسيبقـى فـي فُتـاء
كـلُّ أهـلٍ لـوجـودٍ سـوف يحظـى بـالضِّيـاء
ووجـودٌ غيـرُ أهـلٍ سـوف يحـويـه الفنـاء
إنَّمـا العِشْـقُ عيـونٌ تـرقـبُ الحسـن ظمـاء
ومُنـى الحسـنِ ظهـورٌ وسيبـدو فـي جـلاء

إنَّ هــــذي الأرض فيهــــا ... لــــي دمــــوعٌ مِــنْ دمــــاء
سيُــــرى الــــدَّمــــعُ عقيقــــاً ... فــــي حشــــاهــــا ذا بهــــاء
« فـي ظـلام الليـل جاءتـ ... ـني مـن الصُّبـح بِشـاره
أطفــئ الشَّمــع ولاحَــتْ ... لي من الشَّمس أماره »[1]

* * *

جمعية الأمم

بــؤســـاءُ الأرضِ رامــوا سُنَنـــاً ... لتزولَ الحَرْبُ في هذي العُصور
وسمعنـــا أنَّ نبَّـــاشــــي قُبــورٍ ... شــركـــةٌ شــادوا لتقسيــمِ القبــور

* * *

شوبنهاوَر ونيتشا[2]

طــارَ مِــنْ عُشِّــه يسيــرُ بــروضٍ ... فــأصــابتــه شــوكــةٌ مِــنْ زُهــور
لعــن الــرَّوضَ والــزَّمــان ونــادى ... بثبــــورٍ لنفســــه والطُّيــــور
ورأى وسمـــة الشقـــائـــق جــوراً ... وطلَسْــم البــرعــوم خَــدعُ خبيــر[3]
قــال ذي الــدَّار شيَّــدْتَ بــاعــوجــاج ... كــلُّ صبــحٍ بهــا إلــى ديجــور
نــاحَ حتَّــى تقــاطــرت نغمــاتٌ ... مــن دمــاءٍ ، بــدمــع عيــنٍ غــزيــر
وشجــا الهــدهــدَ النُّــواحُ فــوافــى ... ينــزع الشَّــوك مــن جنــاحِ الكسيــر

---

(۱) هذا البيت يضمن في شعر إقبال وهو لغالب (الشاعر الأردوي المشهور) .
(۲) فيلسوفان ألمانيان معروفان ، الأول متشائم ، والثاني يعجب بالقوة واحتمال الشدائد في هذه الحياة .
(۳) في الشقيقة سواد يجعلها الشُّعراء وسمة من الحرقة . وطلسم البرعوم يريد به انطباقه وانبهاعه كالطلسم .

قال : أخرج من كل خسرك ربحاً   مــزّق الــوردُ صَــدْرَه للعبيــر
واجعـل الجُـزحَ بَلسمـاً فستـرضـى   واثْلَـفِ الشَّـوكَ تغـدُ كلُّـك روضـا

* * *

الفلسفة والسياسة

لا تقيســوا فلسفيــاً بــارعــاً   بسيــاســيٍّ وبــالعــدل احكمــوا
ذاكَ عيـنٌ جهـرت فـي شمسهـا[1]   وجمــودُ عيــنِ ذا لا تَــرْحــم
ذاكَ فــي الحــقِّ دليــلٌ واهــنٌ   ذا لــدى البــاطــل قــولٌ مُحْكــمُ

* * *

نيتشا

ثــارَ مِـنْ ضعـفِ الأنـاسـيِّ قلبـه   فبــرى الخلــق المكمــل لُبُّــه
فتنــة فــي الغــرب مــن ذي جنــون   كــان فــي دار الــزُّجـاجـيِّ ضـربـه

* * *

بايرُن[2]

قطــراتٌ رشحــتْ مــن كــأســه   شعلــةٌ تنمــو كــوردٍ وشقيــق
ذو رســالاتٍ بهــا حــرُّ الجــوى   فـرسـولُ الحــبِّ منهـا فـي حـريـق
ضــاق بــالإفــرنــج بــرداً طبعــه   فهـو فـي الأوطـان في غـمٍّ وضيـق

---

(١) جهرت العين : لم تبصر في الشمس .
(٢) الشاعر الإنكليزي المعروف فارق وطنه إلى بلاد اليونان لنصرة الثائرين بها ، ومات هناك .

وخيـــالٍ كـــم بنـــى مِـــنْ ملعـــبٍ　　فيـــه للحـــورِ مـــراحٌ وبـــريـــق
جَلـــواتٌ للشَّبـــاب ائتلقـــتْ　　فهـــو فـــي الغَشْيَـــةِ منهـــا لا يفيـــق
طـــائـــرٌ فـــارق عشَّـــاً ورأى　　حِلَـــق الشُّبَّـــاك[1] أولـــى بـــالحلـــوق

＊＊＊

جلال وهيكل[2]

ليلـــةً بـــتُّ أعـــانـــي حلَّهـــا　　مشكـــلاتٍ لحكيـــم الألمـــانِ
ذاكَ مَـــنْ أبـــرز فـــي إبـــداعـــه　　أبـــديُّ الكـــونِ مـــن ستـــر لآنـــي[3]
يخجـــلُ العـــالـــم مـــن أفكـــاره　　شـــاكيـــاً ضيـــقَ زمـــانٍ ومكـــانِ
ســـرتُ فـــي بحـــرٍ لـــه فـــالتطمَـــتْ　　سفـــنُ العقـــل بمـــوجِ الطُّـــوفـــانِ
نفـــثَ النَّـــومَ بعينـــي سحـــرُه　　فحمـــانـــي فكـــرَ بـــاقٍ أو فـــانـــي
وأحـــدَّ الشَّـــوْقَ طـــرفـــي فـــإذا　　نـــور وجـــهٍ لحكيـــم رحمـــانـــي
إنـــه الشَّمـــسُ تجلَّـــت فـــي الضحـــى　　كـــلُّ أفـــقٍ بسنـــاهـــا نـــورانـــي
نـــورُه فـــي مظلـــمِ الأفـــق ســـرى　　كمنـــارٍ فـــي طـــريـــقِ الـــرُّكبـــان
تنبـــتُ الأفكـــار فـــي ألفـــاظـــه　　مثـــلَ مـــا ينمـــو شقيـــقُ النُّعمـــان
قـــال : قـــم يـــا أيهـــا النـــائـــمُ ! هـــل　　تمخـــرُ السُّفـــن ســـرابَ القيعـــان
« في طريقِ العِشْقِ بالعقل يُسار ؟　　بســـراجٍ تبتغـــي شمـــسَ النَّهـــار »[4]

＊＊＊

---

(١) الشباك : الشبكة .
(٢) جلال الدين الرومي ، وهيكل الفيلسوف الألماني .
(٣) يريد أنه أدرك من الشيء المؤقت حقائق أبدية ، والآني نسبة إلى الآن .
(٤) البيت الأخير للرومي .

بتوفي

(شاعرٌ مجري قُتِلَ شاباً في الدِّفاع عن وطنه ، ولم يعثر على بدنه لتبقى له ذكرى أرضية)

لعروسِ الرِّياض غَنَّيتَ حيناً — زدتَ قلباً جوىً وأسليتَ قلبا
وخضَّبْتَ الشقيق من دمك المسفوك — وجْداً وجلّ ذلك خضبا
كم بآهِ الصَّباح في المرجِ يسري ، — في صدور الأكمام فَتَحْتَ قلبا
نغماتٌ من الجوى ذبت فيها — في « مزار » القريض تُدفن حبا
وإلى الترب لم تعد بمماتٍ — ذاك حقٌّ فليس أصلك تربا

***

جلال وجوته[1]

شاعر الألمان في رَوْضِ إرم[2] — فاز بالصحبة من شيخ العجم
شاعرٌ يشبه ذا العالي الجناب — ما نبياً كان لكن ذو كتاب[3]
قصَّ للعارفِ بالسرِّ القديم — ما وعى إبليسُ والشيخُ الحكيم
فأجابَ الشَّيخ : يا رب العلاء — أنت صيادٌ ولكن في السماء
قد خلا فكركَ في القلب السليم — فأجدَّ الرُّوح في الكون القديم
فرأيتُ الدرَّ في قاع البحار — ودبيبَ الرُّوحِ منْ خلف الستار

---

(١) شاعر الألمان جوته صاحب القصة المعروفة فوست . وفي هذه القصة يبين الشاعر درجات تطور الإنسان في إطارٍ من روايةٍ قديمة عن العهد الذي كان بين الحكيم فوست والشيطان ، وقد بلغ فيها الفنُّ درجةً لا يدركها الخيال .

(٢) يقصد الشاعر بإرم الجنة .

(٣) شيخ العجم : جلال الدين الرومي ، والبيت الثاني من قول الجامي عن الرُّومي : ماذا أقول في هذا العالي الجناب ـ لم يكن « نبياً » ولكن له كتاب ـ .

ليس كلٌّ قد تجلّى العِشقُ له   ليس كلٌّ أهل هذي المنزله
« قد تجلَّى لسعيدٍ ألمعيٍّ   مكرُ إبليس وعشقُ الآدمي »[1]

* * *

رسالة برگسون[2]

إذا ما شئت أن تحظى بسرٍّ   تبوح له الحياة لمستجيب
فلا تبعدْ بنفسِك عن لظاها   كما جَفِلَ الشَّرارُ عن اللهيب
ولا تصحَبْ سوى نظرٍ عريف   ولا تمرر بأرْضِك كالغريب
وما صورتُه وهمٌ فأعدد   لعقلٍ شبَّ في أدب القلوب

* * *

حانة الفرنج[3]

عهدُ حاناتِ فرنجٍ   ذكَّرني يا خليلي !
رَبَّتِ الخمرةُ فيها   عينَ خمَّار جميلِ
نظرة الساقي رسالا   تٌ لشرَّاب الشَّمول
عقلُها الخاتر غاز   عشقَها كلَّ سبيل
جوُّها ما أشْعَلَتْه   نارُ آهاتِ الحيارى
ليس فيها مِنْ خليعٍ   فيه ترنيحُ السُّكارى

* * *

---

(١) البيت الأخير لجلال الدين الرومي .
(٢) فيلسوف فرنسي .
(٣) يقصد الشاعر في هذه الأبيات إلى ما يعوز الإفرنج من الإيمان وحرارة الوجدان .

حكماء[1]

لوك[2]

فارغُ الكأس أتى الروضَ شقيقٌ[3] يملأ الأكواب من شمس الضُّحى

كنت[4]

فطـــرةٌ ضــاءت شــرابــاً ولهــا نجـم كـأسٍ مــن حــريــم الأزل

برگسون

مــا لــه مِــنْ أزلٍ خمــرٌ وكــاس نــاره مِـنْ حـرقـة القلـب الشَّقيـقْ

* * *

شعراء

برونگ[5]

ليـس فـي كـاس الحيـاة البـرد نـارٌ فبمــاء الخضــر كــأســي أمــلأْ[6]

بايرن

منــةٌ للخضــر لا تلهــبُ صــدري فبمــاء القلــب كــأســي أمــلأ

---

(١) صوَّر الشاعر كلاًّ من هؤلاء الفلاسفة ببيت . وهذه الكنايات لا يدركها إدراكاً تاماً إلا من عرف هؤلاء الفلاسفة ، وعرف خصائص كلٍّ منهم .

(٢) فيلسوف إنكليزي .

(٣) شقائق النعمان .

(٤) فيلسوف ألماني .

(٥) شاعر إنكليزي .

(٦) ماء الخضر : عين الحياة التي شرب منها الخضر ، فخلد ، وحرمها إسكندر .

غالب[1]

لأزيـد الخمـرَ والصَّـدر لهيبـاً أصهَـر الـدَّنَّ وكـأسـي أمـلأ

جلال الدِّين الرومي

أيـن مـزجٌ مِـنْ سنـا جـوهـرِهـا مِـنْ عـروقِ الكَـرْمِ كـأسـي أمـلأ

حانات الفرنج

أمـسِ فـي حـانـة الفـرنجـة وهْنـاً راعنـي قـولُ مـاجـنٍ ذي خـلاعـه
قـال : ليسـت كنيسـةٌ تغشـاهـا فـي دُمـىً للغنـاءِ تبغـي سمـاعـه
إنَّهـا حـانـةُ الفـرنـج وفيهـا كـلُّ مـا ذمَّـه البـريـةُ طـاعـه
قـد وزنـا الأعمـالَ فيهـا بـوزنٍ غيـر مـا حسَّـن الأنـامُ اصطنـاعـه
لا تـزنْ وزنَ أمَّـةٍ ذات ديـنٍ رثُّ ميـزانهـم فحـاذرْ متـاعـه
كـلُّ قبـحٍ يـزيـدُ جـاهـك ، حسنٌ كـلُّ حسـنٍ يضـرُّه فهـو شنـاعـه
إنْ تفكَّـرت فـالحيـاةُ ريـاءٌ وبهـا الصِّـدقُ قـولـةٌ خـدَّاعـه
إنَّمـا الصِّـدق والـوفـاء حجـابٌ يُحـرم السَّـاعـي الغـريـرُ ارتفـاعـه
شيخنـا قـال : مـوِّهـنْ كـلَّ صُفـر بنضـارٍ وزيِّفَـنْ كـلَّ سـاعـه
ذاك سـرُّ الحيـاه لا تفشينـه تـربحـنْ فـي يـديـك كـلَّ بضـاعـه

* * *

---

(١) أسد الله غالب شاعر بالفارسية والأردية ، يُعتبر شعره حجة باللغة الأردوية ، توفي سنة ١٨٦٨م وهذا البيت لغالب نفسه .






القسم الخامس

رَقَائِق






رقائِق

ذرَّاتُنـــــا ثـــــورةٌ تهـــدُر   بـــأنفـــاسنـــا محشـــرٌ مضمـــرُ
لقـد أفْصَـحَ الخضـر فـي الظُّلمـاتِ   علـى حيـنَ صـاحَبَـهُ إسكنـدرُ
عسيـرٌ علـى النَّـاس فَهْـمُ الممـاتِ   وفهـــمُ الحيـــاةِ لهـــمْ أعْسَـــرُ

* * *

حبـةُ الـدُّرِّ تعـرفُ البحـرَ لكـنْ   أيُّ علـمٍ لهـا بـدورِ الـرَّحـى ؟

* * *

يصـــرُّ اليـــراع لإعـــواز لـــبٍّ[1]   فليـس لمـرودِ كحـلٍ صـريـر

* * *

طفـتُ بـالبيـتِ حـامـلاً أصنـامـي   وأمامَ الأصنامِ « هو » قد جأرتُ[2]
وفـــؤادي يسيـــرُ خلْـــفَ طِـــلابِ   فــي طـريـقٍ كشعـرةٍ قـد مَـرَرْتُ
يقولُ ورد روضٍ : عيشُ الرَّبيعِ أحلى   وصبحُ مرجٍ عندي منَ الجميعِ أحلى
مـن قبـل جـور كـفّ لـزينة تقطفنـي   موتٌ بحضنِ نضرٍ من الفروع أحلى[3]

* * *

يـــا صـــاحبـــي ذاك قـــولٌ   علـــى الحيـــاة دليـــلُ

---

(١) يعني لأنه فارغ الجوف .
(٢) صاح بلفظ « هو » يريد الله تعالى .
(٣) وهذا مثال آخر من زيادة التفعيلات على المعهود في العربية وفي القافية المردوفة .






اللَّمعَات






بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بدأتُ هذه المنظومة حينما قرأتُ منظومتَيْ إقبال : « أسرار خودي » ، و« رموز بي خودي » ونشرت الأبيات الأولى منها ، ثم شُغلتُ عن إتمامها ، فلبثتُ أعاودُ النَّظم فيها حيناً بعد حين .

فلما أشرفت ترجمة « پيام مشرق » على النِّهاية عزمتُ على إتمام المنظومة ، فتمَّتْ بحمد الله .

وهي مهداة إلى الشَّاعر العظيم إقبال اعترافاً بفضله .

(عبد الوهاب عزام)

أيُّهــا اللَّيــلُ ! إليــكَ المفــزعُ ... كــمْ حَنَتْ منـكَ علينـا أضلـعُ ؟
كَـمْ خفينـا فـي غيابـات الـدُّجى ... ومــلأنـا اللَّيـلَ همَّـاً وشجـا ؟
كـم أَلِفْـتُ الليـلَ أمّـاً حـانيـة ... وكــرهــتُ النَّجـم عينـاً رانيـة ؟
كـم أَلِفْـتُ الليـل وحشـاً راقبـا ... مـن شُعـاعِ الصُّبحِ سهمـاً صـائبـا
كـم بثثـتُ اللَّيـل سـرّاً كتمـا ... فـوعـاهُ الليـل عنِّـي ألمـا ؟
كـانـتِ الظَّلمـاءُ لَـوْحـاً لـلألـمْ ... خطَّـتِ الآهـاتُ فيـه كـالقلـم !
كـانَ لـي الليـلُ مـداداً فَنَفـد ... وطغــى قلبـي بمـدٌّ بَعْـدَ مـدّ
جاشـتِ الظَّلماء مـوجاً بعـد موج ... وغزاني الوَجْدُ فوجاً بعد فَوْج !
فَنِيَـتْ هـذي ، وهـذا زاخـرُ ... وانْجَلَـتْ هـذي ، وهـذا غـامـرُ
خلتنـي فـي الليـل جمـراً سعـرا ... ونجـومُ اللَّيـل منـه شـررا
إرَّة قَـدْ وقـدتْ فـي أضلعـي[1] ... وسحـابٌ هـاطـلٌ مـن أدمعـي ؟

* * *

كنـتُ سطـراً لـم يُفسِّـرْهُ أحـدْ ... خطَّـهُ فـي غيبـهِ اللهُ الصَّمـد
فـي ضميـري كـلُّ معنـىً منبهـم ... حـرت فـي الإعـراب عنه بـالكَلِـمْ
قـد ثـوى العـالـمُ فـي قلبـي ومـا ... خُطَّ شيءٌ فيه إلَّا الحرفُ « ما »[2]
جـلَّ قلبـي أن أراه جـام جـمّ[3] ... صُـوَرُ الأقطـارِ فيـه تنتظـم
إنَّمـا الأقطـار فـي قلبـي العميـد ... أحـرفٌ أوحـت إلـى معنـىً بعيـد

---

(١) الإرة : جبل النار .

(٢) يعني : لم يكن العالم في قلبه إلا نفياً .

(٣) جام جم أو كأس جمشيد ، في خرافات الفرس : كأس كانت تُرى فيها الأقاليم السَّبعة .

ربَّ معنـــىً فـــي ضميـــرٍ يكتـــم — ليس فـي النـاس عليـه مَحْـرَم[1]
وقلـــوبٍ رمْسُهـــا هـــذي الصُّـــدور — أتـراني مسمعـاً مـن فـي القبـور[2]
أنـــا فـــي النَّـــاس فصيـــحٌ أعجـــم — نـــاطـــقٌ فيهـــم كـــأنِّـــي أبكـــم !
صمَّـــتِ الآذانُ عـــن هـــذا البيـــان — ضاعَ في ضوضائهم هذا الأذان !
كيـــف يُجـــدي القـــومَ هـــذا النَّغـــم — وعلـــى الآذان رانَ الصَّمـــم ؟
كيف يُجدي القَدْحُ في هذا الحجر ؟ — قلبُـــه رخـــوٌ خَلـــيٌّ مِـــنْ شـــرر
إنَّ خَفْـــقَ القلـــب قـــدحٌ مُجْهـــدُ — بعضُـــه يـــوري ، وبعـــضٌ يَصْلُـــد
كيف يُجدي النفخُ في هذا الرَّمادْ — طفـىء الجمـرُ ولـم تـورِ الـزِّنـاد !

* * *

يَخْـــرِقُ اللَّيـــلَ شعـــاعٌ يَخْفـــقُ — ثـــمّ يلتـــفُّ عليـــه الغَسَـــقُ
كمنـــارِ البحـــرِ يخفـــىٰ ويَلُـــوح — فيـه بيـن الغيـبِ والـوَمْضِ وُضوح
أو يـــراعِ اللَّيـــل يخفـــىٰ ويُنيـــر — فهـو سطـرٌ مـنْ غيـابٍ وحضـور[3]
تـــارةً يبـــدو طـــريقـــاً لَحبـــا — قـــامـــت الأنجـــمُ فيـــه نُصبـــا
أو بيـــانـــاً مـــن بيـــاضٍ وســـوادْ — كبيـــاضِ الطِّـــرْسِ يعلـــوه المِـــداد
كـــلُّ لـــونٍ فيـــه حـــرفٌ مُفْصِـــحُ — أُلِّفـــت منـــه سُطـــورٌ وضَّـــح
وراَه تـــارةً خطـــاً أجـــمَ — وكـــأنَّ الضَّـــوءَ تفصيـــلُ الظُّلَـــم
فهـــو سَطْـــرٌ مـــن ظـــلامٍ أرقـــطُ — أعجمـــت معنـــاه تلـــك النُّقـــطُ
كـــلُّ لـــونٍ فيـــه حـــرفٌ أعجـــمُ — وحـــوى الأحـــرفَ سَطْـــرٌ مظلـــمُ[4]

---

(١) المَحْرم هنا : الأمين على السر ، كما يؤتمن المحرم من الأقارب على الحرمات .
(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ٢٢] .
(٣) هذا من قول إقبال : أي كرمگ شبتاب سرايا تو نوراست برواز توبگ سلسله غيب وحضور ست (يا يراعة الليل كلك نور ، وطيرانك سلسلة من الغيبة والحضور) .
(٤) حاصل المعنى في هذه الأبيات : أن النفس تارةً تدرك إدراكاً واضحاً ، وتارةً تُغمُّ عليها الحقائق .

يـا لُبينـى أوقـدي ، طـالَ المـدى | أوقـدي عـلَّ علـى النَّـار هـدى[1]
أوقـدي يـا لُبـن قـد حـارَ الـدَّليـل | أوقــدي النَّــارَ لأبنــاءِ السبيــل
ارفعــي النَّــار وأذكــي جمــرهــا | عـلَّ هـذا الـركـبَ يعشـو شطـرهـا
شــرِّدي هــذا الظــلامَ الجــاثمــا | أرشــدي هــذا الفــراشَ الهــائمــا
حبَّــذا النــارُ بليــلٍ تــوقــدُ | حبَّـذا المـؤنـسُ هـذا المـوقـدُ ؟
حبَّــذا عنــدك هــذا النــزلُ | لــو حــوانــا فــي سفــارٍ منــزل
مـا لـذا المنـزلِ قـد سـار الفـريـق | إنَّمــا النِّيــران أعــلامُ الطَّــريــق
قــد تــرحَّلنــا مــن الفــجِّ العميــق | لا نبــالــي بقــريــبٍ أوْ سحيــق
رنَّ فــي آفــاقنــا هــذا النِّــداء | فــأممنـا البيـت يحـدونـا الـرَّجـاء[2]
قــد غنينــا عــن مبيــتٍ ومقيــلْ | وعــن الأمــواه والظــلِّ الظَّليــل
وعــن الــرَّغبــة والخــوفِ سُــوى | خُلـع النعـلان فـي وادي طـوى[3]
نحــن لا نــرضــى بنــار الغَسَــق | نحــن لا نــرضــى بنــور الشَّفَــق
نحـن لا نـرضـى بنجـم الصُّبْـح لاح | لا ولا نــرضــى تبــاشيــرَ الصَّبــاحْ
نحــن لا نــرضــى نجـومـاً لامعـه | إنمــا نبغــى شمــوســاً طــالعــه
قــد رحلنــا بــالجــوى والحُــرقِ | وغنينــا عــن رسيــم الأينــق
أيــن منــا طــائــراتٌ سبَّــق | جَمَــعَ الغَــرْبُ لهــا والمشــرقُ
نحــن ركــبٌ فــي جــواه مُــوضــع | لــم يَسَعْــهُ فــي جــواه مــوضــعُ
كــلُّ حُــرٍّ ضــاق عنــه المــوطــنُ | وانطــوى دون منــاه الــزَّمــنُ

---

(١) إشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ١٠] .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] .

(٣) النعلان هنا كناية عن الرغبة والخوف والإشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه : ١٢] .

كــلُّ طيَّــارٍ علــى متــن الفكــر وعلــى متــنِ هيــامٍ لا يقــر
طــائــرٌ منــه يغــارُ الملَــك طــائــرٌ مــن تحتــه ذا الفلــكُ
بــارقٌ فــي اللَّــوْحِ لا ينطفــىءُ كــلُّ غــايــاتٍ لــديــه مبــدأُ
زوِّدينــــا بهيــــامٍ ووجيــــب زوِّدي يــا لُبــنَ مِــنْ هــذا اللهيــب

* * *

جــالَ فــي الظلمــاءِ نــورٌ مــن نغَــم مُــزِّقــتْ منــه ديــاجيــرُ الظُّلــم
أشعــاغٌ فيــه صــوتُ صــائــحِ أمْ كــلامٌ منــه نــورٌ لائــح ؟
أذنَ الــرَّكــب لهــذا المنشــدِ أطـربَ النـاشـدَ صـوتُ المنشـد[1]
ســال فــي القلــب مسيــلَ المطــر ينبــتُ الــرُّوح بسهــبٍ مقفــرِ
أو خــريــرِ المــاء مــن نبــعِ زُلال بشَّــر الغــارقَ فــي بحــر الــرِّمــال
رَنَّ فــي نفســي رنيــنُ الجــرس صــاح فــي أذنــي فقيــدٌ مبلــس
طــوتِ البيــداءُ عنــه السَّــابلــهْ وهــداهُ الصَّــوْتُ شَطْــرَ القــافلــه
سبــقَ القلــبُ إليــه الأذنــا كبــلالٍ لصــلاةٍ أذَّنــا
دارَ قلبــي شطــرَ هــذا المطــربِ دورةَ الإبــرة شطــر القُطْــبِ
« غننــي يــا منيتــي ! لحــنَ النُّشــور ابــركــي يــا نــاقتــي ! تــمَّ السُّــرور
عُــذْتَ يــا عيــدي إلينــا مــرحبــا نِعْمَ ما روَّحتَ يا ريحَ الصَّبا[2] »

* * *

حبذا الصَّوْتُ فَمَنْ هـذا البشيـر ؟ ومـنِ الهـاتـفُ بـالقَلْـبِ الكسيـر ؟
وَمَنِ المُسْعـدُ فـي هـذي الهمـوم ؟ ومَـنِ البـارقُ فـي هـذي الغيـوم ؟
ومــنِ الهــابــط فــي نــورِ السَّمــا هـاديـاً فـي الأرض جيـلاً مظلمـا ؟

---

(١) المنشد في الشطر الأول ، منشد الشعر ، وفي الثاني : الذي يدلُّ على الضَّالة ، والناشد : منْ ينشدها .
(٢) جاء هذان البيتان بألفاظهما العربية في مثنوي جلال الدين الرُّومي .

ومنِ الهادي إلى أرض الحبيب ... يعرف النهج وقد حارَ اللَّبيب ؟

ومنِ السَّائقُ شَطْرَ الحَرَمِ ... وإلى الأصنام سَيْرَ الأممِ ؟

وَمَنِ القارىءُ في بيت الصَّنم ... سورةَ الإخلاصِ في هذا النَّغم ؟

ومَنِ الحرُّ الذي قد حطما ... من قيود الأسرِ هذا الأدهما ؟

وَمَنِ الآبي على كلِّ القيود ... وَمَنِ القاطِعُ أغلالَ العبيد ؟

ومَنِ الباعثُ في ميت الأمم ... ثورةَ العزَّةِ من هذي الهِمم ؟

لاحَ كالغُرَّة في هذا السَّواد ... بصَّ كالجمرة في هذا الرَّماد

جرف النَّاس أتيٌّ مزيد ... ضلَّ فيهِ المقتدي والمرْشِدُ

وطغى اللُّجَّ عليه والتطم ... فرساً كالصَّخر في هذا الخِضَم

عارضَ الموجَ على أغماره ... وطوى اللُّجَّ على تيَّاره

سبح اللُّجَّ وبالشطِّ استقر ... داعياً والناسُ غرقى في النَّهر

يجرفُ التيَّار جسماً جامدا ... تَقْذِفُ اللُّجَّةُ قلباً خامدا

إنَّ عزم الحرِّ بحرٌ مُزْبدُ ... جائشٌ في الدَّهر لا يَتَّئِدُ

هذه الأقدارُ في تسيارها ... هِممُ الأحرارِ في أسفارها(1)

ومنِ الشَّاعر يُذكي القافيه ... فهي نورٌ وهي نارٌ حاميه ؟

تَقْشعرُّ الأرضُ من أوزانه ... ويهيمُ النَّجمُ من ألحانه

وكأنَّ الدَّهرَ صوتٌ كُتِبا ... قد حكاه الشِّعر لحناً مطربا(2)

هو بالأشعار بحرٌ فائض ... وهو للأزمان قلبٌ نابض

حدَّثته الأرض عن أخبارها ... وحَبَتْهُ الزُّهر من أسرارها

هو بالأمسِ خبيرٌ بِغَدِ ... وهو اليومَ نجيُّ الأبد

كَشَفَ اللهُ عن الغيبِ له ... فلسانُ الغيب يُمْلي قوله

عَرَفَ الشَّرقَ وراد المغربا ... فانجلى السِّرُّ له ما كُذبا

---

(1) هذه : مبتدأ ، وهمم : خبر .

(2) يعني : أنَّ الدَّهر أمام الشَّاعر كعلامات الموسيقا ، والشعر قراءة هذه العلامات .

فـــرأى العلـــمَ سبيـــلاً للـــرَّدى إذ رأى القلــب خليَّــاً مِــنْ هــدى
صـوتُ « إقبـال » علـى شـطِّ المـزار أسمـعَ اليقظـان فـي هـذي الـدِّيـار

***

أيُّهـا الـدَّاعـي إلـى سـرِّ « خـودي » ليــت أنَّــا بهــداهــا نهتــدي
فطـــرةُ الله التـــي أوْدَعهـــا كــلُّ نفــسٍ خــابَ مــنْ ضَيَّعهــا
إنهــا ســرُّ الحيــاة الخــالــدة دونهــا كــلُّ حيــاةٍ هــامــدة
إنَّهــا التيَّــارُ مثــلَ الكَهْــربــاء إن يُعطَّــلْ لمحــةً كــان الفنــاء
إنَّمــا العيــشُ جهــادٌ لا يَقــرّ وركــودُ الحــيِّ مــوت مستمــرّ
مــن يضـيء ذا السـرَّ فـي أعمـاقـه ضـاقــتِ الأفــلاكُ عــن آفــاقــه
وتعــالــى عــن حــدودِ الأزمنــة وتجــافــى عــن قيــود الأمكنــة
شُعــلٌ فــي قــولــه تضطــرم وطمــا فــي القلــب بحــرٌ خضــرم
مُطلــعٌ فــي اليــأسِ صُبْــحَ الأمــلِ نــافــخٌ فــي المــوت روح العمــل
أرأيــت الغيــث فــي أرضٍ مــوات منبتــاً فيهــا أفــانيــن النَّبــات
هِمــمُ الأحــرارِ تحيــي الــرِّمَمَــا نفخــةُ الأبــرار تحيــي الأممــا
لا يُصــدُّ الحــرُّ عمَّــا يــامــل أو يحــدُّ البــرُّ فيمــا يفعــل
هـــو بـــالله العلـــيِّ اتصـــلا جــلَّ ربــي عــن حــدودٍ وعــلا
مــنْ يُضــيء فــي قلبــه إيمــانُــه وينــزْ فــي سبلــه وجــدانُــه
فهـــو بـــالله علـــيٌّ وقـــويّ وهـــو بـــالله غنـــيٌّ وولـــيّ
جـــاهـــد والله فـــي تيسيـــره تحســبُ الأقــدارَ فــي تقــديــره
قــائــمٌ بــالحــقِّ بيــن البشــر مــا لــه فــي بــاطــلٍ مــنْ وَطَــر
يُمْسِــك الــدُّنيــا ولا تُمسِكُــه يملـــك الأرضَ ولا تملكـــه
وتــرى الــدُّنيــا انطــوت فــي كسبــه ليــس منهــا ذرةٌ فــي قلبــه
إنَّـــه القـــانـــون بـــالله ســـرى عــادلًا فــي حكمــه بيــن الــورى
يســـعُ النَّـــاسَ جميعـــاً همُّـــه فــي سبيـــل الله مــاضٍ عــزمُــه

جــاهــدٌ فــي الخيــرِ لا يتّئــد عــزمُــه فــي صَــدْرِه يتَّقــدُ
وفقيـــرٌ وغنـــاه لا يُحَـــدّ فقــره استغنــاؤه عــنْ كــلِّ يــد
هـــو بـــاللهِ وفـــي اللهِ غنـــيّ ضـاقَ عــن هــذا الغنـى كـلُّ ثـري

* * *

صغار الهمم

إنَّ فــي النــاس قلــوبــاً جــامــده جــذوةُ الإقــدامِ فيهــا خــامــده
همُّهــا مــا يبتغيــه الجســدُ كــلُّ مــا تهــوى طعــامٌ ودَدُ
حــدَّدَتْ آرابُهــا آفــاقَهــا فحكــتْ فــي ضِيقهــا أخــلاقَهــا
لا تبــالــي حيــن تبغــي أربــا عُمِــرَ الكــونُ بــهِ أم خَــرِبــا
إنَّمــا قــانــونهــا أهــواؤهــا سُخِّــرتْ فــي نفعهــا آراؤهــا
وتــرى أهــواءهــا تغلبُهــا كــلَّ حيــنٍ فــي هــوىً يجــذبُهــا
وإلــى الأرض تــراهــا مُخْلِــدَه لا تُــرى نحــو المعــالــي مُصْعِــده
إنَّمــا آفــاقُهــا هــذا البــدن إنَّمــا مَبْــرَكهــا هــذا العَطَــن
إنَّمــا أحيــاؤهــا كــالــرِّمــم خــامــداتِ العَــزْم مــوتــى الهِمَــم

* * *

العالمُ مَعْبد

إنَّمــا العــالَــمُ طُــرّاً مَعْبــدُ كــلُّ مَــنْ أحســنَ ، فيــه يَعْبُــد
كــلُّ مَــنْ أدلــى بقــولٍ طيِّــبِ ينبــتُ الخيــرَ كغيــثٍ صيِّــبِ
كــلُّ مــنْ أحســن يــومــاً عمــلا كــلُّ مــن أحيــا مــواتــاً همــلا
كــلُّ مــنْ فــي أرضــه قــد زرعــا ليقيــتَ النَّــاس والعُجْــم معــا
كــلُّ مــنْ يغــرسُ مخضــرَّ الشَّجــر فيــه لــلإنســان ظــلٌّ وثمــر

كل مـنْ يَنْبِـطُ بشـراً فـي السبيـل تنفـعُ الظمـآن مـنْ حـرِّ الغليـل
كـلّ مـنْ يبنـي بنـاءً حسنـا كـلُّ مـنْ فـي صنعـه قـد أتقنـا
كـلُّ مَـنْ أحـدثَ علمـاً للبشـر ينفـعُ النـاسَ ولـم يقصـدْ لشـرّ
كـلُّ مـنْ أحـدث فكـراً مُحكمـا يبتغـي للنـاس خيـراً عممـا
كـلُّ مَـنْ جـدَّ وإنْ لـم يجـد لـم يضـع وقتـاً بلهـوٍ ودِدِ
كـلُّ مـنْ أثَّـر فيهـا أثـرا خـالـداً للخَيْـرِ مـا بيـنَ الـورى
كـلُّ مـنْ فـي دهـره قـد أجمـلا فكـرةً أو قـولـةً أو عمـلا
كلّهُـم للهِ نِغْـمَ العـابـدُ كلُّهـم للخيـرِ نغْـمَ القـاصـدُ
فـاصطنـع للخيـرِ فكـراً ويـدا ولسـانـاً وابـغِ فـي الخيـر يـدا

***

لا رهبانية في الإسلام

ليـس منـا مـن ثـوى فـي صـومعـه يحبـسُ الأعمـال والفكـر معـه
ضـاق نفسـاً عـن مجـالٍ وسعـا فثـوى فـي ضيقـهِ قـد خنَعـا
ليـس شيئـاً أنْ تُـرَى معتـزلا عـابـداً تخشـى البـرايـا وجِـلا
إنَّمـا العـابـد مـنْ خـاضَ الحيـاة مـوضحـاً فيـه سبيـلاً للنَّجـاة
آخـذاً بـالعَـدْلِ مـا عنـه حِـول ذاكـراً مـولاه فـي كـلِّ عمـل
إنَّـه بـالحـق مـوصـولٌ ومَـنْ يتَّصـلْ بـالحـقِّ لا يخـشَ الفتـن
ثـورةٌ مضمـرةٌ فـي حلمـه إنْ يفكِّـرْ ظـالـمٌ فـي ظلمـه
أرأيـت الصَّقْـرَ فـي متـنِ الـرِّيـاح يطلـبُ الـرزق بعـزمٍ وجنـاح
طـائـراً فـي الجـو يسمـو عـازمـا لا يُـرى حـول الـدّنـايـا حـائمـا
يـأكـلُ الجـوع ولا يـرضـى الجيـف لـو يـراه الجـوعُ يـومـاً مـا أسـفّ
فـإذا الجـدُّ رمـاه فـي الشَّـرك لـم يطـقْ صبـراً عليـه فهلـك
ليـس يحـوي الحـرَّ يـومـاً شبـكُ فـأسـار الحـرِّ فيـه مهلـكُ

يـا فتـى هـذا الجهـادُ الأكبـر عـزمـاتُ الحـرِّ فيـه تُخبـر
قـلَّ فـي النّـاس عليـه صـابـرُ ليـس إلا الحـرُّ فيـه ظـافـر
يـا أسيـر الـوَهْـمِ أقـدم لا تُبَـلْ وامـضِ فيمـن صـحَّ عـزمـاً واتَّكـل

* * *

معنى التَّوَكُّل

مَـنْ يَنَـمْ عـن سعيـه لا يتَّكـل إنَّمـا التكـلانُ سعـيٌ متَّصـل
مُقْـدمٌ فـي أمـره المتَّكِـلُ واثـقٌ بـالله فيمـا يـأمُـلُ
عـازمٌ مـاضٍ علـى خيـرِ سنـن لا يبـالـي بِعِقـابِ أو مِحَـن[1]
أرأيـتَ الطَّيـر فـي نـورِ الصَّبـاح تطلـب الـرزق بعـزمٍ وجنـاح
إنَّهـا تخـرجُ فـي كـفِّ القـدر مقـدمـاتِ لا تبـالـي بـالخطـر
طـالبـاتِ الـرزق فـي كـلِّ رجـا تمـلأ الجـوَّ وثـوقـاً ورَجـا
يـا لهـا مـنْ أمـلٍ قـد صـوَّرا طـائـراً يطلـب رزقـاً قُـدِّرا
أرأيـت العَـزْمَ فـي شكـل جنـاح خـافقـاً لا ينثنـي دونَ النَّجـاح
لا يصـد الطيـرَ خـوفُ التَّهلُكـه أو تبـالـي بطـريـقٍ مهلكـه
ضـرب المختـار هـذا مثـلا للـذي يسعـى عظيمـاً أمـلا[2]
أرأيـتَ الطَّيـر فـي أوكـارهـا راجيـاتِ رزقهـا فـي دارهـا ؟
ثـاويـاتٍ تبتغـي أرزاقهـا ليـس تَـدْري مـنْ إليهـا سـاقهـا
مـن ونـى فـي سعيـه لـم يتَّكِـلْ إنَّـه للـوهـمِ والعَجْـزِ وكـل
إنَّمـا التُّكـلان عـزمٌ وعمـل إنَّـه الإقـدامُ فـي ضـوء الأمـل

---

(١) العقاب : جمع عقبة .
(٢) جاء في الأثر : لو توكلتم على الله حقَّ التوكل ؛ لرُزقتم كما ترزق الطير ؛ تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً .

إنَّــه الإعــداد والعــزم معــا　　إنَّــه الحــرُّ إلــى القصــد سعــى
إنَّــه التقــديــرُ فــي سعــي البشــر　　هــو عنــدَ الله مــنْ بعــضِ القــدر
هِمَــمُ الأحــرار فــي إيمــانهــا　　سُنَــنُ الخــلاَّق فــي أكــوانهــا
سنــــةُ الله التـــي لا تبـــدَّلُ　　مــا لهــا كــرُّ اللّيــالــي حــوَّلُ

* * *

غفلة بعض المسلمين عن معنى التوكل

آهِ مـــنْ لـــي بقلـــوبٍ واعيـــه　　مُقْـدِمـاتٍ فـي المعـالـي سـاعيـه
آهِ مَـــنْ يفقـــه هـــذا الكَلِمـــا ؟　　آهِ مـــنْ يـــدركُ هـــذا النَّغمـــا ؟
أيُّهـــا المسلـــمُ مـــاذا قَـــدْ عـــدا ؟　　كنــتَ فــي الأرض جهـاداً وَهُـدى
آهِ للنُّـــور الـــذي قـــد طفئـــا　　آهِ للقَلْـــبِ الـــذي قَـــدْ صَـــدِئـــا
آهِ للنَّـــار الـــذي تشتعـــل　　فيضـــيء الأرضَ منهـــا شُعَـــلُ
خَمَـــدتْ فـــالقلـــب بـــردٌ وهمـــود　　خَمَـدَتْ فـالنَّفـس عَجْـزٌ وركـود
إنَّ هـــذا القـــول زِنْـــدٌ وحجـــر　　ليـت شعـري هـل لـديـه مـنْ شـرر
إننـــي أُضْـــرِمُ هـــذا الألمـــا　　علَّـه فـي القلـب يـذكـي ضَـرَمـا
إننـــي أنفـــخُ فـــي هـــذا السَّـــواد　　عـلَّ جمـراً محـرقـاً تحـت الـرَّمـاد
علَّنـــي أُذهـــبُ هـــذا الخبثـــا　　علَّنـــي أمْحَـــقُ هـــذا العبثـــا
إنَّنـــي أبعـــثُ فيهـــم نغمـــي　　علَّنـــي أبْعـــثُ مَيْـــتَ الهمـــم
إنَّنـــي أُمْطـــرُ فـــي أرضٍ مـــوات　　علَّهـــا تُنْبـــتُ ألـــوان النَّبـــات

* * *

الأمل

لا تـــرانـــا فـــي جهـــادٍ نيـــأسُ　　لَيْـــسَ مِـــنْ أمَّتنـــا مَـــنْ ييْســـوا

أشعل الإيمان في كلّ دُجى ... واقدحِ العزم إذا الهَوْلُ دجا

وَارْفَعَنْ في كلّ ليلٍ شُعَلا ... وابعثنْ مِنْ كلّ يأسٍ أملا

وصلِ القَلْبَ بخلّاق الرجاء ... واخلقَنْ في كلّ حينٍ ما تشاء

إنما الإنسانُ فكرٌ وعَمَل ... يَصْدعُ الظلماءَ في نور الأمل

أمل الإنسان في القلب ضياء ... وهو في الكفّ جهادٌ ومَضاء

إنّه النَّار التي تَشْتَعِلُ ... إنّه النَّجمُ الذي لا يأفُلُ

إنْ دَجَا باليأس ليلٌ غَيْهَب ... يَصْدَعُ الظُّلمةَ هذا الكوكبُ

هو وَحْيُ اللهِ يهدي عبده ... ويُرِيه في الدَّياجي قَصْدَه

هو نورُ اللهِ في أفق النجاه ... هو هدي اللهِ في هذي الحياه

إنَّه القُطب إليه يَنْزِعُ ... كلُّ قلبٍ وإليه يَفْزِعُ

إبرةٌ تهدي إلى قَصْدِ السبيل ... تَقْصدُ القُطْبَ وعنه لا تميل

يا دليلاً هادياً في كلّ واد ... أنت سرُّ اللهِ في كلّ فؤاد

يَقْدحُ القلبُ إذا ما خفقا ... شرراً منه منيراً مُحْرِقا

فهو نورٌ وهو نارٌ يَلْذَعُ ... يوضح النَّهج وفيه يَدْفعُ

فاؤْمُلْ لخيرٍ وصابرْ لا تملّ ... إنّما الدُّنيا رجاءٌ وَعَمَل

وقضاءُ اللهِ عونُ الآملين ... وهو في عَوْنِ الأباةِ العاملين

لا يردُّ الله قلباً آملا ... لا يردُّ الله عبداً عاملا

ربَّ عبدٍ مخلصٍ قدْ أقسما ... فأبرَّ اللهُ مِنْهُ القسما[1]

وجهادُ العبد أولى أن يُبر ... إنَّه الفعلُ على القولِ أبرّ

إنَّ عزمَ الحرِّ فيه قَسَمُ ... مُضْمَرٌ يَعْلَمُه مَنْ يَعْلَمُ

قد تولَّى اللهَ هذا المقْسِمُ ... فدعاه في يقينٍ يقسم

* * *

---

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر : « ربَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » .

الوجدان السليم

ذلـك الـوِجْـدانُ إنْ لـم يصـدأ ... مِـنْ غَشـاواتِ الهـوى أو يُطفـأ
أو تحجبـه ريـاحٌ عـاتيـه ... صَـرْصَـرُ الأهـواءِ فيهـا سـافيـه
أو يجلِّلْـهُ ظـلامُ الغفلـة ... أو يَحْجُبْـه حِجـابُ الشَّهـوة
أيقـظِ الـوِجْـدان يـا مَـنْ غفـلا ... فمضـى يحيـا حيـاةً همـلا
أيقـظِ الـوِجْـدان واسمـعْ وَحْيَـهُ ... أيقـظِ الـوِجْـدان واتْبَـع هـديـه
إنَّـه المـرآة ، إمَّـا صُقِـلا ... تبصـرِ العـالـمَ فيـه مثـلا
اجْلُـه بـالفكـر والعلـم معـا ... واجْلُـهُ بـالـذِّكْـرِ حتَّـى يسطعـا
لا تُضِـعْ فـي السُّوق هـذا الجوهـرا ... لا تُطِـعْ مـن بـاع فيـه واشتـرى
لا تُضِـعْ فـي لغـوهـم هـذي الحِكَـمْ ... لا تَغُـلْ ضـوضـاؤهـم هـذا النَّغـم
نحـن فـي الـدُّنيـا حـوانـا مَهْمَـهُ ... مَجْهـلٌ أعـلامـه تشتبـه
تقْصِـد المنـزلَ هـذي القـافلـه ... فـي فيـافٍ خـافَ فيهـا السَّابلـه
فـاتْبَعَـنْ خِـرِّيتهـا لا تُبلِـسِ ... وأصِـخْ فيهـا لِصَـوْتِ الجَـرَسِ[1]
إنَّـه الـوِجْـدَان فـي هـذي الفـلاه ... إنَّـه داعٍ يُنـادي للنَّجـاه
أرأيـتَ الفُلْـكَ تسـري مـاخـره ... فـي ليـالٍ وبحـارٍ زاخـره
تهتـدي فيهـا بِنُـورٍ بـارقِ ... مـن منـارٍ فـي الـدَّيـاجـي خـافـقِ
تهتـدي النَّهْـجَ علـى لمحـاتـه ... وتـوقَّـى الصَّخْـر مِـنْ ومضـاتـه
وَهَـدتْهـا إبـرٌ لا تَغْفُـلُ ... قـاصـداتٌ قطبَهـا لا تعـدلُ
إنمـا الـوِجـدانُ فـي بحـر الحيـاه ... إبـرةُ القطـبِ وَمِصْبـاحُ النَّجـاه

* * *

---

(١) جرس القافلة ، وفيه إشارةٌ إلى قول سعدي الشيرازي ـ ما زمنز مقصود من خبريم ـ أبن قدرهست كه بانگ جرس ميآيد .

طغيانُ العقلِ على القَلْبِ

محنةٌ للناس هذا الزمنُ … كلُّ إنسانٍ به مُمْتَحنُ

كلُّ ما نبصرُ فيه فتنُ … فتنٌ فيها تحارُ الفِطنُ

أُطْلِقَ الإنسانُ مِنْ أغلاله … سُيِّبَ الشَّيطانُ مِنْ أحباله

جُرِّدَ العالمُ من أستاره … وانبرى يكشفُ عن أسراره

وأجال الفكرَ في طيَّاته … ومضى يبحث في ذرَّاته

وأحاط الأرض من أقطارها … ومضى يبحث في أغوارها

فارعاً في ظهرها أجبالها … مخرجاً من بطنها أثقالها

طائراً في اللوح من فوق السَّحاب … حيثُ لا يطمع صَقْرٌ أو عُقاب

طاوياً أقطارَها لا يغترب … كل ما يسمو إليه يقترب

يَسْمَعُ الهمسَ بأقصى المغربِ … منْ بأقصى الشَّرق فاسمعْ واعجبِ

ضاقت الأرض عليه فانتحى … في ذُرى الأفلاك يبغي مسرحا

***

آه لو أُعطي قلباً خافقا … مثل ما أعطي عقلاً بارقا

آهِ لو يعمر قلباً راحما … مثل ما يَغْمرُ عقلاً راجحا

آهِ لو أغْمَرَ عيناً ساجمه … مثلَ ما أعمل كفَّاً حاطمه

آهِ لَوْ هَذَّبهُ إيمانُه … مثلَ ما مكَّنَهُ عِرْفانُه

آهِ لو سَيْطَر في أهوائه … مثلَ ما سيطر في أجوائه

آهِ لو لم يُغْمِه طغيانُه … فيهدِّم فوقَه بنيانه

ليتَهُ لم تُطْغِه أعمالُه … ليته لم تُغْمه أموالُه

ليته لم تغشه أضواؤه … وتوقِرْ سمعَهُ ضوضاؤه

آهِ لو أنَّ شعاع الكهرباء … في ظلام الصَّدر منه قد أضاء

ويلـــه مـــن مـــاردٍ قــد دمَّــرا   مــا بنـاه مخـربــاً مــا عمــرا
ليتــه حـــاط الـــذي قــد شيــدا   بـــوئــامٍ وســـلامٍ وهــــدى
ليتــه حـــاطَ البـــلاد الـــزاهـــرة   ليتــه صـــان الجِنـــان النَّـــاضـــرة

* * *

إنَّ هـــذا العصـــرَ روضٌ مُـــزْهـــرُ   كـــلُّ غُصْـــنٍ فيـــه نـــامٍ مثمـــرُ
نَضــرتْ فيـــه فنـــون الـــزَّهـــر   أيْنَعَـــتْ فيـــه ضُـــروبُ الثَّمـــر
آهٍ لكـــنْ فـــي مهـــبِّ العـــاصفـــة   كـــلَّ حيـــنٍ تعتـــريـــه جـــائفـــة
صَـــرْصـــرٌ تـــأتـــي عليـــه لا تَـــذَرْ   تَحْطـــم الأغصـــانَ فيـــه والشَّجـــر
يَخْـرُبُ البستـان مـنْ قـد غـرسـا   يَهْـدِمِ البُنيـانَ مـنْ قـد أسَّسـا
كـلُّ طـاغٍ يـدَّعـي البستـانَ لـه   يبتغـــي الأشجـــار والبنيـــانَ لـــه
لـــو تـــآخـــوا ورَضُـــوا بـــالمعـــدلـــه   وجنـــوا فـــي غيـــر بغـــيٍ أكُلَـــه
لـــو تـــآخَـــوْا واهتـــدَوْا واستثمـــروا   ثـــمَّ أسمـــىٰ عـــدلُهـــم مـــا دمَّـــروا
لأوَوْا مِنْـــه إلـــى ظـــلٍّ ظليـــل   ورأوا فـــي زهـــره كـــلَّ جميـــل
وجنـــــوا أثمـــــاره وانتفعـــــوا   ونمـــا بستـــانهـــم فـــاستمتعـــوا
فتعـــالـــوا ننظـــرِ الـــدَّاء العصـــيّ   ونـرى الأسبـاب فـي الـداء الـدَّويّ
إنَّ هـــذا الشِّعـــر لا يحصـــي العِلَـــل   إنَّـــه يعيـــا بـــذا الأمـــرِ الجَلَـــل
إنَّـــه لمحـــةُ عيـــنٍ عـــابـــره   ليتـــه كـــفُّ طبيـــبٍ مـــاهـــره
إنَّـــه نفثـــةُ نفـــسٍ شـــاعـــره   ليتهـــا كـــفُّ حكيـــمٍ قـــادره

* * *

البيت

معبـــــدٌ لله مـــــا أطهــــره   فيــــه ســـرُّ الله مـــا أظهـــره
روضـــةٌ يَنْبُـــتُ فيهـــا الخَلـــقُ   وتـــرى الحـــقُّ عليهـــا يُشْـــرِقُ

تنشــأ الخيــراتُ فيــه وتــربّ ... مــن رأى الخيــر لــه أمٌّ وأبّ !

أنفــسٌ فيــه كنفــسٍ واحــده ... ألفتهــا فــي حمــاهــا الــوالــده

بــل شكــولٌ مُثلّــث للــوالــد ... كــالمــرايــا حــولَ وجــهٍ واحــد

كلُّهــا حــبٌّ وإيثــارٌ فــلا ... حســدٌ فيهــا ولا حقــدٌ ولا

فــأخٌ يفــدي أخــاه جــاهــدا ... وكــلا الصنــويــن يفــدي الــوالــدا

وتــرى الأمَّ عليهــم حــانيــه ... تَسْهَــرُ اللَّيــل إليهــم رانيــه

وأبــوهــم فــي غــدوٍّ ورواح ... يبســط الحــبَّ عليهــم والجنــاح

روضــةٌ للحــبِّ فيهــا مثُــلا ... كــلُّ غصــنٍ بــأخيــه اتصــلا

كــلُّ خيــرٍ هــاهنــا منبعــه ... كــلُّ بــرٍّ هــاهنــا مطلعــه

مَسْجــدٌ يَسْعَــدُ فيــه الــوالــدان ... وهمــا الخــلّاقَ فيــه يَعْبُــدان

يَعْبُــدُ الــرَّحمــنَ مــن قــد عبــدا ... والــديــه وإلــى البــرِّ اهتــدى

فــإلــى تــوحيــده مِــنْ غيــرِ بَيْــن ... قَــرَنَ الــرَّحمــن بــرَّ الــوالــديــن

إن تشــاؤوا مثــلاً لا يُــدفَــعُ ... بيِّنــاً كــالشمــس نــوراً يطلــع[1]

فــاقــرؤوا يــا قــومنــا كــي تشهــدوا ... ﴿ وقضــى ربُّــك ألا تعبــدوا ﴾

﴿ واعبــدوا الله ﴾ فهيــا فــاقــرؤوا ... ﴿ قــل تعــالــوا أتــلُ ﴾ فيهــا النبأ[2]

أحكمــوا الأســرةَ مِــنْ قــرآنهــا ... وارفعــوا بــالــدِّيــن مِــنْ بنيــانهــا

واعمــروا البيــت ببــرٍّ ووفــاء ... وســلامٍ ووئــامٍ وإخــاء

إنَّ هــذا البيــت فــي نظــم الأمــم ... مثــل بيت الشعــر فــي نظــم النَّغم

كــلُّ بيــتٍ أُلِّفَــتْ آحــادُه ... آزرت أسبــابُــه أوتــادَه

---

(١) الآية : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

(٢) الآيتان : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [النساء : ٣٦]
﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

ونِظـام البيـتِ مِـنْ نظـم الكَلِم		كـلُّ لفـظٍ بـأخيـه يَنْتَظـم
كـلُّ لفـظٍ مـن حـروفٍ أُلِّفـا		كـلُّ حـرفٍ بـأخيـه ائتلفـا
ونظـامـاً واحـداً يُبنـى القصيـد		ليـس فيـه مـن قصـورٍ أو مـزيـد
فـي قـوافٍ أَلِّفَـتْ أبيـاتهـا		ورويٌّ نـاظـمٍ أشتـاتهـا
ومعـانٍ بعـد هـذا غـاليـه		تـرتقـي الأنفُـس فيهـا عـاليـه
هـل رأيتـم قـطُّ مِـنْ شعـرٍ رفيـع		كـلُّ بيـتٍ فيـه ذو معنـىً وضيـع
كيـف تُبنـى للمعـالـي أُمَـمُ		مـن بيـوتٍ جمعهـا لا يُنظـمُ
مـن بيـوتٍ فـي خـلافٍ وشقـاق		يـؤذنُ البيـتُ أخـاهُ بـالفـراق
كـل بيـتٍ فيـه لفـظٌ ثـائـر		كـلُّ لفـظٍ فيـه حـرفٌ نـافـر
لا تقـلْ فيهـا زحـافٌ وعلـل		بـل شـذوذٌ وسنـادٌ وخَلَـل

***

ليـت شعـري مـا أصـاب المسجـدا		مـا أصـاب الخيـرَ فيـه والهـدى
لا أرى جمعـاً لـديـه نُظِمـا		لا ولا صفّـاً لـديـه قـوِّمـا
مـا أحسـنُ اليـومَ تـرتيـلَ القُـرَان		لا ولا أسمـعُ تـرجيـعَ الأذان
خَـرِسَ المنبـرُ عـنْ أصـواتـه		عطـلَ المحـرابُ مـن آيـاتـه
ذهـبَ العبّـادُ عنـه قـددا		ومضـوا فـي كـلِّ أفـقٍ بَـدَدا
غَلَـبَ الملهـى عليـه والطَّـريـق		ومضـى فـي غَيِّـه كـلُّ فـريـق

***

روضـةُ البيـتِ أراهـا ذاويـه		كـانـت الأمـسَ زهـوراً زاهيـه
صـوَّحَـتْ أعشـابُهـا والشَّجـر		وذَوَتْ أوراقُهـا والـزَّهـر
صَـدَفَـتْ عنهـا عيـونٌ واقيـه		وحمتهـا المـاءَ أيـدٍ سـاقيـه
غـاب بستـانيُّهـا دون إيـاب		فطغـى الشَّـوكُ عليهـا والتُّـراب
إنَّهـا يـا قـومنـا إحـدى الكبـرُ		أنْعِمـوا التفكيـر فيهـا والنَّظـر

هـي أصـل الـدَّاء أو أصـل الـدَّواء   نعمـــةُ الأقـــوام فيهـــا والشَّقـــاء

* * *

اعمـــروا بـــالخيـــرِ هـــذا المسجـــدا   وابتغـــوا الخيـــراتِ فيـــه أبـــدا[1]
اعمـــروا البيـــتَ وردّوا والـــديـــه   واجعلـــوه حـــرمـــاً يـــؤوى إليـــه
نضِّـــروا الـــرَّوضـــةَ مـــن إروائهـــا   وابتغـــوا النِّعمـــة فـــي أفيـــائهـــا
أرجعـــوا الطيـــرَ إلـــى أوكـــانهـــا   ليشـــبَّ الـــولْـــدُ فـــي أحضـــانهـــا
ألِّفـــوا الأحـــرف فـــي كِلمـــاتهـــا   وانظمـــوا الأمَّـــة مـــن أبيـــاتهـــا

* * *

تنافر الجماعة

إنَّنـــا نُبصـــر فـــي كـــلِّ مكـــان   حســرةَ الأنفس في هـــذا الـــزَّمـــان
مـــن وجـــوهٍ مـــات فيهـــا الخَفـــرُ   وعيـــونٍ حـــارَ فيهـــا النَّظـــر
يلعـــن الـــوجـــه أخـــاه نـــافـــرا   يبغُـــض الطَّـــرفَ أخـــاه نـــاظـــرا
قطَّعـــوا مِـــنْ بينهـــم كـــلَّ سبـــب   هجـــر النَّـــاسُ حيـــاءً وأدب
ثـــورةً تبصـــرهـــا كـــلَّ طـــريـــق   يتجلَّـــى الهجـــر فيهـــا والعقـــوق
ليســـت الأمُّ بهـــا أمـــاً تـــرى   لا ولا الـــوالـــدُ فيهـــا عـــزِّرا
لا ولا الأخـــتُ لهـــا حـــرمتُهـــا   مـــن أخيهـــا وُقِـــدَتْ حســـرتُهـــا
لا صغيـــرٌ قـــد رعـــى حـــقَّ الكبيـــر   أو كبيـــرٌ راحـــمٌ ضعـــف الصَّغيـــر
فنـــرى فـــي قبحهـــا أفعـــالَهـــا   تسمـــعُ الألفـــاظ أصـــداءً لهـــا
تلـــكَ فيـــضٌ مـــن قلـــوبٍ فـــي نفـــور   تقـــدحُ النيـــران منهـــا فـــي الصُّـــدور
إنَّمـــا النـــاس صـــلاحٌ وفســـاد   بـــالتئـــامٍ أو شِقـــاقٍ وعنـــاد
إننـــا نبصـــرُ آحـــاداً ولا   نبصـــرُ الحُـــبَّ بهـــا متصـــلا

---

(١) المسجد : هو الأسرة .

إنهـا الأعـداد فـي غيـر حساب ... لـم يؤلفهـا علـى النَّهـجِ احتساب
ومـن الأعـداد بُغْـضٌ واختـلاف ... ومـن الأعـداد حـبٌّ وائتـلاف
ومـن الأعـداد حِقْـدٌ وشِقـاق ... ومـن الأعـدادِ رُحـمٌ ووفـاق
فـإذا سـارتْ علـى غيـر سَنَـن ... فهـي بغـضٌ وشقـاقٌ وفتـن
وإذا ألَّفتهـا فـي قـاعـدة ... فـاستقـامـتْ فـي طـريـقٍ واحـده
فهـي نظـمٌ وائتـلافٌ واطِّـراد ... وحسـابٌ بـالـغٌ كـلَّ مـراد
فـانظـروا مـا النَّظـم فـي أعـدادنـا ... وانظـروا مـا الجمـع فـي آحـادنـا
انظمـوا هـذي القلـوبَ النـافـره ... واجمعـوا هـذي الـوجـوهَ الثـائـره
املـؤوا الأنفـسَ خيـراً وهـدى ... واجمعـوا بـالحُـبِّ هـذا البـددا
اغسلـوا بـالحُـبِّ هـذا الـدَّرنـا ... أطفئـوا بـالـودِّ هـذا الضَّغنـا

* * *

مـا ينـالُ الحُـبُّ يـومـاً بـالهـوى ... إنَّمـا الأهـواء أسبـابُ النَّـوى
يجمـعُ الحـقُّ نفـوسـاً شـارده ... إنَّ للحـقِّ طـريقـاً واحـده
ليـس إلا الحـقُّ فـي جمـع القلـوب ... مـا سـوى الحـقِّ إليـه نستجيـب
أرضعـوهـا الحـقَّ فـي ألبـانهـا ... أشعـروهـا الحـقَّ فـي أحضـانهـا
واجعلـوهُ قبلـةً فـي كـلِّ حيـن ... لا تـزيغـوا عـنْ شمـالٍ أو يميـن
ومـن الحـقِّ إلـى الخيـرِ طـريـق ... ليـس إلا الحـقُّ للخيـر رفيـق
ومـن الخيـر إلـى الحـبِّ المسيـر ... ومـن الحـبِّ إلـى الجمـع المصيـر

* * *

لا يُـرى للحـقِّ إلا مَشْـرِق ... كـلُّ حـقٍّ مـن سنـاه يُشْـرقُ
ليـس للخيـرات إلا منبـعُ ... كـلُّ خيـرٍ مـن جـداه ينبـعُ
إنَّمـا للحـبِّ نهـرٌ واحـد ... كـلُّ ينبـوعٍ إليـه عـائـد
مَنْبـعُ الحـقِّ هـو الحـقُّ المبيـن ... بـاريٌ بـالحـقِّ كـلَّ العـالميـن
منبـعُ الخيـرِ هـو البـرُّ الـرَّحيـم ... بـرُّه فـي خلقـه فيـضٌ عميـم

منبـعُ الحـبِّ هـو الله العلـي هـو مـولـى للبـرايـا وَوَلـي
فـأضيئـوا النفـس مـن إيمـانهـا وانظـروا الآيـاتِ مـن إحسـانهـا
املـؤوا الأنفـس مـن نـور اليقيـن وانظـروا إبـداعهـا فـي كـلِّ حيـن
إنَّمـا الإنسـان مـن لحـمٍ ودم فيـه قلـبٌ كسـراجٍ فـي ظلـم
ذلـك اللحـم إلـى مـاءٍ وطيـن ذلـك النُّـور لـربِّ العـالميـن
فـإذا أطفـىء فيـه ذا الضِّيـاء فهـو وحـشٌ همُّـه سفـكُ الـدِّمـاء
إنَّ هـذا الجسـمَ ذو وزنٍ وحـد وبهـذا القلـب كـونٌ لا يُحَـدّ
هالكٌ مَنْ عاشَ في ضيقِ الجسدْ مـنْ يعشْ في وسعة القلب خَلَدْ
أنـت فـي جسمـك مِـنْ طيـنٍ ومـاء أو قـوامٍ فيـه لحـمٌ ودمـاء
أنـت فـي الـروح حيـاةٌ وطمـاح ورجـاءٌ وجهـادٌ وكفـاح
أنـت فـي قلبـك سـرُّ العـالميـن فيـه أمـرُ اللهِ للخلـقِ مبيـن
لا يحـدُّ القلـبَ فـي الآفـاق حـدّ إنَّـه يكبـرُ عـن وزنٍ وعـد
أيُّهـا الغـافـلُ عـن سـرِّ الإلـه انظـرنْ فـي القلـبِ يـومـاً لتـراه
ضـاق عـنْ أمـرِ الإلـه العـالـمُ وحـواه القلـب ، هـذا الخـاتـمُ
كـلُّ مـا أدركـتَ مـنْ معنىً جميـل كـلُّ مـا أبصـرتَ مِـنْ أمـرٍ جليـل
كـلُّ مـا أوعـاهُ تـاريـخُ البشـر مـن جـلالٍ وجمـالٍ وعبـر
كـلُّ مـا سُجِّـلَ عـن أخيـاره كـلُّ مـا حُـدِّث عـن أبـراره
هـو نـورُ الله فـي القلـب الصغيـر أو تجلِّـي اللهِ فـي الكـونِ الكبيـر(١)
هـو نبضُ القلـبِ في الـدُّنيا انتشـر هـو خفـقُ القلـب يـرمـي بـالشـرر
إنَّمـا الإيمـان بـالـدُّنيـا يـدور فهـو نـار فـي دجـاهـا وهـو نـور
فـاجعلـوا مِنْـهُ تبـاشيـرَ المنـى واملـؤوا الآفـاقَ منـه بـالسَّنـا
ارفعـوا الأنفـسَ فيـه صـاعـده ارفعـوهـا عـن معـانٍ خـامـده
عـن متـاعٍ وطعـامٍ وشـراب ومعـانٍ كلُّهـا نبـتُ التُّـراب

---

(١) الكون الكبير : القلب .

قيمـة الإنسـان قلـبٌ لِلْعُلـى ... لا ريـاشٌ ومتـاعٌ للبلـى

كـلُّ سـاعٍ قَـدْرُه بغيتُـه ... وزنُـه بيـن الـورى مَنْبَتُـهُ

أيُّهـا القـانـع دوداً فـي تـراب ... حلِّقَـنْ فـي جـوِّهـا مثـل العُقـاب

أيُّهـا السـادرُ فـي لهـوٍ وَدَدْ ... مـنْ لهـذا الكـونِ فـي يـومٍ وغـد

أنقـذوا الإنسـان مـن هـذا الـرَّدى ... أبصـر الإنسـان يـا قـومـي هـوى

* * *

أيُّهـا المسلـمُ يـا مـنْ خُلقـا ... ليكـونَ الحـقُّ فيـه خُلُقـا

انهضـنْ يـا صـاح بـالعـبءِ الثَّقيـل ... أنـت فـي الأرضِ عـن الله وكيـل

قـد قضـى الخـلَّاق بـالأمـر إليـك ... قسـم الأرزاق يـومـاً بيـديـك

سطِّـرنْ بـالحـقِّ فـي هـذي البـلاد ... واحكمـنْ بـالعـدلِ مـا بيـنَ العبـاد

أنقـذِ الإنسـان مـن هـذا الشَّقـاء ... وأزل مـن أرضنـا هـذا العنـاء

امـلأ الأرض بحـبٍّ وصفـاء ... وسـلامٍ ووداد وإخـاء

واحكمـنْ بـالحـقِّ فـي أرجـائهـا ... وانْعَمَـنْ بـالأمـن فـي أفيـائهـا

وامـلأ الآفـاقَ حقَّـاً وسَنَـا ... وامـلأنْ بـالخيـرِ آفـاقَ الـدُّنـا

علِّـمِ الإيمـان والحـقَّ العلـي ... علِّـمِ الإيثـارَ والـزهـدَ الغنـي

زهـدَ مَـنْ يملـك آلاف الألـوف ... وهـي فـي عينيـه لغـوٌ وزيـوف

قـولـةٌ فـي الحـقِّ أعلـى عنـده ... فعلـةٌ فـي الخيـر أغلـى عنـده

كـلُّ مـا يمسـكُ منهـا درهـمُ ... كـلُّ مـا ينفـق منهـا مغنـمُ

هـذِهِ الأمـوالُ جمعـاً يـا بنـي ... لا تسـاوي ذلـةَ الحـرِّ الأبـي

إنَّهـا اللعبـةُ فـي عيـنِ الحكيـم ... إنَّهـا الـدِّرهـمُ فـي كـفِّ الكـريـم

جـوهـراً يحسـبُ مـن لا يعـرفُ ... وهـي عنـد العـارفيـن الصَّـدَفُ

إنَّمـا الجـوهـر قلـبٌ قـد أضـاء ... وَسِـعَ الأرضَ جميعـاً والسَّمـاء

لا يعـافُ الحـرُّ أكـلَ الطَّيبـات ... آخـذاً فـي الأرض كـلَّ الثَّمـرات

ربَّمـا استـولـى علـى أعـدادهـا ... ربَّمـا أوفـى علـى آمـادهـا

آخـــذاً أو معطيـــاً لا يَشْـــرَهُ رابحـــاً أو خـــاســـراً لا يـــأبـــه

عبَّـــد الـــدُّنيـــا ولا تستعبـــده فـــاكهـــاً فـــي نعمـــةٍ لا تفســـده

حـــائمـــاً للـــرِّزقِ صقـــراً طـــائـــرا لا يُـــريـــغُ الـــرزَّاق فيهـــا صـــاغـــرا

فـــإذا شِيْـــمَ هـــوانـــاً فـــزعـــا مثـــل مـــا يَفْـــزعُ مـــن قـــد لُسعـــا

واستمـــدَّ العـــزَّ مـــنْ همَّتـــه واستثـــار النـــار مِـــنْ عَـــزْمَتِـــه

فـــإذا المـــاءُ لهيـــبٌ ودُخـــان وإذا الحلـــمُ ضـــرابٌ وطِعـــان

وإذا سُـــدَّ عليـــه كـــلُّ بـــاب فـــارقَ الـــدُّنيـــا إلـــى غيـــر إيـــاب

إنَّ مـــوتَ الحـــرِّ فـــي ذلتـــه وحيـــاةَ الحـــرِّ فـــي عـــزَّتـــه

***

قـــالَ لـــي شيـــخٌ وقـــورٌ ألمعـــي مـــن بنـــي ينبـــع شهـــمٌ عـــربـــي

كنـــتُ يـــومـــاً فـــي عيـــونٍ ونخيـــل في القرى من ينبع النخلِ الجميل

ومعـــي مـــنْ أهـــل نجـــدٍ نَفَـــرُ اصطيـــادُ الطَّيْـــر فيهـــمْ وطـــر

وإذا صقـــرٌ علينـــا حلَّقـــا ســـابحـــاً فـــي جـــوِّه قـــد خفقـــا

أســـرعَ الـــرفقـــةُ فـــي نَصْـــبِ الشَّـــرَكْ وسمـــانـــى وضعـــوهـــا فـــي الشَّبـــكْ

وهـــوىٰ فـــانقـــضَّ هـــذا الأجـــدلُ بـــل هـــوىٰ هـــذا القضـــاءُ المنـــزلُ

فطـــوى سقطيـــه هـــذا المهلـــك وثـــوى فـــي حَبْلـــه يـــرتبـــكُ

وأتـــى الصَّيَّـــادُ للطيـــرِ الأسيـــر عينـــه فـــي اللَّـــوح لكـــنْ لا يطيـــر

ســـابـــحُ الجـــو بخيـــطٍ علقـــا ذلـــك الخفَّـــاق فيـــه أخفقـــا

ذلـــكَ الصَّيـــاد فـــي جـــوِّ السمـــاء صـــاده بـــالختـــل صيـــادُ القضـــاء

قـــاهـــرُ الجـــو بعـــزمٍ وجنـــاح بـــدَّلَ الشُّبَّـــاك مـــنْ مَتْـــن الـــرِّيـــاح

ضـــاقـــت الأجـــواء عنـــه مســـرحـــا كيـــفَ يـــرضـــى فـــي إســـارٍ مطـــرحـــا ؟

ثـــمَّ قـــالَ الشيـــخ جئنـــا ننظـــر لنـــرى الأجـــدلَ أنَّـــى يـــؤســـر

فـــإذا دمعـــةُ عيـــنٍ هـــاملـــه وإذا المهجـــةُ فيهـــا ســـائلـــه

ذا يسمَّى «الحرُّ» من بين الصُّقور لا يطيقُ الأسر من بين الطيور[1]

فكنِ الصَّقر الأبيَّ العاليا وكنِ الحرَّ الكريم الآبيا

واحذرنْ يا حرُّ هذي التَّهلكه احذرنْ من خوضِ هذي المعركه

إنَّها معركةٌ للأبطن ضلَّ في غوغائها ذو الفِطَن

في وغاها كلَّ حزمٍ ضيَّعا غابَ عنها العقلُ والقلبُ معا

لا تغرَّنْكَ مرايا بارقه وفنونٌ وعلومٌ خارقه

إنَّها رأسٌ بلا قلبٍ يسير إنَّها هزجٌ ومزجٌ وسعير

قد أضلَّ الغيُّ هذي الأمما فثوى إبليس فيها حكما

فدعاها في ظلامٍ تصطدم ورماها في ضلالٍ تحتدم

***

الشيوعية

أحدثُ الدَّعوات في هذي الأمم تسلُك الإنسان في سِلْكِ الغنم

تَعِدُ الإنسان بالمرعى الخصيب فيه عُشْبٌ ورُغاءٌ ونَبيب

تَعِدُ الإنسان أعشابَ الرَّبيع ثمَّ عيشٌ مثل ما عاش القطيع

يوعدُ المرعى ولا شيء له وعصا الرَّاعي تربه أُكْلَه

ليس يرغو سربُهم : أينَ المسير لا ، ولا يثغو إلى أينَ المصير

ويتمُّ الشَّبه فيه بالغنم قطعهُ عن منبعِ الخير العَمِم

كفرُه بالله والخير وما فيه إنسانٌ عن العُجم سما

وضياعُ البيتِ منه والرَّحِم وحنانِ القلب من أختٍ وأم

كافرٌ باللهِ لا بالوثن كافرٌ بالسِّلمِ لا بالفتن

يبصر الظُّلمةَ عند الصَّنم عن ضياء الله والحقِّ عمي

---

(١) الحرُّ : نوع من الصقور قلَّ أن يعيش بعد إمساكه .

كلُّ ما في البيت من ودٍّ وحبّ   لا يساوي عنده مكيالَ حَبّ

كلُّ ما يدعو أناسٌ بالشعور   لا يساوي عنده كفَّ شعير

ذاكمُ السَّيرُ وهذا المنتهى   أنعموا التفكيرَ يا أهلَ النُّهى

* * *

إقبال

بيَّنَ الإقبالُ منْ سرِّ الحياه   وأزالَ السِّتر عن نورِ النجاه

بيَّن الإقبالُ منْ سير الزَّمان   وأفاضَ النُّور من هدي القُران

بثَّ في النفس كلاماً منْ شَرر   منه عشقُ الحقِّ في القلبِ استعر

فتقتْ نظراتُه كلَّ حجاب   فرأى الدَّوحة من تحت التُّراب

ضاقتِ الآفاقُ عن نظراته   ضجَّت الأفلاك من أنَّاته

وَصَلَتْهُ نفحةٌ منْ ربِّه   فتجلَّى نورُه في قلبه

قد ثوى في قلبه كلُّ الجهات   واستوى في فكره ماضٍ وآت

سال في ألحانه دمعٌ ودمُ   والتقى الماءُ عليها والضَّرم

* * *

يا بَرودَ القلبِ خذْ مِنْ نارِه   فالحياةُ الحقُّ في أشعاره

يا مواتَ القلب خذْ من رجعه[1]   يا جمودَ العين خذْ من دَمْعه

يا صغيرَ الهمِّ خُذْ من همَّته   يا كليلَ العَزْم خُذْ من عزمته

يا أسيرَ اليأسِ خذْ آماله   في دجى اليأس أثِرْ أقواله

أيُّها المسلم صعد في السماء   وابلغنْ في جوِّها أعلى العلاء

وخذِ الإقدامَ منه والطِّماح   وجناحاً قاهراً هُوجَ الرِّياح

---

(١) الرَّجع : المطر ، كماء ، جاء في القرآن .

ذا جلالُ الدِّين منْ خَلْفِ العُصور ... قد أتى في شِعْرِهِ نارٌ ونور[1]

إنَّه الإسلام في عِزَّته ... إنَّه الإيمانُ في قوَّته

إنَّه القرآن في أنواره ... إنَّه الفرقانُ في أسراره

* * *

بلِّغي يا ريحُ في شطِّ النَّوى ... أدمعي قبراً بلاهور ثوى

وامضِ يا برق بوجدي وهيامي ... أبلغنْ قبراً بلاهور سلامي

إنَّ : إقبالًا بلاهور أقام ... رحمةُ اللهِ عليه والسَّلام

* * *

دعاء

فالقَ الإصباحِ ربَّ المشرقين ... باسطَ الليل وربَّ المغربين !

أنت في الصُّبح ضياءٌ في جمال ... أنت في الليل ضياءٌ في جلال

ناشرَ الشَّمس خِضَمّاً من ضياء ... طاوي الذَّرةِ شمساً في خفاء

أنت نورٌ في ظهورٍ وجلاء ... أنت نورٌ في حجابٍ وخفاء

يا جليساً في دُجى أستاره ... يا خفياً في ضُحى أنواره

يا أنيساً في قلوبِ العارفين ... وحياةً لقلوب الغافلين

يا ضياءَ العين في النور العمم ... وضياءَ القلب في داجي الظُّلم

قربُك المؤنس في هذي القفار ... هديك المنقذ في هذي البحار

ناظمَ الكونِ البليغِ المبدعا ... محسناً مطلعَه والمقطعا

خلقُك الألفاظُ فيه وافيه ... أمرُك الوزنُ له والقافيه[2]

كلُّ لفظٍ فيه نُظَّارٌ إليك ... كلُّ معنى فيه برهانٌ عليك

---

(١) مَولانا جلال الدين الرومي ، والشاعر يعترف باقتدائه به .

(٢) في القرآن الكريم : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

منكَ هـذا العقـلُ ، هـذا الثَّـائـرُ   طـالـبٌ إيَّـاكَ سـاعٍ حـائـرُ
جـاوز الأفـلاك يسعـى نحـوكـا   يَكْشِـفُ الأستـار يبغـي وجهكـا
منكَ هـذا القلـبُ ، هـذا الخـافـقُ   فـي الـديـاجـي منـك نـورٌ بـارق
ذاكـرٌ إيَّـاك راجٍ كـلَّ حيـن   خفقُـه ذكـرٌ وشـوقٌ وحنيـن

***

اجعلـن عقلـي ضيـاءً ثـاقبـا   يَصْـدَعُ البـاطـل حقّـاً صـائبـا
واشـددَنْ فكـري بصـدقٍ وسـداد   واحبُنـي التـوفيـقَ فـي كـلِّ مـراد
وامـلأنْ قلبـي بحـبٍّ وصفـاء   واخْفَظَنْـهُ مـنْ شقـاقٍ ومِـراء
وازفَعَنْ في الحق صوتي عـاليا   وجنـانـي فيـه عضبـاً مـاضيـا
واجْعَلَـنْ وجهـك قصـدي لا سـواه   هـوِّنَـنْ فـي عيـن قلبـي مـا عـداه
وامنـح المسلـم قلبـاً خـافقـا   واحبُـه بـالعلـم عقـلاً بـارقـا
امْنَحَنْـهُ العقـلَ والقلـبَ السَّليـم   واهـده ربِّ الصـراطَ المستقيـم
واجْعَلَنْـهُ فـي البـرايـا حكمـا   قـاضيـاً بـالعـدلِ إمَّـا حكمـا
اجْعَلَنْـهُ قـائـداً بيـن البشـر   هـاديـاً للخيـر لا يسعـى لِشَـر

***

أنقـذِ الإنسـان مـن هـذي الغُمَـم   أنْجِيَـنْ مِـنْ بغيهـا هـذي الأمـم
هـدم الإنسـان مـا قـد عمـرا   حينمـا أمَّـر عقـلاً كفـرا
فـاهـدِ بـالإيمـان عقـلاً حـائـرا   واجعـلِ القلـب عليـه آمـرا
أدرِكِ النَّـاس بحـبٍّ ووئـام   إنَّك الدَّاعي إلى دار السلام[1][2]

***

(١) في القرآن الكريم : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس : ٢٥] .

(٢) تمت الترجمة عشية يوم الجمعة السابع من رجب سنة ١٣٧٠ من الهجرة ، في مدينة كراچى . ولله الحمد أولاً وآخراً ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] . المترجم الدكتور عبد الوهاب عزام .




الدِّيْوَانُ الرَّابِعُ

زَبُورُ العَجَمْ

نَقَلَهُ إِلَى العَرَبِيَّةِ شِعْرًا

الدكتور حسين مجيب المصري



هذا الدِّيوان ـ في الأصل ـ جزءٌ هو أشبه بالفصل ، ترتيبه قبل الأخير في الدِّيوان ، عنوانه : « زبور العجم » .

وليس من التزيد وتجاوز الحد قولنا : إنه على لطافة حجمه يستغرق جمهرة أفكار محمد إقبال في عموم وشمول ، ويكشف النقاب عن وجه الحقائق التي أومأ إليها الشاعر ، ويوضح على نحوٍ دقيق عميق قيماً ومثلاً كان حاثاً عليها موجباً للأخذ بها ، كما يجري عليه صفاته ويميزه بسماته مفكراً ، يغوص على الجوهر منصرفاً عن المظهر ، في دعوةٍ بلغتْ من الجرأة مداها ، يتمسَّك صاحبُها فيها التمسُّك الشَّديد العنيد بمذهبه الجديد ، ضارباً صفحاً عن معروف القوم ومألوفهم في العصور الخوالي ، وإن كان في نظرهم مقدساً من تراثهم .

محتوى الديوان

يحتوي أصل الديوان على أربعة أقسام :

القسم الأول : فيه دعاء ، وست وستون قطعةً أكثرُها بدون عنوان .

القسم الثاني : فيه خمسٌ وسبعون قطعةً تقلُّ فيها العناوين أيضاً .

القسم الثالث : (الّذي هو بين أيديكم) هو بعنوان « حديقة السرِّ الجديد » (گلشن رازجديد) وهو على طريقة «گلشن راز » .

أخرجه الشاعر عام ١٩٢٩م ساجلاً به كتاباً لصوفي من أهل القرن السابع وأوائل الثامن هو الشيخ محمود الشبستري ، عنوانه روضة السرِّ (گلش راز) ، ألَّفه الشيخ الشبستري إجابة لأسئلة في التصوُّف أرسلها إليه بعض الصُّوفية ، ولهذا سماه الشاعر ـ محمد إقبال ـ « روضة السر الجديد » (گلشن راز جديد) وفيه يُجيب عن تسعة أسئلة فيها رقائق فلسفيَّة وصوفيَّة .

القسم الرابع : كتاب العبودية ، ويبيِّن فيه الشاعر آثار العبودية في الحياة والفنون الجميلة على مذهبه المعروف .

وإليكم الآن القسم الثالث من هذا الديوان الّذي نقله مِن الفارسية إلى العربية شعراً الأستاذُ حسين مجيب المصري :

لـك عيـنٌ ، نظـراً فيهـا خلقـت		لـك نفـسٌ ، ولهـا دُنيـا خلقـت
نـامَ هـذا الشَّـرقُ لا يـرعـاه نَجْـم		بنشيـد العَيْـش فجـراً قـد خلقـت[1]

***

تمهيد

خبـا فـي الشَّـرق ذيَّـاك اللهيـبْ		فـأيـن الرَّوحُ بـل أيـن الـوجيـب[2]
وأضحـى صـورةً تـرنـو إليهـا		ومـا للعيـش مـن ذوقٍ لـديهـا[3]
يجـافـي قلبُـه طيـفَ الأمـانـي		ويُسكـت نـايَـه رجـعُ الأغـانـي[4]
عـن المقصـود مـن قـولـي أبنـتُ		علـى سفـرٍ لمحمـودٍ أجبـتُ
تـوالـت بَعْـدَ ذا الشيـخِ العهـود		ومـا لِلنَّـار فـي روحٍ وقـود[5]
لنـا كَفَـنٌ ونَـرْقـدُ فـي ثـرانـا		قيـامُ البعـثِ يـومـاً مـا عنـانـا[6]
وفـي تبـريـزَ عيـنٌ للحكيـم		رأتْ آثـارَ جنكيـزَ الظَّلـوم[7]

---

(١) رعى النجم : راقبه ، وانتظره . وفي الأصل أنَّ الشرق نام مستتراً عن النجم .

(٢) خبت النار : انطفأت . الوجيب : خفقان القلب .

(٣) يرنو : ينظر في سكون ودوام . الذوق : نورٌ يلقيه الله في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل .

(٤) يجافي : ضد يواصل ويؤانس . الرجع : الصَّدى .

(٥) أبان : أفصح وبين . والسفر : الكتاب . والإشارة إلى كتاب گلشن راز لمحمود الشبستري الذي نظم الشاعر منظومته تلك في الرد عليه . وقدت النار وقوداً : اشتعلت .

(٦) الإشارة في قيام البعث إلى تحرك الهمم إلى العمل على ما فيه صلاح الدنيا والآخرة . عنانا : أهمَّنا .

(٧) تبريز : مدينة في شمال إيران ينسب إليها الشبستري . وإقبال يذكر ما ماج به عهد المغول من جسام الخطوب ، وقد عاصر الشبستري هولاكو ، فذكر چنكيز على سبيل المجاز .

ولكـــنْ ثـــورةٌ أخـــرى وَجَـــدْتُ وشمـسٌ غيـر هـذي مـا شهِـدتُ
رفعـتُ أنـا عـن المعنـى النِّقـابـا جعلـتُ الشَّمـسَ مـا كـان الترابـا
ألسـتَ تـرى بـلا كـأسٍ خُمـاري وليـس لشـاعـرٍ غيـري شعـاري[1]
وكـلُّ الخيـرِ فيمـن قـال تَعْـدَم بـأنِّـي شـاعـرٌ يـا صـاح فـافهـم[2]
فمـــا أشتـــاقُ داراً للحبيـــب ومـا فـي القلـب مـنْ وَجْـدٍ مـذيـب
تـرابـي ليـس مـن هـذا الممـر وفيـه القلـبُ لا يشقـىٰ بـأسـر
لقـد صـافيـتُ جبـريـلَ الأمينـا عَـدُوّاً لا أشـاهـدُ لـي مبينـا[3]
بفقـري كـان لـي مـالُ الكليـم وجاهُ الملكِ في سَمَلِ العديم[4]
ومـا الصَّحـراء تحـوينـي تُـرابـا ولا الـدأمـاء تطـوينـي عُبـابـا[5]
زُجـاجـي منـه تـرتعـد الصُّخـورُ وأفكـــاري بـــلا شـــطٍّ بُحـــور
هـي الأقـدارُ تكمـنُ خلـف ستـري قيـامـاتٍ أقمـتُ بمحـضِ أمـري
بـذاتـي بـرهـةٌ هـا قـد خلـوتُ بـدنيـا الخُلـدِ أخلقهـا بـدوت
وليس العارُ من شعري عليا فللعطَّار لن تجدِ السَّميَّا[6]

---

(١) الخمار : صداع السكر . يقول : إنَّ مذهبه مخالف لمذهب غيره من الشعراء .

(٢) عدم الشيء : لم يجده . يا صاح : يا صاحبي ، حذف آخره للترخيم . وكأنما إقبال يكره أن يعدَّ شاعراً .

(٣) العدو المبين : الشديد العداوة .

(٤) الكليم : موسى عليه السلام . وظاهر أنَّ الإشارة إلى قوله تعالى في سورة القصص : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] وقد أراد موسى أنه فقير الدنيا لأجل ما أنزل الله إليه من خير الدين وهو النجاة لأنه كان عند فرعون في ملك وثروةٍ ، وقال ذلك وهو راضٍ بهذا البدل ، وفرحاً به وشاكراً له ، والفقر عند الصوفية من مقاماتهم . وهو ليس فقدان الغنى ، بل فقدان الرغبة فيه والميل إليه ويؤثر عنهم قولهم (الفقر فخري) . السَّمل : الثوب البالي . العديم : الفقير .

(٥) الدأماء : البحر . والعباب : الموج .

(٦) العطار : هو الشاعر الفارسي الصُّوفي « فريد الدين العطار » من أهل القرن السادس الهجري . وله منظومة بعنوان منطق الطير ، يصور فيها فناء الصُّوفي في الذات =

بــروحـــي للحيـــاة مـــع الفنـــاء صـــراعٌ ، لا أرى غَيْـــرَ البقـــاء
رأيـــتُ ثـــراك عـــن روحٍ غـــريبـــا ففيـــه نفخـــتُ مـــن روحـــي دبيبـــا[(١)]
ولـــي فـــي القلـــب وهـــاجُ السَّعيـــر دجـــاكَ أنِـــر بمصبـــاحـــي المنيـــر[(٢)]
وذاك القلـــبُ حـــبٌّ فـــي ثـــراه كلـــوحٍ خطَّـــه مـــا فـــي ســـواه[(٣)]
وذوق الـــذَّات شهـــدٌ فـــي لهـــاتـــي وهـــذا كلُّـــه مـــن وارداتـــي[(٤)]
لقد جربت ذلكَ في البدايه منحت الشرقَ منه في النهايه
وجبـــريـــلُ كتـــابـــي إنْ رآه أنـــارَ لنـــا بلمـــحٍ مـــن سنـــاه[(٥)]
لـــربِّـــي ظـــل يشكـــو مـــن مقـــامـــه وحـــالُ القلـــب بيّـــن فـــي كـــلامـــه
جـــلاء للتَّجلِّـــي لا أريـــد ولكـــنْ مـــا حـــوى القلـــبُ العميـــد[(٦)]
كففـــتُ عـــن الـــوصـــالِ السَّـــرمـــديّ لـــذذتُ شكـــاةَ قلـــبٍ لـــي شجـــي[(٧)]
غرورَ المرءِ هبني والخضُوعا إذا ما ذابَ أوْ أمسى دُموعا !

السؤال الأول

وقفتُ حيال فكري في التحيُّر فما مفهوم ما يُدعى التفكُّر

= الإلهية . وكأنما يريد إقبال ليقول : إنَّ شعره في تصوير مذهبه مغاير لشعر العطار . السَّميُّ : النظير هنا .

(١) الدبيب : دبَّ الشراب والسُّقم في الجسم دبيباً : سرى ، وكأنه مشى .

(٢) السعير الوهاج : النار المتأججة المضيئة .

(٣) يشبه قلبه باللوح الذي كتب فيه . غير أنَّ ما يحويه مخالفٌ لما يحوي غيره .

(٤) اللهاة : لحمة في الحلق . الواردات : ما يرد على القلب من المعاني الغيبية من غير تعمُّدٍ من الإنسان .

(٥) السنا : الضوء . وقد صرفنا المعنى عن أصله بعض الشيء في ترجمة هذا البيت خشية فهم المبالغة فيه على ظاهرها .

(٦) العميد : من هدَّه العشق .

(٧) السَّرمديُّ : الخالد . والشَّجيُّ : الحزين .

طريقٌ شرْطُها من أيِّ فكر ؟ نطيعُ اللهَ ثمَّ نكادُ نكفر !

الجواب

بِصَدْرِ المرءِ منَّا أيُّ نور عجيبٌ ، غيبُه عَيْنَ الحضور
بدا لي الثَّابتُ السَّيارُ جهرة أراه النَّار أو نوراً بنظره[1]
وفيه النَّار حيناً مِنْ دليل ويَسْطَعُ نورُه مِنْ جبرئيل
بهذا النُّور للرُّوح الشُّروق شعاعٌ منه شمساً قد يفوق
بمسِّ التُّرب ينأى عن مكانٍ بقيدِ اليومِ يخرجُ مِنْ زمان[2]
وما بتردُّدِ الأنفاس يبقى دؤوباً مثله في البحث تلقى ؟
ويهنأ في الشواطىءِ بالمقام يعبُّ البحرَ أحياناً بجام[3]
عصا موسى وهذا كان بحرَه وَقَدْ ضُرِبَتْ فشقَّت منه صَدْرَه
غزالٌ ، وهو يرعى في السماء ويُرْوىٰ مِنْ مجرتها بماء[4]
له في الأرضِ والزَّرقا مقر وحيداً بين قافلةٍ يمر[5]
ومن أحواله ظلمٌ ونور وجناتٌ وموتٌ ثمَّ صُور
لإبليسَ وآدمَ منهُ مظهر ويَكْمُن تحته لا شَكَّ مخبر[6]

---

(١) جهرة : عياناً . أو : بمعنى الواو .

(٢) الترب : التُّراب . اليوم : المراد به هنا مرور الليل والنهار .

(٣) عبَّ الماء : شربه بلا تنفس ، والجام : الكأس .

(٤) المجرة : نجوم تسمى حاملة التبن أو ناثرته في الفارسية ، والطريق اللبنية في الإنجليزية ؛ لأنها تشبه طريقاً يتناثر فيه التبن ، كما شبهت في الشعر الفارسي والعربي بالنَّهر .

(٥) الزرقاء : السماء .

(٦) يشير إلى أن إبليس مخلوق من نار وهو يجسد الفكر ، أمَّا آدم وهو يجسد الروح فإنه بالإلهام انعكاس للنور الإلهي .

إليـه العيـنُ فـي شـوقٍ شـديـد تجـلٌ منـه إعجـابُ الحميـد[١]

بعيـنِ خلـوةٍ هـا قـد رآهـا تجـلٌ عينـه الأخـرى مـلاهـا[٢]

حـرامٌ عَضْـبُ عيـنٍ بـامتهـان فشـرطٌ للطَّـريـق ، لـه اثنتـان

وذاكَ البحـرُ يخلقـه بنهـره ويُصبـح جـوهـراً فـي مستقـره

فيبـدو صـورةً ليسـت لجنسـه وغـوَّاصـاً يصيـر للقـط نفسـه !

هيـاجٌ فيـه منعـدمٌ صـداه لـه لـونٌ ، ومـا أحـدٌ رآه

وهذي كأسُه تحوي الزَّمانا وبالتَّدريج نُدْرِكُه عيانا

حيـاةٌ منـه بـالأوهـاق تُـرمـىٰ ومـنْ يعلـو ولا يعلـو لتُصمـى[٣]

ولكـنْ نَفْسَهـا أسـرتْ بـذلـك وغيـرَ اللهِ أوْرَدَتِ المهـالـك[٤]

وأنـتَ العـالميـنَ إذا غـزوتـا فـوَحْـدَك مـن هـلاكٍ قـد نجـوتـا[٥]

وهـذا البحـثُ فـي القفـر احـذرنَّـه عليـك بعـالـمٍ فيـك ادخلنَّـه

ضعيـفٌ ؟ خـذْ مـن الـذَّات قـوى تـريـدُ الله ؟ قـرِّبهـا ، لـذاكـا

بغـزو الـذَّات إنْ يـومـاً ظفـرتـا لـكَ الآفـاقُ فـي ملـكٍ وجـدتـا

لـكَ الـدُّنيـا ، ليسعـد يـومُ نصـرك سمـاءً قـد شَقَفْـتَ فَتِـهْ بِقَـدْرك

جعلـت البـدر يسجـدُ فـي هـوانٍ عليـه رميـت أوهـاق الـدُّخـان[٦]

---

(١) تصرفنا بعض الشيء في ترجمة هذا البيت كراهية فهم المبالغة فيه على ظاهرها ، والحميد : هو الله تبارك وتعالى .

(٢) ملاها : ملأها .

(٣) الأوهاق : جمع وهق وهو حبل ذو أنشوطة يطرح في عنق الحيوان أو الإنسان ليؤخذ به . ويصمى : يقتل .

(٤) غير الله : ترجمة ماسوا في الفارسية أي ما سوى الله . وفي هذا إشارة إلى طلب الوحدانية والانصراف عن التعدُّد إلى الواحد .

(٥) يريد بالعالمين عالم الطبيعة وعالم الذَّات .

(٦) الأوهاق : تقدَّم شرحها .

بهـذا الـدَّيـر حـرّاً قـد أقمتـا ... وأصنـامـاً كمـا تهـوى نحتّـا[1]
مـن الـدُّنيا بملـك كـلٍّ حـذفـوز ... مقـامَ الصَّـوتِ والألـوانِ والنُّـوز[2]
وتنقصـه وأنـتَ تـزيـدُ فيـه ... تغيِّـرُه علـى مـا تشتهيـه[3]
بِقَطْعـك عنـه قَلْبـك كـلّ قطـع ... وإبطـال الطِّلسـم لسحـرٍ تسـع[4]
إذا مـا شئـتَ غـوصـاً فـي ضميـره ... فَقَمْحَـكَ فضِّلَـنْ علـى شعيـره
وهذا الملكُ ، والملكُ العظيم ... وتوءمه هو الدِّين القويم[5]

السُّؤال الثَّاني

وعلمٍ كان ساحلَ أيِّ بحر ؟ ... بعيـدِ القـاع يُخـرجُ أيَّ درٍّ

الجواب

حيـاةٌ ، يـا لهـا بحـراً يمـور ... وسـاحلـه الفَطـانـة والشُّعـور[6]
عميـقٌ مـوجُـه أبـداً يميـد ... وفـي الشُّطـآن أطـوادٌ وبيـد[7]
عُبـابٌ فيـه قـد عَـدِمَ القـرارا ... فـلا تسـأل ، علـى شـطٍّ أغـارا[8]

---

(١) الدَّير القديم : من أسماء الدُّنيا في الشِّعر الفارسي .
(٢) الحذفور : الجانب . وجمعه حذافير . يقال : ذكره بحذافيره ؛ أي بجميع جوانبه ، وتفاصيله .
(٣) يريد العالم .
(٤) الطلسم : كتابة للسَّحرة . والتسع هي السموات السبع .
(٥) في رأي إقبال أنَّ الملك ينبغي أن يقوم على أساسٍ من الدين أي : الدِّين الحنيف .
(٦) الفَطانة : الإدراك ، والفهم .
(٧) يميد : يضطرب . الشطآن : جمع شاطىء . الأطواد : جمع طود وهو الجبل . والبيد : جمع بيداء وهي الصحراء .
(٨) العباب : الموج .

روى الصَّحــراءَ منقطعــاً عــن اليــمِّ | أفاد العين معنى الكَيْف والكمِّ[1]
ومــا تلقــاه جــاء إلــى حضــوره | ينيــرُ بفضــل فيــضٍ مــن شعــوره[2]
بخلــوتــه انتشــى كــرةَ الــرَّفيقــا | بقلــبِ الكــائنــاتِ بــدا شــروقــا[3]
ويظهـــــــر أولًا للمستنيــــــر | بمــــرآةٍ ليـــؤخــــذ كـــالأسيــــر
وقــرَّبــه مــن الــدُّنيــا الشعــورُ | فــأدرك ســرَّهــا وهــو الخبيــر
بــدا بــالعقــل مــرفــوعَ النِّقــاب | ولكــن قــد تعــرَّى بــالخطــاب
وفــي دنيــاه ليس لــه مُقــام | من الدُّنيا له هذا المقام[4]
تــرى الــدُّنيــا ولكــنْ ليــسَ فيكــا | بمــا تحــويــه فَلْتَــدَع الشُّكــوكــا
مــن الأزهــار دنيــا اللــون طــاقــه | نُقيِّــدهــا ، لهــا منَّــا انطــلاقــه[5]
طـــريـــق القلـــبِ ســـرى إليهـــا | ويثنـــي كـــلُّ مخلـــوق عليهـــا
إذا أغمضْــتَ عنهــا العيــنَ هــانــت | وإلا البحــرَ والأطــوادَ كــانــت[6]
بـــرؤيتنـــا لـــدنيـــانـــا النَّمـــاء | بنـــا لِغُصـــونهـــا هـــذا العَـــلاء
ومنظـــورٌ ونـــاظـــرُ غـــورِ ســـرٍّ | تَضَـــرُّعُ قلـــبٍ ذرات لأمـــر
أنــا المشهــودُ يــا مَــنْ أنــت تَشهــدْ | لتجعلنـــي ، فبــالنظــراتِ أوجــد[7]

---

(١) اليمُّ : البحر .
(٢) الحضور في الاصطلاح : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي كالحكم العيني .
(٣) انتشى : سكر . والمراد أنه طاب نفساً بعزلته .
(٤) المقام : بضم الميم الإقامة . وبفتحها الرياضة الروحية عند الصوفية التي توجه سلوكهم ، وهي من الأمور المكتسبة الاجتهادية وتخضع للإرادة . وقالوا : إنَّ المقام هو القيام أو موضع قيام العبد في طريق الحق . ومن مقامات الصوفية التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرِّضا .
(٥) طاقة الزهر : ما يجمع منه في حزمة . يقول : إنَّ العالم الخارجي خليطٌ من ألوان وأشكال وروائح . ونحن نقيد هذا العالم ونخضعه لنظام معين .
(٦) الأطواد : تقدم شرحها .
(٧) الإشارة هنا إلى الخلاف بين الواقعية والمثالية .

وذاتُ الشيء تَكْمُلُ بالوجود | وبالتمكين من هذا الشُّهود
فليس زوالُها بالبعد عنَّا | ونورُ شعورِنا فَقَدَتْهُ منَّا
تجلِّينا به الدُّنيا تكون | بنا نورٌ تجلَّى أو رنين[1]
ومنها العونُ في اللأواءِ جَرِّبْ | بأحوالٍ لها نظراً فأدِّبْ[2]
وأيْقِنْ أنَّ آساد الفلاة | أرادتْ عونَ نملٍ للنَّجاة[3]
تعينك ، أنتَ تلكَ الذَّاتُ فاعرف | كجبريل الأمين إذاً فرفرفْ
وعالمُ كثرةٍ بالعقل شاهدْ | لتدركَ مظهراً يبديه واحد[4]
ومن ريحِ القميصِ فنلْ نصيبا | تنسَّم منْ ضفاف النِّيل طيبا[5]
وذاتك نيِّرين بها تصيدُ | ومن تدبيرها لهما القيودُ[6]

---

(١) إقبال لا ينكر الوجود ، بل ما يبدو من مظاهر الموجودات ، وهو يؤكد أثر العقل على ما يقع تحت الحسّ ، ويشير إلى أنَّ العالم يحمل طابع الإنسان عليه .

(٢) اللأواء : الشدة .

(٣) هذا مذكور بقوله تعالى في سورة النمل : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٧ ـ ١٩] فلما رأت النملة جنود سليمان فرت منهم فتبعها غيرها وصاحت محذرةً منبهةً . وهذا منها شبيه بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم وكأنها بذلك أنجت النّمال كما أنجت جنود سليمان من ظلمٍ كادوا يرتكبونه وهم لا يشعرون وهو سحق تلك النمال ، فعجب سليمان لها على ضعفها كيف كانت سبباً في نجاة جنوده من ظلمهم النمال من هلاكها . آساد الفلاة : أسود الصحراء . وهم هنا جنود سليمان .

(٤) إنَّ النظر في هذا الكون بكلِّ ما وسعَ أولُ دليلٍ على قدرة الواحد تبارك وتعالى .

(٥) قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣] وقد أرسل قميص يوسف من مصر إلى أرض كنعان ، ووجد فيه يعقوب رائحة يوسف ، فارتدَّ إليه بصره . الريح : الرائحة . تنسم : شمَّ .

(٦) المراد بالنيرين الشمس والقمر .

وتلـك الـذَّات فـي دنيـاك أضْـرِم بغـزوكَ مـا تـرى أو غـابَ حطِّـم[1]

* * *

السؤال الثالث

يقال لممكنٍ صلةٌ بواجب وما بعدٌ وقربٌ يا مخاطب ؟[2]

* * *

الجواب

وهـذا العـالـمَ الفـانـي فجـدِّدْ وعقـلَ كيفـه والكـمَّ قيِّـدْ
لإقليـد وطـوسـيٌّ أراه وعقـل قـاس أرضـاً قـد كفـاه[3]
وليـس حقيقـةً فيـه الـزَّمـانُ ولا أرضٌ ولا حتَّـى المكـانُ
أقـم هـدفـاً لتـرشـقَ بـالسِّهـام وما المعراجُ فافهم من كلامي[4]
أتحـوي مطلقـاً دنيـا الجـزاء وليـس سـوى ضيـاءٍ للسَّمـاء[5]

---

(١) في الأصل المكان واللامكان أي هذا العالم والعالم الآخر . يرى إقبال أنّنا لا نتجاوز عالمنا بالعقل ، ولكننا نبلغ العالم الثاني بالرُّوح الملهمة . وتسمى هذي القوَّة الروحية سلطاناً .

(٢) في الأصل : القرب والبعد والكثيرُ والقليلُ .

(٣) هو إقليدس الذي علم الهندسة في الإسكندرية على عهد بطليموس ووضع مبادىء علم الهندسة السَّطحية . والطوسي : هو نصير الدين الطوسي فلكي رياضي ، كان معقود الصلة ببلاط هولاكو . وقد شرح كتاب الأصول لإقليدس .

(٤) رشقه بالسهم : رماه به .

(٥) في الأصل دير المكافأة . والدَّير في الشعر الفارسي يطلق على الدُّنيا . يشير إلى قوله تعالى في سورة النور ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [النُّور : ٣٥] وعند إقبال أنَّ النور أقرب شيء إلى المطلق .

ومـــا لحقيقـــةٍ زمـــنٌ وَحَـــدّ فكيــف تــريــدُ دنيــا لا تحــدّ !
لهــا حــدٌّ ولكــنْ ليــس يظهــرُ ولا يخفــى بهــا مــا كـان أكثــر[1]
وليــس ببــاطــنٍ أيٌّ ارتفــاع ويقبــلُ ظــاهــرٌ كــلَّ اتِّســاع[2]
إلــى أبــدٍ لعقــلٍ مــا السبيــل ؟ فــواحــده كثيــرٌ ، والقليــل
وأعــرجُ كــان ، بغيتــه السُّكــون علــى القِشْـر اللبـابُ لـه يكـون[3]
ومــزَّقنــا الحقيقــةَ فــي يَــدَيْنــا مظــاهــرَ للفــوارقِ مــا رأينــا
وفــي غيــر المكــانِ رأى مكــانــا وكــالــزُّنَّــار يتَّخــذُ الــزمــانــا[4]
زمــانٌ مــا بــدا لــي فــي الضميــر خلقت الوقت يمضي بالشهور[5]
يمــرُّ العــام ، مــا ســاوى الشَّعيــرا بـآيـة ﴿ كـم لبثتم ﴾ كـن بصيـرا[6]
لذاتِك عُدْ ، تَخَلَّص من هديرٍ ونَفْسَك ألقِ في قاع الضَّمير[7]
وفصــلُ الجسْــمِ عَــنْ روحٍ كــلام فتفــرقـــةٌ وتمييـــزٌ حـــرام
وتخفــي الــرُّوحُ ســرَّ الكــائنــات وهـــذا الجســـمُ حـــالٌ للحيـــاة

---

(١) في الأصل أنَّ حدها في داخلها لا في خارجها وليس في داخلها منخفضٌ ولا مرتفع ولا قليلٌ ولا كثيرٌ .

(٢) يذهب إقبال إلى أنَّ الزمان والمكان مما يقيس به العقل عالم الطبيعة إلا أن العقل يعجز عن إدراك المطلق ؛ لأنَّه يربط الواحد بغيره والقليل بالكثير .

(٣) كان هنا تامة .

(٤) راجع ما قلناه في المكان واللامكان في ديوان « هدية الحجاز » . والزنَّار : ما يشد به النصارى وسطهم .

(٥) الحقيقة في نظر إقبال لا تقبل التجزئة وهي في تغيُّر ، وليس في الإمكان قياس الزمان بالأعداد .

(٦) حبة الشعير مضرب المثل في حقارتها في الفارسية ، أمَّا آية ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ فمن قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف : ١٩] ولقد لبثوا في الكهف طويلاً طويلاً . وإقبال بذلك يقدِّم الحجَّة على عجز الحساب عن قياس الزَّمن .

(٧) الهدير : صوت الرَّعد والبحر .

لهـا الحنَّـاء مِـنْ صَـوْرِ عـروس ... هي المعنى ، ففي حُلَلٍ تميس[١]

تستَّـرت الحقيقـةُ بـالنِّقـاب ... ويسعدُها الظهورُ بلا حجاب

وبيـنَ الـرُّوح والجَسَـدِ الفـراق ... بغربٍ ، أين في الحكم الوفاق[٢]

رجـالُ الـديـنِ سُبْحَتُهـم تـدور ... بـأمـرِ الحكـمِ ليسَ لهـمْ شُعـور

ففـي التمـويـه منقطـعُ الشبيـه ... هـو الجسـدُ الـذي لا روح فيـه[٣]

وقلبُـك ثـمَّ عقلُـك فـاصْحَبَـنْ ... إلـى الأتـراكِ فـارْحَـلْ ، وانظُـرن

بتقليـدٍ لهـم ذاتـاً أضـاعـوا ... بدينٍ ربطُ حكمٍ لم يراعوا

وكـم جـزءٍ لـواحـدٍ قـد رأينـا ... بـأعـدادٍ لنُحصيـه أتينـا

تـرى دنيـاكَ مـا يبـدو كتـرب ... أراهـا بـرهـةً مـنْ صُنْـعِ ربـي[٤]

وصـورةَ ميـتٍ رسـمَ الحكيـم ... بـلا عيسى ولا ضـربِ الكليـم[٥]

ومـا مـنْ حكمـةٍ قلبـي رآهـا ... بشـوق حكمـةٍ أخـرى ابتغـاهـا

أرى الـدُّنيـا بثـورتهـا تميـد ... خفـوقٌ هـزَّ بـاطنهـا شـديـد[٦]

دعِ الأعـدادَ واطـرحهـا ، لتهمـل ... وبعـض الـوقـت فـي ذاتٍ تـأمَّـل

فمَـنْ كـلِّ جـزيء كـانَ أكثـر ... جنـون قـولـة الطـوسـي وآخـر[٧]

---

(١) تميس : تتبختر .

(٢) يقول : إنَّ أهل الغرب يفصلون بين الروح والجسد ، وبالتالي فصلوا بين الدين والدولة ، وعكف رجال دينهم على العبادة دون أن يلتفتوا إلى شأن من شؤون الحكم في دولتهم .

(٣) يريد نظام الحكم الذي ينفصل عن تعاليم الدين . والتمويه : الخداع بالظاهر .

(٤) يريد ليقول : إنَّ العالم كتلةٌ من المواد ، ولكنَّها أحداثٌ متلاحقة . وسلوكٌ منظم ، والطبيعة للذات الإلهية ، كالطبع للذات الإنسانية ، وهي في تصوير القرآن عادةٌ إلهية ، كما يقول إقبال .

(٥) هو عيسى عليه السلام الذي أحيا الموتى ، والكليم موسى عليه السلام الذي ضرب البحر بعصاه .

(٦) تميد : تضطرب .

(٧) في الأصل: نصير الدين الطُّوسي، وفخر الدين الرازي من أهل القرن السادس الهجري.

أرسطــو مــرّةً إيّـــاه فــاعــرِفْ ... وبيكــون لحنَــه يــومــاً لتعــزفْ[1]
لهــذيــن المقــامُ فغــادرنَّــهْ ... تضيــعُ بمنــزلٍ ، فحــذارِ منْــه
بعقلــكَ وهــو يــدركُ كــلَّ كــمّ ... وبــاطــنَ مَعْــدنٍ أو قــاعِ يــمّ[2]
علــى دنيــاكَ سَيْطــرِ ثُــمَّ هَيْمــنْ ... وفــي أفــلاكهــا الأجــرامَ مكّــنْ[3]
ولكــن حكمــةً أخــرى تعلــم ... وذاتَــك نــحِّ عــن يــومٍ لتسلــم[4]
ودعْ دنيا الدَّياجي والنَّهار ... يميناً فاطلبن بلا يسار[5]

***

السُّؤال الرَّابع

أهــذا محــدثٌ هجــرَ القــديمــا ... فكانا الكونَ والباري العظيما
أمعـــروفٌ وعـــارفُــه ، إلهـــي ... لم الأشواقُ أرْمَضَتِ الظَّليما[6]

الجواب

حيـــاةُ الـــذَّات إيجـــادٌ لغيـــرِ ... وللمعـــروفِ بعـــدٌ كـــلُّ خيـــر[7]

---

(١) أرسطو صاحب المنطق يمثل الاستنتاج ، وفرانسيس بيكون الفيلسوف الإنجليزي يمثل الاستدلال بالتجربة .
(٢) المعدن : المنجم . واليمُّ : البحر .
(٣) هيمن على الشيء : راقبه وحفظه .
(٤) في الأصل : عني خداع الليل والنهار .
(٥) الدَّياجي : الظلمات ، والمراد بها هنا : الليل .
(٦) يقول : إنَّ المحدث انفصل عن القديم ، فأصبح الأول العالم ، أما الثاني فالله تبارك وتعالى . . وإذا ما كان المعروف والعارف هما ذات الله ، فما الحنين الذي أضنى الإنسان . والظليم : التراب ، والمراد به الإنسان .
(٧) يقول : إن الفراق بين العارف والمعروف خيرٌ عظيم .

قـديمـاً أو مغـايـره حسبنـا ... طلسمـاً كـان حُسْبـانٌ ، فخبنـا[1]

ذكـرنـا الأمـسَ والغـد فـي دوامٍ ... (فكان) و(سوف) أسٌّ للكلام[2]

وفطـرتُنـا انقطـاعٌ عنـه كـانـا ... سبيـلاً قـد ضللنـا فـي سُـرانـا[3]

وليـس لنـا بفـرقتـه عيـارٌ ... وواصلنـا ، فـدامَ لـه القـرار[4]

بنـا وبـه ! عجيـبٌ ، أيُّ حـالٍ ... ففـرقتُنـا فـراقٌ فـي وصـال[5]

فـراق يمنـح النَّظـر التـرابـا ... وقشّـاً مـا بـه بلـغ السَّحـابـا[6]

وهـذا العشـق يـزكـو بـالفـراق ... مـع العشّـاق كـانَ علـى وفـاق[7]

تبـاريـح الفـراق لنـا الحيـاةُ ... تخلَّـدنـا ، فيبقينـا الممـاتُ[8]

مَـنِ المـولـى ؟ ومَـنْ إيـاه يُعبد ... همـا سـرٌّ يـؤيِّـدُ أنْ سنخلـد[9]

يـدومُ لـه التجلّـي نـورُ ذاتٍ ... وبيـن الجمـع معنـى للحيـاة[10]

وتلـكَ محبـةٌ فـي الجمـعِ تُبصـر ... بغيـرِ الجمـع ذا مـا ليـس تُبصـر

---

(١) مغاير القديم هو المحدث . وحسبه حسباناً : عدَّه وأحصاه . وكان هنا تامة .

(٢) في تفيد معنى المصاحبة . والأس : الأساس .

(٣) السرى : السير ليلاً .

(٤) العيار : ما يكون في الدراهم والدَّنانير من الذهب والفضة يكسبها قيمتها . والمراد به هنا القيمة . واصله : ضد قاطعه وهاجره .

(٥) في الأصل : ليس بدوننا ولسنا بدونه .

(٦) المراد بالتراب هنا الإنسان . وفي الأصل : يجعل القش جبلاً . وفي الفارسية كاه بمعنى : القش ، وكوه بمعنى : جبل .

(٧) زكا : نما وصلح . وفي الأصل : أنَّ الفراق حامل المرأة للعشق . وحامل المرأة يعين على التزين ، وإصلاح المظهر .

(٨) تباريح الشوق : شدَّته وآلامه .

(٩) في الأصل : ما أنا وما هو . وإقبال بذلك ينكر مبدأ فناء النفس الإنسانية في الذات الإلهية ؛ لأنه يتحدَّث عن الفراق والتلاقي ، ويرى الخير كلَّ الخير في اجتماع المحب بالمحبوب .

(١٠) الجمع : الجماعة من الناس .

تجليـــاتُ محفَلِنــا تــأمَّــلْ تجلِّـي الله لا الـدُّنيـا تـأمـل[1]

فــلا الأبــوابَ أمسكنــا علينــا ونحــنُ بــه بمفــردِنـا اختلينـا[2]

ويجعـــلُ نَفْسَــهُ عنَّــا غــريبـا يُـداعينـا كمعـزفـهِ طـروبـا[3]

وننحــتُ مثـلَ صـورتـه الحجـاره ونسجـدُ ، مـا رأتـه العيـنُ ، تـاره

هتكنــا ستــرَ فِطــرتنـا علينــا جمـالَ حبيبنـا هـا قـد رأينـا[4]

وهــذا التُّــرب مـاجَ بـه الخيـال فبــاطنُــه أضــاءَ ولا يــزال[5]

ولكــن مــن فــراقٍ وهــو يشكــو بفضـلِ فـراقِـهِ تلقـاه يـزكـو[6]

بــه كــانــت لــه هــذي البصيـره فهــذا ليلــه أضحــى الظهيــره

وأنفــد حــزنــه جــزعُ الصَّبــور ومــن حــزنٍ تبــدَّل بـالسُّـرور[7]

وأصبـــح دمعـــه دُرّاً ثمينـــا الحـــزن أوَّدتِ الغصـــونــا[8]

وذاتُــك : إن تعــانقهـا طـويـلا تجد في الخلد من موتٍ بديلا !

مقــامــاتٌ لهــا بــالحــبِّ عقــدُ ومـا مـن منتهـى يحـدُوه حَـدٌّ[9]

تسيــر لــه الأمــورُ بــلا ختــامِ بــه الفجـرُ الضَّحـوكُ بـلا ظـلامِ

---

(١) الحفل : مكان اجتماع المجتمعين .

(٢) أمسك عليه الباب : أوصده . وفي الأصل : أنَّ هذا المحفل يخلو من باب وجدار وقصر .

(٣) في الأصل : أنه يجعل نفسه غريباً عنا تارةً ، ويعزف علينا كآلة الطرب تارةً أخرى .

(٤) هتك الستر : مزَّقه أو جذبه من موضعه .

(٥) الترب : التراب . والمراد به الإنسان الذي خلق من تراب .

(٦) يزكو : ينمو ويصلح .

(٧) أنفد : أفنى . والجزع عدم احتمال الصبر ، يقول : إنه حزن حزناً لا يطيقه حتى الصَّبور .

(٨) أوَّده : ثناه وعطفه . يقول : إنَّ للحزن ثماراً طيبة أثقلت الغصون . وهو مأخوذ من نخلة المأتم في الفارسية ، بمعنى النعش .

(٩) في الأصل : أنَّه ربطها في عقدة فهو مقيد ، كما أنه يمضي لا يقف عند نهاية فهو مطلق . يحدو : يسوق . والوخد : سرعة السير .

يغـايـر عقلَنـا وعـرُ الطـريـق ودنيـا كـان فـي وهـج الشـروق[1]
بـآلاف العـوالـمِ قـدْ مـررنـا على بعـضِ التـوقـف هـل قَـدَرنـا ؟
خلـوداً فـي حيـاتـك يـا مسـافـر وفي موتٍ ، إلى الدَّاني فبادر[2]
وليـس البحـر يغـرقُنـا انتهـاء تعلَّـق فيـه ، مـا هـذا فنـاء[3]
وجودُ الذات في ذاتٍ محال لتصبحَ نفسها ، هذا كمال[4]

السؤال الخامس

أجبني مـن أنـا ؟ وَضِّـح (أنـا) لـي وما في الذات من (شدِّ الرِّحال)[5]

الجواب

بـذاتٍ عُـوذةٌ للكـائنـات وأوَّلُ نـورهـا أصـلُ الحيـاة[6]
وتصحـو مِـنْ رُؤاهـا فـي كـراهـا بكثـرٍ بَعْـدَ واحـدِهـا تـراهـا[7]

---

(١) الوهج : اتقاد الشمس وحرها . وفي الأصل : أنَّه عالم في نور برهة .
(٢) المسافر في اصطلاح الصوفية : هو من سار قلبه متوجهاً إلى الحق . الداني : القريب . بادر : سارع . أي سارع إلى أول وأقرب طريقٍ إليك ، واسلكه .
(٣) لا يريد إقبال للنفس الإنسانية فناءً في الذات الإلهية كفناء القطرة في البحر على أن ذلك قصارى ما ينشد الصُّوفي . ويقول : إنَّ الإنسان إذا تعلق بالذات الإلهية فليس هذا فناء فيها .
(٤) يعني : أن كمال الذات الإنسانية في قدرتها على ضغط كيانها ، حتى إذا اتصلت بالذات الكلية .
(٥) الرِّحال : جمع رحل ، وهو ما يشد على ظهر البعير لركوبه . وشدُّ الرحال كناية عن السفر ، وفي الأصل : (أي معنىً في قولنا سافر في الذات) .
(٦) العوذة : ما يعلق على الإنسان لحفظه من الشرِّ والحَسَد .
(٧) الرؤى : جمع رؤيا وهي الحلم . والكرى : النوم . الكثر : الكثرة . وعند إقبال أنَّ الحياة في تعدد الأناسي على اختلافهم والوحدانية لله .

ونمضي في اتساع ، ماربونا ... ولولا ذاكَ منها ما زكونا[1]
يضمُّ صميمُها في العمق بحرا ... وقلبُ القطرِ موجٌ ما استقرا
تخالفُ منْ بشيمته تَصَبَّر ... وفي ملأٍ لنا تبدو بمظهر[2]
كنارٍ ، والذاتُ لها شَرارُ ... نجومٌ ، سائر وله القرارُ[3]
وراءَ حدودِها والغيرُ تشهد ... وفي الجمع الكبير كَمَنْ توحَّد[4]
تأمَّل في انطواءٍ كيف تبدو ... تُرابٌ ديسَ ، منه كيف تنمو
تثور وراءَ سترٍ للخفاء ... وتبحثُ في دوامٍ عن رواء
بنارٍ في الصَّميم ثوتْ وقامتْ ... تحاربُ نفسها ، والحربُ دامت
فَمِنْ هذا لعالمنا النظام ... وكالمرآة قد أضحى الرَّغام[5]
ذواتٌ أطلعتها من شعاعِ ... جواهرُ أُخرِجَتْ كانت بقاع
ترابُ الجسم لِلذَّات الحجاب ... وتبدو الشمسُ أطلعها السَّحاب
وتلكَ الذَّات تشرقُ منْ صُدورِ ... بجوهرها التُّراب لنا كنورِ
ومعنى لألأنا كمْ قلت بيِّن ... (بذاتك فلتسافرْ) فلتُعيِّن
على صلةٍ بأرواحٍ جُسومُ ... فسافرْ كي تحقِّقَ ما تروم[6]
بذلك مولدٌ من غير أمٍّ ... ومن سطحٍ كإمساك بنجم
على خلد حصولك بالتياعِ ... كأنك قد رأيتَ بلا شُعاعِ

---

(١) ربا : زاد ونما ، وما في الشطر الأول شرطية زمانية ، أي تتسع مدة نمونا . وزكا : كربا .

(٢) الشيمة : الفطرة ؛ أي : تخالف من يصبر بطبعه ، فهي لا تستطيع صبراً . الملأ : الجماعة .

(٣) يشبهها كذلك بالنجوم الثوابت والسيارة .

(٤) توحد : انفرد واعتزل .

(٥) الرَّغام : التراب .

(٦) الجُسوم : جمع جسم . تروم : تريد .

وعـن أمـلٍ وعـن وجـلٍ تنـاءٍ كشـقٌ أنـت محـدثـه بمـاءٍ[1]
طلسمَ البرِّ والدأماء فـاصدع وبدرَ التمِّ فلتصدعْ بإصْبَع[2]
بـأوبـةِ مَـنْ يطـوف بـلا مكـان لـه الـدُّنيا لتحملْ في الجنان[3]
لهـذا السـرِّ تفسيـرٌ محـال وتنفـع فيـه عيـنٌ لا مقـال[4]
فمـا قـولـي (أنـا) وهـي الضيـاء وفـي ﴿ إنـا عرضنا ﴾ مـا نشـاء[5]
ويـرجـفُ مـن سنـاهـا الأزهـران زمـانٌ تحتضنـه والمكـان[6]
مقـرٌّ ضمَّهـا كـانَ القلـوبـا لهـذا التُّـربِ أصبحتِ النَّصيبـا[7]
عـن الغيـرِ افتـراقٌ ، وارتبـاط بنفـس ضيعـةٍ ، وبـه اختـلاط[8]
خيـالٌ فـي التـراب لـه الكيـان ! أيحـويـه الـزَّمـان أم المكـان ؟[9]
سجينٌ ، في قيودٍ ، كيف أفلت ! فمـا الـرَّامي وأوهـاقٌ تـدلَّـت ؟[10]
بصـدرك مثـل مصبـاحٍ منيـرِ لـك المـرآةُ ، فيهـا أيُّ نـور

(١) التنائي : البعد . الوجل : الخوف .
(٢) الدأماء : البحر .
(٣) الأوبة : العودة . الجنان : القلب .
(٤) المقال : القول . أي : أنَّ الرؤية بالعين تنفع في معرفة السرِّ لا الكلام .
(٥) قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . والأمانة الطاعة ، وقد عظم شأنها . وحملها الإنسان على ضعفة ولم يفِ ، ولم يراع حقَّها ، فكان ظلوماً ، وبكنه عاقبتها جهولاً . وقيل : إن هذي الطاعة تتمُّ باختيار الإنسان وإرادته .
(٦) الأزهران : الشمس والقمر ، السَّنا : النور ، والسناء : الرفعة . وفي الأصل : أن الفلك يرتعد من سناها ، أو سنائها .
(٧) التُّرب : التراب . وإقبال يسمي الإنسان على الدوام حفنة التراب .
(٨) الضيعة : الضياع ، وبه : أي بالغير .
(٩) الخيال في الفارسية بمعنى النية .
(١٠) الأوهاق : الحبال التي يصاد بها .

عليها أنتَ قد كنتَ الأمينا		بإدراكِ لذاتِكَ كنْ قمينا[1]

السؤال السادس

أهذا الجزءُ عن كلٍّ يَزيد !		وكيفَ البحثُ عنه لمن يُريد ؟

الجواب

وما لِلذَّات مقياسٌ لدينا		وأعظمُ ما يلوحُ لناظِرَيْنا[2]
من الأفلاك تهبطُ ثُمَّ تَعلو		ببحرِ الكون تسقط ثُمَّ تَسمو[3]
فَمَنْ بالنَّفس يملكه الشعور		سواها ، أو بلا ريشٍ يطير
حوتها ظلمةٌ والصَّدر نورُ		تناءت جنةٌ ، في الحضن حورُ[4]
لها حكمٌ بها الألبابُ تسحر		ومِنْ قاعِ الحياةِ أتَتْ بجوهر
خلوداً في الصميم العيش كانا		ولكنْ للعيون بدا زمانا
مقامُ الكونِ منها قد تقدَّر		وتحفظه بما للعين يَظْهَر
أتسألُ عن طبيعتها وتسأل		وعنها ما بقدرٍ ليس يفصل
وماذا عَنْ طبيعتها لقائل		فجير ظاهر والضدُّ ماثل[5]
فما قولي ؟ وفي قول النَّبي		بذا الإيمانِ في قولٍ جلي[6]

---

(١) القمين : الجدير .
(٢) الناظران : العينان . يقول : إنَّ الذَّات أعظم ما نرى ، وإن كانت الرؤية ليستْ بالبصر .
(٣) تسمو : تعلو .
(٤) تناءت الجنة : بعدت .
(٥) المراد بالضد هو الاختيار . ماثل : قائم . وفي الأصل أنَّ الاختيار داخلها .
(٦) قيل : إن جبريل مضى إلى النبي عليه الصلاة والسلام في هيئة رجل وسأله عن الإيمان فقال له : هو أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وبالقدر خيره وشره .

ومـا للخلـقِ عنـدك غيـر جَبْـرِ وَمِـنْ بعـدٍ ومـنْ قـربٍ بـأسـر
وتلـك الـروحُ مـنْ نفسِ الإلـه بخلـوتهـا تلـوح بـلا اشتبـاه[1]
وهـذا الجبـرُ وهـمٌ أو ظنـون بغيـر إرادةٍ روحٌ تكـون ؟![2]
تصول بعالـمٍ لِلْكَيْفِ والكَمْ وعن جبرٍ إلى المختار تُقْدِمْ[3]
وذاكَ الجبـرُ منـه إنْ أفـاقـتْ لها الدُّنيا كتلكَ النوقُ ساقتْ[4]
بـرغبتهـا خفـوقُ النَّجـمِ واجـبْ بـرحمتهـا تـلألأتِ الكـواكـبْ[5]
تميـط السِّتْـر عمـا أضمـرتـه وجـوهـرهـا بِعَيْنيهـا رأتـه[6]
وأهـل النُّـور قـد وقفـوا طـويـلا أرادوا أن يـروا وجهـاً جميـلا[7]
ومِنْ كرْمٍ لها خمر الملائك وكان عيارها ترباً كذلك[8]
تقـولُ : وهـل إليهـا مـن سبيـل إذاً أوردْ مقـامـاً لِلْعَـويـل
لـكَ الأيـامُ فـاجعلهـا خلـودا ونُح في الفجر ، عقلُك لن يفيدا
لهـذا العقـلِ مـنْ حـسٍّ صـدور ومِـنْ عشـقٍ نحيـبُ الفجـرِ نـور
لعقـلٍ جـزؤه ، للنَّـوح كـل ونـوحٌ دام ، مـا إنْ دام عقـل
وذاك العقـل مـا وسـع الخلـودا مـن الأنفـاس مـا يحصـى عـديـدا[9]

---

(١) أي أنَّ الروح في خلوتها مع الله تبدو في كل مظاهرها بجلاء .
(٢) كان هنا تامة .
(٣) صال : غلب وقهر ، في الأصل أنها تغير على عالم الكيف والكم . وتمضي من الجبر إلى الاختيار .
(٤) في الأصل : أنَّها إذا نفضت عنها غبار الجبر ساقت عالمها كما تسوق الناقة . والنوق جمع ناقة .
(٥) خفوق النجم : اضطرابه . وفي الأصل أنَّ السماء تدور بإذنها .
(٦) تميط : تزيح وترفع .
(٧) أطلقنا أهل النور على النورانية ، وهم طائفة من الملائكة .
(٨) الكرم : شجر العنب . والملائك : الملائكة . والعيار ما يضاف إلى الدنانير والدراهم من ذهب وفضة . والمراد قيمتها . والترب : التراب ، فهي تستمدُّ قيمتها من ترابها .
(٩) في الأصل : إنَّ أنفاسنا تحصي الساعات كعقرب الساعة . والعديد : العدد .

بخلـــقِ الليـــلِ يُشْغَـــل والنَّهـــار ومــنْ نــارٍ لــه بعـض الشَّــرار[1]
قصـارانـا نـواحُ العِشْـقِ كـانـا وتحـوي بـرهـةٌ منـه زمـانـا
وذاتٌ إن بـــدا المعـــروف عنهـــا لحلَّت عقـدةً فـي العمـق منهـا[2]
لعينـــك مثلهـــا هـــذا الضيـــاء ؟ وتحســـبُ أنْ سيـــدرِكُهـــا الفنـــاء
فكيـفَ تخـافُ مـنْ ريـبِ الفنـاء إذا نَضِجتْ ، فعنهـا المـوتُ نـائـي
ومــوتـاً غيـر هــذا خـاف قلبـي وروحـي بـل ومـاءٌ لـي وتـربـي
سكــون الخَفْــقِ فــي شــوقٍ أليم وإبعــادُ الشَّــرارِ عــن الهشيــم[3]
وأنفسَنـــا بـــأيـــدينـــا نُكَفِّـــن ومــوتٌ جـاءنـا نلقـى بـأعيـن
فـوتُـك كـامـنٌ لـك فـي الكميـن تـذكَّـر ، واخـشَ عـاديـة المنـون[4]
بجسمـك كـان حفـرٌ للحفيـر ومنكـرٌ فيـه جـاوره نكيـر[5]

السؤال السابع

ومنْ عبر السبيلَ ومَنْ مسافرٌ ووصفُ كمالٍ منْ في ذكرِ ذاكر ؟

* * *

الجواب

أطـلْ نظـراً علـى قلـب تـردد بصـدرِكَ منـزلٌ ، إيَّـاهُ فـاشهـد[6]

---

(١) يقول : إنه لا يأخذ الشعلة بل شرارها .
(٢) المراد بالمعروف عنها العظيم من قدرتها .
(٣) يقول : إنَّ الموت الحق الذي يرهبه هو عدم العشق ، والهشيم : ما يبس وتكسر من النبات .
(٤) المنون : الموت .
(٥) منكر ونكير : اسم ملكين يحاسبان الناس في القبر ، والحفير : القبر .
(٦) المنزل : مكان النزول ومرحلة من المراحل التي ينتهي إليها سالك طريق التصوُّف .

وفـي حَضـرٍ بـذلـك تلـكَ سفـرهْ ... ومـن ذاتٍ إلـى ذاتٍ ، بخطـره[1]

فـأيـن مقـرُّنـا يـا ليـتَ شعـري ... ومـا لحنـا لشمـسٍ أو لبـدرِ

ومـالـك غـايـةٌ ، لا تبـغ غـايـهْ ... فـروحُـك تنتهـي عنـد النهـايـهْ

بنـا نضجـاً ظننـتُ ومـا نضجنـا ... نقصنـا فـي المنـازل أو كملنـا

وفـي عـدم الـوصـول لنـا الحيـاةُ ... بسفـرتنـا تحشَّـانـا الممـاتُ[2]

تجـوُّلنـا بـرحـبِ الأفـقِ كـانـا ... وطئنـا ذا المكـانَ وذا الـزَّمـانـا[3]

لغبنـا ، حـولَ أنفسنـا نـدورْ ... بقـاعِ الكـون مـوجتُنـا تثـور[4]

ودومـاً كـنْ لـذاتـكِ فـي الكميـن ... ومـن شـكٌّ ففـرَّ إلـى اليقيـن

ومـا لأجيـجِ عِشْـقٍ مـن فنـاء ... ونظـرةُ ذي اليقيـن بـلا انتهـاء[5]

كمـالًا نظـرة كـانـت بـذات ... وذلـك بـالخـروج عـن الجهـات[6]

بـذات الحـقِّ تخلـو آنـذاكـا ... تـرى مـولاكَ والمـولـى يـراكـا[7]

---

(١) الحضر : ضد السفر . الخطرة : ما يلوح في الفكر . ومن معاني السفر : السير إلى الله من منازل النفس حتى يصل العبد إلى مقام القلب .

(٢) السفرة : المرة من السفر . والباء هنا للسببية . تحشاه : استثناه . يقول في الأصل : إن هذا السفر لنا حياةٌ خالدة .

(٣) الرحب : السعة . والمراد بالمكان والزمان هذا العالم بأسره . وفي الأصل مجالنا من السمكة إلى القمر . وهما في الفارسية ما هي وماء . كما قال إن الزمان والمكان تراب طريقنا .

(٤) لغبنا : تعبنا .

(٥) أجيج النار : شدة اشتعالها .

(٦) المراد بالجهات : العالم أجمع .

(٧) عند إقبال أنَّ هذا ما تبلغه الذَّات في أوج كمالها حتى في اتصالها المباشر بالذات المحيطة بالكل . جاء في سورة النجم عما شاهده ﷺ ليلة المعراج : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] أي : إنَّ بصره أثبته ما رأى إثباتاً صحيحاً مستيقناً ، فما عدا عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها .

ومن المفسرين من قال باستحالة تلك الرؤية كما أنَّ منهم من أجازها لأن موسى =

بنور فلتنر مِنْ ﴿ لن تراني ﴾ وإن أغمضتَ عينكَ أنت فانِ[1]

بذاتِك كنْ قوياً في حضوره حذارِ من الضَّياعِ ببحر نوره[2]

وممَّا ماج فيك لتعط ذرَّه بجانبِ شمسنا لتنير مرَّه

تحرَّق حيث يبدو في جلاء وأظهرْ منك ذاتَك في ضياء[3]

برؤيته ، لعالمنا إمام له لا للورى كان التَّمام[4]

وإيَّاهُ اطلبنْ إذا افتقدْته بفضلِ ثيابه خذْ إنْ وجدْته[5]

ولا تمدُدْ إلا الملاَّ يمينا ولا تُغْمِضْ عن الشَّصِّ العُيونا[6]

لأمرِ الدِّين والدُّنيا إمامُ هو الرائي ، وقد عمي الأنام[7]

كمثلِ الشَّمسِ تُشْرِقُ في الصباحِ لديه شموسُ أفكارٍ صِحَاحِ

وغربيٌّ له حكماً أقاما عن الشَّيطان قد خَلَعَ الزِّماما

بغيرِ العزفِ ليس له غِنَاءُ حوته بما يطير به السَّماء[8]

ومن بستانه الصحراءُ أجمل مدينتَه فدغ ، فالفقرُ أفضل

= طلبها .

(١) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

(٢) هذا صريحٌ في دَلالته على أنَّ إقبالاً لا يأخذ بمذهب الفناء في الذَّات الإلهية .

(٣) يقول : أنر ذاتك عياناً وذاته في الخفاء .

(٤) الورى : الناس . والمراد هنا بالتَّمام : الكمال .

(٥) أخذ بفضل ثيابه : تمسك بما يمسكن التمسُّك به منها .

(٦) الملاَّ : هو الشيخ الذي لا يفقه الدين على ما ينبغي . الشَّص : الحديدة التي تؤخذ بها السمكة . يقول : إنَّ مثل هذا الشيخ يخدعك ، كما تُخدعُ السَّمكة بالشصِّ لتصاد .

(٧) الأنام : النَّاس .

(٨) يقول : لا غناء ولا صدى عند الغرب إلا بالمعازف ، ولا يطير في السماء إلا بطائرة صنعها . وهذا من الدليل على إغراقه في المادِّية .

مِــنَ السـرَّاق شــرذمـــةٌ تغيــر وراء الخبـز طــالَ بهــا المسيـر[1]

صحــا جســمٌ وللــرُّوحِ السُّبــاتُ مـع الــدِّيـن الفنـونُ محقــراتُ[2]

لــدى الكفَّــار زاد الكفــر عقــلُ ولــلإنســـان عنــد الغــرب قتــلُ

وهـــذا راصــدٌ ولـــذا الكميـــنُ إلهـي ! كـنْ لهـم نِغْـمَ المعيـنُ !

إذا مـــا شئــتَ بلِّغهـــم كـــلامـــي نظـامُ الحكـمِ كـالسَّيـفِ الحُسَـامِ[3]

علـى هــذا الحســام الـروحُ تجـري يصولُ على الرقاب وليس يدري[4]

ليدخل ذلك الصَّمْصامُ غِمْدَه وإلا أهلـكَ الإنسـان بَعْـده[5]

السؤال الثامن

أتعرف ما تضمَّنه (أنا الحقُّ) أتحسبه هراء حين ينطق[6] ؟

الجواب

أعـــاود عنـــه قـــولًا لـــي يطـــولْ وعنــد القــوم ســرٌّ مــا أقــول[7]

بحلقتـــه مجـــوســـيٌّ أشـــاعـــا (حيـاة بـالأنـا خـدعـت خـداعـا)

---

(١) السُّرَّاق : جمع سارق . والشرذمة : الجماعة من الناس .

(٢) السبات : النوم . في الأصل : الدين والفن والعلم . وأطلقنا الفنون على العلوم والفن .

(٣) السيف الحسام : القاطع . يقول : إنَّ هذا نظام الحكم في بلاد الغرب .

(٤) يصول : يثب . وفي الأصل : إنَّ هذا السيف لا يميز في الضرب بين مسلمٍ وكافر .

(٥) الصمصام : السيف . يريد له أن يستقرَّ في غمده ؛ لأنَّه يقتل نفسه بقتله الناس .

(٦) أنا الحق : قول منسوبٌ إلى الحلاَّج ، ذلك الصوفي الذي كان يتجوَّل في الأسواق ، وقد غلب عليه الوجد والطرب ، وحرص على الدَّعوة إلى آرائه وتعاليمه التي خرجت على مألوف القوم في زمانه ، فبلغت من أهل الدين ميلغاً شديداً ، واتهموه بالحلول والكفر ، وأفتوا بقتله ، فصلب في بغداد سنة ٣٠٩هـ . وإقبال يرى في الحلاَّج رأياً آخر يناقض رأي قومه ، ويعانده . ولذلك انبرى للدِّفاع عنه في عديدٍ من تآليفه .

(٧) عاود الشيء : عاد إليه . والمراد بالقوم هنا أهل إيران والهند .

سبات الربِّ فيه الحلمُ كنَّا وهذا الحلمُ مِنْهُ قد خُلِقْنا ![1]

ولولاهُ لما وُجِد المكان بما يحوي ولا وُجِدَ الزَّمان

هو العقلُ المميزُ بلْ هو القلبُ هو التَّفكيرُ والتَّصديقُ والرَّيب[2]

وفي الأحلام تُغْرِقُ ناظريكا وأقوالًا وأعمالًا لديكا[3]

وباستيقاظه يفنى الجميع فَمَنْ شوقاً سيشري أو يبيع[4]

لدينا العلمُ نورٌ بالقياس وتعويلُ القياسِ على الحواس[5]

تغيُّر حسِّنا سببُ التغيُّر لعالمنا، فيشملنا التطوُّر

فما مِنْ حولنا ريحٌ ولون ولا يبدي لنا الآثارَ كون[6]

وهذا كلُّه وهمٌ عجاب على وجهٍ لخالقنا حجاب

وخدعةُ حسِّنا لا ريبَ فيها دخلنا مِنْ خِدَاعِ الحسِّ فيها[7]

فما ذاتٌ لنا في الكائنات بذاتِ حسِّنا قطعُ الصِّلات

حريمُ الذَّات ما بَلَغَتْهُ نظره تشاهدها بلا نظر، بخطره[8]

لها يومٌ بلا فلكٍ يدور تأمَّلها فما شكٌّ يثور[9]

إذا سمَّيتَ تلكَ الذَّاتِ وهما كمظهرِ أيِّ شيءٍ قلت حتما

معي قل: من تخامره الظنون تأمَّلْها، لتعرفَ مَنْ يكون

---

(١) السبات : النوم . يقول : إن هذا الكون وما فيه حلم رآه الله في سباته . وهو ينسب هذا إلى المجوسي ؛ لأن الله جل جلاله لا تأخذه سنةٌ ولا نوم .

(٢) يقول : إن العقل والقلب هما هذا الحلم .

(٣) الناظران : العينان .

(٤) يشري : يشتري .

(٥) التعويل على الشيء : الاعتماد عليه .

(٦) الريح : الرائحة . وطالما سمَّى إقبال العالم عالم الرائحة واللون .

(٧) التيه : الصحراء التي تاه فيها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر .

(٨) الحريم : ما يحيط بالبناء كالحرم . الخطرة : الفكرة .

(٩) يقول : إنَّ أيامها ليست زماناً يحسب بدوران الفلك .

أعـــالمنـــا تـــرى ؟ أورد دليـــلا بفكـــرك كـــانَ ذلـــكَ مستحيـــلا[1]

لقـد خفيـت ، دليـلاً فـاطـرحـن تفكّـــرْ ، ذلـــكَ الســـرَّ اكْشِفَـــنْ

أراهـا الحـق مـا فـي ذاكَ بـاطـلْ لهـا أكـلٌ ، فـأيقـنْ لا تجـادلْ[2]

إذا نَضِجَـتْ ، لهـا امتنـع الـزوال فـراقُ العـاشقيـن هـو الـوِصـال

جنـاحٌ لـو حبـوت بـه الشَّـرارا لخلّـد فـي الخفـوقِ بـه وطـارا[3]

بمـــا أبـــلاه ربـــي مـــا الخلـــود ببحـثٍ ليسَ هـذا مـا يُـريـد[4]

لـــروح طـــابَ خلـــد ، تستعـــارُ ويَثْمَلُهـــا مـــن العِشْـــق العُقَـــار[5]

ومـــا للطّـــودِ والـــوادي البقـــاء ! ستبقـى الـذّات ، للـدُّنيـا الفنـاء[6]

عـن المنصـورِ مـا جـدوى الكـلام ؟ بـذاتِـكَ فـاطلبـنْ ربَّ الأنـام[7]

بذاتِك ضعْ ، ودعْ عنك الجِدالا وحقِّقهـا بمـا الحـلاجُ قـالا[8]

السؤال التاسع

وسـرَّ الـوَحْـدَة الخـافـي أتـدري أيعلمُ عارفٌ يا ليت شعري ؟![9]

---

(١) يقصد أنَّ العالم ظاهر لنا ، إلا أنه مع ذلك في حاجة إلى دليل ، وهو ما يعجز حتى فكر جبريل .

(٢) الأكل : الثمر والرزق الواسع .

(٣) حباه : أعطاه .

(٤) أبلى في ذلك بلاء حسناً : أظهر قدرته فيه . والمقصود هنا عمل . وفي الأصل أن خلود الله ليس جزاء على عمله ، لأن هذا الخلود ليس له بالبحث والطلب .

(٥) يثمل : يسكر . العقار : الخمر .

(٦) الطود : الجبل . يقول أي قيمة لبقاء الجبال والوديان ، فالبقاء للذات وللدنيا الفناء .

(٧) المنصور : هو الحلاّج . وقد ذكر إقبال معه من يسمى « شنكر چربا » وهو مفسر هندي لكتاب من كتب الهند المقدسة . الأنام : الناس .

(٨) دع عنك : اترك وأهمل .

(٩) العارف : العالم ، والحكيم ، والصُّوفي في ذروة المعرفة .

الجواب

مقـــامٌ تحـــت قُبَّتهـــا يطيـــب وفيهـــا النِّيـــرانِ إلـــى مغيـــب ![1]

ونعـــشُ الشَّمـــسِ يحملـــه المســـاء كـــواكبُـــه لهـــا الكفـــنُ الضيـــاء

كمنهـــالِ الـــرِّمـــال هَـــوَتْ جبـــالُ لهـــذا البحـــر بعـــد الحـــالِ حـــالُ

علـــى الأزهـــار عـــاصفـــةٌ تثـــور ورعـــبٌ للقـــوافـــلِ مـــن مغيـــر

وإنْ بـــالـــدُّرِّ زان الطَّـــلُّ زهـــرا فبـــاقٍ تـــارةً ليـــزولَ أخـــرى[2]

بغيـــر سمـــاعهـــا الألحـــانُ تفنـــى وتلقـــى النَّـــار فـــي الأحجـــار دفنـــا[3]

حمـــامٌ عنـــه تَسْـــآلٌ أيجـــدي مـــن الأنفـــاسِ قُيِّـــدنـــا بقيـــد[4]

* * *

غزل

لنـــا الكـــاســـاتُ دارتْ بـــالفنـــاء وقـــد ذُقنـــاه مـــن دانٍ ونـــائـــي[5]

---

(١) المراد بهذي القبة قبة السماء. وبالنيرين: الشمس والقمر، ولهما المغيب بعد ظهورهما.

(٢) الطلُّ : النَّدى . وهذا النَّدى يبقى تارةً ثم يزول تارةً أخرى .

(٣) يقول: إنَّ الألحان التي لا تسمع تموت في قيثارتها، كما تموت النَّار الكامنة في الحجر.

(٤) الحمام : الموت ، والتَّسآل : السؤال .

(٥) الغزل عند الفرس منظومةٌ ذات رويٍّ واحدٍ لا تقلُّ أبياتها عن سبعة ولا تزيد على خمسة عشر ، وموضوعها الغزل وغالباً ما تتضمن المعاني الصُّوفية . والشاعر يلتزم في البيت الأخير منه ذكر لقبه الشعري . وإقبال لا يلتزم شروط الغزل في هذي المنظومة .

دارت الكأس : تناولها الشاربون الواحد تلو الآخر . يقول الشاعر : إننا جميعاً نلقى الفناء .

تسمَّى ساحةٌ قد جال فيها ... بدنيا ، مِنْ نجومٍ في ضياء

بها إنْ ذرةٌ أبدتْ نِفَارا ... فرُقْيَة نظرةٌ كلَّ الغَناء[1]

أتطلبُ أن يقرَّ لنا قرارٌ ... بنا الأيامُ تجري جريَ ماء

شغاف القلب فاحفظ فيه ذاتاً ... وكوكبها سراجٌ للمساء[2]

هي الدُّنيا مقامُ الآفلينا ... وذا العرفانُ عند العارفينا[3]

بقلبٍ باطلاً ما إنْ أردنا ... وهذا الحزنُ منه قَدْ أفدنا[4]

هنا الرغباتُ ما هم يَرْمقونَهْ ... وبهجةُ شوقِهم ما يَطْلبونَهْ[5]

وفي الإمكان تخليدٌ لِذات ... وجعلُ الوصلِ منْ هٰذ الشتات[6]

ومصباحٌ بِزَفْرَتنا تألَّقْ ... بإبرتنا سماءٌ سوف تُرْتَقْ[7]

لدى القيُّومِ ذوقٌ للكلام ... تجلَّى في جموعٍ للأنام[8]

فَمِنْ برقِ التجلِّي كان فيه ... وذاكَ الجامُ مَنْذَا يحتسيه[9]

---

(١) الرقية : ما يقرأ على المسحور ليزول عنه أثر السحر . والغناء : الكفاية . وتكفي نظرة تبطل هذا النفار ، كما تبطل الرُّقية السحر .

(٢) شغاف القلب : غلافه ، والسراج : المصباح .

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] وأفل النجم : غاب . وهذا في شأن إبراهيم عليه السلام الذي لم يحبَّ عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حالٍ ؛ لأنَّ مثل هذا التغيُّر من صفات الأجسام .

(٤) أفاد : استفاد .

(٥) يرمق : ينظر ويطلب .

(٦) الشتات : التفرق .

(٧) رتق الفتق : سدَّه .

(٨) القيوم : من أسماء الله الحسنى ، وهو بمعنى الباقي . وفي الأصل : الله الحي . الجمع : الجماعة . والأنام : الناس .

(٩) الجام : كأس الشراب . احتسى : شرب . وفي الأصل : من قدحَ برق التجلِّي في قلبه ، وشربَ تلك الخمر ، ثم ضرب رأسه بالكأس .

لِمَـــنْ قلـــبُ عيـــارِ الحســـنِ منـــه وطـافَ ببيـتِ مـن ؟ مـا زال عنـه[1]

(ألســتُ) لخلــوةٍ قــد صعَّــدَتْهــا (بلــى) أيُّ المعــازِفِ ردَّدَتهــا[2]

لعشـــقٍ أيُّ نـــارٍ فـــي التـــراب وحــرَّق لحننــا كَــمْ مــنْ نِقَــاب[3]

تــدورُ الكــأسُ ، لكــنْ مــا بقينــا بمحفلــهِ الحيــاةُ غَــدَتْ رنينــا[4]

لعـــزلتـــه فـــؤادي قـــد تحـــرَّق أهيـــىء محفـــلاً مـــا إنْ تفـــرَّق

وأنثــرُ حبــةً فــي الأرضِ ذاتــي له قد صُنْتُ لا لِسَواهُ ذاتي !

***

(١) العيار : ما يضاف من ذهبٍ أو فضةٍ إلى الدينار والدِّرهم . زال عن المكان : غادره . وفي الأصل : بمنزل من يطوف قمره .

(٢) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] والشاعر يسأل عن الخلوة التي ذكرت فيها ألست ، والمعزف الذي ردَّد لحنها .

(٣) التراب هنا هو الإنسان .

(٤) ما بقينا : ما دمنا باقين . بمحفله : أي بمحفله الله .

الخاتمة

لِيُشْهَرْ منك ذيَّاك الحُسام بغمدكَ لا يطيبُ لك المقام[1]

وتملكُ قدرةً فارفعْ نقابا تنلْ شمساً وبدراً والسحابا

دُجَاك أنرْ بأنوارِ اليقين يداً بيضاءَ أظْهِرْ لِلْعُيون[2]

وعينَك فافتحنَّ على فؤادِك من الشَّرر الثُّريَّا في حصادِك[3]

ومن قلبي لتقتبسِ الشرارا أنا الروميُّ إمَّا شئت نارا[4]

وإلَّا ، نارَ غربٍ خذْ وحاذِرْ ومُتْ في القلبِ كي تحيا بظاهرْ

* * *

---

(١) شهر السيف : أخرجه من غمده . الحسام : السيف .

(٢) الدُّجى : الليل . واليد البيضاء : المشعة . قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه : ٢٢ ـ ٢٤] .

(٣) الشرر : جمع شررة وهو ما يتطاير من النار كالشرار . والحصاد : الزرع . في الأصل . من فتح العين على قلبه ، نثر الشررة ، وحصد الثريا . والثريا مجموع كواكب تشبه بالعنقود والسنبلة في الشعر الفارسي .

(٤) الرومي : هو جلال الدين الرومي من أهل القرن السابع الهجري أكبر وأشهر شعراء التصوُّف عند الفرس ، وصاحب كتاب المثنوي الذي يعد أعظم الكتب أهمية في التصوُّف الإسلامي . وإقبال يردد ذكر الرومي في كتبه ، وينظر إليه نظرة المريد إلى الشيخ .






الدِّيْوانُ الخامِسُ

جَناحُ جِبْرِيل
بالِ جبريل

نَقَلَهُ مِنَ الأردوِيّةِ إلى الفرنسيّةِ نثرًا
السيد ميرزا سعيد ظفر شاغتي
و السيدة سوزان بوساك

ثُمَّ نقلهُ مِنَ الفرنسيّةِ إلى العربيّةِ نثرًا
الأستاذ عبد المعين الملُّوحي

ثُمَّ صاغهُ بالعربيّةِ شِعْرًا
الأستاذ زهير ظاظا

طُبع هذا الديوان عام ١٩٣٥م ، وهو يحتوي على قصائد باللغة الأردوية حول زيارات محمد إقبال لفلسطين ، ومصر ، وأفغانستان ، وإنكلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وإسبانيا .

لا يُوجد في الأدب الأردوي ما يمكن مقارنته بهذا الديوان من حيث العُمق وسعة المطلب والبيان ، وما يلفت انتباهنا هنا هو أنَّ محمَّد إقبال يحكي خواطره الخاصَّة عن أسفاره إلى إسبانيا وفلسطين وبكائه على أطلال قرطاجنة وغيرها من الآثار الإسلاميَّة التاريخية ، وما يلفت النظر هو الجزء الخاص عن المحاورة بين محمد إقبال وجلال الدين الرُّومي ، فالمريد الهندي (محمد إقبال) يسأل بالأردوية والروميُّ يُجيب عن كل سؤال من المثنوي ، وهذا الحوار يوضح لنا أهم عقائد وأفكار محمد إقبال .

ربَّما لا يجد القارىء العربي في هذا الديوان محمد إقبال البليغ الجذّاب في شعره الأخَّاذ الذي تفرَّد به بين كبار شعراء الأردوية القُدماء والمُعاصرين ، وهو بسبب كثرة نقل هذا الديوان من شعر إلى نثرٍ ، ثم من نثرٍ إلى صياغةٍ شعريةٍ بالعربية ، فهكذا زال جمال الشعر وروعته وخفَّت بلاغةُ الشاعر وإبداعيتُه ، لذا ضَمَمْتُ إلى بعض عيون قصائد هذا الديوان تراجمها النثرية للعلاَّمة السيد أبي الحسن علي الحسني النَّدوي ملتقطاً من كتابه « روائع إقبال » الّذي قرأ هذا الديوان ـ مع جميع دواوينه ـ بكل عمقٍ ودقَّةٍ بلغته الأصلية فبَلَغَ مُحْسِناً ومُجِيداً بترجمته النثرية مبلغاً لم يبلغه أحد قبله ولا بعده .

* * *

محتوى الديوان

يحتوي هذا الديوان على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : إحدى وستون قطعة تتناول أفكار الشاعر الشائعة في شعره في صور شتَّى ، ورباعيات قليلة .

القسم الثاني : قصائد نظمها في الأندلس حين زارها .

القسم الثالث : قصائد ، ومن عيونها « لينين أمام الله » وهي صورةٌ تمثيليةٌ رائعة ، ويوجد في هذا القسم غير هذه القصيدة ، بعض القصائد منها عن فلسطين ، ومحاورة طويلة بين جلال الدين الرومي ومحمد إقبال .

وقطعٌ كثيرةٌ متفاوتة العناوين ومختلفة المواضيع .

وقد نقله أولاً من الأردوية إلى الفرنسية نثراً ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثراً الأستاذ عبد المُعين الملُّوحي ، ثم صاغه في العربية شعراً الأستاذ زهير ظاظا ، وهو الآن بين أيديكم .

القسم الأول

(١)

دَوَّتْ بِصَرْخَةٍ رغبتي أركانَ حضرته الشَّريفهْ
فاسترحمتْهُ العاكفون لفرط جرأتها المخيفَهْ
هي ذيْ ملائكةُ السَّماءِ وحورُها أسرى خيالي
بصري يكدِّرُ ما يفيْضُ به التجلِّي من جمالِ
إنْ كانتِ اقْتصرتْ على نقشِ المساجدِ همَّتي
لي ساعةٌ تجتاحُ فيها الكونَ جِدَّةُ نظرتي
ماذا فعلتَ ، أبحتَ سرِّي هاهنا ، لكن لماذا ؟!
وأنا هو السرُّ الوحيد لهمْ بِصَدْرِ الكون هذا
أنا ما سكرتُ بما سُقيْتُ فهل بكأسك من ثُمَالهْ
ما مدحةَ للبحرِ أنْ يهب النَّدى ظمِئاً حيالهْ

(٢)

لِمَ أهتمُّ بأخطاءِ النجومْ ؟   وأذيبُ القلبَ في هذا العنا
إنْ أصابتْ شأوَها أو أخطأتْ   فهوَ شيءٌ ليس يعنيني أنا
ثمَّ هل يمكنني أرثي لها   وأنا أطلبُ من يرثي لحالي
لستُ في كونك إلا حفنةً   فلماذا يُشْغِلُ العالمُ بالي
هوَ لي أمْ لكَ أنتَ   عالمي أم عالمُكْ ؟
كلُّ غيبٍ وشهادهْ   ليسَ لي منه نصيبْ
جاهدَ العقلُ جهادهْ   هو أم أنتَ المصيبْ
أنا ما قصَّر في بحريك هذين مضائي
رُغمَ أنِّي ليس لي علمٌ بما خلفَ الفَضاءْ
كيفَ إبليسُ الرَّجيمْ   قال : لا ، للكون هذا

ولمــــــاذا (أنـــــا حتـــــى الآن لا أدري لمــــــاذا) !!

ليـــت شعـــري أنـــت حقّــاً أمْ أنـــا مـــوضـــعُ ســـرّهْ

أنـــا بـــالنسبـــة لـــي طـــوّحْـــتُ فـــي خيـــري وشـــرّه

يـــا أبـــا القـــاســـم يـــا جبـــريـــلُ يـــاقـــرآنُ إنّـــي[1]

حلـــفُ سيـــرٍ فـــإليكـــم أيُّهـــا السَّـــادة عنّـــي

أيُّنـــا يشـــرحُ مـــا فـــي القـــول هـــذا مـــن حـــلاوهْ

أنـــا أم أنـــت الـــذي يَمْنَحُـــه هـــذي الطَّـــلاوهْ

عطـــرُك اللهـــمَّ فـــي الإنســـان مـــا زالَ ولـــونُـــكْ

وبـــإشـــراقـــة هـــذا النَّجـــمِ قـــد أشـــرقَ كـــونُـــكْ

أنـــا مِـــنْ آدم فـــرعٌ وهـــو مـــنْ صُنْـــعِ يَـــدَيْـــك

هـــل أســـاءت هـــذه الـــرِّحلـــة فـــي شـــيء إليـــك

***

قـــد تـــألّفـــتَ فـــزدْهُ ألَقـــاً هـــذا العِـــذارْ

وأدمْ لـــي حكمتـــي فـــي أســـره ليـــلَ نهـــارْ

خـــذ إلـــى أســـركَ قلبـــي فَلَقَـــدْ طـــابَ التهـــالُـــك

أنـــا لا أرغـــبُ أن يُكْشَـــفَ حبِّـــي وجمـــالُـــك

أنـــت كـــاللُّجـــة لا ســـاحـــلَ لـــك وأنـــا الجـــدولُ لا لُجَّـــة لـــي[2]

قـــلْ لهـــا تـــأخـــذنـــي فـــي حضنهـــا وأغثنـــي مـــرةً مـــنْ ســـاحلـــي

---

(١) يريد الشاعر أن يقول : إنَّ القلب السليم هو الّذي لا يحول بينه وبين الله رسولٌ ولا ملك ، إنّه حتى القرآن الكريم ممكن أن لا يزيد الظالمين إلّا خساراً .

(٢) المقصود ﴿ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ ﴾ [المائدة : ١١٦] أنت أقرب إلي من حبل الوريد وأنا لا أرى شيئاً ، يا للفضيحة أنا كالجدول ، أيّاً كان ذلك الذي سيمر على ضفافه فإنه من غير أن يبذل كبير جهدٍ سيميّز بين الحصى الخضراء والزرقاء .
أما أنت فكاللجّة ، حتى السماء إذا نظرت إليها فلن تجد أكثر من مرآةٍ تعكس زرقتها .

إنْ أكُــنْ قــوقعــةً فــارغــةً فمن المسؤول عن هذا السُّلوك ؟
أنت منْ يجعل منْ هذا الحصى جـوهـراً يُلْهِـبُ تيجـان الملـوك
ربَّ ما قَـدَّرت لـي رَجْـعَ الـربيـعْ فـاحفـظ اللهـمَّ هـذا النَّفَسـا
فعســى تــروي بــه قُبَّــرةٌ ذلـك الغصـنَ الـذي قـد يَبِسـا
مـع مـا أرهقنـي عـبءُ الحيـاه مـع مـا أخـرجتنـي مـن جنَّتـكْ
سترى كـم تـوبـةٍ فـي صفحتـي وأرى كـم رحمـةٍ فـي صفحتـك
أنـا قـد يَحْمـرُّ وجهـي خجـلاً حيـن تبـدو صُحُفـي بيـنَ يـديـك
فـرجـائـي عنـدمـا تقـرؤهـا أنَّنـي أنظـرُ يـا ربـي إليـك
أعـرفُ الحـبَّ الـذي خَبَّـأتَـه عـن قلـوبٍ سُمْتَهـا مـن ضَـرَمِـك
أنـت لـو تجعلـه قطبـاً لهـا لـم تطُـفْ إلا بـه فـي حَـرَمِـكَ
ارحـــم الكَـــلَّ الضعيـــفْ ضـــاعَ فـــي حقـــلٍ وبيـــدرْ
بـــدلاً مـــن ذا الـــرَّغيـــفْ أعطـــهِ قـــوَّة حيـــدرْ

(٤)

ســواء أهــزَّتْــكَ أم لــم تهــزَّك شكــوايَ أطلــبُ تُصْغـي إلَـيْ
أنـا وقـحٌ لسـت أسـأل عـدلاً فيـا طـالمـا العـدلُ يبغـي علـيْ
سمــاءٌ وأرضٌ وريــحٌ غضــابْ وكــلٌّ علــى قبضــةٍ مــن تــرابْ
فهـل لـك فـي الخلـقِ مـنْ فـرحـةٍ وهــل هــذه رحمــةٌ أم عــذابْ
أنـــا العطـــرُ خيمتُــــه وردةٌ تقـــاومُ ريحـــاً ببستـــانـــكَ
وبـالـرغـم مـن ضعْـف أسبـابهـا إلـى الآن تـزهـو بـألـوانـكَ
وبـالـرَّغـم مـن أنَّني فـي السَّمـاء وضيـــعٌ وأكثـــرُ مـــن مـــزدرىٰ
رضيـتُ ببـؤسـي الـذي اختـرتـه وأنشـــأتُ مملكـــةً فـــي العَـــرا
خـلا الـروض مـا فيـه مـن أجْمَـةٍ فتـاهـتْ عليـه المهـا والظِّبـاءْ
إذا كـــان صيـــادُنـــا مـــاهـــراً فليـــس يصيـــدُ بهـــذا العـــراءْ
إلــى عــالــمِ الحُــبِّ لا تستطيــعُ وصــولاً مــلائكــةٌ فــي السَّمــاءْ

ورايتُــه ليــس تُعطــى ســوى لمــن لا يهـابـون سَفْـكَ الـدِّمـاءْ
ومـن أيـنَ تعرفُ معنـى الـوِصـال إذا لـم تنـلْ مـن ضِـرامِ الهجـرْ
ســألتــكَ تمــلأُ روحَ الشَّبــاب بــأنّــاتِ إقبــال هــذا الفجــرْ
وتـؤتـي الشَّـواهيـن عـون الجنـاح لتنــزلَ منــزلهــا فــي القِمَــمْ
وأمنيّــة العُمْــر هــذي الجــراح تقسمُهــا بيــنَ كــلِّ الأمــمْ

(٥)

نمــطُ العَيْــشِ هــاهنــا أفقــدَ الحــبَّ بهجتَــهْ
أدركِ الحــبَّ أخمــدتْ نفحــةُ المــوتِ جــذوتَــهْ
فــي لهيــب انتظــاره بــدَّدَ العمــرُ حُــرْقتــهْ
ضــاع عمــري بلحظــةٍ أخَــذَتْ منــه زَهْــرَتَــهْ
تــربــتْ مــن شــرارةٍ قــاومــتْ منــه شُعْلَتَــهْ
هــبْ لــه خُلْــدَ روحــه وأدِمْ فيــه سَخْطَتَــهْ
وانظــرِ الأرضَ عنــدمــا يهــبُ الأرضَ نظــرتَــهْ

* * *

(٦)

أنــا أرجــو ألا يقــوم رمــادي أبــداً هــاهنــا بتقــويــم قلبــي
ورجــائــي ألَّا يكــون عــذابــي مثـل يـومـي غـداً أمـامَـك ربـي
ثــمَّ أرجــو ألَّا أخــورَ وأبكــي وتـرى الحـورُ لـوعتـي ونحيبـي
وعســى هــذه المحــافــلُ ألَّا يــأخــذوا أيَّ فكــرةٍ عــن لهيبــي
ربَّمــا يــذكــرُ المســافــر يــومــاً كــلَّ وخــزٍ رآه عَبْــرَ الطَّــريــقِ
فــرجــائــي ألَّا يصيــر حنينــاً ذلـكَ الـوخـزُ فـي فـؤادي الـرَّقيـقِ
جعــلَ الحــبُّ مــن فـؤاديَ بحــراً لـم أجـدْ سـاحـلاً لـه فـي حيـاتـي
أنــا أرجــو ألّا أفــاجــأ يــومــاً وأرى سـاحلـي شعـوري بـذاتـي
ورجــائــي ألا أكــون ببحثــي وهــو بحــثٌ بغيــر لــونٍ ومنهــجْ

كـالـذي ضـاعَ عمـرهُ خلـف ليلـى　　يقتفـي إثـرَ هـودجٍ بَعْـدَ هـودج[1]

آدمُ الأرض فــي صعــودٍ غـريــب　　ولهـــذا النُّجــوم طـــرّاً تمـــورُ

ربمـــا صـــار للسمـــوات بـــدراً　　ربمـــا عـــاد نجمُـــه المكســـورُ

مـولاي سـرُّك مـاضٍ فـي عـوالمـه　　من عالمِ الطَّير حتَّى عالم السَّمَك

ولسـت غيـرَ صـراخِ الفَجْـر أملكـهُ　　أنا بكونك كالعُصْفورِ في الشَّرَك

---

(١) في الأصل ص٢٦٧ حرفياً (ملاحقة الهودج) .
إشارة إلى أسطورة : كان امرؤ القيس وهو شاعر عربي في القرن الأول قبل الهجرة . ذو شهرة واسعة وقع في حبِّ ليلى ؟ عندما رآها فكان يلحق بكل بعير يحمل هودجاً على أمل أن تكون فيه ، والعبارة تعني (كل ملاحقة نصر على تحقيق الغاية التي وضعها الإنسان لنفسه) .
وفي تأويلات أخرى أنَّ المجنون أرسل رسالة إلى حبيبته ليلى ثم نفذ صبره فلحق بحامل الرسالة .
قال الأستاذ الملّوحي : ونلاحظ في هذا التعليق جملة من الهفوات فحبيبة امرؤ القيس التي ذكر امرؤ القيس هودجها ليست ليلى في قوله :
ولما دخلت الخدر خدر عنيزة . . . إلخ
قلت في ديوان الأسرار ص٧٠ يعلق عزّام على البيت :
صـدر عصـري مـا يقلـب يـؤهـل　　نـوح قيـس حيـن يخلـو المحمـل
قال : يبكي لخلوّ عصره من القلب كما يبكي المجنون لخلوّ المحمل من ليلى وقد يكون من ذلك قول المجنون :
أمـا الخيـام فـإنهـا كخيـامهـم　　وأرى نسـاء الحـيّ غيـر نسـائهـا
وفي البداية والنهاية حوادث سنة ٦٣١هـ : كان السَّهروردي صاحب العوارف مرةً في مجلسه فكان يكرر هذا البيت :
ما في الصحاب أخو وجد تطارحه　　إلا محـب لـه فـي الـركـب محبوب
فقام شاب وكان في المجلس فأنشده :
كـأنمـا يـوسـف فـي كـل راحلـة　　لـه وفـي كـل بيـت منـه يعقـوب
فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب فلم يجده ووجد مكانه حفرةً فيها دم كثير من كثرة ما كان يفحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت .

(٧)

أيُّهـا السَّـاقـي لقـد قـامَ الغفـاة | ثـورةٌ فـي كـلِّ شـيءٍ فـي الحيـاة
ذرَّةٌ لـم تَخْـلُ مـن عـاصفـةٍ | أيُّهـا السَّـاقـي خـذ الكـأس وهـات
نُهِبَـت خيـراتُنـا أجمعهـا | لـم نَعُـدْ ننفـعُ شيئـاً لِلْعبـاد
أيُّ عيـنٍ قـد أصـابـت ركبنـا | جَعَلَتْـهُ هـائمـاً فـي كـلِّ واد
فتنـةٌ فـي القَلْـبِ قـد أودث بنـا | نحـن أبنـاءُ أطبَّـاءِ القلـوب
أيـن فـي وديـاننـا المـاءُ الـذي | قبـلُ أحْيَيْنَـا بـه روحَ الشُّعـوب
لِـمَ لا يَنْطَلِـقُ التَّـوقُ الـذي | يُـوقـدُ الجـذوةَ فـي صَـدْرِ الحـرمْ
حُجُـبٌ غطَّـتْ عيـونَ المـؤمنيـن | أن تـرى زمـزمَ قُـرْبَ الملتـزمْ

رغـمَ أنَّ النَّهـر والبستـانَ فـي تبـريـزَ بستـانٌ ونهـرْ
لـم يـزالا لـم تَقُـمْ جـوقـةُ رومـي منـذ دهـرْ
قـل لهـا إن شئـتَ هـذا النهـرَ والبستـان قـومـي
لـو تـرى إذْ رَقَصَـتْ تبـريـز فـي حضـرةِ رومـي

أنـا لا أيـأس مـن حقـلٍ ذوىٰ | أيُّهـا السَّـاقـي إذا المـاءُ هطـلْ
فـأعـذ رونقـه إنْ لـم يكـن | وابـلاً يـا أيُّهـا السَّـاقـي فَطَـلْ
أيُّهـا السَّـاقـي هُـمُ قـد منحـوا | لـذوي الكـديـة أسـرارَ الملـوكْ
أنـا لـو أُعطيـتُ دنيـا أبـرويـز | لـم أكـنْ أرغـبُ عـن هـذا السلـوكْ
أنا لا أخلو بما أنعمته من موهبه | ليس من طغرل أو سنجار في بيتي هبه
أنا بالفطرةِ أصبحتُ رقيباً للوجودْ | رغمَ هذا ما لجمشيدٍ على قلبي قيودْ

***

(٨)

ألا يـا أيُّهـا السَّـاقـي | مـن الكـاسـاتِ هـاتيـك
لعلـي أنْ أرى يـومـاً | مكـانـي مـنْ معـانيـك
لمـاذا أغْلَقَـتْ أبـوابَهـا | الحـانـاتُ فـي الهنـد

مضـــت هـــدراً ثــلاثُ قـــرونٍ بَعْـــدَ سقـــوطِ ســـرهنـــدِ[1]

مضـــت هـــدراً ثــلاثُ قـــرون   فـــي حـــانٍ هَـــدَمنـــاهـــا
ولـــم تتحمَّـــل النُّـــدمـــان   بُعـــدَك أيهـــا السَّـــاقـــي
ذوت غـــزليتـــي لا شـــيء   والـــلأشـــيء حـــرَّمـــه
علينـــا بـــائـــع الـــلاَّهـــوت   بَعْـــدَك أيُّهـــا السَّـــاقـــي
قلـــوبُ أســـودنـــا فـــي الغـــاب قـــد هَجَـــرَتْ تحقُّقَهـــا
مـــع الصُّـــوفـــيِّ والمـــلاَّ عبيـــدٌ أيُّهـــا السَّـــاقـــي
مـــنِ انتـــزعَ الحقيقـــةَ مـــن مهنَّـــد حبِّنـــا هـــذا
ومـــا أبقـــى لهـــا إلا   قـــرابـــاً أيُّهـــا السَّـــاقـــي
كـــلامُ القَلْـــبِ حيـــنَ يكـــونُ حيَّـــاً خمـــرُنـــا البـــاقـــي
وإلا كـــان لـــلأرواح مـــوتـــاً أيُّهـــا السَّـــاقـــي
أنـــا ليـــلٌ بـــلا قمـــرٍ   ومـــا لـــي هـــاهنـــا قَـــدْرُ
ألا يـــا أيُّهـــا السَّـــاقـــي   بكـــأســـك ذلـــك البـــدرُ
بكـــأســـك ســـرُّ ذيَّـــاك السُّكـــون وهـــذه الحـــركـــة
فـــأيـــنَ المـــاءُ ، مـــاذا كـــان   ردُّ الخضـــرِ للسَّمكـــة

(٩)

ســاقـيَّ مــا حصــل الــذي أبغيــه   الــذَّات عــالمهــا متــى نلغيــه
القلــبُ منشغــلٌ بمــا عــاطيتــه   عمَّــن يغنيــه ومــنْ يَسْقيــه
ذهبــتْ بجــوقتــه كــؤوسُــك كلُّهــا   لــم تبــقِ إلا الصَّمْــتَ فــي واديــه

---

(١) إشارة إلى المصلح الكبير الإمام الرّباني مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي المتوفى سنة ١٠٣٤هـ ، ويذكره الشاعر في مناسبات عديدة في دواوينه المختلفة ، انظر للاطلاع على حياته وجهوده الإصلاحية الجزء الثالث من سلسلة العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي لكتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » طبع دار ابن كثير بدمشق .

مـا مثلـه متسـوِّلٌ فـي حـانـةٍ بـالـلامبـالاة التـي تـرويـه[1]
لـو جـاء مـاءُ الخضرِ كسر كـأسَـهُ ورثـى لـذي كلـفٍ بـه يـأتيـه

* * *

سـاقيَّ والكـأس الصغيـرة لـم تعـد تكفـي هلـمَّ لـه بمـا يكفيـه
فـرغـتْ دِنـانُ القَـوْم فـي أديـارهـم وأتيـتُ أسـألـك الـذي تخفيـه
بصـري علـى طمـحٍ وقلبـي جـامـحٌ فـاستـرْ إذا أحببـتَ مـا أنـويـه
غـادرتُ لـؤلـؤتـي الَّتـي أغـرقتَهـا فـي البحـر تنعـمُ مـنْ ضيـائـك فيـه

* * *

نظـراتُ هـذا الشِّعـر تَسْحَـرُ لبَّنـا والحسـنُ لا يحتـاجُ للتنـويـه
تضفـي علـى لـونِ الشقـائـق رونقـاً وتـزيـدُهـا ألقـاً بمـا تضفيـه

* * *

مـرةً تبصـرُ المحـبَّ شـريـداً مـرةً تبصـرُ الملـوكَ لـديـه
مـرةً يقحـمُ النُّـزال عـريّـاً مـرةً يحشـدُ الـدروع عليـه

(١٠)

أحـرقـتْ رغبتـي بـلاهـةَ سُـوقٍ فـأتَتْنـي ملـوكُـه تشتـريهـا
لسـتُ أبتـاعُ سكـرةَ الملـك غُبْنـاً بعبـوديتـي الَّتـي أنـا فيهـا
لا يليـقُ الـوجـود هـذا بحـرٍّ سـرُّه يشتكـي وجـودك ذاكـا
لـم يجـدْ هـاهنـا مـنَ المـوتِ بـدّاً أو مفـرّاً مـن الحيـاة هنـاك
لـذَّةُ العِشـق مـن فـراقٍ وهجـرٍ فـاتَّـقِ اللهَ أنْ تقـولَ لمـاذا
مـا تـردَّدتُ أو تشـردتُ يـومـاً أو تسكَّعـتُ فـي طـريـقٍ كهـذا
لا يمَـلُّ الشَّـاهيـن مـا يـرتجيـه بيـن غـابٍ يـرودُهـا وجبـالِ

---

(١) انظر : « حانة القلندرية في (منطق الطير) للعطار ص٣٧١ ، طبع دار الأندلس » .

ويـرى فـي اتخـاذه الغُـشَّ عـاراً ... نـاعـمٌ بـالُـه شـديـدُ المحـالِ
مـن تُـرى يسَّـر الـذَّبيـح لبـرٍّ ... بعـدمـا كـان تلَّـه للجبيـنِ
كثـرةُ الـدَّرسِ أمْ نبـاهـةُ نفـسٍ ... إنَّ فـي ذاك آيـةً للضَّنيـنِ
سلـوة الشـرق حيـن يجـرح شعـري ... وضـريحـي لكـلِّ طلعـةِ حـرٍّ
جئتُ (آلوند)[1] مرةً بعد أخرى ... فغبـارُ الطـريـق يعـرفُ سـرِّي
ليـس يحتـاجُ زخـرفَ القـول معنـىً ... كيفمـا قلتَـه سبيـتَ الغـوانـي
مـا استعـارتْ يـدُ الحـديقـةِ لـونـاً ... حيـنَ صـاغَـتْ شقـائـقَ النُّعمـان

* * *

هـو ذا الحـبُّ مـرةً إلْـفَ وادٍ ... مـرةً وحـدَه يغنِّـي الجبـالا
مـرةً بـالغيـاب يَشْقَـى وأُخـرى ... يمـلأُ القلـبَ غبطـةً ووصـالا
طـالمـا ألهـبَ المحـاريـبَ وَجْـداً ... طـالمـا أضْلَـح المنـابـرَ بـالا
مثلـه مثـلُ الإمـامِ علـيّ ... أخـذ العلـم كلَّـه والقِتـالا

(١١)

ألا يتـذكَّـرُ يـومَ اللقـاءْ ... وتـاريـخَ لحظتِـه الحـاسمـهْ
ومـا قـدَّس الحـبُّ مـن بقعـةٍ ... وأسيـافَ نظـرتـه القـاسمـهْ
ذوى الحـبُّ فـي أنفس العـاشقيـن ... ولـم يبـقَ منـه سـوى وسـوسـهْ
وصـرنـا إلـى زمـنٍ مـالـه ... إلـهٌ سـوى صنـمِ المـدرسـهْ
يقـولـون أستـاذنـا آزرٌ ... ولـلآن مـا عـرفـوا رسمَـهُ
هُـمْ وثنيُّـون لا يعـرفـونَ مـن فـنِّ آزرَ إلّا اسمَـهُ
نَعَـمْ هـمْ إلـى الآنَ لـم يعـرفـوا ... رشـاقـةَ فطـرتـه البـادئـهْ

---

(١) آلوند : جبل في إيران جنوبي غرب طهران وهو بمثابة (رضوى) عند شعراء العرب ومن هنا اختار عزّام أن يستبدل آلوند برضوى في ترجماته ومن الجدير بالذكر أنَّ إقبال نظم جناح جبريل على غرار رباعيات (بابا طاهر الهمداني) الذي يكثر في شعره ذكر جبل آلوند وميمند .

تطـوَّح معبـدُهـم فـي الـرِّيـاح ... ولـم تبـق زاويـةٌ هـادئـهْ
تعجَّبـت مـن عـالـمٍ هكـذا ... فـلا هُـوَ عُـشٌ ولا هُـوْ قَفَـصْ
هـب الكـرْمَ رونقَـه يـا كـريـم ... فلـم يبـقَ فـي الـدَّنِّ إلا غصـصْ
وحـانـاتُ إيـران قـد أجـدبـتْ ... وهــذي التــي فجَّــرت عينَنَــا
يظنُّـون شعـري لأجـلِ الـرَّبيـع ... ومــا علمــوا مــا الــذي بيننــا
دمـي وغبـاري همـا الجـوهـرانِ اللَّـذانِ يجيشـان فيمـا تشيـدْ
وأنـت سفكـتَ عليهـا دَمـي ... وخلـدُ التـألُّـق أجـرُ الشهيـد
بفضلـك لا أشتكـي الأصـدقـاء ... ولا أشتكـي جَـوْرَ هـذا الـزمـانْ
وثـوبُ الحيـاة التـي خضتُهـا ... بفضلِـكَ أخلعُـه فـي أمـانْ
فهبنـي بسـرِّك ذوقَ الفَنـاء ... كمـا فنـيَ السَّـابقـون الأوَلْ
فـلا الحـزنُ ثبَّـط مـنْ عـزمهـم ... ولا الخـوفُ أقْعَـدَهُـم فـي الـدُّولْ
نعـمْ ، عقـدَ الفكـرِ أطلقْتهـا ... وخلَّصتنـي مـن شيـاطينـهِ
متـى الحـبُّ تمنحنـي سـرَّه ... وتجعلنـي مـن مجـانينـهِ

(١٢)

يَهَـبُ الشَّقيـق بـلا حسـابٍ خمـره ... فترى الكؤوس على مدى البُستان
عجبـاً مـن الصُّـوفـيِّ يتـرك زُهْـدَه ... لأقـلِّ بـارقـةٍ بهـذا الحـانِ
الحـبُّ يجعـلُ حيـثُ مـدَّ بِسَـاطَـهُ ... مـن طعمـةِ المتسـوِّليـن ملـوكـا
يـرثـون شـرفـة أبـرويـز بمكـرِهـم ... فتظـنُّ كـان كمثلهـم صُعلـوكـا
هـذي النُّجـومُ عتيقـةٌ كسمـائهـا ... هـل مـن نجـومٍ غيـرِهـا وسمـاءِ
يـا ليـتَ شعـري والقيـامـةُ أزلقـتْ ... مـا حظُّهـا مـن هـذه الضـوضـاءِ
مـولاي عينـك لـو أدرتَ لحـاظَهـا ... عنِّي لحـلَّ الـويـل بي في لحظتي
أنـا غبطتـي عنـد الصبـاح تَنَهُّـدي ... حـاشـاكَ تحـرمني وداعـةَ غبطتي
لـم لسـتَ مُهْتَمّـاً بهـذا كلِّـه ؟ ... ولـو اهتممـتَ جعلـت منـه يقينـا
عينـاكَ لامعتـان إلا أنَّهـا ... دلَّـتْ علـى عـدم اكتـراثـك فينـا

أنـا لا يـلائمنـي ربيـعٌ طـافـحٌ بـالـزَّهـر لـم يُـدْرِكْ مـدى أحـزانـي
ويظـنُّ مـن خُيَـلائـه عـن فـرحـةٍ غنَّـى لـه العصفـور فـي البُستـانِ
قـالـت لـي الحمقـى تبـدَّد شملُنـا فكنِ ابنَ عصرك أيها المجنونُ[1]
فـأجبتُهـم إنْ كـان غيـرَ منـاسـبٍ فمـن المنـاسـب حـربُنـا المكنـونُ
حقّاً أبو الحسن المحقِّقُ قال لي : الـرُّوح لا تفنـى إذا فنـي الجسـد
أتظـن تبقـى الشَّمـس مشـرقـةً إذا هي أنكَرَتْ هذا الشُّعاعَ إلى الأبد[2]

(١٣)

عـدمُ اكتـراثِـك لـم يـزلْ وشقـائـي لـم أستفـدْ شيئـاً بكـلِّ غِنـائـي
ربَّـاه أيـنَ أنـا وأنـتَ وإنْ يكـنْ هـذا فضـاؤُك أنـتَ أيـنَ فضـائـي ؟
ولـكَ الـوجـودُ جميعُـه أمْ لـي أنـا والكـونُ سِخْـرُكَ أمْ تمـوُّجُ ذاتـي
مـا خضـتُ إلا وقعـةً نشبـتْ بـه فـي سـاحهـا أنفَقْـتُ كـلَّ حيـاتـي
مـا خضـتُ طـوال العمـر إلا وقعـةً نَشَبَـتْ علـى لغـزٍ مـن الألغـازِ
بحـرارةِ الـرُّومـيِّ كنـتُ أخـوضهـا حينـاً وحينـاً بـاكتئـابِ الـرَّازي
ما أفلحَتْ تلكَ العُقابُ وقد نَمَتْ وتـرعـرعـتْ بيـن النُّسـور الكـاسـرهْ
فَلِصَقْـرِنـا الملكـيِّ سـرٌّ واحـدٌ لـم تـدره تلـك العُقَـابُ الحـائـرهْ
لِلْحُـبِّ أغنيـةٌ ومـا لِغِنـائهـا لغـةٌ ، ولا تحتـاجُ لـلألفـاظِ
هـي إن تكـنْ أو لـمْ تكـنْ عـربيـةً فـالسـرُّ كـلُّ السـرِّ فـي الألحـاظِ

---

(١) شاهد من سعدي شيرازي وهو حرفاً : انسجم مع الزمن .

(٢) في الأصل (أيمكن أن تظل الشمس مشرقةً لو أنكرت أشعتها) وفي الهامش أنَّ الشمس هي الذات الكونية ، وأشعتها هي الذوات الفردية .

قلت : وقريب من هذا .

ربـاه ذاتـك فـي سمـاء حيـاتنـا شمـس أشعتهـا ذوات النـاس

وقريب من هذا قول شوقي في معارضته لعينيَّة ابن سينا :

يـا نفـس مثـل الشمـس أنـت أشعّـة فـي عـامـرٍ وأشعـة فـي بلقـع
فـإذا طـوى الله النهـار تـراجعـتْ شتى الأشعة والتقت في المرجعِ

مـــا بيـــن دروشـــةٍ ولا ملكيـــةٍ فـــرقٌ إذا صلحـــتْ أمـــورُ الـــذَّاتِ
كلتـــاهُمـــا تغـــزو الـــوجـــودَ فهـــذه بيـــدِ الجنـــودِ وتلـــكَ بـــالنَّظـــراتِ
البعـــضُ قـــد تـــرك الـرِّكـــابَ لغيـــرهـــا والبعـــضُ يكتُـــمُ جـــرحَـــهُ ويعـــانـــي
لـــو أتقـــنَ الحـــادي مقـــامـــاً واحـــداً لـــم يـــرغبـــوا عنْـــهُ لحـــادٍ ثـــانِ
الفكـــرُ حتَّـــى بـــالفضيلـــةِ لـــم يَعُـــذْ يرضى بقولِ القلبِ في تفسيرها
والقلـــبُ حتَّـــى بـــالتَّجـــارب كـــافـــرٌ ويـــردُّ قـــولَ الفِكْـــرِ فـــي تقـــريـــرهـــا
فـــإلـــى متـــى هـــذا النفـــورُ يقـــودنـــا وإلـــى متـــى تجتـــاحُنـــي أنفـــاســـي
اللهُ يعلـــم مـــا رأت نفســـي الَّتـــي أقســـو عليهـــا رحمـــةً بـــالنَّـــاسِ

(١٤)

أنـــا لا يبـــدو مجـــالـــي هـــاهنـــا يتعـــدَّى أبـــداً ظِـــلَّ القمَـــرْ
وأرى اللُّعبـــة مـــن مـــاءٍ وطيـــن ليس في كوني سوى هذا السَّمَرْ
أيُّ عيـــنٍ هـــاهنـــا مـــا افتتنـــتْ عنـــدمـــا مـــزَّقـــتُ أطـــرافَ الـــرداءْ
تـــربـــتْ مـــن أعيـــنٍ كـــانـــتْ تـــرى بقعـــةً زرقـــاءَ فـــي هـــذي السَّمـــاء
كـــمْ لنـــا قـــافلـــةٌ مـــرهقـــةٌ طـــوَّحَـــتْ خَلْـــفَ تـــلافيـــفِ الأثيـــر
إنَّ هـــذا المشتـــري والنَّيِّـــريـــنْ بعضُ من صاحبتُ في هذا المسير
هـــذه الأرضُ وهـــاتيـــكَ السَّمـــاء فـــي رحـــابِ الســـرِّ لا تنتهيـــانْ
قفـــزةٌ واحـــدةٌ مـــنْ عـــاشِـــقٍ تجعـــلُ الأســـرارَ فـــي جُبَّـــة كـــانْ
أنـــتَ إنْ حـــاولـــتَ كتمـــانَ الهـــوى فَضَحَتْـــهُ صـــرختـــي عِنْـــدَ الصَّبـــاح
صـــرخـــةُ الحـــبِّ التـــي تملكنـــي لـــم تـــدعْ للحـــبِّ ســـراً لا يُبـــاح
رغـــمَ مـــا تطلقُـــه مـــنْ حيـــرةٍ صـــرخـــةُ التـــائـــه مـــنْ غيـــر دليـــلْ
هـــي عنـــدي وكمـــا أعـــرِفُهـــا دعـــوةٌ تُعْـــرِبُ عـــن قُـــرْبِ الـــرَّحيـــلْ

* * *

إنْ تكـــنْ ربَّـــاً فيعنـــي عنـــدنـــا صـــرتَ تهتـــمُّ بـــأرضٍ وسمـــاء
وجَـــعٌ فـــي الـــرأس لا يتـــركُـــه لهنـــاءٍ فـــي صبـــاحٍ ومســـاء

أستميـــحُ العُـــذْرَ إمَّـــا إنْ تكـــنْ مَحْضَ إنسانٍ على هـذي الـوِهـادْ
فهــو لا يعنــي(تمــامــاً) عنــدَنــا وَجَعاً في الرَّأسِ ، لكنْ في الفؤادْ

(١٥)

واضـــحٌ قــولــي ، وفِكْــري نيِّــرٌ رغــمَ أنِّــي حــافــلٌ بــالحِيَــرِ
طينتـــي هـــذي الَّتــي أملِكُهــا كــلُّ مــا أعــرفــه عــن قــدري
ليــسَ عنــدي غيــرَ شــيءٍ واحــدٍ أنــا أم أنــت الــذي يَمْلكُــه ؟
أنــت لــو مَكَّنْتَنــي مــنْ صــونــه عــن زمــانــي لــمْ أكــنْ أهْتِكُــه
كيــف لا تُعــرِبُ عنِّــي صــرختــي كيــف لا تمــلأ أرجــاءَ السَّمــاءْ
أنــا غَنَّيْــتُ كمــا علمتنــي أنا أم أنـت الـذي صاغَ الغِناء ؟!
خطــأٌ إن كــان فــي تصميمنــا مــا الــذي يــدعــو إلــى تكــراره
ذلــك الإنســانُ مــا قيمتُــه ومتـــى يخـــرج مـــن فخَّــاره
رغــم أنَّ الغَــزبَ مــا علَّمنــي مـن جميع العلـم غيـر التُّـرَّهـاتْ
فــأنــا يــؤسفنــي (المــلأ) الــذي صــار لــلإســلامِ عــاراً فــي الحيــاة

* * *

أيهــا المسلــم[1] يــا نــورَ السَّمــاء كيــف لا تشــرقُ فــي أرضِ البشــرْ
أنــت سلطــانُ الليــالــي لا كمــا قــالــتِ الحمقــى أسيــرٌ للقَــدَرْ
إنَّ أصنــامــي التــي فــي مَعْبَــدِي مثلُهــا تلــكَ التــي فــي معبــدِكْ
لــم تحطمْهــا يــدٌ غيــرُ يــدي فتــرفَّــغ عــن يــدٍ غيــر يــدك
ذلــك الأعمــى الــذي تَقْصِــدُه مــا لــه علــمٌ بمــا فــي قلبــك
هــو لا يبصــرُ حتَّــى نَفْسَــه وتــراه تحفــةً مــن ربِّــك

---

(١) في ترجمة النثر للأستاذ الملُوحي « يا أنت ! وقد اختلف النقاد في تحديد المنادى » ص٩٨ .

رُبَّاه هـذا السُّوق ينبضُ روعةً ويـروجُ حتـى فـي ابتيـاع الـدَّاء
بالرَّغم من هـذا فأرخصُ سلعةٍ عنـد الشـراء مـواهـبُ العلمـاء
ملـكَ المـرابـون البـلادَ جميعهـا وتقـامـروا حتَّـى علـى الأديـانِ
والنـاسُ يعتقـدون رغـم شقـائهم لـلإنكليـز بمطلـق السُّلطـانِ
لـم تمنـحِ العلمـاءَ حتـى قشَّـةً وجَعَلْتَهُـم أخلـى العبـادِ وفـاضـا
والإنكليـز وهـم عبـادٌ مثلُنـا يُغْطـون أبنـاء الحميـر ريـاضـا
ملئـت كنـائِسُهـم بكـلِّ ملـذَّةٍ فهنـا اللحـومُ وهـاهنـا الكـاسـاتُ
هـل فـي مسـاجـدنـا بكـلِّ بـلادِنـا إلا المـواعـظُ تلـك والصلـواتُ[١]
قـرآنُـك الحـقُّ المبيـن وإنْ يكـن قـاسـى كـلامَ مفسِّـريـه وعـانـى
لـو يـرغبـون بـرأيهـم أن يجعلـوا القـرآن (بـازنـد المجـوس)[٢] لكـانَ
فـردوسـك اللهـمَّ لـم يـره هنـا أحـدٌ وأنـتَ هـو السَّميعُ المُبْصـرُ
الإنكليـز بـلادُهـم فـردوسُهـم والمسلمـون إلـى سمـائِك تنظـرُ
مـا زال فكـري فـي سمـائِكَ حـائمـاً فـاسجنْـه فـي فلـكٍ مـن الأفـلاكِ
تـأبـى علـيَّ مـلائكيَّـةُ فطـرتـي أنْ أستمـرَّ بهـذه الأشْـراكِ
لـك ذلـكَ الـدَّرويـش جـرَّح نفسـه حـاشـا تكـون لقلبـه جهتـانِ
لا فـي سمـرقنـدٍ ولا دلهـي ولا فـي أصبهـانَ لـه مقـامٌ ثـانِ
أنـا لسـتُ مِسْكينـاً ولسـتُ مـراوغـاً والحقُّ : أرفضُ غيرَ نفسي شاهدا
غضبـت علـيَّ الأصـدقـاء جميعُهـم والحـقُّ لا يبقـي صـديقـاً واحـدا
لـم أستطـع أبـداً أسمِّـي سُمَّهـم حلـوى وأعـرفُ أنَّـه قتَّـالُ

---

(١) المقصود اللادنيوية التي مُني بها المسلمون واللّادينية التي انتهى إليها الغرب ، فليس في كنائسه إلا دنيا ، وليس في دنيا المسلمين إلا مساجد .

(٢) البازند : شرح ترجمة معدلة لكتاب زرادشت (رأفيستا) ويُشير الشاعر إلى عناصر في هذا الدين مثل الثنوية وارتكاب المحارم (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(دومند) عندي لا يسمَّى صخرةً وعليه من قُللِ الجبال جِبالُ

لما قُذِفتُ لنارِ نمرودِ أتى جبريلُ يسألني فلَمْ أتكلمِ

وصمتُّ لمَّا قال : هل لك حاجةٌ أنا مسلمٌ أنا لستُ حبة شَيلمِ

ربَّاه ! إني أتعَبَتْني حيرتي ما عاد يمكن أن أغضَّ عيوني

الحسنُ من حولي يشيع وصالُه والحُبُّ في صدري يذيعُ فتوني

سكرانُ مغتبطُ السَّجيّة منتشٍ بالفقر فرحانُ الفؤاد بهيجُهُ

يا ليت شعري كيفَ يُحْرَمُ برعمٌ من رغبةٍ في الابتسام تهيجُهُ

لم يستطعْ إقبالُ يكتمُ جرحه حتَّى أمام الله قام وقالا

من سوف يُسْكِتُ ذلك الوَقِحَ الذي لم يبقِ للمتجمِّلين جمالا

* * *

القسم الثاني

علق إقبال على هذه القصيدة بقوله :

تفضَّل جلالة السلطان نادر شاه ـ الذي استشهد بعد ذلك ـ بدعوتي فاغتنمتُ زيارة ضريح الفيلسوف السنائي الغزنوي في شهر (تشرين الثاني) عام ١٩٣٣م وقد نظمتُ هذه التأمُّلات على نمط قصيدةٍ مشهورةٍ لهذا الفيلسوف[١] ذكرى لهذا اليوم السعيد :

« **إنَّنا نسير على خُطى السنائي والعطَّار** »[٢] .

* * *

---

(١) القصيدة نمط من الشعر العربي اقتبسه الفرس ، ويتَّجه إلى مدح شخصية ما ، أو إلى تجسيد عقيدة عند أهل التصوُّف كالسنائي (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(٢) الشطر الثاني من بيت لمولانا جلال الدين الرومي .

لم تَقْوَ صحراءُ الطبيعة هذه … لما جننتُ على احتواء جنوني
لولا الجنونُ أساء في تقديرها … لم آتها بمخاوفي وظُنوني
بالذَّات يمكنُ أن نكسِّر سِحْرَ ما … بعثتهُ من عطرٍ ومن تَلْوينِ
لا أنتَ تملكُ في الحياةِ ولا أنا … أسرارَ وحدانية التَّكوين !
صُوَرُ الوجودِ تموجُ نُصْبَ عيوننا … فاملأ عيونَك ما ملأتُ عيوني
لو يستطيعُ البحر يتركُ موجه … ألقى بموجِ الظنِّ بحرُ يقيني
بين المحقِّق والفقيه خصومةٌ … عَصَفَتْ بمِنْبَرِ ذلكَ المسكينِ
لمَّا رُئيَ الحلاَّج فوق صليبه … كسَر الصَّليبَ تعصُّباً للدِّينِ
ما بَينَ مِنْبَرِ ذا وبين صليبِ ذا … لم ألق غير خصومةٍ منْ طِيْنِ

***

رجلُ البصيرةِ لا يذوقُ هوانا … سِيَّان عبداً كانَ أو سلطانا
يختالُ والدِّرع الوحيدةُ زهدُه … لا يشتكي زمناً ولا شيطانا
جبريلُ دعني في الحياة وسكرتي … لا أنتَ أستاذي ولا أنا عَبْدُكَا
أنا إن تَبِعْتُ خُطاك خنتُ خلافتي … شتَّانَ وَجْدي في السَّماء ووَجْدُكَا
سَفْكُ الدِّماء رسالةٌ مذمومةٌ … لكنَّها في الأرض أقدسُ فرضِ
أهلُ السَّماء صلاحُهم في أنَّهم … يستغفرون بها لمن في الأرضِ
كم ذا ذهبتُ مُشَرِّقاً ومُغَرِّباً … أتفحَّصُ الحاناتِ في الآفاقِ
فهنا كؤوسٌ لا مذاقَ لخمرها … وهناك خمرٌ ما لها منْ ساقِ
طورانُ من إيرانَ تأخذُ ثأرها … وبلاطُ قيصر من دمائهما ندي
ذهب الدراويش الذين عهدتَهم … لا يأبهون لصارمٍ ومهنَّد
وبقيتُ في حرمٍ يتاجر شيخه … بوشاحِ فاطمةٍ ومصحفِ أحمدِ
لما اشتكى لله إسرافيلُ من … شكواي قال ـ بحرقةٍ وتنهُّدِ ـ :
هذا الفتى قبل الأوان يريد أن … ينهي الوجود بشِعْره المتمرِّدِ
فأجابه صوتٌ : أليس أشدَّ من … هذي النِّهاية ما ترى يا سيدي

إحـرامُ أهـلِ الصِّيـن داخـلَ سـدِّهـا ورقـودُ مكَّـةَ فـي جـوارِ محمَّـد

* * *

مِـن (لا إلـه) لنـا كـأسٌ يمنِّينـا
وكـؤوس (إلا الله) كُسـرَتْ بـأيـدينـا
الكـأسُ طـافحـةٌ بـالنَّفـي فـي الأرواح
والكـأسُ فـي الإثبـات تبكـي ذهـاب الـرَّاح
العـازفُ المـوهـوبُ بـالعَـزْفِ أخـرسنـا
نبكـي بـلا صـوتٍ ونخـونُ أنفسنـا
عجبـاً لأوربَّـة بـالنَّهـر تُغـرينـا
وبـذاتِ لجَّتـه ضـاعـتْ معـانينـا
تُخْفـي بهـدأتهـا تيَّـارَهـا المـاحـي
عصفـتْ فمـا تـركـتْ وَكْـراً لتِمْسـاحِ
رأيُ العبيـد بهـا لا نطمئـنُّ لـه
وتقـرِّرُ الأحـرارُ الـرأي مجملـه
لا شـيءَ يُقْنِعُنـا إلا اجتهـادٌ وفـي
يـأتـي بلـؤلـؤةٍ مـن ذلـك الصَّـدَفِ
ذاكَ الـزُّجـاج إذا عَجَنْتُـه فـي الكِيـر
فـأنـا أسـوِّيـه صخـراً بـإكسيـري
لـي فـي الجهـاد يـدٌ فـرعـونُ يخشـاهـا
بيضـاءُ مـا مُـدَّت إلَّا لمـولاهـا
أتظـنُّ أوربَّـة أنْ ينتهـي نَفَسـي
أو تنطفـي نـاري فـي قشِّهـا اليَبِـسِ
نـاري وقـد أذكـتْ مـا اخضَـرَّ مـن قصبـي
لا شـيءَ يمنعُهـا مـن ذلـك الحَطَـبِ

متفاهمٌ قلبي ... لا يعرفُ اليأسا
الحبُّ علَّمه ... أنْ يُزغِم النَّفسا
من عُسْرِ عالمه ... يستخرجُ اليُسْرا
لا قَصْرَ قيصرِه ... يرجو ولا كِسْرى
متعلِّقٌ أبداً ... بركابِ سيِّدِهِ
لا غَزْوَ للأقماز ... يَنْقُطْنَ في يده
هو سيِّد الأشياء ... هو خاتمُ الرُّسُلِ
هو شُعْلةُ السَّاري ... في هذه السُّبُلِ
هو مركبٌ من نور ... يمشي أمام الرَّكْبْ
أعطى جنون الطُّور ... لغبار هذا الدَّرْبِ
هو أولُ المَيْدانِ ... هو آخر الدَّرْبِ
في أعينِ السَّكرانِ ... من نَشْوةِ الحبِّ
هو رحمةُ القُرآن ... للنَّاس أعطاها
هو سيِّدي ياسين ... هو مالكي طه
أقلعتُ عن غَوْصي ... وتركتُ أخْمالا
لولا (سنائي) ما ... أقْلَعْتُ إجلالا
لولاه عن بحري ... لولاه ما حِلْتُ
فلآليءُ فيه ... أضعافُ ما قلتُ

(٢)

الشاعرُ الفرحُ الحزينُ معاً أنا ... حذر الحكيمُ أشُوبه بجنونهِ
أوتيتُ ملكَهما بوجهِ معذِّبي ... ورميتُ بالاثنين حول عيونه
والزُّهد منْ شِيَم الملوك فإن تجِدْ ... ذا الفقر فيه فَمِنْ عظيم فتونِهِ

زهدُ الملوكِ كأبرويز محبةً ... ألقى ممالكه إلى شيرينهِ[1]
وكهداْةِ الأسدِ المقيم كما يُرى ... ما بين مِخْلَبِه وبين عرينهِ
لا قعدةُ الصُّوفيِّ مُنْهدِمَ القُوى ... مَنْ فقد دُنياه وضيعةِ دينِهِ
ما قول سادتِنا الدَّراويش الَّتي ... سمعت لآهات ابنها وأنينِهِ
هو من رجالِ الله إلا أنَّه ... سيثيرُ عاصفةَ النُّشور بطِينهِ
رجلٌ تنيرُ طريقهُ شطحاتُهُ ... حيٌّ كمثلِ البَرْقِ بين شؤونه
ملكٌ أماراتُ الجنونِ بوجهه ... والعَبْدُ يفضحُه غباءُ سكونه
تيمورُ أو جنكيزُ كانَ كِلاهما ... ملكاً وخدش الله فوق جبينه
شعري بفارسَ والعراقِ محيِّرٌ ... طرِبوا له وتحيَّروا لشجونه
الكافرُ الهنديُّ[2] يذبحُ دونما ... سيفٍ ولا رمحٍ فَمَنْ لجنونه

(٣)

روعةُ السرِّ التي أعطيتُها ... والَّتي مكَّنني منها الجنونُ
إنَّ أنفاسي الَّتي أحدو بها ... أُخِذَتْ مِنْ صَدْرِ جبريلَ الأمينِ
لستُ آتي النَّجم كي أسألَه ... عن مصيري هاهنا كيف يكونُ
هو لا يعرف مِنْ أينَ أتى ... في رحابِ الكونِ منبوذٌ مَهِيْنُ
ما حياةُ الناس إلا سكرةٌ ... وهي في اليقظة أو في الحُلْمِ
لا تُضِعْ عمرك في تفسيرها ... كثرةُ الحيرة موتُ الهِمَمِ

* * *

فرحي تفجَّر مِنْ ... قدمي إلى رأسي

---

(١) يمكن أن يكون في هذا إشارة إلى قصر « دربند عجم » الّذي بناه أبرويز لمعشوقته شيرين رمزاً لحبّه كالملك المغولي شاهجهان الذي بنى « تاج محل » في القرن الخامس عشر الميلادي رمزاً لحبّه لزوجته « ممتاز محل » .

(٢) انظر من تلقَّب من الشعراء بالكفري (مكتوبات الإمام الربّاني الجزء الأول ، ص٣٢) .

والقـــــومُ تطلـــــب أنْ أنْسَـــلَّ مِــــنْ نفســـي

مـــا ســـرُّ قلبـــي ؟ آهْ لضميـــــره العــــــذبِ

وسمـــــوٌ نظـــــرتــــه فـــــي سكــــرة الحـــبِّ

لا أرتضـــــي بـــــدلًا عـــــن قلبـــي المجنـــونْ

بكنـــــوزِ قــــارونِ وعلـــــومِ أفـــلاطـــونْ

معـــــراجُ سيِّـــدنـــا علـــمٌ عظيـــمُ الشـــانْ

بـــدتِ السَّمـــاء بـــه فـــي عـــالـــمِ الإنســـان

لابـــــدَّ يُــــذْهِشُنـــا مـــا كـــان يُحْتَمَــــلُ

فـــوجـــودنـــا هـــذا مـــــا زالَ يَكْتَمـــــلُ

فـــي كـــلِّ آونـــةٍ نُصْغـــي إلـــى إعـــلان

يلغـــي خـــرافـــاتِ مـــن ســـالـــف الأزمـــان

ألهتـــك أوربَّـــة بـــالسِّحـــر عـــن ذاتـــك

إيَّـــاك أن تـــرضـــى عـــن كَسْـــرِ مـــرآتـــك

لا تتـــرك الـــرُّومـــي[1] ولهيـــبَ حـــرقتـــه

فـــدواؤك الشَّـــافـــي فـــي نـــارِ نَظْـــرَتِـــهِ

---

(١) يرى إقبال أنَّ المراحل المختلفة للخبرات الداخلية ترتبط بأحوال مختلفة من الوعي الذاتي ، وبالتالي فالخبرات الداخلية التي نجدها في الأدب الديني العالمي مهما كانت مغلفة في مفاهيم سيكيولوجية متقادمة فإنها لا ترتكز على وهم ، وإنما تحمل قيمةً معرفيةً كاملة .

والظاهر : أنَّ العلم الحديث ما زال لا يملك الأدوات التي يستطيع بمقتضاها أن يحلِّل بدرجةٍ مناسبة مضمون هذه الخبرات الصوفية .

ويريد إقبال بتمجيده للرومي أن يعرب عن سخطه على الفلسفة المجردة داعياً إلى الفلسفة التجريرة التي تجلت عند الرُّومي في مبدأ العشق العيني المشار إليه في قول الرومي : ليس الحرام تنظر إلى وجه الحبيب ، وإنما الحرام أن لا يكون لك حبيب تنظر إليه « انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ فصل إقبال والرومي » .

أو مـــا اسْتَعَـــذْتَ بـــه ... مــا ضــاعَ مِــنْ نَفَسِــك
إيـــاك كنـــت تـــرى ... جيحـــون فـــي كـــأسك

(٤)

ألا يـا عـالمـاً فـي المـاء ... بيـن التُّـرب والأهـواء
ظـاهـر ذلـك السـرِّ ... أنـا أبـديـهِ أم أنـت
وهـذا الليـلُ فـي حـزنٍ ... وحـرقتُـه وحيـرتُـه
ولحـنُ مـؤذِّن الفَجْـرِ ... أنـا أعطيـه أم أنـت
نشـاط الـدَّهـر يطلـبُ مَـنْ ... أنـا أم أنـت يثقِلُـه
ويَحْمـلُ عبثـه يجـري ... أنـا أغـريـه أم أنـت
غبـارٌ نحـن يـا أعمـىٰ ... ولكنِّـي أعيـي ذاتـي
فحقـلُ الكـون لا أدري ... أنـا أسْقِيـه أم أنـت

* * *

(٥)

كمـا أنـتَ لا تكتـرثْ للسِّنيـن ... وَسِـرْ فـي طـريقـكَ نحـو الأمـام
كمـا أنـت لا تُصْـغِ للقـائليـن ... فلسـتَ لنجـدٍ ومصـرٍ وشـام
تعـالـى جهـادُ النَّـزيـه الغَيـور ... تعـالـى يكـونُ لنيـل الحُطـام
وجـائـزةُ الحـرِّ غيـرُ الخمـور ... وغيـرُ الغـوانـي وغيـرُ الخِيـام
علـى الطُّعْـمِ يسقـطُ مـن لا يطيـر ... ومـن لا يحلِّـق فـوقَ الغَمـام
إذا سلـب الغـربُ قلـب الغَـريـر ... فسـرُّك يغـزو مصيـرَ الأنـام
عصـاك تُصَـدِّع صُـمَّ الجبـال ... وتعـرف سينـاءُ صِـدقَ الكـلام
فـدعْ تـرفَ الغمْـدِ مـا للهـلالِ ... علـى فخـره غيـرُ شكـلِ الحسـام
إمـامُـك يفقـدُ معنـى الخشـوع ... ويَنْقُـضُ نجـواك عـزُّ القيـام
أمثلـك يـرضـى بهـذا الخنـوع ... وتلـك الصَّـلاة وذاكَ الإمـام

* * *

نسيبُ جبريلَ معصومٌ من الرِّيبِ — وحكمةُ الذَّوق تعلو حكمةَ الكُتُبِ

كم كانَ مِنْ سفنٍ للقومِ أغرقها — سلَّمُ التَّصوفِ واللاّهوتِ والأدبِ

كنْ ثاقبَ العين في قلب الأسود لها — جرحٌ فما لثُغَاء الشاة من عَتَبِ

جسَّ الطبيبُ بقلبي ما أكابِدُه — فقال : ويحك ما تخفيه منْ طلب

تطلعاتُك لا طاقاتُ تحملها — لكن (لكَ الحقُّ) لا تيأس من السَّببِ

وما يُسمَّى صفاءَ الرُّوح أعرفه — وليس هٰذ الذي في قلبك اللَّجِبِ

هذا الدمُ القِرمزيُّ اللونِ (نَضْرَتُه) — تدلُّ أنَّك لم تشربْ شرابَ غبي

(٧)

لشقائق النعمان قنديلٌ على الآكام يشرقُ من جديد[١]

ويحثُّني العصفورُ في البستان ، يرغب أن أجدِّد في النَّشيد

الحورُ صفٌّ بعد صفٍّ والزهورُ مبعثرة

ضجَّ الجميعُ ولا أظنُّ جميعَ هذا ثرثرة

(١) يبدو أنَّ القصيدة ستكون غامضةً إذا تُركت بغير تعليق للرُّموز التي طفحت بها والتي تعطيك فكرةً بشرحها عن طبيعة شعر إقبال وما فيه من رمزية مغرقة ، وتستطيع أن تأخذ فكرةً واضحةً عن ذلك إذا تأملت ما هُمش به جناح جبريل ـ الأصل ـ من اختلاف النقاد في فهم كثير من شعر إقبال .

يشير إقبال في هذه القصيدة إلى أنَّ الحضارة قد دخلت في طورٍ جديد ، وهي بحاجة إلى ديانة تناسبها ، وهذه الناس الذاهبة هنا وهناك تبحث عن شيء ، وهاهي الذوات بدأت تستقل ، كلُّ واحد معتصمٌ بذاته وهذا سيجعل تلك الديانة أكثر جمالاً ؛ لأنَّ الديانة الحقة إذا نزلت على الفطرة الحرة كانت كمثل لؤلؤة النَّدى على الزهرة الحمراء . سيتألق البستان ، وغاية الفطرة هذه هي الجمال كله ، ولا يمكن لهؤلاء الذين أصبحت نفوسهم كالمدن في تعقيدها إزاء صفاء الفطرة لا يمكن لهم أن يفهموا كلَّ هذا ؛ لأن هذه الزحمة في نفوسهم ستحول بينهم وبين تجلّي القصة في ثوبها الجديد ، ويختم إقبال رموزه بإشارات لا تحتاج إلى تعليق .

الثَّـــوب أصْفـــرُ أصفـــرُ والثَّـــــوب أزرقُ أزرقُ
والقِـــرمِــزيَّـــةُ قِــرمِــزيَّـــةٌ والتفـــــرُّدُ مُطْلـــــقُ
ألقـــى نسيـــمُ الصُّبـــح لـــؤلـــؤةً علـــى تـــاج الـــزُّهـــور
والشَّمْـــسُ نـــوَّرت النَّـــدى لتـــزيـــد مـــن ألـــقِ العُطـــور
مـــن هـــذه الغـــابـــاتِ قـــامَ الحســـنُ يبـــدأ رقصتَـــه
فـــي هـــذه الغـــابـــاتِ لا فـــي المُـــدْنِ نفهـــم قصَّتَـــهْ
اغْـــرَقْ بـــذاتـــك مـــا استطعَـــتَ فشـــطُّ بحـــرك فـــي حيـــاتـــك
إنْ كـــان يـــزعجُـــك انتســـابـــي فـــانتســـبْ لجمـــال ذاتِـــك
مـــا عـــالـــمُ القَلْـــبِ ؟ المحبـــةُ والمـــروءةُ والحمـــاســـةْ
مـــاعـــالـــم الجســـدِ ؟ التِّجـــارة والتملُّـــق والسيـــاســـةْ
يـــا أنـــتَ أنـــتَ إذا وَجَـــدْتَ غنـــى الفـــؤاد فَلَـــنْ تُـــرَاع
أمـــا غنـــى الأجســـاد فهـــو وكـــلٌ مـــا فيـــه ضَيـــاع
وإذا وَجَـــدْتَ القلـــبَ ثـــم أضعتـــه فـــالحـــقُّ أنَّـــك مـــا وَجـــدتَـــهْ
والحـــقُّ : أنَّـــك ضـــائـــعُ الخُطـــواتِ مـــن وهـــم تُصَـــدِّق مـــا ظننتَـــه
لـــلإنكليـــز سيـــادةٌ فـــي غيـــر قلـــبِ المسلـــمِ
مـــا فيـــه تـــأويـــلاتُ شيـــخٍ أو مســـائـــلُ بـــرهمـــي
لـــو كنـــتَ تَسْمَـــعُ للقلنـــدر حيـــنَ قـــال وحيـــنَ جلَّلنـــي حيـــاء
لمـــا انحنيـــتَ أمـــام غيـــرك صـــرتَ مـــنْ جســـدٍ ومـــن قَلْـــبٍ هبـــاء

(٨)

دَمُ المسلـــمِ النُّـــورُ فـــي دَرْبِـــه ومـــوهبـــةُ السِّحـــر فـــي قلبـــه
ويعتـــرفُ العصـــرُ أنَّ الجمـــالَ صَبَـــا وتَـــرَعْـــرَعَ فـــي شعبـــه
ولـــولا مـــدارسُ هـــذي الشُّيـــوخ وأحبـــارُ ســـوءٍ ورهبـــانُهـــا
لـــروَّى المـــدينـــةَ ممـــا ارتـــواه وأورقَ بـــالحـــبِّ بستـــانُهـــا
صغـــارُ الشَّـــواهيـــن مـــا ذنبهـــا هُـــمُ علَّمـــوهـــا عنـــاقَ الغبـــارْ

هُـمُ قتلوا القَلْـبَ فـي صَـدْرِهـا هُـمُ أبـدلـوهـا بهـذا الشَّنـارْ
تـرى النشـأ يمـلأ وجـه الطـريـق بـروحـاتِ نِسـرٍ وغـدواتِ بـازْ
ومفتـي المـدينـةِ وادٍ سحيـق يضُـجُّ بمصطلحـاتِ الحجـازْ
أنـا لسـتُ أفهـمُ هـذي الكـؤوس ويـؤسفنـي مثـلُ هـذا اللَّجـاج
ومـن كـان يحسـنُ نَحْـتَ الصُّخـور تـرفَّـع عـن أن يَصُـوغ الـزُّجـاج
يقـولـون إقبـالُ مـاذا يـريـدُ ومـن أيـن جـاء بهـذا السُّلـوكْ
سـألـتُ الـدَّراويـشَ عـن سِـرِّهـا وألقيتُـه فـي وجـوهِ الملـوك

(٩)

هـو الحـبُّ يمضـي حِيـالَ الحيـاة يغنِّـي نشيـدة ألحـانِـهِ
ويـرسِلُهـا فـي وجـوه التُّـراب ويمنحُهـا بعـض ألـوانِـهِ
يُغَلْغِـل فـي الأرض أوتـارَه ويمـلأ هيكـلَ إنسـانـهِ
كمـا يَتَغَلْغَـلُ ليـن النَّسيـم بسيقـانِ زهـر وقفطـانِـهِ
إذا المـرءُ لـمْ يَـدْرِ مـا ربُّـهُ تحـوَّل عبـداً لسلطـانِـهِ
ومـنْ طلَـبَ اللهَ لا مِـنْ سـواه وأدركَ قيمـةَ عِـزْفـانـه
تحـوَّل (دارا) لـه طـالبـاً و(جمشيـدُ) مـن بعـضِ نُـدْمَانِـه
يجـاهـدُ للقلـب حـرُّ الجهـاد وللبطـن صعلـوكُ أوطـانـه
وذاك يحصِّـل سـرَّ الخلـود وهـذا يمـوتُ بميـدانـه
تمعَّـن بقلبـك واستنْبِـهِ ولا تسـألِ الشَّيـخ عـن شـانـه
خـلا حَـرَمُ الله مـن أهلـه فكـنْ أنـت جَـذْوةَ أركـانـه

* * *

(١٠)

القَلْـبُ يَنقُصُـه الهـوى والعَيْـنُ يَنْقُصهـا الصَّفـاء
مـنْ لـمْ يُغـامِـرْ مثلمـا غـامـرتُ تـدهشـه السَّمـاء
مـا سـرُّ طينتِـك الَّتـي ذوقُ التَّجلِّـي نقشُهـا

أَتَضِيـــعُ فـــي وهـــم الحيـــاة وأنـــت قلبـــك عـــرشَهـــا
حـــاشـــا لأوروبـــة الَّتـــي جفَّـــت دمـــوعُ عيـــونهـــا
حـــاشـــا تنيـــرُ بقطـــرةٍ مُلِئَـــتْ بليـــلِ ظنـــونهـــا
هـــل يعـــرفُ الصـــوفـــيُّ والمـــلاَّ حقيقـــةَ جـــذبتـــي
ضنُّـــوا بكـــلِّ ثيـــابهـــم وأنـــا أمـــزِّق جبَّتـــي
مـــا مـــزَّقـــا يـــومـــاً ولا حشـــواً ولا طـــرفَ الـــرِّداء
فـــاعجـــبْ لصُـــوفـــيٍّ ومـــلاَّ يلجئـــونـــك للـــرِّيـــاء
حتَّـــى متـــى يـــا طينتـــي تتـــوسليـــنَ إلـــى النُّجـــوم[1]
كـــانـــتْ نجـــومـــاً ثـــمَّ ضـــاعـــتْ خلـــفَ أوهـــامِ العلـــوم
إمَّـــا أكـــفُّ أنـــا وإمَّـــا أن تكـــفَّ عـــن الـــوجـــودِ
هـــذا الصِّـــراعُ البـــاردُ الـــواهـــي طـــريـــقٌ للجحـــودِ
مـــا دُمْـــتُ صـــاعقـــةً ففـــي الصَّحـــراء أعمـــلُ والجبـــال
عُشْـــبٌ وقـــشٌّ يـــابـــسٌ لا يستحقَّـــان انفعـــالـــي
الكـــونُ ميـــزانٌ يكـــونُ لـــذي الشَّجـــاعـــة والجـــلادِ
للمـــؤمـــنِ الحـــقِّ المخـــاطـــر بـــالحيـــاة لمـــا ينـــادي
حـــاشـــا لمـــن (لـــولاك)[2] فـــي يـــده يـــرى شيئـــاً منيعـــا
مـــا مـــؤمنـــاً مـــنْ لـــمْ يكـــنْ للكـــونِ علتـــه جميعـــا

***

(١١)

ألـــفُ خـــوفٍ ولا قيـــامُ لســـانـــي بحـــديـــثٍ ممـــا يُكَـــذِّب قلبـــي
عنـــدمـــا قلـــت للقلنـــدر[3] هـــذا قـــال : أحسَنْـــتَ إنَّ ذلـــك دأبـــي

(١) ربما كان المقصود هنا : « بأيهم اقتديتم . . . » (الحديث) .
(٢) لولاك لما خلقت الأفلاك .
(٣) القلندرية : طريقة صوفية يمكن أن تكون امتداداً للملامتية ، ويشير السهروردي في =

= عوارفه (٢٣٢) إلى عدة فروق بينهما ، وعنه ينقل المقريزي ذلك بتصرف في الخطط (٢/ ٤٣٢) .

وترتبط نشأتها في التراث الإسلامي بمجيء جمال الدين الساوي إلى دمشق بعد سقوط ساوة في أيدي التتار حوالي عام ٦١٧هـ .

انظر الوافي للصفدي (٤/ ٢٩٢) . النعيمي (٢/ ٢٠٩) معجم البلدان (ساوة) ، تلبيس إبليس (٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٧) . (الكواكب السائرة ٣/ ١٩١ ترجمة علي بن صدقة) . (وفيه ١/ ٤٨ ترجمة محمد الجارحي) . (وخلاصة الأثر ٣/ ٣٨٩ محمد بن أحمد العبادي) وانظر التذكرة التيمورية وعلى هامش لطف السمر (١/ ٣٥٣). والعبر (٥/ ١٤١) والبداية والنهاية حوادث سنة ٧٦١هـ ورحلة ابن بطوطة (٣٣) ونلفت النظر إلى وجود جملة من المعتقدات الزرادشتية ترتبط ببحيرة ساوة ، وفي الحديث (خمدت نار فارس وغارت بحيرة ساوة) وهذا ما يفسر وجود بقايا زرادشتية في الأدب القلندري .

وينبغي أن يمحَّص رأي دائرة المعارف الإسلامية « النسخة الفرنسية » من أنَّ قلندر يوسف الإسباني هو مؤسس القلندرية وعنها نقل فروخ في (التصوف في الإسلام) ص٢٦ وكذا حسين مجيب المصري في ترجمته غير المشهورة لأرمغان حجاز (١٥٦) ومحقق لطف السمر (٣٥٣) أو عن قاموس المنجد .

وربما كانت أخبار قلندر يوسف هذا شفوية غير مكتوبة ، أو أنها بمعنى آخر تقليدية .

كما أننا غير مطمئنين إلى صحة كون (قلندر نامه) من تأليف شيخ الإسلام عبد الله بن محمد الهروي كما تقطع بذلك دائرة المعارف الإسلامية . « النسخة الإنكليزية » والمرجح أن يكون من تأليف هاتفي (عبد الله بن محمد الهروي) صاحب تيمورنامه و« شاه نامه » الذي ألفه للملوك الصفوية ، وهو ابن أخت جامي صاحب النفحات وقد توفي سنة ٩٢٧هـ .

والمشهور أنه عن طريق رباعيات بابا طاهر الهمداني / التي يرى فيها النقاد مباينةً قوية لرباعيات الخيام / انتشرت نظرات القلندرية للحياة .

والتداخلات التي تحيط بحياة بابا طاهر لها أهميتها في تفسير كثير مما نسب للقلندرية .

فثمن ذلك اتهامهم بالإيمان بالتناسخ وكون بابا طاهر أحد أولياء (أهل الحق) التناسخية كما في دائرة المعارف مادة أهل الحق ، ومن ذلك أنَّ الدركزيني الهمداني شيخ الساوي كان من بلدة بابا طاهر كما في الوافي للصفدي . =

الـــذي يَحْشُـــد الجمـــوعَ بحـــانٍ   ظُـرْف ساقٍ مُنَشَّـأٌ فـي الخـلاعـة
خَـــورُ القلـــبِ لا يـــداويـــهِ رازي   رغـمَ مـا فـي كـلامـه مـنْ بـراعـةْ
المـــريـــدُ البسيـــطُ وهـــو نقـــيٌّ   يُـرفِـقُ التَّـوبـةَ النَّصـوح بكـاء
اســـأل الله نعمـــةً مثـــل هـــذي   للشُّيـــوخ الَّتـــي تمـوت ريـاء
ربّ مـــا زال نجـــلُ آدم هـــذا   إسـرَ وهـمٍ وشعـوذاتٍ قـديمـةْ
صنمُ النَّفس تحـت إبطيـه يُضْفـي   حُلَّـة النَّصـر فـوق شـرٍّ هـزيمـةْ
لستُ فـي صرختـي أبـرِّىء نفسـي   فـاحتـراف الإيمـان روحُ الشَّجـاعـه
وأنـــا ، كـــلُّ تهنـــآتـــي (لمـــلاّ)   يـدَّعـي حمـلَ مثـلِ هـذه القنـاعـةْ
مـــؤمـــنٌ لا يكـــون للحـــبِّ أهـــلاً   مـؤمـنٌ فـي الجحـود جـدُّ عـريـقِ
وإذا الكُفـرُ صـادفَ الحـبَّ يـومـاً   قـاده الحـبُّ مـرغمـاً لطـريقـي

(١٢)

أو لا تـــزال مســـافـــراً تســـري   وتَغُـــرُّك الـــدُّنيـــا بمـــا فيهـــا
والعصـــرِ إنَّ القـــوم فـــي خُسْـــرِ   وســـلِ الطبيعـــةَ عـــن فيـــافيهـــا

= ومن ذلك أن الخاكسارية وهم من مقدسي بابا طاهر يطلقون اسم القلندر على من هو في المرتبة الخامسة من مراتبهم السبعة كما في كتاب (الشبك ص٥٣) ويلاحظ أن ما فيه من وصف للقلندر (ص٥٤) ترجمة حرفية لما في البرهان القاطع (ج٢ ص٣٠٤) .

ولا يكاد يختلف حديث إقبال عن القلندر وحديث بابا طاهر عن نفسه ، قارن قصيدة الشاهين (ص٣٥٧) بهذه القصيدة التي يصف بها بابا طاهر نفسه كما في دائرة المعارف ، يقول : إنه قلندر ينتقل من مكان إلى آخر ، لا يغطي رأسه سقف .

ويتوسَّد في نومه وسادة من الحجر ، ويزعجه القلق الروحاني باستمرار ، تمزّق قلبه الكآبة والهم ولا يزهر في قلبه إلا زهرة الأسى وحدها ، حتى الربيع بما فيه من حسن وسحر يخلفه شقياً بائساً .

يقول : عيناي وقلبي لا ينصرفان بسهولة عن التعلُّق بأسباب هذه الحياة الدنيا وقلبي الثائر يشتعل بين ضلوعي ولا يريحني لحظة واحدة ، أأنت أسد أيها القلب أم نمر من نمور ، أنت الذي لا تكف عن حربي وكفاحي ، سأسفك دمك أيها القلب إذا وقعت في يدي ، لأرى من أي لون أنت .

يمشي المنافقُ في نقائصه لا زاهداً حقّاً ولا ملكا
وترى الموفَّقَ رغم محنته مَلِكاً يُبَجَّل أينما سلكا
كفُّ المنافق لا تساعده في حمل سيفٍ يَبْعَثُ الفرقا
والمؤمن الصدِّيق محنتُه قدرٌ يشوبُ سيوفَه ألَقا
ما للمنافقِ مِنْ إرادته حزٌّ ولا مِنْ صَوْلةِ القَدَرِ
يستقبلُ الأقدارَ مرتبكاً مُتَعلِّلاً بالعِلْمِ والنَّظَرِ
المسلم المغوار حجَّتُنا نرمي بها الجهلاء بالدِّين
في نفسه أقدارُ أمَّتِه متستِّرٌ في زيٍّ مسكين
حتى تحسَّ بما أكابده مزَّقْتُ أسراري إلى الأبدِ
وجذورُ غفلتك التي سَكِرَتْ لا أستطيع بلوغَها بيدي

(١٣)

الحورُ في الغرب سكرُ القلبِ والبَصَرِ فاهدأ قليلاً وكنْ منها على حَذَرِ
بحرُ الوجود تعالى أن نحيط به وبعضُ ما فيه موجُ الشَّمْسِ والقمر
حاشا لقيثارةٍ مهما بَذَلْتَ لها أن تستطيع احتواءَ اللَّحنِ والوتر
صوفيُّنا خلفَ لاهوتيٍّ أديرةٍ يريد يستبدلُ البخُّور بالحَجَرِ
والمنبرُ اليوم والمحرابُ قد فرغا من صيحةِ الحقِّ أو من صرخةِ السَّحر
أين الأذانُ الذيْ كانت تميد له روحُ الجبال وأينَ الصَّعْق في الصُّور
طوَّفتُ في أمَّةِ الصحراء أسألها فإذ بها أمةُ الصَّحراء في خَوَرِ
رأيتُهم في سجودٍ لا اتجاه له وماله في وجوهِ القومِ من أثر
مهلاً فقرطبة الحمراء ما بَرِحَتْ تلوحُ بين دخانِ الغَرْبِ بالشَّرَر
حماسةُ الشِّعر هذا من شبيبتها تفوحُ رَغْمَ حروبِ الكُفْرِ والأشَرِ

* * *

(١٤)

يَقِظٌ كما الفاروقُ يقظةُ قلبِه يقظٌ كمِثْل المرتضى في حربِهِ

حجرُ الفلاسفة المجرَّب مثله ... يستخرجُ الذَّهبَ الدَّفين بتربِهِ
أيقظْ فؤادَك إنَّ عُمْرَكَ ضائعٌ ... ما دام قلبُك غارقاً في حجبِهِ
أنا ، لا عصاي ولا عصاك تُفيده ... إنْ لم يذقْ ذوقَ الكليم بضربِهِ
ستكون في الصَّحراء أحمقَ باحثٍ ... إنْ كانَ لم يَصْحَبْك مُرْهَفُ شَمِّكَا
وغزالُنا التَّتريُّ لستَ تصيدُه ... مهما نصبتَ له حِبَالةَ وهمكا[1]
ربَّاهُ أينَ يلوذُ مركبُك الَّذي ... عصفتْ بطيبةِ نفسه الرُّهبانُ
أيروحُ في طلبِ الشواطىء مخطئاً ... والبحرُ بحرُك أنت يا رحمنُ
لولا الرِّياء بذلتُ خالصَ زفرتي ... للمُسْلِم المطروحِ حول منارِهِ
كُتِمَتْ مخافةَ برهميٍّ لم يزلْ ... يخفي شرارته بمعبد نارِهِ
فإلى متى صمتي وحولي أمَّةٌ ... يلهو بها السُّلطان والدَّرويش
هذا بِسُبْحَتِهِ وذاك بِسَيْفِه ... وكلاهما مما تكدّ يعيش
سمحتْ حضارتُنا الحديثةُ هذه ... للنَّاس يتَّجهون كيف أرادوا
مَكَرَتْ بعالمهم فظاهرُ أمرها ... حرّيةٌ والواقعُ استعبادُ
مولاي خُذْ بيدي ليشربَ إنَّه ... بترابِ يشربك المطهَّرِ مرهمي
ضيَّعْتُ معرفتي وإيماني على ... شكِّ الفِرَنج ووسوساتِ البرهمي

* * *

(١٥)

عيونُ اللَّذَّات دافقةٌ ... خلال الدرِّ والصَّدف
بغيرِ تصنُّعٍ منها ... ولا دَجَلٍ ولا صَلَفِ
إذا كانتْ لها أسلوبها في الهَجْر والشَّوقِ
فذلكَ منْ تواضعها ... وذلك منتهى الذَّوقِ

---

(١) إشارة إلى قول مولانا جلال الدين الرومي : سير مرحلة على هدي رائحة المسك خيرٌ من سير مرحلة في اقتفاء الأثر والدوران حوله .

أتطلبُ جيفةَ الغربانِ هاتيكَ الشَّواهينُ
إذا أخفَقَتْ مخالبها فأعينُها سكاكينُ
متى الأوتار تلهبُها بلوعةِ ذلكَ الحبِّ
فَنَغمةُ صورِ إسرافيلَ لا تفتنُ في القلبِ
أتيتُ الغربَ لم أغبَأْ بسكرةِ دلٍّ ساقيها
كرامُ النَّاس لا تشجو على مرأى أعاديها
غزاةُ العصر ليس لها على عشَّاقنا عونُ
وما من عاشقٍ إلا له من حبِّه كونُ
غيابٌ كالحضورِ به من الهيجان أدومُهُ
لعلَّ الهجر للجُرحِ الذي في الوَصْل مرهمُه
ولولا ذاك عانيتُ ما عانيتُ من غُصَصي
ولو أنِّي ظَفِرْتُ به رجعتُ ولم تَطُلْ قِصَصي !
إذا أحببتُ تلمُّسه فذلكَ فيضُ أشجاني
أقِمْ في عزلةٍ واقرأ (مزاميري بإيرانِ)[(١)]
ولا يحزنْكَ ما تقرأ من شطحي ومن مَيْلي
يقال : يَرُنُّ صوتُ السِّرِّ في منتصفِ الليلِ !

(١٦)

شبابٌ قعودٌ رقودٌ نيامْ لعجزِ الأميرِ وفوضى الجنود
فواأسفاً كيفَ هذي السِّهام تطيشُ بلا هَدَفٍ في الوجود
يقولون بحرٌ عميقٌ عميقْ وما أضيعَ البحرَ ما أضيعَهْ
بحثتُ به موجةً موجةً وقلَّبتُ قوقعةً قوقعهْ
أما آنَ تهجرُ أصنامَهم أما آن تخرجُ من قُمْقُمِكْ

---

(١) أحد دواوين الشاعر يحتوي على غزليات فارسية تُثير الدهشة بشطحاتها .

وغــايـــةُ أصنــامهـــم أنَّهـــا تــزخــرفُ هيكلَهــا مــن دَمِــكْ
أنــا كيــفَ أجهــرُ هــذا المســاء بســــرٌ كهـــذا الـــذي أهتِكُـــهْ
وشغــلُ الحكيــم بهــذا العــراء كشغــلِ المحــبِّ بمــا يُهلكــه
هــو الحــبُّ ينسيــك وقــعَ الجِـراح وتَفْضَــحُ ســرَّك آثــارُه
ومــا الحــبُّ إنْ لــم تمــت عــزّةً ومــا العيــش جَلَّلَــهُ عــارُهُ
أنــا لــم أرَ الســرَّ لــوْ لَــمْ أنــلْ طــريقــةَ رومــيٍّ وأحــوالَــهُ
ومــنْ بَــدْءِ تلمــذتــي قــال لــي ومــا زلــتُ أحفــظ مــا قــالَــهُ
رأيــتُ فــلاسفــةً بــالألــوف رؤوسهُــمُ تحــتَ أطمــارهــا
وذو الــوحــي يَــرْفَــع مــنْ رأســه ويكشِــفُ أوهــام أفكــارِهــا
إذا خُضْــتَ معــركــةً فلْتكــنْ كمــوســى بخطــوتــه الضَّــاربــهْ
فَمِنْ ﴿ لا تخـف ﴾ شعلةٌ لـم تـزل تصــاعــدُ فــي الأجمــة الــلاَّهبــهْ
بــريــقُ الحضــارة أوجُ التَّــرف لــدى الغــربِ لــم يستطــعْ فتنتــي
أنــا ابــنُ المــدينــة وابــنُ النَّجــفْ غبــارُهمــا كــانَ فــي مُقلتــي
غبــارُهمــا قطــرةٌ للعُيــون وأنفــعُ طــبٌ لــذي علَّــةِ
مقيــمٌ بــرغــمِ ريــاحِ القُــرون ومــا كــان مــن مستبــدٌ عتــي

(١٧)

كـانَ الشِّتـاء كمثـلِ السَّيْـفِ حـدَّتُهُ وكان طَرفُ الهوىٰ في مَيْعَةِ الولعِ
أيـامَ لنـدنَ مـاخـورٌ لطـالبهـا بمـا تضـمُّ مـن الحـانـات والبِيَعِ
أيـامَ كنـتُ صـلاةَ الفجـر أبعثُهـا على الصَّقيع بمرأى الفاجرِ الهلِعِ
ما لي هنا ولهيبي حيثُ رحتُ ذكي يثيـر فـي حتمـه آلام مجتمعـي
وكيفَ كانتْ هناكَ النَّاسُ تُنكِرُني وتـدَّعـي أنَّ هـمَّ الشرقِ جاء معي
أيـام آلـت مقـاليـدُ الأمـور إلـى مـا تـدَّعيـه يـد العُمَّال مـن شُـرعِ[1]

(١) لعلها إشارة الشاعر إلى تولي حزب العمال الحكومة في إنكلترا أول مرة عام ١٩٢٤م ، =

فكان في دربِ قُطّاعِ الحجارة ما — لأبرويز من التّدليس والطّمع[1]
يا لعبةً من دمقراطيةٍ طَلَبَتْ — عرشَ الملوك بما أبدته من وَرَعِ
كانتْ حكايةُ فصلِ الدينِ آخرَها — إنَّ السياسةَ جنكيزيةُ الجَشَعِ
ذكرتُ دلهي بروما حين طفتُ بها[2] — فكنت بينهما في ملتقى وجعي
كلا الدروس لها سحرٌ وأبّهةٌ — ربّاه عفوكَ قد أبْعَدْتَ مُنتجعي

(١٨)

استفتِ قلبكَ كيفَ المسجدُ افترقا — وكيف نخرج من محرابه فِرَقا
وأين ذو جَلَدٍ منهم يمرُّ به — تقوى طويّتُه إنْ تكتمِ الحُرقا
الحبُّ ، يَعْرِفُ من زلَّت له قدمٌ — بأنَّه أقصرُ الأشياء أزمانا
وأنَّه جرحُ سهمٍ إنْ صبرت له — أوتيتَ منْ جُعْبَةِ الصَّياد سُلوانا
ضاعتْ عقيدةُ قومٍ في مصادمةٍ — باثني وسبعين وادٍ من معانيها
هيهاتَ يُذْرِكُها منْ لَيْسَ في دمه — وجدٌ يؤلِّف قاصيها ودانيها[3]
درسُ الشَّريعةِ غيرُ الوَجد وهو كما — رأيتُ مُنْتشرٌ في جُمْلَةِ الفِرَقِ

= (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(١) يمثل أبرويز حزب المحافظين وهو عند إقبال حزب استعماري صريح (الأصل) .
قلت : لا يخفى أن المقصود بقوله قطاع الحجارة هنا فرهاد وبذلك : أعطى إقبال أبعاداً جديدة لقصة فرهاد وشيرين ومرةً أخرى يقول في قصيدة (اجتماع لينين بفيلهلم إمبراطور ألمانيا) إذا الشعب لبس تاج السلطان ستستمر أيضاً فوضى المجتمع .
ذلك التاج هو شيرين ؛ إذا لم يُتَيَّمْ بها أبرويز فسوف يتيّم بها فرهاد قاطع الحجارة .
انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص٧٩ .

(٢) عند عودة إقبال من لندن بعد اشتراكه في مؤتمرالمائدة المستديرة ، الذي دعت إليه الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند زار روما في نهاية عام ١٩٣١م وقابل موسوليني (الأصل) .

(٣) يذكرنا هذا المعنى ببيتٍ ربما كان من شعر بابا طاهر ، أي : كن قلندري الصفة صوفي المظهر والمشرب معروفاً لدى اثنين وسبعين فرقة (الشبك ٥٤) .

وأنَّـــه وكمـــا نَمَّـــتْ تجـــاربُنـــا
إسلامنا الغير مكتوب على الورقِ

غصنُ اليقين الرَّطيب الوَجْدُ ينبتهُ
ولا يفـوحُ بغيـر الـوَجْـدِ معنـاه

فقـل لـذي هِمَّـةٍ بـالـدرسِ مجتهـدٍ
هيهـات تبلـغُ بـالأوهـام مغنـاه

الحـبُّ فـي قحـة يحلـو وفـي سفـهٍ
فكـنْ بحبِّـك فـي هـذيـن سكِّيـرا

ولا تكـونـنَّ ذا حُـبٍّ بـلا سفـهٍ
فـإنَّ ذلـك لا يجـديـكَ قِطْميـرا

لن تهدأَ الرِّعْدَةُ الملقاةُ في خَلَدي
ولـن تـراقـبَ يـوم الحشـر ذا جـاهِ

إنْ لـم تَشُـقَّ بسيفِ السُّكـر جـذبتهـا
شقَّـت أمـام البـرايـا معطـفَ الله[1]

(١٩)

الـزُّهـد إخضـاعُ هـذا الطِّيـن والشَّـرر
وليس في بُعْدنا عن عالمِ البشر

فقــل لصــوفيَّــةٍ بــالفقــر راضيــةٍ
هذا العذابُ عقابُ الجُبْنِ والخور

ومــا عليــك إذا أنكــرت مَــذْهَبَهــم
وقلتَ : أطلب منكم زُهْدَ مُقْتَدِرِ

فالزُّهد والملكُ لا يُسْتحسنان لمن
أضـاع أمجـاد تيمـورلنك فـي سمـر

* * *

يا حبَّذا يغفلُ السَّاقي الجميلُ فلا
يليـقُ بـالقـول هـذا جسمُـه القمـري

إنَّ الـرِّفـاق إذا جـاشـت قـرائحُهـم
وأيقـظَ الطَّيْـشُ منهـم رَقْـدَةَ الفِكَـرِ

خاضوا بكلمة (عفواً) ما يروقُ لهم
ومـزَّقـوا سـرَّهـم فـي ثـوب معتـذر

أفيلســـوفٌ وصـــوفـــيٌّ ومجتهـــدٌ
في سكرةٍ من كؤوس السَّمعِ والبصر

ما في الثلاثة من أبدى فوا أسفاً
من روح ذي طمحٍ في عين مُنْبَهِر

كـانـت بـزاويـةِ الأقفـاصِ بغيتُهـم
لـو أمعنـوا قبـل هـذا التيـهِ بـالنَّظـر

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
لن تسكني رعدتي حتى في يوم الحساب ، إما أن تشق ثوبها أو أن تشق معطف الله !
يريد الشاعر أن يقول : لن أضحي بهذه الرعدة التي تمتلكني ولا بدّ لي من أن أجد من يُصغي إليها ولو لم يبقَ إلا الله فإنني سأتمسك بمعطف كبريائه ولن أبرح حتى أشقه بجذبتي أو يمحوها بخمره . (انظر ص١١٩ ، من الترجمة النثرية) .

سجنُ التَّفلُّتِ لا قضبان تُمسِكُه ... ورُبَّ غلٍّ خفيٍّ بالغ الأثر
تغنيكَ إنْ حرتَ فيما قلتُ تجربةٌ ... فما التَّجارِب إلا مرهمُ الحِيَرِ
انظرْ خرابَ فؤادِ الغَرْبِ يأكلُه ... وعقلُه في كمالٍ وافرٍ بَطِرِ
يقوده العقلُ في نهرٍ يفجِّره ... وخَلْفَه قلبُه يمشي على كَدَرِ

***

(٢٠)

رُغْمَ أنّ العقلَ لا يمنعُه قربٌ وبُعْدُ
إنَّه والحق : ما أُهِّلَ للحَضْرةِ بَعْدُ
اسألِ الله تعالى ... والتَمِسْ عيناً لقلبكْ
إنَّها أثمنُ ما تكسِبُه مِنْ فَضْلِ ربِّكْ
أنا لا أنكرُ أنَّ العلمَ للنَّفس حُبُور
هو فردوسٌ ولكنْ ... فارغٌ ما فيه حورُ
ما أحقَّ النَّاس بالرأفة من عصرٍ سفيه
ليسَ في العالم قلبٌ ... يجدُ الغِبْطةَ فيه
إنَّه صحوٌ بآنٍ واحدٍ هذا الجنون
ذلكَ النَّوعُ جنونٌ ... ما له صحوٌ يكون
قلقُ القلب غذاءٌ ... وعطاءٌ حيويٌّ
إنَّ قلباً ليس فيه ... قلقٌ ، قلبٌ شقيٌّ
أنت للحَضْرة سرٌّ ... ما لها سرٌّ سواك
إنَّها إنْ كُنْتَ حيّاً ... حيثما كنتَ هناك
كَسَّرَ اللؤلؤُ كَسْراً ... كلَّ أصدافِ البُحوز
فلماذا أنتَ يا لؤ ... لؤتي تأبى الظُّهور
مسلمٌ أنتَ وقد ألهبتُ سينائي عليكَ ؟!

أولا يـــزعـــج قـــولـــي : ﴿ أرنـــي أنظـــرْ إليـــكَ ﴾[1]

(٢١)

إنَّهـا الـذَّاتُ إن تمعَّنْتَ بحـرٌ ... مـالـه سـاحـلٌ لِخَـوْضِ جبـانِ
ومحـالٌ تكـونُ جـدولَ أنـسٍ ... ومحـلاًّ لجمـع أهـل الهـوانِ
رُبَّمـا تكسـر السَّمـاء بفـأس ... فبنـاءُ السَّمـاء سبـكُ زجـاج
والـذي يجعـلُ البحـارَ بحـاراً ... تُتَّقـى أنَّهـا محـلُّ الهِيـاجِ
لا يطيـق الجبـان لجَّـة ذاتٍ ... ويغـوصُ الشُّجـاعُ فيهـا ويطفـو
وقـوام الشُّجـاع ليس علـومـاً ... تَـرِبَ العلـمُ فـالشجـاعـةُ لطـفُ
كيـف يستـوعـبُ المنجِّـمُ هـذا ... بطـريـقٍ مكبَّـلٍ بـالنُّجـوم
أنـت مـن طينـةٍ يحـكُّ عليهـا ... سـرُّك الحـيُّ زيـفَ كـلِّ العلـوم
إنَّ فـردوسنـا علـى الأرض هـذي ... فيـه جبـريـلُ لا يغيـبُ وحـورُ
حبَّـذا أنْ تكـونَ ثـاقـبَ عيـنٍ ... حجـرُ العيـن فيـه مـاءٌ ونـورُ
بجنـونـي فهمـتُ عصـري تمـامـاً ... وتحمَّلْـتُ وقعـةً بعـد وقعـه
ألْبَسُ الـدِّرْعَ مـن نسيـجِ جنـونـي ... ليـس ثـوبـاً مـرقَّعـاً ألـفَ رُقْعـهْ
إنَّ شـحَّ الطبيعـة اليـومَ هـذا ... وهـيَ مـن طبعهـا السَّخـاءُ لَعَـارُ
لليـواقيـتِ كـاللَّهيـب احمـرارٌ ... شكـلُ نـارٍ وليـس فيهـا شـرارُ

(٢٢)

جـاءَ مـنْ نَسْمَـةِ الصَّبـاح كتـابٌ ... وأنـا جـالـسٌ علـى عـرشِ ذاتـي
فـإذا فيـه : مبصـرَ الـذَّات أقبـلْ ... صـرتَ فـي رتبـة الملـوكِ الكُمـاةِ
شـرفُ الـرأي ذاكَ جـاءكَ منهـا ... والحيـاةُ الكـريمـةُ المستقيمـه
وحيـاةٌ تكـونُ مـن غيـر ذاتٍ ... أيُّ معنـىً لهـا وأيَّـةُ قيمـة

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى حكايةً عن موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

أيُّهـا الفيلسـوفُ دعـكَ وشـأنـي ... فـأنـا مـدركٌ إلـى أيـنَ أمضـي
لسـتَ مثلـي مسـافـراً كيـف أشكـو ... لـكَ دربـي وأنـتَ فـي غَيْـرِ أرضـي
ليـس سهـلاً إذا الـدَّراويـش حجَّـتْ ... مـن بعيـدٍ إلـى مـدارسِ شعـري
القضـايـا دقيقـةٌ فـاستلمْهـا ... واقـضِ فـي أمرهـا إذا كُنْتَ تـدري
لسـتُ أخفيـك أنَّنـي لـم يَـرُقْ لـي ... ذلكَ العيشُ في طُقوسِ الصَّوامع
لا يصيـد[1] العنقـاءَ صيَّـاد سـوءٍ ... مُلِئَـتْ نفسُـه بـذلِّ المطـامـع
طِـرْتَ أم غُصْـت فـي سمـاءٍ وبحـرٍ ... أم تـراجعـتَ عنهمـا وجَبُنْـتَ
ليـس يـدعـو إلـى الـرِّثـاء وجـودٌ ... كـالـوجـودِ الـذي تعـانيـه أنـتَ
وسـواءٌ ، فـلا تقـل عـربـيٌّ ... كنـتَ أو لـم تكـنْ فليـس يُفيـدُ
سـتـرى الـذكـرَ أجنبيّـاً إذا لـمْ ... يَـكُ للـذِّكْـرِ فـي الفـؤاد شهيـدُ

* * *

(٢٣)

النخلـة الشمَّـاءُ أختُـك كُـوِّنـتْ ... ممـا تبقَّـى مـن بقـايـا طينتِـكْ[2]
أتطوفُ في الحاناتِ تسقي كأسَها ... وتطـوفُ مخنـوقـاً بعلمـانيتـكْ
مـا فـي مـدارسِـك الَّتـي تـرتـادُهـا ... إلا بحـوثٌ مغفَّـلٍ وبليـد
سـرُّ الـدِّراسـةِ فـي فـؤادك كـامـنٌ ... لـو كنـتَ تُتْقِـنُ صَـرْخَـةَ التَّـوحيـد

---

(١) يرى الدكتور كفافي أن اصطياد العنقاء رمز للظفر بأعمق حقائق العِرفان التي تستعصي على الآخرين (المثنوي ، ص١٠٥) .

(٢) في حاشية ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : يرى التراث الإسلامي أنَّ النخلة خلقت من بقايا الطين الّذي خلق منه آدم (عليه الصلاة والسلام) وتسمى (خيمة الإنسان) ويرمز بها إلى آدم أحياناً .
يقول الأستاذ زهير ظاظا (مترجم هذا الديوان شعراً من نثر الأستاذ الملُوحي) يريد الشاعر أن يقول : أيها الإنسان إذا كانت النخلة شقيقتك فمن الّذي سرق نبيذك أيها المسكين . . . إنها العلمانية .

لـم تبـق يـا مسكيـنُ إلا فـرصـةٌ ... لـك فـي استعـادة سِـرِّكَ المفقـودِ
اطلـبْ علـومَ القلـب مـن أستـاذهـا ... واجهـدْ لنيـل مقـامِـكَ المحمـودِ

* * *

إن كـــان زيُّـــك زيَّ سلطـــانِ ... أو كـــان زيُّـــك زيَّ مسكيـــنِ
فغِطـــاؤنـــا لا رأسَ يَحْمِلُـــه ... فيليـــق إلا رأسُ شـــاهيـــنِ
ليـــس النُّجـــوم بـــرغـــم لعبتهـــا ... مســـؤولـــةٌ عـــن هـــدم أمجـــادكْ
بـــل مـــوتُ ذاتِـــكَ بعـــدمـــا شَقِيَـــتْ ... مـــا بيـــن قُمْقُمِهـــا وأصفـــادِكْ
أنـــا آســـفٌ جـــدّاً ويُحـــزِنُنـــي ... غضبـــي علـــى ديـــري ومـــدرستـــي
ضـــاعـــتْ هنـــاك بصيـــرتـــي وذوى ... حبِّـــي وأظلـــم دربُ معـــرفتـــي

* * *

(٢٤)

دواءُ البصيـــرة ـ هـــذا الـــدواء ـ ... رجـــاؤك فـــي كشـــفِ داءِ البصـــرْ
ومـــا العقـــلُ إلا جـــدالُ العلـــوم ... وحـــربُ الظُّنـــونِ ورجـــمُ النَّظـــر
مصيـــرُكَ أرفـــعُ مـــنْ وقفـــةٍ ... وأوّلُ معنـــاه ذوقُ السَّفـــر
وســـرُّ الـــلآلـــىء خُلْـــدُ البـــريـــق ... وإلا فمعـــدنُهـــا مـــن حَجَـــرْ
ومـــا هـــي جـــدوى دمٍ فـــي العـــروق ... إذا كـــانَ يطفـــىءُ نـــارَ الفِكَـــرْ
فقـــلْ للشَّقـــائـــق فـــي خِـــدْرِهـــا ... تجلَّـــيْ فـــإنِّـــي نسيـــمُ السَّحَـــرْ[١]
ومـــا عـــدَّه الغـــرب سقـــطَ المتـــاع ... بمـــذهبنـــا رأسُ مـــال الظَّفَـــرْ
يقـــولـــون إقبـــال فـــي فقـــره ... غنـــيٌّ علـــى أيِّ كَنْـــزِ عثـــرْ
وعـــالَمُـــهُ لَهَـــبٌ كلُّـــهُ ... ولا يمنـــحُ النَّـــاس إلَّا الشَّـــررْ[٢]

---

(١) المقصود قل لهذه المتعلمنة : لا تخافي يا أنتِ تعالي إليّ فلن أعصف بك أنا لست إلا جمالاً وعطاءً أنا نسيم السحر ولست ريح الظهيرة .

(٢) البيت من روائع إقبال ومعناه : لا جدوى لك من لهب إقبال إذا كنت غير قابل =

أعينُ الدَّرويش لم تعبأ بما أظهرتْ أبَّهةُ الإسكندرِ
هذه التِّيجان ما قيمتُها وهي تستجدي نساءَ البيدرِ
كيف لا تيأسُ ترجو صنماً ومنَ الله تعالى تيأَسُ
أنتَ هل تعرف كفراً آخراً غير هذا أيها المنتكسُ
أنا لا أفهم ما قصدُ السَّماء وهي بالسُّلطة لو شاءتْ تطيح
تهبُ السُّلْطةَ من لا يملكون أيَّ مفهومٍ عن الشَّعْبِ الجريح
وحدَها النظرةُ ما أطلبُه وشؤونَ القَلْب عنها تَصْدُرُ
نظرةٌ خاليةٌ من جذبةٍ نظرةٌ فارغةٌ لا تَسْحرُ
وأنا منْ أجلِ هذا كلِّه باعتزالِ القَصْر محكومٌ عليّ
أنا لا أجهل ما تَقْصِدُه ومصيرُ الكلِّ معلومٌ لديَّ
مع هذا لا أرى منْ زاهدٍ مالهُ مِنْ طَمَعٍ في السُّلطةِ
أنا لا أقتلُ ذاتي هكذا أنا حرٌّ سُلْطتي في خِلْطتي
وحياتي عندما شرَّدتُها أرْضَتِ النَّاسَ جميعاً كَلِمي
قيمةُ الأشعارِ هذي أنَّها خطراتٌ في قلوبِ الأُممِ

* * *

= للاشتعال .

إقبال لا يرضى أن يكون شعلة في يد الآخرين .

« إقبال يشعل ولا يضيء »

وسيأتي قوله :

حطب الموقد الغليظ مملٌّ وأنا رغبتي بحرق الدقاقِ
أنا لا أمنح الحصاد لحقلٍ عملي الفرد والوحيد احتراقي

(٢٦)

لستَ لهذي الأرضِ والسَّماءِ وإنَّما السَّماءُ والأرضُ لكَ
ولستُ موضوعَهُما وإنَّما هذان جانبانِ منْ موضوعِكَ
تطلُّعُ العقلِ ووجدُ القَلْبِ شرارتان من لهيب الحبِّ
والعُشْبُ موجودٌ ليحرقاهُ في ذلك السَّهلِ الخصيبِ الرَّحْبِ
والرُّوض هذا بقعةٌ تصطفقُ بصرخةٍ وزفرةٍ تنطلقُ
أعشابهُ ليستْ لصنعِ عشٍّ كلُّ الجمال عندما تحترقُ
حتَّى متى مركبُ هذي الذَّاتِ يمخُرُ في النِّيل وفي الفُراتِ
قُدِّرَ أن يركبَ بحراً ماله من ساحلٍ في هذه الحياةِ
فكيفَ عند هؤلاءِ رغبةٌ بأنْ يدلَّها المدارُ الحائرُ
ركَّابُهم بالرُّغم من نشاطها يَنْقُصها اليومَ دليلٌ ماهرُ
ألحاظُ موهوبٍ وعينٍ ثاقبه وسحرُ ألفاظٍ وروحٌ لاهبه
كلُّ الَّذي يملكهُ منْ عُدَّةٍ قائدُ هذي القافلاتِ الذَّاهبه
فيا لحسنِ فارسٍ ووحيهِ ويالكأسِهِ ويالغصَّتي
بحثتُ طولَ العُمْرِ في بستانه فما وَجَدْتُ زينةً لِقِصَّتي
تَرْقُد في حَنْجَرتي أغنيةٌ لو قلتُها لحيَّرت جبريلا
أحرصُ أن تبقى هنا مطويةً هناكَ سوفَ أنْقَعُ الغليلا

* * *

(٢٧)

لستَ يا أنتَ في الفضاء سجيناً لستَ دمعاً على منازلِ رسمِه
يَشْهدُ الحرُّ أنَّ سرَّ التَّجلِّي بين صَلْصالِه وهيكلِ جِسْمِه
لا يخاف البستانُ شَهْرَ خريفٍ فلماذا مَلأتَ بالخوف عشَّكْ
يرقص العشُّ في السَّماء لهيباً عندما تحرِقُ الصواعقُ قشَّكْ
الحياةُ الحياةُ لفظةُ سرٍّ مـلأتْ عالَم القَلَنْدرِ طيبا

إنَّها السَّهمُ منذ كانت رَمْتُهُ ومن القوس لا يزالُ قريبا
لا تعيقُ النُّجومُ سرَّك هذا فسماءُ النُّجوم غيرُ سمائك
أخْطُ في الموقع الذي أنت فيه لترى زرقةَ السَّماءِ بمائك
لا تقلْ للدَّليل دعني لوحدي إنَّ أمراً كمثلِ هذا بديهي
لا يطيقُ الكريمُ ذلَّ سؤالٍ فاجتهدْ وَحْدَكَ اجتهادَ فقيهِ

***

(٢٨)

تأمُّلُ فيلسوفٍ كلُّ ما أعطانيَ الفِكرُ
ولولا الحبُّ ما أدركتُ ما يضَّمَّنُ السَّكرُ
ونظرتُهُ هي الشَّررُ المُشِعُّ بمحفلِ القلب
بلا دنٍّ ولا خمر تدور كؤوسُها جنبي
تظنُّ تنافُر الكلماتِ مِنْ شعري ومنْ أدبي
فحانتنا على علمٍ بما مزَّقت منْ حُجُبي
إليكَ البرعمَ الظَّامي لِمَقْدَمِ نسمةِ الصُّبْحِ
تأمَّلْه تجدْ فيه حكايةَ ذلكَ الجُرْحِ
غيابٌ أم حضورٌ لستُ أدري ما أكابدُه
فهلْ منْ بينهم أحدٌ يشاهدُ ما أُشَاهِدُه
هنا يا أنتَ كلُّ الناس يعرِفُ بعضُهم بعضا
هنا إلا أنا فيهم غريبٌ يُنْكِرُ الأرضَا
وكنتُ بقصرِ أوريَّة منَ المُمْكِنِ أن أبقى
شريطةَ تحمُّل الصَّحراء حين أُجنُّ ما تلقى
مضى إقبالُ هوناً في دروبِ الفِكْرِ واجتازا
ولما جاءَ دربَ الحبِّ مالَ القلبُ وانحازا

(٢٩)

وأخيـــراً انتبهـــتُ ولبَّـــتْ صَـــرختـــي هـــذي السَّمـــاءْ
وسمعـــتُ مـــا قـــالـــوا : أخيـــراً ســـوف يَنْكشـــفُ الغِطـــاء
للعـــاشقيـــن حكـــايـــةٌ وتكـــاد تتَّفِـــقُ الحكـــايـــه
نـــارٌ وحـــزنٌ وانفجـــارٌ فـــي البـــدايـــةِ والنِّهـــايـــهْ
فـــانظـــرْ إلـــى قَـــدَرِ الشُّعـــوب وكيـــف يبـــدأُ بـــالسُّيـــوف
فـــإذا انتهـــى فـــإلـــى المـــزاميـــر الشَّجيَّـــة والـــدُّفـــوف
حـــانـــاتُ أوربَّـــة كـــذلـــك والغـــريـــبُ طقـــوسُهـــا
السُّكْـــرُ يبـــدأ أولًا وتـــدورُ بعـــدُ كـــؤوسهـــا
سِيَّـــانِ تيمـــورلنـــك فـــي سُلْطـــانـــه سلطـــانِ نـــادرْ
الكـــلُّ تسقطُـــه أخيـــراً سَكْـــرةُ الـــزَّمـــنِ المُبَـــادرْ
ولَّـــىٰ زمـــانُ الـــوَحْـــدة المطـــروح فـــي دَرْبِ الفنـــاءْ
خـــرجـــتْ أخيـــراً مـــن صـــدور الغَيْـــم عـــاصفـــةُ البقـــاءْ
لـــم يتحمـــل مـــوجـــةَ الشَّطحـــاتِ هـــذي أيُّ ســـاحـــل
هتكْـــتَ يـــا مجنـــونُ أســـرارَ الكتـــابِ بغيـــرِ طـــائـــل

(٣٠)

يـرحـلُ كـلُّ كـائـنٍ ويـذهـبُ — حـوتٌ وطيـرٌ ، لجـةٌ وكـوكـبُ
وأنـــتَ أنـــتَ فـــارسُ الميـــدان — وقـائـدُ الجيـوشِ فـي الـزَّمـان
يـــا سيِّـــد الجبـــالِ والصَّحـــراء — جنـدُك فـي الأرضِ وفـي السَّمـاء
أهكـــذا قيمتُـــك الـــذَّاتيـــة — هـــدرتُهـــا وروحُـــك الفتيَّـــه
فيـــا لهـــا بصيـــرةٌ فـــي كـــدرِ — ويـالـه مـن قِصَـرٍ فـي البصـرِ
لا تعبـــدِ الأرضَ فـــإنَّهـــا لَكـــا — كـنْ راهبـاً إنْ شئـتَ أو كُـنْ مَلكـا
لا شـــكَّ فيمـــا قُلْتُـــهُ ولا جَـــرَمْ — فقـد رأيـتُ اليـوم سيِّـدَ الحَـرَم
قـــولٌ بـــلا فِكْـــرِ ولا إشـــاره — وعمـــلٌ تَنْقُصُـــه الحـــراره

كـلُّ شـيءٍ إلـى التَّجَسُّـدِ يسعـى رغبـةً فـي النُّمُـوِّ يهلـكُ نفسَـهُ
وحيــاةٌ بغيــر ذوقٍ ظهــورٍ يحتويها ، يسومها الموتُ بؤسَهُ
قُـوَّةُ الـذَّات قـوةُ الـذَّات سـرٌّ يَهَـبُ النَّصـرَ فـي الحيـاة لأعـزَلْ
خَـوَرُ الـذَّات يجعـل السَّيـف عبثـاً ويـرى فـي الجبـالِ حبَّـة خـردلْ
شـرَّدتْ نفسَهـا النُّجـومُ ولكـنْ ليـسَ يعنـي ضـلالـةً واختـلاطـا
لفـراقٍ يـؤولُ كـلُّ وجـودٍ ليس عـن صُـدْفةٍ وليس اعتباطـا
يظهـر البَـدْرُ آخـر الليـل فـردا أصفـرَ الـوجـه فـي السَّمـاء وحيـدا
كـلُّ نـورٍ أخَـذْتَـه مـنْ غـريـبٍ سـوف تخبـو بـه رويـداً رويـدا
قلبُك الشَّمسُ فـاقْبِسِ النُّورَ منه كـلُّ مـا تـرتجيـهِ نفسُـك عنـدكْ
كـلُّ شـيءٍ سـواك ـ أنـت ـ سرابٌ شَهِـدَ اللهُ أنَّـك الحـقُّ وَحْـدَك
شـوكُ صحـرائنـا يحـلُّ بلطـفٍ عِقْـدَ السَّـالكيـن مـن حيثُ يُـدمي
فـامضِ فـي الشَّـوك حـافياً وتقـرَّح لسـتَ تنجـو بـلا جنـونٍ وحـزمِ
لغـزُ هـذي التَّـداخـلاتِ وإنْ لـم يستطـعْ أن يفكَّـه العِلْـمُ كلُّـهُ
شـوكُ صحـرائِنـا يغـورُ بـرفـقٍ وبـأسلـوبِـه اللَّطيـفِ يحلُّـهُ

(٣٢)

مـا لِمُلْـكِ الغـرب خُلْـدٌ بَلَـغَ العَصْـرُ أشُـدَّهْ
كلَّمـا شيَّـد صـرحـاً ضَحِـكَ الشـرق وهـدَّه
عنـدمـا أنهيـتُ عشـيٍّ قيـل هـبْ للعُـشِّ ذاتـا
صـرخـاتُ العُـشِّ بـرقٌ تمـلأ العُـشَّ حيـاةَ
أنـتَ عبـدُ الله فـالـزمْ ليـس للحـرِّ تحـوُّلْ
مـا عـدا عـزَّ العبـوديـة لله تسـوُّلْ
سيِّـدُ الأحـرارِ عبـدٌ حـرم الله بـذاتِـهْ
فـاحفـظِ الـذَّات وصُنْهـا إنَّهـا مـنْ عَتَبـاتِـهْ
كيـفَ (إلا الله) لـم تَـدْمَـغْ أسـاطيـرَ مسطِّـرْ

أيـــنَ ذاك الكَلِـــمُ الطيِّـــبُ والطَّبـــعُ المُسَيْطـــرْ
كـــمْ قلـــوبٍ فـــي صـــدورٍ ذُعِـــرَتْ مـــنْ نَظْـــرَتِـــك
درس العلـــم اللَّـــدُنِّـــي وذوى فـــي فطـــرتـــك
ربمـــا أشـــرفَ إقبـــال علـــى الســـرِّ القـــديـــم
حـــدَّث السِّـــرُّ حـــديثـــاً كحميـــمٍ لحميـــمْ

(٣٣)

لِمَ تسألون القومَ ما هو مصدري ؟ وأنـا بنفسـي لـم أُحِـطْ بمصيـري
ما زلتُ منذ وُجِدْتُ أشرقُ سائلاً وأغيبُ فـي وَجْـدي وفـي تفكيـري
الحـرُّ يَسْمـو فـي الحيـاةِ بـذاتـه ويصـوغُ مـا يختـارُه مِـنْ أمـره
يـا أنـتَ حتـى اللهُ جـلَّ جـلالـه أفتـى بـرأي كليمِـه فـي عمـره
أسـرارُ روحِـك جَـدُّ سيمـائيـة فَلِمَ النِّزاع على هياكلَ مِنْ حَجَر
بلهيـبِ أنفـاسـي الَّتـي أطلقْتُهـا شـاهـدتُ مـا تخفيـه أعمـاقُ القَـدَر
سِـرِّي تتـرجمـه سـلاطـةُ أعينـي لا تسـألـونـي مـن تكـونُ ومـا هـي
لـو أن (نيتشـه) جـاءنـي بحمـاسـهِ لأريتُـــه (زردشتَـــه) وإلهـــي
صرخاتُ وَجْدي في الصَّباح تلَطَّخَتْ بـدمـي ولـم أسْمَـعْ لهـنَّ جـوابـا
ربَّـاه ! أيُّ جـريمـةٍ قـارفتُهـا لأكـونَ مـن قتلىٰ الصَّبـاحِ عقـابـا

(٣٤)

تَـدَخُّـلُ الحـبِّ بـأطـوار السُّلـوكْ يكشـفُ للعبيـدِ أسـرارَ المُلـوكْ
مـا كـان للـرازيْ وَلِلْغـزالـي والـرُّومـيْ والعَطّـارِ مِـنْ نـوالِ
لـو لـم يعـانـوا رغبـةَ الصِّيـاح وصـرخـةَ الحيـرةِ فـي الصَّبـاح
فيـا رئيـسَ الـرَّتْـل كـنْ حليمـا لا يقتـلُ اليـأس فتـىً حكيمـا
تنقُصنـا شجـاعـةُ الـرَّسـولِ لا تَنْقُـصُ الـرَّغبـةُ فـي الـوصـولِ
إيـاكِ يـا قُبَّـرتـي مـن التَّلـفْ فالموتُ خيرٌ لكِ من هذا العَلَفْ
يُعَـزْقِـلُ الجنـاحَ أن يطيـرَ وربَّمـا يتـركُـه كَسِيـرا

أعــزُّ مــن أبّهــة الإسكنــدر ومـلــك (دارا) نظــرة القَلَنْــدَرِ
دَرْوشــةٌ تَنِــمُّ عــن قلــبٍ ملـيْ فيــه عبيــرُ أَسَــدٍ علــيّ
شــريعــةُ الشجعــان هــؤلاء الجهــرُ بــالحــقِّ بــلا رِيــاء
ومــا لهــؤلاءِ قــطُّ غــالــبُ هــذي أســودُ اللهِ لا ثَعــالِــبُ

* * *

(٣٥)

جـاءَ مـنْ عِنْـدِهـم كتـابٌ جـديـدٌ صــرخــة الليــل أوصَلَتْــه إليَّــا
فــإذا فيــه : يــا مســافـرُ أمْسِـكْ وتفكّــرْ بمــا قَطَعْــتَ مليّــا
ربمــا كُنْــتَ ذاهبــاً مــن جـديـدٍ فـي طـريـقٍ كمثـلِ تلـكَ عَسِيْره
غُـصنْ طـويـلاً فـأنـتَ أيضـاً عميـقٌ وافهــم القَصْــدَ فــالحيــاةُ قصيــرة
أنا (سيفاً خرجت) من غير غِمْدٍ ضـاعَ فـي غَمْـرَة المعـاركِ غِمْـدي
يجـرحُ النَّـاسَ منظـري مـن بعيـدٍ ويخـوضُـون فـي مـرامـي وقَصْـدِي
أيُّ مُنْتَهِتِــــرٍ بكــــلِّ مــــلامِ خطَّ فوق المِحْرَابِ تلكَ الحروفا
(هــذه الأغبيــاء تسجــدُ لمَّــا يقتضـي الأمـرُ أنْ يكـونـوا وقـوفـا)
امْـضِ يـا شـاهـدَ الشَّقـاءِ بصمـتٍ إنْ تكنْ موضوعي لمزّقْتَ نفسك
بعـدمـا الحفلـةُ انتهـت وتـوَلَّـوا جاء دوري وقيل : كأسَكَ كأسَك
وهــبَ المسلميــن إقبــالُ نــاراً فـإذا النَّـار ذاتُهـا فـي ذُبـولِ !!
مـا على الكـأسِ فـي الحقيقـةِ لـومٌ خـامـلٌ طـافَ بيـن أهـل الخمـول
ذاك إقبــالُ كنــتُ أبحــثُ عنــه وهــو مُسْتَعْصِــمٌ بحصــنٍ ورُخِّ
وأخيــراً وبعــد لأيٍ طــويــلٍ وقـع البـازُ فـي حبـائـلِ فخِّـي

(٣٦)

أنــا لــولا مــوجــةُ الــرَّغْبَــة لــم تــوجــد حيــاتــي
فحيــاتــي مــوجــةُ الــرَّغبَــة فــي أعمــاقِ ذاتــي

كــــلَّ حيـــنِ عــــالمـــي يَضْطـــرُّنـــي أطلـــقُ وَجْـــدي
عـــلَّ إنســـانـــاً جـــديـــداً يحمـــلُ اللَّـــوعـــة بعـــدي
ممكـــــــنٌ للنَّـــــار أنْ تحـــرِقَـــهُ عشَّـــك هـــذا
تســـألُ السَّـــاقـــي إذا لـــم تـــكُ ظمـــآنـــاً لمـــاذا
لا تقـــلْ فـــي الغَـــزْبِ رأيـــاً ببـــريـــقٍ يتعلَّـــق
مـــاسُـــه مـــنْ كهـــربـــاء جعَلَتْـــهُ يتـــألَّـــق
لا تتـــوقُ النَّفـــسُ أنْ تَحْكُـــمَ آفـــاقَ الفَضـــاء
حيـــنَ لا تتَّصـــف الأبصـــار حقَّـــاً بـــالمَضـــاء
أنـــا لـــو لـــم تسقـــطِ الأوراقُ عـــن عشِّـــي اللَّطيـــف
عَجِـــزَ الصَّيـــادُ عـــن صيـــدي ولـــو وقـــتَ الخـــريـــف
عـــن قـــريـــبٍ تَقْلِـــبُ النيَّـــاتُ أقـــدارَ الخـــلائـــق
ليـــس أوهـــامُ غبـــيٍّ إنَّهـــا جـــدٌّ حقـــائـــق

* * *

(٣٧)

العقـــلُ هـــذا ليـــس يَقْهَـــرُ وسعُـــه وســـعَ الطبيعْـــه
وجهـــاً لـــوجـــهٍ ضَعْهُمـــا وانظـــرْ لقـــوَّتهـــا المطيعـــهْ
الحـــقُّ : أنَّـــك قـــد أضعـــتَ الـــذَّاتَ فـــاطلـــبْ مـــا أَضَعْتَـــا
وعلـــى العطـــورِ وعـــالـــمِ الألـــوان سيْطـــرْ مـــا اسْتَطَعْتَـــا
وانظـــر مقـــام القبّـــة الـــزرقـــاء ليـــس لـــه حـــدود
واختـــرْ مَقـــامـــاً مثلـــه يَسْمـــو بـــذاتِـــك فـــي الـــوُجـــود
أشجـــارُ حَـــوْرِكَ عـــاريـــاتٌ حـــول قـــارعـــةِ الطَّـــريـــق
أوقـــفْ تمـــزُّق وردك الظَّـــامـــي وتحطيـــمَ الشَّقيـــق
لـــم يستطـــعْ ذوقُ الطبيعـــة أن يـــؤكِّـــد وسْعَـــهُ
اصْنَـــعْ بِـــذَوقـــكَ أنـــت مـــا لـــم تستطـــع هـــي صُنْعَـــه

(٣٨)

شيوخُ القومِ أجدرُ بالرِّثاءِ ... وأربابُ الكنيسةِ في سواءِ
حصادُ جهودِهم ظلماتُ شكٍّ ... جَرَتْ في قلبهم مجرى الدِّماء
بنفسك ثِقْ تجدْ (نغفور) عبداً ... ويسألُ عن رضاك (ابنُ السماء)[1]
أنا حزني على هجري تبدَّى ... بآلافٍ من الطُّرُقِ الدَّقيقهْ
بسكرةِ قربه ، بصُراخِ وَجْدٍ ... رَجَعْتُ به ، بدهشته السَّحيقهْ
ومن يكُ شأنُه حبّاً وسكراً ... تجاوزَ حدَّ إدراكِ الحقيقه
جرى قدرُ الجمالِ بكلِّ قلبٍ ... إذا كان الهوى كانَ الجنونُ
وذنبُ الرَّاجعين بلا نصيبٍ ... من الحسناء تفضَحُه العيونُ
أما كانت بنو تيمور تركا ... بنو عثمان أتراكٌ كذاكا
أولئك في ترابِ السند ضاعوا ... وصخرُ أولاء مرتفعٌ هناكَ
بمَ النُّسَّاكُ في الحَرَم استبدَّت ... بإقبال الذي هَجَرَ القُصورا
ولم تَقْوَ الملوكُ عليه يوماً ... وقد ملأتْ عوالمَهَا نُسورا
فما هو سرُّهُ ؟ الشَّاهين هذا ... ملوكيٌّ لجينيٌّ خفيفُ
يطيرُ على القُصور فيزدريها ... ويدمي قلبَه الحَرَمُ الشريف

(٣٩)

العلمُ أطْلَقَ الحياةَ الراقدهْ ... في شعوذاتٍ من عصورٍ بائدهْ
من كلِّ سحرٍ عصرنا مُحاشُ ... بلا عصا الكَليمِ لا يُعاشُ
ذو العقلِ مثلُ نصلِ سيفٍ عقلُهُ ... بألفِ أسلوبٍ يتمُّ صقلُهُ
والحبُّ مسكينٌ شريدٌ زاهدُ ... ومالَهُ إلا طريقٌ واحدُ
حُجَّاجُه تَظَلُّ في تلهُّفِ ... لا يعرفونَ تَرَفَ التوقُّفِ

---

(١) ابن السَّماء : إمبراطور من أباطرة الصين ، وكذا نغفور ، وللأخير تنتسبُ الكؤوس النغفورية التي يُضرب بها المثل بالجودة والندرة .

مسافرون دائماً وإنْ هُمُ ... بدوا مقيمين لم يراهُمُ
ليس يسيراً هاهنا انتقالُكَ ... بالزاد والمطيّة انشغالُكْ
وأنت لو ألقيتَ ذلك الثِّقَلْ ... لكنت كالنَّسيم تعبُرُ الجَبَلْ
يا أنتَ ! ثروةُ الحكيم طرًّا ... في أنْ يعيشَ ويموتَ حُرّا
والآخرون جَهْدُهم مُنْتَهبُ ... نفوسُهم كما يريدُ الذَّهبُ
أرواحُهم ترزحُ في المصائبِ ... ورأسُمالهم من الضَّرائبِ

(٤٠)

حياةٌ تُمزِّق صَدْرَ الفضاءْ ... يصاحبُها ركبُها المستمرّ
مغامرةٌ خلفَ أخرى تخوض ... وقافلةٌ خَلْفَ أخرى تمرُّ
كذلك حبُّكَ لا ينتهي ... ولا تَسْتَقِرُّ معاناتُه
هناكَ تجارِب أخرى له ... إذا هي زالتْ سمواتُه
إذا ضاع عُشٌّ فلا تكتئبْ ... ففي روضنا ألفُ عشٍّ لكَ
ولولا بساتينُ أخرى هناكَ ... لكنتُ بكيتُ له مثلكَ
فَطِرْ ليس لِلْبَاز أن يستريحْ ... ولا تبكِ عشَّاً رماهُ القَضاءْ
ففي دَرْبنا ألفُ قلبٍ جريحْ ... وألفُ مناسبةٍ للبكاءْ
سمواتُنا تلكَ لا تنتهي ... وأنت قُصاراك في أن تَطِيرْ
فإيَّاك أغلالَهم إنَّها ... تضيِّعُ نَكْهةَ هذا المسير
أنا قد تخلَّيتُ عن حُمْقِهم ... والقَيْتُ في وجْهِهم وَخْدَتي
وأصبحتُ لي أصدقاءُ هناك ... بأخبارِهم ترتوي جَلْوَتي

***

(٤١)

(نظمت في فرنسا)

يرى الغرب أنَّ بقاءَ الرَّفاه أن يستمرَّ بهذا النَّهجْ

فكـــم يفعــلُ الطَّيــشُ فــي عقلــه ويُنْقِـــصُ رغبتـــه مـــنْ نُضــجْ
لقــد بلغــتْ صــرختــي أوجَهــا كـــذلــكَ أعْلَـــنَ شيــخُ الحَــرَمْ
وحـــذَّرنـــي اليــومَ مـــنْ كَتمِهــا لِتَسْمَـــعَ ذلـــكَ كـــلُّ الأمــمْ
أنــا لــم أقــل ﴿ أرنــي ﴾ مــرةً كمـــوســـى لأعـــرفَ أســـراره
فمـــوســـى جـــديـــرٌ بـــإلحـــاحِـــه ومثلـــي جـــديـــرٌ بمـــا اختـــاره
وبـــالـــرُّغْـــمِ مــن أنَّ أهــل القلــوبْ تُهتِّـــك أســـرارَهـــا فـــي البـــلادْ
فـــإنَّ الطـــرائـــق هـــذي الجـــريئـــة يَصْعُـــبُ إطـــلاقُهـــا للعبـــادْ
تضـــرُّعُ حـــاشيـــة الســـالكيـــن عيـــونٌ ضعـــافٌ وقلـــبٌ هلـــوعْ
فـــأيـــن الحمـــاســـةُ أيـــن النَّضـــارةُ أيـــن السَّكينـــةُ أيـــن الـــدُّمـــوعْ
أنــا لــم أزل عَطِشــاً مــا ارتــويــتْ كمِثْلِـــكَ عطشـــان لـــم تـــرتـــوِ
هـــو الحـــبُّ أسمـــى صعـــودٍ لنـــا ولكنَّنـــا فيـــه لـــم نَنْضَـــوِ
نهضنـــا بـــأسلـــوبِ درويشنـــا فكـــانَـــتْ لنـــا أرضـــرومُ وشَـــامْ
ولمـــا زَهِـــدْنـــا بـــأسلـــوبـــه ذهبنـــا دواليـــكَ خلـــفَ الأنـــام

(٤٢)

ذاتَـــك فـــالـــذَّاتُ الَّتـــي تَـــدْعَمُهـــا معـــرفـــةٌ يغبطُهـــا جبـــريـــلُ
وإنْ أضــافَ الحـــبُّ عـــونـــاً أطْلَقَـــتْ فـــي النَّـــاس مـــا يُطْلِـــقُ إســـرافيـــلُ
أنـــا خليـــلُ هـــذه الأصنـــام وعُـــدَّتـــي معـــرفـــةُ الأيـــام
فـــي النَّـــارِ ألقَـــوْنـــي كـــإبـــراهيـــمَ فكنـــتُ فـــي النِّيـــران فـــي نعيـــم

* * *

قـــافلـــةُ القَـــوْم بـــوضـــعٍ يـــؤســـفُ حـــائـــرةٌ يَسْحَـــرُهـــا التـــوقُّـــف
ورُغـــمَ هـــذا غِبْطـــةُ السَّيـــاحـــه تجـــاوزتْ غِبْطـــةَ تِلـــك الـــرَّاحـــه
أنـــا علـــى شِعْـــري شـــديـــدُ الغيـــرهْ فقـــمْ إذا كنـــتَ بـــلا بصيـــره
أنـــا مجـــالـــي الـــذَّاتُ فـــي مشـــاعـــري نبيلـــةٌ كحـــدِّ سيـــفٍ بَـــاتـــر

* * *

تـذكـرتْ روحـي دروسَ الغَـرْبِ أيـامَ حـوره سَكِـرْن جنبـي
فـآهٍ يـا لفـرحـةِ الحضـورِ وآهٍ مـن منطقـه المَغْـرُور

* * *

هـذا الـزَّمـانُ ليلُـه شـديـدُ وأنـتَ عـن قـافلتـي بعيـدُ
لهيبُ زَفْرتـي هـو المصبـاح لـكْ يُبَـدِّدُ الليـلَ وَيَقْشـع الحَلَـكْ

* * *

حكـايـةٌ ليـس لهـا نظيـرُ بسيطـةٌ لكنَّهـا تُثِيـرُ
ثبـاتُ إسمـاعيـلَ مُبْتَـداهـا ومَقْتَـلُ الحسيـنِ منتهـاهـا

* * *

(٤٣)

غصنُ العَقيـدة فـي المـدارس عـارِ ومـذاقُ أديـرةٍ بـلا أسـرار
بالرُّغم من طُول الطَّريق وعُسْره عينـاكَ ظـاعنـةٌ وقلبُـك سـارِ
أسفـاً لـديـنٍ ليـسَ يَكْسِـبُ دولـةً ولـدولـةٍ وقفـتْ كخيبَـر وجهـه
مـن أيـنَ لـلاثنيـن كـرَّةُ حَيْـدَر يلقـي سخـافتهـا ويُصْلِـحُ فقهَـهُ
لا تبلـغُ العلمـاءُ بـاطـنَ مـؤمـنٍ ومـذاقَ رغبتـه ولطـفَ تـأمُّلِـهْ
أسـرارهُ فيمـا وراءَ حُـدودهـم وجمـالُـه فيمـا وراء تجمُّلـه
وعجـوزُ حـانتنـا يقـولُ مـؤكِّـداً عـن صـرحِ أوربَّة المضـيءِ المعتمِ
هـذي المـرايـا مـن جليـدٍ مـا لهـا وُسْـعٌ لِتَعْكِـسَ نـورَ قلـبِ المسلـمِ

(٤٤)

الحـادثُ المحجـوبُ قَبْـلَ ظهـوره للنَّـاس تُعْلِنُـه نقـاوةُ مُهْجَتـي
لا حـظَّ لـلأفـلاك مـن دورانهـا فـالسـرُّ مظهـرُه جسـارةُ صَـرْختـي
أَتـرى بـلا روحٍ شـرارةَ أنّتـي أم أنَّ عُشْبَـك مـا يـزالُ نـديّـا

صرخاتُ هذا القلب في صَلْصَاله تُـذْكـي لهيبَـك بكـرةً وعَشِيَّـا
لـن يَخْمُـد اللَّهـبُ الـذي فـي طينتي حتَّـى يُحـرِّر كـلَّ شـيءٍ فيهـا
بـالـرُّغـم مـن قَـدَرٍ قـد ارْتَبَكَـتْ بـه فُضِحَـتْ شيـوخُ السُّكـر فـي ناديها

(٤٥)

مـا وَجَـدْنـا وقـد بَحَثْنـا كثيـرا في حـواشـي الصُّـوفـيِّ إلا غُبـارا
يـدَّعـي أنَّـه يخـوضُ حـروبـاً كبَّـدَتْـه هـزيمـةً وشَنَـارا
كيـفَ زالـتْ حـرارةُ الحـبِّ عنـه وارتضـى هـذه الحيـاةَ السَّقيمـهْ
حـربُـه لـم تكـنْ لِيَغْنَـم شيئـاً وقُصَـاراه أن يكـونَ غنيمـه
كُتُـبُ القَـوْمِ عنـده فـوقَ بعـضٍ يصـلُ الليـلَ حـولهـا بـالنَّهـار
مـا تبقَّـى لـديـه إلا حكـايـا أوليـاءَ يقـولُهـا للصِّغـارِ
مـا تعجَّبـتُ أنْ يشيـعَ خـرابٌ فـي الـزَّوايـا وفـي تكـايـا السُّلـوك
عجبـي مـن نهـايـةٍ مثـلَ هـذي كيـفَ دبَّـت إلـى قُصُـورِ الملـوك
امْـضِ يـا شـاهـدَ الشَّقـاء بصمـتٍ أيُّ يـومٍ مضـى عليـكَ كيـومـي
مثـلَ سَجَّـادةِ الصَّـلاة نفـاقـاً يَطْفَـحُ التَّـاجَ فـي منـازِلِ قـومـي
الكتـابُ الَّـذي يمـوجُ بيـاضـاً والَّـذي عنْـد كـلِّ مُـلاًّ وصـوفـي
يمـلأُ الحشـرَ حيـرةً وارتبـاكـاً ووقـوفـاً يكـونُ مثـلَ وقـوفـي
وسـواءٌ كـان ابـنُ آدم هـذا عـربيّـاً أم لا ، معـانيـه بيـضُ
وعـنِ العَـالَـم الَّـذي هـو فيـه وعـنِ العـالـمِ الأخيـرِ يفيـضُ
ذهبـتْ سكـرةُ المسـاء ولكـنْ نظـرةُ السَّـاقـي فـي الفـؤاد كنصْـلِ
ولهـا فيـه طعنـةٌ بعـد أخـرى فَسَلُـوهُ فـديتُـه لِـمَ قَتْلـي ؟
لا يـذمُّ البستـانُ مُـرَّ غنـائـي يَصْبُـغ الـرُّوحَ مِنْـه لـونـاً فلـونـا
رُبَّ سُـمٍّ يكـونُ تـريـاقَ داءٍ ودواءٍ يكـونُ للـدَّاء عَـوْنـا

* * *

(٤٦)

أقصى مواهبِ أوربّةَ النشيطةِ أن تَقْلِبَ العَصْرَ في ليلٍ من التِّيهِ
كم وردةٍ قصفتْ في روضنا يدُها ما مزَّقت طوقَ زرٌّ واحدٍ فيه
حرارةُ الحبِّ من خمر اليقين وما لمنكرِ الحبِّ إلا الوهمُ يُفْنِيه
هَبِ المدارس يا رباه حُرْقَتَها فحسنُها باردٌ لا رُوحَ تُذْكيه
متى سمواتُنا تنشقُّ وَرْدَتُها متى ابنُ آدمِنا هذا ترقِّيه
هذي السَّماءُ التي أغرتْ كواكبَنا اللاَّزَوَرْديَّةُ المجنونةُ الفَرِحَةْ
سماءُ شيطانٍ ما فيها ملائكةٌ رأسٌ منيرٌ واكنْ نظرةٌ وقحةْ
العقلُ حجَّتنا طُرّاً فما أحدٌ إلا وَلِلْعَقْلِ مصباحٌ بمذهبه
هذا الجنون - ومن يدري حقيقتَه - لعلَّه هو أيضاً أن يُصاب به
العقلُ عند جميع النَّاس منهجُه ولم يكن من خصوصيات إنسان
والمؤمنُ الحقُّ هذا الكونُ أجمعُه ميراثُه ، وأنا - لولاك - برهاني

(٤٧)

ليسَ سهلاً فَقَبْلَ بدئِك فارجعْ يرفضُ البَحْرُ أن يقول لماذا
موضعُ الدُّرَّةِ الفريدةِ صعبٌ وخلالَ الطَّريق تعرفُ هذا
ما لسنجارَ أو لـ (طغرل) حظٌّ من عيونِ القَلَنْدَر[1] الملكية
حيرةُ الفِكْرِ أم حماسةُ رومي ؟ وجْدُ موسى أم فكرةٌ فلسفيه ؟
هي أسلوبُ ثعلبٍ في ظلامٍ أم (يَدُ الله) في طريقة حُبِّه ؟
حيلةُ الإنكليز تظهرُها أمْ هجماتُ التُّركيِّ داخلَ حربه
أهي في هذه الشَّريعة قامتْ تخرُسُ المعْبَدَ الذي شيَّدَتْهُ ؟
أمْ هي الوَجْدُ في فؤادٍ مُلَبٍّ يُمْسِكُ الكعبةَ التي ألهبتْهُ

(١) من شيوخ المتصوفة في الهند ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .

كـنْ غنيـاً وكـنْ إذا شئـت عبـداً	أو أميراً مـا بيـن (سمعاً وطاعه)
كـلُّ هـذي الألقـابِ ألقـابُ وَهْـمٍ	لا يكـونُ الـوصـولُ دونَ شَجَـاعَـهْ

(٤٨)

ليـس لِلْجُنْـدِ غيـرُ شكـلٍ سيـوفٍ	ليـس للتَّـاج غيـرُ لمعـةِ جـوهـرْ
فـي عـروشٍ وفـي جيـوشٍ بحثنـا	مـا عثـرنـا علـى فـؤاد القَلَنْـدَرْ
لـمْ تحصِّـلْ مـن (لا إلـه) ضيـاءً	هـذه الـذَّاتُ للطَّـريـقِ الطَّـويـلِ
أصبحـتْ معبـداً لأصنـامِ وهـمٍ	عنـدمـا ضيعـتْ حـوارَ الخليـلِ
يصنـعُ الحـرُّ كـونَـه بجهـادٍ	ويـرى فـي تَـدَخُّـلِ النَّـاس عـارا
لَسْـتَ آجـرّةً لقصـرِ غـريـبٍ	لَسْـتَ فـي وقعـةِ الحيـاة غُبـارا
كـلُّ مـا فـي سمـائنـا مـن مَـدَارٍ	لا يسـاوي مـدارَ هـذي القلـوبِ
ومَصِيْـرُ القلـوبُ أبعـدُ شـأواً	مـن غبـارٍ مشـرَّدٍ فـي الـدُّروبِ
قـال أهـلُ البِحـار أهـلُ البـراري :	ليـس لِلْغَـرْب غيـرُ راحـةِ يـأسِـهِ
واقـفٌ فـي طـريـق سيـلٍ عنيـدٍ	ليـس يقـوى علـى حمـايـة نفسِـهِ
قِـفْ قليـلاً فـأنـت أيضـاً قـديـرٌ	ولـكَ الحـقُّ فـي اختيـارِ الحيـاة
كـلُّ فجـرٍ يطـلُّ تبـدعُ كـونـاً	صـرخـةُ الـوَجْـد فـي عـوالـم ذاتـي
أنـا فـي حـانتـي قنعـتُ بـدَنِّـي	لست ممَّنْ يطوف حول الكنائسْ
أبـداً لا تقـدِّمِ الخمـرُ هـذي	نَفْسَهـا فـي رحـاب تِلْـكَ المـدارس

(٤٩)

لـم تَهَـبْ لـي الطبيعـةُ اليـوم فِكْـراً	ثـاقبـاً ، غيـر أنَّنـي لا أُبـالـي
عُـدَّتـي طينتـي التـي وهبتنـي	طيـرانـي المُخِـفُّ عَبْـرَ الليـالـي
طينـةٌ بـالجنـون تَصْقُـل حِسِّـي	طينـةٌ تَجْعَـلُ الغبـيَّ نبيهـا
ربمـا مَـزَّقَـتُ لجبـريـل سـرّاً	ورأى قـولـه : ﴿ أتجعـل فيهـا ﴾
طينتـي لا يهمُّهـا صُنْـعَ عـشٍّ	مـنْ دقـاقِ الأغصـانِ فـي البُستـان

وجبيـــنُ النُّجـــوم يَـــرْشَـــحُ عـــاراً — لبـــريـــقِ الـــدُّمـــوعِ فـــي أجفـــانـــي

(٥٠)

يَقْصِـــدُ المُبْـــدعُ الغَيُـــورُ بـــلاداً — لمعـــانيـــه غيـــرَ كـــلِّ البـــلاد

لا إلى الكوفة التي ما استطاعتْ — كَسْـــرَ سيـــفٍ ولا إلـــى بغـــداد[١]

نظـــراتـــي التـــي تمـــوجُ فتـــونـــاً — والَّتـــي تمـــلأ الفـــؤاد حُبُـــورا

مَنَحَتْني فـــي حـــانـــةِ الغرب صحـــواً — ونشـــاطـــاً وغبطـــةً وسُـــرورا

لســـت أحتـــاج فيلســـوفـــاً ومُـــلاّ — مـــوتُ قلـــبٍ همـــا وفِسْـــقُ بصيـــره

كيـــف لِـــلاهـــوتـــيٍّ أُبـــدي ازدرائـــي — حيـــن ألقـــاه وهـــو رأسُ العشيـــره !!

الـــدَّراويـــشُ يطـــربـــون لهـــذا — والـــدَّراويـــش دأبُهـــم غيـــرُ دأبـــي

لســـتُ أُغنـــىٰ بمثـــلِ هـــذا فـــدعنـــي — أبحـــثُ اليـــوم عـــن تفتُّـــحِ قلبـــي

ممكـــنٌ يُشْتـــرى غنـــى (أبـــرويـــزٍ) — ومحالٌ جراح (فرهاد) تُشْرىٰ[٢]

---

(١) بغداد : عاصمة العباسيين إذاً فهي السلطة المادية ، والكوفة عاصمة علي رضي الله عنه إذاً فهي السلطة الروحية .

(٢) فرهاد : شخصية إيرانيّة أسطورية وقصة حبه لشيرين مشهورة في الأدب الفارسي ، كان فرهاد قاطع أحجار فشغف بالملكة شيرين شغفاً جنونياً وهي زوجة أبرويز وقبل من أجلها معاناة كل المصاعب أمره وزير أبرويز بحفر قناة في الجبل لجرِّ بحر اللبن لعلاج الملكة التي زعم أنها مريضة فحفر فرهاد القناة ، وقيل له عندئذ : إن الملكة ماتت فانتحر عند سماع النبأ .
وعندما علمت الملكة بانتحاره وكانت صحيحةً سليمةً مضت إلى قبر العاشق وعندئذ انفتح القبر ومضت شيرين للحاق بالحبيب فرهاد . وتناول الشعراء هذه الأسطورة بطرائق مختلفة ، فرأى فيها بعضهم أنَّ الحبَّ لا بدَّ أن يفتك بالمحبِّ والمحبوب معاً .
وكان آخر تأويل إنكار استغلال الفقير ورأى في ذلك صراعاً بين رأس المال وبين العمل . الأصل .
قلت : وقد نقل الملحمة إلى العربية المرحوم محمد فريد أبو حديد ، وانظر كذلك (مختارات من الشعر الفارسي) د . محمد غنيمي هلال ، الدار القومية للطباعة والنشر=

والــذي يجعــل القَلَنْــدَرَ حــرًّا ... أنَّــه لا يخــاف للســرِّ نشــرا
لســتُ عــن متعــةٍ أمــزِّق ثــوبــي ... تلـك أســرارُنـا وليـس وسـاوسْ
طمعــي الفــردُ والمطــامــع كُثْــرٌ ... هَبَّــةُ الفِكْــر مــن رُقــاد المـدارسْ
رأيُ غــانــدي إنْ كنــتَ غيــرَ قــويٍّ ... غيــرُ مجـدٍ فـي ملَّتـي واعتقـادي
ليــس إلا عصــا الكليــمِ لسحــرٍ ... بــرهمــيٌّ مشعــوذٍ فــي البــلادِ

(٥١)

إقبـالُ تُحــزِنُــه المــلائكــةُ الَّتــي ... عـابـت أمـام الله جـرأة صَـرْخَتِـه
وقـــحٌ يُهَنِّـــك للطبيعـــة ســـرَّهْ ... ويجمِّــل الــدنيـا بلـؤلـؤِ نَظْـرَتِـهْ
لا ينتمــي لــلأرض وهــو سليلُهــا ... لا الشَّــامُ مــوطنُــه ولا قــاشــانُ
مُتَعــدِّدُ الأوصــاف فــي قــدراتــه ... ملــكٌ وفــي رغبــاتــه إنســانُ
قَلِــقٌ ريــاحُ الخــدِّ تمــلأ صــدره ... ويعيقــه بستــانُــه المتنــاهــي
فـي ظـلِّ مـذهبـه المـلائكـةُ اهتـدتْ ... لطــريــقِ آدم فــي رحــابِ الله

(٥٢)

لُعْبــةُ النَّــرْدِ لــم تكــنْ دونَ نــردٍ ... أرنــي مظهــراً لِتِلْــكَ المغــازي
خمــرةُ القــومِ لا تُنَــالُ بِبَخْــتٍ ... فــازَ رومــيٌّ بهــا وأخْفَــقَ رازي
كــأسُ جمشيــدَ لمعُهــا فــي دوامٍ ... أيُّ ملكيـــةٍ بـــلا شعـــوذاتِ
ليـس قلبـي وليـس قلبُـك فـابحـثْ ... إن تمكَّنْــتَ فــي صُــدورِ الفِئــاتِ
ليــس للعــاجــزِ الضَّعيــفِ حيــاةٌ ... ودواءُ الضَّعيـــف ذوقُ العبـــادهْ
لا تقلْ في الصَّلاة : وجهت وجهي ... فصَــلاتــي كمــا صــلاتُــك عــادهْ
نحــن سجَّــادةٌ لــه حــركــاتٌ ... فـــوق سَجَّـــادةٍ بغيـــر حـــراكِ
إنَّ حــربــاً أبطــالُهــا نحــنُ حــربٌ ... تُعْلـنُ النَّصـر قَبْـلَ بـدءِ العِـراكِ !!

* * *

= ص٣٥٧ (القاهرة) .

لغـــــةُ التُّـــــركِ والعَـــــرَبْ	عـــذبـــةٌ ملـــؤهـــا الطَّـــرَبْ
لكـــن الحـــبَّ لـــم يكـــنْ	ملـــكُ تـــركٍ ولا عَـــرَبْ
حَسْبُـــهُ البعـــدُ عنهمـــا	حَسْبُـــه كنـــزُه الـــدَّفيـــنُ
حَسْبُـــهُ الحُـــبُّ إنَّـــه	لهجـــة النَّـــاس أجمعيـــنْ
نحـــتُ أصنـــامِ آزرٍ	صَنْعَـــةُ العـــاجـــزِ الـــذَّليـــلْ
والـــذي يطلـــب العُـــلا	حَسْبُـــه صَنْعَـــةُ الخليـــلْ
لســـت نقعـــاً مجـــرَّداً	إنَّـــك النَّجْـــمُ والمـــداز
مـــن جنـــونٍ مشـــابـــرٍ	ذلـــك النَّقْـــعُ والغُبَـــاز

****

(٥٣)

دوَّى النِّـداءُ علـى القـوافـلِ معلنـاً	بـدءَ المسيـرِ فَقُـمْ مـع الـرُّكبـانِ
أواهُ مـاذا يفعـلُ السَّـاري الَّـذي	يتـوقَّـع التَّـرحـال كـلَّ أوانِ
انهـضْ فَخَمْـرُك لا تنـاسـب هـاهنـا	ديـراً وعصـرُك غيـرُ طبعِـك فـانِ
سِيَّـان كـانَ القَلْـبُ عبـداً طـائعـاً	أو لـم يـدعْ للعقـلِ مـنْ سُلْطـانِ
فـالـدَّربُ يـا هـذا المسـافـرُ صعبـةٌ	وطـويلـةٌ وكثيـرةُ الأشْجـانِ

****

(٥٤)

نَفَسـي يُـؤجِّـجُ نـارَ وَرْدَتِـك الَّتـي	خَمَـدَتْ لـواعجُهـا على الأغصـانِ
لـم يهـدأ البستـانُ منـذ أتيتُـهُ	فـانظـر لآثـاري مـدى البُستـانِ
أيقظـتُ قلـبَ العـارفيـن بِصَـذْرِهـم	وهَتَكْـتُ للبُسطـاء سـرَّ الحـانِ
ووهبـتُ للجيليـن ذوقَ لهيبهـم	ومـلأتُ أنفُسَهـم بـرشـحِ دِنـانـي
أنـا أعجمـيُّ الحـبِّ إلا أنَّنـي	أطلقتُ في الحَرَمِ الشريفِ لِسَاني
كـمْ ثـوبِ إحـرامٍ علـى متضـرِّعٍ	مـزقْتُـه بـاللَّحـن مـن ألحـانـي

متلطخٌ قلبي بنظرةِ عادلٍ ... بسهامِ سيدنا الحُسين رماني
في الشَّام أم في الكوفةِ النَّردُ الَّذي ... كانا على شقَّيْه يختصمان
أخشى يكونُ كلاهُما متعثراً ... فالنَّرد هذا ماله شقَّانِ
لِمَ تعجبون لمسلمٍ متحرِّقٍ ... ورداؤه قطعٌ من الأحزانِ
فقرُ الجُنَيْدِ وملْكُ سنجارٍ به ... وجنونُ طيفور الطَّليقِ العاني
بالرُّغمِ ممَّا قُلْتُ قبحي ظاهرٌ ... تأذَّى به عيناك حين تراني

(٥٥)

هذا الهلالُ بصدقِه يتسامى ... أبداً يريدُ الكرَّ والإقداما
لولا تجاوزه لكلٍّ وجوهه ... ما كان في فَلَكِ السَّماء إماما
لا تفتحُ الأنسامُ بُرعمَ وردةٍ ... بلهاءَ عن شمسِ الصَّباح تحيدُ
طهرُ العيونِ هو الحقيقة كلُّها ... والقَلْبُ في حِضْنِ العيونِ مريدُ
هذي الشَّقائقُ تَحْرِقُ القلبَ ارتمتْ ... في الحَقْل ما احتملت سيوفَ سنابلِهْ
كوقائع (الغوري) و(أيبك)[1] عُطّلاً ... ونشيد (خسرو) في قلوب بلابلِهْ

(٥٦)

يا أيُّها الإنسانُ كُنْ يَقِظاً فَدَرْبُك في السَّماءْ
لا ترمِ نفسَك خَلْفَ هذا الصُّبْح أو ذاكَ المساءْ
الدَّرْبُ ذلك ما له زمنٌ ليأسفَ ركبُهُ
ومَنِ الَّذي يدري ويَعْرِف أين تَنْشبُ حربُهُ
لا سرَّ ينبضُ في التسكُّعِ والتمحُّل واليقين
فوق المواخرِ والمساجدِ والكنائسِ أجمعين

---

(١) هو قطب الدين أيبك المتوفى سنة (١٢١٠م) مؤسس سلالة المماليك الأتراك ، أولى سلالات سلطنة دهلي بنى مناراً عالياً يُسَمَّى اليوم بـ « قطب المنار » (وهي من أهم الآثار الإسلامية في الهند) وخلفه التمش .

اللـؤلـؤُ الفـردُ الَّـذي قـد نـدَّ عـن صـدرِ المَحَـارهْ
مجـلاهُ فـي دَمْـعِ الصَّبـاح وليـس فـي خِـدَعِ الحضـارهْ
القـرمـزيُّ الخـدُّ لا يحتـاج مسحـوقـاً يبـاغْ
والعـازفُ المـوهـوبُ لا يـرضـى بـألحـان الـرُّعـاغْ
ألحـانُ هـذا العصـر يلـزمهـا الكثيـر مـن الـذَّكـاء
إذْ طـالمـا الصَّـوتُ الـذي فـي السـرِّ يخطـىء فـي الغِنـاء

(٥٧)

يَمَّمْـتُ مـدرسـةَ الأسـود رأيتُهـا / تبكـي أبـاطـرة الـزَّمـانِ الـذَّاهـب
جارتْ عليها الحادثاتُ فأصبحتْ / مـرعـىً لخـرفـانٍ ووكـرَ ثعـالـبِ
مـا للقـوافـلِ مـنْ يقـود رِكـابَهـا / بحـوارِ مـوسـى فـي رحـاب الله
مـن أيـن للعصفـورِ ذوقُ نشيـده / والجمـع سـاهٍ والمـردِّدُ لاهِ
لآهٍ لأنفـاسٍ مَضَـتْ وكـأنَّهـا / طيـفٌ ومـرَّ بـذلـك البُستـانِ
وهـي الَّتـي أذكـت لهيـبَ جمـالـه / وهـي التـي روَّتـه بـالألحـان
فـي ليـلِ دهشتـه هنـاك وَوَجْـدِه / ظلمـاتُ تـاريـخٍ يُكَـرِّرُ نفسَـهُ
هـل دهشـةٌ أخـرى ووَجْـدٌ آخـرٌ / يـروي حقيقَتَـهُ ويمـلأ كَـأسَـهُ
جُـرحـي تـألَّـق كـالبـروق بليلهـم / ليـروا حقيقـةَ هـذه الحسنـاءِ
وليعلـم الغُـربـاءُ ليسـت فجـةً / ثمـراتُ هـذا السَّيـرِ فـي الصَّحـراءِ

(٥٨)

أتَـذْكُـر البيـت الَّـذي قـد قـالـه / سلمان[1] ذاك الشاعِرُ الحرُّ الأمين
(سيظـلُّ عـالمنـا بـرُغْـمِ صعـابِـه / (سيظلُّ) مفتوحاً أمام العاملين)
البحـثُ يلـزمـه مـواهـبُ بـاشـقٍ / وفـؤادُ ليـثٍ لا يخـاف جـروحـا

---

(١) هو مسعود سعد سلمان : شاعر فارسي مشهور ، ربما وُلد في لاهور في العهد الغزنوي (إقبال) .

مــن غيــرِ معــرفــةٍ وغيــر قــراءةٍ يجـدُ الشُّجـاعُ طـريقـه مفتـوحـا
دعْ عَنْـكَ طـاووسـاً يتيـه وبلبـلاً يَشْـدُو فليـسَ السـرُّ فـي الاثنيـنِ
الســرُّ ليـس بنغمـــةٍ وبصـــورةٍ السـرُّ فــي سَمْــعٍ ورقــةِ عيــنِ

(٥٩)

المعرفة أم التجرد

ليـس يقـوى علـى القَلَنْـدَر دهـرٌ قلبُـه تحـت عَـرْشِـه مُسْتَقَـرُّهُ
سـرُّه ليـس فـي العُلـوم ولكـنْ علمُـه بـالتجـرُّد الحـقِّ سـرُّهُ ؟
هـي تـرمـي لصَقْـلِ عَقْـلٍ وفكـرٍ وهـو يـرمـي لصَـوْغِ عيـنٍ وقَلْـبِ
هـــو دربٌ بـــذاتـــه مُسْتَقـــلٌّ وهـــي بحـثٌ علـى مجـرَّد دَرْبِ
هـو عنـد الصِّعـاب عيسـى ومـوسـى وهــي للنَّـاس فيلسـوفٌ وقـاضٍ
هـــو لِلســـرِّ والبصيـــرة روحٌ وهـي ليسـت سِـوى أقـاويـلَ مـاضٍ
هـو سكـرانٌ بـالفضيلـة سـارٍ وهـي سكـرانـةٌ بِخَمْـر الـرَّذيلـهْ
مُطْلـقُ السُّكـر فـي الحقيقـةِ حـالٌ ليـــس فيـــه رذيلـــةٌ وفضيلـــهْ
الـــذي يقتضـــي التجـرُّدَ شـــيءٌ ليـس سِيَّـان والـــذي يقتضيهـــا
نظـــرةُ النَّفـــي لِلْقَلَنْـــدَرِ سيـــفٌ طَبَعَتْـــهُ الـــذَّات الَّتـــي يقتفيهـــا
واحـدٌ مـن جنـودِهـا الحـقّ يُغْنـي عـن جيـوشٍ تخـاف وَهْـمَ الفَنـاء
وإذا المـرءُ كـان صـاحـبَ قلـبٍ كَسَـرَتْ عينُـه مـرايـا السَّمـاء

(٦٠)

وقـف الجميـعُ يعـارِضـون نـدائـي لـم يُجْمِعـوا إلّا علـى إقصـائـي
ذهبوا مع الصَّحراء خَلْفَ جنونهم وبقيـتُ مجنـونـاً بـلا صحـراء
حمـداً لِمَـنْ رَحِـمَ العباد فـأسْدِلَـتْ أستـارُ كعبتنـا بـوجـهِ صيـاحـي
وبقيـتُ وحـدي مـرةً أخـرى وَقَـدْ طافتْ على الحَرَمِ الشريفِ جِراحي
فقهـاؤنـا وقفـوا بصـوتٍ واحـدٍ دونـي ومـا حـاروا بـأيِّ جـوابِ

لا مثلَ أفلاطونَ بين حضورِه | وغيابِه والسَّلبِ والإيجاب
كانت رجالُ الفِكْرِ تَنْبُضُ جراَةً | وحميَّةً أوحتْ بها الأعرافُ
نفسٌ إذا القرآنُ ما انتفعتْ به | لا الكشفُ يَنْفَعُها ولا الكشَّافُ
إنْ كُنْتَ منْ وهمٍ بشيءٍ مفرحٍ | تأسى فإنَّك في السَّفينةِ تَغْرَقُ
في خمرِ أوربَّة شُعاعٌ ذائبٌ | بالرُّغمِ من أكدارها يتألَّقُ

(٦١)

عجباً من مغامراتِ ذكيٍّ | جعل الوَجْدَ والتعقُّلَ دربا
لم تزل حولَه المواجدُ حتَّى | تركتْهُ في ساحةِ الحبِّ نَهْبَا
كيفَ ناحَتْ حمامةُ الأيكِ قربي | ثمَّ كانتْ عَذُولَه ورقيبَهْ
إنَّني مدركٌ إلى أينَ يمضي | مخفلٌ يُزْبِكُ الضميرُ خطيبَهْ
قيل إن الأتراك بالشِّعر أدرى | فأقرئوهم من شِعْر إقبال بيتا
(لا يكون القويُّ جارَ ضعيف | كلُّ ما في يديه لولا وَلَيْتَ)
ما طقوسُ المساجدِ اليومَ ؟ ظلمٌ | وانتهاكٌ لحرمةِ السَّاجدينَا
ما سلوكُ الكنائس اليومَ ؟ سوقٌ | لوجوه الرُّهبان والسَّالكينَا
في ردائي الَّذي تمزَّق سرٌّ | من بقايا الأسرار يُكْشفُ بعدي
لا يليقُ الجنونُ فالعصر هذا | ليس عصراً لذي جنونٍ وَوَجْدِ
أَضِعِ النَّفس في البحار وغامِرْ | ثم غُصْ في البحار واعثُرْ عليها
وأَقِمْ بين ضجَّةٍ وتَلَوٌّ | ليس من شاطىءٍ يقودُ إليها
هل لمثلي مِنَ الفضاء نصيبٌ | منْ تُراني أنا وما جنسي ؟!
جئتُ للأرضِ ؟ أم تخلَّفْتُ منها ؟ | قفصي الكونُ ؟ أم نهايةُ نفسي ؟
كَمْ تَعَثَّرتُ في متاهاتِ ذاتي | وكأنِّي في أرضِ ذاتي دخيلُ
بين نفسي منَ الخصامِ وبيني | سهرٌ دائمٌ وليلٌ طويلُ
قصَّةُ الحبِّ ألفُ نقشٍ ولونٍ | وغِنائي أشدُّ نقشاً ولونا
تارةً أملأُ الحياة وِصَالاً | تارةً أطلبُ الفِراق لأفنى

اليقينُ اليقينُ جلسةُ حبٍّ ... من خليلٍ بنارِ نمرودَ يُمْسِكْ
سرُّهُ أنْ تقومَ لله شُكْراً ... وقصاراه أن تلوذَ بِنَفْسِكْ
كعبةُ العُزبِ أطلقتْ كلَّ لحنٍ ... طافت الفرسُ والمغولُ عليه
كيف تسمو حضارةٌ ليس فيها ... حرمٌ يجمعُ القلوبَ إليه
صوت قيثارتي الَّتي سَمِعوها ... أعجميٌّ لكنَّ لحني حجازي
شَهِدَ الغرب أنَّني غزنويٌّ ... حين جرَّعتُه مصير إيازِ[1]
أيهيمُ الفؤادُ في كلِّ حسنٍ ... أمْ يُغَنِّي لوحده في الزِّحامِ
رُغم أنَّ الزَّمان للقلب غِلٌّ ... لا يذلُّ الزَّمان قلبَ هُمامِ
أيها المسلمُ الذي يشتكيني ... لا تَلُمْني فأنتَ تفضحُ عينَكْ
لا تخفْ من صراحتي في حديثي ... إنَّ هذا الحديث بيني وبينكْ
طيرانُ الأنبياء ليس كهذا ... مالكَ اليوم في السَّماءِ اجتيازْ
ليس يعني إنْ كان جدُّك بازاً ... أنَّك اليوم بالوراثة بازْ
آهِ للمُسلم الذي بات رسماً ... شَغَلَتْه عن الحياة جُدُوْدُه
سألوني فقلت : يوجد ، قالوا : ... أينَ سلطانُه وأينَ وجودُه
لا يبالي الدَّرويشُ عُسرَ طريقٍ ... ويرى العُسْر عونَهُ ونصيرَه
اسألِ اللهَ أن تكونَ بصيراً ... فسلاحُ الدَّرويش نورُ البصيرهْ
إنَّها الذَّاتُ عندما تتجلَّى ... تَنْعُمُ النَّاسُ في ظلال النُّبُوَّه
إنَّها نَفْسَها حجابُ إلهٍ ... عندما تأخذ الكتَاب بقوَّهْ
تَصِلُ الذَّاتُ قابَ قوسين لكنْ ... لا ترى نَفْسَها بعرشٍ وكرسي
كلُّ شيءٍ هناك تُغْرِبُ عنه ... صرخةُ الفَجْرِ في قرارة نفسي
صَنَمُ العَيْنِ كلُّ لونٍ تراه ... يجعلُ الكونَ هيكلاً للعُقولِ

(١) كما قصَّ الغزنوي ضفائر إياز التي تنبض إغراءً هكذا فعل إقبال بضفائر أوروبة فعاد منها وقلبه في صدره وفي يده قصاصة شعرها منادياً .
إن الحسن الذي يمكن للمقص أن يزلزله لا يستحق أن يكون كعبة للقلوب .

مُمْكِنٌ أنتَ أنْ تكونَ خليلاً — في صُراخِ الصَّباحِ بعد الأفولِ
فيمَ هذا المُحبُّ يَعْبَثُ سُكْراً — بحبالِ الصَّيْدِ الَّتي أوقعته
لم تَزِدْهُ الشِّباكُ إلا حُبُوراً — وكأنَّ الشِّباكَ قد أطلقته
عِلْمُ رازيْ تَهَوُّرٌ وانحدارٌ — وحياةُ القلوب علمُ القَلَنْدَرْ
قِمَّةُ الشُّكْرِ والمحبَّة تبدو — في السُّلوك الذي يمتُّ لِحَيْدَرْ
أينَ منْ أطلقَ الحياةَ بعقلي ؟ — أينَ ذاكَ الَّذي أبادَ حَصَادي
هو في عُزلةِ الفؤاد مقيمٌ — وسؤالي الوحيدُ أينَ فؤادي ؟
أنا لا أركبُ الهوادجَ هذي — أنا لا أمتطي الرِّكابَ دليلا
أرشدُ الرَّكبَ للطريق وأمضي — لستُ عمَّا يُفَتِّشون بديلا
حطبُ المَوْقِدِ الغليظِ مُملٌّ — وأنا رغبتي بحرق الدِّقاقِ
أنا لا أمْنَحُ الحصادَ لحقلٍ — عملي الفردُ والوحيدُ احتراقي
قد تنفَّستُ ليس من نارِ قلبٍ — نفساً بارداً أهاجَ رمادا
شعلةُ الفِكْرِ للطَّريق ضياءٌ — ودليلٌ له ولَيْسَ مُرادا
أرضُنا هذه لطُهْرِك تهفو — أنتَ برهانها وأنتَ هُداها
قلبُك المطمئنُّ قبضةُ نورٍ — مَنَحتْ أعْيُنَ السَّماء مداها
عن يدِ الله طِرْتَ لا عن غباءٍ — أنتَ شاهينُه وأنتَ رسولُه
ولكَ الحُورُ والملائكُ صَيْدٌ — ذاك دينٌ وليس شعراً أقولُه
أتُرىٰ ما لِلْمُسْلمين نصيبٌ — من جنونِ الحبِّ الَّذي أطلقوه
دمُهم كان للشُّعوب مناراً — ثمَّ هُمْ في ظلامهم أهرقوه
ذاك أنَّ الضُّلوعَ خارتْ قُواها — لم يعد بينها لهيبٌ يصولُ
سجداتٌ رتيبةٌ في خمولٍ — وصفوفٌ مُعوجةٌ وذُهولُ
أيُّها المسلمُ المثابرُ يرجو — ثوبَ تقواه كنْ نسيجَ حياتِك
كنْ وحيداً ووحِّدِ الله واكشِفْ — سِحْرَ ألواننا بقوَّة ذاتِك
كُنْ كما الموجُ كلَّ حينٍ تراهُ — يدرسُ الشاطىءَ الَّذي يبتغيه
انتزعْ من يديه ثوبَك وارجِعْ — لا تغرنَّك الإقامةُ فيه

النَّـدى شـفَّ عـن صُـدور ورودٍ ليـس فيهـا مـن الخـلاعـة كُـفءْ
فـوَّر الخضـرةَ النسيـمُ صبـاحـاً فـورةً مـا لهـا هُنـالِـكَ دِفءُ
احمـرارُ الشَّقيـق صـورةُ نـارٍ ضـاعَ فـي غمـرةِ الحيـاةِ فـؤادُهْ
شعلـةُ العقـلِ للمسـافـرِ عـونٌ والَّـذي يُلهِـبُ الطَّـريـقَ مُـرادُهْ
مـا هـو العقـلُ ؟ إنَّـه ليـس إلَّا نـارَ مصبـاحنـا بهـذا الطـريـقِ
وضجيـجُ الطَّـريـق مـنْ فعـلِ قلـبٍ ليـس للعقـلِ مِنْـهُ غيـرَ بـريـقِ

* * *

القسم الثالث

في مسجد قرطبة

وقف محمد إقبال ـ في عام ١٩٣٢م ، الذي زار فيه إسبانيا ، ذلك الفردوس المفقود ـ في جامع قرطبة العظيم وقفة مؤمن شاعر ، وقفة خاشع أمام الإيمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية التي كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد النائية الجميلة لعقيدته وعزمه ، وقفة خاشع أمام العاطفة القوية ، والحبِّ الطاهر ؛ الذي حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفنِّ الإسلاميِّ العربيِّ الذي ظهر في تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كلُّ ذلك إيمانه وشاعريته ، ورأى أنَّ هذا المسجد العظيم صورةٌ للمسلم في هذه الأرض الحنون ، تجلَّت فيه أخلاق المسلم وصفاته ، علوٌ في الهمَّة ، واتساعٌ في القلب ، وبساطةٌ في المظهر ، وبراءةٌ في النية ، وثباتٌ على الحقِّ ، وإعلانٌ للعقيدة والمبدأ ، وجمعٌ بين الجمال والجلال ، والأنفة والتواضع .

وتذكَّر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه ، وتذكَّر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ، تذكر ـ والشيء بالشيء يذكر ـ بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوِّي في الجوِّ ، وكان أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعونه ، ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الأمة ، فليس له نظيرٌ في الأصوات ، والهتافات ، والإعلانات ، والرسالات ، ذلك الأذان الذي كان يخشع له الكون ، ويضطرب له العالم ، وتزلزل به أوكارُ الفساد ، ذلك الأذان الذي تنفَّس له الصبح الصادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ،

وانطلقت موجةٌ من نور ، عاشت بها الدنيا وما بين العالم اليوم وبين الصبح الصَّادق إلا هذا الأذان الصَّادق الذي ينادي به المؤمن الصادق .

وتذكر بهذا الأذان الرسالة السامية السَّماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا الأذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمَّنها ، وامتلأ إيماناً ويقيناً بأنَّ الأمَّة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة ـ التي كتب لها الخلود ـ لا تموت ولا تفنى .

حرَّك هذا المنظرُ الرائعُ ، وهذا الأثرُ التاريخيُّ ، وهذا المسجدُ الغريبُ الفريدُ الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره الرفيعة الأذان منذ قرون ، حرَّك كل ذلك في إقبال الإيمان والحنان ، والأحزان والأشجان ، وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها « في جامع قرطبة » وقد كتبها في إسبانيا ، وأكثرها في قرطبة .

ذكر محمد إقبال أنَّ هذا العالم خاضعٌ للفناء، وأنَّ الآثار التي تخلفها الأجيال، وأنَّ البدائع الفنية التي تنتجها العبقريةُ الإنسانيةُ بين حينٍ وآخر ، كتب لها الاضمحلالُ والاندثارُ ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات إلا ذلك الأثر الذي أكمله عبدٌ مخلص لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ؛ لأنَّ عمله يستمدُّ الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبِّه القويِّ الخالص[1] ـ والحب هو أصل الحياة الذي حرم الله عليه الموت ـ إنَّ الدهر سريعٌ ، ورفيقٌ في سيره ، وهو تيارٌ عنيفٌ لا يقف في طريقه شيء ، والحبُّ هو القوة الوحيدة التي لا تقاوم لأنه سيل ، والسيل لا يمسكه إلا السيل ، إنَّ الحبَّ غيرُ خاضع للنظام الرياضي المرسوم ، فله عصورٌ ليس لها اسم في لغتنا ، الحبُّ هو الذي تجلَّى في الرسالات السماوية ، وفي الأخلاق النبوية ، وهو الذي أفاض على الكون النُّور

---

(١) الحب أو « العشق » كما يسميه إقبال هي العاطفة التي تسمو على المادة والمعدة ، وهي حقيقة جامعة بين الإيمان والحنان ، ولا صلة له بالغرام والعاطفة الجنسية .

والسُّرور ونشوةَ الخمور ، التي سكر بها العارفون ، وتغنى بها المحبون ، الحبُّ قد يقف إماماً في المحراب ، وحكيماً يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ويهزم الأحزاب، فله أطوار وأدوار ، وهو رحالةٌ لا يزال في سير وانتقال ، وحلٍّ وترحال، له منازل ومقامات يمرُّ بها ويخلفها وراءه، هو الذي أطلق قيثارة الحياة فانطلقت منها نغمات وأناشيد ، وهو الذي استمدت منه الحياة نورها ونارها .

ثم يلتفت الشاعرُ العظيم إلى مسجد قرطبة ، ويقول له : « **تدين أيها المسجد العظيم ! في وجودك لهذا الحب البريء ، ولهذه العاطفة القوية ، التي كتب لها الخلود فهي لا تعرف الزوال والانقراض ، إنَّ البدائع الفنية إذا لم ترافقها العاطفة ، ولم يسقها دم القلب ـ الحب ـ أصبحت مصنوعات سطحية من لونٍ ، أو قرميدٍ ، أو حجرٍ ، أو لفظةٍ ، أو كتابةٍ ، أو صوتٍ ، لا حياة فيها ولا روح ، إنَّ المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحبِّ ، ولا تقوم إلا على العاطفة والإخلاص ، الحبُّ هو الذي يفرق بين قطعةٍ من حجر ، وقلبٍ خفَّاقٍ حنونٍ للبشر ، فإذا فاضت منه قطرة على الحجارة الصمَّاء خفقت وعاشت ، وإذا تجرَّدت منه القلوب الإنسانية جمدت وماتت** » .

ويقول في عقيدة مؤمنٍ ، ودلال شاعرٍ محب : « **إن بيني وبينك أيها المسجد العظيم ! نسباً في الإيمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة الأحزان ، إنَّ الإنسان في تكوينه وخلقه قبضةٌ من طينٍ لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدراً لا يقل عن العرش كرامةً وسمواً ، فقد أشرق بنور ربه ، وحمل أمانة الله ، إنَّ الملائكة تمتاز بالسجود الدائم ، ولكن من أين لهم تلك اللَّوعة واللَّذة التي امتاز بها سجود الإنسان ؟!** .

وهنا يتذكر محمد إقبال جنسيته ووطنيته ، ويتذكَّر أنَّه هنديُّ النجار ، وأنه من إحدى بيوتات « البراهمة »[1] ، ويتذكَّر أنَّه أمام أثر إسلاميٍّ عربيٍّ صميمٍ

(١) أصله من سلالة برهمية كشميرية تسمى « سبرو » أسلم جده الأعلى قبل مئتي سنة .

قديم ، فيقول : « **انظر أيها المسجد ! إلى هذا الهندي ـ الذي نشأ بعيداً عن مركز الإسلام ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار وعباد الأصنام ـ كيف غمر قلبَه الحبُّ والحنان ، وكيف فاض قلبُه ولسانُه بالصلاة على نبي الرحمة ، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك ، كيف ملكه الشوق ، وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيدُ والإيمان** » .

ويذكره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده ، وبالأمَّة الإسلامية العظيمة التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ، فيرى أنه صورةٌ صادقةٌ للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما محكمُ البنيان ، كثيرُ الفروع والأغصان ، ويلتفت إلى المسجد فيراه قائماً على أعمدة كثيرة ، تشبه في كثرتها وعلوها نخلاً في بادية العرب ، ويرى شرفاته مشرقةً بنور ربها ، ومنارته العالية الذاهبة في السماء منزلًا للملائكة ، ومهبطاً للرحمة الإلهية ، وهنا يقول في إيمان وثقة : « **إن المسلم حيٌّ خالد ، لا يزول ، ولا ينقرض ؛ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم ، وموسى ، وجاء بها النبيون ، وقد قضى الله بخلودها وبقائها ، فكيف تنقرض الأمة التي حملت هذه الأمانة ، وتكفَّلت بتبليغ هذه الرسالة !** » .

وينطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الأمَّة التي يمثلها هذا المسجد ، الذي لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول : « **إنَّ المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور ، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب ، فليست دجلة في العراق ، ودانوب في أوربة ، والنيل في مصر ، إلا موجةً صغيرةً في بحره الواسع ومحيطه الأعظم ، إنَّ له عصوراً في التاريخ لا يقضى منها العجب ، وله حكاياتٌ ومواقفُ في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب ، هو الذي أمر العصر العتيق ـ العصر الجاهلي ـ بالرَّحيل ، وافتتح العصر الجديد ، إنَّه إمام رجال الحبِّ والعاطفة ، وفارس ميدان الإيمان والحنان ، لسانُه لبنٌ وعسل ، وسيفه علقمٌ وحنظل ، يعيش في ميدان الحرب**

وتحت ظلال السيوف متذرعاً بالتَّوحيد ، كلما اشتد به الخطب وعضته الحرب التجأ إلى إيمانه واعتماده على الله » .

ويقبل على المسجد يتحدَّث إليه ، ويناجيه ، ويقول : « لقد كشفت أيها المسجد العظيم ! عن سرِّ المؤمن ، ومثلته في العالم ، وصورت ذلك الاضطراب الذي يقضي فيه نهاره ، والرقة التي يمضي فيها ليله ، صوَّرت للعالم مقامه الرفيع ، وتفكيره السَّامي ، ومسراتِه وأشواقَه ، وتواضعَه ودلالَه » .

ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة ، فيصف سموَّه ، وأخلاقه ، وسيرته في العالم ، فيقول : « إنَّ يد المؤمن هي جارحةُ القدرة الإلهية ، فهي غلاَّبةٌ ، فتَّاحةٌ ، قاهرةٌ ، ناصرةٌ ، أصله من تراب ، وفطرته من نور ، عبدٌ تخلَّق بأخلاق الله ، واستغنى عن العالمين ، آماله ومطامعه قليلةٌ ، وأهدافه ومطامحه رفيعةٌ جليلة ، ألقي عليه الحب ، وكسي المهابة والجمال ، دقيقٌ رقيقٌ في الحديث ، قويٌّ نشيطٌ في الكفاح ، نزيهٌ بريءٌ في السلم والحرب ، إنَّ إيمانه هو النقطة الدائرة التي يدور حولها العالم ، وكل ما عداه وهمٌ وطلسمٌ ومجازٌ ، إنَّه الغاية التي يصل إليها العقل ، ولبُّ لباب الإيمان والحبِّ ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها وقوتها » .

ويقبل مرةً ثانيةً على المسجد ، فيخاطبه في إجلال وإكبار ، ويقول : « يا مثابةَ هواة الفنِّ ! ويا مقصدَ روَّاد الجمال ! ويا مجد الدين الإسلامي ! لقد سمت بك أرض الأندلس ، وتقدَّست في أعين المسلمين ، إنَّك فريدٌ في الفنِّ والجمال ، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن ، أين لنا أولئك الرجال ، هؤلاء الفرسان العرب ، أصحاب الخلق العظيم ، وأصحاب الصدق واليقين ، الذين برهنت حكومتهم على أنَّ حكومة أهل القلوب خدمةٌ وزهادة ، وليست حكماً ولا ملكاً ، هؤلاء العرب المسلمون الذي كانوا مربي الشرق والغرب ، وكانوا أصحابَ عقولٍ حصيفةٍ وبصيرةٍ نافذة ، يوم كانت أوربة تتسكع في الجهل المطبق ، والظلام الحالك ، والذين لا تزال في الشعب الإسباني

بفضل دمهم العربي ، خفةُ روح ، وحفاوةٌ ، وبساطةٌ ، وجمالٌ شرقيٌّ ، فتكثر فيهم عيون المها ، ولا تزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال الريح في الوادي تحمل نفحات اليمن ، ورنات الحجاز » .

ثم يخاطب إسبانيا ـ الأندلس الإسلامي المغصوب ـ فيتغنّى بأرضها التي تطاولت السماء سمواً ورفعة ، ويتوجع على أنَّ أجواءها لم تسمع الأذان من قرون ، ثم يذكر ما مر على العالم المتمدن من تقلبات وثورات ، ويتشوَّق إلى ثورةٍ جديدة ، مركزها الشرق الإسلامي ، فيقول : « **لقد شهدت ألمانيا ثورة الإصلاح الديني التي عفت الآثار القديمة والتقاليد العتيقة في أوربة ، فجحدت أوربة المسيحية عصمة القسوس والباباوات ، وتحرَّر الفكر الأوربي ، وتحرَّكت سفينته في يسرٍ وسهولة ، وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة التي اضطربت لها أوربة اضطراباً ، وأصبح الشعب الطلياني ـ الرومي ـ شاباً فتياً بلذة التجديد[1] ، هكذا الرُّوح الإسلامية مضطربةٌ قلقةٌ ، تطلب انتفاضةً جديدة ، ولكن متى ذلك ؟ إنَّه سرٌّ من أسرار الله ، لا يفصح به اللسان ، والعالم يتمخَّض بحوادثَ جسام ، فلا يستطيع أحد أن يتكهَّن بالمستقبل** » ، ويخاطب نهر قرطبة « الوادي الكبير » ويقول : « **إن على شاطئك أيها النهر العزيز ! رجلاً يرى حلماً لذيذاً ، يرى في مرآة المستقبل عصراً لا يزال في طيّات الغيب ، يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعينه ، ولكنَّها لا تزال محجوبةً عن أعين الناس ، لو كشفت الغطاء عن وجه هذا العالم الجديد ، وبحت ما في صدري من أفكار وأسرار ؛ لشقَّ ذلك على أوربة ، وفقدت رشدها ، وجنَّ جنونها** » .

ثم يعود مرَّةً ثانية ، يشيد بفضل التجديد في حياة الأمم والشعوب ، والحاجة إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويقول : « **كلُّ حياة لا تجديد**

---

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب الطلياني روح النخوة والطموح ، والاعتداد بالنفس والقومية الرومية .

فيها ، ولا ثورة أشبه بالموت ، إنَّ الصراع هو حياة روح الأمم ، إنَّ أمةً تحاسب عملها في كل زمان سيفٌ بتَّارٌ في يد القدر ، لا يقاومه شيء ، ولا يقف في وجهه شيء » .

ويختم محمد إقبال قصيدته البديعة ، بكلمةٍ حكيمةٍ مأثورة ، مبنيةٍ على تجاربَ واسعةٍ ، ودراساتٍ عميقةٍ ، واستعراضٍ واسعٍ للأدب ، والشعر ، والفن ، والأفكار ، يقول :

« إنَّ كلَّ مأثرة وكلَّ إنتاجٍ ، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقصٌ ، وجديرٌ بالفناء والزوال السريع ، وكلَّ رنةٍ أو نشيدٍ لم يَدْمَ له القلب ، ولم تتألق به النفس قبل أن يصدر ، ضرب من العبث والتسلية ، ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الأفكار » .

وهذا هو سرُّ الخلود والبقاء للآداب ، والأفكار ، والإنتاج ، وهذا سرُّ تفاهة الأدب الجديد ، الذي يولد سريعاً ، ويموت سريعاً ، وهذا هو سرُّ التأثير والخلود في شعر إقبال وإنتاجه فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا[١] ؟

* * *

(نُظمَتْ في مسجد قرطبة)

إنَّ هـــذي الصـــرخـــةَ اليـــومَ التـــي تفضـــحُ أمـــري
صـــرخـــةُ القلـــبِ التـــي خبَّـــأتهـــا طيلـــةَ عُمْـــري
صحبـــةُ الأطهـــارِ نـــورٌ ورضـــا الله حُبُـــور
وشقيـــقُ الـــرَّوض كـــاســـاتٌ علـــى النَّهـــر تـــدور
هـــاهنـــا يمكـــن أنْ أذكـــرَ وَغْثَـــاءَ المسيـــرْ
ووضـــوئـــي لِصـــلاتـــي مـــنْ دَمِ القَلْـــبِ الكسيـــرْ

---

(١) من « روائع إقبال » للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني النَّدوي .

مع من يمشي الَّذي يمشي على هذا الطَّريقْ
وأنا إلَّا رجائي ليسَ لي فيه رَفيقْ
أيكونُ القَصْرُ عُشِّي وأنا أكره لونَهْ
أنْتَ ذاك العُشُّ والغُصنُ الذي يَسْتُر كونَهُ
أنْتَ من أطلقت منْ صدري صراخَ الفَجْر بعثا
لي من التَّوحيد نارٌ تُلْهِبُ العالمَ بحثا
بكَ أنفاسي تغنَّى لكَ تغدو وتروحْ
ذات شجوٍ وحماسٍ وندوبٍ وجروحْ
أملي أنت وشُغلي طلبي أنتَ الوحيد
وأنا هذا نصيبي غيرَ هذا لا أُريد
عندما تخطِر قربي تصبحُ الصَّحراءُ بحرا
وإذا لم تكُ في البُستان فالبُستان صحرا
أتمنَّى مرَّةً أخرى ولو جرعةَ كأسِ
علَّ أنْ أخرجَ يوماً منْ طوافي حولَ نفسي
أنا منها في خمارٍ كيفَ لي أشربُ منها
كلُّ حاناتِ الورى حطَّمْتُها في البَحْثِ عنها
أيُّها السَّاقي متى تنظرُ لي عينُ حنانك
ومتى الجمهورُ بالأقداح تروي منْ دِنانك
خلقُك اللَّهمَّ هذا لم يَذُقْ ذوقَ فتوني
وأنا ، إنْ لمْ تبدِّلْه يبدِّلْه جنوني
ما هو العارُ الذي يَلْحقُ هذا الفيلسوف
وهو بالسرِّ الذي خبَّأتَه أنت يطوف ؟!

* * *

نسمةُ الأسحار هذي نفحةُ اللهِ الخبيرْ

فـــي نسيـــج الـــرُّوح يجـــريهـــا كنُشْـــغٍ فـــي الضَّميـــر
يصبـــح الـــرَّاعـــي كمـــوســـى بتعـــاليـــمِ شُعيـــب
﴿ لا تخـــف ﴾ سيـــفٌ فخـــذهـــا وهْـــي وحـــيٌ دون ريـــب

* * *

مسجد قرطبة

(نظمت في أرض الأندلس وبخاصةٍ في قرطبة)

(١)

ضيـــاءُ الصُّبـــحِ بعـــد الليـــلِ آتٍ (ومـــن هـــذيـــن كـــلُّ الحـــادثـــاتِ)
همـــا فـــي الـــدَّهـــر خيـــطٌ مـــنْ حـــريـــرٍ تلـــوَّن بـــالحيـــاة وبـــالممـــاتِ
همـــا إيقـــاعُ أغنيـــةِ الحِجَـــابِ ولحـــنُ الحـــقِّ فـــي هـــذي الـــرِّحـــاب
علـــى وتـــر الخُلـــود لهـــم نشـــاطٌ مُلِـــمٌّ بـــالقَـــرار وبـــالجَـــواب
وعنـــدهمـــا بكـــلِّ النَّـــاسِ علـــمٌ همـــا حجـــرُ المحَـــكِّ لكـــلِّ شَغْـــبِ
فـــلا تفخـــرْ بقلبـــك دون زيـــفٍ وجـــرِّب مثلمـــا جَـــرَّبْـــتُ قلبـــي
فـــإن هـــو كـــان زيفُـــك مثـــلَ زيفـــي ولـــمْ يـــكُ لـــي ولا لـــكَ أيُّ قيمـــهْ
فعيـــدُك مثـــلُ عيـــدي عيـــدُ مـــوتٍ وحظُّـــك مثـــلُ حظِّـــي فـــي الـــوليمـــه
ومـــا المعنـــى ليـــومِـــك أو ليـــومـــي بـــلا ليـــلٍ يكـــون ولا نهـــار
إذا عبـــر النُّبـــوغُ بـــأرضِ قـــومٍ تـــولَّـــى مثـــلَ زوبعـــةِ الغُبـــار
حكـــايـــةُ كـــوننـــا وهـــمٌ وظـــنٌّ وهـــذي كـــلُّ أطـــوار الحكـــايـــهْ
مـــن العَـــدَمِ البـــدايـــةُ أخْـــرَجتنـــا وتـــرمينـــا إلـــى العَـــدَمِ النِّهـــايـــهْ

(٢)

المـــوتُ لا يَمْحـــو رجـــالَ اللهِ مـــنْ هـــذا الـــوجـــود
الحـــبُّ فـــي دمهـــم تلـــوَّنَ بـــالثبـــاتِ وبـــالخلـــود

مهمـــا يكـــنْ جـــريـــانُ هـــذا العصـــرِ جبَّـــاراً عنيفـــا
فـــالحـــبُّ يَجْـــرُفـــه ولكـــنْ سيلُـــه يَبْـــدُو لطيفـــا
الأمـــسُ والغـــدُ ليـــس وُجْهتَنـــا الَّتـــي نسعـــى إليهـــا
الحـــبُّ أزمنـــةٌ بـــلا أسمـــاءَ نُطلِقُـــه عليهـــا
مـــا الحـــبُّ ؟ مـــا هـــو ؟ إنَّـــه وثبـــاتُ أوقـــاتِ الصَّفـــا
فـــي نفحـــةِ الـــوحـــي الأميـــنِ علـــى فـــؤادِ المصطفـــى
مـــا الحـــبُّ ؟ سكـــرةُ وردةٍ خَلَـــعَ الجمـــالَ عـــذارُهـــا
لَعِـــبَ النَّسيـــمُ بهـــا عليـــه فقطعـــتْ أزرارَهـــا
الحـــبُّ فـــي ســـاحِ الجيـــوشِ هـــو المقـــدَّمُ والنَّبيـــه
والحـــبُّ فـــي الحَـــرَمِ الشَّـــريـــفِ هـــو المشـــرِّعُ والفقيـــه
أســـألْ بـــه متسكِّعـــاً خلْـــفَ الهـــوادجِ والقـــوافـــلْ
بيـــن الألـــوفِ مـــن المنـــازلِ والألـــوفِ مـــن المـــراحـــلْ
الحـــبُّ ليـــسَ مغنِّيـــاً الحـــبُّ إبـــداعُ الأغـــانـــي
أوتـــارُه نـــورُ الحيـــاة وقـــوسُـــه نـــارُ المعـــانـــي

* * *

مسجد قرطبة

(٣) و (٤) و (٥) و (٦)

قصـــرُ التَّـــاريـــخ ومسجـــدُهُ مـــا أروعَ مـــا صَنعـــتْ يـــدهُ
لِلْقَـــوْمِ بِصَـــدْرِ حكـــايتـــه صـــوتٌ مـــا زال يُـــرَدِّدُهُ
ظمـــأٌ لا ريَّ لـــهُ وبـــهِ طلـــبُ الظمـــآنِ ومَقْصِـــدُهُ
يـــزدادُ بـــرؤيتـــه ولهـــاً ويـــريـــدُ يقـــومُ فَيُقْعِـــدُهُ
وكـــأنَّ عـــلائـــقَ زينتـــه خَفَقـــاتُ القَلْـــبِ ومَعْقِـــدُهُ
فـــي الصَّخْـــرِ فنـــونُ ســـرائـــرنـــا بلطـــائفنـــا نتعهَّـــدُهُ

لِيَهِيْجَ رنينُ جوانبه بأنين الرُّوحِ نزوِّدُهُ
يا ظلَّ الغَرْبِ ودوحتَه من ذا تاريخُك يجحده
بكَ أضحتْ تربةُ أندلسٍ حَرَماً في الغربِ نُمجِّده
لاندَّ له في سؤدده إلا الإيمانُ وسؤددهُ
عربيُّ اللَّحن حجازيٌّ روحُ الإسلام تُخلِّدهُ
يمنيُّ العِطْرِ تهبُّ به أنسامُ الشَّام وَتَحْشُدُهُ
نظراتُ ظبائِك لاعبةٌ بسهامِ الحبِّ تكبِّدُهُ
أنا من كفَّارِ الهندِ وفي نظراتي ما لا تَجْحَدُهُ
وحماسةُ أغنيتي هذي من لحنِ قَلْبِك يُنْشِدُهُ
وصلاةُ الحبِّ على شفتي (وعلى خديكَ تورُّده)
الفتنةُ وجهُكَ يوقدها وأنا أشرحُ ما تُوْقِدُه
توحيدُ اللهِ لنا نورٌ وحياةُ القَلْبِ توحُّدُهُ
لو كلُّ رياحٍ في الدُّنيا اجتمعتْ لا تَقْدِرُ تُخْمِدُهُ
يحكيك جمالاً وجلالاً رجلٌ للهِ تعبُّدهُ
وحماسُ ضحاه وَوَجْدُ مساه وما يخفيه له غدهُ
ومسرَّتُه ومحبَّته وتواضُعُهُ وتودُّده
عذبُ الكلماتِ خفيفُ الرُّوحِ رقيقُ القلبِ مُسَهَّدهُ
أبديُّ الحبِّ نقيُّ الحَزْبِ مصونُ العِرْضِ مهنَّدُه
وعلى يده لله يدٌ بلطيفِ القُدْرَةِ تَعْضُده
العالمُ قصرُ خلافته وسماءُ العَالمِ مَعْبَدُه
سرُّ الكونين بنظرته وعن الكونين تجرُّده
وسرابُ العَصْرِ بنورِ الدِّين ونارِ الحبِّ يُبَدِّدهُ
هو أوّلُ سرٌّ في الدُّنيا ورجاءُ الكون ومَقْصِدُهُ
هو مِثْلُكَ شاغلُ عالمه بقديمِ الحُسْنِ يُجَدِّدُهُ

كنخيل الشَّام وأعْمُدِها شَمَخَتْ في المسجدِ أعمُدُه
تتألَّقُ زرقةُ قبَّتِهِ وتقيمُ الليل وتُقْعِدُه
وتَنَهُّدُها في وَحْدتها كالطُّورِ كواهُ تنَهُّدُهُ
بَعَثَتْ جبريلَ منائرُها بجمالٍ أنْتَ مُحمَّدُه
نادى إبراهيمَ وموسى لشهودٍ هذا مَشْهَدُه

(٧)

إنَّ أرضاً أنتَ فيها لسماءٌ لِلْعُيونْ
كيف لم يسمع أذاناً أهلُها مُنْذُ قرونْ
ليت شعري كيفَ أسرى موكبُ الحبِّ الغَضُوبْ
ليت شعري ما يرى الآن وفي أيِّ الدُّروب
هيَّج الألمانُ حولَ الدِّين إصلاحاً عريقا !
بدَّدَ الأسرارَ لم يتركْ لها بيتاً عتيقا
أصبحتْ منه هباءً عصمةُ الباب العجوزْ
وأفاق الفِكْرُ لا يعرفُ شيئاً لا يجوزْ
منذ أنْ ثارتْ فرنسا بدأ الغرب العِراكا
لمْ تَعُدْ تُبْصِرُ فيه بعدها إلا ارتباكا
هي ذي روما التي شاخَتْ على العَهْدِ القديم
تحتسي خمراً جديداً معها البابا نَدِيْم
في فؤادِ المُسْلِمِ اليومَ كهذا الغَلَيان
هو سرُّ الله عن تبيانه كلَّ اللسان
فارقُبوا منْ ذلكَ الواثبُ في بحر القضاء
وارقبوا الكُوبَ الذي يختارُه مَاءُ السَّماء

(٨)

تميلُ سحابةُ الوادي فتحكي فيه غطاسا

رمَتْها الشَّمسُ بالياقوتِ أكداساً فأكداسا

وأغنيةُ ابنة الفَلاَّح تُطْربُ رُغْمَ ركَّتها

بِرقَّتها إذا غَنَّت وآهتها وأنَّتها

كأنَّ غناءَها فيضٌ يُقلُّ سفينةَ القلب

تغازلُ نهرَ قُرْطُبَة الذي يذخرُ بالحبِّ

هنالك يَرْتَعُ السَّاري هنالِكَ تَصْدَحُ الورقُ

كأن النَّهر تاريخٌ يغنِّي فوقه الشَّزقُ

نعمْ ، ما زال عالَمُه الجديدُ يحوطُهُ القَدَرُ

ومثلي ليسَ يُعْجِزُه على إدراكِه نَظَرُ

ولو هَتَكْتُ أستاري وأسْفَرَ وجهُ أفكاري

لَكلَّ الغربُ أن يحمل ما غنَّتْه أوتاري

حياةٌ ليس فيها ثورةٌ موتٌ لطالبها

وهل لحياتنا فكرٌ يكونُ لغير غالبها

وبدءُ الفِكْرِ بدءُ تأهُّبِ الأحرار للخَطَر

وشعبٌ واثقُ الخطوات سيفٌ في يدِ القدر

إذا الآثارُ جوهرنا أبَتْهُ عابَها النَّقْصُ

وإنْ لم تأخذِ الأنغامَ عنَّا أضحكَ الرقصُ

* * *

صرخة « المعتمد »[1] في السِّجن

تكــادُ صــرخــةُ قلبي عنــد حَنْجَــرتــي تشــقُ مــن كَتْمهــا قلبــي وتنطلــقُ
كــأنَّهــا جمــرةٌ فيــه بــلا شَــرَرٍ قلبــي بهــا دون كــلِّ النــاسِ يحتــرقُ
كــذاك تفعــلُ بــالحــرِّ الحيــاةُ إذا أرادَ شيئــاً وحــالــتْ دونَــه الطُّــرقُ
أليــسَ عــاراً علــى الأحــرار يسجنُهُــمْ مــع العبيــد دعــيٌّ جيشُــهُ الحَمَــقُ
لعــلَّ فــولاذَ سيفــي صِيْــغَ ثــانيــةً غــلّاً لكفــي الَّتــي لــم يَثْنِهــا فَــرَقُ
لا أشمــتَ اللهُ بــالأقــدارِ حــاســدَنــا فليــسَ شــيءٌ مــن الأقْــدار يُسْتَبَــقُ

* * *

(١) المعتمد بن عبّاد : ملك إشبيلية حالف الفونس السادس فأسره يوسف بن تاشفين وألقاه في السجن فمات فيه .
وقد نشرت قصائده مترجمة إلى اللغة الإنكليزية في سلسلة (WISDOM OF the east) (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

النخلة الأولى[1]

(١)

(يلاحظ أن المقطع الأول من القصيدة ترجمة لقصيدة عبد الرحمن الأول التي وردت في نفح الطيب ٣/ ٥٤ وقد غُرِسَت النَّخلةُ في مدينة الزَّهراء ، والقصيدة كما ذكرها المقريّ) .

تبـدَّت لنـا وسـط الـرُّصـافَـةِ نخلـةٌ ... تناءتْ بأرضِ الغَرْبِ عن بلدِ النَّخل

فقلـتُ شبيهـي فـي التغـرُّب والنَّـوى ... وطولِ اكتئابي عن بنيَّ وعن أهلي

نشـأتِ بـأرضٍ أنـتِ فيهـا غـريبـةٌ ... فمثلكِ في الإقصاءِ والمُنْتأى مثلي

سقتْكِ غوادي المُزْنِ في المُنْتأى الذي ... يسُحُّ ويستمري السِّماكينِ بالوَبْلِ

---

(١) وقد ترجمها الشاعر كما في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

أنت نورُ عيني
أنت فرحُ قلبي
أنا بعيدٌ عن وطني
وأنت عندي شجرةٌ من سيناء
ترعْرَعَتْ في أرض الغرب
ومع ذلك فأنت حوريةٌ من الصحراء العربية
أنا نَفَذَ صبري في غربتي
وأنت نَفَذَ صبرُك في غربتك
أيمكن أن تؤتي ثمارَك في الأرض الغربيّة
عسى أن يكونَ ندى الصَّباحِ هو الذي يَسْقيك .

(٢)

(وقد استوحى إقبال المقطع الثاني من القصيدة ذاتها لذلك آثرنا نظم المقطع الثاني على نهج أبيات عبد الرحمن) .

وأعْجَبُ ما في الكونِ غربةُ مثلنا ... وفي الشَّام من أمثالنا عَدَدُ الرَّملِ
وما زلتُ في التَّطوافِ ألقى على المدى ... زماناً غريب الوجه مختلف الشَّكل
وليس لهذا البحر من ساحلٍ يُرى ... مضيتُ به عريانَ مُمْتَشِقاً نصلي
وما منْ حياةٍ للَّذي أنِفَ الرَّدى ... وهل يقدح الزِّند الشرارَ من الوحل
إذا شامَ طرفي البرقَ زادَ تألُّقاً ... وحنَّ بذكرِ الشَّامِ للأعين النُّجْلِ
وما ضرَّنا مُلْكٌ تركناه خلفنا ... فكلُّ بلادِ الله ملكُ ذوي العَذْلِ
سنبني كما كُنَّا بنينا لغيرنا ... وحاشا لأهلِ الجُوْدِ توصمُ بالبُخل
إذا نَضَبَتْ أجسادُنا منْ دمائِنا ... فمنزلُنا ريَّانُ من غَدَقِ البَذْلِ
ستذكُرُنا الدُّنيا وتندُبنا الورى ... وتطْلُب من آثارنا كعبةَ الفضلِ
يقال هنا صلَّتْ وضجَّت قلوبُهم ... هنا انتبذَتْ أرواحَها رسلُ النَّخْلِ

***

إسبانيا

(كُتبت في إسبانيا ساعة مغادرتها)

صـوتُ المنـائـر فـي نسيمِـك يَـرْقُـدُ وصـداه فـي أرواحنـا يتـردَّدُ
يـا تـوءَمَ الحـرم الشـريـف تطـوَّفَـتْ بـكِ رُكَّـعٌ مـن عـاكفيـنَ وسُجَّـدُ
سيمـاكِ مـن أثـرِ السُّجـود علـى الثَّـرى طـربٌ يفـوحُ ونضـرةٌ تتجـدَّد

* * *

تحكـي النجـومُ أسنـةً لـرمـاحهـم بـإزائهـا ليـلٌ يقـومُ ويَقْعُـدُ
ملـؤوا وهـادَك بـالخيـامِ ولـم تـزلْ أوتـادُهـا بنسيمهـم تتـأوَّدُ
إنْ تسـألِ الحسنـاءُ عـن حُنَّـائهـم فتَخيـبُ يُنْصِفُهـا دمـي المتـورِّدُ
يـا طـالمـا سُفِكـتْ هنـاكَ دمـاؤُنـا ظُلمـاً ونحـنُ المشفقـونَ العُـوَّدُ

* * *

مـا كـان صقـرُ قـريشٍ غيـرَ مـوحِّـدٍ عجبـاً أمـا فـي المسلميـن مـوحِّـدُ
خَمَـدَتْ حقيقتُنـا وزالَ لهيبنَـا وبـريـقُ قـرطبـةَ الشَّـريـدُ مخلَّـدُ
ووقفـتُ لا نـومـي حَمَـدْتُ ولا السُّـرى أتكبَّـد الجـرح الـذي أتكبَّـدُ
عـانيـتُ مشهـدهـم وقُلْـتُ وقيـل لـي سِيَّـان قـولٌ فـي العـزاء ومَشْهـدُ

* * *

ستُهتـك الأستـارُ عـن سيئـاتنـا وتُبـاحُ أسـرارٌ لنـا وتُبـدَّدُ
ويكـونُ أول مـن يقـومُ بهتكهـا للنـاس أولَ مصلـحٍ يتحمَّـدُ

* * *

دعاء طارق

نزل طارق بن زياد ـ القائد الشاب ـ بجيشه العربي المسلم على أرض إسبانيا ، مدخل أوربة ، وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي لتتقطع بالمسلمين أسباب الرُّجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه : « **أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر** »[1] ، فيثير ذلك فيهم القوة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم على سواعدهم وسيوفهم .

صفَّ طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه فرأى أنه لا يكافىء الجيش الإسباني في العُدَّة والعَدَد ، ووصول الميرة والمدد ، فإن العدو في مركزه ومملكته ، والجيش الإسلامي غريبٌ منقطع عن مركزه وبلاده ، لا يطمع في ميرةٍ ولا مددٍ ، إلا ما ينتزعه من أيدي عدوه انتزاعاً ، ويتغلَّب عليه ، ويعرف أنه لو حدث به حدث ، ودارت عليه دائرة لأصبح خبراً من الأخبار ، وكان طعمةَ السباع والنسور .

كل ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ، وفكَّر فلم ير حيلة إلا أن يضم إلى هذا الجيش قوةً لا تُهزم ، وإرادةً لا تغلب ، إنها القوة الإلهية ، وإنها الإرادة الربَّانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه ، أليس هذا جند الله ؟ أما جاء ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد قال الله : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] .

---

(١) قطعة من خُطْبة طارق بن زياد .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربه ، ويطلب نصره ، وكان في ذلك مقلِّداً للرسول الأعظم ﷺ - قائد الكتيبة المؤمنة الأولى - إذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفَّه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يبكي ، ويقول : « **اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد** » ، فتأسَّى طارق برسوله وسيده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ولا يخطر منهم على بال ، وقد سبكه محمد إقبال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسحره .

قال طارق : اللهم ! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهاداً في سبيلك ، وابتغاء مرضاتك ، رجالٌ غامضون مجهولون لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك ، لقد منحتهم طموحاً وعلوَّ همة ، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم ، يحكمون الدنيا كلها بحكمك وينفذون فيها أمرك ، لا يعلوهم غيرك ، أبطال مغاوير ، تنفلق بهيبتهم البحار ، وتنضوي لصولتهم الجبال ، لقد ذاقوا لذة الإيمان والحب ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها ، وذلك شأن الحب إذا خالطت بشاشته القلوب ، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلى الشهادة ، التي هي وطر المؤمن العزيز ، وهمه الوحيد ، لا يفكرون في الغنائم ولا في فتح البلاد ، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد .

إنَّ العالم قد وقف على شفا حفرة من النار ، لا يمنعه من التردي في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ونفوسهم بسخاء وشجاعة ، إن العالم بحاجة إلى دمٍ عربيٍّ زكيٍّ ، فلا يروي غليله ، ولا يشفي عليله إلا الدم العربي الطاهر ، ها إن الأزهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، فترفل في حلته ، وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ، ونريق دماءنا في هذه الأرض النائية ، لتخصب الإنسانية بعد جدب طويل ، ويحل الربيع بعد انتظارٍ شاقٍّ طال أمده .

لقد أكرمت يا رب ! رعاة الإبل وسكان الوبر - العرب - بنعم فريدة لم يشركهم فيها أحد ، لقد أفردتهم بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وشعار جديد ،

هو : أذان الصبح ، فقد أفلست الأمم من العلم الصحيح ، والإيمان القوي ، والذوق الرفيع ، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد ، على حين غفلةٍ من الناس ، أما العرب فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم ، وجدة إيمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودويِّ أذانهم في السكون المخيم على العالم ، والظلام الحالك ، لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرونٍ طويلة ، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان ، إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الإنسانية ، إنهم يرون فيه فتحاً جديداً ، وعيشاً جديداً ، أعد يا رب ! إلى هذه الأمة المؤمنة الحمية الإيمانية والغضبة المؤمنة ، التي تجلَّت في دعاء نوح ، فقال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦]. حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد ، وأخلق فيها المطامح البعيدة ، والعزائم القوية الشديدة ، واقذف في قلوب الناس رعبتها ، وهيبتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف(١) .

وقد استجاب الله دعاء طارق ـ القائد المؤمن المخلص ـ وانتصر الجيش الإسلامي على عدوه ، الذي كان يفوقه مراراً في العَدد والعُدد ، وأصبحت إسبانيا النصرانية الأوروبية الأندلس الإسلامي الغربي ، وقامت دولة المسلمين في ربوعها وازدهرت قروناً ولم تضعف ولم تزل ، إلا بفقدهم الروح التي تضلع بها طارق وأصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التي جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم في الإيمان الذي امتاز به طارق بين قادة الجيوش ، وفاتحي البلاد ، وبانغماسهم في الشهوات والحروب الداخلية ، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب : ٦٢](٢) .

* * *

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) ديوانه .

(٢) من « روائع إقبال » للعلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي .

دعاء « طارق »

« نُظمت في ساحة المعركة في الأندلس »

هـــذي الكُمَـــاة عبـــادُك الأخيـــارُ — حملـوا عَنَـاءَ العـالميـن وسـاروا
أصحـابُ سـرِّكَ والسِّيـادةُ طبعهـم — والنُّـور فـي نظـراتهـم والنَّـارُ
فعلتْ كموسى في البحار عِصِيُّهم — وتـراجعـت لخطـاهـمُ الأنهـارُ
البَحْـرُ حَبَّـة خـردل فـي كفِّهـم — والعِشْـقُ فـي أرواحهـم إعصـارُ
عـزفـوا عـن الـدَّاريـن إلا أنَّهـم — علـمٌ علـى الـدَّاريـن لا ينهـارُ
نيـلُ الشَّهـادة للمـوحِّـد مطمـحٌ — وإذا تقحَّـمَ فـالجـراحُ غبـارُ
لا سَبْـيَ غـانيـةٍ وسَلْـب خـزانـةٍ — ومطـامـحُ الهمـمِ الكبـارِ كبـارُ
كلُّ العباد على اختلافِ عروقهم — تـرجـو رجـاءَ شقـائـقِ النُّعمـانِ
تـرجـو مـن العـربـيِّ لـونَ دمـائـه — وتضـجُّ ليـلَ نهـارَ فـي البُستـانِ
ربَّـاه أنـت بَعَثْـتَ مـن صحـرائهـم — سكَّـانهـا وجعلتهـم أفـذاذا
ومـلأتَ صَـدْرَ الصُّبـح مـن آهـاتهـم — وجَعَلْـت أعـرابيَّهـم أستـاذا
طـوتِ الحيـاةُ الـدَّهـر تنشـد طُلْبـةً — عـزَّتْ وطلبتُهـا مـذاقُ النَّـار
وبـروحهـم عثـرتْ عليهـا بعـدمـا — كلَّـت مـن التِّـرحـال والتِّسيـار
المـوتُ ليـس نهـايـةً فـي عينهـم — هـو للبصيـرة بَـابُهـا المفتـوحُ
ربَّـاهُ ! فـابعـث مسلميـن أعـزَّةً — يتـوسلـون كمـا تـوسـلَ نـوحُ
لتغيُّـرات العَصْـر مـن ثـوراتـه — وهـمٌ وأنـت الفـرد لا تتغيَّـرُ
ربـاهُ ! أنـت هـو الحقيقـةُ كلُّهـا — والنَّـاس منهـا مـوسـرٌ أو مُعْسـرُ
الـدَّهـر ملـك يـديـك ليـس لأهلـه — إلا ظنـونُ الـواهـم المتقـوِّلُ
يتنـازعـون علـى تفهُّـم عـالـمٍ — سكـرانَ مـن مـاضٍ ومـن مستقبـلِ

* * *

« لينين » أمام الله[1]

يـــا مـــن نـــرى فـــي النَّفـــس والآفـــاقِ مـــن آيـــاتـــهِ
الحـــقُّ : أنَّـــك خـــالـــدُ حـــيٌّ يقـــوم بـــذاتِـــهِ
مـــا كـــان يمكـــنُ فـــي وجـــودك أنْ يكـــونَ علـــى يقيـــنْ
والعقـــلُ يخـــرجُ مـــرغمـــاً عـــن رأيـــه فـــي كـــلِّ حيـــنْ
مـــا كـــان يـــدركُ عقلُنـــا فـــي طيـــشِ نظـــرتـــه السَّـــريعـــهْ
مـــا كنـــتَ تُـــرْسلُـــه مـــن الأنغـــام فـــي خَلَـــدِ الطبيعـــهْ
سِيَّـــان رصَّـــادُ النُّجـــوم ومـــن تـــوغـــل فـــي النبـــات
وقفـــوا علـــى مِـــرْصـــادهـــم والكـــلُّ ينقصـــه الثبـــات
اليـــومَ أعلـــنُ بعـــدمـــا شـــاهـــدت عـــالمـــك الأخيـــرْ
وأنـــا الـــذي كـــابـــدتُ أفهمُـــه وعـــانيـــت الكثيـــرْ
أنِّـــي - وتعلـــم - لـــم أكـــنْ وحـــدي هنـــالـــكَ فـــي غُـــرور
كـــانـــت أســـاطيـــر الكنيســـةِ حـــول عَتَمَتِنـــا تـــدور

---

(١) علَّق الأستاذُ الملُوحي على القصيدة بقوله : يهمُّ القارىء أن أذكر تعليقاً على هذه القصيدة ورد في كتاب « مدخل إلى فكر إقبال » للكاتب الفرنسي (لوك كلومبتر) (طبع بيرسيجرس باريس عام ١٩٥٥م) وفيه ص٧٣ :
هذه القصيدة العجيبة كتبها إقبال آخر سني حياته ، ويخطىء من يرى فيها تغيُّراً في وجهة أفكاره والصحيح أنها تعميق لهذا التفكير . . فليست هي المرة الأولى التي يفضح فيها إقبال مساوىء الرأسمالية .
ويجب أن نقول إنَّ هذه القصيدة تدل على يقظة وجدان أكثر وضوحاً وأشد وعياً للواقع الاجتماعي ونجد بها هذا الغضب الرَّاعد الذي كلُّه حب وصفاء .
انظر مجلة فكروفن عدد ٣٢ ص٧٩ وما بعدها .

كنَّـــا هنـــــاك مكبَّليـــــن بكـــــلِّ أغـــــلالِ الليـــــالـــي
أيـــامَ أنـــتَ تصـــوِّر الأزمـــانَ فيـــه علـــى التَّـــوالـــي
قلبـــي يمـــزِّقـــه ســـؤالٌ فيـــه فـــائـــذن بـــالســـؤال
تـــركَتْـــه خـــوفـــاً مـــن عـــواقِبـــه أبـــاطـــرةُ الجِـــدال
هـــذا الســـؤال وكـــان طـــول العُمْـــرِ يـــرمينـــي شـــريـــدا
ويثيـــرُنـــي تحـــت السَّمـــاء أســـىً ويتـــركنـــي وحيـــدا
هـــذا الـــذي ألقـــى بـــأيـــامـــي حُطـــامـــاً فـــي الـــوِهـــادِ
هـــذا الســـؤالُ وكـــان مغـــروســـاً كشـــوكٍ فـــي فـــؤادي
هـــذا الســـؤال عـــن الأنـــام ولـــن أجـــور علـــى الأنـــام
وأنـــا تضـــايقنـــي مـــراقبـــة الطَّـــريقـــة فـــي الكـــلام
فـــالمـــرءُ لمـــا تعصـــفُ الأفكـــارُ فـــي أرجـــاء روحـــه
لا يستطيـــع تخيُّـــر الكلمـــات تخـــرج مـــن جُـــروحـــه
[مـــنْ كـــان آدمُ حيـــنَ كـــان الطيـــن صلصـــالًا عليـــه
مـــنْ كـــان سيِّـــده ســـؤالٌ لا أوجهـــه إليـــه]
إيَّـــاك يعبـــد ـ لا أظـــنُّ وأنـــتَ عـــلَّامُ الغيـــوب ـ
عـــاصَـــرْتُـــه أيـــامَ كـــان الـــدِّيـــن أفيـــونَ الشُّعـــوب
عـــاصَـــرْتـــه متـــرنِّحـــاً بهيـــاكـــل الصَّنـــم القبيـــحْ
فـــي درب أوربَّـــة التـــي ائتمـــرتْ علـــى الشَّـــرق الجـــريـــحْ
فـــي درب أوربـــة التـــي تبـــدو منـــاراً للحيـــاة
والحـــقُّ أنَّ النَّبـــع فـــي ظلمـــاتهـــا نبـــعُ الممـــات
تـــاهـــت بـــأبنيـــةِ المصـــارفِ فـــوق أبنيـــةِ الكنـــائـــس
وأتـــتْ لهيكلِهـــا الجـــديـــدِ بكـــلِّ أنـــواعِ النفـــائـــس
قـــالـــوا تجـــارات تـــدارُ وكـــلُّ مـــا فيهـــا قمـــار
ومصـــادفـــاتٌ تجعـــل البُلـــدان فـــي جيـــب الكِبـــار
أيُّ السيـــاســـةِ والحكـــومـــةِ والكنيســـةِ والسَّمـــاء

رفعـــوا مســـاواةً تقـــال وأشـــربـــوا حُـــبَّ الـــدمـــاء

العُـــزيُ والفقـــر المبـــادلُ والبَطـــالـــة والفَســـاد

آيـــاتُ أوربَّـــة التـــي انتشـــرت بـــأنحـــاءِ البـــلاد

أسفـــاً لشعـــبٍ كـــامـــلٍ ردَّ المحبَّـــة للسَّمـــاء

حُصِـــرَتْ روائعُـــه بمـــا أوحـــتْ إليـــه الكَهْـــربـــاء

لـــم يَبْـــقَ بعـــد حكـــومـــةِ الآلات معنـــىً للقلـــوب

كـــان الحنـــان مـــلاذُنـــا فَمَحَتْـــه مـــن بيـــن الشُّعـــوب

وبـــرُغـــم هـــذا كلِّـــه تبـــدو الـــدَّلائِـــلُ أنَّهـــم

سيُبـــدَّدُون وَيَقْـــرَعـــون علـــى الهـــزيمـــةِ سِنَّهـــم

حـــانـــاتُهـــم وقعـــت بمـــا نصبـــوه مـــن تلـــكَ الشِّبـــاك

فـــإذا شيـــوخُ السُّكـــر ممـــا يشـــربـــون بـــلا حَـــرَاك

الحمـــرة الملقـــاةُ فـــوق وجـــوههـــم عِنْـــدَ المســـاء

آثـــارُ خمـــرٍ زائـــفٍ وخضـــابِ زورٍ لا دِمـــاء

ربَّـــاه ! أنـــت القـــادرُ الحـــقُّ الـــرَّحيـــم العـــادِل

مـــن ذاق مـــن مـــرِّ المعيشـــة مـــا يـــذوقُ العـــامِـــلُ

الـــرأسمـــاليـــون مـــركبُهـــم يُعَـــرْبـــدُ فـــي بحـــارِكْ

فمتـــى تُغَـــرِّقُـــه وتـــأخـــذُ مـــن مظـــالمهـــم بثـــارك

* * *

الملائكة تغني

« مقطوعة تابعة لقصيدة لينين »

الفِكْــرُ حــرٌّ لا يُــرَدُّ جِمــاحُــهُ والحــبُّ لا مــأوى لــه يُــؤويــهِ
رباه ! لـوحتُـك التـي لـم تكتمـلْ جـارت علـى السرِّ الَّـذي تطـويـه
كُهـان خلقـك فـي صفـوف طُغـاتهـم يَقِفُـون للبسطـاء بـالمـرصـادِ
محــنٌ صبــاحَ مســاءَ لا معنــى لهــا إلا لجــوءُ النَّــاس لــلإلحــادِ
فقـراؤهـم مـن بـؤسهـم فـي سكـرةٍ والأغنيـاء مـن الـرَّفـاه سُكـارى
عبــدٌ يلــمُّ مــن الشَّــوارع خبــزَه عــوَزاً ، وعبــدٌ يُطْعــمُ الأقمــارا
هـل تَسْلَـمُ الحكمـاءُ والفقهـاءُ من طمـعٍ تـأجَّـج فـي النُّفـوس وَقِيْـدُهْ
أمْ تَسْلــمُ الآراءُ مــن لعنــاتــه هــذي عطـايـاه ، وتِلْـكَ عبيـدُهُ
يــرعَــونَ كـلَّ ضغينــةٍ لبقــائهــم والحــبُّ مـن ألـم الشَّقـاء يصيـحُ
سبحـانَـك اللهـمَّ فـالحـبُّ الـذي يـأسـو جـراحَ البـائسيـن جـريـحُ
ذاتُ الحيـاةِ الحـبُّ جـوهـرُ سرِّهـا والحــبُّ جـوهـرُه حيـاةُ الـذَّاتِ
أسفـاً لهـذا السيـف يخبـطُ سـرَّه فــي الغِمْـدِ بيــن الـذُّلِّ والآهـاتِ

* * *

« أوامر الله للملائكة »

قــومــوا إلــى كــونــي الغــريــقِ وأطلقــوا فقــراءَه فيــه علــى الأمــراء
أيبــدِّلــون مســاجــدي بقصــورهــم جــوراً علـى خلقـي وهـم أُجَـرائـي

قوموا إليهم وانفخوا من روحنا فيهم ولا تأسَوا على أسراره

قولوا لحائرِهم تبدَّل أمرُكم فاستبدلوا بَرْدَ اليقين بنارِه

قوموا إلى ضعفائهم وهَبُوهُمُ ما يجعلُ العُصفورَ يَصْرَعُ بازا

وامحوا منَ الماضي جميعَ ذيوله لا تتركوا للجامِدين مفازا

وخذوا من العَدْل الأخير لأرضهم سيفاً يقيمُ بحدِّه الإصلاحا

وتقلَّبوا بالنَّار في الحقل الذي تجدونه لا يشبعُ الفلَّاحا

لم هذه الحُجُبُ التي تلهو بهمْ وتحولُ بينَ الخلقِ والخلَّاقِ

لا تتركوا في الأرض ستراً مسبلاً أرخاه كاهنُهم على أرزاقي

ومن الكنائس أخرجوا أربابها الغارقينَ بلُجَّة الأوهام

لله قد شُرع السُّجود وما عدا هذا، مؤامرةٌ مع الأصنامِ

جوسوا الكنائسَ والمساجدَ لا أرى لكنيسةٍ ولمسجدٍ مصباحا

أنا غير راضٍ عن رخامٍ أبيضٍ تلقى به سودُ القلوبِ مراحا

وابنوا من الطِّين المعابدَ علَّ أن يَجِدَ السكينة عابدي المسكينُ

يتنافسون بِنَقْشِها وبرَقْشِها والطِّينُ لا يهديه إلا الطِّينُ

* * *

فتَّشْتُ في هذي الحضارةِ كلِّها لم ألقَ فيها غيرَ نافخِ كير

فتداركوا الشَّرقَ الذي يرنو لها وليغلُ شاعرُه بصوتِ نكيرِ

في الغربِ فلسفةٌ وفي تصديقها تهديمُ صَرْحِ الذَّات في الإسلام

وصميمُ ذاتك في حوار إلهها وحوار موسى ليس محضَ كلام

آثارُ دروشةِ القلندر لم تعُدْ سراً ودروشة القلندر تاجُهُ

في كبرياء الفقر صونُ ذواتنا والمرءُ محكومٌ بما يحتاجُه

* * *

في أرض فلسطين

تحرَّكت السياراتُ التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) ، ودخلت في الفضاء الواسع ، وطلعت الشمس ، وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأنها جداول نور نبعت من عين الشمس ، ولم يزل الشروق مصدر سرورٍ وإلهامٍ للشعراء ، يجدون فيه الحياة للقلب والنشاط للفكر ، والتقى جمال المكان بجمال الزمان ، فأثار ذلك الشاعرية في الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير الدكتور محمد إقبال ، الذي جاء من أوربة يمثل الهند الإسلامية في المؤتمر الإسلامي ، وبدأ يتمتَّع بهذا المنظر الخلاب ، ويسخو بنظراته ـ التي يحتفظ بها الشعراء ـ في سبيل القلب ، فكلُّ نظرة تضيع في جمال الطبيعة ترجعُ إلى القلب بالربح العظيم ، لأنها تشحن « بطاريته » بالنور الجديد ، والقوة الجديدة .

هذا وقد تهيأ الجو ، وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر العظيم وإثارة قريحته ، فقد غطت الجو سحائب ذات الألوان ، واكتست جبال فلسطين بطيلسانٍ جميلٍ زاهي اللون ، وهبَّ النَّسيم عليلاً بليلاً ، وهفت أوراق النَّخيل مصقولةً مغسولةً بأمطار الليل ، وأصبحت الرِّمال في نعومتها وصفائها حريراً .

ورأى الشاعر العظيم آثار نيرانٍ انطفأت قريباً ، وأثافيَّ[1] منثورةً هنا وهناك ، وبقايا من خيام وأخبية ، ضربت في هذه الصحراء بالأمس القريب ، وتخبر بالقوافل التي أقامت ثم ظعنت .

وطاب المكان والزَّمان للشاعر ، وسمع كأن منادياً من السماء يحثه على أن

---

(١) الأثافي : الحجارة التي توضع عليها القدور .

يلقي عصا التسيار ، ويؤثره بإقامته[1] .

حرك هذا المنظر البديع في هذا المكان الرفيع ، الذي أكرمه الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية ، عواطف الشاعر وهاجت قريحته ، وتحرك الحبُّ الدفين ، ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن ، وتظهر الكوامن ، فيتذكر الإنسان أحب شيء إليه ، فيحن إليه ، ويتمثله ، ويتغنَّى به ، وقد حلَّ « الإسلام » ، وحلت الأمة الإسلامية في قلبه محلَّ الحبيب الأثير ، وسيطر حبه على مشاعره ، فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر حبيبه وتغنَّى بجماله ومحاسنه ، وركز آماله وأحلامه عليه ، وقال بلسان الشاعر العربي البليغ :

ولما نزلنا منزلًا طلَّه النَّدى أنيقاً ، وبستاناً من النور حاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنه منىً ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

وثارت فيه العواطف والخواطر ، ورأى أنَّ ركب الحياة بطيء لا يسايره في أفكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى أن العالم عتيق شائب ، وفكره « الإسلامي » جديد فتيٌّ ، ورأى أن العالم قد تجددت فيه أصنامٌ وأوثان ، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم القومية ، والوطنية ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات .

وقد تسربت هذه الوثنية إلى العالم الإسلامي والعربي ، أفليس العالم في حاجة إلى ثورةٍ إبراهيميةٍ جديدةٍ ، إلى كاسر أصنامٍ يدخل في هذا الهيكل فيجعل هذه الأصنام جذاذاً ؟

وسرح طرفه في العالم الإسلامي ، فوجد إفلاساً محزناً في العقل والعاطفة ، رأى العربي قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجمي قد فقد العمق والسعة في التفكير ، ورأى أنَّ النظام المادي ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ،

---

(١) الوصف للمكان والمنظر لإقبال ، نقلناه إلى العربية في لفظنا .

ويثور كالليث ، ويمثل الحسين بن علي في حميته وفروسيته .

ورجا العالم الإسلامي أن يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربي ، ويفاجىء العالم بصراحته وشجاعته ، وتطلع العالم إلى الحجاز ـ معقل الإسلام وعرين الأسود ـ فما كان منه إسعاف وإنجاز ، ولم تتجدد معركة كربلاء على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدة حاجة الإنسانية إلى ذلك ، ورغم شدة حنين العالم الإسلامي إلى بطله الجديد .

وهناك شعر محمد إقبال أنَّ السبب في هذا التحول العظيم ، هو ضعف العالم الإسلامي في العاطفة والحب ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ، ويقول :

« لا بدَّ أن يعيش العقل والعلم في حضانة الحب ، وإشرافه وتوجيهه ، ولا بد أن تسند الدين وتغذيه عاطفةٌ قوية ، وحب منبعه القلب المؤمن الحنون ، فإذا تجرَّد الدين عن العاطفة والحبِّ أصبح مجموعةً من طقوس ، وأوضاع ، وأحكام لا حياة فيها ولا روح ، ولا حماسة فيها ولا قوة ، هذا الحب الذي صنع المعجزات ، هو الذي ظهر في صدق الخليل وصبر الحسين ، وهو الذي تجلى في معركة بدر وحنين » .

وهنا يُقبل الشاعر الكبير على « المسلم » الذي دائماً يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته وشخصيته ، فيقول : **« إنك غاية وجود هذا الكون ، ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه إلى الوجود ، وأنت البغيةُ المنشودة ، التي هام في سبيلها الهائمون ، وحار في الوصول إليها الباحثون »** .

ثم يستعرض العالم الإسلامي ـ وقد عرف شرقه وغربه وعربيه وعجميه ـ فيحزنه قصر النظر ، وقلَّة الذوق في رجال العلم والثقافة ، وسقوط الهمَّة ، وقلة البضاعة[1] في رجال الدين ، ويرى أن المراكز العلمية والدينية ـ بمعناها

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما همَّ بصدره .

الواسع ـ محرومةٌ من عمق الفكر ، وسلامة الذوق ، والنشاط العقلي ، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز التي تتزعم العالم الإسلامي ، وتقود الأجيال البشرية ، ويقول : « **إني هائم في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أمس نوراً وحرارة ، وقد قضيت حياتي في البحث عن تلك الأمجاد التي مضت ، وأولئك الأبطال الذين رحلوا وغابوا في غياهب الماضي ، إن شعري يوقظ العقول ، ويهز النفوس ، ويربي الآمال في الصدر ، ولا عجب إذا كان شعري يملأ القلوب حماسة وإيماناً ، وكان وقعه في النفس كبيراً وعميقاً ، فقد سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي ودعائي ألا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد** » .

ثم يقبل في شعره إلى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنَّه ذرةٌ حقيرة أو قطرةٌ صغيرة في جنب هذه السعة التي لا نهاية لها ، وكيف أشرق نوره على ذرةٍ فكانت شمساً بازغة ، وكيف تجلى بالجلال فكان في الأرض ملوكٌ كبار ساقوا الأمم وحكموا العالم ، وكيف تجلى بالجمال فكان زهاد وعباد ، زهدوا في متاع الدنيا ورفقوا بخلق الله ويقول : « **إن الحنين إليك هو حادي الروح ورائد القلب ، وهو الذي يضفي على صلاتي ، وعبادتي حياةً روحانية ، فإذا تجردت صلاتي من هذا الحنين لم أر أنها تقربني إليك ، لقد وجد عندك العقل والعاطفة ما يعوزهما وما يحتاجان إليه ، فأصبح العقل ـ بعد توفيقك ـ يغيب أحياناً ، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركد ، واقتصر على الدراسة والتفكير ، ووثق بنفسه ، وعرفت العاطفة الحضور والاضطراب** » ، ويناجي ربه ويقول : « **إن الشمس لم تستطع أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الأرض بنور ربها ، ويعيش العالم من جديد** » .

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيداً في دراساته العلمية الطويلة الواسعة ، وأنه قد اتضح له أخيراً أن المعلومات لا تعطي الثمرات ، وليس كلُّ من درس

علم النخيل تمتع بالرطب ، ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة ، والمصلحة والإيمان ، ذلك الصراع الذي لم يزل ولا يزال قائماً حامياً ، ويذكر معركةً قامت في فجر التاريخ الإسلامي بين المادة والإيمان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع راية الإيمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكلٍ حلفاء ، ولكلٍ معسكر[1] .

فلينظر العالم العربي إلى أيِّ معسكر ينضم ؟ إلى معسكر المادة والمعدة ، أم إلى معسكر الإيمان والإخلاص ، وإلى أيِّ رايةٍ ينضوي ؟ إلى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم إلى الراية المحمَّدية التي التفَّ حولها أبو بكر وعمر[2] .

في أرض « فلسطين »

كُتبت أكثرُ هذه الأبياتِ في فلسطين حين زيارة إقبال لها عام ١٩٣١ للاشتراكِ في المؤتمر العالمي الإسلاميِّ .

مـن الفقـرِ أن تـأتـي وفـاضـك فـارغٌ ... وقد طُفْتَ في تلكَ الرياضِ جميعِها[3]

« سعدي »

نـزلـت بـريّـة الـوادي بـذي سلـمِ ... والشَّمس تـرتـعُ بيـن البَـان والعَلَـمِ

---

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) قصيدة « ذوق وشوق » .

(٢) من « روائع إقبال » للعلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي .

(٣) البيت في الأصل :

« ما أفقر من يطوف في كل هذه البساتين ذاهباً لزيارة الأصدقاء ويداه فارغتان » .

وقد ترجمه الفراتي :

واحسـرتـا قـد عـدت فـارغ اليـد ... مـن تحـف الـدنيـا لهـذه البلـد

انظر البستان (١ : ١٦) .

وفـاحَ ريحُ صباحٍ مـن مـواجـدهـا يشفي العليل من الأوصابِ والسَّقَم
بنظـرةٍ لجمـال الـوادي واحـدةٍ تقحَّـم القلـبُ منهـا ألـفَ مُقتحـمِ
وللمسـاء سحـابٌ مـن غـلائلهـا حمـراءُ زرقـاءُ مـن وردٍ ومـن عَنَـم
ألْقَـت بـراقـعَ مجـلاهـا علـى إضـمٍ وأومضَ البرق في الظَّلماء من إضمِ
نقيَّـةُ الخـدِّ سعـفُ النخـل مشـرقـةٌ مرفوعةُ الراي تحكي رفعةَ القِمَمِ
والرَّمل كالخزفي في أرجاء كاظمةٍ يموجُ فيها بما في الخزِّ من عَمَمِ
هنـا بقيَّـةُ أطـلالٍ ، هنـا لهـبٌ يذوي ، هنا بضعُ أشلاءٍ من الخِيَم
كمْ خَلْفَ ليلى ركابٌ منْ هنا عبرتْ وعـضَّ من لَغَـبٍ نضـوٌ علـى لُجُم
هُـمُ أقـامـوا سكـارى هـاهنـا زمنـاً فـإنْ رضيـتَ بسكـر هـاهنـا أقـمِ
يـرى هنـا مـن نـأتْ عنـه أحبَّتُـهُ سَلُـوَّهُ ، ويهيـج الـوَجْـدُ بـالشَّبـم

(٢)

خمـرُ الحيـاةِ كمِثْـل السُّـمِّ عـاقبـةً عندي، ومن ذا الذي يُصْغي إلى كلمي
صيـاحُ وجـهٍ جـديـدٌ لا يقيـمُ لـه وزنـاً زمـانٌ تعـاطـى سكـرة القِـدم
أمـا لمعتـركِ الأيَّـامِ مـن طَمَـعٍ بغـزنـويٍّ جـديـدٍ غيـر منهـزمِ
عباد (سومنات) تخشى أن يحرِّمَها أمام (سومنات) مبعوثٌ من الحَرَم
لا في لهيبِ تراثِ العُرُبِ من رَصَدٍ يُرَجَّى ، ولا في غِنَاءِ الفرس من نَغَمِ
هل في الحجاز حسينٌ من بني مُضَرٍ وهـل هنـالك محمـودٌ مـن العَجَـم
ألا يهيـم علـى وجـه الفُـرات لهـم قلـبٌ ، ولـم يلقَـه خـالٍ ولـم يَهِـمِ
أحُسْـنُ دِجْلـة لـم يفتـنْ سـرائـرهـم وحسنُ دجلةَ في محرابهم صنمي
أمـا لهـم مـن بقـايـا الحـبِّ بـاقيـةٌ وهـم سـلالـةُ أهـل الحـبِّ والتَّيـمِ
أستغفـرُ الله هـل للـدِّيـن مـن قِيَـمِ بغيـر حـبٍّ وهـل للشعـب مـنْ قِيَـمِ
بـالحـبِّ قـدَّم إبـراهيـم واحـده وابنُ الحسينِ على كفِّ الحسين رُمي
فسـل حُنينـاً وبـدراً عـن حـروبهمـا كم ضرَّج الحبُّ فيهما من فؤاد كمي

في آية[1] الخلق أنت السرُّ لا أحدٌ ولو تجلَّيت ما أبقيتَ منْ عِصَم
لأجل معناك ما تلقى وما لَقِيَتْ قوافل القوم في الوِديان والأكَمِ

* * *

رهباننا انقطعت عنَّا بأديرةٍ وكلُّ منقطعٍ في الدَّير عنك عَمِي
لا يرتضي القومُ عن حاناتهم بدلًا بالرُّغم من أنَّ ساقي الناشئين ظمي

* * *

أنا - وفي غزلياتي الَّتي اشتهرتْ بصيصُ نارٍ ذَكَتْ مِنْ صالفِ القِدَمِ -
حكايتي البحث عن قومٍ هنا عُدِمتْ أخبارُهم وهنا سادوا على الأمم

* * *

لِلشَّوك كالوَرْدِ حظٌّ من نسائمكم ونسمةُ الصبح للرَّيحان والسَلَم
أنا أعِيبُ على وردٍ بلا جذلٍ كما أعيب على شوكٍ بلا ألم

* * *

هذا الغناءُ الَّذي ماج الرجاءُ به تسيل أنفاسُه من مُهْجتي ودمي
كما تسيلُ دماءُ العازفين على أوتارِهم وتروّىٰ من أكفِّهمِ

* * *

فلا تدع لهياج القَلْب فرصتَه فإنَّ ذلك يعني فرصةَ العَدَمِ
أرجو جدائل هذا الشعر تنصفني بموجةٍ من معاني هذه اللَّمَمِ

(٤)

اللَّوح أنت وما في اللَّوحِ من قَدَرٍ وكلُّ ما فيه من سطرٍ ومن كَلِمِ

---

(١) يبدو أن إقبالًا في المقاطع الثلاثة اللاحقة يخاطب الله عزَّ وجلَّ ومع ذلك فإن هذا التأويل غير مؤكد .
ويرى تشيشتي أنَّ الحبيب هنا وفيما بعد هو النبي ﷺ .

لـو تنطـقُ القبَّة الـزرقـاء ما كَـذَبَـتْ   بـأنَّهـا ذَرَّةٌ فـي بحـرِكَ العَـرِمِ

* * *

لـك الجـلالُ الـذي لـم تبـقَ روعتُـه   مِـنْ ملـك سِنْجـار إلا عبـرةَ النَّـدم
لـولا جمـالُـك مـا ذاق الجُنَيْـدُ نـوىً   ولا أهيـل علـى طيفـورَ بـالتُّهَـمِ
نـداكَ لا تَعْـرِفُ الأنسـابَ نفحتُـهُ   يا منْ غَمَرْتَ جميعَ النَّاس بالكَرَمِ
إنْ لم تكن نُصْبَ عيني في الصَّلاة فلا   قامت على الزُّور في محرابها قدمي

* * *

مذاهبُ الفِكْر منْ بحثِ الغيابِ وَهَتْ   ومشهدُ الحبِّ منْ وَثْب الحضورِ دمي
بالرُّغم من ثورةٍ للشَّمسِ ساطعةٍ   ما زالتِ الأرضُ في بحرٍ من الظُّلَمِ

* * *

(٥)

أنـا ـ وتعـرف أيـامـي التـي سلفـت   وما تحمَّلْتُ من كدِّي ومن سأمي ـ
مـا كنـتُ أعـرفُ أنَّ العلـمَ مضيعـةٌ   وأنَّـه سبـبُ الأطمـاع والنَّهَـمِ

* * *

هززتُ كلَّ نخيلِ الفِكْرِ ما سَقَطَتْ   علـيَّ غيـرُ عـراجيـنٍ مـن الهَـرَمِ
لقـد تيقَّـظ وِجـدانـي الَّـذي عَصَفَـتْ   بـه مقـالاتُ مـوتـورٍ ومُنْتَقِـمِ

* * *

الفِكْـرُ مـن حيـث تـأتيـه أبـو لهـبٍ   وكلُّـه كلُّـه مكـرٌ مِـنَ الأمَـمِ
والحبُّ حيث يكون المصطفى يدُه   وكلُّـه كلُّـه مـن مقلتيـه نُمِـي

* * *

أخـذتُ عنـه فنـونَ الحـبِّ فـاغتنمـوا   مذاهبَ الحبِّ في شعري وفي حِكَمي

نهايـةُ الحـبِّ أحلـى مـن بـدايتـه ... وربمـا صَحَّـتِ الأجسـام بـالسَّقَـمِ

***

وليـس أغـربُ منـه عنـد مُبْتَـدَأ ... وليـس أعْجَـبُ منـه عنـد مُخْتَتَـمِ
إذا رمـاك فمـا للقلـبِ مـنْ حِيَـلٍ ... وإنْ جُـرِحـتَ فجـرحٌ غيـرُ ملتئـم

***

يـا سـائلـي عـن فـراقـي بعـد ليلتنـا ... وعن حظوظي من البلوى وعن قِسَمي
فـراقُـه رغبـةٌ فـي القَلْـب محـرقـةٌ ... وصرخةٌ من صُراخِ الفَجْرِ ملءُ فمي
أهلُ الوِصال لهم قلبٌ بلا طَلَبِ ... وأيُّ معنـىً لقلـبٍ غيـرِ مُضْطَـرمِ
وهـل لقطـرةٍ مـاء مجـدُ تسميـةٍ ... إلا إذا نُبـذَتْ مـن عجمـة الـدِّيـم

***

حـاولـتُ لمـا تجلَّـى أنْ أشـاهـده ... وسـوَّلـت لـي نفسـي هَتْكَـةَ الحُـرَمِ
بالرُّغم من أن طرفي في الهوى وقحٌ ... أغضيـتُ لمَّـا تجلَّـى خشيـةَ الـدَّهَـمِ

***

الفراشةُ واليراعة

قـال الفـراشُ لنفسـه لمَّـا رأى ... رَقْصَ اليَراع على المِدَاد الأسودِ
كـمْ فـي حيـاتِـك مـن غبـيٍّ أحمـقٍ ... مـا ذاقَ تصليـةً بنـارِ المَـوْقِـد
سمـعَ اليَـراعُ كـلامَـه فـأجـابَـه ... حـاشـا لأمثـالـي بمثلِـك تقتـدي
حمـداً لـربِّـي مـا خُلِقْـتُ فـراشـةً ... بجنـاحهـا وسـمُ العبيـد الـرُّقَّـد
أنـا لسـت أستجـدي سـواي تسـوُّلا ... أنـا فـي فـؤادي جُـذْوتـي وتـوقُّـدي

***

وصية « إقبال » لولده « جاويد »

أبنـيَّ ! لحـنُ الـذَّات فـي أعمـاقنـا — بـاقٍ يـدلُّ علـى خلـود حيـاتِـهِ
أبنـيَّ ! ليـلُ الشَّعـب ليـس يضيئُـه — إلا تصلِّيـه بشعلـةِ ذاتِـهِ
أبنـيَّ ! قـولـك : كـان آدمَ جـدُّنـا — مَلِكـاً لهـذي الأرض قـولُ نبيـهِ
فيـه مِـنَ الإيمـانِ ألـفُ حقيقـةٍ — ومِـنَ التـألُّـق ألـفُ نـوعٍ فيـهِ
أبنـيَّ ! لـن يصـل الغـرابُ لعشِّنـا — مهمـا استطـالـت فـي السَّمـاءِ قـواهُ
هـذي الشَّـواهيـنُ التـي يلهـو بهـا — أبنـاءُ سيِّـدهِ الـذي ربَّـاه
أبنـيَّ ! صـان الله وجْهَـك عـاليـاً — مـا فـي زمـانِـك مـنْ يَصُـوْنُ حيـاءَهُ
إيَّـاك أن يـأتـي لقبـري زائـرٌ — ويقـولُ لـي جـاويـدُ يبـذلُ مـاءَهُ
إقبـالُ مـا رضـيَ التـرهُّـبَ سيـرةً — لنقـاءِ فكـرتـه وخِصْـبِ فـؤادِهِ
أبنـيَّ ! ليـس بُنـيَّ إلا مَـنْ روى — بـوصيتـي هـذي جميـعَ بـلادِهِ

* * *

تسول

صـاحَ فـي الحـانـة سكِّيرٌ ظـريـفْ — إنَّمـا السُّلطـان شحَّـاذٌ جَلِـفْ
أيُّكُـمْ يخـرجُ عـن بـزَّتِـهِ — طمعـاً فـي ذلـك التَّـاج الصَّلِـفْ
أيُّكُـمْ يُصْبـح عُـريـانَ لِكَـيْ — يرتدي في القَصْر ثوباً منْ ذَهَبْ
كـأسُـه حمـراءُ فـي لـون الشَّقيـق — وعليهـا مـن دَمِ النَّـاس حَبَـبْ
كـلُّ مـا فـي قَصْـرِه جَمَّعَـهُ — بقـرارٍ مُجْحِـفٍ إثْـرَ قـرار
ليـس مَـنْ يَسْرِقُ فـي جِنْحِ الـدُّجى — مثـلَ مَـنْ يَسْرِق فـي وَضَحِ النَّهـارْ
كَـمْ بـذاكَ الحَقْـلِ مـن فـلاَّحـةٍ — شَحَـذوا منْهـا طعـامـاً للـدَّجـاجْ
بلِّغـوهـم أنَّنـي قلـتُ لكـم — إنَّمـا الشَّحـاذُ مـن سـنَّ الخـراجْ

* * *

المُلاَّ والفردوس

أنـــا أيضــاً كنـــتُ لكـــنْ | مـــا تحمَّلـــتُ السُّكـــوت
كنـــتُ مِـــنْ شـــدَّةِ غيظـــي | أتمنَّـــــى أنْ أمـــوت
كنـــتْ إذْ بَشَّـــرتِ الحجَّـــابُ | بـــالفـــردوسِ (مُـــلاّ)
فتقـــدَّمـــتُ أنـــادي : | عفـــوكَ اللهـــمَّ كـــلاَّ
ليـــس للمُـــلاَّ اهتمـــامٌ | بمغـــانيـــك وحـــوركْ
هـــو سكـــرانُ ، نعـــمْ سكـــران ، | مـــنْ غيـــر خمـــوركْ
مـــا درى مـــن لُجَّـــة الـــذَّوقِ | ســـوى قيـــلَ وقـــالْ
يَحْسَـــبُ الـــدِّيـــنَ الـــذي أنـــزلـــتَ | تـــاريـــخَ جـــدالْ
أنـــا لا أرضـــى لنفســـي | أنْ أرى عبـــدي جبـــانـــا
كيـــفَ تـــرضـــاهُ زعيمـــاً | وهـــو لا يُحْسِـــنُ شـــانـــا
لـــم يَعُـــدْ يـــأبـــهُ إنســـانٌ | بمـــلاّكَ المنفِّـــر
فـــإذا مـــا جـــاء يـــومـــاً | قيـــل قـــد جـــاء المكفِّـــر
لا يـــرى فـــي خَلْقِـــكَ المسكيـــنَ | إلاّهُ مُطيعـــا
كيـــف تـــرضـــى عـــن غبـــيٍّ | كفَّـــر النـــاسَ جميعـــا
ليـــس فـــي الفـــردوس ذكـــرٌ | لكهـــوفٍ وصـــوامِـــع
إنَّمـــا الفـــردوسُ فيـــضُ الحـــبِّ | مـــن صَـــدْرِ الجـــوامـــع

* * *

الدِّينُ والسِّياسة

عنـدي لـرهبنـةِ الكنـائـسِ طُـرْفَـةٌ | فهَلُـمَّ نَضْحَـكُ للحيـاة قليـلا
بُنيـتْ لأعـداء الملـوكِ وأصبحـتْ | للطـامعيـنَ مـن الملـوكِ سبيـلا

رأسُ الكنيسة في الوَدَاعة غارقٌ والقَصْرُ فوقَ النَّاس يرفعُ أنفَه
تنوي المضيَّ فيستبدُّ أمامَها وتريدُ تلعنه فتمشي خلفَه
هذا التناقضُ كيفَ أمكنَ دمْجُهُ سبحانَك اللهمَّ ربَّ النَّارِ
ما لِلْقُصورِ وللكنائسِ حيلةٌ في النَّاس غير تبادلِ الأدوار
فصلوا عن الدِّين السياسةَ بعدما وصلوا بفتنتهم إلى التِّيجانِ
وتطاول البابا فقيل له : استرِحْ أصبحْتَ سلطاناً بلا سُلطانِ
وتلفَّتَ الشَّعبُ الجريحُ فلم يجدْ حظَّاً له من ذلك التغييرِ
كانتْ مصالحَ راهبٍ ومتوَّجٍ صارتْ مصالحَ حاكمٍ ووزيرِ
ثنويةٌ لم تُبقِ درباً صاحياً سقتِ الدِّيانةُ كأسَها والدَّارا
هي في اليسار وفي اليمين مقيمةٌ تُزجي التناقضَ يمنةً ويسارا
هي لعنةُ الدُّنيا كما أفضى لنا بالسرِّ هذا سيِّدُ الصَّحْراء
لن تعرفَ النَّاسُ السَّلامةَ ساعةً إنْ لم تَقُمْ من حُمْقِ هذا الدَّاء
أبداً مرقَّعةُ الجُنَيْد لِوَحْدِها لن تستطيعَ لأمرنا ترقيعا
إنْ لم يكنْ هو أردشير صراحةً خَرَقَ الطرائقَ أردشيرُ جميعا

* * *

الأرض لله[١]

الحَبُّ ذو العَصْفِ والرَّيحان يُنْبِتُه من ظلمة الطِّين ربُّ الحبِّ والطِّينِ
والغَيْمُ من لُجَجِ الأمواجِ يَرْفَعُه إلى السَّموات سلطانُ السَّلاطينِ
يسوقُ للزَّهر أنساماً تهيِّجُها فيطلقُ الزَّهرُ أنغام البساتين
للشَّمس من نورِه طوقٌ يزيِّنها وللنَّدى نسبٌ من حوره العينِ

(١) العنوان مقتبس من قوله تعالى : ﴿ ... إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

فقـلْ لصـاحـبِ تـاجٍ يـدَّعيـه لـه   أفِـقْ فـإنَّـك مسكيـنُ المسـاكيـن
مالي ومالَكَ من هذا التُّرابِ سوى   ضجيجِ حين نُوَلّي عنه في حَيْنِ
الأرضُ لله يعطيهـــــا أحبَّتـــــه   والحُـبُّ عـاقِبَـةُ الغـرِّ الميـاميـنِ

* * *

رسالة إلى شاب

سَجَّـــــادُكَ العَجَمِـــــيُّ هـــــذا والأثـــــاثُ الإنكليـــــزي
ماذا يفيدك يا عزيزي !
مـــاذا تفيـــدك ثـــروةٌ حصَّلْتَهـــا   فـي مثـل أبَّهـة الملـوك بـذلتَهـا
أبكي لأجلك يا عزيزي !
هــل ذُقْـتَ يـومـاً غِبْطَـةَ الإيمـانِ   أو بـأس حيـدرَ أو رضـا سلمـانِ
ارحم شبابك يا عزيزي !
سلـعُ الحضـارة لا تقـاسُ بـذاتكـا   أتظنُّهـا ثمنـاً لكـلِّ حيـاتكـا
أخطأت جِدّاً يا عزيزي !
المـؤمـنُ الصـدِّيـق سيِّـدُ سـاعتـه   ورقـيُّ عـالمـه رقـيُّ قنـاعتـه
فاعرِف مكانَك يا عزيزي !
لو دَبَّ روح النِّسْر في قلب الشَّبابْ   لم يبحثوا عن سِرِّهم بين التُّرابْ
إيَّاك تيأسُ يا عزيزي !
باليأسِ معرفةُ الفتى تغتالُه وبصيرته   والمؤمنُ الصدِّيق برهانُ الإله سريرتُهْ
فاربأ بنفسِك يا عزيزي !
يا أيُّها الشَّاهين عُشُّك ليس في قصر الملوك لو كنت شاهين الجبال حقيقةً ما أمْسَكُوك
فارجِعْ لعُشِّك يا عزيزي !

* * *

نصيحة

قالَ للبازِ الفتى نَسْرٌ عجوزْ — أنت في الجوِّ كما شِئْتَ تجوزْ
لي رموزٌ كنتُ قد حصَّلتُها — من شبابي فاغتنمْ هذي الرُّموز
لا تقلْ أصلي وفصلي أبداً — قيمةُ الشَّاهينِ في أخلاقِهِ
إنَّما الشَّاهين من يَخرُقُه — دمُهُ الشَّخصيُّ في أعماقِهِ
قسوةُ التَّدريبِ روحُ السُّؤددِ — لا تضيِّعْه سدىً هذا الكلامْ
سترى قيمتَه يا ولدي ! — حين تنقضُّ على فَرْخِ الحمامْ
ما أرينا فرحةً أمتعُ من — فرحةِ المنقضِّ من أفقِ السَّماء
فرحٌ والله لا يعدله — فرحٌ ، حتى ولا سفكُ الدِّماء !

* * *

شقائق النعمان في الغاب[1]

لِمَنِ السَّماءُ تزيَّنتْ بلآلي — والدَّيرُ من أهلِ الصَّبابة خالِ
أشقيقةَ النُّعمان هل تجدين في — تلك البراري من يرُقُّ لحالي

---

(١) شقائق النعمان رمز العلمانية والمادية والعقلانية التي تنكر ما يقابلها كما يرى إقبال . وعلى العموم هي رمزٌ لكل ما ليس لظاهره معنىً يجانسه ، فشقائق النعمان حمراء كالنار ، إلا أنها لا تحرق هي كالدم إلا أنها تفتقر لحيويته فلذلك ينبذها البستان على ضفافه .
قال إقبال في ديوان الأسرار والرموز (٦٩) في حديثه عن نار الشقائق : إنَّ هذه النار الباردة تمحوها نار دموعي إلا أن إقبالاً يعود فيقول : إن هذه الشقائق تحترق لأنها ضيعتْ معناها .
ولهيب دائم دين الشقيق — دمه من ذاك يسري في العروق
إلا أنه ليس من السهل السيطرة على رموز إقبال التي تظهر أحياناً وكأنها زئبق لمعانيه ، وهي تتبادل الأدوار من أجل تحقيق هدفٍ واحد .

هي رُغم ما تبدي رحابةَ صدرها قفصٌ يضيق بمثله أمثالي
سافرتِ تائهةً وتهتُ مسافراً فتعاليْ نَقْتسمِ الهمومَ تعالَيْ
وعلام أيَّتُها الشقيقةُ سيرنا وإلامَ هذا الكدُّ في التَّرْحال
موسى غريبٌ عن نوى وديانيا وشتاتُ بالِك في الجبال وبالي
سيناءُ أنتِ ونار واديها أنا وأنا تجلِّيها وأنتِ جبالي
مِنْ ذلكَ الغوَّاصُ أخرجَ درَّنا من بين أوصالٍ ومن أوحالِ !
هل كان مَخْفيّاً فرام ظهورَه أم فرحةً بتفوُّقٍ وتعالي !
البحرُ تكشف ما يكابدُ قطرةٌ منه وتَفْضَحُ سرَّه في الحالِ !
شاهدتُ زوبعةً تئنُّ لموجةٍ فسألتها فاستغربتْ لسؤالي
قالتْ : ألا تبكي لثورةِ موجةٍ لم تلطم الشَّطَّ الغبيَّ السَّالي
أتعيقُها تلك الرِّمالُ أمامها وأنا أجرُّ إلى السَّماءِ رمالي

* * *

آلامُ آدمَ شمسُ كلِّ حقيقةٍ والشَّمْسُ تشهدُ لي بصدقِ مقالي
هذا الوجودُ بِصَمْتِه وحماسه لك يا بنَ آدم يا كبيرَ الآلِ

* * *

قطعة

إقبال غنَّى أمَامَ الرَّوض أغنيةً رشيقةً هيَّجت في الرَّوض شكواهُ
ما كنتُ كالزَّهر رَهْنُ الرِّيح عالَمُهُ إنْ شاء مزَّقه أو شاءَ أبقاهُ
أمشي ويمشي جنوني في الطَّريقِ معي ولا يمزِّق ثوبي غير حُمَّاهُ

* * *

كتاب السَّاقي

(١)

نَثَرَ الرَّبيع على الفلا   يَدَهُ وأطلقَ عسكرهْ
وتحوَّل الوادي إلى   حانٍ فقامَ وأسكرهْ
الوردُ والنِّسرين يُمْسكُ بالأكفِّ وبالقدودْ
في صَبْغَةِ ألوانها من كلٍّ ما خَلَعَ الوجود
وشقائقُ النُّعمان تَرْقُصُ في الوِشاح الأحمرِ
ما بينَ بسمةِ أبيضٍ   يرنو وغَمْزَةِ أسمرِ
وترى السماءَ من السُّرور تكادُ تَسْقُطُ في الفِجَاجْ
وندى النسيمِ خلال زُرْقتها تكسَّر كالزُّجاجْ
وتدفَّق الدَّمُ في الحِجْر   ومضى يكابد ما هجرْ
والقُبَّراتُ تركن في الأعشاشِ أغلال الشَّجَرْ

* * *

آهٍ لهذا الجدولِ المحزونِ يَقْفزُ في الوِهادْ
لا يشتكي ضيقَ الحياةِ ولا يَمَلُّ من الجهادْ
ينسابُ ، يَرْقُدُ ، يستقرُّ ، يهيجُ ، يَصْخَبُ ، يلتوي
يروي الجلوسَ على الضِّفاف وبالتمزُّق يرتوي
وإذا تجمَّعتِ الصُّخورُ عليه شتَّت حزبَها
واختارَ من ثغراتها دربًا ومزَّق قلبَها
يا أيُّها السَّاقي فهاتِ من الكؤوسِ من الدِّنان
لا تُثْخنِ القلبَ الجريحَ وأنتَ أجْدَرُ بالحَنان

هــذي الشَّقــائــقُ جــوقــةٌ بــالسرِّ تَـرْقُـصُ فـي الطَّـريـق
دعنـــي أبـــدِّدُ خمــرتـــي أسفــاً علــى الكــأسِ العتيــق
مــا كـــلُّ مـــا دار السُّقــاةُ بـــه تـــدورُ بـــه القلـــوب
أنـــا أطلـــب الخَمْـــرَ التـــي كـــانــت تُشَـــقُّ لهــا الجيــوب
كـــانـــت تَفِيْـــضُ كـــآبـــةً كـــالـــوَرْدِ يَــذْبُــل فــي الخُـــدود
فتُســـــرُّ إشكـــــالاتنـــــا وتـــذيـــعُ أســـرارَ الخلـــودْ
أيُّهـــــا السَّـــــاقـــــي هتِّـــــك الأستـــــار
عُمْـــرُنـــــا البـــاقـــي جلـــــوةُ الأســـــرار
لــــذَّةُ التَّلحيــــن ليـــس فـــي الأوتـــار
يَضْـــرَعُ الشَّـــاهيـــنُ أصغـــــرَ الأطيـــارْ

* * *

(٢)

بـــدَّلـــتَ أنغـــامَ الـــزَّمـــانِ ونـــوطـــةَ العَـــزْفِ البليـــد
وتــــداخلـــت آلاتُـــــه وتمـــرَّد النَّغَـــمُ الجـــديـــد
فَـــرِحٌ للُغْـــزِ الإنكليـــز ولِلَّـــذي عـــرَّىٰ غـــرورهْ
ولأن ذات الســرِّ يَعْكـــسُ مـــن زُجـــاج الصِّيـــن نـــورَهْ
هُـــوذا علـــى مـــرأى وسمْـــعِ الكـــون يَـــرْقُـــصُ فـــي المـــرايـــا
ويجيـــش فـــي (آلـــونـــد) يلمـــعُ فـــي رؤوس الهيمـــلايـــا
فَـــرِحٌ لأنَّ الأرضَ تَلْفـــظُ كـــلَّ سلطـــانٍ مهيـــنْ
وتُعَلِّـــم الشَّعْـــبَ المكبَّـــلَ كيـــف يـــأخـــذ بـــاليميـــنْ
فَـــرِحٌ لأنَّ الـــرأسمـــال ينـــالُ منـــه جنـــونُ طـــورِهْ
ولأنَّـــه كـــالسَّـــاحـــر المفضـــوحِ بعـــد أداء دورِهْ

* * *

لـــم يبـــق إلا الـــرُّوحُ تلـــكَ وذلـــك الشَّعـــبُ العـــراءْ
نـــزلـــت علـــى سينـــاء صعقتُهـــا فَلَمْلَمَهـــا حِـــراءْ
مـــا مسلمـــاً مَـــنْ يســـأل التَّـــوحيـــد يَصْقُـــل فـــأسَـــه
لِيُحَطِّـــمَ الأصنـــامَ أجمَعَهـــا ويتـــركَ نفســـه
نفـــسٌ أقـــام لأجلهـــا مـــا شـــاءَ مـــن أصنـــامِـــه
ويـــريـــدُهـــا صنمـــاً يـــرافِقُـــه إلـــى إســـلامِـــهِ
هـــذا هـــو الصَّنَـــمُ الـــذي شيطـــانُـــه عَقْـــلُ العليـــم
خُـــدَّامُـــه أهـــلُ الطَّـــريـــق كتـــابـــه العلـــمُ الأليـــم
أسفـــاً لحـــقٌ يتـــركُ الطَّـــاغـــوتَ يـــودعُـــه صـــروحـــه
ويـــرى الفقيـــر يكـــاد يَلفِـــظُ فـــي خِضَـــمٍّ الجهـــلِ روحَـــه
كلمـــاتُـــه هـــذا المبشِّـــرُ تَجْـــذِبُ القَلْـــبَ الغـــريـــر
لكـــنَّ ذوق الحـــبِّ يَنْقُصُهـــا ويَنْقُصُـــه الكثيـــرْ
ولـــه مـــواعِظُـــهُ ينظِّمهـــا بـــدقَّـــةِ منطقـــه
لكنَّهـــا ســـرعـــان مـــا تخفـــى بِعُقْـــدَة رونقـــه
حتـــى المـــريـــدُ فـــؤادُه بقيـــودِ سُبْحَتـــه أسيـــر
حبَّـــاتُ فـــخٍّ أوْقَعَتْـــه وكـــوان شـــاهينـــاً يَطِيـــرْ
هـــذا المســـافـــرُ كيـــف يـــرجـــعُ مـــن ظُنـــونِ الارتقـــاء
هـــو نفسُـــه مـــا عـــادَ يَعْـــرِف مـــا الفنـــاءُ ومـــا البَقـــاء
خَمَـــدَتْ حقيقتُـــه ونـــارُ الحـــبِّ تـــاهَـــتْ فـــي فـــؤاده
فـــإذا هـــو المتحـــرِّق المجنـــونُ يَشْحَـــطُ فـــي رمـــادِهْ

(٣)

قلـــوبُ القَـــوْم مـــا عـــرفـــتْ كلـــذَّة خمـــركَ البـــاقـــي

(أدرْ كـأسـاً ونـاولها　　ألا يـا أيُّها السَّاقـي[1])

رمـادي ذَرُّ أجنحـةٍ　　ببـابِ السـرِّ تكتـظُّ

ومـا مِـنْ ذرةٍ إلّا　　لهـا مِـنْ حبِّنـا حـظُّ

بـودِّي أنْ أرى شيخـاً　　يغيِّـر وضعنـا هـذا

يقـومُ ويجعـلُ التِّلميـذَ لـلأستـاذ أستـاذا

يخـاف البـازُ عصفـوراً　　يُقَلِّـمُ ظُفـرَ مخلبـهِ

فـآتِ شبـابنـا نـوراً　　تفيـضُ علـى الشُّيـوخ بـهِ

وخلِّصهـم بمـا تختـار مـن قيـدِ العبـوديَّـهْ

ولـو ألقيْتَهـم حطبـاً　　بنيـرانِ الـوجـوديَّـه

تصـرَّفْ بـالجنـونِ لهـم　　وفجِّـرهْ بهـمْ شُعبَـا

فليسـوا شعبـةً منـه　　إذا لَـمْ يسقطـوا تعبـا

شبـابٌ لا يليـق بهـم　　مثـالُ الجَمْـرِ فـي ضَـرَمِـهْ

كقلـب المـرتضـى بـأسـاً　　وكـالصِّـدِّيـق فـي كَـرَمِـهْ

بظـلٍّ جمـالـك الـريّـانِ أورقَ شِعْبُنـا اليبـسُ

ولمّـا أنْ بخِلَـتْ بـه　　تـوقَّـف ذلـك النَّفَـسُ

أَسَهْمُـكَ لـم يعـد يقـوى　　علـى تجـريـحِ أمثـالـي

أمِ الـرَّكْـبُ الـذي تـرميـه أصبـحَ فـارغَ البـالِ

سـألْتُـك هـذه الحسنـاءُ تُطْلِقُهـا مـن الخـذْرِ

ليعـرفَ عُـذَّلـي معنـى　　لهيـبِ العِشْـقِ فـي صـدري

بشعـري ضـعْ لهـم شَـرَكـاً　　وهـاتِ الحـبَّ مـن سَلْبـي

---

(١) ذكر العلامة السودي في شرحه التركي على ديوان حافظ أن هذا البيت الذي افتتح به حافظ ديوانه هو من قصيدة ليزيد بن معاوية وقد عاب بعض الشعراء على حافظ الشيرازي فعلته هذه .

انظر العقد الجوهري شرح ديوان الجزري ، ص٣ .

وخلَّ حُسامَك الهنديَّ يجرحُ كلَّ ذي قلبِ

مرادي رشفُ أسرارٍ تؤوِّل راحة اليأسِ
وإلا قلتُ للطلاب ما أخفيهِ في نفسي
ركبنا البحر في فلكٍ بأعينه صنعناهُ
فأجرى الرِّيحُ عاصفةً وعكسَ الرِّيح أجراهُ
ذوتْ عيناي من أرقٍ على قلقٍ طوىٰ جَنبي
وهذا الدَّمْعُ في عينيَّ طلٌّ مِنْ ندى قلبي

* * *

خُشوعي في عَذاباتي وَوَثْبي في طُموحاتي
ونوعُ طرقتي هذي الَّتي أمحو بها ذاتي
وفكري وهو بُستانٌ ونفسي وهيَ مرآتي
وحِصْنُ يقينها المُضْنى وجَيْشُ ظنونها العاتي
وقلبي وهو ميدانٌ تَضِجُّ به عراكاتي
ودروشتي الَّتي تبدو نصيبي من مُعاناتي
سألتُك أن تعتِّقَها وتَمْزُجَها بآهاتي
وتسقيها لقافلتي بموكبِ جيلنا الآتي

(٤)

إنَّه البحرُ دائمُ الحركات وثبةٌ بعد وثبةٍ في الحياةِ
ذاكَ بحرٌ من الحياة تجلَّى واحداً في تموُّجات الذَّواتِ
اللَّهيبُ الذي تأجَّجَ فينا والَّذي يحتوي جنونَ الدُّخانِ
يرفضُ المُكْثَ بين ماءٍ وطينٍ وهو راضٍ عن كلِّ ما يصنعانِ
ما الَّذي يطلبُ اللهيبُ بهذا إنَّه قاطنٌ وسارٍ بآنِ
في فرارٍ إلى السَّماء تراهُ حَذِرَ المَوْتِ في شِبَاك المعاني

إنَّهـا الـوَحْـدةُ الَّتـي كبَّلتْهـا حلقـاتُ التَّعَـدُّديَّـة هـذي

رُغْـمَ كـلِّ التَّعـدُّديَّـة تبقـى وَحْـدةٌ مـا لهـا نظيـرٌ محـاذي

إنَّ أبعـاد مَعْبَـدِ العصـرِ هـذا ذاتُ أبعـاده القـديمـة ستَّـهْ[1]

ولسـومنـاتَ كـلِّ عصـرٍ وجـودٌ إنَّ سـومنـات لا يُكَـرِّرُ نَحْتَـهْ

نحـنُ فـي ظلِّـه معـاً واختـلافـي عنـك يـا أنـت كـاختـلافـك عنِّـي

واللهيـبُ الـذي تـأجَّـجَ فينـا خلـق الحـادثـاتِ منـك ومنِّـي

حلقـاتُ اللهيـب نحـنُ ولكـن هـو فـي قلبهـا يظـلُّ وحيـدا

فـي بـروقٍ وفـي نجـومٍ مُشـعٌ تَسْبُـك التِّبْـرَ نـارُهُ والحـديـدا

فـي غيـاضٍ وفـي ريـاضٍ مقيـمٌ كـلُّ مـا فـاضَ فيهمـا فـاضَ عنـه

لا يَعِبْ زهـرك المُفَتَّـح شـوكـي كـلُّ شـوكـي وكـلُّ زهـركَ منـه

ليـتَ شِعْـري يفيـدُ كيـدُك هـذا ؟ ليـت شعـري عـرفـتُ مـا هـو كيـدُهُ

هـو ذا يَنْسِـفُ الجبـال بحـزم هـوذا الحُـورُ والمـلائـك صَيْـدُه

هـو حينـاً تـراه بـازاً وحينـاً حَجَـلاً فـي دمـائـه يتشحَّـطْ

وهـو حينـاً حمـامـةٌ دون عُـشٍّ فـي شِبَـاكِ حِيَـالَـه تَتَخَبَّـطْ

(٥)

الـرَّاحـةُ الكُبـرى بقلبـكَ والسَّكينـةُ خُـدْعَتـانْ

فـالكـونُ ذرَّاتٌ يهيِّجهـا بـرقصتـه الـزَّمـان

وقـوافـلُ الأشيـاء فـي الآفـاق تَضْـرب بـالـدُّفـوفْ

وتـروح تُمْعِـنُ فـي التَّجَـدُّد لا تفكِّـر بـالـوُقـوف

السَّيْـرُ معنـاهـا العَمِيْـقُ بـه تَجُـول بـه تَصُـولْ

فَـدَعِ الـوُصـول لمـن يـريـد فليـس مَطْلَبُنـا الـوُصـول

---

(١) اهتمَّ إقبال بنظريات « أنيشتين » التي وضعت حداً للهندسة التقليدية (الأستاذ الملوحي في ترجمته النثرية) .

تَـــوْقٌ إلـــى الطَّيـــرانِ يتـــركُ ســـرَّهـــا يتفطَّـــر
وتحـــسُّ راحـــة صَـــدْرِهـــا فـــي وثبـــةٍ لا تَفْتُـــرُ
وتَحِـــلُّ ، تَعْقِـــد مـــا تَحِـــلُّ ، تُقيْـــمُ تهْـــدِمُ مـــا تُقيـــمُ
فِـــرْدَوْسُهـــا أن تستمـــرَّ وروحُهـــا السَّيـــرُ المُقيـــمُ
وإذا ابتـــداهـــا المـــوتُ وهـــو النِّـــد فـــي وَجْـــهِ الحيـــاة
ومـــن العسيـــر كفـــاحُـــه تمضـــي إليـــهِ فـــي ثبـــات
وَبِـــذَوْقِهـــا الثَّنـــويِّ تنقســـمُ اثنتيـــن إلـــى النِّـــزال
وتـــروح تُحْشَـــدُ فـــي السُّهـــول تعـــودُ تُحْشَـــدُ فـــي الجبـــال
كـــالغُصـــنِ إنْ جـــرَّدْتَـــه مـــن سَكْـــرَة الـــدُّنيـــا صحـــا
وازدادَ فـــي وقـــتِ الـــرَّبيـــع تنـــوُّراً وتفتُّحـــا
لا شـــيءَ أســـرعُ مِـــنْ تَـــدَارُكِهـــا لمـــا أَفْسَـــدْتَ منهـــا
الـــوقـــتُ سلسلـــةٌ وكـــلُّ جهـــاتـــه يَصْـــدُرْنَ عنهـــا
شفتـــان فـــي فمهـــا أزلٌ إلـــى أبـــد
الـــوقـــتُ بينهمـــا كـــالنَّفـــس فـــي الجســـد !

(٦)

مـــوجـــةُ الأنفـــاسِ سيـــفٌ جَعَلَتْـــه الـــذَّات حـــدًا
طَلَبَـــتْ ذاتُـــك شيئـــاً نيلُـــه يَصْعُـــبُ جِـــدّا
هـــذه ذاتُ شَـــريـــدٍ هـــذه ذاتُ مُقيـــمِ
إنَّهـــا اليقظـــةُ والعـــزلـــةُ والســـرُّ الحميـــم
إنَّهـــا الـــذَّات ســـؤالٌ فـــي طـــريـــق المستـــدلِّ
مثلمـــا الشَّـــوقُ إلـــى العُـــزْلـــة فـــي وقـــت التجلِّـــي
إنَّـــه البحـــرُ الَّـــذي تحملُـــه قطـــرةُ مـــاءْ
وهـــي فـــي الظُّلمـــة والنُّـــور علـــى حـــدٍّ ســـواء
وُلِـــدَتْ منـــك ومنِّـــي فـــأضعنـــاهـــا كـــلانـــا

وأنـــــا أُزْهِـــــقُ ظنِّـــــي هـــو مِـــنْ أيْـــنَ اجتـــلانــا
أزليَّـــــاتـــــي وَرَائـــــي أبَـــدِيَّـــاتـــي أمـــام
وأنـــا رُغْـــمَ غبـــائـــي طـــامـــحٌ نحـــو التَّمـــام
إنَّهـــا الـــذَّات الَّتـــي تمخـــر فـــي بحـــر الحيـــاة
فتُنـــاغـــي لطمـــاتٍ وتُقـــاســـي لطمـــاتْ
عنـــدمـــا تَطْمَـــعْ أن تقلـــب آمـــالَ الشَّبـــاب
تتخفَّـــى وتـــديـــرُ الَّلحـــظَ مـــن تحـــت النِّقـــاب
فتـــرى الصَّخْـــرَ تـــرابـــاً صَعِقـــاً ممَّـــا تُـــديـــر
وتـــرى العـــالـــم وَجْـــداً يتمنَّـــى لـــو يَطِيـــر
إنَّهـــا البَـــدْءُ جميعـــاً إنَّهـــا ذاك الغُبـــار
إنهـــا فـــي البَـــذْرِ أضـــواءٌ وفـــي الصَّخْـــرِ شـــرار
إنَّهـــا فـــي ظُلمـــةِ النُّـــور إذا شـــعَّ النَّهـــار
مـــا لهـــا أعلـــى وأدنـــى مـــا لهـــا جـــارٌ ودار
مِـــنْ قليـــلٍ وكثيـــرِ ويَميـــنِ ويَســـار
لَـــمْ تَـــزَلْ حِلْـــفَ كفـــاحِ وانقـــلاب وانتصـــار
أحـــرقـــتْ آدمَ لمَّـــا جسَّـــدَتْـــه لِلْقَضـــاء
فـــإذا آدمُ لحـــنٌ وإذا الـــذَّاتُ حِـــدَاء
وإذا فـــي بـــؤبـــؤ العَيْـــنِ انطبـــاعـــاتُ السَّمـــاء
قبـــحُ السَّـــلامـــة أنَّهـــا فـــي عيـــن صـــاحبهـــا قـــذى
والعُمْـــرُ حـــربُ الـــذَّاتِ فـــالشَّـــرف الـــرَّفيـــع أو الأذى
الـــذَّاتُ عنـــد تجـــاهـــل الأهـــواء مـــرهمُهـــا الأكيـــد
وتجـــاهُـــلُ الأهـــواء دربُ الـــذَّات والخبـــزُ الـــوحيـــد
(محمـــود) تـــرفـــع رأســـه ذاتٌ تـــؤلِّـــف جنـــده
و (إيـــاز) عنـــد النـــاس مـــلءُ الأرض ممَّـــا عنـــده

لمـــا أراد الغَـــزْنَـــويُّ يحطِّـــم الصنـــم الكبيـــرْ[1]
جـــاؤوا إليـــه بكـــلِّ أصنـــاف الجـــواهـــر والحـــريـــرْ
فـــرمـــى بمـــا جمعـــوه فـــي بحـــرٍ وبـــدَّدَهُ جميعَـــهْ
وأجـــابَ جئـــتُ لِكَـــيْ أحطِّمـــه وَلَيْـــسَ لكـــي أبيعَـــهْ
فَـــلأنْ أسمَّـــى هـــادمَ الأصنـــام خيـــرٌ فـــي السُّلـــوك
مـــن أن أسمَّـــى بـــائـــعَ الأصنـــامِ مـــن بيـــن الملـــوك
ليـــسَ السُّجـــود تهـــدُّل الكتفيـــن مـــن فَـــرْطِ القُعـــود
مـــا كـــان يغنـــي عـــن سجـــودٍ آخـــرٍ فهـــو السُّجـــود
مِـــنْ هـــذه الأصـــواتِ والألـــوانِ عـــالمُنـــا خليـــط
وجَـــلٌ يطـــارِدُه الفنـــاء مـــن المُحيـــط إلـــى المُحِيـــط
أصنـــامُ ألـــوانٍ وأصـــواتٍ تلـــمُّ الكـــونَ لمَّـــا
أسفـــاً علـــى سمـــعٍ وعيـــنٍ أَلِفَـــا عُمْيـــاً وصُمَّـــا
الأمـــرُ مـــرحلـــةٌ ودربُ الـــذات تَـــذْخَـــرُ بـــالمـــراحـــل
مـــا أبعـــدَ الجُـــزُرِ الَّتـــي تغـــريـــك عـــن تلـــك السَّـــواحـــل
يـــا أنـــت نـــارُكَ لـــم تكـــنْ مِـــنْ مـــوقـــدٍ هـــذا لهيبُـــه
ضـــاعـــتْ شـــرارتُـــك الَّتـــي كـــانـــت بنظـــرتهـــا تَهيبُـــه

* * *

عبـــدُك العـــالـــمُ فـــاؤمـــر   فهـــو لا يَهْـــرُبُ مِنْـــكَ
غيِّـــرِ المـــوقـــفَ وانظـــرْ   إنَّـــه يَصْـــدُرُ عَنْـــكَ
امـــضِ لا تـــركـــن لشـــيءٍ   وانـــضُ عـــن كـــونِـــكَ هَـــوْلَـــهْ
لهشـــة الـــرَّاكـــن مِـــنْ   سُـــرْعـــة مـــا يبصـــرُ حـــولَـــهْ
ظـــاهـــرُ العـــالـــم سحـــرٌ   وعصـــا مـــوســـى ثبـــاتُـــكْ

---

(١) الأبيات ليست في الأصل وإنما هي توضيح لمراد إقبال بقوله : همّة محمود .

أَسَدُ الله الَّذي يقتنص العالمَ ذاتُك

جوهرُ الكون قديمٌ فكرُك الكشفُ الجديد

أينَ كفٌّ تَنْظِمُ الجوْهَرَ في سِلْكٍ فريد

أيُّها المسلمُ فارقُبْ نظرةَ الدُّنيا إليك

في ملاءٍ من رجاء يُعْقَدُ العَزْمُ عليك

إنَّ للآماد شغلاً حولَ أقطار الوجود

عندما تَكْشِفُ عن ذاتك تُدعى للسُّجود

لستُ فيما قلتُه أشرح لِلْعالم قدرَك

فأنا حاولتُ حتى الآن أن تَفْتَحَ صَدْرَك

مَزَّقَ الكلْمةَ ضيقٌ عن معانٍ نقتفيها

نحنُ مرآةُ معانٍ كَدَرُ الكلْمة فيها

زفرتي تُضْرِمُ صدري وأنا بين السُّيوف

غير أنَّ القول من خشيته يرجو الوقوف

أنا من كثرةِ ما حلَّقْتُ ألهبتُ النَّواحي

فلو اجتزت قليلاً أحرقَ النُّورُ جناحي

***

الزَّمن

شُعْلةُ العُمْرِ من لهيب الثَّواني أشْعَلَتْها تغيُّرات الزَّمان

غَدُكَ الطُّعْمُ في حِبَالةِ أمسٍ فترفَّقْ بيومك المُتَفاني

يَرقُبُ النَّاسُ طالعاً ذا خيالٍ ويخوضون في جميع الأماني

وأنا ذلك الخيالُ ولكنْ يَصْعُبُ اليومَ شرحُ تلك المعاني

يَسْقُطُ العالمُ الجديدُ بكأسي قطرةً قطرةً كرشح الدِّنان

سُبَحُ القَوْم لعبةٌ في يديهم أنا سُبْحتي ليالي زماني

كـلُّ حَبَّـاتها عَـرَفْـتُ ولكـنْ
لا أسـوِّي بيـن الجميـع بشـانـي

ولكـــلٍّ طــريقـــةٌ وسلـــوكٌ
بعضهـا فـارسيٌّ وأخرى حِصانـي

مــرةً أجعــلُ الأعنَّـة ســوطـاً
مــرةً أجعــلُ السِّيـاط عِنَـانـي

لَـكَ مـن حفلـةِ اللقـاء نصيبٌ
فـإذا لـم تكـنْ فلسـتَ بجـانِ

ليـس من عـادتـي أخبِّـئُ كـأسـاً
لنـديـمٍ علـى كـرامـةِ حـانـي

بـدءُ هـذي التَّعَـرُّجـات عسيـرٌ
وهـي ليسـتْ تعـرُّجـات جَبَـانِ

وهـيَ ليسـتْ لـراصـدٍ فـي غـرورٍ
وهـي ليسـت لمقتـفٍ فـي هَـوان

إنَّ عينـــاً خبيـــرةً بقُـــواهـــا
غيـرُ محتـاجـةٍ لحَمْـلِ سِنـان

شفَــقُ الأفــقِ ذاكَ نهــرُ دمــاءٍ
فتحمَّــلْ نهــرَ الــدِّمــاء وعــانِ

وانتظــرْ مَطْلِــعَ الصَّبــاح وقهقــهْ
حــاكــت اللُّغــزَ ذاك أسطـورتـانْ

* * *

هــذه الفِكْــرةُ الجــريئــةُ عــرَّتْ
سلطـــاتِ الطبيعـــةِ المستبـــدَّهْ

إنَّ عُشَّـاً هــي الصَّــواعــقُ فيــه
ليــس صعبـاً لمثلهـا أنْ تَهُـدَّه

إنَّهــا الــرِّيــح والفضــاءُ جميعــاً
إنَّهــا البحــرُ والسَّفينــةُ عنــدهْ

كـان جُنْـدُ القضـاء للمـوت ذعـراً
فــإذا بــالقضــاء يَقْتُــلُ جنـدَهْ

وإذا أنـت جئـت بـالسَّيـفْ طفـلاً
أمسَـك الطِّفـلُ للجمـال فِـرِنْـدَهْ

ذهــبَ العــالــمُ القــديـمُ قتيـلاً
أتــرى يَسْلَــمُ المقــاتــلُ بعــدَه

قــامــر الإنكليــز حتــى تــولَّــوا
وكـذا الـدَّهـر لا يقـامِـرُ وحـدَه

إنَّ هــذا الصُّــوفــيَّ يحمــل نــاراً
لا تبـالـي بـريـح تلـك الشُّكـوكِ

مــــلأ اللهُ دربَــــه بمعــــانٍ
علَّمــتْ قلبَــه سلـوكَ الملـوكِ

* * *

آدمُ يُغادرُ جنَّةَ عَدْن
والملائكة تودِّعه

أنــــتَ مــــوهــــوبٌ وإلّا ... لــــم نَجــــدْ للُّغــــزِ حــــلاّ
كُنْــتَ مــن طيــنٍ ويبــدو ... أنَّ ذاك الطيــــنَ ولَّــــى
كــــانــــتِ النَّفخــــة منــــه ... زئبقــــاً فــــي السرِّ حــــلَّ
ويقــــولــــون تــــرابٌ ... قــــل عســــى هــــذا وعــــلَّ
ومــــع النكتــــة هــــذي ... أحمــــلُ العــــالــــم كُــــلاَّ
كَلِــــفٌ بــــالحُسْــــنِ حتَّــــى ... أنــــت فــــي الحُلْــــمِ تَصَلَّــــى
لــــك فــــي الحُلْــــمِ نعيــــمٌ ... يغمــــرُ اليقظــــةَ ظِــــلاَّ
دمعُــــك الصُّبــــحَ لــــدينــــا ... يمــــلأُ الجنَّــــة طــــلاَّ
يطلــــبُ الــــرَّوض ليسقــــي ... زهــــره ممَّــــا تملَّــــى
فــــاكشِــــفِ الأســــرارَ وارقُــــصْ ... تَــــرْقُــــصِ الجَــــوْقَــــةُ دلَّا
إنَّمــــا الــــدُّنيــــا بكــــاءٌ ... وغِنَــــاءٌ ليــــس إلا

* * *

روح الأرض تستقبل آدم

فــــأتــــى الأرضَ فقــــالــــت ... إنَّــــه آدمُ جــــاء
أنــــتَ يــــا آدمُ فــــاعلــــمْ ... كُنْــــتَ مــــن طيــــنٍ ومــــاء
حَــــوْلَــــكَ العــــالَــــمُ فــــانظــــرْ ... وتمعَّــــنْ فــــي السَّمــــاء
ووراء الحُجْــــبِ حُسْــــنٌ ... فتــــأمَّــــلْ مــــا وراء
لا تكــــنْ نــــافــــذَ صبــــرٍ ... واحتمــــلْ وَهْــــمَ الشَّقــــاء
ضجَّــــةُ العــــالَــــم هــــذا ... حــــربُ خــــوفٍ ورجــــاء
لــــك مــــا فــــي الكــــون مُلْــــكٌ ... مــــن بحــــارٍ وفضــــاء

هــــذه السُّحْــــبُ جميعــــاً هــــذه البِيْــــدُ العَــــراء

(٢)

كنــتَ مــن وجــه مــلاكٍ فــي انــدهــاشٍ وفنــاءْ
فَخُــذِ المــرآة وانظــرْ فيــك أســرارَ القضــاءْ
نظــراتٌ ذاتُ مغــزىً أطلقَــتْ ســرَّ البقــاء
وشــراراتُ صــراخٍ يتعــالــى فــي السَّمــاء

(٣)

إنَّ ضــوء الشَّمــس هــذا مــن شــراراتِــكَ ضــاء
عــالــمٌ أنــت جــديــدٌ أنــت والكــونُ ســواء
أنــتَ فــردوسُــك ذاتٌ مــالهــا قــطُّ انتهــاء
جســدٌ ؟ لا ليــس هــذا جســداً هــذا جــزاء
أيُّهــا الــزَّهــرةُ فــانظــرْ كيــفَ تمضــي فــي العَطــاء

(٤)

كــلُّ أوتــارِك تبكــي أيُّهــا العــودُ الشَّــريــد
كــلُّ ميــراثــك حــبٌّ فتخيَّــر مــا تــريــد
سيِّــدُ الأســرار فــي المعبــد مــن وقــتٍ بعيــد
تنفــق الــذَّاتُ وتبلــى ثــم تُبْــدي وتُعِيــد
ثُــمَّ فــي غيــر كثيــرٍ تمتطــي كــلَّ جــديــد

* * *

قطعة

خطــاي كمِثْــل نسيــمِ الصَّبــاح تُبْطــىء حينــاً وتُسْــرِع حينــا
أنــا شــوكتــي إبــرةٌ للــورودِ تــرقــعُ مــا انقــدَّ عبــر السنينــا

بـدأبـي كَسَـوْتُ ثيـابَ الحـريـرِ هــذي الشَّقــائـقَ واليــاسمينــا

***

المُرشِدُ والمُرِيد

إقبال وهو التلميذ الهندي يوجه إلى مرشده أسئلةً نجد أجوبتها كاملةً مدرجةً في كتابه (المثنوي) وهو يوردها بنصِّها بالفارسية .

قــالَ إقبــالُ لــرومــيٍّ يــا إمــامَ العــاشقيــن
لــم يــزلْ يمــلأُ سمعــي ذلــكَ القــولُ المبيــن
وتــرُ العــودِ وقشــرُ العــودِ والعــودُ سجــونْ
عنــدمــا تيبَــسُ فيــه ييبــسُ اللَّحــنُ الــدَّفيــنْ
عصــرُنــا النشــوان هــذا تنتشــي منــه الظُّنــون
رقصــةُ الأجســادِ لا تمحــو أســى القلــبِ الحــزيــن
مبــدأُ العــالــم يــا أستــاذُ مــا شــاؤوا يكــون
ليــس فــي قلــبٍ حضــورٌ أو بــوجــدانٍ يقيــن
كيــف يستــوعــبُ ســراً ذلــكَ الصَّــدْرُ المُهيــن
ردَّ للصِّــدِّيــق مــا يــروي عــن الــوحــي الأميــن
كيــف جَــرَّتــه إلــى الأوهــام قيثــارةُ طيــن
رُغْــمَ مــا أنفقــه للمَجْــد مــن كــدِّ القُــرون
قــال رومــي أيُّ فــرقٍ بيــن لحــنٍ وطنيــن
إنَّ فــنَّ الاستمــاع الحــقَّ سلطــانُ الفنــون
كــالعصــافيــر وليســت كلُّهــا تــأكــلُ تيــن
قــال : طــوَّفــتُ لأجــل العِلْــم فــي شــرقٍ وغــربِ

وأنـــــا الآن وحيـــــدٌ والأســـــى يمــــــلأ قلبـــــي

قـــال : هـــذا طـــبٌ كـــفٌ ليـــس أهـــلاً لعـــلاجِـــك

جَعَلَـــتْ منـــكَ مـــريضـــاً فـــي فـــراشٍ مـــن لَجاجـــك

اســـألِ الأمَّ عـــــلاجـــاً مـــن عقـــاقيـــر الأمـــانْ

إنَّ نصـــف الطـــبِّ مـــن علـــمٍ ونصفـــاً مـــن حنـــانْ

قـــال يـــا مـــنْ شَـــرَحَـــتْ نظـــرتُـــه ضيـــقَ فـــؤادي !

أَمَلـــي أفهـــمُ مـــا تَفْهَـــم مـــن أمـــرِ الجهـــادِ

قـــال : مـــن ســـوَّى لـــك الأصنـــام ســـوَّى لـــك فـــأســـه

وبـــأحجـــار الحبيـــب يضـــربُ الحـــاذقُ كـــأســـه[1]

لا تقـــلْ ليـــت ولـــولا مـــا علـــى همِّـــك بـــاسُ

أنـــت يـــا هـــذا الـــذي يجـــرحُ فـــي الـــدَّهـــر ويـــأســـو

قـــال : حـــورُ الغَـــرْب ألقَـــتْ فِتَـــنَ الشَّـــرق شبـــاكـــا

صَـــرَعَـــتْ ذا اللُّـــبِّ حتـــى لا تـــرى فيـــه حِـــراكـــا

قـــال : يـــا إقبـــال ! احْـــذَرْ ظـــاهـــراً يَطغـــىٰ عليـــكَ

عنـــدمـــا تَفـــرِكُهـــا الفضـــةَ انظـــر ليـــديـــكَ

قـــال : يـــا رومـــي ! وسِحْـــرُ الإنكليـــزيِّ إلامَـــا

يـــأخـــذ الطـــالـــبَ لحمـــاً ثـــم يـــرميـــه عظـــامـــا

قـــال : كـــالعصفـــور إنْ لـــمْ يُكْمِـــلِ الـــريـــشَ وطـــار

هجـــم القـــطُّ عليـــه ورمـــــاه للصِّغـــــار

قـــال : إنَّ الـــدِّيـــن والقـــوميَّـــة اليـــومَ صـــراعُ

---

(١) في المثنوي (كسر زجاجة الحبيب لا يكون إلا بحجر الحبيب) ومعناه كما شرحه د . كفافي : إنه لاحق لإنسانٍ في أن يميت إنساناً آخر فالله وحده هو الذي يميت سواء كان ذلك بفعل مباشرٍ أو بأمر واجب الاتباع مما نصَّت عليه الشريعة .
انظر ترجمة د . كفافي للمثنوي ص٦١٣ .

أنتَ هل تدري بماذا ينتهي هذا النزاعُ
قال : ما في اللَّيلِ للزائف والمحضِ عياز
ودليلُ الذَّهب الخالصِ إشراقُ النهاز
قال يا شيخ! بماذا أملأ الدَّرب القصيره
وبأيِّ الأمر أغنىٰ بعِيانٍ أم بَصيره
قال : يا إقبالُ ما هذا الذي ليس يَبِينُ
إنْ تكنْ تُبصرُ يعني أنت إنسانٌ مبينُ
يملأ المُهجة حقٌّ وحبيبٌ دامغُ
ما عدا ذلكَ يا إقبالُ جوزٌ فارغُ
قال : يا من ملأ الشَّرق بما يحيي القُلوب
ما الذي يَعْصِفُ بالشَّرقِ ومماداء الشُّعوب
قال : ما أعرف شعباً مات إلا لمَّا
حَسِبَ الأحجار بخوراً وظن الشَّهد سُمَّا
قال : يا شيخُ ! وهذا المسلمُ الضَّائعُ كونُهْ
دمُه أصبح ثلجاً عطرُه غابَ ولونُهْ
قال : يا إقبالُ ! إنَّ الله لا يظلمُ شعبا
ورجالُ القَلْبِ لا تجرؤ أنْ تَجْرَح قلبا
قال : يا أستاذ ! إنَّ السُّوق والحقَّ أقول
كَسَدَتْ فالبيعُ أيُّ البيع يحظى بالقَبول
قال : اذهب واشْتر الحيرة بالعقل الظَّنين[1]
إنَّه وهمٌ وظنٌّ وهي حقٌّ ويقين
قال : جيراني جميعاً ندماءٌ للأمير

---

(١) انظر « المثنوي » ترجمة كفافي « حيرة المحب أمام الحبيب لا حيرة من يولِّيه ظهره » ص١٠٢ .

وأنا فوق حصيري   حاسرُ الرأس فقير
قال : كن خادمَ حرٍّ   قلبُه دون حدود
لا تكنْ في مجلس السُّلطان من بعضِ القرود
إنْ تكُنْ عبداً لإنسانٍ له قلبٌ كبير
هو خيرٌ من طوافٍ بين نُدمانِ الأمير
قال : يا هذا الذي يُسْهِمُ في وَجْدِ الكبار !
ضعتُ منْ قلةِ علمي   بين جبرٍ واختيار
قال : يا إقبالُ ! ما الشَّاهين ؟ يبدو كالغُراب
ريشُه يُضبحُ تاجاً   ريشُ هذا للتُّراب
يطلب الموتى غرابٌ   ظُفْرُهُ عبءٌ عليه
وترى الشَّاهين يمضي   أكْلُه صنعُ يديه
قال : ماذا يأمل الإسلام من هذا السُّلوكْ
ألكي نرضى بفقرٍ   أم إلى طيشِ الملوكْ
قال رومي : جنَّة الإسلام في ظل السُّيوف
ليس ما تطلبه الرُّهبان من أمنِ الكهوف
قال : يا أستاذُ ! كيف الخوضُ في ماءٍ وطين
أين ما يوقظُ قلبي   وهو في صَدْري سَجين
قال : لا تشمخْ كنعشٍ   فوراء النَّعش كفُّ
وتواضعْ كحصانٍ   أينما شاء يخفُّ
قال : يا أستاذُ ! أين البعثُ من ضعفِ يقيني
وأنا أجْهَلُ ما أجهلُ من أسرار ديني
قال : ما أنت وهذا   ابْعَثِ النَّفس بذاتك
ثم سلْ نفسك ماذا   إنَّها دربُ حياتك
قال : يا أستاذُ ! إنَّ الذات تمضي في السَّماء
تحملُ الظُّلمة والنُّور على حدٍّ سواء

مع هذا غابَ عنها ... ما يجلِّيه الفِراقُ
هي مِنْ فَقْدِ التَّجلِّي ... في جحيمٍ لا يُطاقُ
في ازدهارٍ وانهيارٍ ... شأن أربابِ الوصول
هي مما افترسَتْه ... في جراحٍ لا تزول
قال رومي : ليس إلا الحبُّ أهلاً للعراكِ
لكنِ الموضوع (منْ يوقعه بين الشِّباكِ)
قال : يا أستاذُ ! قلْ لي ... هل لهذا الشَّعب حَرْقُك
أنت للإسلام شمسٌ ... في ضمير الكون شرقُك
قال رومي : كلُّ حَبٍّ ... يرغبُ العُصفورُ نَقْرَهْ
لا تكنْ بُرْعمَ وردٍ ... تقصفُ الأطفالُ ظهرَهْ
كنْ على حبِّك فخّاً ... يمنعُ الحائم طولَهْ
واستُرِ البُرْعُمَ واضْرِب ... قصباً نفسَك حولَهْ
قال : يا أستاذُ ! ما الحربُ الَّتي تملأُ جنبَكْ
أنا ما جئتكَ إلا ... قلتَ لي قلبَك قلبَكْ
هو ذا قلبي بِصَدْري ... وأنا حِلْفُ طريقي
بين كدٍّ وخمولٍ ... مِلْءَ مرآتي بريقي
قال : يا إقبالُ لَسْنا ... أهلُ فقهٍ وأصولْ
أنا لي مثلُك قلبٌ ... وكما أنت تقولْ
إنَّما القَلْبُ سماءٌ ... عرشُه في مستواها
وله ربٌّ حواه ... ولها ربٌّ حواها
ما لملك القلبِ يا إقبالُ دربٌ تسلكُهْ
مُنتهى الحكمةِ أنْ تبحثَ عمَّن يَمْلِكُه
قال : يا أستاذُ ! فكري ... للسَّموات دليل
وأنا في الأرض هذي ... خائرُ العَزْمِ ذليل
لِمَ نسترشد بالمُصْلِحِ لا يُصْلِحُ أهلَهْ ؟

ولِمَـــا العـــارفُ بـــالـــدِّيـــن بغيـــرِ الـــدِّيـــن أبلـــهْ
قـــال رومـــي بعـــدمـــا استـــرســـل فـــي الكـــون الكبيـــرْ :
فـــي سمـــاءِ الله يســـري مَـــنْ علـــى الأرض يسيـــر
قـــال : يـــا أستـــاذ ! لا أبْصِـــرُ فـــي الـــدَّرْبِ منـــارا
أيـــن مَـــنْ يَقْـــدَحُ للحكمـــة فـــي صـــدريَ نـــارا
قـــال : يـــوري العلـــمَ نـــاراً يـــابـــسُ الخبـــز الحـــلالْ
والـــذي يـــأكـــل كـــدَّ النَّـــاس يُفْنيـــه الضَّـــلالْ
قـــال : يـــا أستـــاذ ! إنَّ العصـــر يستـــدعـــي النِّـــزالْ
ولهيـــبَ الشِّعـــر يخبـــو وقـــدُهُ دون اعتـــزالْ
قـــال : يـــا إقبـــال ! لسنـــا نَقْصِـــدُ العـــزلـــة قصـــدا
عنـــدمـــا الأحبـــاب تـــأتـــي تُصْبِـــح الخِلْطَـــةُ شهْـــدا
بـــدِّدِ العُـــزلـــةَ واذهـــبْ مـــن قطيـــعٍ لِقَطيـــع
تشتـــري النـــاسُ فـــراءً ليـــس مـــن أجـــلِ الـــربيـــع
قـــال : أيـــن الهنـــدُ ضـــاعـــتْ لا لهيـــبٌ لا ضيـــاءْ
ورجـــالُ القَلْـــبِ فيهـــا تُعَســـاءُ أشقيـــاءْ
قـــال : يـــا إقبـــال ! هـــذي النـــاس لا تعـــرفُ روحـــا
أجْـــلِ الـــدمعـــةَ هـــذي وكفـــى اليـــومَ جـــروحـــا
يَلْفـــظُ الحـــقُّ بعيـــداً جَسَـــداً مـــا فيـــه قلـــبُ
إنَّ ربَّ النَّـــاس حـــيٌّ وهـــو لـــلأحيـــاء ربُّ
كـــلُّ مـــا فـــي الشِّعـــر هـــذا مـــنْ صُـــراخٍ وصيـــاح
ليـــس مـــا يُـــذهـــشُ أنْ يـــذهـــبَ أدراجَ الـــرِّيـــاح

* * *

جبريلُ والشَّيطان

التقى سيِّدُنا جبريلُ إبليسَ الرَّجيم
قال : ما شاهدتَ قل لي أيها الخلُّ القديم ؟!
ما جرى في عالم الألوانِ والعِطْرِ الجديدْ
قال : شوقٌ وطموحٌ وبكاءٌ ونشيدْ
قال : ما زالَ حديثُ القوم في الحضرة خلقُك
أولا يُمكن أن يُرْقَعَ في الجلبابِ خرْقُك
قال : هيهاتَ ولكنْ لَسْتَ تدري ما أسرُّ
هو في الظاهر يُشْقِي وهو في الحقِّ يَسُرُّ
قَدَحُ السرِّ الذي أسْكَرني منه تكسَّرْ
ورجوعي للأعالي بعد سُكْري يتعسَّرْ
أنا حتَّى لا أطيقُ العَيْشَ في تلك الأعالي
أنتَ للرَّحمة حالٌ وأنا اللَّعنةُ حالي
ذلك العالم ما معناهُ من غير أوابدْ ؟
إنَّه الموتُ الذي تَعْرِف لولا ما أكابدْ
فإذا كنتُ حياةً بقنوطي للوجود
أترى الواجبَ أبقى في قُنوطي أمْ أعود
قال : لكنْ عندما استنكفتَ كِبْراً أن تطيعَهْ
نالك العارُ ونال الملأَ الأعلى جميعَه
صارَ شُغْلَ الملأ الأعلى أمام الله خوفَهْ
يَهْدرُ الذُّعْرُ عليه تملأ الرِّعدةُ جوفَه
قال : يا جبريل لكنْ جرأتي سرُّ البقاء
وهبتْ للحمأ المسنون شوقاً للنَّماء

أنت في الشاطىء ترنو لِصِراعاتِ المواقف
أنا أم أنت الذي تَضْفَعُه تلكَ العواصف
عندما تَعْصِفُ ريحي لُجَجَ البحر الجليلَةْ
لا يرى إلياس والخضرُ من الواقع حيله
فإذا أمكن يوماً تسألُ الله تعالى
فأنا أرجوك أن تسألَه هذا السؤالا
دمُ منْ ذاك الذي خضَّبَ تاريخ ابن آدمْ[1]
دَمُ منْ هذا (دمي أم دمُه أم دمُ آدم)
صاغني الله تعالى شوكةً تجرحُ قلبه
أنت لا تُتقِن إلا النَّفْيَ والإثباتَ قربَهْ

* * *

قطعة

بالأمسِ أوصى مُرْشدٌ أصحابَه بوصيةٍ سبحان ربِّكِ منْ وَهَبْ
أغلى وأثمنُ من بحور لآلىء يا ليتَها كُتبتْ بماء منْ ذهبْ
في خمرِ أوروبة لشعبٍ كاملٍ سُمٌّ يُسَمِّمُ ذاتَه وإرادتَهْ
تفني بنيه بالتسكُّع خلفها تمحو مواهبَه تُبيدُ كرامتَهْ

* * *

---

(١) يبدو أن إقبالاً يريد أن يقول : إن ما نفخه الله تعالى في آدم من روحه هو ما في دماء ابن آدم من حنين إلى الخير والشيطان بشوكته الشريرة يسيل تلك الدماء لتسقي نبتة الأرض ، ومن باب آخر يحاول إقبال أن يدافع عن المعتقدات الغيبية في التصور الإسلامي ؛ خاصة وجود الشيطان الذي يجري في الناس مجرى الدم كما في الحديث .

الأذان

قـــال نجـــمُ الصُّبـــح لـــلأفـــلاك يـــومـــاً لاحِيـــا
أحـــدٌ منكـــم رأى آدمَ يـــومـــاً صـــاحيـــا
سخَّـــر المـــريـــخَ ممَّـــا قـــالـــه نجـــمُ الصَّبـــاحِ
قـــال : هـــل ينفـــع شيئـــاً صـــاحيـــاً أو غيـــر صـــاحِ
تـــدركُ الأقـــدار مـــا تفعـــلُ فـــي هـــذا الظَّـــلامْ
وأرى الخيـــر لـــداومتـــه فـــي أنْ تنـــامْ
قـــالـــت الـــزَّهـــرة : أفٍّ غيِّـــروا المـــوضـــوع هـــذا
تُنْفِـــقُ الليلـــةَ فـــي البـــاطـــلِ واللغـــو لمـــاذا
فيـــم نهتـــمُّ لهـــذي الـــذَّرَّةِ العميـــاءِ قـــولـــوا
فـــأجـــاب البـــدر هـــذا النجـــم فـــي الأرض يصـــولُ
نحـــنُ فـــي الظُّلمـــة نبـــدو وهـــو يبـــدو فـــي النَّهـــار
روحُـــه ســـرُّ الليـــالـــي قلبُـــه قَطْـــبُ المـــدار
وهـــو لـــو أدرك معنـــى سهـــرِ الليـــل وذاقَـــه
جـــاز أطبـــاق الثُّـــريـــا وأرى الله طبـــاقَـــه
إنَّـــه فـــي صَـــدْرِه يستـــر نـــوراً بـــاهـــرا
وهـــو أطلقـــه لـــم يبـــقِ نجمـــاً ســـاهـــرا
فعـــلا صـــوتُ أذانٍ بينمـــا هُـــمْ فـــي جِـــدال
يـــا لهـــا صـــرخـــةُ وعـــظٍ صـــدَّعْـــتُ قلـــبَ الجبـــال

* * *

قطعة

رُغْـــمَ مـــا يـــوجـــد فـــي رِكَّـــة شعـــري مـــنْ عُيـــوب

ربمـــا تبلـــغ يـــومـــاً كلمـــاتـــي للقلـــوب
مـــا علـــى الشّـــارع لـــومٌ كيفمـــا قـــال وعبَّـــر
أنـــا يُغْنينـــي عـــن الشعـــر نـــداءُ (اللهُ أكبـــر)
أنـــا تغنينـــي إذا أخفقـــتُ فـــي كَشْـــفِ النَّـــوايـــا[1]
صلـــواتٌ وتـــراتيـــلٌ بهـــاتيـــكَ الـــزَّوايـــا
مَعْشـــرُ الجـــانـــب هـــذا دينُهـــم لا يستطـــاعُ
عـــرفـــوا النَّفـــس ولمـــا نظـــروا فـــي اللهِ ضـــاعـــوا
وعبـــادُ الجـــانـــب الآخـــر عُمَّـــالُ منـــاجـــمْ
هـــم عـــن الـــلاَّهـــوت أغـــرابٌ وفـــي البَحْـــثِ أعـــاجـــمْ

* * *

الحب

مَـــنْ شهيـــدُ الحـــبِّ الـــذي زعمـــوهُ ابحثـــوا عنـــه فـــي جميـــع الفِجَـــاج
سِمَـــةُ العِشْـــقِ لا تُتَـــاحُ لشعـــبِ دونَ شعـــبِ ولا تُبـــاحُ لـــراجـــي
فـــي هيـــاجِ الفـــؤاد للحـــبِّ ســـرٌّ كهيـــاجِ الفَـــراش حـــولَ السِّـــراج
إنَّمـــا الغـــزنـــويُّ صنـــوُ إيـــازٍ إنْ يكـــنْ قلبُـــه بغيـــر هيـــاج
روَّجَ الحـــبُّ ســـوقَ كـــلِّ حكيـــمِ حـــاك آراءَه بـــه للـــرَّواج
هـــي لـــولا تـــدخُّـــلُ الحـــبِّ فيهـــا لعبـــةٌ مـــن لآلـــىءِ مـــنْ زُجـــاجِ
رجـــلُ الحـــبِّ لا يَـــذِلُّ لشـــيءِ مستقـــلُّ الفـــؤاد حـــرُّ المـــزاجِ
ليـــس يحتـــاجُ أو يخـــافُ مليكـــاً إنَّمـــا الخـــوف مظهـــرُ الاحتيـــاجِ
تـــاجُ إسكنـــدر الشَّهيـــر متـــاعٌ وأنـــا الفَقْـــرُ والتـــدروشُ تـــاجـــي
أنـــا أبنـــي الـــرِّجـــال بـــالفقـــر هـــذا وهـــو يبنـــي مـــدينـــةً مِـــنْ زُجـــاجِ

* * *

---

(١) يقارن إقبال بين الإسلام والمسيحية .

رسالة نجم

بَعَثَ النَّجْمُ لي يقول : محالٌ أن يعيق الظلامُ شُعْلَةَ ذاتي
أنتَ مثلي مسافرٌ ذو لهيبٍ فأنِرْ باللَّهيب ليلَ الحياةِ

* * *

إلى جاويد(١)

لتكنْ لِقَلْبِكَ يا بنيَّ مكانةٌ في موطن الحبِّ البعيد النائي
كُنْ في أماسيه وفي أسمارِه نَغَماً يُجدِّد حرقة النُّدماءِ
وعي الفؤاد حقيقة الدُّنيا فإن وَهَبَتْك إيَّاه يدُ الرَّحمنِ
أخرَجتَ من صَدْرِ الورود حديثها ونزعتَ صمتَ شقائقِ النُّعمانِ
إيَّاكَ يوماً أن تدينَ لصانعٍ في ليلِ أوربة يَصُوغُ زُجاجا
صُغْ من ترابِ الهند كاسكَ وافتخرْ وارفعْ بلادك فوقَ رأسك تاجا
أبنيَّ عرجونٌ بداليةِ (أنا) أبياتُ شعري هذه أعنابي
من هذه الأعناب أعصرُ خمرةً حمراء تُلْهبُ بالحياة شبابي
أنا عيشة الأمراء لم آبه لها أنا عِشْتُ درويشاً مع الفقراء
فادْخُلْ سجلَّ الفقر باسمك إنَّه فخرُ النَّبيِّ وسيِّدُ الأسماء

* * *

الدينُ والفلسفة

محلُّ الدِّين من يد فيلسوفٍ محلُّ الشَّمس من كَبِدِ السَّماء

---

(١) قدم إقبال هذه القصيدة بقوله : « جواب أول رسالة تلقيتها منه وكتبها بخط يده وأرسلها إلى لندن » .

لـه فـي كـل يـوم وهـمُ بحـثٍ يكـونُ مـن الصَّبـاح إلـى المسـاء
أنـا فـي ظـلٍّ بيتـي أم غـريـبٌ وهـل سفـري بعيـدٌ أم قـريـب؟
قـد استـوحشـتُ مـن جبـلٍ ووادٍ فـأيـنَ تـراه يستتـر الحبيـبُ
أضعتُ على رسومِ القوم عُمْري أفتِّـشُ عـن بصيـرٍ بـالـرُّسـومِ
تعجَّب جئت من أين (ابن سينا) وساءلني ستذهب أين (رومي)
أرافـقُ فـي طـريقـي كـلَّ سـارٍ وأُعْطيـه نصيبـاً مـن طـريقـي[1]
ولـم أرَ فـي طـريقـي مستعـدّاً يكـونُ إلـى نهـايتـه رفيقـي

* * *

رسالة من أوربة

الاعتصـامُ بحبـلِ الحـسِّ ضيَّعنـا في الليل من بحثنا عن شاطىء البصر
وَلِلْبَصيـرة بحـرٌ عـاصـفٌ حظيـت مـن قعـره غطسـةُ الـروميّ بـالـدُّرَرِ
أنـا لقـافلـةِ الـرُّومـيّ متَّبـعٌ وهـل لقـافلـة الـروميّ مـن أثـر
هَـبْ عصـرنـا مثنـويّـاً آخـراً فلقـد جـارت رسـالـةُ أوربـة علـى البَشـر
طـريـقُ حُـرِّيـةِ الأحـرارِ مُظْلمـةٌ تضيئهـا شعلـةُ الـروميّ بـالشَّـرَر

* * *

(١) شاهدٌ دخله بعض التحوير من شعر غالب الشاعر الأردوني الكبير في القرن التاسع عشر ، وله دواوين رائعة باللغة الأردوية والفارسية ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثالث .

جواب

على ابنِ آدمَ أن يرعى العُلى أنِفَاً كظبي (خوتان)[1] يرعى نبتةَ الجودي

ولا يجوزُ له بلْ لا يليقُ به أكلُ الشَّعير ورعي العشب والعُودِ

هُمْ يُضحُون بالمُقْتاتِ من كلأٍ ويَخْضَعُون لمن ناواهُمُ الشَّانا

ومن تخلَّق بالقرآن مجَّدَهُ وأصبَحَتْ نفسُه للنَّاس قرآنا

* * *

على قبر نابليون

التَّوْقُ للفِعْل سيفُ الخالدين به تشقُّ في جُبَّة الأسرار أقدار

وقبل مولد نابليون خاضَ به إسكندرُ الأرضَ أمصاراً فأمصار

جبال (آلوند) هدَّتها حماستُه وأطلقَتْ سيلُ تيمورلنك تيارا

تصير صرخةُ أهل الله صَرْخَتَه إذا أصرَّت على الإيمان إصرارا

والتَّوْقُ لحظته لا تستمرُّ فإنْ لم تغتنمْ نَيْلَه في وقته غارا

وقام يثأر ليلُ القَبْر منك له لا يستقرُّ إلى أن يأخذ الثَّارا

(مسيرنا نحو وادِ الصَّمْت لذَّتُه أنْ تملأَ القُبَّةَ الزرقاء آثارا)[2]

* * *

---

(١) خوتان : بلدة كانت تحت حكم التتر المسلمين ، تنسب إليها ظباء المسك .

(٢) شاهد من شعر حافظ الشيرازي وقد أورده إقبال بالفارسية .

موسوليني[1]

نشاطٌ جديدٌ وفكرٌ جديد ... يثيرُهما أَمَلُ الثّائرِ
صَبَا شعبُه أن يردَّ الصِّبا ... إلى مجدِ أمَّتِه الغابرِ
نشاطٌ جديدٌ وفكرٌ جديد ... وهذان معجزةُ القادر
يصوغان من حجرٍ لؤلؤاً ... وتاجاً لحاضره الزّاهر
تأمَّلت روما وقد جددتْ ... بتجديدها حيرةَ الناظر
فقلتُ : أيا ربِّ ماذا أرى ... وهذا الهُدى خطأٌ أم صوابْ
حياة تُقرُّ عيونَ الشُّيوخ ... وتذكي الطُّموحَ بصدرِ الشَّباب
فيا للتَّجلِّي الذي هاهنا ... ويا للحماسةِ ماذا تُذِيع
وهل تستطيعُ رؤوس الزُّهور أنْ تتوارى بفصلِ الرَّبيع
سماؤك يا نغمةَ الثَّائرينَ ... تهزُّ أغانيك أقطارَها
وروحُك تنتظرُ العازفين ... فَمَنْ سيهيِّجُ أوتارَها

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
نظم إقبال هذه القصيدة حوالي عام ١٩٣١م حين زار موسوليني بعد عودته من لندن وانفضاض مؤتمر المائدة المستديرة الذي دعت إليه الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند ، ويبدو أنه نظمها قبل استيلاء هتلر على السلطة .
وفي قصيدة تالية يقارن إقبال بين عمل موسوليني وبين أعمال السياسيين الإنكليز بهذه العبارات :
بحجة نشر الحضارة سوَّغتم أمس تلك المذابح الجماعية والمجازر كما يسوغها اليوم موسوليني .
وعن غزو الحبشة دان إقبال مرة أخرى رئيس الحكومة الإيطالي وكتب قصيدة عنوانها : (جثة الحبشة) مايلي :
وأسفا مرآة شرف الكنيسة حطمتها روما إلى ألف كسرة أيها الحبر الأعظم ، ياله من حادث مروع (الأصل) وانظر فيما يتعلّق بغضب إقبال على موسوليني مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص٧٤ ـ ٧٥ .

ومَنْ ذا الَّـذي صـاغَ هـذا الجمـال وبـارك بـالحـبِّ تِلـك النُّفـوس
هـو الحـرُّ ذو النَّظـراتِ الَّتـي بهـا تَقْتَـدي نظـراتُ الشُّمـوس

* * *

سؤال

قـال درويـشٌ أبـيٌّ يسـألُ الله تعـالـى
أنـا لا أشكـو إليـك الفقـرَ والعيـشَ المحـالا
لكـن اللهـمَّ قـلْ لـي أنـتَ أرسلـت المـلائـك ؟
ليقيمـوا سلطـةَ الأوغـاد فـي ظـلٍّ سمـائـك

* * *

إلى فلاح البنجاب

أيُّهـا الفـلاحُ مـا سـرُّ الحيـاة ؟ مـا الَّـذي يكتُمـه هـذا المـدار
أنـت فيهـا منـذُ آلاف السنيـن خَلْـفَ محـراثٍ يُغَطِّيـكَ الغُبـار
خمـدتْ نـارُك فـي الطِّيـن الَّـذي علقـتْ أكـوامُـه فـي نَعْلِكَـا
قـلْ لِمَـنْ أذَّن فـي هـذا الصَّبـاح أرنـي اللهَ الـذي فـي فعلكَـا
لـم يقـلْ للنَّـاس حـيَّ للفـلاح إنَّمـا حـيَّ علـى الفـلاَّح قـالْ
هـو يـدعـوهـم إلـى مـأدبـةٍ أنـتَ أرسلـتَ لهـا كـلَّ السُّـلالْ
كيـف تـرضـى أن يكـونـوا هكـذا وهُـمُ مِثْلُـكَ مـنْ حمـأةٍ طيـنْ
إنَّ نَبْـعَ الخضـر لا يبلغُـه وجِـلٌ مـن ظلمـاتِ المعتـديـن
ليـس يُجـدي الهَـمُّ فـي شـيءٍ إذا لـم تَضَـعْ ذاتَـك تحـتَ التَّجـرِبَـهْ
حطِّـم الأصنـامَ يـومـاً واحـداً لا تخـفْ معبـدَهـا أنْ تخـربَـهْ
حطِّـم الأوثـان أوثـانَ العـروق واهـدمِ الأصنـامَ أصنـامَ القبـائـلْ

وانـــضُ أغـــلالَ التقـــاليـــد التـــي　　تتعنَّـى خلفهــا مــن غيــرِ طــائــل
لا تقـلْ أنشـدُ فـي الـدِّيـن الخـلاص　　وامنـــحِ الكهَّـــانَ روحـــانيتَــــهْ
إنَّ ديـــنَ الله فـــي الـــدِّيـــن الـــذي　　يهـــبُ الإنســـانَ وحـــدانيتَـــهْ
احْفَـــظِ القلـــبَ الـــذي تحملُـــه　　لا تـــدَعْـــه تحـــتَ أقـــدامِ العبـــاد
الَّـــذي يـــزرعُـــه فـــي صَـــدْرِهِ　　يجـــدُ المتعـــة أيـــامَ الحصـــاد

* * *

نادر شاه ملك الأفغان

فـــي حضـــور الحـــقِّ كـــان الحَـــدَثُ الفـــردُ الكبيـــر
غيمـــةٌ تحمـــلُ فـــي أعمـــاقهـــا روحَ الـــزُّهـــور
رأتِ الفـــردوسَ فـــي الـــدَّرب فقـــالـــتْ للسَّمـــاء[١]
آهِ مـــا أجمـــلَ هـــذا　　هـــاهنـــا نلقـــي الـــدِّلاء
فـــأجـــابتهـــا وقـــالـــت　　نتـــرك الهِنْـــد لقـــابـــل
أدركـــي عشبـــاً جـــديـــداً　　ظمئـــاً فـــي أرضِ كـــابـــل
وعســـى نـــادرُ يـــأتـــي　　ليـــرى هـــذي الحقـــائـــق
علَّـــه يَغْســـلُ بـــالـــدَّمـــع جـــراحـــاتِ الشَّقـــائـــق[٢]

* * *

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « ربما كانت الهند التي مرَّ بها نادر شاه قادماً من باريس إلى إيران لمحاربة (بجه سقا) الّذي خلع أمان الله خان عن عرشه ، هي المقصودة بهذا الفردوس ، وهم يرددون (الهند جنة نيشان) يعني إنَّ الهند تشبه الفردوس كما يقولون عن روما : إنها المدينة الخالدة » .

(٢) جراح شقائق النُّعمان هي آلام الأفغان .

حلمٌ تَتَرِيّ[1]

كــلُّ شــيء حــولنــا يَسْلُبنــا مجدَنـا حتى سَجاجيدُ الصَّلاة[2]

أنــا لا أستــاء أن تَــزْمُقَنــا شـــزراً أعيـــنُ أولادِ الطغـــاةْ

بَلِيَـــتْ أثـــوابُنـــا أجمعُهـــا جبَّــةُ الشيــخِ وجلبــابُ الأميــر

مــا الَّــذي أفْعَلُــه فــي وحــدتــي مــا الَّــذي يفعـل إيمــانــي الكسيـر

* * *

وصية « خوش حال خان »[3]

يــا أمــة الأفغــان شــدُّوا بعضَكــم بعضــاً وكــونــوا ســادةَ الأفغــانِ

مــا شــاهَــدَتْ عينــاي أجمــلَ منظـراً كجمـــال صيَّـــاديكُـــمُ الفتيـــانِ

يـرمـون فـي بحـر السَّمـاء شِبـاكَهـم (صيدُ النُّجوم رياضةُ الشُّجعان)

أطفــالٌ كــوهستــان وعــدٌ مفعــمٌ متــواثــبٌ فــي قلــبِ كــوهستــان

ليســوا أقــلَّ مــن المغــول شجــاعــةً ليســوا بــأدنــى منهــمُ فــي شــانِ

أنا (خوش حال) أحبُّ قبراً إن أمتْ فـــوق الجبـــالِ ممـــرَّدَ البُنيـــان

لا رِيـــحَ تصفعُـــه بنقـــعِ خـــامـــلٍ مـــرَّت عليـــه خيـــول مغلستـــان

مـــا تبقَّـــى غيـــرُ جمـــرٍ هـــامـــدٍ يتخفَّـــى تحـــتَ أكـــوامِ الـــرمـــادْ

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملُّوحي النثرية : « إذا كان إقبال يؤيد ثورة « خوش حال خان » فليس من الغريب أن يؤيِّد تطلعات التتر في تركستان إلى الاستقلال » .

(٢) في ترجمة الأستاذ الملُّوحي النثرية : « يعني أن الأتقياء ينبهوننا » .

(٣) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
من المهم أن نذكر أنَّ إقبالاً رغم نزعته للجامعة الإسلامية يمدح ثائراً على الإمبراطورية المغولية في عهد (أورنك زيب) وإقبال لا يريد فرض الوحدة من الخارج ولكنه يريد وحدة عفوية تنبثق من الداخل .

أيُّ ريحٍ فوقه لو عَصَفَتْ ... جَعَلَتْ منه حديثاً للعِبَادْ
غطَّت الرِّيحُ بُخارى كلَّها ... وسمرقندَ بليلٍ قاتم
(وتَطَلَّعْتُ لنفسي فإذا ... أنا فصٌّ ماله من خاتم)[1]
بينما أندُبُ حظِّي فجأةً ... زلزلتْ أرضَ سمرقندَ السَّماء
وإذا مرقد تيمورلنك قد ... بدَّدَ اللَّيلَ بسيفٍ منْ ضياء
كان نوراً أبيضاً في صُفْرةٍ ... كضياءِ الشَّمس منْ قَبْلِ الأُفول
قال لي : يا أيُّها الباكي أنا ... روحُ تيمورلنك فاسْمَعْ ما أقول
إنَّ باب الله مفتوحٌ وإن ... سُدَّتِ الأيامُ أبواب التترْ
أنْتَ من أبناء طوران وإن ... فرَّقَتْ أبناءُ طورانَ البشرْ
فهبِ الذَّاتَ لهيباً آخراً ... وبريقاً ثانياً من مقلتِكْ
أنا حطَّمْتُ بهذين الجيوشَ ... لِمَ لا تَخْلُفني في أمَّتكْ

* * *

الحالةُ النَّفسية والظَّرف

الرَّأيُ بعد شجاعة الشجعان ... هي أولٌ وهو المحلُّ الثَّاني
إنْ كنتَ يقظاناً فأنْتَ مظفَّرٌ ... والحالُ خيرُ ذخائرِ الإنسان
كلُّ الحياة على اختلافِ ظُروفها ... ظلٌّ تؤلفه ظروفُ الحال
في كلِّ وقتٍ للمسافر جِدَّةٌ ... ومنازِلُ القَلْبِ المقيم خوالِ
كلماتُنا مع أنَّها لم تَخْتَلِفْ ... لا في معانيها ولا في لَفْظِها
في سَجْدَةِ الجنديِّ نلمح غبطةً ... ليست كسَجْدةِ ناسكٍ في وعظها
هو مسلمٌ لكن وهذا مسلمٌ ... ما زاد عن قرآنِهِ قرانُه
للنِّسْرِ كالشَّاهين جوٌّ واحدٌ ... لكنْ لكلٍّ منهما طيرانُهُ

---

(١) تعليق إقبال : بيتٌ لشاعر مجهول ربَّما أورده الطوسي في شرح الإشارات .

أبو العلاء المعري

يقال : إنَّ المعرِّيّ لم يكن أبداً ليأكل اللَّحم لا يلوي على دينِ
يقـالُ : كـان نبـاتيـاً بمـذهبـه وليـس يقتـاتُ إلا مـن يـدِ الطيـن
شـوى لـه مـرةً مستهـزىءٌ حَجَـلاً يـريـد يلقـاهُ فيمـا اختـار مُـرْتَبِكـا
لكـنَّ شيـخَ اللُّـزوميَّـات حيـن رأى شنـاعـة السيخ ألقـى فـوقـه وبكـى
وقال : يا أيُّها المسكينُ ما اقترفَتْ يـداك حتَّـى دَخَلْـتَ النَّـار بـالسِّيـخِ
لو كنتَ بازاً لأعطَوك الدَّجاج فِدًى ومـا لجـأتَ إلـى شَجْبـي وتـوبيخـي
لـم تُلْـقِ بـالـكَ لـلأديـان إذْ وَعَظَـتْ وللطبيعــةِ إذْ قــالــت لطــالبهــا
اللهُ سخَّــر لــلأقــوى خــلائقَــه وقــدَّر المـوت للمستضعفيـن بهـا

* * *

سينما

أيعــودُ آزرُ مــرةً أخــرى ويـذيـعُ فـي السينمـا معـانيـه
أصنـامُهـا فـي صَـدْرِ صـالتهـا عـادت لـه بِـرَواجِ مـاضيـه
مـا كـان يُنْحـتُ قبـلُ مـن صنـم جـاءت تُـريـدُ تبيعُـه فينـا
صـاغـت لنـا الـدُّنيـا لنعبـدَهـا وثنـاً وصـاغَ لِعَصْـرِهِ الـدِّينـا
مـا كـان فنَّـاً فنُّـه أبـداً مـا كـان غيـرَ طقـوسِ أوثـانِ
فتفحَّـصِ السِّينمـا الَّتـي ظَهَـرَتْ هـي فـي الحقيقـةِ ثـوبُـه الثَّـانـي
هـو صـاغ أصنـامـاً لعـالمـه مـا صـاغَ مـن طيـنٍ وفخَّـارِ
وتصـوغُ صـالتُهـا لعـالمنـا أصنـامَهـا مـن مـارجِ النَّـارِ
مـا فـي زوايـا المعبـدَيْـنِ سِـوى هـذا الـرَّمـادِ وذلـكَ الطِّيـنِ
إنْ لـم يـلِ التَّـوحيـدُ أمـرَهمـا لـمْ يتـركـا شـرفـاً لمِسْكِيـنِ

* * *

إلى جماعة « بيرزاده »[1] في البنجاب

جزتُ البلاد إلى ضريحِ مجددٍ[2] ووقفتُ ليلي نادباً ونهاري
وعلى التُّرابِ من الضَّريح تألُّقٌ غبْطَتُه في قَصْرِ السَّماء جواري
لا غروَ للأسرارِ تَلْمعُ هاهنا فهاهنا توارى صاحبُ الأسرار
من ردَّ جاهنكير عن يده وما ذلَّتْ عمامتُه لوصمةِ عارِ
هذا المكانُ من الوجود ضريحُه وهنا يقيمُ معلِّمُ الأحرارِ
الهندُ تعرف أرضُها وسماؤُها كيفَ افتداها من جحيمِ النارِ
هو أحمدُ المختار لِلْمِحَنِ الَّتي نالتْ شريعةَ أحمدَ المختارِ
لما وقفتُ على ضريح مُجَدِّدٍ دار الحديثُ عن الزَّمان الدائرِ
فشكوتُ دروشةَ الزَّمان له وما ألقاه من شوقي وعزمي الخائرِ
فأجاب : طرفُك ليس يبصرُ قلتُ : لا هو مبصرٌ لكنْ بِغَيْرِ نفوذِ
من أين ألتمس البصائر إنَّني أصبحت في عينيَّ كالمنبوذِ
فأجابني ذَهَبَ الذين عرفتَهم لم يبقَ سرٌّ في دَمِ البنجاب
لا تكتَرِثْ منهم بصاحبِ شطحةٍ مجنونةٍ ولو ارتدى جلبابي
أرني قلنسوةً لِدَرْويشٍ لهم لم ترضَ قنزعةَ العمامةِ جارا
ذهبوا مع الفقهاءِ خلف ملوكهم لم يتركوا لذوي القلوبِ منارا

***

سياسة

تقضي السياسةُ أن نُحدِّدَ أولًا أدوارنا في لعبة التِّيجانِ

---

(١) بيرزاده : تعني عضواً في طريقة رئيس جماعة روحية ومؤسسو هذه الطريقة كانوا دراويش أتقياء ، ولكن أولادهم انقلبوا إلى المادِّيِّين .

(٢) يريد به إقبال مجدِّد الألف الثاني الشيخ السَّرهندي .

لا الشاه أنت بها ولا أنا بيدقٌ هذا اختيارُ اللاّعبِ الشَّيطانِ
إنَّ البيادق إنْ أعاقت نفسها دلَّتْ على شاهٍ بلا سُلطانِ

* * *

التَّجَرُّد

ليس التَّجَرُّد أن تقيمَ على الطَّوَى وقواكَ خائرةٌ وبيتُك مُعْدَمُ
فَمِنَ التَّجَرُّدِ ما يطيحُ بأهله ومِنَ التَّجَرُّدِ ما يعزُّ ويكرمُ
أنا لم أجد عند الملوك تجرُّداً أحلى وأجدى مِنْهُ في شابور
شابورُ في صنع الإمارةِ مسلمٌ فتعلَّموا الإسلامَ من شابور

* * *

الذَّات

لا تَرْضَيَنْ فضةً بالذَّاتِ أو ذهبا ولا تبغ بِشَرارِ ذلكِ اللَّهبا
إليك ما قال (فردوسي) الذي كشفتْ للفُرس أقوالُه الأستارَ والحُجُبا
(المالُ يوجدُ حتَّى حينَ تَفْقِدُه فلا تكنْ وَقِحاً إنْ رمتَه طلبا)[1]

* * *

فراق

النُّورُ حول الشمس يزهو إذ يفارقها صباحا
غَزَلَتْه من ذهبِ الحرير فصار للدّنيا وشاحا
والكونُ مُغْتبطٌ بما جلَبَ الفراقَ من التَّسلِّي

---

(١) شاهد من ديوان الفردوسي بالفارسية .

متـــــرنـــــحٌ فـــــي صمتـــــه نشـــوانُ مـــــن مُتَـــعِ التَّجلِّـــي
هـــــل تعـــــرف الأنهـــــارُ والأفـــــلاكُ أســـــرار التشـــوُّف
هـــــل يـــــرتـــــوونَ مـــــن الفـــــراق ويكتـــــوونَ مـــــن التلهُّـــــف
أنـــــا قسمتـــــي قلـــــقُ الفِـــــراقِ ســـــواه مـــــالـــــي مـــــن مُنـــــىٰ
هـــــو فـــــي الصَّميـــــم مـــــن التُّـــــرابِ ومـــــا التُّـــــرابُ ســـــوى أنـــــا

***

الدَّيـــر

لا العصرُ للقولِ بالألغاز مُحْتملٌ ولا أنـــا أستطيـــع اليـــوم إلغـــازا
مضـــى الَّـــذيـــن إذا قـــالـــوا لميِّتِهـــم قـــمْ ، قـــامَ فيهـــم بـــإذنِ اللهِ واجتـــازا
فما الَّذي بعدهم في الدَّير تفعله جمـــاعـــةٌ بمـــذاقِ الـــدَّيـــر كفَّـــارُ
أخِـــذمـــةٌ لقبـــورِ القـــوم مـــا بَـــرِحـــوا أمْ أنَّهـــم لقبـــورِ القـــومِ حُفَّـــارُ

***

شكوى الشَّيطان

قـــــال إبليـــــسُ الـــــرَّجيـــــمُ يشتكـــــي الله تعـــــالـــــى
مـــــا لِنَجْـــــلِ الطِّيـــــن هـــــذا فـــــوقَ نـــــاري يتعـــــالـــــى
هُـــــوَ ذا آدم بعـــــــــدي هُـــــو ذا كـــــومُ التُّـــــراب
واهـــــنُ الـــــرُّوحِ كبيـــــرُ الكِـــــرْشِ مـــــوفـــــورُ الثِّيـــــابِ
عقلُـــــه فـــــي الأوج لكـــــنْ قلبُـــــه يَلْفِـــــظُ روحَـــــه
مـــــا لقلبـــــي غيـــــركَ اللهـــــمَّ لـــــو تـــــأســـــو جـــــروحـــــه
كلَّمـــــا يجعـــــلُ منـــــه الشـــــرق معيـــــارَ النَّجـــــاسَـــــة
لا تبـــــالـــــي حكمـــــاءُ الغـــــرب أنْ تـــــرفـــــعَ راسَـــــه

حورُ فردوسِك تخشى عالم الفِرْدَوْسِ يُقْفِرْ
جئتُك اللهمَّ بالحُجَّة كي ترضى وتغفِرْ
فسَّرَ الغربُ الدِّيمقراطيُّ تَزكي لِسُجودي
لم يعدْ من بعده في الأرض معنىً لوجودي

* * *

دمٌ في الشرايين

لا تَخْشَ نيلَ السُّوء من رجلٍ   إنْ كانَ فيه دمٌ وناموسُ
وارغبْ عن المحروم منْ دمه   فالخيرُ مِنْ كفَّيْهِ ميؤوسُ
رجلٌ يحرِّكُ قلبَه دمُهُ   لا الفَقْرُ يُحْزِنُه ولا الجودُ
إيَّاك منْ لم يَهْدِهِمْ دمُهُمْ   سودُ الدِّماء عقولُهم سود

* * *

الطَّيران

تشكَّتِ التينةُ للعُصفورِ   مِنْ معبدِ الألوان والعُطورِ
قالتْ له : يا أيُّها المغرِّدُ   حتَّى متى يكفرُ هذا المعبَدُ
لو أنَّ لي أجنحةً وعَوْنا   أغْرَقْتُ بالجمالِ هذا الكونا
أجابها العصفورُ في وداعةْ   إجابةً في منتهى البراعةْ
قال لها : أيَّتُها المسكينةْ   كيف تطيرين وأنت تينةْ
قولُك لا يَنِمُّ عن غباءِ   وإنَّما يدعو إلى الرِّثاءِ
أتدَّعينَ الظُّلمَ في عينِ العَدلْ   وأنتِ أحرى من أريتُ بالعَذلْ
الطَّيران سرُّنا المحجوبُ   لا يستطيعُ نيلَه مجذوبُ

* * *

معلم المدرسة

أمامَ روحِ التَّلاميذ الَّتي اختنقت يبنـي المعلِّـم هـذا صـرحَ فخَّـار
الحقُّ ما قال كاغاني[1] وَيَسْحَرُني ما قال من بيت شعرٍ بذَّ أشعاري
(إذا الجـدارُ أمـام الشَّمـس تـرفعُـه فلن ترى نورَها في باحة الدَّار)

* * *

الفيلسوف

يعـرفُ الفيلسـوفُ كيـفَ يطيـرُ وهو في العِلْم غايةٌ في البراعهْ
جسـدٌ فـارغٌ وعِلْـمٌ غـزيـرٌ لـو أضافـوا إليـه روحَ الشَّجـاعـهْ
يَـرْسُـم النَّسـرُ فـي السَّمـاء دوائـر كـالشَّـواهيـنِ والطيـورِ الحـرائـر[2]
لا تغـرَّنَّـكَ المظـاهـر هـذي فهـو يخفـي نقيضهـا فـي السَّـرائـر
هـي تقتـاتُ مـن إوزٍّ وبـطٍّ وهـو يقتـات جيفـةً وفطيسـهْ
أيُّ معنـىً لـه إذا حـرمـوهُ متعـة الانقضـاض فـوق الفـريسَـهْ

* * *

---

(١) كاغاني : هو شاعر فارسي من القرن السابع عشر الميلادي .

(٢) النَّسر : رمزٌ لمتوسطي الشجاعة عند إقبال فهو لا يصل إلى رتبة الشاهين لأنه يأكل من فرائس غيره ، إلا أنَّ قيمته تتجلّى في أنه مهما كان من الغربان على الجيفة فإنها لن تجد غير الانسحاب إذا لمحت قدوم النسر إلى الساحة ، وستقف ترمقه من بعيد مترقبةً ما إذا سيبقي على شيءٍ لها أم لا .

الشَّاهين(١)

جزتُ في الأرض بلدةً بعد أخرى ثـمْ أَلْقَيْـتُ كـلَّ شـيءٍ ورائـي
ذلـكَ العـالـمُ الـذي زعمـوه ليـس يقتـاتُ غيـر حَـبٍّ ومـاءِ
أنـا نَجْـلُ الصَّحـراء والـزُّهـدُ ديني وهمـا فـي سجيَّتـي ودمـائـي
أجْهَـلُ الـزَّهـرَ والنَّسيـم ومـا فـي لـوعـةِ العنـدليـب عنـد المسـاء
ورجـالُ البُستـان تغـري ولكـنْ ليـس تُغْـري منشَّـأً فـي العَـراء
أيـن مجـدي إذا شقيـتُ لجـوعٍ وأذلَّـتْ حمـامـةٌ كبـريـائـي
بـافتـراسـي أصـونُ عـزَّة وجهـي وأروِّي حمـاستـي وإبـائـي
كـلُّ طيـرٍ لـه مـن الأرض عـشٌّ وأنـا هـاهنـا حليـف مضـائـي
كيـف يبنـي قلنـدر الطَّيـر عشـاً وهـو الفَـرْدُ فـي رحـابِ السَّمـاء

***

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
الشاهين : الطَّير المختار عند إقبال لأنه :
١ ـ لا يبني لنفسه عشاً يعني أنه درويش .
٢ ـ يطير إلى الأعالي .
٣ ـ ليس بخيلاً ، ويقنع بالزهيد .
٤ ـ لا يأكل مما يقنصه الآخرون ، يعني أنه يصون كرامته .
وينبغي أن يفهم من البند الرابع أنه رمز للمجتهد الذي يعاف التقليد كما يعاف الشاهين فريسة غيره .

المريدُ الثائر[1]

أنــا فــانــوسـي الــذي أمْلِكُــه ... شمعــةٌ فــي قصعــةٍ مــن خَــزَفِ
إن أقَمْــتُ الليـــل ذابـــتْ وإذا ... هَبَّــتِ الــرِّيــحُ عليهــا تنطفــي
مــا الَّــذي يفعَلُــه سيِّــدنــا ... بــالمصــابيــح الَّتــي حــول المزار
ثــمَّ مــا معنــى مــزارٍ وضــريــح ... وستــــورٍ وعطــــورٍ وجِمَــــار
يــا إلهــي كــمْ لنــا مــن كعبــةٍ ... كــم لنــا مــن صنــمٍ فــي الحــرمِ
وفقــاعــاتِ قبــابٍ فــوقَهــم ... جعلتنــا ضحكــةً لــلأمــم
ليــس مــا يعطــى لهــذي الأوليــاء ... مــن نــذورٍ بــاسمهــم إلَّا رَبَــا
المــرابــي دائمــاً مختبــىءٌ ... وولــيُّ القَــوْم فــي القبــر اختبــا
أتــراهــم سلكــوا كــالأوليــاءْ ... إنَّمــا هــم أوليــاء بــالــوراثــهْ
مــلأ الغــربــانُ أوكــار النُّســور ... خلَّــصَ اللهُ مــن القــومِ تــراثــهْ

***

آخر وصايا هارون

قــال الــرَّشيــد لابنــه يــوصيــه : هــا أنــذا احْتُضِــرْتُ
ستمــرُّ بعــدي أنــت فــي هــذا الطَّــريــق كمــا مــررتُ
أبنــيَّ إنَّ المــوتَ نــورٌ فــي عيــونِ المــؤمنيــن

---

(١) من المهم أن نشير هنا إلى أن قصيدة إقبال هذه لا تتناقض مع وقفة إقبال على ضريح سنائي ومجدِّد وقوله : سيكون ضريحي كعبة الأحرار ، وأمثال ذلك ، فهو لا يريد هنا أن يقرر عقيدةً ما ، ونستطيع أن نفهم مراد إقبال من قصيدته السابقة (الدَّير) .
وفي مناسبة أخرى يقول إقبال : إنَّ الصوفية حين تفسر تفسيراً خاطئاً وتقدم إلى الجماهير غير المتعلمة من خلال الأشعار المحببة ؛ يمكن أن تكون أكثر خطراً من حشود جنكيزخان .

والنُّـــور هـــــذا لا تشـــاهِـــــدُه عيـــونُ الكـــافـــريـــن

* * *

إلى عالمِ نفس

دعْ عنـكَ فكـرَكَ فـالإعصـار جـرَّارُ	وليـس تجـدي ببحـر الـذَّات أفكـارُ
وأيـن أنـتَ بهـذا البحـر مـن جُـزُرٍ	صغيـرةٍ مـا أتـاهـا قـطُّ بحَّـارُ
إن لـم تشـقَّ كمـوسـى ثـوبَ لُجَّتهـا	فحظُّـك الصَّمْـتُ إنْ وافـاك إعصـارُ

* * *

أوربة

مقتبسة عن نيتشة

أشباه (شيلوخ)[1]في المِرْصاد واقفةٌ	مَكْـرُ الثَّعـالـب يَفْـري قـوّةَ الأسَـدِ
لا بـدَّ تسقـطُ أوربـة إذا نَضِجَـتْ	في كيس شيلوخها المجهولِ للأبدِ

* * *

الأسدُ والبغلة

قـالَ للبغلـةِ يـومـاً أسـدٌ	أنـتِ حقـاً لـكِ سـرٌّ مـن أبـوكِ
فـأجـابتـه الا تَعْـرِفُنـي	أنـا خـالـي فَخْـرُ إصطبـل الملـوكِ

* * *

---

(١) كذا في الأصل ويبدو أنه تحريف (شيلون) وستكون الفكرة أشدَّ إغراءً إذا كنا مصيبين في رأينا . انظر مادة شيلون في قاموس الكتاب المقدس .

فكرة حرّة[1]

ألا تـرثـي لعُصفـورٍ ... عـن الطَّيـران قـد مُنعـا
إذا استخفـى وحـاول أنْ ... يطيـرَ لـوَخـدِهِ وقعـا
يحـاولُ أن يكـون ... فـؤادُه بيتـاً لجبـريـلِ
وليـس لـه مـن الطَّيـران ... غيـر القَـال والقيـلِ
هـل العصفـورُ بيـن الشَّـوك ... كـالعصفـور فـي الجنَّـة
بـربـك هـذه حـريَّـةٌ ... فـي الفكـر أم جِنَّـه
فقـل لمفكِّـر حـرٍّ ... أضـلَّ الفكـرُ وجـدانَـه
تعـالـى الله أن يلهـمَ ... مـا يُبْطِـلُ قـرآنـه
وهـل يهـدم مجـدَ الشَّعْـب ... غيـر الفِكْـرَة الحـرَّه
وهـذي الفكـرة البلهـاء ... سيِّـدُهـا (أبـو مـرَّه)

* * *

النِّسرُ والنَّملة

قـالـت النَّملـة للنِّسـر الـذي ... مـرَّ يـومـاً مـا علـى وادي النَّمـلْ
أنـت تـرعـى فـي بسـاتيـن النُّجـوم ... وأنـا فـي شقـوة العيـش المُـذِلْ
قـال : لكـن أنـا لا أبحـث عـن ... مـؤنـي مثلـك فـي هـذا التُّـراب
لسـتُ ألقـي نظـرةً حتَّـى ولا ... للسمـواتِ التـي فـوق السَّحـاب

● ● ●

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
نرى أن الشاعر لا يقصد الفكرة الحرة على الإطلاق وإنما يقصد (فكرة حرة معينة) هي كما ورد في دائرة معارف لاروس مادة LIBRE (الفكرة الحرة هي رأي المفكرين الأحرار . والمفكر الحرّ : هو الذي يفكّر ويتحدث في حريّة في موضوع الدين) .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *



